


**١٩٦٨ ـ ١٩٧٣**

# مذكرات في أربعة أجزاء

**١**

**ترجمة**

**خليل فريجات**

# كلـــمة النـــاشر

ما من مسؤول أو متتبع للشؤون السياسية، الا وتردد على مسمعه اسم الدكتور هنري كيسنجر، الذي عاش الدبلوماسية الأمريكية ولا يزال، فترة من الزمن ومن موقع المسؤولية، وعلى الأخص بين عامي ١٩٦٨. ١٩٧٧، وهذه فترة كانت مسرحاً ساخناً للأحداث السياسية على الصعيد الدولي كادت في حرب تشرين عام ١٩٧٣ تصل إلى مواجهة شاملة بين القوتين العظيمتين. شغل خلالها منصبي مستشار رئيس الجمهورية الأمريكية لشؤون الأمن القومي، ووزير خارجية الولايات المتحدة، وأظهر مهارة ودهاء في فن الدبلوماسية. وما رحلاته المكوكية في أوربة وآسيا إلا خير شاهد عليها.

وتسجيلاً منه لمنجزاته، دوّن مذكرات في جزئين وضعا أولاً بالانكليزية، ثم ترجما إلى الفرنسية، وعنها ترجمت هذه الصفحات إلى العربية في أربعة أجزاء.

و من يمعن الفكر في هذه المذكرات، يجد أنها مصاغة بقالب كاتب ألماني صهيوني، اختار الولايات المتحدة وطناً ثانياً له، وتوصّل بفضل دهائه إلى تولّي المنصبين الرفيعين فيها.

وعلى الرغم من عدم خلّو ما كتب كيسنجر من مغالطات على حساب الحقائق، وانحياز مفضوح الى جانب الباطل الاسرائيلي، فقد بيّن ما لحق بالولايات المتحدة من ذلّ وهوان على الصعيد العالمي، ولا سيما في حرب فييتنام، التي هزمت فيها شرّ هزيمة، كما بيّن ما أصاب الكيان الاسرائيلي من تخلخل و زعازع خلال حرب تشرين سنة ١٩٧٣ بسبب الضربات العربية التي حطمت أسطورة «جيش اسرائيل الذي لا يقهر» واعترف صراحة انه لولا الدعم العسكري الأمريكي الهائل الذي تدفق على اسرائيل بأقصى سرعة من خلال الجسرين الجوي والبحري اللذين أقامتهما الولايات المتحدة خلال تلك الحرب لزالت اسرائيل من الوجود، وأكد في مواضع كثيرة حقيقية أن الولايات المتحدة لن تتخلى عن حليفتها اسرائيل، كما أورد معلومات وذكر أحداثاً يجدر بكل سياسي متتبع وقارئ واع الوقوف عليها، والتمعّن فيها.

ودار طلاس للدراسات والترجمة والنشر التي دأبت على نشر الكتب الثقافية والعلمية والسياسية، رأت تقديم هذه المذكرات الى من يشوقه الاطلاع عليها تاركة للقارئ الكريم الحكم عليها بنفسه.

الناشر

آيار . ١٩٨٥

# المقــدمـــة

لحسن الطالع أو لسوئه، دعيت يوماً للقيام بدور رفيع في إعداد وتسيير السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية، أولاً كمساعد للرئيس نكسون في قضايا الأمن القومي، ثم كوزير خارجة للرئيس نكسون والرئيس فورد.

كتابي هذا عرض للسياسة الخارجية طوال الولاية الأولى الرئاسية لريشارد نكسون، أي منذ استدعائي لوظيفة مستشار في قضايا الأمن القومي بُعيد انتخابات عام ١٩٦٨ حتى نهاية مباحثات فيتنام، التي تصادف بصورة تقريبية تولية نكسون الثانية في كانون الثاني من عام ١٩٧٣.

انه حتماً التاريخ الذي عايشت، ووصف كامل لما شاهدت وفكرت به وأكملت، وبصورة طبيعية ما اخترت وما نقّحت، ولكي يصبح ما أقدم مستنداً كاملاً بالمعنى التاريخي الحقيقي يجب انتظار نشر وثائق أخرى ومذكرات وتراجم، لا تمت كلها لأصل أمريكي.

ان الحقبة التي يغطيها هذا المؤلف كانت مسرحاً لتنازع داخلي واضطراب دولي دخلت فيها الولايات المتحدة اجواء عالم كان نفوذها فيه كبيراً غير أنها لم تكن أقوى من غيرها، فكانت مرحلة مؤلمة، ودون تبجح كما اعتقد جرت فيها مساهمة أمريكية مثمرة لمستقبل العالم الحر.

يبدو لبعضهم أن المواضيع التي يعالجها هذا المؤلف تحتاج للمناقشة، لا سيما حرب فييتنام، إذ هي انعكاس لما يراه البعض أنه غير موضوعي. و ما هو مدون هنا وضع بثقة في سبيل سرد وقائع دون رغبة في تدقيقها. وإذا كنا أمة لا نتمكن من تجاوز حقوقنا، فيجب الاعتراف أن هناك فئات مدركة لهذه الحقيقة من الجانبين.

إني راغب في وضع مؤلف قادم لتغطية الحقبة التي تمتد بين كانون الثاني ١٩٧٣ إلى كانون الثاني ١٩٧٧ التي كنت خلال معظمها وزير خارجية. سيعالج المؤلف الثاني قضايا عدة من جملتها: واترغيت، استقالة ريشارد نيكسون، حرب تشرين الأول ١٩٧٣ في الشرق الأوسط، والسياسة المكوكية التي تلتها، المواضيع الاقتصادية الدولية كالأزمة النفطية، ومباحثات

الشمال والجنوب، وافريقيا الجنوبية، وسقوط سلفادور آلاند، وسياستنا في أمريكا اللاتينية، ووضع اليد الشيوعي على الهند الصينية، ومباحثات سالت الثانية، وتطور علاقاتنا مع الصين، و ولاية جيرالد فورد، والحملة الانتخابية لعام ١٩٧٦ ومواضيع أخرى.

وبشأن بعض المواضيع، سأعود بالطبع إلى أحداث حقبة ١٩٦٩ . ١٩٧٢ التي لم تذكر هنا لأسباب محلية أو منطقية.

من يطلع من القراء على هذا المؤلف الكبير سوف لا يصدق أنه غير كامل لكنه سيتأكد بعد مطالعته أنني ربما أرغب في معالجة مواضيع أخرى في مؤلف لاحق.

حاولت في كتابي هذا المؤلف العودة قليلاً إلى ذاكرتي، واستطعت استعادة كثير من البراهين المكتوبة، وعدت لجزء من هذه المدة إلى صحيفة كنت أديرها.

أريد الإبقاء على نسخة مفسرة من هذا المؤلف، بالاضافة إلى وثائقي الأخرى، تحت تصرف اختصاصيين يتمكنون يوماً من إجراء واكمال ابحاث هذه الحقبة.

كانت إحدى مفارقات هذه المدة في وضع التقارير والآلات الناسخة ، والاعمال المكتبية المتزايدة والتصنيف الإجباري، مما تصبح معه فعلاً كتابة التاريخ مستحيلة .

هناك صعوبة في العثور على وثائق عند دراسة عصور غابرة ، ولكن عند الكتابة عن السياسة العصرية، يجب اجتناب الإكثار من المعلومات المكتوبة.

إذا اجتمعت لدى مؤرخ المعطيات الصحيحة والموضوعية وكانت لديه ملايين الوثائق ذات العلاقة بحقبة ما فإنه لا يتمكن بسهولة من معرفة الموضوع الواجب البدء به. إن الوثائق المكتوبة ذاتها سوف لا تعطيه الإيضاح الكافي المطلوب لأبحاثه، كما أنها سوف لا تجلب له أي منفذ يسمح له بتحديد الوثائق التي تساعده في دفع الحجة، وما هي الوثائق الصحيحة التي بموجبها اتخذت القرارات. وما هي الدواعي الحقيقية للمساهمة في أمر ما. وما هي الوثائق التي طويت في الاحداث السياسية.

قبل عهدنا كانت اتصالات ومعلومات المفاوضين ذاتية ودالة على فكر الرجال السياسيين. أما في عصرنا الحاضر عهد المبرقة الكاتبة (التلكس) فإن الاتصالات الحالية هي تكتيكية وتقنية وبالتالي فإنها لا تنم عن معطيات واعتبارات المفاوض.

ان مستندات عصرنا الحاضر لا توحي لنا بالضرورة عن أية قرارات اتخذت بطريقة سرية، اضف إليها الطرق الرسمية. ولا الأعمال التي عولجت شفوياً دون ترك أثر في الوثائق المحفوظة.

يحدث غالباً أن التقارير التي ينشئها المشاركون في المفاوضات تكون عرضة للتنقيح المباشر (قال دين أشيسون أنه لم يقرأ قط تقرير مفاوضات إلا وكان فيه لمنشئة حصة الأسد) وبالامكان التأكد من ذلك بالاطلاع على أية وثيقة. والاتجاه الحالي في نشر الاخبار غير الدقيقة والعامة يوضح ان معظم الوثائق قد صيغت بصورة تحتاج إلى التنقيح، الأمر الذي يفيد الصحافي ويضيع المؤرخ.

ومن اشترك بأحداث كبرى كهذه، ليس طبعاً في مأمن من هذه المشاكل أو الميول عندما يكتب هو بنفسه، وبالنتيجة فإن أفقه يحدده العمل الذي يكون قد كلف به، ورغبته في توضيح الأمور، ربما تذوب في نية الدفاع عن نفسه، لكنه يضيف على الأقل مشاركة حيوية للتاريخ، ويتعرف بين عشرات آلاف العوامل على التي انتهت إلى قرارات شارك فيها، ويعرف أية وثائق تعكس حقيقة ما أدركه، ويذكر وجهات النظر التي أخذ بها حقاً، والتي رفضت والأسباب التي دعت إلى الحل النهائي، وكل هذا لا يبرهن عن حقيقة محاكمته، لكنه يظهر فقط ما ارتكزت عليه.

وإذا كان الحكم مجرداً كان تقرير المشترك في هذه الأحداث مساعداً المؤرخين للحكم على مجريات الأمور الحقيقية حتى بعد مضي الزمن. وهناك عوامل أخرى تظهر أيضاً أبعاد الأحداث.

انني ممتن جداً لكل من أعانني في تحضير هذا الكتاب :

. بيتر ف ف رودمان صديق حميم ومعاوني طيلة خمسة عشر عاماً جدير بكل احترام. فقد تابع الأحداث وأكملها وقدم لي عوناً كبيراً لاخراج مؤلفي في وضعه الحالي. كما قام بتدقيقه وبكثير من الأعمال الأخرى التي لا يستغنى عنها، وبدونه لم يكن هذا المؤلف ليستكمل.

ـ وليم ج هايلاند معاون آخر قديم وصديق قديم، شارك أيضاً في الأبحاث لا سيما عن أوروبا والعلاقات بين الشرق والغرب وعن سالت.

. روز ماري نيهر نيهن وماري أبرونل: اللتان كانتا زميلاتي في الادارة واظهرتا كفاءة واندفاعاً منقطعي النظير في أبحاثهما ومراجعة المخطوط.

ـ ونستون لورد ووليم د. روجرز اللذان قبلا بمحبة المهمة الشاقة باعادة قراءة المخطوط. وأشكرهما على اقتراحاتهما العديدة، ذات الصلة الوثيقة بالموضوع، وعلى مشاركتهما الفعلية في الأسلوب الانشائي.

لقد رغب آخرون قراءة فقرات من المخطوط وهم:

ـ برنت سكوكروفت، لورنس س. اياغليبرجر، دافيد جينسبرغ، ريشارد هلمن، جون فريمان، صمويل هابرن، جيسيكا كاتو وجون كينت غالبرايت.

كما أني لا أنكر اقتراحات فريق كبير غيرهم وأشكرهم بحرارة على جهودهم:

ـ هارولد ايفان وأوسكار تورنيل اللذان قرأا بتمعن واهتمام معظم المؤلف قراءة ممتهنين، وأظهرا لي كيف أن اعادة النظر بالعمل بدقة وذكاء تساعد في تخفيف عبء صيغة وترتيب المؤلف.

ـ بستي بيتا والمأسوف عليه نيد براد فورد من مؤسسة ليتل براون وشركاه، وكلهم دققوا المخطوط.

. وضع الفهرست بعناية فائقة من قبل مليسا كليمنس وساعد في أبحاثه كل من كاترين دي سيبور وكاتلن تروا وجفري ياكر.

يجدر بي أيضاً شكر دانيال ج بورستين في مكتبة الكونغرس وأعضاء ذاتية قسم المخطوطات: جون س. برودريك ، بول ت. هيفرون، جون كنولتون، ورفاقهم المحترمين، الذين اهتموا بأوراقي التي هم مكلفون الآن بالمحافظة عليها.

وأعضاء ذاتية قسم المخطوطات: جون س. برودريك، بول ت. هيفرون، جون كنولتون، ورفاقهم المحترمين، الذين اهتموا بأوراقي التي هم مكلفون الآن بالمحافظة عليها.

شكرهم واجب على دقة عملهم وعونهم الذي خفف شروط العمل، فكان ذلك أكبر عون لمعاوني ولي نفسي.

كان الحصول على الوثائق الرسمية المصورة في هذا الملف، بفضل المستشار الحالي للأمن القومي: الدكتور زبيغنيو بريجنسكي الذي أسدي إليه شكري.

وتكرم الرئيس نكسون فاوعز بتقديم وثائق من سجلاته الرئاسية.

إني أعترف بجميل معاونتي الخاصة كريستين فيك، التي اهتمت بالمخطوط وضربت على الآلة الكاتبة ملامة المتلاحقة، بالاضافة إلى اهتمامها بأعمالي العادية وساعدها بتفان في الضرب على الآلة الكاتبة كل من: شيريل ومبل، وماري بيت باليتا، دون حساب ساعات عملها.

أما زوجتي نانسي فقد شجعتني بارشادها وحبها وخدمتها الأمينة الدائمة.

أهديت هذا المؤلف إلى نسلون آ روكفلر الذي كان صديقي طيلة خمسة وعشرين عاماً حتى موته المبكر في شهر حزيران من هذا العام.

أعتبر نفسي المسؤول الوحيد عن متحويات هذا الكتاب وأقبل بحق مسؤولية الأعمال الواردة فيه.

واشنطن (مقاطعة كولومبيا)

حزيران ١٩٦٩

# الجزء الأول

# البدايـة

## ١

# دعـــوة

جرد حفلة تنصيب الرئيس الجديد في يوم عاصف بارد وصاح، كنت جالساً على المنصة تماماً خلف أعضاء الحكومة الجدد. وكنت أرى ليندون جونسون مغادراً للمرة الأخيرة الممر الرئيسي على نغم «تحية الرئيس» فأية أفكار كانت تثور في خواطر هذه الشخصية الخطيرة المأسوية، حول موضوع تولية بدأت برمز الأمل والبقاء وانتهت بأوضاع مؤلمة؟.

لماذا يخلي هذا الرجل الذي أجمعت الأمة على انتخابه، منصبه وبلده مقسم ممزق؟ وفيما كان جونسون واقفاً على المنصة كان يتخيل نسراً أسيراً، وقوراً، متعاظماً، كان نظره مثبتاً على الأعالي البعيدة التي لم ولن يصلها بعد الآن.

كانت جرقة أخرى تنشد فيظهر ريشارد نكسون ون الرئيس المنتخب، في أعالي درجات الكابتول مرتدياً كعادته سترة وبنطلوناً قليل القصر. ذقنه إلى الأمام بهيئة تحدٍ، كأنه غير واثق أنه حقاً هناك، ينم منظره عن انفراج وريبة، إذ قد نجح أخيراً إلى منصب مستبعد الحدوث، بعد أن فرض على نفسه أقسى نظام شخصي في تاريخ أمريكا السياسي. وكان يبدي استعجاله في انتهاء الاحتفال ليتمكن من تأكده الوصول إلى تحقيق حلم كان يداعب خياله طيلة حياته، وبالرغم من ذلك كان يبدو منهمكاً وحتى مزعزعاً كمتسابق خرج من مباراة.

ولا يعلم هل كان هذا وضعه الحالي أو صورة ظهر فيها مسبقاً كان يستمتع الظهور فيها؟ نزل الدرجات وبصوت ثابت وخفيض أقسم اليمين!

# نلسون روكفلــر

كنت منذهلاً من وجودي هناك، ودهشتي كانت بادية. ولو قيل لي قبل ثمانية أسابيع أني سأصبح أحد المستشارين المقرّبين جداً من الرئيس الجديد، وأني سأشارك في هذا الاحتفال كما حدث لما كنت أصدّق. كانت نشاطاتي السياسية حتى هذه الساعة مرتبطة تماماً بهؤلاء الذين كانوا يعتبرون أنفسهم مناهضين ألداء لريشارد نكسون.

كنت قد درّست أكثر من عشر سنوات في هارفرد، حيث كان يطيب على الأقل للأساتذة لصق إعلانات احتقار شديد لريتشارد نكسون، أضف إلى ذلك فأن الرجل ذا النفوذ الكبير في حياتي كان سياسياً هزمه نكسون مرتين في حلبة الترشيح للرئاسة وهو نلسون روكفلر.

كان نلسون روكفلر في حينه معاوناً خاصاً للرئيس ايزنهور لقضايا الأمن القومي وقد أدخلني عام ١٩٥٥ في دائرة الأعمال السياسية العليا. وكان قد طلب من زمرة جامعيين كنت أحدهم، تقديم تقرير للرئيس حول موضوع سياسي بنّاء، لمعرفة كيف أن الولايات المتحدة الأمريكية قادرة على أخذ المبادهة في الأمور الدولية، على المدى الطويل، وتبيان الأسباب بوضوح.

أفادني هذا اللقاء كثيراً، إذ كان روكفلر مبتسماً، يربت على ظهور الجامعيين، منادياً كلا باسمه أو بنوع محبب إليه. مع ذلك فإن هذا الأنس المنطوي على اللطف الأمريكي الحقيقي الذي كانت تبديه شخصيته، لم يكن ليدل إلا على الفارق الكبير بيننا، إذ عندما يدعى كل باسمه بهذا اللطف المتبادل، فإن العلاقات تخسر مدلولها الشخصي.

جلس روكفلر، ثملاً بعظمة الاقتدار . وأتمكن من القول أيضاً سعة الثراء . جهد كل منا لاستمالته بحقيقة موقفه، فأبدى الأساتذة كل بدوره اقتراحات تنظيمية حول كيفية معالجة الأمم، بل قل القائمين على تسيير أمورها، وكيفيّة التدبر مع رئيس مجهول أو (وهذه المشكلة الدائمة لمستشاري القضايا الأمنية) التغلّب على وزير خارجيّة غير معروف كثيراً.

بعد الانتهاء من تقديم عروضنا، كفّ روكفلر عن الابتسام وظهرت على عينيه نظرة مغشّاة سأكشفها مستقبلاً والتي تعني وجوب البدء بالأشياء الهامة. فأعلن: «أيها السادة، لم أدعكم إلى

هنا لتبيّنوا لي ما يجب عمله أو ما لا يجب عمله. عند التوصّل إلى اقناعي، سأفضي بذلك للرئيس، وإذا لم أتمكن من اقناعه بمقترحاتكم سأتقدم باستقالتي.

كان للمستقبل أن يظهر كيف أن روكفلر يحافظ على قوله. دبّجنا تقريراً كان أحد أهم أقسامه الذي حاز القبول «الجسور المفتوحة». والمقاطع التي كانت تفصل الأسباب البعيدة لم تكن لتحظى بالرضا، ورفض جزء منها، بسبب الاكتفاء الذاتي السائد آنذاك في البلاد، لا سيما في أن وزير خارجية قدير كان يتمكن من فرض رغباته. وشاركت في نهاية العام ١٩٥٥ في عمليّة مميّزة في تصرفه.

بين جميع من عرفت من رجال سياسيين، روكفلر هو الوحيد الذي حافظ على مبدئه من حين ايمان لا يتزعزع، واتمكن من القول، وقدرته على التفكير. صرف ثروته محاولاً معرفة ما يحسن عمله. حملاته الانتخابية الوطنية، كانت تتركّز على فكرة: ربح منتدبين في الدوائر الانتخابية، وكان يجب تقديم برامج جوهرية حقاً، قاضياً وقتاً غير محدود لتهيئة خطاباته. وبالرغم من عدم امتثاليته الظاهرية، فقد كان نشيطاً بلا حدود. تفكيره واقعي وتفاؤله دائم من عنصريته كأمريكي: تجمّعت الموانع للتغلب عليها. وكان يرى المشاكل ككثير من الأسباب الواجب اجتيازها: فليس هناك ظلم لا يمكن اصلاحه وتسويته ولا غاية مثلى لا يمكن الوصول إليها. وبالنسبة للأمم الأخرى فان الطوبى تختص بالماضي. ماضٍ مقدس لن يعود أبداً. أما بالنسبة للأمريكيين فان الطوبى تعطي مقياس القوة التي بموجبها يسيرون.

اني لواثق ان نلسون روكفلر سيصبح رئيساً كبيراً، اذ كانت لديه الشجاعة وبعد النظر وهذه صفات أساسية لازمة لكل مرشح للسلطة، لكنه حال وصوله الى غايته عام ١٩٦٠ ثم عام ١٩٦٨ أبدى تردداً غريباً لم يكن متطبعاً عليه. وفي سبيل تصرفاته الخاصة كان يتمسك برأيه ويظهر رباطة جأش وعناد لا يقدر. ومع ذلك كان لديه تناقض عميق: نوع من التحفظ الارستقراطي، الذي كان يمنعه من متابعة غايته مع الترفع باذلاً جهوداً مضنية ليجعل من نفسه انساناً أهلا للسلطة من وجهة نظره.

كان يتألم ليبين للناس أنه كان يريد استخدام التأثير للتصرف بمطمحه الخاص. ولما كان يعرف نفسه انه يتمتع بامتياز كبير، لذلك فلم يكن يعطي لنفسه الحق بطلب شيء لنفسه. كان

يذهب للانتخاب مجتهداً ايجاد برنامج كامل بقدر الامكان بالآفاق المستقبلية التي تحق بأمة، وأحسن خطة عمل لتحقيقها.

تألم نلسون روكفلر، في الواقع، وبكل ما لهذه الكلمة من معنى، من تسابق الرجال الأغنياء في الإثراء في مجتمع يدعي نصرة المساواة. كل تفكيره يرمز إلى إبطال هذا الالتباس الأساسي في القانون ليتأكد أنه واصل الى منصبه بصفاته الخاصة لا بثروته، وبجهوده الخاصة لا بمولده.

في البلدان ذات التقاليد الارستقراطية، ففي بريطانيا مثلاً حتى بعد الحرب العالمية الثانية، فان كل الوظائف العليا، كانت محصورة بين أيدي زمرة مختارة، متيقنة ان هذه المسؤوليات العامة، تخصهم بحق، اما صفاتهم فلم تكن موضوع جدال.

لقاء ذلك ففي الولايات المتحدة، فان ورثة العائلات الكبيرة، هم في خوف دائم من الاعتراض عليهم، إنهم لا يصلون إلى السلطة إلا بمالهم. فهم إذاً ملزمون بالتفكير بواجب الحصول على مناصبهم باستحقاقهم الشخصي فقط. لكن كما أن المرأة ذاتها لا تتأكد ان تكون مرغوبة لذاتها . لأن ذاتها ملازمة لجمالها . فالامريكي الغني لا يثق بما أوصله إلى السلطة. وبقليل من الحظ، سوف يعلم خلال وقت قصير، أن هذا غير مهم وأنه سيحكم عليه في وظائفه العليا السياسية من خلال نجاحاته واعماله، وليس لثروته والأسباب التي ساعدته على الصعود.

ان التاريخ لا يحفل بامتيازات البداية لكن بحقيقة الأعمال المكملة.

إذا لم يأخذ نلسون روكفلر بهذا المبدأ، وبعد موته المبكر، ادعوا انه لم ينجح في انتخابه رئيساً لاسمه، والعكس هو الصحيح، ولو أخفق فهذا يعود خصوصاً لتسميته روكفلر.

كان يصرف مبالغ جنونية لحملاته السياسية، لكنه في الوقت نفسه كان بحاجة تجاه نفسه لتعديل طموحه بتنويع برامجه، حتى انه كان يرفض بعمق تحقيق حلمه بتزّلف مهين تجاه مندوبي الدوائر الانتخابية. ليس هكذا تكون السياسة الحقيقية لدينا. إذ أنها ترتكز على شخصيّة المرشح أكثر من برنامجه السياسي.

أخفق روكفلر خلال ثلاثة مؤتمرات حزبية من التمكن من ادخال اتجاهات سياسية حزبية حسب رغبته، بادئاً برنامجه بالتعاليم الحقيقية للتاريخ السياسي الأمريكي. علماً ان توجيهات

حزب ما لا تتجاوز الفترة العصيبة، التي ينتخب فيها المندوبون المجتمعون مرشحهم للرئاسة. وسريعاً ما يمحى كل شيء بعد ذلك من فكر الجماهير.

ففي عام ١٩٦٠ تقدم ببرنامج انتخابي كامل، ثلاثة أسابيع تقريباً قبل مؤتمر الحزب الجمهوري، ولم يكن هناك ادنى شك في رفض ترشيحه. وبهذه الحيلة أجبر نكسون على الانضمام إلى (حلف الشارع الخامس) الشهير (وثيقة محفوظة في سكن روكفلر) هذا الحلف الذي كان يوجه البرنامج السياسي الجمهوري في الاتجاه المطابق لغاياته، والذي اجبره على الانضمام الى الحزب.

وفي عام ١٩٦٤ تصدى دون وعي لباري غولدووتر لأنه كان مقتنعاً بحق ان غولدووتر كان يعد في هذه الفترة برنامجاً خطراً ضد التطرف المحافظ (بعدئذ أعجب به) لكن أنصار غولد ووتر حرّضوا الحضور وبضجيجهم أجبروا روكفلر على مغادرة القاعة. فانسحب عام ١٩٦٨ بالرغم من انه لم يكن خاسراً، إذ في حال ضمان نكسون الأغلبية سيلقى بنفسه في المعركة السياسية منادياً بجملة مبادئ ومقاييس حكيمة وواضحة.

كان اسلوب ريشارد نكسون مخالفاً، ففي امريكا المعاصرة، تتجه السلطة أكثر فأكثر نحو الذين يناضلون للحصول عليها بنوع شبه استحواذي. فالذي لا يجنّد كل قواه في سباق تسمية المرشحين للرئاسة، سواء بالخوف أو بالاحتقار، سوف يكون واهماً مهما كانت صفاته. هناك مرشحون للرئاسة العظمى كرياضيين: وهذا يتعلق بالدقة والكفاءة البدهية للوصول إلى المناصب. أما مندوبو الدوائر الانتخابية فهم يعرفون مجد الطيش الزائل، فهم يكرمون طيلة أيام وأسابيع، ويتزلف لهم، ويحتك بهم، ويملّقون، ويسعى لارضائهم، ويتابعون باستمرار. وما يكادون يدلون بأصواتهم حتى أنهم يقعون في النسيان (لذلك فهم حسّاسون خصوصاً بأوضاع المشرحين الذين يسعون لنيل عطفهم ورعايتهم.

ربما أن المؤهلات المطلوبة ليحق للفرد ان يعين كمرشح لرئاسة الولايات المتحدة من قبل مؤسسة ما مؤقتة، لا علاقة لها بالمؤهلات المطلوبة لإدارة دفة الحكم. كما أن الآلية الانتخابية تتطلب من المرشحين جهوداً مكثفة أكثر فأكثر لدى كل انتخاب، ومن الممكن أيضاً أن يكون هناك انسجام أقل.

سباق التولية يحبّذ مرشحاً يملك مواهب خلاقة، قديراً على اصدار بيانات سياسية تقتضيها الحال، سيد أمره، متمكناً من تحويل الأمور الصعبة لصالحه، حيث ينتهي الى الإجماع عليه، جاعلاً من برنامجه المستقبلي عرضاً يتطلبه الرأي العام، رجلاً قادراً على فهم تعقيدات الادارة الرئاسية. ورجل مثل نكسون سوف ينتصر بكل تأكيد على مرشح لا يهتم إلا بالقضايا السياسية الأساسية.

من وجهة الطبع، كان هناك بون شاسع بين نلسون روكفلر وادلاي ستيفنسون. كان روكفلر أكثر حيوية وأصلب عوداً. ومع ذلك فان قدرهما كان متوازياً بغرابة. كلا الاثنين يواجهان المناسبة، يترددان محتقرين الاستعانة بالوسائل التي كانت تتطلبها السياسة الحديثة، الخطرة بالنسبة لديمقراطي. ان هذا السلوك يصبح قاتلاً لجمهوري أبعد حزبه عن السلطة منذ زمن، وكان قد انضوى تحت لواء ارثوذكسية ونظام يجعلان قدرة البرامج الجديدة مشكوكاً فيها. وفشل الرجلين نتج من هذا الاحتقار. مع ان ستفنسون خسر بسبب منظمة كنيدي عام ١٩٦٠ وكان يجب على روكفلر ان يغلب بسبب لجان حزب نكسون عام ١٩٦٠ ثم عام ١٩٦٨.

ان مجابهة روكفلر الشديدة لنكسون كانت تقوم على عدة أسباب من بينها كرهه المتميز للتلاعب في الانتخابات. عنصر الاستراتيجية الرئاسية الأمريكية الحديثة. الذي اصبح متفوقاً جداً.

أضف إلى ذلك فان المنافسة بين روكفلر ونكسون لم تكن لتخلو من نفور شخصي يفوق ذلك الذي يورثه النزاع على الرئاسة العليا. بالنسبة لنكسون فان روكفلر لم يكن سوى هاو أناني لا يترفع عن هدم ما لا يمكن الاستيلاء عليه. فمثل فئة عاملة بتسامح طيلة منصبه السياسي. أما روكفلر فكان يرى في نكسون رجلاً غير مبال عارياً عن المثالية ووجهات النظر الصحيحة اللازمة لخلق مصير بلد.

وفي عام ١٩٦٨ بالرغم من أنني لم أتردد على نكسون بكثرة لأتمكن من تبرير حكمي فقد كنت أشارك روكفلر الرأي في مجمل الأشياء. وبشق النفس حضرت المؤتمر الصحفي المقتضب الذي اضطر روكفلر مرغماً على الاعتراف بالهزيمة من قبل نكسون. شعرت فعلاً بشعور ذلك الصحفي نفسه الذي قام بتغطية حملة روكفلر الانتخابية والذي انهار في مشرب فندق اميركانا معلناً: (هذا آخر رجل سياسي ارتبط به. السياسيون كالكلاب، أملهم في الحياة قصير جداً وارتباط المرء

بهم يعود عليه بالسوء). أحد رجالنا ممن كان يمكنه ان يصبح أحد أكابر الرؤساء قد شاهد بأم عينه اندثار هذا الأمل إلى الأبد. وبالنسبة لأصدقائه كان ذلك شاقاً عليهم بمقدار معرفتهم انه لولا أخطاؤه التكتيكية ومماطلاته لاستطلاع الفوز بالرئاسة .

# مخـــابرة هاتفيّـــة

بعد بضعة أشهر من هذا اليوم المضني (وكان ريشارد نكسون قد أصبح الرئس المنتخب) كنت أتناول طعام الغداء مع الحاكم روكفلر وبعض مستشاريه في نيوورك في شقته الصغيرة الكائنة في الطابق الرابع من متحف الفن البدائي، وجرى ذلك يوم الجمعة الموافق ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٨، المتحف الذي كان قد تلقّى العديد من هداياه، كان مرتبطاً بمكتب روكفلر في الشارع ٥٥ الغربي بممر مغطى.

لقد كان والاس هاريسون المهندس المعماري لمركز روكفلر قد صمم هذه الشقة. جدرانها العجيبة المحدبة تزدان باللون الأحمر وكانت تغطيها لوحات تولوز ـ لوتريك . ولضيق المكان كانت هناك لوحات ذات قيمة زهيدة تتكدس في خزن جدارية.

وفي هذا الإطار الرائع كنا نتناقش حول الموقف الواجب اتخاذه فيما لو استدعي روكفلر لتولي منصب في حكومة نكسون، وأي منصب سيشغله عند الاقتضاء. كانت الآراء متضاربة، وبرأي بعض مستشاريه، قد يكون لروكفلر تأثير أكبر كحاكم لولاية هامة، بما أن له يداً عليا في التنظيم السياسي للحزب. وعاكس آخرون مبيّنين ان هذه السلطة غير المباشرة قد تكون وهمية. وبنظرهم ان الحاكم لا يتمكن أبداً من ممارسة أي نفوذ حقيقي على السياسة الاجمالية للأمة. ويجازف «إذا حاول ذلك» بفتح جروح قديمة في ظروف ملائمة بشكل خاص. وكان روكفلر ميالاً إلى الرأي الأول، مظهراً صعوبة الخدمة كتابع لا سيما لنكسون.

من جهتي كنت أرى أنه لو سنحت الفرصة لوجب على روكفلر دخول الحكومة بمنصب وزير الدفاع. والرئيس المنتخب قد يصبح بالتأكيد وزيره الخاص للشؤون الخارجية كما قد أعلن عن ذلك. أضف إلى ذلك فان الشؤون الخارجية ما كانت لتظهر بأنها تترك حرية العمل التي تتطلبها شخصية روكفلر. لقاء ذلك، قد يكون قادراً في وزارة الدفاع على تحقيق المشاريع التي أوحت بها إليه اهتماماته بهذه القضايا منذ عشرات السنين. ولدى تفكيري بروبير مكنمارا رأيت فيه وزير دفاع في ظرف يتمكن فيه من لعب دور كبير في تسيير السياسة الخارجية.

كنا نتناقش في جو كله هدوء. عندما قاطعتنا مخابرة هاتفية مصدرها مكتب الرئيس المنتخب. كان المتكلم دوايت شابن السكرتير المكلف بتحديد مواعيد نكسون، الذي طلب إليّ (أنا بالذات وليس روكفلر) لقاء رئيسه، لم يكن فعل هذا الاستدعاء سوى إظهار فشل سياسة روكفلر على المستوى الوطني بصورة مؤلمة. ومع الزمن بدا لي جليّاَ بأن الاستدعاء جعل مناقشاتنا بلا جدوى، مع ذلك توبعت المناقشات وكأن شيئاً لم يحدث، حتى أن ولا واحد ممن كان يحضر هذا الغداء تمكن من الافتراض عندئذ ان الغاية من هذا الاستدعاء هي عرض منصب علي من الدرجة الأولى في الحكومة الجديدة.

لم يتملكني رجاء أو حماس. إذ أنني خلال انضمامي الطويل لروكفلر كنت قد شغلت منصب المستشار التقني للبيت الأبيض في الأيام الأولى لحكومة جون كنيدي. في الفترة التي تخلى فيها الأساتذة . ولأول مرة . عن القيام بدور المستشارين للوصول إلى المسؤوليات الفعلية.

كان الرئيس كنيدي قد قرأ كتابي: ضرورة الخيار The Necessty For Choice الذي كان قد ظهر. (أو على الأقل قرأ النقد الطويل الذي ظهر في نيويوركر) وطلب إليّ أن أكون في عداد العاملين في البيت الأبيض. وجرى بيننا حوار طويل اغتبطت خلاله من حيويته وفكره الثاقب، وقد لمست ان نشاطه وتصوره الواسع يحققان طمأنينة أكثر في هذه المرحلة.

لم يحصل لدي الانطباع ان مساعده الخاص لشؤون الأمن القومي زميلي القديم في هارفارد: ماك جورج باندي، قد فكر على غرار الرئيس أنه كان من الضروري اضافة استاذ آخر ذي كفاءة، أكاديمية مماثلة لملاك البيت الأبيض. ومهما يكن لم أكن مهيأ لقطع علاقاتي بروكفلر، واتفقنا على أن أمضي يوماً أو يومين اسبوعياً في البيت الأبيض بصفة مستشار تقني؛ وطبيعة عمل المستشار التقني الخارجي المرتبطة بأنانيتي الأكاديمية، التي لم تخفف منها أعباء الرئاسة اليومية في هذه المرحلة، جعلت هذه التجربة مخيبة لي وله.

ان المستشار التقني العادي ليس قريباً نوعاً ما من الفريق المستقر حتى يساهم في القرارات الواجب اتخاذها خلال الأزمات. ومع ذلك فهو يندمج كلياً في تدابيرهم للإبقاء على الموقف المتعاظم والعجيب لمستشار خارجي. لقد أصبح بصورة شبه حتمية عبئاً على من يستطيع مساعدته، كما على من يجب عليه ارشادهم. فهو غير مدرك لأجهزة الرئاسة الداخلية. وكنت أبذل طاقتي في تقويم ارشادات لا يرغبون فيها، وعرض مواضيع علمية على الرئيس كنيدي

خلال لقاءاتنا النادرة وما كان ليستفيد منها شيئاً، بالرغم من إقراره بأنها استمالته . وهذا بعيد الاحتمال ـ وبشعور العزاء المتبادل تفارقنا في منتصف عام ١٩٦٢ .

## لقاء مع ريشارد نكسون

بمقدمات لا تتضمن وعوداً كثيرة، لم يكن لدي أسباب ، لأتوقّع دعوتي للاشتراك في حكومة نكسون. لم أكن لأعرف الرئيس المنتخب. وصديقي وليم ف . بلاكلاي جر: المخبر المحافظ كرّر لي طيلة سنوات بأن الذين ينتقدونه كانوا يحطّون من قدره. فقط بعد انتخابات عام ١٩٦٨ سنحت لي الفرصة أن أكوّن عنه رأياً شخصياً.

لم التق بريشارد نكسون سوى مرة واحدة خلال عيد الميلاد الذي أحتفي به في منزل كلير لوس عام ١٩٦٧، فدخل نكسون ساعة تأهبي للخروج، فاصطحبتنا الآنسة لوس إلى المكتبة، وهناك صارحني نكسون أنه قرأ كتابي الأول: «الأسلحة النووية والسياسة الخارجية» «Nuclear Weapons And Foreignpolicy» واستخلص منه معلومات، بالاضافة الى انه كتب مذكرة بهذا الموضوع.

وأنا مع ارتباكي لم أعد اتذكرها. و جوابي كان مصطنعاً ليس بسبب مرور عشرين عاماً على أمور سابقة أكثر مما نتج عن ظرف مربك تلاقينا فيه. وفي هذه الفترة كنت محرجاً كثيراً من اجراء محادثة مجاملة دون ابداء جهد. كما ان ريشارد نكسون لم يكن ليتغلب على كبت عاطفته في هذا اللقاء. تبادلنا بعض الأحاديث اللطيفة المصطنعة قليلاً وهذا كان كل شيء.

جرى لقائي الأول مع معاوني نكسون، أثناء المؤتمر الجمهوري في ميامي عام ١٩٦٨ قبل الانتخابات، فيما لم يكن على تعيين نكسون أي ظلال شك. وكنت قد قابلت ريشارد ف. آلن في الفترة الرئيسية التي كان فيها مستشار نكسون للسياسة الخارجية. لمحاولة الوصول الى اتفاق حول سياسة تجاه فييتنام لتجنب الخلافات خلال المؤتمر.

كان همي الرئيسي التأكد من أن البرنامج الجمهوري آخذ بعين الاعتبار التطلعات التي يضعها العديد في خطة المباحثات.

بعد أن تأكد تعيين نكسون، وجد أتباعه أن المجابهة في قضية كانت قد ألحقت ضرراً بالمؤتمرين السابقين لم يعد هناك مبرر لوجودهما، وبالتالي فان تسوية غير مرضية قبلت كنصر معنوي، والذين هم من صف روكفلر لم يكن لديهم ما يحتفل به.

بعد المؤتمر عدت الى هارفرد مقتنعاً بوضع حدّ للحياة السياسية الأمريكية خلال الحملة الانتخابية لعام ١٩٦٨. عدة مبعوثين من قبل نكسون (والبعض كانوا يتصرفون من تلقاء أنفسهم) كانوا قد أخذوا رأيي بالهاتف. أما أنا فقد تبنيت مبدأ للإجابة على الأسئلة الدقيقة للسياسة الخارجية، دون تنسيقها مع ارشادات التنظيم العام، ودون تقديمها في الحال. وهكذا تصرفت أيضاً مع معاوني هانفري.

مهما يكن فان تنظيم نكسون الانتخابي لم يطرح على سوى سؤال واحد.

في بداية تشرين الأول ١٩٦٨، كان بيل باكلاي قد عرفني على جون ميتشيل مدير الحملة الانتخابية. فسألني هذا الأخير اذا كنت أفكر ان حكومة جونسون تقبل بوقف اطلاق النار على فييتنام لقاء فتح باب المفاوضات قبل الانتخابات. فأجبت انه يظهر لي بصورة مطلقة ان لدى الفيتناميين الشماليين رغبة في وقف إطلاق النار بموجب هذه الشروط وانهم يسعون للحصول من المرشحين الاثنين تعهدات في هذا الموضوع.

كنت أفكر إذا أنه من الممكن لهانوي الموافقة التامة قبل الانتخابات. ونصحته ألا يلقي بنفسه في نزاع لأجل ذلك.

وخلال مرة أو مرتين في مجرى الانتخابات أصبح ميتشيل متأكداً أني مصر على رأيي. ورجاني ذات مرة بحرارة ان استدعي م. هالدمان عند وصول أية معلومات حديثة، وأعطاني رقم هاتف، لم استخدمه أبداً.

أن الانطباع المبدئي تكون لدي عن معاوني نكسون هو أن هؤلاء الرجال كانوا منهمكين اجمالاً بآلية الانتخابات، ويؤجلون القضايا الكبرى الأساسية حتى نهاية الحملة، وهذا الوضع واضح بمجمله وجلي.

# الاتصال الأول في فندق بيير

جواباً لمخابرة شابين، حضرت في تمام الساعة العاشرة من صباح الاثنين المصادف ٢٥ تشرين الثاني إلى جناح نيكسون المؤقت، الكائن في الطابق التاسع والثلاثين من فندق بيير، دون معرفة ما يراد بي، غير منتظر في الواقع مباحثة ستغير مجرى حياتي، كنت أفكر فقط في أن الرئيس المنتخب كان يريد معرفة رأيي حول المشاكل السياسية التي ستجابهه. في صالة الاستقبال، كان هناك شباب بهندام كامل يراقبون أجهزة الأمن.

استقبلني أصغرهم وأرشقهم، وكان دوايت شابين. وقادني بأدب وثبات إلى قاعة كبيرة في نهاية الصالة، وأعلمني أن الرئيس المنتخب سيكون عندي بعد لحظات. كنت أجهل حتى الآن ان نيكسون مصاب بالخجل. ومقابلته للمجهولين كانت تملؤه رهبة كبيرة، لا سيما عندما كان يفكر أن هؤلاء المجهولين كانوا على مستوى ارباكه أو معارضته. وحسب عادته قبل لقاء من هذا النوع، يمكث نيكسون طبعاً في غرفة مجاورة على أهبة تهدئة أعصابه مفكراً بما سوف يبديه من الملاحظات المسجلة طبعاً في مذكرته الفخمة الصفراء التي لم يكن يظهرها لزائريه.

عندما دخل إلى القاعة، كان يظهر هيئة مرحة لم تكن لتخفي عصبيته الزائدة، جلس على أريكة مديراً ظهره إلى نافذة كانت تطل على الشارع الخامس، وأشار علي بالجلوس على كرسي مقابله. كان يظهر عليه التردد، مع حركات مختلفة لا علاقة بها مع طروحاته، كما لو أنه عرضة لعاطفتين متعارضتين. وكان يتحدث بصوت هادئ ولطيف، محتسياً بجرعات صغيرة فناجين القهوة التي كانوا يحضرونها له الواحد تلو الآخر دون طلب.

حدثني عن الحكومة الجديدة التي سيشكلها، وتأليفها يبدو مهمة صعبة كانت ثقته غير محدودة في وزير الشؤون الخارجية، وشخصيته لم يكن لها أدنى اعتبار لديه، وأضاف أن الأعمال السياسية أتعبته حين كان نائب رئيس يجهل تصريف أموره. كان ينتظر إذاً تسيير السياسة الخارجية بدءاً من البيت الأبيض، وحسب رأيه، فإن حكومة جونسون لم تأخذ العسكريين بعين الاعتبار، وطريقة اتخاذ قراراتها ما كانت لتترك للرئيس الاختيار الحقيقي، إذ كانت صاحبة الأمر بابعاد مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A عن الاشتراك في السياسة، فكانت C.I.A

مــلأى بــالمتحررين، خريجــي المــدارس الكبــرى، الــذين بحجــة الموضــوعية التحليليــة، كــانوا يجتهــدون فــرض نظريــاتهم الخاصــة. أضــف إلــى ذلــك فــإن رجــال C.I.A كــانوا دائمــاً أعــداء السياسيين.

سألني نيكسون عن رأيي حول هذه النقاط المختلفة. أحجبته بعدم وجوب الحكم على أوضاع شخصيات الخدمات السياسية نحو رئيس، بموجب سلوكه نحو مشرح للرئاسة، وحتى نحو نائب رئيس، وعلى كل حال فإن الرئيس الذي يدرك كل ما يريد سيكون دوماً في مستوى فرض السياسة الخارجية التي يفكر بانتهاجها. وبخصوص مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A كنت أعلم القليل عنها لأكون فكرة. كنت من رأيه تماماً بالنسبة لضرورة اتخاذ القرارات بصورة رسمية أكثر مرونة. أن قرارات حكومة جونسون كانت تتخذ غالباً، في الاجتماعات الكبيرة، وخلال وجبات الطعام الفخمة: «غداء الثلاثاء» دون جهد مسبق من معاونيه، لا يعقبها تنفيذ، بنوع أنه كان من الصعب معرفة ما هي القرارات التي اتخذت. حتى في أحسن الأحوال، فإن كل وزارة ذات علاقة كانت تترجم النتيجة المبهمة في أغلب الأحيان لهذه الاجتماعات حسب افكارها المسبقة، غير آخذة بعين الاعتبار دون شك، الأخطار الكامنة بسبب عدم التنفيذ أو الأخطاء الكبيرة التي تنطوي عليها هذه القرارات. وهذه الاجراءات لم تكن تفسح مجالاً لصياغة قرارات تحل المشاكل، ولأعمال ذات عمق وتفكير. وكان يبدو لي أن تأليف حكومة نظامية كان ضرورياً لتجنب وضع حكومة إيزنهاور القاسي التي كانت المشاركة السياسية في ظلها كناية عن مقررات يتخذها وزراء ذوو نفوذ. كما كان يبدو لي واجب إيجاد دقة وترابط.

عرض علي نيكسون خطوطاً عريضة حول كيفية رسم السياسة الخارجية، لقد انذهلت من بعد نظره وسعة اطلاعه، التي كانت تتعارض مع الفكرة التي كنت أكونها عنه. وسألني عن رأيي فيمن يكون أهلاً لسياسته الخارجية؟ فأجبت أن المشكلة العظمى تكمن في تحرير سياستنا الخارجية من الترجرج بين المرح والهلع ونخلصها هكذا من توهم في أن القرارات تتعلق معظمها بالأفكار الخاصة للذين يصدرونها. أما بالنسبة لي فإن هذه السياسة يجب أن تتركز على بعض مبادئ أساسية ذات نفع قومي يسمح لها بالبقاء عبر التغيرات الحكومية.

وبدءاً من ذلك أخذت المحادثة تتعقد، لأن خوف عدم الرضى كان يؤدي بنيكسون لطرح مقترحاته بطريقة ملتوية يصبح من الصعب معها معرفة قصده وحتى أي اقتراح دقيق يريد تنفيذه. وبعد لقاءات عدة، توصلت أخيراً إلى فهم ما يرمي إليه. واعتبرت أن الكلمات بالنسبة

لنيكسون كانت ككرات البلياردو، وما يحسب منها ليس ما يطرح بل ما يحدث تأثيرات. غير أني خلال أول لقاء لم أستطع ادراك ما يبغيه مني.

ومما فهمته أنه كان يسألني عما إذا كنت مستعداً للاشتراك في حكومته لإكمال مهام تأليفها. فأجبته أنه في حالة تقديمه حقيبة دبلوماسية للحاكم روكفلر سأكون سعيداً بالاشتراك في حكومته. لم يعلق الرئيس المنتخب على هذا واكتفى بطلبه إلي أن أوجز كتابةً تصوري لتأليف سوي للحكومة.

ومع مرور الزمن فهمت أن طلبي أضاع آخر خط لروكفلر. لم تكن أبداً نية ريتشارد نيكسون أن يراني في عداد حكومته بنفوذ نلسون روكفلر. ولم يكن مستعداً لإيجاد وضع أكون مجبراً فيه على اختيار إحدى ميزاتي لدى نيكسون، ونهمت بعدئذ أن توظيفي يعني القدرة على استخدام أحد مثقفي هارفارد في حكومته. ومن حيث أنتمائي لحاشيته روكفلر، فإن هذا يعطي العملية أهمية أكبر.

وللدلالة على أن المحادثة اشرفت على نهايتها، ضغط نيكسون على زر، فظهر رجل شعره واقف، مثبت بأربعة دبابيس بهيئة نشيط فقدمه لي، وكان يدعى بوب هالدمان، وطلب إليه تمديد خط هاتفي مباشر مع مكتبي في هارفارد للتمكن من متابعة هذا الحديث في المستقبل. سجل هالدمان هذا الطلب الغريب دون اعتراض أبداً على مذكرة صفراء. (وكان يعني هذا الطلب الاستغناء عن الاتصالات التلفونية العادية بين نيويورك وكامبردج).

بعد وداع الرئيس المنتخب لم تتكون لدي فكرة واضحة عما كان ينتظره مني. وتبعاً للحديث الذي أجريناه كان من الصعب معرفة ما إذا كان نيكسون يريد نصحاً أو ارتباطات، وفي هذه الحال في أي أمر؟ وفيما أنا خارج، طلب مني هالدمان مرافقته إلى مكتبه، الملاصق لمكتب نيكسون. وكل ما قاله لم يوضح لي أي شيء حول الفكرة التي كانت تجول في خاطري، ولم أفاتحه بها. بل بالعكس فقد رأيته مسرعاً في وصف عمله لي. وشرح لي بابتذال أن مهمته الرئيسية كانت تقوم على منع كل حركة تجاوز. وسيحرص على ألا يقدم للرئيس أي عرض دون التعليق عليه من قبل أحد العاملين في البيت الأبيض، ويحسن بأحدهم حضور كل محادثة تجري مع الرئيس. وبيّن لي أنه غيّر عناوين أهم ذوي العلاقة المختصين بالبيت الأبيض: بالرغم من أن ليس هناك من

يعرف ما يقصد بالمختصين. وبدل استعمال لفظة مساعدي الرئيس الخاصين، وسيدعون من الآن فصاعداً: معاوني الرئيس. وبعد ايضاح ذلك بهيئة مرضية، تواعدنا.

بعد ظهر هذا اليوم، عدت إلى هارفرد في الوقت المحدد لألقي درسي في الساعة السادسة عشرة حول سياسية الأمن القومي. كانت زيارتي للرئيس المنتخب، موضوع كل الأحاديث. ولم يدرك أحد بأن منصباً في الحكومة الجديدة سيقدم لي. كما أن أية صحيفة لم تعلّق على هذا اللقاء، وقليلون هم الأصدقاء الذين أظهروا اهتماماً. تلقيت في اليوم التالي مخابرة هاتفية من نلسون روكفلر الذي كان قد التقى الرئيس الجديد، وبين له أنه يؤدي خدمة أكبر للوطن كحاكم لولاية نيويورك أكثر من أن يكون عضواً في الحكومة، وأضاف نيكسون أنه بسبب أهمية الانتخابات القادمة في عام ١٩٧٠ كان لزاماً على روكفلر أن يكمل الاشراف على قائمة ولاية نيويورك. كما أن نيكسون كان قد طرح عليه أسئلة كثيرة حولي ولا سيما عن تصرفاتي في الأزمات. وأكد لي روكفلر أنه طمأن الرئيس تماماً حول هذا الموضوع. وقصّ علي حديثه بصورة مجردة دون تعليق ولم يعلق أبداً حول معرفة ما إذا كنت أريد الالتحاق في خدمة نيكسون.

وبعد هذا بساعة، تلقيت مخابرة ثانية، وكانت هذه المرة صادرة عن مكتب جون ميتشيل الذي كان يقترح علي لقاء في الغد للتباحث حول المنصب الذي سأشغله في الحكومة الجديدة. مفكراً أن منصباً ما كان قد عرض علي، أو أنه كان يرغب فقط بحديث يخصص لتحديد أوضاعنا الراهنة؟ لم أتبين منه أي إيضاح. ذهبت هذا المساء إلى نيويورك لزيارة ماك جورج بوندي، الذي بعد مغادرته البيت الأبيض أصبح مديراً لمؤسسة فورد، وخلال سنوات مضت كنا تحدثنا عن العلاقات المزدوجة. كان يعجبني فيه فكرة النير، حتى في أحلك الأوقات، إذ كان يستعمله في خدمة أمور مغرية موضوعية أكثر مما جعلت له أصلاً. لقد كان بالنسبة لي حساساً لطيفاً أكثر مما يكون في تصرفاته المستعملة أحياناً والتي لم تكن تسمع له بالتريث. كان عنده ميل لمعاملتي بهذا المزيج من الأدب والتسامح الغريزي أكثر من مواطني الطبقات العليا في بوستون الذين يحتفظون للناس حسب مقاييس انكلترا الجديدة، لهم ماض غريب وأسلوب خاص مميز جداً.

في الواقع، كان عندي لبوندي احترام كبير. فلو عايش زمناً أقل قسوة، كانت سلوكيته تضاهي سلوكية مثيله هنري ستمسون الذي كتب ترجمة حياته. ولكان ارتقى المناصب الحكومية ليصل إلى أعلاها. وأن تجربته تتساوى مع كفاءاته الفكرية الباهرة ومحاكمته العقلية تتساوى مع ثقته

بنفسه. ومن سوء حظه أنه بدأ بخدمة الحكومة في عهد الانقلاب ضمن المؤسسات. ورفاقه أنفسهم كادوا يسببون له نقاط تساؤل ثابتة، بحيث أنه كان مشهوراً دوماً في المعسكر السياسي، لكن في الوقت ذاته أخذت هذه الشهرة بالانحدار. كان نصير سياسة القوة بالنسبة لفيتنام، فاصطدم بفساد الفئات القائدة، التي عايشت الحرب فقط بمبادئها. وفي أعماق نفسه كان محافظاً، وارتباطاته السابقة قد سعت به للقتال لأسباب سببت له الفشل. وإذ أخذ التنازع بين اعتقاداته وغريزته، وبين ذكائه وحاجة موالاته العاطفية، خسر بوندي قليلاً فقليلاً الأنصار الذين كان من الممكن أن يجعلوا منه مستشاراً عاماً دائماً لهم، مثل جون ماك كلوي أو دافيد بروس. وكان يملك دون شك المزايا العلمية العليا، والأخلاق والتهذيب التي تسمح له أن يؤدي للأمة خدمات أكبر من التي سمح له قدره بتأديتها حتى الآن.

كنت أكن له اعتباراً كبيراً، إذ كان الوحيد الذي استمزجت رأيه قبل اللقاء بميتشيل، فحدثته عن المنصب المنتظر تقديمه لي في وزارة الشؤون الخارجية. والرأي الذي أبداه لي كان يظهر جيداً على أي مستوى كان، وصرح لي بوجوب معالجة تسميتي، وسيكون من سوء طالعي إذا أراد الرئيس المنتخب تسمية معاوني وزارة قبل تعيين وزير شؤون الخارجية وأضاف بأن تاريخ حكومة كيندي كان ليدلّنا أن نوعاً من هذا التصرّف قوض سلطة الوزير دون توسيع نفوذ الرئيس. ونصحني بقوّة، فيما لو خيّرت باختيار منصب مدير فريق العمل والتعاون السياسي (هيئة التوجيه السياسي. Policy Peanning staff) شريطة أن يكون وزير الشؤون الخارجية واحداً ممن أعرفهم وأثق بهم.

وحول اشتراكي في حكومة نيكسون فلم يبد أية ملاحظة.

دخلت بعد ذلك فوجدت جون ميتشيل جالساً وراء مكتبه، على أهبه تحضير غليونه وهو رجل واثق بنفسه ومقتصد في الكلام، تبدو عليه السلطة، ودخل تواً في صلب الموضوع:

«ماذا عرفت حول موضوع المنصب الذي عرض عليك في الأمن القومي؟

- لا أعلم فيما إذا كان قد عرض علي .

- آه يا إلهي، أردف قائلاً: لقد أضاع كل شيء ...

نهض عن كرسيه متطاولاً وترك الغرفة بتأن عاد بعد خمس دقائق وأعلمني أن الرئيس المنتخب يريد مقابلتي، ثم رافقني حتى القاعة.

أزاح نيكسون هذه المرة الستار عن نواياه: وعرض علي منصب مستشار لشؤون الأمن. وبالاجمال فقد أعاد الرئيس الأفكار ذاتها التي أظهرها قبل يومين، مشيراً بأكثر مدلولية أن مصلحة الاستخبارات المركزية C.I.A حسب رأيه كانت دون كفاءة ولا يمكن الثقة بوزارة الشؤون الخارجية. كان منصبي إذاً على جانب كبير من الأهمية والحيوية بالنسبة له وبالنسبة للطريقة التي كان يفكر فيها بإدارة السياسة الخارجية بدءاً من البيت الأبيض. وتكلمنا باختصار عن المهمة الواجب علي اكمالها. وضعت النقاط على الحروف وبينت له أني عندما كنت أشغل سابقاً دور مستشار كنت أرفض مقابلة الصحفيين. قبل الرئيس المنتخب باهتمام أن أكمل تصرفي هذا وكان على المستقبل أن يظهر ان كلاً منا لم يتصرف ببعد نظر في هذا الموضوع.

كنت أكرر في أعماق نفسي وفي ذاكرتي أن هذا الإنسان كان يمثل ريتشارد نيكسون الذي كان طيلة أكثر من عشرين عاماً، يتجسد فيه دهاء السياسة، ولا لشيء إلا لهذا السبب وجدت نفسي غير كفوء بقبول هذا المنصب حالاً. أجبت الرئيس المنتخب أنني سأكون بلا نفع دون مؤازرة أصدقائي وشركائي المعنوية (رأي ظهر مغلوطاً) ورجوته منحي أسبوعاً لأخذ رأيهم.

طلب شاذ تحدث فيه كثيراً، وحول عزلة مصف الأساتذة وغطرسة مدرسي هارفرد. كان رئيس الولايات المتحدة المنتخب نفسه يعرض على أستاذ مولود في الخارج أحد المناصب الأكثر أهمية في العالم. وهذا الأستاذ كان يسمح لنفسه أن يمانع بنية التحدث عنه مع زملاء له صوتوا كلهم حتى النهاية ضد هذا الرئيس، وسيقفون دون شك ضده في المستقبل. إن الرئيس المنتخب كان في هذه الحادثة يقوم ربما بمخاطرة سياسية. لكن الأستاذ نفسه كان يكره وضع مبدأ احترام شركائه في الموضوع: فلو قال لي نيكسون: «لنقف هنا ولا نتحدث بهذا بعد» كان له تمام الحق، وبدلاً من ذلك، وافق برضا على طلبي غير الجدير بالقبول. وبطريقة مؤثرة قدم لي اسم بعض الأساتذة الذين كانوا قد عرفوه في جامعة دوك Duke والذين سيكونون على استعداد لإعطاء صورة واقعية عنه نفسه أكثر موضوعية من التي يمكن تكوينها في هارفرد. وأضاف في النهاية أنه سيكون سعيداً من أن يراني مستدرجاً بانتظام مثقفين إلى البيت الأبيض. إننا سنؤمن بهذا أوسع وجهة نظر ممكنة. وكان في الوقت نفسه يوجه اعتباراً عظيماً لا سيما لرجل كالأستار بوشان في المملكة المتحدة، وريمون آرون في فرنسا.

بدأت حالاً بعد هذه المقابلة في جس نبض أصدقائي وزملائي، استعجلني جميعهم في القبول ودون ريب أن رغبتهم في معرفة شخصية ذات تأثير في واشنطن قادرة أن تفتح لهم منافذ

السلطة. الشيء الذي تذوقه عدة أساتذة في السنوات التي تلت عهد كيندي. فرغبتهم هذه كان لها تأثير في نصائحهم. ومنهم من كان يخشى أهمية سوء التفاهم. وفي الواقع يمكن أن بعض أصدقائي وزملائي رأوا في علاقاتنا، ليس فقط ضمانة في منافذ موارد السلطة، بل أيضاً في تنفيذ نواياهم، وهذا كان مستحيلاً لسببين: المنافسة القوية الموجودة بين نيكسون والمثقفين التي كان لها أصل عميق حقاً سواء من وجهة النظر الفلسفية أو من حيث شخصيته وفي الحقيقة أن نيكسون لم يكن يقدم لهم ثقة لا يستحقونها، وكانوا يستطيعون أحياناً معايشة الوضع، لكن المشاركة العملية أبداً. أضف إلى ذلك بالرغم من أني أبديت احتراماً لزملائي ودمائه خلق لكثير منهم، لا سيما في شغلي وظيفة مستشار الرئيس، إذ كان يجب علي أن أكون أميناً جداً لرئيسي، وأجتهد في المساهمة بقدر كبير في سياسته. مع الوقت تبين أن اختلاف النظر هذا كان سبب تنافر كبير بالنسبة لي ولهم.

ومع نيلسون روكفلر جرت المحادثة الحاسمة. فأكد لي أنه لم يكن لدي خيار وكان يجب علي قبول العرض الذي قدم لي، ورفضي يكون برهاناً على الأنانية بكل وضوح. وإذا رفضت عرض الرئيس المنتخب سألوم نفسي عن كل اخفاق في سياستنا الخارجية، وفي الواقع أستحق الانتقاد القاسي. في نهاية بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ٢٩ تشرين ثاني، بعد أسبوع من قبولي مخابرة هاتفية في غرفة طعام روكفلر وبعد يومين من عرض المنصب استدعيت مستشار نيكسون. برايس هارلو. وطلبت منه اعلام الرئيس المنتخب أني أتشرف بقبول عرضه.

كان يجب أن يعلن تعييني في تمام الساعة العاشرة من يوم الاثنين الموافق ٢ كانون أول، وهكذا صعدت على منصه قاعة الرقص في فندق بيير برفقة الرئيس المنتخب للبدء بأول مؤتمر صحفي. كان نكسون عصبياً كالعادة، وكان يتهيأ لإحباط الانتقادات المداهمة التي أعلن عنها برنامجاً مختلفاً تماماً عما كلفني به بصورة غير علنية. فأعلن أن معاونه مكلف بقضايا الأمن القومي وسيكلف قبل أي شيء بمهمة التنظيم. وكانت نيته تعيين وزير نشيط للشؤون الخارجية. والمعاون صاحب العلاقة سوف لا يتدخل بين الرئيس ووزير الشؤون الخارجية. وسيهتم فقط بالقضايا ذات المدى البعيد وليس بالأمور العاجلة. كنت متأكداً أن هذا يوافق تطلعاتي الخاصة وزد على ذلك أنه لم تكن لدي أية نية بالاهتمام العلني بأمور السياسة الخارجية.

وللأسف فإن وعود حكومة جديدة هي كأوراق تطفو فوق بحر مضطرب، لم يتح لي ولا لأي منتخب ولا لأي من مستشاريه معرفة الجهة التي ستدفعهم إليها في النهاية عاصفة اللقاءات مع التاريخ، معلومات مبهمة، اختيارات مؤثرة وضغوط من كل نوع تتزاحم على قادة أمة كبيرة.

## ٢

# مرحلة التريث ــ الانتقال

## المباشرة

إن الفترة التي تتبع مباشرة نصراً انتخابياً تغتبط كثيراً. أما وقد تخلّص الرئيس المنتخب من ريبه والضغط الذي كان يعانيه نفسياً وجسدياً طيلة حملته الانتخابية في سبيل الغلبة، ستواجهه أخيراً أشياء أكثر واقعية. هو ومن يحوط به لكنهم لم يصلوا بعد ليكونوا ضحية متاهات ومعاكسات يعيشونها. سيظهر حالاً مستشارو الرئيس من الخفاء. واقل إشاراتهم وتحركاتهم، يحلها الصحفيون، والسياسيون ومصلحة الاستخبارات الخارجية، الذين يسعون لتكوين فكرة عن السياسة المقبلة وعلى العموم فإن هذه الدراسات هي غير ذات نفع لأن أتباع مرشح ليس لديهم وقت لمعرفة ما ستكون عليه الحكومة. كما أنهم هم أنفسهم لم ينتخبوا لمهاراتهم السياسية، وبعد الانتخابات يشغلون بالمشاكل الفعلية الواقعية التي يتطلبها تأليف الحكومة الجديدة.

# تأليف الحكومة الجديدة

إن مشكلة من سيشغل منصباً جديداً في هذه الحال هي دقة تأمين الاستلام والتسليم مع أسلافه واجتنبت قدر الإمكان الوجود في واشنطن سلمني «وولت روستوف»، مستشار الرئيس جونسون للقضايا الأمنية مكتباً في محلات الوسط الإداري، على بعد خطوتين من البيت الأبيض، ونصحني بالبدء بتحليل رموز البرقيات الواردة كل يوم . الشيء الذي رأيته مبكراً . علماً أنه لم يكن لدي أحد لمساعدتي في تحليل ما كان يرد. كنت أشعر بأنس كبير نحو جونسون وروستوف، ومنذ تعييني ذهبت وقدمت لهما احترامي. كنت التقيت الرئيس جونسون مرات عدة، لكني لم أعمل مباشرة معه. ففي عام ١٩٦٧ كنت قد أجريت مباحثات باسمه في فييتنام الشمالية بواسطة افرنسيين. وحضرت بهذه المناسبة اجتماعاً كان يديره مع مستشاريه الخاصين في قاعة الاجتماعات. تأثرت جداً بهذا الرجل الكبير الغليظ العنيف، الذي كانت تبدو منه مثل هذه الإرادة والقوة، ومع ذلك كان يظهر قليل الثقة بنفسه وسريع التأثر. كان حظ الرئيس جونسون تعيساً لاشتراكه المباشر بمغامرة كانت الولايات المتحدة رمت نفسها فيها قبل انتخابه. وعظيم حنكته في إدارة دفة السياسة الداخلية، لم يخفف عنه شيئاً. ولم يكن راضياً عن العلاقات الدولية . كانت الفكرة عنه أنه لا يوليها الاهتمام الفعلي . وفي حال ضجره مثلاً لم يكن راضياً عن صحة حكمه، وكان يستعين بمستشارين، لم يكن هو قد عين أغلبهم ولا يحملون نفس تفكيره. ومعظم هؤلاء المستشارين أنفسهم كانوا قد داوموا في مراكزهم إثر اضطرابات عام ١٩٦٠ . وكان يشعر بعضهم بقلق متزايد من نتائج طروحاتهم الخاصة وبدؤوا العمل ضد ما كانوا هم ينظمون.

لم يسع رئيس أبداً بالحصول على رضى عام وعدم الوصول أبداً إلى انتقاد دنيء. وليندون ب. جونسون كان يريد أن يعطي لنفسه انطباعاً صحيحاً عن التاريخ: عمله التشريعي ونزعته الانسانية الوثيقة سيستحقان له ذلك. لكن إذا كان لينه وقابليته للنصح جلبا له نجاحاً في السياسة الداخلية، فقد كانتا ضارتين به في السياسة الخارجية. وحكم عليه الجناح الليبرالي في حزبه بالقسوة، وبالليونة الكثيرة للمحافظين.

لم يستطعليندون جونسون أبداً العمل في السياسة الدولية، والحصول على مساندة غير مشروطة، سواء من حزبه أو من بلده. كان غير واثق بمواهبه، فاستعان بنصح أشخاص كان يعتقد أنهم قديرون، وانتهى إلى ابعاد منتخبيه ومحو ماضيه العميق.

عندما زرته في مكتبه البيضوي الشكل، كان الرئيس جونسون فريسة الألم. وكما علمت ذلك متأخراً فإن فترة الانتقال بالنسبة لرئيس خاسر هي فترة مظلمة، والدلائل الخارجية للسلطة لا تزال بادية. والبيروقراطية ما تزال تنقل الأوامر للتنفيذ. لكن النفوذ يفلت منها. والموظفون يؤجلون تطبيق الواجبات التي تطلب منهم.

والحكومات الأجنبية ما تزال تلعب دوراً دبلوماسياً، لكنها تحتفظ بكل تفكيرها وانتباهها للحكومة الجديدة. ومع ذلك فإن ممارسة السلطة أصبح شيئاً عادياً لا يشعر بفقدانه إلا سطحياً وأحياناً. الأيام تمر ويكمل الانسان شوطه في إكمال مهماته العادية كما لو كان لها بعض الأهمية.

هذا الوضع الذي كان عليه الرئيس جونسون، كان مكتبه البيضوي الشكل غارقاً بأجهزة التلفزيون والأجهزة الابراقية باثة أخبارها بنشاط. أي منظر غريب لرئيس الدولة هذا، أقدر رئيس في العالم، له اتصال مباشر بكل المعلومات التي تعطيها مصلحة استخباراتنا ويجتهد من وقت لآخر للإطلاع على آخر الأخبار.

رمى بنفسه في حوار طويل حول حرب فييتنام طالباً تحديد القوى الحربية ومكملاً مباحثات رسمية، لكنه لم يعد يتيقن مما كان يجابه في الحالين. وأرشدني للتأكد من نبل الهيئة الإدارية، إذ كان يعتقد أن قسماً من الهزائم النظامية الحق به الضرر.

قال: إذا كان لدي نصح أسديك إياه يا أستاذ «فانحنيت إلى الأمام حتى لا يضيع علي شيء من هذه الحكمة وليدة عشرات السنين قضيت في خدمة الوطن. نصحني في أن تقرأ الزاوية الدائمة للأسماء الكبيرة المنشورة في الصحافة. إذ أنها تصف أحد أعضاء جهازك الإداري وهي تستعمل الصفات «ذكي» «متفان» أو أية صفة أخرى كاذبة، فأبعد هذا حالاً، إنه هو يعطيها ذلك!». غادرت المكتب عازماً على بذل الجهد لأجنب الحكومة الجديدة حزن ووحدة جونسون عند عزله.

لكن فترة الانتقال لا تترك مجالاً للتفكير بهذه الأمور، مهمتي المستعجلة كانت بطابع عملي. كان يجب علي من جهة أخرى معرفة الذين كانوا على جوانب نيكسون مدة رئاسته ومن جهة ثانية تشكيل جهازي الإداري.

كان يجب لبعض أعضاء جهاز نيكسون تسامح غير المتعارف عليه كي لا يمانعوا في درجة تبدو بالنسبة له أحسن ما في الأرض: نفوذ أستاذ من هارفرد بالاشتراك مع روكفلر، وحصانة كوني بجانب الرئيس بعد غلبته. بعد كل هذا، ألم أبعد خارج المعركة الانتخابية ولم أشترك مع الذين أظهروا عداء أو احتقاراً لنيكسون؟ احدى المهمات الشائكة لرئيس جديد هي الاختيار ممن ساعدوه للمشاركة في السلطة. رجال ونساء جديرون بمساعدته في القيام بواجباته. وما يؤدي تقريباً ودون التمكن من تحاشي المعارضة بين من عضده طيلة مسيرته الطويلة والجدد الذين يقطعون ثمار جهود الرعيل الأول. هؤلاء القادمون الجدد هم ضروريون لأن الصفات اللازمة لمعركة انتخابية ليست هي التي تنتظر بنتيجة السياسة. المشاركة في معركة انتخابية منذ بدايتها، يعني أن المرشح عندما يكون حظه غير أكيد، فإنه يقتبس طبعاً خاصاً. تتطلب المعركة تقنية كاملة وتشمل مهمات عديدة بعضها مثل: تنظيم الوقت، اجتماعات عامة، مكان دائم للمندوبين أو ممثلي المنتخبين لفريق المرشح . المنتخب منهم أو المتطوع يعرفون من صدقهم وحسن خلقهم: أن يجلبوا له عوناً معنوياً ضرورياً في ظروف صعبة في ذاتها، وقليل منهم يدركون ما سوف يصبحون عليه بعد انتهاء المرحلة. لأن معرفتهم المسبقة في المعركة لا تسمح بالحكم على كفاءتهم السياسية.

طرحت هذه المشكلة بصورة واضحة حول معاوني نيكسون: بعض المخلصين الذين لم يفارقوه بعد هزيمته في انتخابات عام ١٩٦٢ لمنصب حاكم كاليفورنيا فكانوا يظهرون متحلين بثقة وولاء سقيمين تقريباً.

منطقياً، كان يجب أن تقف هنا مدة عمل نيكسون، وعناده في المطالبة بالرئاسة أصبح موضوع سخرية. (كان جونسون يعتبرها كترشيح مرضي). ما هو الممكن ربحه . حتى لمن يراهن على المدى البعيد . وللبقاء على ولاء مرشح غير مضمون؟ وحدهم المنافسون قليلو الحظ الثابتون معه يتمكنون من المخاطرة بمغامرة جنونية مثل هذه.

هذا وضع لم يكن لينقصه أساس فإن الذهان الهذياني لم يكن دوماً بحاجة لأصول وهمية حتى يظهر. عندما تنصب نيكسون في نيويورك عام ١٩٦٢ فإن الذين انتظر منهم بعض الاعتبار بصفة نائب رئيس كاد يصل للرئاسة، هؤلاء ابتعدوا عنه بجد. لم يحترم لأنه كان ينادي دوماً بالعائلات الكريمة. وهذا قوّى وشجع ميلاً لديه أن يرى نفسه محاطاً بالأعداء. كان يشاركه رفاقه عاطفة الانفراد ومرارته. وجهاز نيكسون خرب طوقاً منذ البداية أو كان يعتقد بالحصار قبل حصوله فعلياً.

هذه العقلية من موقع القوة جلبت فيما بعد تأثيراً سيئاً على الحكومة بكاملها، كانت تبدو بأشكال عدة وهذا الجهاز كان غير أهل بصورة أكيدة، أن يفيد الحياة الدنيوية في واشنطن لتسيير دواليب السياسة الوطنية. واشنطن هي مدينة صناعية حيث العمل هو رمز الحياة، يلتقي أكبر موظفي الدولة دائماً بعد اجتماعاتهم غير المنقطعة في السياسة الواجب اتخاذها، فيتواجدون مع عدد قليل من الصحفيين الهامين، وأعضاء الكونغرس اللامعين وذوي النفوذ، وبعض عناصر مجتمع واشنطن الرفيع. ولا يحكي فرضاً إلا عن الحكومة وهذا يعني كذلك في واشنطن الاتصال بين الشخصيات البارزة في الدولة الحالية، والتي في وقت ما تصعد أو تخسر بسرعة.

ان المعايير التي تسيطر على هذه الحياة الاجتماعية هي قاسية، وترتكز كثيراً على السلطة وبقائها وزوالها، ويكون الشخص مقبولاً منذ دخوله في الحلقة السحرية لمالكي السلطة. وفي أحوال شاذة وربما سريعة، يرفض لدى خسارته لمنصبه، وإذا طمست أوصافه من الصحافة، أو إذا لم يطل أمده في الكونغرس. وليس هناك نفع من محاولة تحطيم هذه الحلقة السحرية: القبول في الوظيفة . أو على الأقل امكانية القبول . وهذا تقريباً تلقائي، كما هي الحال في الطرد النهائي. إن الظهور في واشنطن بمظهر السلطة هو بالنتيجة لازم كحقيقة. وفي الواقع إن هذا المظهر يأخذ غالباً محل الحقيقة ذاتها، والتفكير في تقدم فلان أو فلان وزواله أصبح معياراً أساسياً، ينتج منه عراك حقيقي للحصول على منصب بطبيعة بيروقراطية حقيقية.

هذا ناتج في الحقيقة من أن الحياة الرسمية مسيطرة بشكل تصبح معه الحياة العادية نوعاً من ميزان جوي. فالصحفيون، والسفراء، وأعلى الموظفين يتمكنون من السير بموجب فوارق وأمزجة لا تظهر في الاجتماعات الرسمية. ولا تتوثق العلاقات إلا خلال حفلات الغذاء والاستقبالات وبدونها يفتر حالاً نشاط الحركة الحكومية. ان احتقار نيكسون وأتباعه لمظهر

واشنطن هذا لم يبسط الاشياء وحرمهم الحساسية اللازمة لفهم القلق النفسي الذي كان يتولد في الوطن.

يجدر بي القول أني أنا نفسي لم أكن أفقه شيئاً من خفايا سياسة واشنطن، أو الدولة، عندما أعلنت بمناسبة المؤتمر الصحفي المجتمع لتعييني، أن ليس لدي ما أقوله للصحافة. فمنذ الاعلان عن استلامي وظائفي قدم صحفيون هامون للتباحث معي، لم أتأثر بهؤلاء الرجال العظام، الذين قرأت لهم أو أصغيت إليهم طيلة سنوات خلت. تعرفت على وولتر لبيمان وجيمس (سكوتي) روستون وجوزيف ألسوب. وهذان الأخيران أصبحا صديقي. مرض ليميان بعد قليل وكان يرغب في توثيق علاقاتنا بالخارج بمواردنا الخاصة، ولا سيما في الهند الصينية والشرق الأوسط. وكلمني روستون عن عدم كمال الانسان بسذاجة ممزوجة بالارتيابية الكلفانية، والتي غالباً ما يعبر عنها. وبالنسبة لجو ألسوب، فان هيئته طيلة محادثتنا كانت تدل على التفكير في الحكم على قابليتي لملء وظائف عليا بموجب معايير أقسى من معايير نيكسون. وأفهمني أن معرفته لقضية الهند الصينية كانت تفوق بعداً رجاحة خيار نيكسون، وأنني سأبقى موضوع متابعة بعض الوقت.

دعاني رؤساء تحرير نيوزويك لمقابلتهم، وللمرة الثانية أثبت بصدق التعارض بين وضعي وواقع اعطاء الصحف حديثاً جوهرياً حقيقياً. قبلوا إجابتي بتسامح رخيص كعادتهم تجاه الهواة أو المغفلين. حاسبت نفسي حالاً لأي مدى كان وضعي دقيقاً. ان احدى الوظائف الهامة لمعاوني الرئيس هي في شرح سياسته واكتشفت أنه كان من غير الممكن عندي عدم الاهتمام بهؤلاء، وبدأت بمقابلة الصحفيين. وتقريباً بمبادرة مبدئية منهم. ولاحظت أنه كان يوجد في واشنطن تكافل حقيقي بين الصحافة والحكومة . قبل الصحفي بذلك أم لا فإنه يكون جزءاً من الآلة الحكومية، ويمكن أن يكون على ثقة من أن كل شخصية هامة تصغي إليه أو تسمع ما سوف يقول. يدعوه الموظفون لجلب الانتباه حول مواضيع تهمهم، ولتنظيم حساباتهم مع أحدهم أو لتسويه أمر يغيضهم. ومهما تكن الأسباب التي تدفع بهؤلاء الموظفين، فإنهم حتماً المستفيدون. وأقل ما يقال أنهم يسعون للظهور بأحسن حال. ويكفي من كان معتاداً أن يقرأ بتمعن ما تكتبه الصحافة، مع إصغاء دقيق للمعلقين المشكورين وما يقولون عما يجري ضمن الإدارة وعن تحركات القوى السياسية الخفية.

ان الصحفي يجد من جهته فائدة حقيقية من مخالطته الموظفين ويجب عليه بدوره مسايرة وتملق هؤلاء، لأنه دون عطفهم لا يتمكن من الحصول على أية معلومات. غير أنه لا يتمكن من السماح بفرض سيطرته . خوفاً من التعرض لفقدان مطلبه، كما أنه لا يمكن تجنب علاقات متضاربة. يعتقد الموظفون أن «تقارير ودية» تجلب لهم تسامح الصحفيين، ويقبل هؤلاء على إظهار موضوعيتهم بمهاجمة أولئك حتى الذين يغدقون عليهم العطف. فلو كان الفريقان واقعيين وحكماء، كان عليهم تبادل الاحترام. يدرك الموظف عندئذ أن نزاهة الصحفي وليس مسايرته هي الضمان الحقيقي لنزاهته. وبالنسبة للصحفي، فإنه يقبل أن يكمل الموظف واجبه قبل كل شيء وأن واجباته لا تكمن أبداً في اعطاء معلومات خارجة عن عمله. فلو كان الذين يعملون في السياسة والذين يعلقون عليها، يتوصلون إلى احترام واجباتهم الرئيسية، فإن التعاون الناتج عن ذلك يمكن أن يكون احدى ضمانات مجتمع حر.

اكتشفت بعد ذلك وجوب إهمال إحدى أفكاري الأولى، إذ كنت أظن التمكن من التدريس في هار فرد حتى حفلة التنصيب، فظهر هذا مستحيلاً. وفي الحقيقة كان علي أن أتعايش مع واجباتي. ووجب علي البدء بتأسيس التحليل والتخطيط اللذين وعد بهما الرئيس في حملته الانتخابية. حصلت على قسم من معلوماتي بأخذ رأي الكثير من الرجال والنساء الذين لعبوا دوراً هاماً خلال حكم ايزنهور، كنيدي وجونسون. يجب القول أن السياسة الخارجية بعد الحرب قام بها بنشاط رجال ذوو اعتبار، الذين بعد أن امتازوا في مجالات أخرى، خصصوا أنفسهم لوطنهم مثل: دين أشيسون، دافيد ك. ا. بروس، اللزوورت بونكر، افريك هاريمان، جون ماك كليوي، روبرت لوفق، دوغلاس ديللون، ولا حاجة لتعداد غيرهم، كانوا رجال موهبة فريدة، ينتمون لنوع من الارستقراطية، التي جعلت نفسها في خدمة الأمة تحت اسم مبادئ أرفع من التناصر الحزبي. يجب على الشعوب الحرة معرفة جميلهم نظراً لأعمالهم . رؤساء ووزراء شؤون خارجية وجدوا سنداً لدى هؤلاء الرجال ذوي الوظيفة الصادقة والمعرفة المعطاة بطيبة خاطر. لما بدأت وظيفتي، كانوا دوماً على استعداد لإسدائي نصحهم دون مقابل. وكذلك لم تكن هناك خشية من اعطائهم معلومات رسمية في سبيل مصلحتهم الشخصية أو السياسية.

لسوء الحظ، لدى قدومي كان جميعهم قد وصلوا السبعين عاماً . بعض الرجال من أجيالي كانوا يوازونهم في الذكاء، ولكن لم يكن أحدهم قد قام بتجارب كافية ولا اكتسب التجرد والنزاهة اللذين كان يتحلى بهما أسلافه . عندما يترك القدماء خدمة الأمة، فإن المبادئ الثابتة وتوجيه السياسة الخارجية تزول معهم.

ومن ضمن هذا الفريق، كان جان ماك كلوي الذي طالما شاهدته خلال فترة الانتقال. وعندما أقمت في واشنطن، أصبح دين أشيسون ودافيد بروس أفضل أصدقائي ومستشاري. وكان جان ماك كلوي يشبه كثيراً بمظهره المصارع وبرأسه القنبلة، عفريتاً مرحاً أكثر من رجل قانون نيويوركي لامع، وقد كان مستشاراً لعدة أجيال من الرؤساء ووزراء الشؤون الخارجية، لأول وهلة لم يكن يدرك أبداً من أين يأتيه نفوذه، إذ لم يكن قد مارس أبداً وظيفة وزارية، والمناصب التي شغلها كانت هامة دون أن تكون رئيسية. حبه للفكاهة كان سبيلاً لهدر وقت كثير، وذكاؤه كان مرتبطاً بعقله السليم أكثر من حدة ذهنه.

أما ذوو المناصب العليا فيجدون أنفسهم دوما تجاه مسائل شائكة. وعدد من الرؤساء ووزراء الشؤون الخارجية وجدوا في جون ماك كلوي مرشداً أميناً حين الشدائد. لما كان يقترح حلا لمسألة شائكة، وما كان يفوته أبداً اعادة الثقة المعنوية والنفسية التي كانت تجعل الحلول ممكنة. وفي عام ١٩٧٥ لدى عودتي من الشرق الأوسط والمفاوضات غير المثمرة التي قمت بها هناك، رجوت جون ماك كلوي أن يقابلني، فلبى الدعوة في الحال. ولم أعلم إلا فيما بعد أنه كان يحتفل في ذلك اليوم بعيد ميلاده الثمانين، وتخلى عن اجتماع عائلي دون التفكير لحظة بتأجيل لقائنا إلى الغد. وكان دوماً جاهزاً وكله حكمة وتعقل.

عندما بدأت بتشكيل جهازي الاداري ظهر حالاً الخلاف مع جهاز نيكسون. وبموجب التقاليد يقع الاهتمام باستمالة اعضاء مجلس الأمن القومي على مستشار الرئيس. وأنا أول من عينه نيكسون للشؤون الخارجية اذ كنت أملك افضلية تمكنني من استمالة الملاك بسرعة. أضف إلى ذلك فإني بصفتي ملحقاً بالبيت الأبيض، لم أجد نفسي مقيداً بأية اجراءات ادارية. ولأجل هذا، ما دمت حراً من ضغط بيروقراطي وبالضوء الأخضر من الرئيس المنتخب، لتجديد كل ادارتي كنت عازما على دعوة رجال أكثر جدارة وأكثر ثقة ممكن توظيفهم. اذ أني أنا نفسي كانت لدي آراء محددة، ورأيت تبادلها مع آراء الرجال والنساء من ذوي الذكاء والخلق الحسن، وكل من خالفني في آرائي نال احترامي، وأصبح غالباً أقرب مساعدي. ولكي يقوم جهازي الاداري بدور حاسم ويتمكن من فرض هيمنته على مصالح الحكومة المختلفة، كان من الممكن التعويض عن قلة عدده بنوعية أعضائه. وفي الواقع فان هذا العدد القليل من الممكن أن يعطي أفضليته في حدود تجنب المناقشات التي لا تنتهي وتشل حركة المؤسسات الاكثر أهمية، بحثت اذاً عن رجال ونساء في سن الشباب وأعطيتهم حالاً ترقيات، منطلقاً من المبدأ القائل: مع سلك خارجي

يتمكن الإنسان من اعطاء أحسن ما لديه، وتصبح لديه فرص اقل لتقديم الكثير ضمن جهاز اداري.

ارتبطت أيضاً بموظفين مارسوا المهنة في الشؤون الخارجية والدفاع الوطني، ومصلحة الاستخبارات، للاستفادة سواء من تجربتهم أو مساعدتهم حيال المواريات والمشاكل البيروقراطية.

استدعيت شخصيات جامعية لامعة، وأخيرا لضمان توازن ما، بذلت جهدي في جمع مساعدين لديهم آفاق مستقبلية واسعة.

قررت أخذ الاعتراضات الصادرة عن الأمن بعين الاعتبار، وجعل قيمتها طابعي الوحيد في الاختيار. أرسل لي بيتر فلانيفان مرافق نيكسون، المكلف بتعيين المسؤولين السياسيين (الذي أصبح فيما بعد أحد أصدقائي) أسماء ستة أشخاص كانوا قد وعدوا بمناصب. قابلت بعضهم ورفضتهم مباشرة. كانت هناك حالتان، اعترض فيهما هالدمان باسم الامن على اختياري. وهذه القضية كانت ترتبط بنوع خاص بالآراء التحررية التي يمارسها هؤلاء الرجال، كما كانت مرتبطة أيضاً برغبة اعطاء تصاريح للصحافة، وفي الحالتين تجاوزت تحفظات هالدمان.

كان نيكسون يدعمني باستمرار. وكانت لديه ظنون خاصة، وعندما أخذ الرأي العام بالتحرك اثر ذلك، توصل إلى الشك بجهازي الاداري. وكان يظن أن بعض زملائي لا يحبونه . وما كان مخطئاً بذلك . ويغذون الانتقادات بافشاء أسرار، لم تثبت صحتها أبداً. وبالرغم من كل ذلك، وافق نيكسون على قراراتي خلال فترة الانتقال. وبفعله ذلك، لم يكن لديه نفس الموقف تجاه السياسة الخارجية والداخلية.

إذ كان قد تبنى في السياسة الداخلية فلسفة عملية غير مبنية على سوابق. ومنح ثقته لجهاز غريب في تركيبه، وهنا لا بد من تبيان ما يلي: بقي نيكسون حتى نهاية المطاف مقتنعاً باقتفائه التقليد في هذه السياسة. وإذ رأى نفسه بالتالي متهماً بسبب ذلك، وهذا يعود لتملق الطبقات الحاكمة التي مارست في هذه الحالة الموازين والمكاييل في الاخلاقية، وبالمقابل فان السياسة الخارجية بالنسبة له كانت تشكل مجالاً خاصاً. عندما كانت المصلحة القومية والأمن وتطور العالم الحر موضع رهان وكان نيكسون يؤكد على اجراء العدل دون الالتجاء الى ذرائع مهما كانت

الممارسات التطبيقية التقليدية، وعند الاقتضاء عكس الفكر الكلاسيكي. وفي الحالات الخاصة فقط ترك مصالحه تعلو على القرارات المتخذة في السياسية الخارجية.

ظهرت بعض اختباراتي في نهاية المطاف قليلة الفطنة، لكن تفاني ومؤهلات جهازي ساهمت بصورة رئيسية في النجاحات التي حازت عليها أول حكومة لنيكسون في الحقل الدبلوماسي. ومن شكل منهم النواة: (ونستون لورد، لورنس ايفل برغر، هلموت سانانفليد وليم هيلاند، هارولد ساندوز، بيتر رودمان، والكسندر هيغ) الذي جابه بجانبي كل الصعوبات وأصبح كذلك صديقاً لي. ان القيمة العليا لهذا الجهاز تفسر بقسم كبير النفوذ المتزايد لمستشار الرئيس في القضايا الأمنية. لقد أصبح تطور جهاز خدماتي رئيساً لأن ريتشارد نيكسون شكل حكومة رجال أكفاء. دهاة وخدومين. غير أنهم ما استطاعوا في الواقع العمل جماعياً.

# جهــاز فوضوي « غيــر انضبــاطي »

كان ريتشارد بطريقة ما أول رئيس جمهوري . منتخب منذ ستة وثلاثين عاماً . وانتخب دوايت ايزنهاور بمراسيم جمهورية، لكنه كان قليل الالتزام للحزب الجمهوري نفسه، وسار بموجب ذلك. وبعد إبعاد الحزب الجمهوري عن الحكومة مدة انتخابين تقريباً، خسر معنى مسؤوليات السلطة وظهـرت النتـائج منـذ دخـول الـرئيس الجديـد الوظيفـة، وغالبـاً مـا تـصرف ممثلـوا الحـزب فـي الكونغرس وكأنهم يعارضون الرئيس الجمهوري. وأعضاء الحكومة الجديدة، الغرباء عن بعضهم والمضللون بشخصية الرئيس المعقدة . لم يشكلوا أبداً فريقاً متطابقاً .

حسب رأي عالم اجتماع فرنسي: ان كل ملاك يخضع مباشرة لأوامر رئيس منظمة، يجد نفسه أمـام خيـار أساسـي: يمكـن أن يعتبـر نفـسه ممـثلاً مباشـراً لرئيـسه، وأن يكـون مـسؤولاً جزئيـاً عـن القـرارات الخاطئـة الـصادرة عـن رجـال التنفيـذ، ويمكنـه أن يكـون أيـضاً النـاطق بلـسان أتباعـه، ويحمل بذلك رئيسه المسؤولية الوحيدة للاختيار الصعب. في الحالة الأولى تسنح كل الفرص أن يعارض من قبل رجال التنفيذ . أقله في البداية . لكنه يساهم في ايجاد تلاحم وتشكيل . أسرة واحدة . وبالتالي معنويات عالية. لو ألقى بالمقابل على رئيسه مسؤولية الاجراءات الصعبة . واذا أصر على لعب دور الشخصيات النشيطة . فانه يستميل اليه عند الاقتضاء عطف أتباعه لكن على حساب الانضباط والفاعلية. وفي نهاية المطاف، تتأثر بذلك ديناميكية المؤسسة. أضف الى ذلك فان الموقف يبعث المشاكل التي كانت الحكومة تبغي تجنبها، لأنها تسترعي الانتباه حول العوائق على حساب الاهداف.

يزيـد الوسـطاء مـأزق المـسؤولين تعقيـداً فـي واشـنطن. ويـستخدم الموظفـون المـستاؤون الصحافة لبيان مآخذهم. ويفيد الوسطاء من اظهار الخلافات الناشئة داخل الحكومة، كما أن بعض الـصحافيين لا يترددون من التدخل «لخلق حكاية طريفة». والكونغرس من جهة يبحث أكثـر فـأكثر عـن موضـوع فـي الاختلافـات الحاصـلة بـين المـوظفين المـسؤولين وعلـى اللجـان التحقيق به، ويشدد على ما يفرق، وتصبح أزمات واشنطن خلافات ادارية.

ليس هناك من شك في وجود «جهاز نيكسون المزعوم» على الأقل في البيت الأبيض. الذي لم يقاوم الضغوط التي أثقلته إثر ذلك لأسباب عدة، اذ أن فلسفة نيكسون وماضيه كانا مقبولين من قليل من الناس من خلال الوسطاء، كانت المحاولة كبيرة في اسناد كل اعتبارات النجاحات السياسية لشركائه المرموقين وفي لصق اللوم به، في كل ما كان غير محبوب، ولا بد آنئذ لشركائه من التحلي بمزايا خاصة من الولاء والتضحية لرفض الامجاد المكتسبة. ولم يكن أي منهم «وأنا بينهم» يمارس هذه المزايا.

وبالنتيجة، برزت ظاهرة غير عادية، في عهد أغلب حكومات الولايات المتحدة. فإن البيت الأبيض كان يقوم بإعلان الأخبار السارة والوزارات المختلفة تعلن الأنباء الرديئة. ولقاء ذلك أصبحت الإدارة في عهد نيكسون ماهرة بشكل خاص بنشر جميع الأخبار: السارة في وقت مبكر، لنيل جزائها، والرديئة بطريقة تلقي فيها كل المسؤولية على الرئيس. وهذه الظاهرة زادت نيكسون اقتناعاً أنه كان محاطاً بمتآمرين حتى ضمن حكومته. وحثته على الانطواء على نفسه والانفراد المتزايد أيضاً. انقلبت الحكومة إلى تجمعات بارونية يوجهها سادة همهم الوحيد الاحتفاظ بنفوذهم ضد الهجمات المؤقتة من قبل السلطة المركزية، المحتمية في حصنها والتي يقوم أتباعها بخدمتها ويتمسكون بامتيازاتهم.

استفدت في الوقت المناسب من هذه الحالة. إذ أن من سخرية القدر وبموجب أحد هذه الأسباب، كلفني الرئيس بمسؤوليات عظيمة وكثير من المهمات، فأصبحت خاضعاً لسلطته مثل حكومته. وبما أنني كنت غير معروف كثيراً في البداية، كان يرى في ذلك سبباً يؤكد أن جزءاً من الفضل على الأقل يعود للبيت الأبيض.

لم ينظم نيكسون شؤونه متخذاً أسلوباً ادارياً أقل مباشرة. مختاراً حكومة كانت علاقاته معها معقدة (وهذا أقل ما يمكن قوله) فلم يظهر أي عمل من قبل جهازه، وكان هذا على الأخص وضع وزيره للشؤون الخارجية.

عند انتخاب وليم روجرز لم أكن أعرفه. بعد تعييني بقليل، تحادثنا باختصار نيكسون وأنا في موضوع اختيار وزير جديد للشؤون الخارجية. فقال لي أنه يسعى لايجاد مفاوض لبق اكثر من رجل يوجه دفة السياسة، الوظيفة التي كان يحتفظ بها هكذا لمجلس أمنه. إذ أنه لم يكن يثق في موظفي الخدمات السياسية. كان نيكسون يريد رجل ثقل يضمن لسياسة الرئيس دعم وزارة

الشؤون الخارجية. تمكنت من أن أفهم، أن اختياره الأول سيقع على السفير روبرت مورفي، السياسي البارز المتقاعد والذي كان في هذه الفترة رئيس مجلس ادارة كورنينغ غلاس : Corning Glass وكان مورفي قد قام بخدمات فريدة في عدة مناصب هامة، وكنت قد اعتدت على احترام حكمه وفكره وبعد بضعة سنوات، اشر لي نيكسون أن مورفي كان قد رفض المنصب.

بعد تعييني بعدة أيام، تعرفت على وليم روجرز، في غرفة طعام أحد الأجنحة التي كان يشغلها نيكسون في فندق بيير. كان الرئيس قد طلب مني مفاتحة روجرز وأن أنقل غليه انطباعي. بين لي فقط أن روجرز يمكن أن يعين في منصب خطير من الشؤون الخارجية. فلا روجرز ولا أنا كنا نعلم الغاية الحقيقية من لقائنا، وكان حديثنا مفككاً ومصنعاً. لم آخذ أي انجطبا خاص، وكل ما في الأمر، أني وجدت روجرز أنيسا لطيفاً.

في الغد ودون أن يسألني عن انطباعي حول هذا الحديث، ابلغني نيكسون أنه سيعين روجرز وزيراً للشؤون الخارجية. قال لي إن روجرز وهو كانا متفاهمين جداً إبان حكم ايزنهاور، في الوقت الذي كان فيه روجرز وزير عدل، لكن صداقتهما فترت عندما ترك الاثنان منصبيهما، رجال يمتهنون القانون، جاؤوا يتنافسون. بالرغم مما يعلو علاقاتهما من ظلال. كان نيكسون يعتبر أن روجرز هو الرجل المميز لهذا المنصب. ولو أن معرفة روجرز قليلة في هذا المضمار فهي بالنسبة لنيكسون كل شيء. سيكون على ثقة أن الإدارة السياسية ستبقى في أيدي البيت الأبيض. وحسب رأي نيكسون فروجرز في الوقت ذاته: أحد الرجال صلبي العقيدة، الصلفين، الأنانيين، الطموحين الذين صادفهم. وبقدر ما كان لبقاً في مباحثاته كان يجعل من السوفييت مرضى، وموظفو وزارة الشؤون الخارجية الصغار، ليس عليهم سوى حسن التصرف. لأن روجرز لا يقبل أن يكون أحدوثة.

قلة من وزراء خارجية الشؤون الخارجية انتخبوا بهذه الصورة. أعني بسبب تأكيدهم أن رئيسهم كان يجهل السياسة الخارجية.

لقد كان من المؤسف أن يعين في منصب هام في الحكومة، رجل كل ثقافته وكل خبراته كانت صلتهما بمجالات أخرى. كان روجرز بالحقيقة وزير عدل لامعاً، لكني إذا عدت إلى خبرتي، فإن الحكمة القديمة التي يقوم فيها الناس بموجب الخبرة، لا أساس لها. منصب خطير يعلم العزم ولا يعطي المعرفة. وأعضاء الحكومة أثارتهم حالاً المعاكسات التي كانت تحدد لهم خدماتهم.

وبصورة عامة، القيام بوظائف عليا يفرغ الدماغ ولا يملؤه. ومعظم موظفي الدولة الكبار يغادرون مراكزهم بالنوايا والأفكار التي كانوا يحملونها حين دخولهم الوظائف. تعلموا اتخاذ القرارات، ولكن أية قرارات اتخذت، ويعرفون اقل من ذلك عند المغادرة. هم متعلقون بمعين المعلومات الوحيد الذي منه ينهلون ألا وهو الموظفين الدائمين. ولا يستطيعون الافتخار بمحاكمتهم الخاصة، ويجهلون الخيارات الممكنة، فليس لديهم عموماً حل آخر إلا الالتجاء لرأي الاختصاصين.

هذه المشكلة قاسية في وضع وزير للشؤون الخارجية. سيترأس مصلحة مؤلفة بالطبع من رجال ونساء، أكفاء، خبيرين جداً بالوظائف العامة، وهؤلاء الرجال والنساء هم أذكياء، قديرون، ماهرون وصلفون في مهماتهم، لكنهم مقتنعون مقابل ذلك أن حياة الوظيفة والعمل اضفت عليهم من حدة الذهن مالاً عليا مبتدئون دون خبرة.

إذا كان الوزير بالتأكيد إدارياً، فإن جدارته تجعل من موظفي المصالح السياسية آلة لا يستغنى عنها ودون ثمن للمسؤولين السياسيين. وتصبح هذه المجموعة اداة طيعة وذات تقدير كبير، والمبادهة التي تحدث للأخذ بها، تخلق حديثاً هاماً، وأخاذاً أحياناً. لكن إذا لم تمسك يد قوية بالمكابح، فان فكراً غير مفهوم يأخذ بمقاومة النظام.

رؤساء المصلحة ليسوا بعد، لسان حال السياسة الوطنية، لكنهم محامو البلاد الذين تعالج بهم قضاياها. ويهتم معاونو الوزير خارج نطاق عملهم، بما له صلة بمجال نشاطهم. ويدافع الموظفون عن المصالح الحزبية، بعناد ومهارة فائقة وبعشرات السنوات من القتال لخلاص وظائفهم. يطبقون وبمهارة فعلية التعليمات الصريحة المعطاة لهم، لكن ليس من اللائق اقناعهم بسلامة التعليمات التي يشجبون.

ان بينة وزارة الشؤون الخارجية تسمح بمعيار كبير للمبادهة الإدارية. مبدأ التخطيط مقبول برؤوس الشفاه، ومع ذلك هناك ميل كبير للقيام بسياسة تقوم على جابة البرقيات ببرقيات أخرى. ليست هذه إذاً معالجة صحيحة وامكانيات خيار سياسية خاضعة بكاملها لوزير الشؤون الخارجية الجديد إذ تنتظره على مكتبة كومة من الوثائق الواجب الاطلاع عليها وتوقيعها، وبأقرب فرصة ممكنة. لا يستطيع تكوين فكرة شخصية، لأنه طبعاً لا يعرف عن أكثرها سوى القليل، وبصورة أعم لا يعرف شيئاً عن هذه الوثائق ولا المشاكل التي تعالجها. وفي كل الأحوال فإنه لا يعرف أي

الخيارات تقدم له، بمجرد قراءة هذه البرقيات الموجزة. ولنفرض أنه يأخذ مقامه ويرفض موضوعاً خاصاً، فإنه سوف يعاد إليه بالطبع ولكن بصيغة أقل ايضاحاً، والخبير القضائي وحده يتمكن من معرفة الفرق. عندما اصبحت أنا بنفسي وزير الشؤون الخارجية، اكتشفت ان مراقبة هذا الطراز من البرقيات، كانت تمثل مهمة جبارة، حتى لمن كرس حياته للسياسة الخارجية. ويا لتعاسة غير المدربين الذين يجدون أنفسهم تحت رحمة تلك الزمرة الخاصة من مختصين أوفياء.

بانتخاب وزير ذي خبرة قليلة، أضاف نيكسون بشكل معقّد، نفوذ العنصرين اللذين كان يخشاهما كثيراً: الشؤون الخارجية والصحافة. وفي الواقع لم يكن لدى الوزير سوى امكانيتين: تلقيه الأوامر من البيت الأبيض، فيصبح محامي السياسة الرئاسية، لدى وزارته، والكونغرس والأمة. أو أن يكون لسان حال أتباعه. وفي أوقات أقل اضطراباً، فإن الوزير روجرز سيجد نفسه قادراً على إيجاد توازن عادل حيال الضغوط الممارسة ضده. أما وسط العاصفة التي هبت في البلاد بسبب قضية فيتنام. كان لابد له من الثبات وحسن التصرف التي لم تكن متوقعة بحق، من قبله. حاول وبشكل طبيعي تجنب الهجمات المثارة ضد سلفه «دين راسك». وكان لديه ميل لاستخراج رأي الأمريكيين والكونغرس حول آراء أهم صحف الساحل الشرقي، التي بدورها كان لها تأثير فعال على أتباعه، لذا أظهر روجرز في المواقف الحرجة قليلاً من الاهتمام في الدفاع عن الرئيس وتوصل أخيراً إلى اتخاذ مواقف معارضة له.

من المحتمل وبشكل متناقض أن هذا الميل يكون قد تقوى لديه بذكرى صداقته لينكسون في أعوام ١٩٥٠. «كان روجرز نفسياً آنذاك في وضع متعال بالنسبة لنيكسون. وكان من الصعب عليه إذاً أن يدرك أن أدوار اليوم قد انعكست. وبالأكثر أن يتخيل بصورة تقريبية أن المقصود كان مناورة طوعية من قبل صديقه القديم، وكان قلقاً من اثبات أن نيكسون يدير الآن زمام الأمور. مستفيداً من مكانته الإدارية ومن تجربته.

نجم عن التنافس الغريب بين الرجلين تقوية وضعي الخاص، وفي الواقع أن أهمية دوري لم تكن السبب، بل نتيجة واضحة لهذه الوقائع. كان نيكسون قد عزم منذ البداية على السيطرة على المباحثات الأكثر أهمية. لذا وضع على حدة وزير للشؤون الخارجية لدى لقائه الأول بسفير اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية «أناتولي دوبرينين» في ١٧ شباط ١٩٦٩. وجرى ذلك بعد أربعة أسابيع من استلام الرئيس سلطته. وكان غير موافق أن أثير هذه الفكرة في ذلك الحين، إذ

أن التصرف الذي قام به الرئيس قبل تثبيت وضعي أصبح عادة لديه وطيلة تسلط نيكسون كنت الأمريكي الوحيد الذي يحضر اللقاءات الطويلة التي كانت تجري في المكتب البيضوي بين نيكسون والمسؤولين الأجانب.

برزت المنازعات حول المسؤولية السياسية بشكل سريع. فأكد الوزير روجرز من جهة بأنه سيطبق الأوامر التي لم يكن يقرها شريطة أن تصدر عن الرئيس شخصياً. اذا كان هذا الشيء غير ممكن قبوله نفسياً لدى نيكسون. وكان عليه أن يفعل أي شيء تجنباً لمعارضة شخصيته. كان يبعث رسائل ومبعوثين لشرح مقاصده. لكن روجرز كان يفكر بحق أن هذه الرسائل ينشئها جهازي أو أنا بنفسي. وبالرغم من توقيع الرئيس عليها كان يرفض منحها رصيداً هاماً. وبالنسبة للمبعوث الذي هو عادة جون ميتشيل كان يعارضه مستوحياً صداقته القديمة مع الرئيس ومؤكداً أنه يعرف نيكسون أكثر من أي كان. ما كانت هذه المناقشات لتنتهي. والموقف كان يرى معقداً جزئياً، لأن الرجلين كانا يلقيان المسؤولية على طرف ثالث. أمر نيكسون عبثاً أن تمر على البيت الأبيض كل البرقيات المرسلة، ولم تنفذ أوامره غالباً. وعلى كل حال، فان الوسائل التي بحوزة وزير الشؤون الخارجية للاتصال بمرؤوسيه هي عديدة، بحيث يصعب مراقبتها بموجب الأوامر.

بغية تجنب هذه المجابهات غير المحدودة، قامت مع الوقت الاتصالات التي أجريناها أنا والرئيس مع أهم القادة الأجانب، بواسطة خطوط ربطت مباشرة غرفة العمليات في البيت الأبيض بالبلاد الأجنبية دون مرورها بوزارة الشؤون الخارجية، أعني بما ندعوه الطرق الرسمية. هذا الاجراء أتبع منذ اليوم التالي لدخول نيكسون السلطة. كان الرئيس الجديد يتمنى فعلاً تعديل التعليمات المتعلقة بالمباحثات حول فيتنام التي كانت الشؤون الخارجية قد أنشأتها وكانت تعكس وجهة نظر الحكومة الماضية. ولما كان نيكسون راغباً أيضاً بتجنب الخلافات، طلب الي الاتصال هاتفياً بالسفير «هنري كابوت لودج» مفاوضنا في باريس، لأرجوه أن ينقل بالطرق العادية تعليمات الرئيس الجديد وكأنها من قبله. قبل لودج ذلك دون صعوبة، لكن طرقاً كهذه كانت معقدة وتبدو غير فعالة في معظم الحالات. وهكذا جرت المفاوضات الدقيقة أكثر فأكثر في البيت الأبيض متيحة لنيكسون اداراتها شخصياً، ناسباً لنفسه الفضل، ومتجنباً الارتباك أو الوطأة الادارية التي كان يراها شاقة.

كما أن الرئيس لم يمتنع أبداً من التنصل عن مبادرات تقوم بها الشؤون الخارجية. ففي آذار عام ١٩٦٩، مثلا، بعد المحادثة الأولى الرسمية بين روجرز والسفير «دوبرينين» حول فيتنام، طلب

الي نيكسون أن أبلغ سرياً الموظف الكبير الروسي، أن الاقتراحات المطروحة في هذه المناسبة من قبل وزير الشؤون الخارجية، كانت قد تجاوزت ما يريده الرئيس. لم أقم بشيء أولاً، مفضلاً التريث بانتظار معطيات أوضح، لم يمض سوى القليل حتى ان تصرف البيت الأبيض والشؤون الخارجية. أوقف السوفييت على مجرى مفارقاتنا الداخلية وأخذوا يعملون ما يحلو لهم لاستغلال الواقع. وبالطريقة نفسها، فان نيكسون لم يبلغ روجرز عن اللقاءات الشخصية التي أجراها مع رئيس فيتنام الشمالية «هوشي منه Ho Chi minh في شهري تموز وآب، الا قبل اعلانها في التلفزيون بثمان وأربعين ساعة في تشرين الثاني ١٩٦٩.

منذ بداية ١٩٧٠، كلف نيكسون معاونه «ليونار غارمان» ووزير العدل «جون ميتشيل» لابلاغ الجمعية اليهودية أن خطة روجرز حول الشرق الأوسط، كانت تحمل حقاً اسمه لكنها ليست من نتاج البيت الأبيض. وفي آيار ١٩٧١، عند مباشرة البيت الأبيض والكرملين بالمفاوضات التي انتهت الى المحادثات الأولى حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية، لم يعلم روجرز بذلك الا باثنتين وسبعين ساعة قبل الجماهير. وفي تموز ١٩٧١ لم يعلم روجرز أيضاً بزيارتي السرية إلى الصين إلا بعد سفري. وفي تموز أيضاً عام ١٩٧٢ أفضى اليه الرئيس بشرح غامض جداً حول سفري الى موسكو (كان قد اتفق عليه سرياً واعترض عليه روجرز عند علمه به في اللحظة الأخيرة) وأن المفاوضات كانت جد معقدة. وأمثال من هذا النوع يمكن سردها إلى ما لا نهاية.

أعترف أني لم أعمل شيئاً لتلطيف وضع الرئيس بالنسبة لمكانة عضو مهم في حكومته، فحضوري أولاً كان يجعله ممكناً وفنياً، ومن ثم أني كنت أشجعه. وفي الواقع، على غرار غالبية أعلى الموظفين، كان لدي افكار محددة، لم أكن افوت أية فرصة لتبيانها. والتصرف عن اقتناع في المشاركة لأحداث عالم أفضل، يمكن أن يجعل المسؤوليات والألقاب المتعلقة بتنفيذ متطلبات المناصب العليا، ممكنة الاحتمال ومبهجة حقاً. لا أعرف ماذا أقول اليوم عن الظروف التي تتوصل فيها أجسام متحركة أقل نبلاً. متعجرفة ومتعطشة للسلطة. ولكنها بالرغم من ذلك أصبحت لها أهمية أبقى على الأقل مقتنعاً أن حكومة في ظلال أمثال نيكسون، لا يجوز لسياستها الخارجية الا المرور تحت مراقبة البيت الأبيض، مهما كانت التصرفات الادارية أو الاشخاص القائمون عليها.

منذ اللحظة التي يختار فيها نيكسون مستشاراً ذا شخصية قوية، خبيراً في السياسة الخارجية، لابد من حدوث مواجهة بين هذا الأخير ووزير الشؤون الخارجية. وهذا الذي لم

أحسب له حساباً الآن. وحسب طبيعتهما فان المنصبين يقومان على أساس المواجهة اذا كان القائمين عليها يسعيان في لعب دور سياسي هام. وكل شيء يسهم في خلق مضادة ما بينهما، اذ لو توصلا يوماً لاتفاق كامل، لما بقي لزوم لوجود احدهما. ولو كنت غير واثق بهذا العهد، فاني اليوم على ثقة ان الرئيس يجب عليه جعل وزير الشؤون الخارجية مستشاراً خاصاً له، ويحتفظ لمستشاره في موضوع الأمن دوراً هاماً في الإدارة والتنسيق، فتتكون عندئذ لديه الثقة في أن كل وجهات النظر الهامة أخذت في الحسبان. وإذا أصبح المستشار جزءاً رئيسياً في تهيئة وتنسيق الأمور السياسية، فان أهمية وزير الشؤون الخارجية تتضاءل كثيراً. والحكومات الأجنبية لا تعرف بعد أين تتوجه، وليس الخطر بأقل شأناً، اذ لديها الامكانية لإثارة جهاز ضد الآخر، في الحكومة، وبالنسبة لوزارة الشؤون الخارجية، يحطّ من شأنها مباشرة وتنحاز الى الأمور الحزبية. اذا لم تكن لدى الرئيس ثقة بوزير الشؤون الخارجية، يحسن استبداله، أكثر من تجميده من قل أحد معاونيه. في عهد نيكسون، اصبح الدور الهام لوزير الشؤون الخارجية مستحيلاً، بسبب ارتيات نيكسون من ادارة الوزارة، وارتباطاته بروجرز، وقلة خبرة هذا الأخير، وبقوة قناعتي الخاصة، ساهم اصرار نيكسون الجلي بنفسه حول الامتيازات المتعلقة بوظائفه، في اضعاف مكانة روجرز. وفي الواقع، اذا لم يستطع صاحب قضية سوى تأليب المجموع الى صفة للدفاع عن حقه، تتجمع لديه كل الاسباب لخسارته. فالرؤساء يصغون لما يقوله مستشاروهم الذين لا غنى لهم عنهم، ولا يهتمون لمن يلقون محاضرة مبينين حقهم.

وغير هذه العوامل فان الضغوط التي كانت ترهق ادارة نيكسون، وجدت لها أسباباً في الفارق الجلي لإدراك الامور الكائنة بين وزير الشؤون الخارجية وبيني. كان روجرز في الحقيقة قديراً أكثر مما كان يوصف، اذ كان يملك فكراً تحليلياً دقيقاً جداً واحساساً عظيماً. ومع ذلك، بالرغم من ثقافته القضائية، فان طريقته في حل المشاكل كانت أكثر واقعية، بينما أن طريقتي كانت استراتيجية وجغرافية سياسية. كنت أجهد نفسي لربط الاحداث ببعضها، بأن أوجد وأسهل أوضاعاً في بعض البلدان، تكون قادرة على التأثير في مجرى احداث أجزاء أخرى من العالم. ولما كان روجرز يتبارى في ضغوط ترتبط بمفاوضات خاصة. كنت أتمنى بالعكس ايجاد المناخ الملائم لاستراتيجية اجمالية. ولما كان روجرز يهتم بتعديل سريع في الكونغرس والجماهير (الأمر الذي كان يتعلق بقسم من مسؤولياته كناطق بلسان الشؤون الخارجية) كنت أقلق بزيادة من الحلول الوسطية. كان روجرز يعتبرني بكل تأكيد مماحكاً أنانياً، عطل جهوده لدى الرئيس. وكنت أراه حديث العهد قاسياً يعرض للخطر تحقيق السياسة الخارجية التي أسسناها بعناية.

فلن يكتب لعلاقاتنا سوى التضعضع. لو كنا أعقل أنا وهو، كنا فهمنا أننا لا نستطيع خدمة بلدنا بصورة أحسن إلا بتوحيد مرامينا وأهدافنا وتعاضدنا. ولذلك نكون قد استطعنا تقليص تجاوزات نيكسون وخففنا من الضغوط التي كان يحيكها ويشجعها معاً. ولسوء الحظ فان كل الجهود المبذولة لالتقائنا عادياً أخفقت. كان روجرز متعجرفاً جداً. وكنت أنا متعاظماً بثقافتي، وكانت تنقصنا الثقة، لاتخاذ وضع يجنبنا الكثير من الألم والتنافر غير المفيد في الأمور الإدارية.

مع ذلك لم يكن أحد هذه الفوارق نهائياً بالحقيقة، فيما لو كان نيكسون وروجرز متقاربين جداً الواحد من الآخر كما كانا يعتقدان. لا يتمكن وزير الشؤون الخارجية من الاستغناء عن ثقة رئيسه العامة. والوزراء الذين أكملوا مهمتهم بشرف مثل: دين اشيسون . جون فوستر دالاس . كانوا يعملون بتعاون وثيق مع رؤسائهم. أما الذين حاولوا معارضة رؤسائهم، كما كانت الحال مع كل من: روبرت لانسيتغ . جميس برنس . فقد فقدا حالاً ليس فقط نفوذهما بل وظائفها. وكما كان يؤكد اشيسون غالباً، ان كانت لديه أسباب حقيقية لمعارضة الرئيس ترومان، لكنه لم يسمح أبداً بتعريض سلطته للخطر، أو الاشتراك بمكيدة يحيكها أعضاء آخرون من الحكومة للضغط على الرئيس. لأن الرئيس ليس بحاجة فقط لارشاد عملي بل لتعاضد معنوي أيضاً، فيما اذا رغب الوثوق من تعاضد وحسن التفكير في مستشاريه، كما أنه بحاجة ايضاً أن يشعر بفهمهم للمواقف الصعبة ومسؤوليات مهمته، وانهم لا يثقلون كاهله أيضاً. وهذا العنصر الهام كان يتعذر وجوده بحق في العلاقات بين الرئيس نيكسون ووزير الشؤون الخارجية، وكان قسم منه يعود لأسباب سابقة لتولية نيكسون. ان الوضع الوثيق لعلاقاتهما القديمة، كان يمنع روجرز من أخذ هذه الميزة بعين الاعتبار، ويمنع أيضاً نيكسون من الرضوخ لواقعها.

ومن الأسباب الاخرى كانت العلاقات مع «ميلفن ليرد» وزير الدفاع الوطني، وعضو هام آخر من الحكومة وتدخلهما في السياسة الخارجية. وبالنسبة لوزارة الشؤون الخارجية، ظننت ولعدة أيام أنها ستسند لرجل آخر، والحالة هذه، إلى عضو في مجلس الشيوخ «هنري م. جاكسون» الذي حسب رأيي، كان يرضى بقبولها، ومع ذلك فقد رفضها. وعلمت عندئذ أن اختيار نيكسون كان قد وقع على «ميل ليرد» دون استشارتي.

كنت التقيت ليرد في المؤتمر الجمهوري لعام ١٩٦٤، وكان رئيس اللجنة المكلفة بتهيئة البيان السياسي وقد أفسد بمهارة مخططات روكفلر. شاركت بعد ذلك في جمع البحوث التي كتبها حول «النزوع الى ابقاء ما هو قائم ومقاومة التجديد». كان «ميل ليرد» سياسياً ممتهناً ونيكسون يفهم

حديثه. ولم يكن لدى نيكسون انتقادات نفسية نحو وزير دفاعه ولا حسابات قديمة لتسويتها معه. طيلة القسم الأكبر من سنواته الست عشرة في الكونغرس، كان ليرد قد خدم في لجنة فرعية من الدفاع الوطني ضمن لجنة ميزانية مجلس النواب، وكان يعرف واجبه بحق لدى دخلوه الوظيفة. بالاضافة الى أنه كان يمثل دائرة هامة. وكان نفوذه كبيراً أيضاً في الكونغرس، لا سيما عن طريق أصدقائه مثل «جورج ماهون» الرئيس القدير للجنة ميزانية مجلس النواب. كان على الرئيس الاتكال عليه وكانت طرقه أيضاً متعثره معقدة وغير صريحة كطرق نيكسون. وميله للعمل وارادته المدهشة لم يكونا ليتناقضا أبداً مع ما كان يبديه هذا الاخير من تفكير مشوش ومرارة عيش. كان «ليرد» يحب الكسب لكن بعكس رئيسه، ولم يكن ليغتبط نفسياً لخسارة غيره. كان يبدي نشاطاً وخلقاً جميلين، يجعلان من العمل معه سروراً حقيقياً، وأحياناً تجربة حقيقية للاعصاب.

كان «ليرد» يعتبر أن الدستور، يعطيه الحق للسعي أن يكون أدهى وأمهر من كل الذين تدعوهم وظائفهم للاختلاط به. كان يلهو أحياناً، ويهتم أحياناً أخرى بحنكة سياسية بالدفاع عن أوضاعه واستغلالها ما أمكن. أضف إلى ذلك فإن «ليرد» كان اختصاصياً بإفشاء الأسرار الخاصة. وعرفت بعد ذلك إنه كان هو نفسه طبعاً سبب شائعات الصحف، التي كان يأتي إلي شاكياً منها في صباح اليوم التالي. وكانت عادة «اليوت ريشارد سون» القول دون جفاء، عندما يتكلم ليرد «تسمعون ما أريد قوله...» أحد التعابير المحببة، وكان مستحيلاً في الحقيقة فهم ما كان يريد قوله...

لم يكن «ليرد» يرى ما يستحق اللوم في حضور اجتماعات البيت الأبيض وهيئة الأركان المشتركة، والدفاع عن أمور هذه الأخيرة، ثم اطلاع الرئيس على حصيلة أخباره واطلاعي أنا في الخفية، ليهيئ أخيراً طريقة ثالثة مع صديقه الرئيس، «ماهون» لمجابهة القضية. والطريقة التي نظمها كل من نيكسون وليرد، ليسندا لنفسيهما فضل جميع انسحابات الجيوش من فيتنام، كانت أشبه بمشهد «كابوكي Kabuki» أو «إحدى مكائد مجلس فلورنسا في القرن الخامس عشر. لن تكفي ترجمة حياة لوصف المماحكات الغريبة التي جرت بين هذين الموظفين المحنكين، إذ كان كل منهما يفتش حالاً على هدم نوايا الآخر واشاعة غموض فكره. وكان يجب أن تخصص رواية أو فصل من تمثيلية: للعبة التي كان نكسون يخسر فيها نادراً. لأنها كان بطبع قليل المقامرة، وأكثر عناداً وبيده كل مقاليد الرئاسة.

بقدر ما كانت لليرد امكانية التنافس على أمور مشرفة، وحفظ ماء وجهه، بقدر ذلك كان يقبل برضى محو هزيمة إدارية. لكنه قطعاً كان يتمسك بحق المبادهة. وعند معالجة قضية معه، كانت تظهر عليه دلائل التنظيم الفكري. وإذا ألقوا عليه الأوامر فهناك الفشل المحتوم. وتوصلت أن أفهم: أنه قبل البدء بالعراك معه كان يجب سد جميع المنافذ الممكنة عنه، حتى يلاحظ وبصوره اكيدة (الأمر الذي لم يكن مألوفاً) في أية طرق إدارية أو داخل الكونغرس يتورط، وحينئذ فقط كان بالإمكان البلوغ إلى المشكلة. ومع ذلك وبالرغم من هذه الطريقة كنت أمحو كثيراً من الهزائم التي أنال الغلبة فيها.

معاون آخر لنكسون «جون اهر ليكمان» كان يجد أساليبي سقيمة ورغب عام ١٩٧١ تحويل أرض عسكرية كائنة في هاواي إلى منتزه وطني، وعزم أن يظهر لي في هذه المناسبة كيفية التفوق على ليرد. و محافظاً على أقدس نظريات السلطة الإدارية للبيت الأبيض، لم يكلف «اهرليكمان» نفسه عناء المرور على الادارة أو على الكونغرس وأمر «ليرد» مباشرة بإفراغ الأرض المطلوبة. عارض «ليرد» هذا السلوك غير المستقيم مثل «ما تدور» عند مهاجمة ثور، واستعجل تحقيق مشروع مفيد ببناء مركزي لاستراحات عسكرية على الأرض ذات العلاقة. وبمساعدة صديقه «ماهون» وبعد أن رفض بملء ارادته تنفيذ كل أمر صادر عن البيت الأبيض ومصدق من الكونغرس، نفذ بواسطة هذا الأخير قراراً يرد بوضوح كل التعليمات الواردة. وحتى اليوم، فان مراكز استراحة هاواي هي ملك الجيش، وبقي المنتزه الوطني حلماً في ذهن مخططه. فتعلم «اهرليكمان» أنه أحد مظاهر السياسة التي لا تدرس في المدارس، والتعمق في أخذ قرار ليس أبداً ضماناً لنجاحه في واشنطن.

وبالرغم من حنكته السياسية، فان «ليرد» لم يكن يرغب في الدفاع عن دوافع خاسرة سلفاً. وإذ كان قادراً على حل المشاكل اليومية بفن ناجز، كان يهتم قليلاً بما سيطرح في الغد. وفي فترة السكينة يكون مغتاظاً وفي وقت الأزمان يكون ممتازاً، صلباً، محنكاً، جسوراً، مدافعاً بفصاحة عن المقررات الرئاسية بما فيها تلك القرارات التي لم تصدق بعد من مجالس الدولة.

كان «ليرد» وزير دفاع في أوقات كانت تقوم فيها سلطتنا العسكرية بمهاجمة غير منقطعة لمعظم رجال الكونغرس والجماهير ومن في الجامعات والحركات المناهضة للروح العسكرية. وحافظ على المراكز الحساسة التي كونت سلطتنا ووضع الأسس التي سمحت بتوسعنا عند

تعبير الرأي العام. وبفضل «ليرد» بقيت سلطة بلدنا مصانة في فترة مضطربة بما لا يقدر وهذا إنجاز رئيسي.

مباشرة وفي متناول يد الوزارة كان هناك مستشارين أخر هامون: الجنرال «ايرل ويلر» رئيس الأركان العامة المشترك بين الأسلحة، و«ريشارد هلمز» مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A.

عندما وصل نيكسون إلى الرئاسة، كان «ويلر» يكمل سنته الأخيرة كرئيس للأركان العامة المشتركة بين الأسلحة. وكانت رئاسته يجب أن تنتهي في تموز عام ١٩٦٨ لكن جونسون كان قد تكرم فمددها سنة أخرى ليتيح لخلفه حرية تعيين بديل «لويلر». سلامة رأي وخبرة هذا ظهرتا غير ممكن الاستغناء عنهما، مما حدا بنيكسون الاحتفاظ به في منصبه سنة أخرى.

عظيم، ذو أصل وصافي الذهن، هذا وصف عميق «لويلر»، العينان داكنتان، المنظر جذاب، وكان يشبه إلى حد ما تلك الكلاب المنتبهة المتربصة لمعرفة مصدر الضربة القادمة. كان قد شاهد في السنوات ١٩٦٠ إلى ١٩٧٠ وصول شباب «محللي مناهج» إلى البنتاغون كانوا يقصدون هدم. المؤسسات العسكرية طارحين للبحث منجزات راسخة قديمة، وفي معظم الأحيان كان هؤلاء المحللون على حق في المجال الثقافي، لكنهم عرفوا سريعاً أن صياغة قضية تؤدي غالباً إلى حل محدود، والجهود المبذولة باسم الوضوعية المقدسة غالباً ما ينجم عنها نتيجة تشجع أفكاراً شخصية مسبقة التصور.

بالاضافة إلى التطبيق السيء للتحليل المنهجي، كان هناك حقيقة لم تشترك في أية صيغة واضحة . كان الضباط الكبار قد تمثلوها خلال خدمتهم . ترتكز السلطة على مبدأ نفسي وليس فقط تقنياً. لاتصل الاحصائيات إلا إلى نقطة ما يأتي بعدها دور القيم الأساسية. وفي نهاية الحساب نجد أن مهنة الجندية هي فن اصدار الأوامر. وإذا اقتضى اجراء حساب في أيامنا أدق من حسابات الماضي وتتعلق بعوامل نفسية أولية صعب تحديدها، ترى السلطة العسكرية نفسها اذاً مجبرة على التفكير بالسلاح أخذاً بمعايير معنوية واتباع استراتيجيات ما كانت تصدقها أبداً، وأخيراً القيام بحرب لم تدرك عواقبها أبداً. وبالحقيقة كان العسكريون غالباً مسؤولين عن بعض المشاكل، لكنهم وقعوا بسهولة الاختيار وقبلوا تغييرات إغاظتهم سراً. فطبقوا في الفيتنام استراتيجية تقليدية لحرب استنزاف موروثة عن «قرانت» و«برشينغ» و«مارشال». ولم يفهموا أبداً

أن نوع هذه الحرب شبه مستحيلة، عندما يقصد بحرب عصابات ضد عدو ليس بحاجة للقتال لأنه يتمكن أن يندس بين الشعب، وهنا يصبح دور السلطات المدنية. تقليد الرؤساء العسكريين وعقلانية المدنيين العظمى اتحدت لإبعاد أي نصيب في وضع حد للحرب قريب. في حال أن جونسون كان لا يزال يتمتع بعد بإجماع شعبي. إذ بقدر ما كان يطول أمد الحرب، وبقدر ما كانت العوامل النفسية تثقل كاهلنا في الميزان السياسي، كل هذا يجعل دعم القوة العسكرية متعذراً.

طوال السنوات ١٩٦٠ . ١٩٧٠ كانت القوات العسكرية تتأرجح بين رغبتها في تثبيت المنهج الجديد أو معاكسته. شعرت بنفسها مشدودة بين إطاعة السلطات المدنية التي كانت تلقنتها طيلة أجيال، وبين شعورها بخطر مداهم. وواجب استعمال وسائل لا تقرها وضرورة إثارة حرب بغير حق كانت تتركها منذهلة بحق. هكذا تصرفت طغمة جديدة من الضباط: رجال يعرفون الرطانة الجديدة، بعيدين عن التفكير الناتج عن تحليل المناهج، الحديث العهد جداً. رجال أذكى من أسلافهم، وأقدر في الدهاء السياسي، فسهلت هذه التغييرات، على بعض الصعد، الاتصالات بين السلطات العسكرية والمدنية. وعلى هذا الأساس، فقد حرموا المسؤولين دون شك من إبداء وجهة نظر أكثر إيجازاً وأقل تحضيراً، لكنها بنهاية المطاف أكثر ملائمة عندما يطلب البرهان.

كان «ايرل ويلر» شاهداً على هذا التطور ولم يتمكن من الاندماج فيه، كان يعتبر بحق ان بنتاغون سنوات ١٩٦٠ . ١٩٧٠ لم يأخذ بنوع كاف رأي العسكريين، لكن عندما أزفت فترة ابداء الرأي، لم يتمكن من طرح سوى تغييرات دنيا للوضع الراهن الذي كان يتعلق كثيراً بكيفية دخول الرئيس الجديد. ويعالج نادرا هذا الامتياز جزئياً لأن ليرد لم يكن يشجع كل محادثة لم يشارك فيها. وخلال الحديث الخاص معي وليس أمام رؤسائه الذين يبدي «ويلر» قلقه منهم. في اجتماع حزيران ١٩٦٩ في هاواي حيث كان يسعى نيكسون للحصول على معاونة العسكريين لمخططه حول الانسحاب من فيتنام، فهمت أن ليس هناك ما يغيظ ويلر كثيراً، والجنرال «كريتون أبرامس» آمر قواتنا في فيتنام إذ كانا يقدران أننا لا نستطيع ذلك، إذا خفضنا عدد القوات. وبقدر ما تخفض، يكون نصيب المساواة المشرفة أقل. لكنهما ما كانا يستطيعان مجابهة رؤسائها المدنيين الذين، بما يكون أنا، كنا نعتقد أن انسحاب القوات وحده يوجد الوضع الوطني المناسب لحل سياسي مشرف. أذعن ويلر وابرامس مجتهدين لتحديد الانسحاب بأقرب ما يمكن. لكنهما راجعا نفسيهما بحجة أن هذا المشروع الذي وافقا عليه لا يستطيع سوى

التعجيل . أما برمجة الانسحاب فكانت قد وضعت . وأدخلت في الميزانية العسكرية ولا يمكن الإبطاء بها إلا بشرط إقرار تحديث التسلح.

يجب أن يتصرف ضباط المراتب العليا حسب اعتقادهم على ضرورة البقاء على قيد الحياة، لأكمال دورهم ومتابعة القتال. وتعلقهم الطبيعي برئيسهم الأعلى يحملهم إذاً على إيجاد تعديل عسكري لكل ما يبدو لهم صعب المحافظة عليه. وبعكس ما يقال فإنهم يتصدون نادراً لرئيسهم الأعلى بل يبحثون عن أسباب التعاون معه، لا الوقوف ضده. وهكذا فقد ساهم «ويلر» في تهيئة سلسلة معايير يتمكن من الدفاع عنها واحدة فواحدة، لكنه لا يستطيع تقييم مفعول جميعها. وبنفس عالية، فإن هذا الضابط خدم بلده في ظروف مأساوية أحزنته داخلياً.

خلف «ويلر» الأميرال «توماس موورير» وكان ذا شخصية أقل تعقيداً، ومنصب القيادة الذي أشغله أعوام ١٩٦٠ لم يكن بالحقيقة مريحاً، لكنه لا يوصل إلى الإضناء الطبيعي والنفسي المرتبط بالقيام بوظائف عليا في واشنطن. وبعد أن اجتاز «موورير» أعلى المناصب الإدارية بفضل مهارته، لم يكن يدعي أبداً بذكاء خارق: بل كان يشدد دوماً على وضعه الريفي البريء الذي تغمره أفكار أكثر ذكاء. وإذا كانت أفكاره قد حببت الناس به، فإنها في الوقت نفسه كانت تزيده وضوحاً. حال دخوله الوظيفة، لم تكن حرب فيتنام سوى قتال في المؤخرة. فتمكن من تصفية وضعها المؤلم بكل جدارة. وبذا لم يحظ أي رئيس بمستشار عسكري أوثق منه.

«ريشارد هلمز» الذي أبقاه نكسون في إدارة مصلحة الاستخبارات الأمريكية C. I. A. كان أيضاً من الفريق المعين في الأمن القومي. وكنت التقيته عام ١٩٦١، في ظل رئاسة كنيدي، وبناء على طلب البيت الأبيض، أجريت معه عدة محادثات حول أزمة برلين. في هذه الفترة وما تلاها، أعجبني جداً في قدرته على إدارة وظيفته، ولم نر بعضنا إلا بعد تعييني. فشرح لي في غرفة عمليات البيت الأبيض كيف كانت ترتيباته وانتظام عمله الوظيفي. كان وضع هلمز دقيقاً في حينه وبالحقيقة فإن نكسون كان يرى مصلحة الاستخبارات الأمريكية C. I. A وكذلك وزارة الشؤون الخارجية وكأنهما عرين مثقفين خريجي مدارس كبرى ويعملون ضده. أضف إلى ذلك أنه كان يشعر بعدم الرضى في نفسه عن هلمز، إذ كان يعتقد أن هذا الأخير محبوب من قبل النخبة التحررية في «جور جتاون» التي كان يعزو إليها مسؤولية الجزء الأكبر من مضايقاته.

بالنسبة لي لم أكن أحمل أية فكرة سيئة عن هلمز، وكنت أعارض إقالته من وظائفه. وكان يبدو لي خطيراً أن نجعل من مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A هيئة سياسية يغير مديرها مع كل رئيس جديد.

وافق نكسون وقبل بإبقاء هلمز. غير أنه ألح علي إبعاده من اجتماعات «مجلس الأمن القومي C. N. S. . وهنا تقدم «ليرد» بملاحظة هامة تؤكد بحق، إنه إذا اتخذ المجلس قرارات هامة في غياب مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية C. I. A، يتعرض الرئيس لتهجمات الكونغرس والرأي العام، عاد نكسون مرة أخرى فعدل عن قراره، وقبل بحضور هلمز اجتماعات مجلس الأمن القومي، فقط عند عرض أمور تخص الوضع الحاضر. فلم يكن هلمز إذاً مفوضاً بإيراد اقتراحاته، وعليه مغادرة الاجتماع حال إنهائه تقريره.

دام هذا الوضع غير الطبيعي ستة أسابيع، وأصبح عقبها مربكاً جداً، مصطنعاً، متناقضاً ويبقى مع ذلك مستمراً. وبالحقيقة فإن المعلومات الصادرة عن هلمز كانت لها أهمية المناقشات التي تعقب التقرير الرسمي.

وبعد كل هذا فإن الطريقة التي كانت تقوم بها نتائج الخيارات المختلفة الممكنة كانت رئيسية. وانتهى هلمز إلى إكمال الدور الذي يحق به ضمن مجلس الأمن القومي بالرغم من عدم ثقة الرئيس الدائمة.

وبالرغم من المنصب الذي كنت أشغله، لم أستطع سوى التعاون القليل مع مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية. وفي الواقع، فقد كان الرئيس يعتمد عليه في اعلامه حالاً عن أي خطر داهم. ونحوه يتوجه أولاً مستشار الأمن، إذا أراد معرفة معطيات أزمة والحصول على تقويم للأحداث. ولما كانت القرارات تتعلق بتقويم نتائجها، فإن تقديرات مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A تحدد وبصورة آلية تقريباً توجيه السياسة نفسها.

منتظم وشريف جداً وكتوم، كان هلمز يؤدي واجباته بموضوعية، لا غنى عنها لإنجاح مصلحة الاستخبارات. طيلة سنوات عدة، لم يجر أي اتصال مباشر في المجال الاجتماعي . ولم نكن نتلاقى على موعد سوى بمناسبة غداء لدى طرف ثالث.

كنت أعتبر هلمز ليس لتوافق طباعنا الحقيقي، لكن لصفاته الوظيفية، ورباطة جأشه. فلم يكن يخاطر أبداً بارشادات تتجاوز موضوع الأسئلة المطروحة عليه، لكنه بالمناسبة، لم يكن يمانع بتحذير البيت الأبيض، ولو كان ذلك عكس تفكير الرئيس ومستشاره. وكان يدافع عن افكاره بصراحة ما كان يتحلى بها رجال أقل شأناً.

في بداية حكم نكسون مثلاً، اصر بعضهم على وجهة نظر في أن الصاروخ النووي المثلث الرؤوس «الروسي» عابر القارات S.S.9 كان M.I.R.V والذي يجب أن يكون مرماه سيلة لصواريخنا «Minuteman» ـ وبدورها كانت مصلحة الاستخبارات الأمريكية تؤكد أن هذا الرأس النووي المثلث لا يمكن أن يدار من قبل جهاز ادارة مستقبل. تحولت نحو رواية مقلقة، ولكي أوضح الأمور، استعنت باجراءات لا يقبل بها التقليديون المهتمون بالاحتفاظ بسيادة الأساليب المستعملة الاعتبارية. جمعت كل المحللين في قاعة عمليات البيت الأبيض، ولعبت دور محام في قضية خاسرة ووضعتهم في تيّار زاخر بالقضايا والبينات المتضاربة. حافظ هلمز على رباطة جأشه وكان على حق في النهاية.

لا يتمكن أحد من قبول مهمة مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية إلا بعد تعرضه لعدة مشاحنات. كان لدى هلمز ثقة بنفسه وكثير من التيقظ والحذر، وكانت رقته تتغير الى صلابة قوية والابتسامة التي كان يبديها ما كانت تصدر من عينيه. رأى عدة حكومات تتتالى، بما فيها سلطة واشنطن. ولم يخدع أبداً الذين كانوا يؤمنون بسعة اطلاعه، ولا افكر أبداً أنه أساء استعمال هذه المعرفة أو هذه القدرة. ولم ينس أبداً أن نزاهته كانت ضماناً لنفعه. وأن الثقة التي توضع فيه كانت خير بل كل ما يملك بالنسبة للرؤساء، وتحليلات مصلحة الاستخبارات الأمريكية C.I.A لم تكن معصومة.

بعيداً عن إنقاص قيمة هذه الزمرة العالمية من المغامرين الجشعين، الذين كان يصفهم مغتابوهم بسهولة فائقة C.I.A والتي كانت تخطئ غالباً بامتثالية، إذ تتبنى آراء رائجة في مؤسسة واشنطن، وعلى قدر معرفتي، إن ترتيب وسائل عمل C.I.A، كان يشجع غالباً على البطالة، أكثر من الإقدام على مشاريع جريئة، كان يعلم اخصائيوها جيداً أنه لا يمكن المعاقبة على تفكير خاص، لكن المؤسسة تنهار لعدم الاحساس بالخطر، ولأجل هذا فإن مصالح الاستخبارات تحاول دوماً الإنذار بالشر، مهما يكن نوع السياسة المعنية، الأمر الذي يدفع إلى الجمودية أكثر من فكرة المفاجآت. بعد كل أزمة تبادر الصحافة الى نشر بعض التحليلات أو

التقارير المبهمة، حيث يظهر أن مصلحة الاستخبارات، كانت قد علمت بالأزمة المعنية، لكن السياسيين المسؤولين لم يعيروها اهتمامهم. وما يجب تذكره هو عندما نقوم بدور طائر الشؤم، كثيراً ما نضيع رصيدنا. وعندما لا يتحول انتباه السلطات العليا الى تقرير خاص، كثيراً ما يضيع هذا في زوايا البيروقراطية، بينما أن تقريراً مضاداً تجده طبعاً في المحفوظات.

بالرغم من التحفظات التي ذكرت في اعلاه، كنت أحد أن ملاك C.I.A. كان يتألف من رجال ونساء متفانين لا يستغنى عنهم. كان هلمز يقوم بخدمة نصوحة لبلده ورئيسه، ولا يستحق الاتهامات، التي بعد ثلاثين سنة من الخدمة المشرفة، قد سودت نهاية مركزه.

هؤلاء هم الرجال الذين جمعهم الرئيس الجديد، لتأسيس استراتيجية في مستوى العالم، ومحاولة انقاذ وطنهم من حرب فرضت بسبب أسلافه.

اجتمعت الحكومة في الثاني عشر من كانون الأول عام ١٩٦٨ لأول جلسة تعارف في فندق «سوريهام» في واشنطن. والقضايا المعروضة على الحكومة الجديدة، طرحت في اليوم ذاته، ليس من قبل أعضاء الحكومة (الذين عينوا الليلة الماضية فقط) لكن من قبل معاوني الرئيس، بما فيهم أنا . الذين كان تعيين معظمهم يعود إلى أكثر من أسبوع . تجسيد مسبق لتقارير نكسون المستقبلية مع معاونيه.

هؤلاء الرجال الأكفاء ذوو الفطنة المتفانون في خدمتهم، هل تمكنوا في ظروف أخرى، من تشكيل فريق متجانس؟ شيء لن يدرك! هذا الرئيس الصعب المراس الذي كان رئيسهم، اختارهم للاتكال على مستشارين متنافرين، كان باستطاعته نقلهم، فيما كان يجعل من نفسه زعيماً لتركيز السلطة في البيت الأبيض.

# تنظيــم

في خطاب بالإذاعة في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٨ كان مشرح الرئاسة، ريتشارد نكسون، وقد وعد أن «يعيد لمجلس الأمن القومي C.N.S دوره الرفيع الشأن في تخطيط الأمن القومي «متجهاً الى اسناد» معظم الانتكاسات الخطيرة في الخارج، لعدم كفاءة أو لقلة اهتمام خلف الرئيس ايزنهور في الالتجاء الى هذا المجلس المبهم. وفي الثاني من كانون الأول لعام ١٩٦٨ صرح نكسون وهو يعلن تعييني: «أوضح الاستاذ كيسنجر، أو أنه في طريقه الى ايضاح منهاج جديد يظهر لي أنه فعال ليمنع رئيس الولايات المتحدة الجديد. من سماع إلاّ ما يريد سماعه» ولم يوضح أكثر من هذا، كيف استطيع ذلك ولم يمض عليّ أكثر من ثلاثة أيام في شغل منصبي الجديد. لكني كنت على اتفاق مع الرئيس المنتخب على اعادة منح مجلس الأمن القومي كل أهميته. وفي الحادي والعشرين من حزيران لعام ١٩٦٨، أعلن الحاكم روكفلر الاعلان التالي، موضحاً فيه تماماً وجهة نظري :

لا توجد أية اجراءات قانونية للتوصل الى اتخاذ قرارات، بدل ذلك، تشكل فرق، لهذا الغرض بالذات حسب الحاجة. وليس هناك جهاز متوقع لوضع القرارات موضع العمل.

لا يوجد أي احتمال للتخطيط الى الأمد البعيد على أساس بيوزاري. دون محور مركزي فان السياسة الخارجية، تحل بسلسلة من القرارات المنفردة، أملتها أوضاع أزمة تتطلب انجاز العمل. نحن اذاً أسرى الأحداث».

عندما عينت، لم يكن بفكري أي برنامج خاص للتنظيم. وكان همي الأوحد في أن الادارة، بقدر تنظيمها، تميل الى خنق كل ابداع. فهي لا تميز بين حكمة سياسية وآلية ادارة منظمة جيداً. إن الآلة الحكومية في دولة عصرية هي ضخمة، ويلزمها وقت كثير لتسييرها أكثر من تحديد دورها. والبيروقراطية المعقدة مدعوة للمغالاة بتقنيتها وتنتقص من قيمة أهمية الحكم السياسي. وتشجع الوضع الراهن، مهما حدث. خارجاً عن أشياء ليست بالحسبان. فان الوضع الراهن له امكانية المحافظة على الوضع المألوف، ولن يكون ممكناً أبداً الاثبات أن سياسة أخرى تعطي نتيجة أحسن. لم يكن أمر عابر، كما يظهر لي، أن أغلب كبار رجال الدولة، كانوا قد وجدوا

أنفسهم متكتلين دوماً، في معركة دائمة، مع خبراء المكاتب الأجنبية، لأن بعد نظر رجل الدولة هو تحد دائم لخبير جلب طبعاً لتحمل أقل الأخطار.

إن تعقيد الحكومة الحديثة، يجعل الادارات الكبرى لازمة، لكن حاجة التجديد تولد الضرورة المطلقة لتحديد أغراض أبعد من القوانين الادارية. وأخيراً لا يوجد أي حل نظامي خالص. هذا قبل كل شيء مشكلة منصب قيادة. وعلاجات التنظيم الصحيح، لا تستطيع بذاتها تجنب الانتهازية أو المماطلة أمام تخطيط المدى البعيد. لقد ارتبطنا اذا محاولين اضفاء شكل على الوسط الدولي في توظيف أهداف أمريكية قبل انتظار الأحداث لتفرض علينا ضرورة اتخاذ القرارات.

خبرتي التعيسة كمستشار نظامي لخارجية الرئيس كيندي، ظهرت ثمينة للغاية. علمتني الفرق بين النصح والسلطة. إن صفة رجل الدولة، هي الشعور بالظلال والابعاد، ومهارة الوصول ضمن كتلة من الاحداث، هي الدخول في الأمور الذي يسمح بكشف الأمور، بين عدة افتراضات معقولة، هذه الصفة اذاً هي التي تتوضح تماماً في المستقبل. ان السلطة لازمة . وهي قوة تحمل الأحداث المتتابعة وتحديد اتجاه لها . وبالمناسبة يتمكن أحدهم أن يفتح أمامك آفاقاً مستقبلية، لكنه ليس على مستوى إسدائك نصحاً نافعاً لتدبرها .

قبل خدمتي كمستشار لدى كيندي، كنت أعتقد كمعظم الجامعيين أن تطوير قرار كان سلوكاً خاصاً ثقافياً، إذ كان يكتفي بالدخول إلى مكتب الرئيس واقناعه بعدالة فكرته. اكتشفت حالاً أن هذا الادراك خطير جداً وغير ناضج وكثير الانتشار. وبالحقيقة، فإن الرئيس في نظامنا، هو في نهاية المطاف صاحب السلطة في اتخاذ القرارات. وسلطته التقديرية هي أهم من سلطة أي رئيس آخر من البلدان الكبرى . بما فيها طبعاً الاتحاد السوفيتي .. غير أن استخدامه للوقت كان مذهلاً بحيث أنه لا يترك لنفسه الوقت الكافي للتفكير المسبق. زواره هم من المطالبين أو ممن جاؤوا للدفاع عن هذه القضية أو تلك، وكان طرحهم لقضاياهم مستساغاً عادة. وهذا ما كان غالباً سبب حضورهم الى المكتب البيضوي. كانت إحدى مهمات الرئيس الصعبة في اجراء الاختيار بين جميع هذه النظريات المتناقضة والمقنع كل منها في موضوعه.

لا تصل للرئيس القرارات السهلة، بل تسوي على مستوى المرؤوسين. لذلك فإنه بقدر تقدمه في عهد رئاسته، بقدر ما يتوصل الى اتخاذ قراراته تبعاً لثقته بمستشاريه، عدا في الأزمات

الصعبة، فإن الشعور يأخذه أكثر فأكثر بالضغوط الادارية والسياسية التي تستهدفه، لا سيما وأن القضايا الهامة تصبح مختلطة في ذهنه مع الشخصيات التي تجسّد تلك النظريات. ويكون القرار الرئاسي من الخبرة ومن الثقة بمساعديه وشعوره بتعاونهم معه. ويدرك كل رئيس حالاً بأن المقصود ليس فقط اصدار الأوامر بل العمل على تنفيذها. وهذا يتطلب تعاوناً خيراً من قبل مرؤوسيه. أما الأوامر التي لا تتقبلها الادارة برضى، فتجنبها ممكن بألف طريقة، مع افساح المجال لتفسيرات لبقة، تؤدي الى نتيجة قريبة قدر الامكان، مع ما كانت تبغيه الادارة ذات الشأن في بداية المطاف. ومن الممكن تأجيلها بمراوغات عديدة. وكم من تهرب استطاع عرقلة سياسة وأثار نزاعاً. ولا ننسى أخيراً وجود العامل الانساني المقدس في أن الرؤساء بعيدين عن معظم الاتصالات العادية. فيرون أنفسهم في وضع غير مريح فيما إذا كان مساعدوهم غير راضين، الأمر الذي يدعوهم بقدر الامكان الى تجنب المشكلة.

لتكون آلية صياغة القرار مريحة للرئيس، لابد من استجابتها لعدة معايير: ملائمتها لشخصيته وطريقة معالجته الأمور، وتأديتها للعمل. والمناقشات التي لا مضمون عملي واضح لها تؤدي الى الجمود. ولابد، فوق كل ذلك، من أخذ الوضع النفسي الكائن بين الرئيس ومستشاريه المقربين بعين الاعتبار، بحيث يوطد هؤلاء ثقته، ويطرحون عليه خيارات واقعية، كما يعرضون عليه اقتراحات دون ايصال كل قضية الى مرحلة عرض العضلات. وتأمين سلطة حقيقية للرئيس بحسب مقتضى الحال دون تشجيعه كل مرة على اتباع جنون العظمة الذي كثيراً ما يستأثر بمن يشغلون المناصب العالية. ومن جهة ثانية، لو مرت جميع القرارات على مكتب الرئيس، لحرم هذا الأخير من الخبرة العملية ومن تجربة موظفيه الدائمين الواسعة.

إذا اتخذت القرارات الرئيسية، اثناء الاجتماعات التي لم يعد لها مسبقاً، فإن محاولة ارضاء الرئيس واظهار التعاون مع مساعديه بالعمل، كثيراً ما تشوه عرض الخيارات الواقعية. وهذا كما اعتقد الذي جرى في عهدي كيندي وجونسون. ولكن، إذا أصبحت الاجراءءات من جهة ثانية شكلية، وإذا كان الرئيس معتدلاً بحيث يخضع قراراته لموافقة إدارية . كما كانت الحال في عهد ايزنهاور. فإنه يجازف في مغامرة تجعله يقتصر على الموافقة أو رفض نظام سياسي واحد فريد، وهو النظام المطلوب منه.

وبما أن الرئيس لا يعرف بقية الخيارات الممكنة، ولا النتائج المحتملة لرفض سياسة مقترحة، يصبح الميل «لأصغر قاسم مشترك» منهجياً، كما يضحى بالأهداف في سبيل انجاح

الفعالية الإدارية، وهو يستهدف اقناع الآخرين (ونفسه) بسلطته. غير أن أثر هذه الأفعال لا يكون إلا عابراً، لأن الرئيس الذي يرفض الاجراءات التي اعتمدتها الإدارة يجد نفسه دون بديل عملي.

اعطاء الوقت للرئيس للاقدام على خيار حقيقي، يظهر لي أساسياً، ليس فقط لتأمين سلطة حقيقية له، لكن أيضاً لتوطيد زعامته، ويكون ذلك باعطائه تأكيداً صحيحاً مرتكزاً على الثقة في أن كل الحلول المشروعة دققت. واطلاع الرئيس على أوسع عرض خيار ممكن ونتائجه المحتملة، هو بالحقيقة اشراك جوهري للمستشار بالنسبة لقضايا الأمن. كل رئيس يرتكب أخطاء أثناء ولايته، لكني لا أريد السماح بالقول، إن الأحداث الناتجة عن هذه الأخطاء كانت متوقعة، ولم تتخذ في الحسبان. بدأت إذاً العمل بمساعدة «مورتون هاليرين» (زميل شاب في هارفارد) والجنرال «أندرو غوود باستر» مستشار قديم للرئيس ايزنهاور.

كان الجنرال «غوود باستر» يشغل منصب قائد ثان في سايغون، وكانت وظائفه بدلت وقتياً، وعين في حكومة نيكسون خلال فترة الانتقال.

اشترك في الواقع في مجلس الأمن القومي، اثناء قسم من ولاية ايزنهاور، السبب الذي جلب إليه انتباه نيكسون. ولما كان دكتوراً في الفلسفة من جامعة «برنسيتون» كان من النوع الجديد من الضباط القادة المثقفين (إذا سمح لي بالقول) بدراسات عليا في جامعات غير عسكرية. ومزيج التثقيف العسكري والدراسات العليا يولدان غالباً تفتحاً ذهنياً منسقاً ومنطقياً يكادان يمسان بالترتيب الاداري. لكنهما يعطيان كذلك تفتح فكر أوسع مما هو عليه لدى ضباط المراتب العليا. من الممكن أن العسكريين قد بالغوا في تقدير ثقافة غوود باستر، كما أن الجامعيين تأثروا كذلك بجنرال مثقف جامعياً، وهذه ظاهرة نادرة. ولم يكن الجنرال مقتصراً على ذلك فقط، بل كان غني التجربة وذا استقامة كبرى وجدارة معتبرة.

نحو نهاية شهر كانون الأول من عام ١٩٦٨، كنت على هبة تقديم اقتراحاتي للرئيس المنتخب. وفي السابع والعشرين من كانون الأول، قدمت له تقريراً حللت فيه النقاط الرئيسية وضعف النظم السابقة كما كنت اراها: لين العريكة غير مرتبة أحياناً في التنظيم غير الرسمي الذي كان يتبعه جونسون في التنظيمات المعمول بها في أيام ايزنهاور، كان يجب على الرئيس الاعتماد على موافقة الادارة، ولا يتمكن من اتخاذ الخيار الحقيقي. وكنت أوكد في تقريري على وجوب التنسيق بين الجوانب الايجابية للنظامين. وعلى مجلس أمن قومي، نظامي، فعّال، مزود بآراء

مضمون الأخذ بها، من قبل الرئيس وكل مستشاريه الخاصين، وكل الحلول الواقعية والتكاليف والغنائم في تحقيق كل منها، وكل وجهات النظر، وكل توصيات الجهات المرتبطة به. وعلى مجلس الأمن القومي أن يكون مدعوماً من قبل اللجان الفرعية، التي تتضمن، على غرار المجلس، ممثلين من كل المصالح ذات العلاقة التي كان عليها إعداد تقارير تبين واقع القضايا والخيار المرتبط بكل تنظيم سياسي يمكن مواجهته. والمجموعات البيوزارية، العاملة على مختلف الصعد التي سيرأسها معاون لوزير الخارجية (في حال عدم وجوده) ومعاون لوزير الدفاع الوطني، وكما كان في عهد ايزنهاور فإن مستشار الرئيس للأمن، يرأس فريق بحوث يبدب المعلومات البيوزارية قبل تقديمها لدى الاجتماعات العامة لمجلس الأمن القومي بحضور الرئيس.

وفي نهاية تقريري كان من الممكن قراءة هذه الجملة التي لا قيمة لها: «إن آلية مجلس الأمن القومي المعقدة تجعل من نشاطات الفريق الحالي البيوزاري الأعلى عديمة الفائدة» (وهذا العرض بإبطال الفريق البيوزاري الأعلى أو .S.I.G باصطلاحه التنظيمي). كان يجب أن يثير استنكاراً عاماً ضمن الادارة ـ الأول في الحكومة الجديدة. ويمكن أن يظهر هذا النزاع حالكاً جداً، لكن الطريقة التي عولج فيها جعلته واضحاً في اسلوب الرئيس المنتخب، ونتيجته دلت على الطريقة التي سيضطلع بها أعضاء الحكومة بالسلطة طيلة مدة رئاسة نيكسون.

إن الفريق البيوزاري الأعلى أوجد عام ١٩٦٧، ويتألف من موظفين كانوا يأتون بموجب الترتيب التسلسلي، تماماً بعد الوزراء: معاوني وزراء الشؤون الخارجية والدفاع والمالية، معاون مدير مصلحة الاستخبارات الأمريكية .C.I.A. ورئيس الأركان العامة المشتركة. يرأسه معاون وزير الشؤون الخارجية، وكانت مهمته إعادته النظر في المواضيع المقدمة لمجلس الأمن القومي، وإعطاء النتيجة المباشرة للقرارات المتحدة. ويرأس مجموعة اللجان البيوزارية العاملة في الجهات المختلفة من العالم والتي يرأسها هي أيضاً ممثلون عن الشؤون الخارجية. وأمر طبيعي في ان وزارة الشؤون الخارجية كانت تعتبر هذا التنظيم انجازاً ادارياً رئيسياً، لأنه كان يمثل تفوقاً في مجال السياسة الخارجية كما كان يجب أن يحذر من عدم رضى الوزراء الآخرين. ولم يكن مهماً في أن مجلس الأمن القومي كان يجتمع نادراً في عهد جونسون وأن الفريق البيوزاري الأعلى لم يستطيع عمل أي شيء. وكان يجب اعتبار وجبات غداء كل يوم ثلاثاء، حيث كانت تتخذ القرارات خارج اطار الفريق البيوزاري الأعلى بالنسبة لوزير الشؤون الخارجية، الذي كان

منصبه يضغي عليها تفوقاً جوهرياً بالرغم من أنها لم تكن سوى نظرية. فلم يكن هذا خطأ، لأن حقيقة السلطة في واشنطن تميل الى التستر في مظاهرها.

وفي المرحلة الأولى لم تكن فكرة الغاء الفريق البيوزاري الأعلى صادرة عني. وقبل البدء بمحادثة الرئيس في تاريخ سابق عن هذه الاحداث، كنت سطرت على الورقة بعض ملاحظات تحدد الطريقة التي كنت أفهم بموجبها دوري في البيت الأبيض. فنتج عنها بوضوح أن أول تحركي يجب أن يكون في الاحتفاظ بالبنية الحالية، لأني كنت أقدر أنني سأعين عضواً حقوقياً للفريق البيوزاري الأعلى. وكنت أتمنى رؤية فريقي مشاركاً بأعمال اللجان المختلفة البيوزارية. لكن الرئيس المنتخب كان قد رفض ذلك بصراحة لتأكده القوي بمعارضة المصالح السياسية بشدة. وكان نيكسون قد عارض بوضوح الاحتفاظ بالفريق البيوزاري الأعلى S.I.G. والملاحظات التي كنت سجلتها حينذاك كانت تتفق مع التعليمات التالية: «الحد من نفوذ وزارة الشؤون الخارجية».

وهذا كان ايضاً رأي الجنرال غوود باستر والرئيس السابق ايزنهاور، مع أنه لم يكن لأسباب شخصية. بعد تعيين بقليل، اصطحبني الجنرال غوود باستر لزيارة الرئيس السابق. فكان مهزولاً بسبب مرضه، مسمراً على سريره في المشفى العسكري «وولتر ريد» ومنعش القلب يحد من تحركه العام. لم أكن قد التقيته أبداً، لأرى فيه، طبقاً لراي الجامعيين العام، بطلاً عبقرياً في الحرب، لكنه غير قادر على التعبير، أو بالأفضل غير فعّال بالرغم من أنه رئيس. كنت في كتابين من كتبي وعدة مقالات، حزتن على غياب السلطة الحقيقية التي كانت تميز ولايته . فغيرت رأيي منذ ذلك الحين. نوبات قلبية متتالية، تركت له أملاً قليلاً بالعيش طويلاً، إلا أن نشاطه كان مذهلاً. وخطابه الذي كان يبدو مبهماً على الورق، يصبح أكثر اقناعاً، عندما كانت تحييه نظرة حازمة ومؤثرة جداً من عينيه الزرقاوين الداكنين، وعندما كان صوته الذي لا يزال مملوءاً بالسلطة يعطيه قوة. كان ايزنهاور يؤكد قطعاً على الاستغناء عن الفريق الأعلى البيوزاري S.I.G لأنه كان يقول: إن البنتاغون لن يرضى بطيبة خاطر أبداً بسيطرة الشؤون الخارجية على النشاطات المتعلقة بالأمن القومي. وفي الحقيقة، فإن هذه الوزارة كانت تستعمل وسائل منحرفة للوصول إلى غاياتها، أضف إلى ذلك ما كانت ترتكبه عمداً من إفشاء أسرار. بالنسبة لايزنهاور فقد أسعده الحظ بالحصول على وزير للشؤون الخارجية، نشيط جداً، في شخص دالاس. لكن نفوذ دالاس كان يتأتى من الثقة التي يكنها له الرئيس وليس من بنية وزارته الإدارية.

أضف إلى ذلك فانه بالرغم من اعجابه بدالاس، كان ايزنهاور يجتهد كثيراً بالاحتفاظ بمجلس الأمن القومي C.N.S تحت مراقبة البيت الأبيض.

ومع مرور الزمن، أدركت أن الرئيس ايزنهاور كان محقاً. والتعليمات المعطاة من قبل نيكسون، كان يمليها شعور شخصي، ولم تكن تتعلق أبداً بضرورة حيوية بالنسبة للرئيس. إذ لا يتمكن رئيس من تبرئة نفسه من إملاء سياسته على أحد أعضاء حكومته. وفي الواقع فإن وجهات نظر الوزارات، تتغاير غالباً، والدور الذي يعهد به إلى ممثل احداها ينظر إليه الآخرون وكأنه امتياز غير عادل. أضف إلى ذلك فإن كافة الوزارات تسعى بقوة محاولة الحد، لا توسيع مكائد الرئيس. وطبيعة بنيتهم ذاتها تؤدي بهم الى اعداد السياسة المعتبرة وكأنه المبتغاة، لا بطرح مجموعة كبيرة من الآراء الممكنة. وإذا كان هناك ضرورة لهذا الوضع الأخير فإن المصلحة الوزارية النموذجية ستعرض حلين مبهمين، مع توجيه للأخذ بعين الاعتبار ما تريد العمل به، والذي سيوضع في المكان الثاني من العرض. وبهذه الطريقة، فإن المسؤول السياسي غير المجرب، ستكون لديه جميع الأسباب لارضاء وزارته، مختاراً الحل رقم ٢ـ بين الخيارات الثلاثة الممكنة. وأخيراً فإن كل وزارة تشير ضمن اطار من الخوف من معارضة الرئيس. ويجتهد الكل من اخفاء تضارب آرائهم. وتنزع الخيارات للطمس في توافق عام سطحي يترك لكل مصلحة أو وزارة حرية الاختيار. وفي نهاية المطاف، الإدارة تختار فريقاً قوياً وحيداً، متفانياً وشريفاً، يعتمد عليه الرئيس، تكون لديه الامكانية لضمان خيارات حقيقة لا خيالية.

إن المشروع الذي أوقفت الرئيس عليه، لم يكن بوجه خاص ثورياً. وكان المقصود منه، في الواقع، جهاز مجلس الأمن القومي C.N.S لدى الرئيس ايزنهاور، المعدل قليلاً، لصالح وزارة الشؤون الخارجية. إذ كان يحتفظ لها برئاسة لجان ثانوية مختلفة. وكان دالاس قد سيطر تماماً إبان حكم ايزنهاور، على جهاز من هذا النوع، فارضاً عليه مراقبة البيت الأبيض النظرية.

طيلة فترة الانتقال هذه، لم تكن الوزارات تفهمه بهذه الطريقة. وفي الثامن والعشرين من كانون الأول ١٩٦٨، جمع الرئيس المنتخب أهم مساعديه ـ وليم روجرز. ميلفن ليرد ـ وأنا ـ في كاي بيسكاين بفلوريدا. وكان علينا مناقشة مشروعي. إن نيكسون كان قد أقره الليلة الماضية، مؤجلاً مناقشة مشروعه، دون معرفة أحد من المشتركين. كما كانت الحال في كثير من اجتماعات حكومة نيكسون، أما مناقشة لقاء «كاي بيسكاين» كانت محددة سلفاً. وبعد تبادل كلام عديم الفائدة، أعلن نيكسون لأعضاء حكومته العتيدين أنه عازم على تبني الطريقة المبينة في

تقريري. فلم يبد أي أحد ملاحظة ما. الأمر الذي يفسر بالواقع، بأن الوزراء العتيدين لم يكن لديهم الوقت الكافي ليبلغهم أعضاء وزاراتهم بذلك، وقد عرض عليهم الرئيس المنتخب الأمر بصورة مبهمة ومدلولاته لم تكن لتظهر في حينه. وجديد نيكسون الوحيد في هذا اليوم كان اقصاء مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية C.I.A من مجلس الأمن القومي C.N.S.

بعد مغادرة «كاي بيسكاين» أبدى كل من روجرز وليرد ارتداداً مفاجئاً لأنهما كانا يعرفان الرئيس المنتخب من عهد بعيد، ولم يصدقا في وقت من الأوقات أن قبول نيكسون لوجهة نظري يمكن أن تكون نهائية.

كان ليرد الأول في الاعتراض، وحصلت مصادفة على لمحة من وجهة نظره حول الدخول في معركة إدارية خلف حجاب من الدخان ومعارضة قوية لم يعرها أية أهمية، لكنها تصل بموضوعية إلى أوضاع مهينة غير مرضية وتبدو بكل وضوح مضحكة. ومؤمناً بهذه الطريقة، حدثني ليرد وقدم لي تقريراً يظهر خلافه الأساسي مع بعض نقاط النظام الجديد المقترح: إذاً مصلحة الاستخبارات لن تتمكن بعد من محادثة الرئيس، وأعضاء مجلس الأمن القومي يخشون فرض نظام وحيد، لمعرفة أي اتجاه يجب السلوك فيه، وأخيراً فإن ما كان يطلبه: وجوب اتخاذ ضمانات على الموظفين الكبار «الذين كانوا يدورون حول مجلس الأمن القومي ويستطيعون استمالة الرئيس مباشرة وبانتظام». (وعظيم همّه كان في منع رئيس الأركان العامة المشترك من ممارسة نفوذه بصفته مستشار الرئيس العسكري). ولما كنت أتناول الغذاء مع ليرد في شيراتون كارلتون في واشنطن، باحثته في موضوع تقريره، فظهر فعلاً أنه لم يكن يسعى للحصول على شيء سوى مساهمة مدير وكالة الاستخبارات C.I.A في اجتماعات الـ C.N.S مجلس الأمن القومي واعطائه الحق في طرح أبحاث، لدراستها. وحصل فعلاً على موافقة تامة على هاتين النقطتين دون صعوبة.

كان روجرز بالمقابل، يتقيد تماماً بصلب هذا التنظيم، وكان يخشى في الوقت ذاته أن يعلق مرؤوسوه الجدد، أهمية على أن الفريق البيوزاري الأعلى ستديره وزارة الشؤون الخارجية، وفي الدور الذي يقوم به، كونه مركزاً تنظيمياً للشؤون الخاضعة لمجلس الأمن القومي. والكسيس جونسون، المعين حديثاً معاوناً لوزير الشؤون الخارجية للشؤون السياسية، جعل من نفسه بطل تنظيم وزارة الشؤون الخارجية. كان الكسي جونسون، أحد ألمع موظفي الخدمات السياسية. كفؤاً، نظامياً، مفكراً، وكله حيوية، كان يمثل بغبطة مؤسسة استوجبت مني احترام هيئة

السياسيين الفنيين الذين يقومون بخدمة بلدنا بتكتم وتفان، مهما تكن الحكومة، ويؤمنون دوام مسيرة سياستنا الخارجية. وهذه الصفات نفسها كانت دفعت بالكسي جونسون لمعاضدة روجرز في مشاحنته مع المؤخرة للحفاظ على نفوذ وزارة الشؤون الخارجية، اذا اكتفى بخمس دقائق من المحادثة مع نيكسون، لاقناعه أنها كانت معركة خاسرة سلفاً. في السابع من كانون الثاني، كتبت للرئيس المنتخب، لأطلعه على ما بحث من نقاط. وكيف أن وزير الشؤون الخارجية كان يتمنى البقاء «عضو تنفيذ» للرئيس لاعداد وادارة السياسة الخارجية. كان يريد اذاً الاحتفاظ باليد العليا (الحظ الأوفر) في تعيين أعضاء المراكز البيوزارية، والحصول على سلطة تسوية الخلافات مع الوزارات الأخرى، والتمكن من عرض هذه الخلافات الى مجلس الأمن القومي C.N.S أوضحت للرئيس المنتخب أن التنظيم الذي وافق عليه كان يتوقف على اصدار تعليماته. وستكون وزارة الشؤون الخارجية ممثلة تماماً ضمن مجلس الأمن القومي، كما يجب أن يعاد تنظيمه، لأنه كان يدير فريق البحوث البيوزارية، ويسهم في أعمال فريق البحوث ومجلس الأمن القومي C.N.S. واعادة النظر النهائية، كانت تحت مراقبة البيت الأبيض المباشرة، كما كانت الحال إبان حكومة ايزنهاور. لم أوضح قصدي، لكني كنت أفكر أن نيكسون لا يتمكن من تجنب المشكلة، لو ترك الأمور تجري كما هي، وسيعرض ولايته الى خلافات هامة ضمن الادارة، واذا عاد لتصريحاته في «كاي بيسكاين» فانه يشجع حدوث معارضات مستقبلية.

حينئذ اكتشفت ولأول مرة، اثنتين من صفات نيكسون: كان يملك قدرة كبرى في تقدير الأمور، إبان ولايته، وتقريباً دون تغيير، كانت قراراته شجاعة وثابتة، اذ كان يتخذها وحده مخالفاً راي كل الاختصاصيين. وفي كل مرة كانت تتاح له الفرصة، كان ينفرد باتخاذ القرارات مرتكزاً على تقارير أو مساعدة بعض معاونيه المقربين. كان يكره مجابهة المعاونين الذين ليس على اتفاق معهم. كما أنه لا يتمكن من تحمل لوم أو نقد صديق. وكان روجرز هذا أو ذاك.

اعتكف نيكسون فجأة، ولم يشاهد لعدة أيام. ولما كنت أنجح في رؤيته، كان يدعي باطلاً أن مشكلة التنظيم ستجد الحل تلقائياً، دون إيضاح الطريقة، ويأخذ بالتحدث عن مواضيع أخرى. لم يعد الرأي العام يسمع سوى القليل عن المشروع الجديد لمجلس الأمن القومي المعلن عنه بافتخار قبل ثلاثة اسابيع. ولانهائه، انشأت والجنرال غوود باستر وثيقة تقدمنا بها للرئيس لتوقيعها. في اللغة الادارية، كانت هذه الوثيقة تحمل اسم «المذكرة رقم ٢ لتنظيم الأمن القومي» وبالاختصار: N.S.D.M2 . وهذه كانت نوعاً من مرسوم متعلق. بمجلس الأمن القومي C.N.S. ومنظم بطريقة رسمية وضمن الحدود التي أعلنها نيكسون في «كاي بيسكاين».

سعيت للبحث في حل للمعارضة. فذهبت أذاً أنا وغوود باستر وايفلبيرجر الى روجرز وريشارد سون، الذي سيعين معاوناً له. جرى اللقاء في المكتب الذي يستخدمه روجرز خلال فترة الانتقال. ودافع غوود باستر بقوة عن مضمون المرسوم. وبالنسبة لروجرز، فلم يغير رأيه في أن نشاطات مجلس الأمن القومي يجب أن تستمد رئاستها من الشؤون الخارجية. حبذ ريشارد سون رأي روجرز أولاً، ثم غير رأيه ودافع بحماس عن المذكرة رقم٢ «N.S.D.M.2» وأظن أنه وصل إلى ادراك رغبة نيكسون، وبصفته رجلاً ضليعاً في القانون فهم جانبها المنطقي. مع ذلك لم تكن لدى نيكسون نية قبول المذكرة رقم٢ N.S.D.M.2 في وضعها الحالي، بل حسب وجهة نظر روجرز. وكان المقصود بالنسبة للرئيس المنتخب، مشكلة تنظيمية. وكان على اقتناع من وجوب اعادة تنظيم الأمن القومي، ولما كان يخشى جانب الشؤون الخارجية، فإن النتيجة كانت معروفة. والوصول إليها دون اصدار أمر مباشر، كان مسألة أخرى. كان لكل أعضاء الحكومة العتيدين مكتب في فندق بيير في نيويورك. إلا أن نيكسون كان يتعب كثيراً في سبيل تنفيذ أوامره، سواء كانت مكتوبة، أو منقولة عموماً بواسطة طرف آخر، حسب عادته، وبالتالي كان صمت مبهم يهيمن على جهازنا العتيد لإعداد سياستنا الخارجية.

لما اعتكف نيكسون مجدداً، لتهيئة خطابه الافتتاحي، تغير الوضع، وكأنه بتأثير بعده الجغرافي. وكمفاجأة كبرى وصلتني مخابرة هاتفية من هالدمان يخبرني بأن الرئيس المنتخب عزم على توقيع المذكرة رقم٢ «N.S.D.M.2» وكل شخص لا يوافق، مرجؤ تقديم استقالته. كان هذا من بنات أفكار، ونسج خيال نيكسون أولاً توجيهات، ثم مماطلة قوية، ثم حديث وراء الكواليس، وأخيراً حكم قاس بالنسبة للمعارضين بطريقتين متلاحقتين. تبين هذه الطريقة أيضاً لماذا اجبر معاونو البيت الأبيض على لعب دور هام جداً. إذ كانوا يقومون بدور المصد بين الرئيس وزواره غير المرغوب فيهم. أعني كل الناس الممكن أن يبدوا عدم رضائهم بمجابهة مباشرة، وكان المعاونون أنفسهم، هم الذين يتسترون على غضب الوزارات.

وقعت المذكرة رقم ٢ «N.S.D.M.2» في التاسع عشر من كانون الثاني وأصبحت رسمية بعيد تولية الرئيس التي جرت في العشرين من شهر كانون الثاني.

إذا تفحصنا أفكار نيكسون الحازمة، نجد أن مخرج جميع مباحثاته كانت منظمة سلفاً. وفيما يخصني، لم تمثل أبداً أي انتصار مهم كما كانوا يتوهمون. إنها المظاهر أكثر من حقيقة السلطة، هي التي أضفت أهمية على هذا الحادث والواقع الذي خلفته، حول العلاقات

المستقبلية بين الرئيس وأهم مستشاريه. وبالرغم من أن الخلاف قد انتهى بانتصار ظاهري بالنسبة لي فقد شارك بتوطيد نفوذي باكراً جدا. أضف إلى ذلك، فقد كانت الأولى من خصومات عديدة جرت بين الرئيس ووزيره للشؤون الخارجية، وكانت الأكثر إثارة لكل منهما، يلصق بوجه عام المسؤولية على أطراف أخرى. وأكثر من تشكيل الحكومة ذاته، كان ختام هذه الخلافات والذي عند تطبيقه أعطى نفوذاً لمستشاري نيكسون المعينين. وأخيراً فإن الطريقة التي أعدت بها سياستنا وجدت حقاً جذورها في الرغبة التي كان نيكسون يكنها قبل تعييني، بأن يدير سياسة البيت الأبيض الخارجية، بالرغم من شكه في الإدارة الحالية، التي تتنافى مع توقعاته وتوقعاتي ونقص الخبرة في الوزير الجديد للشؤون الخارجية.

من المؤكد أن طريقة التنظيم المتبعة، كانت تسهل مراقبة البيت الأبيض، واعطت وسائل المشاركة، واشراك فريقي، في كل المراحل الأولى لاعداد السياسة. وبالاضافة إلى ذلك وبالرغم من أن هذا لم يؤخذ في الحسبان في المرحلة الأولى، فإن هذه الطريقة سمحت بمفاوضات سرية شاركت فيها أكثر فاكثر مع مرور الزمن. كنا نستطيع نيكسون وأنا، الانتفاع من التنظيم البيوزاري والحصول على المعلومات، بغرض اجراء بحوث حول مفاوضات افتراضية: وهذه البحوث كانت تسمح لنا بمعرفة أي الخيارات تعرض علينا، وأيها تؤخذ بعين الاعتبار من قبل اعضاء الحكومة وبعدئذ كنا نستطيع وضع بعض هذه الأفكار في حيز التطبيق، دون المرور بالطريق الرسمية. ومهما ظهر هذا غريباً، فإن هذا أو ذاك من الوزراء الهامين، قد شغل دوراً عظيماً في المفاوضات التي أجريتها، حتى عندما كنت أتصرف دون معرفة الوزراء أنفسهم.

وفي تقرير أخير: إن النفوذ الذي يتمتع به معاون الرئيس، يأتيه حصراً من ثقة الرئيس به، لا بسبب التنظيم الإداري. وكادت أن تكون وظيفتي مشابهة له. بامور متقاربة فيما لو بقي تنظيم جونسون موضع التنفيذ. إن التقرب من الرئيس، وامكانية التحدث معه عدة مرات في اليوم، لها أحياناً أهمية قاطعة، أكثر من ترؤس لجان أو حق تقديم آراء. ولأسباب يحسن ابقاؤها لعلماء نفس يبتون فيها. فإن كل الرؤساء، منذ كيندي يظهر أن ثقتهم كانت تزيد في معاونيهم في البيت الأبيض أكثر من ثقتهم بوزرائهم. هل لأن الأولين هم دائماً خاضعون لسلطتهم؟ أو لأن هؤلاء المعاونين هم أقل تماساً بالقضايا الادارية فيستطيعون التجاوب بصورة أحسن مع رغبات الرئيس؟ أو بشكل أفضل وبكل بساطة لأن وجودهم بقرب مكتب الرئيس يطمئن أكثر. بولغ بوظيفتهم نتيجة لطرق عمل نيكسون نفسه. وخلال الفترات التي كان يعتكف فيها، كان يعتمد على معاونيه في اتخاذ القرارات يوماً فيوماً. وعندما يبتلي بنشاط محموم، كان يعتمد عليهم

أيضاً، لكن هذه المرة لتعديل تهوره. كان حضورهم ضرورياً ليجنبوه مجابهات مباشرة كان يكرهها ويخشاها كثيراً. إنهم كانوا هناك للحفاظ على نيكسون من أوامره الخاصة المحرضة ومن ميله للاتفاق مع زائريه. لم تكن غاية فريق هالدمان بإفراد الرئيس بترتيب، كما أعتقد ذلك كثيراً. لكن نيكسون نفسه كان يؤكد بصورة حتمية على انفراده.

وكانت هذه الطريقة الوحيدة في استعادة ثروته النفسية واعادة التفكير في الإبطاء بالأوامر التي كان يعطيها.

في خضم هذا الجدال، كان نافعاً وضرورياً، أن تكون هناك يد تعلو على التنظيمات البيوزارية. وحق فرض الحلول المختلفة، خلال اجتماعات مجلس الأمن القومي .C.N.S. وفي الواقع فإن الآراء كانت تحددها اللجان البيوزارية بعد أن تكون قد نوقشت في اجتماعات مجلس الأمن القومي وبحضور ذوي العلاقة. كل واحد كان له حق الاعتراض (وقد يكون بالفعل مضراً إذا اجتمعت أصوات الكثيرين منهم) وإذا رأى أن العرض لم يكن يعالج سوى موضوع مشكلة بحثت، إزاء ذلك كان هناك للرئيس سبب أساسي أن لا يغفر بسهولة الفشل الناتج عن عرض غير كاف للقضايا.

أصبحت مستشار الرئيس الخاص خلال عام ونصف. وحصلت على نفوذ دون شغل وظيفة مهيمنة حتى نهاية ١٩٧٠. ومنذ ذلك الحين أصبحت وظيفتي أكثر أهمية، بالنوع ذاته الذي عزم فيه نيكسون على تجنب بطء الوزارات وتجاوز معارضتهم. وهذا إجراء نفذه تماماً مجلس الأمن القومي، حتى أن نفوذي أصبح مؤكداً، وبنتيجة ذلك، فإن كل القرارات ذات الطابع الاستعجابي صارت تتخذ خارجاً عن التنظيم، بل خلال محادثات شخصية بيني وبين الرئيس.

# المشــاكل الواقعيّــة

إن المشاكل الواقعية التي برزت خلال فترة الانتقال، انحصرت خصوصاً في إجراء محادثات أو سماع دفوع في سبيل اكمال مسيرة السياسة. عند اعلان تعييني، سعى الدبلوماسيون الأجانب للحصول على لقاءات سريعة معي، إذ كان يجب عليهم تقديم تقارير والاهتمام بإقامة علاقات طيبة مع الحكومة الجديدة. إن الحكومة التي تركت، كانت تحاول التأثير على المسؤولين الجدد لدفعهم إلى اكمال مسيرة السياسة التي كانت تسير بموجبها.

كنا تحترم كثيراً الشخصيات المهمة في الحكومة السابقة، وكثير من تلك الشخصيات كانت في مناصب خلال خمس أو ثمان سنوات في واشنطن، وعملنا جهدنا لتسليم عودتهم للحياة العادية. ولا واحد من أعضاء حكومة نيكسون سمح لنفسه بانتقاد بسيط بالنسبة لموظفي حكومة جونسون. سواء قبل أو بعد استلام منصب الرئيس الجديد. واهتم كل منهم بمعاملتهم بلباقة والاستفادة من خبراتهم. وهكذا وبعد سنوات عدة من تركهم، استدعينا أعضاء من مجلس الرئيس جونسون وبعضاً من معاونيه. وكل مرة تشغر سفارة ذات شأن، كان يطرح وبصورة دائمة وبالأفضلية اسم «دين راسك»، كما أن «سايرس فانس» رأى نفسه مرة مكلفاً بمهمة دقيقة.

لكنه كان مستحيلاً السير على طريقة السياسة الأجنبية المتبنّات حتى الآن. لأننا لم نكن نستطيع منع إقرار بعض التوجيهات وبعض الطرق المتبعة. وفي هذه الحال اعترضتنا قضية شائكة سببها الجهود التي كانت تبذلها حكومة جونسون للقاء القمة بين الرئيس جونسون والحاكم السوفيتي «الكسي كوسيغن». استفاد الرئيس جونسون من توقيع معاهدة حول عدم انتشار السلاح النووي في الأول من تموز لعام ١٩٦٨، والاعلان من أن الحكومتين هما على استعداد لإجراء مفاوضات حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية. كان هذا الاعلان الثنائي متوقعاً في الحادي والعشرين من آب، وبدء هذه المفاوضات سيحدد في الثلاثين من ايلول، بمناسبة لقاء قمة كوسيغين وجونسون في لينينغراد. لكن اجتياح تشيكو سلوفاكيا من قبل السوفييت جعل تحقيق هذا المشروع مستحيلاً.

وبالرغم من هذا الحادث وانتخاب الرئيس الجديد، فإن حكومة جونسون لم تهمل هدفها. بينما كان الاتحاد السوفيتي يتمنى الاشتراك في القمة. وفي الواقع فإن الروس كانوا يبتغون الحصول من الولايات المتحدة على تعهد حول مبدأ تحديد الأسلحة الاستراتيجية، وكان هذا قبل تسلم نيكسون منصبه. وإذا انتهت المفاوضات إلى طريق مسدود، يتمكنون والحال هذه تحميل نيكسون المسؤولية، بالمقارنة مع سلفه. بالإضافة إلى أنهم كانوا يسعون لمحو التأثير السيء الذي تركه اجتياح تشيكو سلوفاكياً من العلاقات الدبلوماسية. وفي الرابع عشر من شهر تشرين الثاني، أعني بعد أسبوع من انتخاب نيكسون، أعلن السفير دوبرينين لوولت روستوف، معاون جونسون، أن حكومته تجد رئيسياً متابعة المفاوضات حول الصواريخ. ومن المهم أيضاً إيجاد المناخ الملائم لتصديق معاهدة عدم انتشار السلاح النووي: «لو أن الرئيس جونسون كان قد وضع الأسس، التي تسمح باتصالات ذات فائدة للحكومة الجديدة، أضاف دوبرينين، سيشارك هذا كثيراً في تحسين العلاقات المستقبلية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي». أخذ روستوف بالإجابة: إن وجود الجيوش السوفيتية في تشيكو سلوفاكيا، يسبب مشكلة، وامتد الحديث الى تنظيم لقاء قمة. وفي الخامس عشر من شهر كانون الأول، عند اذاعة متلفزة بعنوان «تحت بصر الأمة» أكد وزير الدفاع كلارك كليفورد بشدة على ضرورة تنظيم عاجل للقاء قمة أمريكي - سوفييتي للمباشرة بمفاوضات حول الأسلحة الاستراتيجية.

كان الرئيس جونسون يتمنى أن يَسِمَ التاريخ بشارة بيضاء بسلوكه الخطوة الأولى نحو السلام. لكنه يشعر بالتأثر أمام هذه الجهود، وعناد قدره، والعوامل البشرية، والأحداث التي كانت تحيله الى العدم؟ انتقد جونسون بقسوة بسبب سياسته في فيتنام، التي ورث قسماً كبيراً منها من اسلافه، وكان يسعى طبعاً في إنهاء مدة ولايته في وضع ايجابي. كنا نحن نعتبر على الأقل ان اجتماع قمة امريكي - سوفييتي لم يكن له موضع في فترة الانتقال، ولم يكن من الملائم أن رئيس الولايات المتحدة يلقى الحكام السوفييت، بعد وقت قصير جداً من اجتياح تشيكو سلوفاكيا. وحركة كهذه سيكون لها تأثير سيء جداً لا سيما في أوروبا الغربية، وتظهر عدم حكمة من ناحية حكومة نصبت تواً. وفي الواقع، كان سيُجري المفاوضات موظفون قليلو الخبرة، غير جديرين بايصالها الى غاية مشرفة، بينما الاتحاد السوفييتي، بخبرته القوية من قبل حكامه انفسهم، كان يتمكن من فرض ارادته على توقيع اتفاق. أضف إلى ذلك، فإن الحكومة الجديدة إذا رغبت في تعديل سياستها بعد ذلك، ستكون ملومة من عدم احترام التعهدات الدولية المعلنة رسمياً، وستكون موضوع مقارنة غير مستحسنة مع عهد الحكومة السابقة.

أول القرارات التي تبعت إعلان تعييني في الثاني من كانون الأول، كان رفض أي موضوع حول لقاء القمة، قبل بدء الرئيس الجديد بالعمل. وفي الثامن من كانون الأول فإن روبرت الزوورت، الذي كان مستشار نيكسون، واحتفظ باتصاله مع السفارة السوفيتية، خلال الحملة الانتخابية، كُلّف بابلاغ القائم بالاعمال السوفيتية. يوري ن. تشير يناكوف، أن الرئيس المنتخب لا يتمكن من حضور لقاء قمة قبل العشرين من كانون الثاني. وقمت أنا باعلان هذا الاعلان نفسه لبوريس سيدوف، أحد رجال K.G.B. الذي يبدو أنه كان على اتصال بروكفلر خلال الحملة الانتخابية وكان يتبعني في كل مكان منذئذ. في الثامن عشر من شهر كانون الأول وفي فندق بلازا في نيويورك، سلم تشيريناكوف لالزوورت جواباً خطياً من الروس، متضمناً أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت قد تكملت عن قمة لأول مرة في تموز، ثم نحو منتصف أيلول، وأخيراً في نهاية شهر تشرين الثاني. وكان السوفييت قد اعتقدوا أن يكون الرئيس المنتخب على دراية بالأمر، أما الآن بعد أن توضحت الأمور، يعترفون أنه من الصعب عليهم توقع نصيب من النجاح في القمة، إذا أقيمت في الظروف الحاضرة. وأضاف تشيرنياكوف أنه سيكون سعيداً بنقل جواب الرئيس المنتخب الى موسكو. فلم يكن من جواب ولم يطرح موضوع لقاء قمة.

وأكملت، من وقت لآخر، اتصالي بسيدوف، الذي كان في قلق لمعرفة ما إذا كان نيكسون في خطابه الافتتاحي، سيبين عن نيته بعدم قطع الجسور مع موسكو. وحسب رأيه، فإن الكرملين، يرى ذلك لفتة كريمة: لم أتمكن من التأكيد، بالنسبة لي، فيما إذا كان سيدوف يريد بذلك إظهار نفوذه في موسكو أو أنه كان يقصد نصراً سابقاً للمكتب السياسي. وعلى كل حال، لم أجد ما أقول. وأعلن نيكسون في خطابه: «أن حكومته ستحافظ على جميع الاتصالات.» وعاد فأكد بأسلوب كلاسيكي رغبتنا في العمل لأجل السلام.

أجبرنا، خلاف فترة الانتقال، على مجابهة قضية أخرى، كنا المسؤولين عنها في هذه المرة وقد عرضت تحت اسم: مهمة سكرانتون «Mission Scranton».

بعد مقابلتي القصيرة لوليم سكرانتون عام ١٩٦٤، خلال محاولته تسنم الرئاسة. وجب علي إثر ذلك أن أعمل معه بمعاونة وثيقة عندما أصبح سفيرنا لدى الأمم المتحدة، وكنت أجده كفوءاً نزيهاً. كان لا يحب شغل وظائف لمدة طويلة، وكان على استعداد دائم لافادتنا بارشاداته، وتحمل مهمات خاصة. في بدء شهر كانون الأول عام ١٩٦٨، سافر لمدة تسعة أيام الى ستة بلدان من الشرق الأوسط بصفة مندوب شخصي لنيكسون. وفي التاسع من كانون الأول بعد اجتيازه

جسر اللنبي الذي كان يصل شرق الأردن بالضفة الغربية، التي يشغلها الاسرائيليون، تحادث سكرانتون مع صحيفتين في أريحا، وأضاف صيغة جديدة الى مصطلح الشرق الأوسط السياسي: «من الضروري أن تصبح سياسة الولايات المتحدة في هذه المنطقة أكثر انصافاً» واضاف مؤكداً أنه كان يقصد بذلك: أنه يجب على الولايات المتحدة أن تتعامل مع «كل بلدان المنطقة» لا أن تختص مجبرة بقضية واحدة فقط». وفي الحادي عشر من كانون الأول، عند وصوله الى روما، أعلن سكرانتون بالإضافة إلى ما سبق أنه لدى حكومة نيكسون مخططاً جديداً للسلام في الشرق الأوسط. اثارت هذه التصريحات عاصفة في اسرائيل، ورونالدزيغلر الناطق بلسان نيكسون، والمكلف بالعلاقات الصحفية، أجبر على التصريح في اليوم ذاته أن هذه التعليقات حول سياسة منصفة، وحول مخطط جديد للسلام، لم تكن حتماً صادرة عن الرئيس المنتخب. وبعد أن قدم تقريره لنيكسون في الثالث عشر من كانون الأول، أجرى سكرانتون مؤتمراً صحفياً، وحسب اعتقاده، أعاد أنه يجب على الولايات المتحدة سلوك سياسة أكثر انصافاً في الشرق الأوسط. فتدفقت موجات قلق من اسرائيل والمدافعين عنها في الولايات المتحدة. واستطعنا تصفية الجو في الثالث عشر من كانون الأول، خلال لقاء بين نيكسون ووزير الدفاع الاسرائيلي موشي دايان وأنا. كان موشي دايان يتمنى مثل نيكسون، أن علاقات اسرائيل مع الحكومة الجديدة، لا تفتر منذ المرحلة الأولى بشقاق بين البلدين، وكذب علانية تصريحات الصحافة من السخط الذي أحدثته زيارة سكرانتون لاسرائيل. وأكد دايان للصحفيين، بتعابير غامضة قليلاً، أن حكومته تعتقد أن لدى سكرانتون الآن «رؤية صحيحة للأمور» والاثارة التي سببها هذا الأخير تبددت، والوضع في الشرق الأوسط ظل ثابتاً.

التقينا في مناسبات أخرى وتحدثنا ملياً عن تعقدات قضايا الشرق الأوسط. وفي السابع عشر من شهر كانون الأول مثلاً، قابل الرئيس المنتخب أمير الكويت، تلبية لرغبة الرئيس جونسون الملحة. الذي أبدى سروراً من مقابلة نيكسون لهذه الشخصية التي هي آخر المدعوين من قبله. واكتسب هذا الحادث أهمية في أني كلفت لأول مرة لاعداد هذا اللقاء الرفيع المستوى مع الرئيس المنتخب، ولقد أخفقت للأسف.

كنت أفكر في الواقع أن يكون الخلاف الاسرائيلي ـ العربي أول اهتمامات الأمير، وأن يكون قد أعد ملفاً كاملاً حول الموضوع. لكن الأمير لسوء الحظ كان يرغب في معرفة نية الحكومة الجديدة حول الخليج العربي، بعد مغادرة البريطانيين المتوقعة لعام ١٩٧١. وكيف تتصرف أمريكا مثلاً في حال مهاجمة العراق للكويت؟ القى علي نيكسون نظرة حائرة كان يحتفظ بها

لمعاونيه عندما كان يرى أن عدم كفاءتهم، توقعه في مأزق صعب، فأجاب دون ارتباك: يجب التفكير جدياً بالقضية، التي نعيرها أكبر اهتمامنا ولا نزال محافظين على مبدأ سلامة جميع دول المنطقة من الانتقاض، وعملنا يتعلق بنتيجة الظروف، فأبدى الأمير سروره من هذا الجواب الغامض.

فهمت على الأثر وبطريقة استباق الأمور. لزوم السؤال المسبق للزائر عن المواضيع التي سيناقشها مع نيكسون.

خلال فترة الانتقال، يجب على الحكومة الجديدة الاحتراس الشديد، من ادخال سياسة خارجية في المجال الحالي، ووجوب تهيئة المناخ للمستقبل. وفي بداية شهر كانون الثاني، بعث الرئيس المنتخب برقيات حارة الى الرئيس ديغول، ولرئيس الوزراء هارولد ويلسون، ولرئيس جمهورية المانيا الغربية كورت كيسنجر. ولمانيلو بروسيو الأمن العام لحلف شمال الأطلسي، مؤكداً بذلك اعطاء الأفضلية، لتوثيق العلاقات مع شركائه في حلف الأطلسي. كما أرسلت برقيات صداقة الى رئيس وزراء اليونان إيساكو ساتو، والرئيس ايوسيب بروز تيتو والى البابا بولس السادس.

توجهت السياسة الأكثر أهمية في فترة الانتقال نحو هانوي. وبناء على نصائحي، اتصل الرئيس المنتخب مرتين بفيتنام الشمالية، أعني نحو أواخر كانون الأول وبداية كانون الثاني، ومظهراً بذلك أننا كنا على استعداد لاجراء مفاوضات رسمية. وصديقي جان سانتيني، الذي كان ممثلاً عاماً لفرنسا في هانوي أصبح وسيطاً لنا. ولم تعط هذه الاتصالات أية نتيجة لأن فيتنام الشمالية، التي حصلت فعلاً على وقف اطلاق نار من جانب واحد، طلبت حالاً في الولايات المتحدة قلب حكومة سايغون.

وبالحقيقة، فإن الخطأ الهام الذي ارتكبناه خلال هذه الفترة كان مع فيتنام. وكأن هذه المشكلة كانت قادرة على تغيير اتجاه محاكمة الأمريكان. قبل تولية الرئيس ببضعة أيام، أعطينا الضوء الأخضر للمفاوضين الأمريكيين، المشاركين في مباحثات باريس، للخروج من الطريق المسدود، الذي كان يؤخر بدء المفاوضات الحقيقية، منذ وقف اطلاق النار في الأول من تشرين الثاني حول تقرير شكل طاولة المفاوضات ومختلف الفرقاء أصحاب الحق بالجلوس عليها. كان العمل دقيقاً، إذ أن حلفاءنا من الفيتناميين الجنوبيين، كان لهم شعار خاص، إذ كانوا يعتبرون

أنفسهم في الواقع حكومة فيتنام الشرعية، ويرفضون معاملة ممثل هانوي في الجنوب على قدم المساواة، أي جبهة التحرير الوطنية «F.N.L.». منذ ثلاثة أشهر وسايغون ترفض طلب هانوي، التي كانت تفرض وجود طاولة مربعة يجلس حولها كل من: هانوي ـ جبهة التحرير الوطنية ـ سايغون والولايات المتحدة، ولكل منها ممثل خاص. وكانت هانوي ترى في ذلك وسيلة للتعريف أن جبهة التحرير الوطنية حكومة شرعية.

نحو منتصف كانون الثاني، اقترح الاتحاد السوفييتي فجأة، باسم فييتنام الشمالية، تسوية، قُبلت مباشرة، في أن تكون الطاولة مستديرة، دون لوحات اسمية، ولا أعلام أو اشارات مميزة. وبهذه الطريقة، كان يتمكن الشيوعيون من الاعتقاد أن الفرقاء الحاضرين كانوا أربعة، بينما الولايات المتحدة وفييتنام الجنوبية يعتبران فقط وجود اثنين (الحلفاء مقابل الشيوعيين). تحركات الشيوعيين كانت ظاهرة وواضحة اذا امتد الطريق المسدود، فان الرئيس الجديد بتصريحاته العلنية، التي كانت تبدو فعلاً حربية، كان قادراً على اعادة اطلاق النار، ومن جهة أخرى، اذا أصبح الخروج من المأزق ممكناً بعد تسنمه وظائفه، فان الحكومة الجديدة، تستطيع التفاخر بهذا الدليل الخير أمام الرأي العام وتقوي مناعتها ضد الحرب النفسية التي كانت تتهيأ هانوي لاعلانها ضدها. وبالوصول الى اتفاق مع الحكومة المنتهية، فان فييتنام الشمالية تتلافى هذين المشكلين.

كان من السهل علينا دفع فييتنام الجنوبية لتأجيل الأمور وتأخير ابرام الاتفاق الى ما بعد تولية الرئيس، على كل حال كانت هذه فكرة سايغون. لكن بيل روجرز أعطى لوزير الشؤون الخارجية، صلاحية اعلام حكام سايغون أن الرئيس المنتخب يحثهم على قبول التسوية قبل استلامه وظائفه. وبالرغم من إلحاحي فكر نيكسون بعدم استطاعته النكوص عن خطته هذه، وهكذا تمكنت الحكومة السابقة من تسجيل نصر هام، لم يكن له أهمية بحد ذاته، لكن هانوي تعتقد أن ذلك يضعف وضع الرئيس الجديد. والمفاوضات انتهت لا محالة الى طريق مسدود جديد. وعادت المجادلات في الولايات المتحدة، فاتهم نيكسون حالاً بنقص المرونة بسبب حساسية النتائج الحاصلة.

ظهرت فترة الانتقال قصيرة جداً، كالعادة. وفي ظهيرة العشرين من شهر كانون الثاني، ورياح جليدية كانت تعصف على درجات الكابيتول، رأيت ريتشارد نيكسون يقسم اليمين. وقبل كل من

كان لديهم الأمل وبعد نفاذ الصبر، بالمسؤوليات الجديدة، ووجب عليهم منذ الآن أن يعملوا لمستقبل بلدنا، وتأمين الوصول إلى السلام والحرية في العالم .

## ـ ٣ ـ

# تصرفات رجل دولة متمرّن

## آفـــاق مـــؤرخ

إن فترة ممارسة المسؤوليات كانت مخيبة للآمال جداً، لا سيما لمن كان مهيأ لمجرى حياة أكاديمية. ومرغم على تجاوز التفكير إلى التقرير، كان يجب عليّ تعلم الفرق بين المنطق وسياسته. لن يكتفي بعد بوجود حجج صحيحة، لكن يجب الاقناع بالعمل وإنهاء المشاكل النظرية، ليس المحادثون مناقشي فكر، لكن دولاً ذات سيادة، وغالباً ذات قدرة لفرض رغباتها بالقوة .

كل رجل مسجون جزئياً بالضرورة. إنه مواجه بيئة لم يوجدها، وتأدب بتاريخ شخصي لا يستطيع تبدليه. والتصديق بأن الحكام يكسبون كثيراً عندما يعملون عن تجربة هو وهم: وكما قلت أن التصرفات التي اكتسبها هؤلاء قبل شغل منصب خطير هي رأس مالهم الثقافي، الذي يجب أن يعيشوه طويلاً طالما هم يشغلون منصبهم. ليس لدى زعمائنا وقت كاف للتفكير، إنهم في عراك دائم من حيث أن العاجل له دوماً الأفضلية على المهم، وحياتهم العامة هي معركة لا حد لها لإبعاد مبدأ خيار من ضغط الظروف.

عندما بدأت الوظيفة كنت أحمل معي فلسفة أعدت خلال عقدين خصصا لدراسة التاريخ. وهذه ليست بالحقيقة كتاب وصفات عجائبية. إنها تثقيف بالمماثلة لا بالحكمة. يمكنها إشهار نتائج الأعمال المكملة في أوضاع مماثلة، وحق لكل جيل من الكشف عن الأوضاع المشابهة حقاً. ولن يخفف عنا أبداً أي نظام جامعي وطأة الخيار الصعب.

كنت أصدرت كتاباً وكتبت عدة مقالات حول السياسة في القرن التاسع عشر، وكنت أرغب في حينه أن أفهم كيف أن أوروبا التي انجبتها حروب نابليون قد نجحت في بناء سلام كان يجب أن يدوم قرنا. ولماذا تبدد هذا السلام عام ١٩١٤ . لم أكن لأتخيل أبداً أن مخططات واستراتيجية الفترات السابقة استطاعت أن تطبق في الوقت الحاضر.

لـو كنـت مقتنعـاً أن الماضـي زاخـر بـالخبرة والارشـاد، كنـت عرفـت أننـا علـى ابـواب عهـد دون سوابق، سواء بقدرة أسلحته الفتاكة، وبسرعة سيولة أفكاره وبالصدم العالمي للسياسة الاجنبية، أو الوسـائل التقنيـة، التـي اسـتطاع الإنـسان تجهيزهـا لتحقيـق حلمـه القـديم لتحـسين شـروط الحياة البشرية.

إذا كان التاريخ يعلمنا شيئاً. فهو عدم وجود سلام دون توازن: ولا عدالة دون اعتدال، وأعتقد كذلك أن ليس هناك أية أمة تتمكن من مواجهة أو تحديد خياراتها دون تقرير خلفي من خلال حقائق غامضة وليعطي معنى لتضحياتها، والعزم على السير بموجب هذه الطريق الضيقة، يدل على الاختلاف بين التمييز أكثر من التعليم الجامعي. أو أي تعليم آخر. أو الأخلاق أو ما يتحلى به رجل الدولة، إن التعليم الدنيوي ينظر في اللا محدود، والخير والشر بالنسبة له محددان بوضوح. والزعيم السياسي لا يستطيع عرض هذا الفخار على نفسه. يقدر ونادراً ما يصل الى غايته على مراحل، وكل خطوة في هذا السبيل ناقصة معنوياً. ومع ذلك يجب عليه التقرب من الغاية المعنوية. بالنسبة للفيلسوف فان معياره الأساسي في تفكيره هو الذي يضم مبادئه الأساسية. وبالنسبة لرجل دولة، ليس معياره فقط عظمة أهدافه، بل ايضاً الكوارث الممكن تجنبها. والبشرية لن تعرف أبداً مما تخلصت، لأن هناك رجالاً يعرفون أية أخطار وكوارث جنبوها، وهذه الأخطار تظهر عديمة الوجود حال اعتزالهم السياسة، والحديث بين رجل جامعي ورجل دولة تتوفر له كل أسباب الدوام. وبالحقيقة فان السياسة ليس لها نقاط استدلال دون الفلسفة، لكن الانسان إذا لم يجازف في حال الشدة ولم يجرؤ على اجتياز بعض الخطوات الفاشلة فان البشرية لن تعرف أبداً السلام.

ان التاريخ لا يعرف وقتاً للراحة ولا التوازن، وكل المجتمعات التي يصفها مرت بمراحل انحطاط، وزال معظمها. لكن رجل الدولة، بين الصدفة والحقيقة يتصرف بحدود قيادية تسمح له، بصبر ووضوح باجراء خيارات وصنع مستقبل شعبه. وعدم التعرف على الأهداف الموضوعية خطر، والتحول عنها الى المزايا التاريخية المحتمة يقابل اعتزالاً خلقياً: وهذا يعني اغفال القوة، والأمل والابداع، التي حملت البشرية طوال الأجيال. ان مسؤولية رجل الدولة هي محاربة الأشياء الوقتية، دوث البحث في الحصول على ربح أبدي. ولو عرف أن التاريخ عدو الاستمرار، فليس من حق الزعيم السياسي الاستسلام وشعبه ينتظر منه أن يقاتل، وينشئ، ويعارك ضد التأخر الذي يهدد كافة المؤسسات البشرية.

عندما استلمت وظائفي، كانت بلدنا تجتاز فترة معقدة وعصيبة. وفي حياة الشعوب كما في حياة الكائنات البشرية. يجيء برهة تظهر فيها امكانيات الشباب دون حدود، وتهبط فجأة، وعند ذاك يجبر الانسان على معرفة عدم امكانية أي شيء. يمكن لهذا الاكتشاف احداث اندفاع جديد خلاق، أقل وضوحاً دون شك من حيوية السنوات الماضية، لكنها أغنى واختبارها أطول. وليس من السهل وضع حدود لها: وهذا يمكن أن يوصلنا الى قطع الأمل والمعارضة والرفض، وخلق كره لأنفسنا حيث نلقي على عدم كفاءتنا كل التسويات المفروضة.

في نهاية أعوام ١٩٦٠، كانت أمريكا تشعر بشك وكره من هذا النوع نحو نفسها على أثر حرب فييتنام. اشتركت فيها حكومتان تدريجياً وفي عام ١٩٦٩ كانت كلفتها حياة أكثر من واحد وثلاثين ألف أميركي، دون التمكن من رؤية نهاية سريعة لها، ان الحماس الذي اندفع به الشعب والكونغرس في هذه الحرب تبدل أولاً الى ارتيابية ثم الى عداوة شرسة.

الكثير من الناس كان يرى في هذه الحرب الاندفاعية ظهور الشر المتعمق في النفس الأمريكية. وهذه السنوات العشر التي في بدايتها، كانت الولايات المتحدة تعلن بفخر أنها على استعداد لجميع التضحيات للدفاع عن الحرية، انتهت الى موجة من الاغتيالات، والتمرد المدني والمظاهرات المؤسفة. وأعوام ١٩٦٠ كانت تدق بقوة ناقوس حزن عدم براءتنا، وبقي علينا أن نعرف هل نستفيد من هذا الدرس، أو تنهك قوانا لعدم معرفة حنكتنا.

أضحى الأمريكيون في حيرة كبرى من أن اضطرابات أعوام ١٩٦٠ حدثت في نهاية فترة مخصبة جداً اذ كنا وقعنا معاهدات: للحفاظ على السلام وانعاش تنمية الديمقراطية الصناعية في أمريكا الصناعية في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان، وشاركنا في بناء التنظيمات الاقتصادية الدولية، التي كانت منذ جيل، تساهم في الازدهار العالمي. وشجعنا على انهاء الاستعمار وكنا الاوائل في اندفاعنا لمساعدة تنمية الشعوب النامية. وهكذا على كوكب سيار، كانت الاتصالات والتكنولوجيا تخفض المسافات، وفي عالم مزقته الحروب والقتال لبناء وحدات

قومية جديدة، كان لدى الولايات المتحدة جميع أسباب التفاخر في الدور الذي كانت تقوم به على المستوى العالمي، متفاخرة بنشاطها ومثلها العليا وانجازاتها الدائمة.

بعد جهود عشرين عاماً، لم يكن ضمير أمريكا مرتاحاً، فاختفى العون الذي تمتعت به سياستنا الاجنبية منذ حرب عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥. والرجال والنساء الذين دعموا انجازاتنا وتعهداتنا الدولية أوهنت عزيمتهم حرب فييتنام التي كانوا يعتبرونها فشلا شخصيا. و الكثير من شبابنا، كانوا يعارضون نجاح آبائهم، مهاجمين ما كانوا يسمونه نقض تعهداتنا ومنتقدين القيم التي باسمها، كنا حصلنا على منجزات، وصرنا على ابواب جديدة: إذ أننا في أعوام ١٩٢٠ انقطعنا عن العالم لأننا كنا نظمن أنفسنا أعلى منه، لكن في أعوام ١٩٦٠ تولدت لدينا خبرة ماكرة، لم نتمكن أن نجلب منها سوى الشقاء.

وطبعاً، فان أزمة الثقة الأمريكية ظهرت معدية: اذ كيف يمكن لأقوام أجنبية الوثوق بقيم بلد أكثر من البلد ذاتها؟ فتوصل المثقفون الامريكيون الى التفكير ان الولايات المتحدة كان لها القسط الأوفر في الحرب الباردة أكثر من السوفييت، ودفعوا بحكوماتهم لقطع الحلقة المفرغة، متخذين هم أنفسهم مبادئ للسلام، والعديد من رؤساء الدول الأوروبية شددوا على هذه الانطلاقة الفكرية: وجعلوا من أنفسهم محامين متحمسين لها بل قاموا بدور «وسيط» بين الغرب والشرق، وتوجهوا إلى موسكو، وحاولوا اقامة علاقات مع بكين، مطالبين بنزع التسلح وتنمية التجارة بين الشرق والغرب.

سار كل شيء على ما يرام حتى نهاية أعوام ١٩٦٠، البرهة التي بدأت فيها الولايات المتحدة، باعتبار هذه الانتقادات سيولة نقدية بتبني الأمور التي كانوا ينادون بها ضمناً. وفجأة أزاح رجال الدولة الأوروبية الضباب، اذ كانوا يخشون الآن حدوث حكم ثنائي أمريكي سوفييتي: نوع من «قمة يالطا» حيث صفى القادة الأمريكان والروس المشاكل العالمية من فوق رأس الحكومات الأوروبية. وفي السنة التي اجتاح فيها السوفييت تشيكوسلوفاكيا، اتهم العديد من دول حلفاء الولايات المتحدة في أنها ـ في وقت واحد ـ تريد الحرب في جنوب شرق آسيا، وتتساهل كثيراً مع الاتحاد السوفييتي. وكان لهذا التناقض مردود لاذع بالنسبة لوحدة الحلف الأطلسي الذي خشي أحداث تشيكوسلوفاكيا، وقد حثه الرأي العام للمصالحة والحاجة الماسة لتوطيد أمنه، وبذا قد شل التحالف الغربي.

وتثبيط الهمة ذاته كان يثيره الباقي من سياستنا الدولية. منذ عشرين عاماً، واتصالاتنا مع الصين كانت تنتهي بالإفصاح عن تظلمات متبادلة حال اللقاءات المتقطعة بين السفراء في فرسوفيا. كان الوضع في الشرق الأوسط متفجراً ومنذ حرب عام ١٩٦٧، لم يجر فيه أي تحرك دبلوماسي. كانت انقشاقاتنا الداخلية تميت فينا كل فكر للتصميم. وكأن أمريكا قد تحولت الى السلبية في عالم. وبالرغم من أزمة الثقة التي نعيش. كانت فيه قوّتنا وحدها قادرة على توطيد أمننا. وتفانينا وحده كان يمكنه إعادة الأمل إلينا.

مع ذلك فإن حرب فيتنام لم تكن بنظري سبب مشاكلنا. لقد كانت فقط ظاهرة مرضية. وكنا نجتاز فترة تكيف مؤلمة، نحو تغيير أساسي في المسرح السياسي العالمي، وكان علينا الانتباه الشديد للانحراف عن مبدأ تاريخنا وعما نزعم عليه مجدداً. بموجب المخطط الدولي، كانت أمريكا تظهر، خلال قرنين، وكأنها تتأرجح بين حفظ تعهداتها أو العزلة، وبين أكبر ثقة في قدرتها، وبين الخجل من هذه القدرة، بين تفاؤل وافر، وتثبيط همة شديد امام غموض عالم غير كامل. كنت متأكداً أن ضررنا كان يأتي بالواقع من فهمنا. الذي لا يزال غامضاً. في اننا لسنا مختلفين عن الشعوب الأخرى، وأن قدرتنا ولو كانت كبيرة، كان لها حدود. ولحل مشاكلنا لم تكن مواردنا دون حد: بل بالعكس، كان علينا تركيز أفضليات، ثقافية ومادية. وفي الأعوام ١٩٥٠ - ١٩٦٠ حاولنا إيجاد حلول نهائية لبعض المشاكل المحددة، وكان يلزمنا الآن تحديد دور أمريكا في عالم جديد يبنى، عالمين من جهة أن علينا مسؤوليات تجاهه ومن جهة أخرى ترك الفكرة في أن جهودنا ستصل ذات يوم إلى نهايتها.

عام ١٩٦٨، لم تتمكن أية حكومة الإفلات من هذه المشكلة، ومواجهتها بشروط حسنة، إذ كانت تمثل مهمة شاقة، ومع حرب فييتنام أصبح هذا ألماً حقيقاً.

لم يعدنا تاريخنا حسناً لكل ذلك. وبشكل متناقص فإن «الآباء مؤسسي الولايات المتحدة، كانوا رجال دولة مهذبين، أدركوا توازن القدرة في أوربا وعرفوا استخدامه بذكاء للحصول على استقلال مهذبين، أدركوا توازن القدرة في أوربا وعرفوا استخدامه بذكاء للحصول على استقلال أمريكا، ومن ثم المحافظة عليه. إن المواهب السياسية التي استخدمها رجال بارعون مثل فرانكلين»، جعلت أعداء انكلترا (فرنسا - وروسيا) بجانبنا. وبعد أن توطدت قدرتنا في المفاوضات، حصل «جون جاي» على انتزاع الاحترام من التاج البريطاني لبلادنا ووضع حداً نهائياً لحربنا معاً. وفي هذه المرحلة وفي أحسن تقاليد توازن القدرة الأوربية، أخذنا أبعادنا

تجاه حلفائنا الحاليين واتبعنا طريقنا الخاصة. وطيلة أكثر من ثلاثين عاماً بعد الاستقلال، عشنا في توازن ثابت، كيفية الشعوب الأخرى. تحاشينا قليلاً حرباً مع فرنسا واجبرنا على استثمار ثرواتنا من قبل البريطانيين، لكننا عرفنا وبغطتتنا الاستفادة من ظروفنا الجديدة، نهاية الوجود الفرنسي والاسباني في أمريكا، وخطر التمدد الروسي في الشمال الغربي من المحيط الهادي، وعزلة بريطانيا العظمى المتزايدة بالنسبة للشعوب الأوروبية قادتنا الى الحوار مع انكلترا وتبنى مذهب «مونرو» لإبعاد السلطة الأوروبية عن قارتنا.

كانت انكلترا تفكر في التوازن الاوروبي: وبرأي رئيس الوزراء «كالينغ» كان مذهب مونرو «يخلق العالم الجديد لإعادة توازن العالم القديم». أما بالنسبة للعالم الجديد، فإن هذا المذهب كان يعني التمكن من إدارة الظهر لأوروبا وتكريس جهوده لغزو الغرب.

وطيلة القرن الذي مضى بين «واترلو» و١٩١٤، وقينا الحروب بابتعادنا الجغرافي، والقوة البحرية البريطانية التي كانت تحافظ على استقرار العالم.

كانت قدرة الولايات المتحدة في ازدياد، وكان مسرح المعارضة الاوروبية في أوروبا وإفريقيا وآسيا، وتوصل الأمريكيون الى اعتبار العزلة التي ضمنها لهم محيطان كبيران طبيعية في علاقاتهم مع الخارج. وببعض الكبرياء عزوا أمنهم الى التفوق الوحيد لخبراتهم أكثر مما هو لثقل قدرتهم أو للتنظيم الحسن بين العوامل التاريخية والجغرافية.

بعد جزء المد النابليوني، بقيت أمريكا بعيدة عن الخلافات الأوروبية طيلة كل القرن التاسع عشر. وهذا الشيء لم يمنعها من خوض حروب كثيرة كأي من غيرها من الدول الأوروبية وخسرت فيها كثيراً من الرجال. ولم يكن لهذه الحروب أي طابع دولي: أما بالنسبة للأمريكيين فقد كانت تشكل جزءاً من ضرورات الحياة وتقرير المصير.

كل الأمريكيين، منذ المنحدرين من سواح «ماي فلاور» حتى لاجئي الثورات الخاسرة لعام ١٨٤٨ خلصوا إلى التفكير بأنهم كانوا في منجى من الالتزامات التي كانت ترهق الشعوب الأخرى. كما كانوا قد ورثوا وبكل تأكيد بعض الذرائعية وفهم الحقائق.

وهكذا فإن رؤية الأميرال «ماهان» لدور القدرة البحرية أظهرت أن الامريكان كانوا قادرين على إظهار بعد نظر كبير في الجغرافية السياسية، وأظهرت الطرق التي افتتحوا بها الفلبين وقناة

بناما ان سياسة القوة لم تكن غريبة عنهم أبداً. غير أن الفكرة السياسية الامريكية، كانت قد توصلت إلى الاحتراس أكثر فأكثر من الدبلوماسية وأن الأسلحة والمحالفات كانت تظهر لا أخلاقية ورجعية. وأصبحت المفاوضات وسيلة لكسب مصالحنا وما يفيدنا، أكثر مما كانت شركاً لجرنا إلى اقتتال بلا نهاية في عالم غير آمن. إن ميلنا الطبيعي للصراحة، ورغبتنا في إيصال السياسة الصاخبة إلى الوضوح التام، وعدم ثقتنا بطريقة التصرفات الأوروبية والانتخابات في العالم القديم، كل هذا ولد فينا عدم احتمال كبير أمام نُظم الدبلوماسية الأوروبية المرهفة وميلها الشديد إلى تسويات كلها غموض. غير أن شراء الاسكا، الذي كان يخرج روسيا نهائياً من قارتنا، جرى في حينه وكأنه جنون غريب. كانت طيبة قلب الأمريكان وحدها تتمكن من تفسيره تجاه مكائد العالم القديم الدبلوماسية. وبصعوبة كبرى اقتنع الكونغرس، وخصص السبعة ملايين دولاراً المنظمة للاتفاق.

دامت أسطورة تفوق الأجانب في طريقة الحيل الدبلوماسية حتى القرن العشرين، وكان «بيل روجرز» متأكداً من إضحاك الناس عندما أعلن: أن أمريكا ما خسرت قط حرباً، ولا ربحت في مفاوضات».

عند دخول القرن العشرين، وجدت الولايات المتحدة نفسها غير مهيأة للقيام بدورها المطلوب: وكانوا قد نسوا مهارة الآباء المؤسسين السياسية، التي ضمنوا بها استقلالنا، كما كانوا يحتقرون الوسائل الواجب على كافة الشعوب اتباعها للدفاع عن مصالحها. هذا ما كان يصرح به اللورد «برايس» عام ١٩٨٨ في رابطة الشعوب الأمريكية. تدبرت أمريكا أمورها «في وقت مريح جداً، لكن غيوماً أخذت تظهر الآن في الأفق، ووقت الغيوم والضباب لم يكن بعيداً، حيث كانت تتربص بها مخاطر لا تعرف طبيعتها ولا أهميتها».

إن السلم البريطاني الذي اعتمدنا عليه طويلاً، كان يصل إلى نهايته، لكن أمريكا لم تستخلص نتائجه إلا في وقت متأخر. أصبحنا أكبر قوة اقتصادية في العالم، وسنكون قريباً الأمة الديمقراطية الوحيدة القوية جداً للمحافظة على توازن عالمي وقتي.

إن دخول الولايات المتحدة الحرب الأولى، نتيجة ملازمة للجغرافية السياسية، وكان يجب علينا وبأي ثمن تأمين حرية البحار وحماية أوروبا من تسلط قوة معادية. إن الولايات المتحدة الأمينة لكل تقاليدها، فضلت مع ذلك تصحيح تدخلها بأسباب حق ومثالية: لقد قاتلنا «لوضع

حد لكل الحروب» و«لضمان أحداث الديمقراطية في العالم»، لكن خيبة الأمل الواقعية التي سببتها النتائج غير المشرفة دفعتنا مجدداً نحو العزلة. ومرة أخرى وقعنا في غلطنا: إذ استعنا بالقانون محاولين حل الخلافات الدولية . وإعداد نظم لضمان الأمن الجماعي، وبرامج جديدة لنزع التسلح، وحلف «برياند . كيللوغ Briand – Kellogg» (عام ١٩٢٨) لاستبعاد كل حرب، وكنا نرفض التعرف على أن كل سياسة أجنبية يجب أن تبدأ بضمان الأمن وهذا جرنا (في فترة ما بين الحربين) لمعاملة حلفائنا وكأنهم مناوئون لنا ويجب تحديد تسلحهم، لأن الأسلحة باعتقادنا تساهم في خلق الضغوط الدولية، كنا نحضر أكباش الفداء، الذين يدعونهم والحالة هذه «باعة المدافع» لنوضح كيف أننا استطعنا الولوج في تاريخ اكثر قذارة من الحرب العالمية الأولى. وأصبحت وكالة الاستخبارات مشبوهاً بها عندما كانت تمتنع من تهديد حرياتنا، وأخيراً، فإن النشاط الاقتصادي وحده كان الطريقة الأمريكية المقبولة للتعامل مع الخارج: وبالحقيقة فإن أهدافه كانت إنسانية سواء كما ظهر ذلك جيداً في سياسة مساعدات «هربرت هوفر»، إذ أن المقصود بها المشاركة في المبادلة الحرة كما كان يوحي بذلك «كورديل هول».

وخلال انتشار النظام الكلياني وأمام التهديد الضاغط على النظام الدولي بكامله، بقينا مرتبطين وبشدة بعزلتنا، باعتبارها أولاً خياراً سياسياً، ومن ثم كونها قناعتنا الحقيقية. لذا أهملنا تماماً الاحتياطات الأساسية التي كانت تكفل أمننا القومي. وبصعوبة كبرى أخذ الرئيس روزفلت الاستعدادات الأولية لمجابهة التهديد المتعاظم. فاستخدم ذريعة المبادرة إلى مساعدة بريطانيا العظمى وسيلة لإعادة تنظيم قوتنا العسكرية. وكانت الحرب العالمية الثانية تستعر منذ وقت طويل، عندما أصبحنا خارج عزلتنا بسبب هجوم مفاجئ ضد الأراضي الأمريكية. وعلى إثر ذلك شغفنا كلنا بالقتال في سبيل انتصار كامل، وسها بالنا أن العالم بعد الحرب سيتطلب توازناً في القوى. وكنا بذلك على غير استعداد لما تنتجه الحروب، التي فاجأتنا. وبالحقيقة فإن تدمير كل من ألمانيا وإيطاليا، وإنهاك قوة كل من إنكلترا وفرنسا، وضعت القدرة السوفييتية في قلب القارة الأوروبية، وكانت أوروبا الغربية في وقت ما تحت رحمة الاتحاد السوفييتي. وإعادة الصمود الايديولوجي الذي برهنت عنه موسكو، أعاد إلى الذاكرة الرؤية الصحيحة لوفاق دولي، غذيناه طيلة مدة الحرب. وكان علماؤنا أخيراً قد صنعوا انشطار الذرة، فكنا هكذا أمام عتبة عهد، لم تكن أسلحته بشيء بالنسبة لما عرف منها حتى الآن.

عندما كان يصرّح دين أشيسون : أنّه «أمام اختراع جديد» فلم يكن يعني بذلك فقط سياستنا الخارجية بعد الحرب ، بل العهد الجديد في تاريخنا الخاص . و بعد الحربين اللتين عرفهما

هذا القرن ، فإن الحكام العالم لم يتمكنوا أبداً من إلقاء التبعات و الأعباء التي كانت تثقل كواهلهم : و برضا و بغير رضا، أصبحت الولايات المتحدة بطل التوازن العالمي . فيجب إسداء الشكر للمهمّة و التصوّر و المهارة التي أبداها أمريكيو هذا الجيل ، و تمكنوا من القيام بمسئولياتهم ، مساعدين في إعادة بناء أوروبا . و مشجعين وحدتها ، و موجدين تنظيم تعاون اقتصادي و موطّدين تحالفتنا و الاحتفاظ بحرّيتنا، و ستبقى هذه المبادرة الخلّاقة أحد أمجاد التاريخ الأمريكي.

و مع ذلك فان هذه الحقبة من الحيوية المفرطة كان يجب أن تنتهي ، إذ كان لزاماً علينا دفع فدية نجاحنا، ان قوّة أوروبا و اليابان الجديدة، كانت تحملنا على تعديل طبيعة علاقتنا مع حلفائنا. ان الأمم الجديدة في سبيل التنمية التي شاركنا في استغلالها ، لم تكن تسهو عن طلب مشاركة أكبر في الازدهار العالمي، و لم تكن لدينا أية وسيلة لمنع الاتحاد السوفييتي من إيجاد قوى جديدة و تشميت قدرته. إن النجاح الناجز الذي أحرزناه بعد الحرب ، لم يهيئنا لمجابهة مشاكل أكثر تعقيداً. و بالحقيقة فإن برامجنا الأولى : كمشروع مارشال و النقطة الرابعة ، كانت تعكس تصوّرتنا ، و مهارتنا التقنيّة و جدارتنا بالتغلّب على المشاكل بفضل مواردنا. و بمعنى آخر كنّا نطبق تعاليم تنظيمنا الجديد مفكرين أن الازدهار الاقتصدي سيحل الخلافات السياسية. و لكن إذاً أخذ بهذا التفكير في أوروبا و أقطار آسيا، حيث توجد نظم سياسية متعدّدة، فإن تطبيق يصبح أصعب في البلاد النامية. و في العالم المسالم أو المشترك في الحرب الباردة، ثبتنا بعناد ضد كل الضغوط و المحاولات الابتزاز في برلين و كوريا، و في برلين أيضاً، و أخيراً في أزمة كوبا ، و غنمنا هناك انتصارات . و من جهة أخري ، فإننا لم نكن إلاّ في أول المناوشات من القتال الطويل الذي سنعلنه ضد الاتحاد السوفييتي في فترة وضعت تحت لواء: «نووي _ حراري» التي ستولّد قريباً خصومات أكثر غموضاً.

ان سباقنا مع ذلك كان يرتكز كثيراً على المشكلة أساسية ، و كنّا نعتبر في الواقع حالة السلام كحالةٍ « عادية». و بالنتيجة فإن الغاية من معظم أعمالنا الدولية الكبرى هي تأكيد العودة إلى هذا التوازن بإزالة كل الموانع التي تحول دون ذلك. و كان على برامج إعادة التنظيم الاقتصادي في أوروبا جلب الازدهار، و على القوى المبذولة لضمان الأمن كان يجب أن تصل إلى اتفاق نهائي مع الاتحاد السوفييتي. و على هذا المبدأ الأخير مع تصوّر منع الانتشار القوّة ، ركّزنا سياستنا نحو الاتحاد السوفييتي بعد الحرب.

و طبقاً للمادة العاشرة الشهيرة، التي أعلنها جورج كينان ، في المؤتمر الشؤون الخارجية عام ١٩٤٧ ، التي تشير الى أن مهمتنا كانت في مواجهة الرووس بقوة سلبية و الانتظار بأناة زوال نظامهم. و حسب رأي دين أشيسون، و رأي آخر لجون فوستر دالاس ، كان يجب علينا الانتظار ومناً طويلاً ، لتصبح لدينا قوة تمكننا من احتواء الهجوم السوفييتي ، لاسيما ضد أوروبا الوسطي ، التي أهميتها الحربيّة لم تكن تغيب عن بالنا. عند تحقيق منع انتشار القوّة يبدأ العمل الدبلوماسيّة. و ما يجب علينا عمله كان يقول وزير الشؤون الخارجية أشيسون : «هو إيجاد أوضاع قوة ، و تنمية قدرتنا، ووضع أنفسنا في موضع القوّة، و حسب رأيي فإن الوضع سيتغيّر في العالم . . .» و ستتوزّع باقي القوى الأخرى، كما أرجو ذلك ، و هكذا سيدفع الكرملين إلى معرفة الحقائق ...» و كما هو مبيّن ، فإن المبدأ منع انتشار القوة ، كان يعالج القوّة و السياسة كمظهرين أو عنصري سياسة متميّزين ، و كان يهدف إلى مفاوضات نهائية ، لكنه لم يبيّن نوعها . و كان يضمر أن القوة تحدّد نفسها ، و الغرض من فترة المباحثات القادمة سيتوضّح كذلك من ذاته . أما كيف يمكننا إظهار قوّتنا دون هجوم مباشر ضدّنا أو ضد حلفائنا؟ و ماذا سوف يحدث، إذا كان عدّونا ، بدل المفاوضات ، حاول إضعافنا ، أو أخذنا من الخلف ؟ و ليس من جواب لهذا!!!.

غير أن سياسة منع انتشار القوة كانت تتضمن أخطار ثلاثه:

**أولا** : إن مفهومنا العسكري المفرط لتوازن القوى ، و نتيجته الطبيعية و تأجيل المفاوضات إلى نهاية الحرب، كانت تعطي السوفييت بشكل متفاوت وقتاً لإحكام غزواتهم و استدراك تأخرهم في المشروع النووي. و بالحقيقة بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، فإن القوى السوفييتية المتجمعة في أوروبا الوسطى كانت متغلّبة من بعيد على القوى المنتشرة ضدها : و كانت أوروبا الغربية تجد نفسها في ركود عميق، و كانت الولايات المتحدة قد سرّحت جيوشها. لكن القوّة الحقيقية للاتحاد السوفييتي لم تكن تمثل حينذاك سوى جزء من قوتنا. و كانت في الواقع منهوكة القوى من جرّاء أربع سنوات حرب و فقد عشرين مليوناً من البشر ، في حين أننا كنا نحتكر الذرّة ، و حصلنا خلال عشرين عاماً على تفوق نووي عظيم. و قدرتنا النسبيّة لن تكون أبداً أفضل مما ستكون عليه في بداية الحرب الباردة.

**ثانياً** : إن التقنيّة العسكرية كانت على حال لا يستطيع معهما توازن القوى فهمها كمبدأ متماثل. و الأسلحة النووية كانت جدّ مدمّرة حتى أخذ يتضح قليلاً عدم إمكانية استعمالها في

الحال هجوم مهما كان نوعه ، و لزمن ما ، كتمت هذه الحقيقة ، بالاحتكار النووي الذي كنا نتمتع به، و تفوّق أسلحتنا العددي . و مع ذلك كان يجب الرضوخ لحكم الواقع عندما امتلكت الكرملين قدرة تقنيّة ، و عندها فقد التهديد بالانتقام النووي قابليّته التصديق. و أصبح توازن القوى يرتكز من الآن فصاعداً علي عاملين اثنين : على أهميّة الأسلحة الإستراتيجية النووية ، و على الأراضي بأسلحة كلاسيكية ، و لقد أثبتنا كثيراً النجاعة العامة لدرع الأمان النووي ، لكننا سنجد انفينا في مأزق ، إذ يجب علينا قطعاً النظر في أوضاع دفاع محلية ، و هكذا وجدنا أنفسنا مدة عشر سنوات أمام هذه الازدواجية الأساسية لمهمّة شاقّة.

**ثالثاً و أخيراً:** إن فكرة منع انتشار القوة، لا تقدر أن تكون في حال من الاحوال الردّ الحاسم لصدم الإيدلوجية الشيوعية عن العالم المعاصر _ و بالحقيقة فإنها تغيّر العلاقات بين الدول الى خلافات ايديولوجية و تهددّ توازن القوى بطريقة الثورات الوطنية.

و بالاختصار ، فاننا لم نكن نفهم حقاً أن : إذا ازدادت قدرتنا المطلقة تضعف قدرتنا الخاصّة بمقدار ما يستعيد الاتحاد السوفييتي قواه ، التي خسرها في الحرب العالمية الثانية. و لم يكن أبداً وضعنا العسكري و السياسي أقوي مما كان عليه في بداية سياسة منع انتشار القوّة، أعنى نحو آخر أعوام ١٩٤٠ .

كان لا بدّ من التحدّث جديّاً عن مستقبل أوروبا ، لكن هذا الفرصة أفلتت من يدنا .

و في الحقيقة فإني أميل إلى التفكير، بأن فكرة ستايلن الأولى ، لم تكن تعنى وضع أوروبا الشرقية بكاملها في دائرة نفوذ، لأن التنازلات الأولى التي قام بها بعد الحرب ، كانتخابات حرّه في بولونيا و تشيكوسلوفاكيا و المجر مثلاً ، و التي مني فيها الشيوعيين بالهزيمة، و التي جعلتنا نفكّر بأنه يقبل أن يرى هذا البلاد تتبنّي نظاماً مشابهاً لنظام فنلندا.

ففضّلنا على غير ما كنا نتوقّع تحريك قوتنا الكامنة، قبل المباشرة بمفاوضات جدّية ، الأمر الذي أتاح الفرصة للاتحاد السوفييتي . و هذا عامل رئيسي . لتدعيم غزواته و محو آخر آثار عدوان الحرب.

فهم تشرشل كعادته الموقف أفضل من أيّ كان. لكن خطابه الذي ألقاه في تشرين الأول من عام ١٩٤٨، أعير قليلاً من الاهتمام، و لم يكن إذا ذاك في الوظيفة. هناك سؤال يطرح نفسه: ماذا

سيحدث عندما يحصلون هم أيضاً على القنبلة و عندما يمتلكون مخازن كبيرة من الأسلحة النووية؟ يمكن الحكم على ذلك من خلال ما يجري حالياً إذا تصرف هكذا أقزام اليوم ، فما الذي يقدر عليه عملاقة الغد ؟.

و إذا تابعوا بكل وقاحة تعكير العالم و تعذيبه، معتمدين على أن أخلاقياتنا المسيحية و حبّنا للغير ، سيمنعاننا من الاستخدام القدرة العجيبة الجديدة ضدّهم ، فما الذي لن يفعلوه ، عند امتلاكهم أسلحة ذرية عديدة؟... فمن الحمق أن نعتقد باستغلال وقتنا كله : فلابدّ من رؤية الأشياء كما هي و إيجاد حلّ نهائي لها ، كما لا يمكن السماح لأنفسنا أن نكون عديمي التبصّر و التنظيم ، و لا أن ننتظر مكتوفي الأيدي حتى يحدق بناء الخطر . سيحالف الحظ الشعوب الغربية بالوصول إلى اتفاق دائم دون سفك دماء، إذا استفادت من امتلاكها القنبلة الذرّية، للتعبير عن مطالبها العادلة، في حال أن روسيا الشيوعية لم تكن تملكها بعد...».

و ظهر أن الحربين اللتين خاضتهما أمريكا بعد عام ١٩٤٥ _ كوريا وفيتنام _ لم يلبّيها رغباتها السياسية أو الاستراتيجية . فحرب كوريا مثلاً لم يسببّها أي هجوم على الولايات المتحدة أو على حلفائها الرئيسيين. و لم تكن لتهدّد قلب أوروبا، و لم تكن روسيا متورّطة فيها مباشرة. و لاشيء يذهل أكثر من أن مسئولي واشنطن قد رأوا في هذه الحرب متعة أعدّت لاستمالتنها إلى آسيا، بينما كان الاتحاد السوفييتي يعدّ هجوماً في أوروبا ، لم تشترك فيها الولايات المتحدة كلياً. كنا نتبادل الأهداف تبعاً للموقف العسكري، و كان المقصود ضدّ الهجوم بالتناوب ، و توحيد كوريا ، و توطيد أمن قواتنا ، أو توقيع هدنة مدعّمة بضمانات ، توضح المأزق الذي تؤدي إليه المجابهات المسلّحة.

فكرتنا عن القوّة و الدبلوماسيّة كمرحلتين متميزتين و متتاليتين للسياسة الخارجية ، منعتنا من إجراء مفاوضات لإنهاء حرب كوريا ، بعد تفريغ انشون، الذي أعطانا تفوقاً عسكرياً ، لكنها بالعكس دفعتنا آنذاك الى اهتمام أكثر.

عند بدء المفوضات بعد سنة ، قادتنا هذه الفكرة إلى انهاء كل العمليات العسكرية ، ما خلا العمليات ذات الطابع الدفاعي الصرف الذي ضاءل رغبته العدو في الوصول بسرعة الى اتفاق دبلوماسي . تصرفنا و كأن سير المفاوضات يتبع منطقاً داخلياً و مستقلاً عن التوازن العسكري _ و كأن ضغوط الجيش، كانت تهدد في الواقع بالاساءة إلى المفاوضات، ببعثها ضغينة عدونا، و

جعله يفكى أننا لسنا أهلاً للثقة. بقي الموقف مجمداً طيلة عامين، و كما كان متوقعاً فقدنا خلالها عدداً من الرجال كان مساوياً لما فقدناه، مدة العدوان الحقيقي. و بفصلنا القوة عن الدبلوماسيّة، كما نقلل من فعاليتها لصالح قواتنا المادية، و ثقلها في مفوضتنا.

إن النزاع الذي قابل به آنذاك دوغلاس ماك آرثر السلطات المدنية و العسكرية في واشنطن، كان أول طعنه للولايات المتحدة في الاتفاق الجديد الذي كانت تتمتع به سياستنا الخارجية. و في الحقيقة كان ماك آرثر يطري الانتصار في الشرق الأقصى ، في حال أن أعداءه كانوا يؤكدون مع غيرها من الأمور ، أنه كان يلتزمنا توفير قوانا ، بانتظار المجابهة الكلية مع الاتحاد السوفييتي ، التي كانت على وشك الوقوع في أوروبا . كما كان ماك آرثر أيضاً يعارض الأوامر الصادرة ، لأنها كانت تبدو له قليلة البعد، بالنسبة لفكرتنا التقليدية عن الحرب ، أما السلطات السياسية نفسها ، فكانت تعتبر حرب كوريا متعه: هذه الحرب التي كانت تتطلب أبعاداً كبيرة بالنسبة لواشنطن التي كانت تتوقع معركة فاصلة في أوروبا .

كان من الصعب اليوم التفكير بأن الزمن يعمل لحسابنا، إذا أننا سنخسر أكثر من الاتحاد السوفييتي في حرب غير متكافئة. لكننا لم نستطع أبداً حل المفارقة التالية: كنا قد تورطنا في حرب كوريا لأننا كنا نفكر أن نجنب أوروبا من خطر أقوى بكثير في مستقبل قريب. و بعدئذ فان الخوف ذاته من مواجهة هجوم شديد الاتساع على الأراضي الأوروبية، حد كثيراً من الخطر الذي كنا نستعد لخوضه ، حتى ننتصر في كوريا، و المأزق الذي نتج عن هذا الخطر دكّ شيئاً فشيئاً تماسكنا و شارك في الهجوم ضد حريتنا و اتخذ شكل الماكآرثرية.

بعد عشر سنوات ، كانت فيتنام، تفرض علينا المعضلات ذاتها . و تدخلنا في الهند الصينية هذه المرة أيضاً ،كان يعود استسراتيجية عالمية أعدها الشيوعيون. أضف إلى ذلك أننا سعينا للحد من علمنا فيها، لأن هذه المكيدة العالمية ، التي لم تكن فيها الهند الصينية سوى نافذة ، كانت تظهر الفييتنام و كأنها سبب لتحطيم مخططاتنا . فعملنا جهدنا في كل مرحلة من مراحل الحرب، لنبقي بعيدين عن كل انتقاد يكون سبباً في التداخل الصيني أو السوفييتي. و بالاختصار فإن احساسنا بالخطر بالنسبة للسلم العالمي، دفعنا للقذف بقواتنا في عمليات بعيدة المدى ، منعتنا فجأة من ادارتها بحنكة . و هناك أيضاً حرب بدأناها بموافقة اجماعية ، انتهت الى المأزق كريه خسرنا به تدريجياً كل رصيدنا لدى الأمة.

و في عام ١٩٦٩ ، أنقلبت حرب فييتنام الى كابوس قومي حوّل الهجوم كله ضد سياستنا الخارجية ما بعد الحرب . و كان يعتبر الحرب الباردة . و بالاجماع تقريباً حتى يومنا هذا، انها نتيجة لعناد السوفييت . لكن سرعان ما تحول هذا الاعتقاد إلى تساؤل من قبل أقلية كانت تؤكد و بصراحة ، و بشدة أحياناً ، ان الضغوط الدولية ، كانت تغذيها أصلاً : العدوانية و الروح الحربية و الامبريالية الاقتصادية الأمريكية.

لم يكن لهذا التطرف الوطني مشابعون حقيقيون و انتهى تلقائياً عند إخلاء فيتنام. و ما هو أكثر تأثيراً ليس ما أحدثه هذا الغراء العارض بل الطريقة التي أبعد بها كل التفاؤل عند هؤلاء الذين كانوا هم مطالبين بالدفاع عن مبادئ و انجازات سياستنا بعد الحرب. ان المجتمع الدولي الذي نحن مدينون له بنجاحاتها الكبرى في سياستنا الخارجية، كان يرى قيمة موضوع تساؤل من قبل أطفال في السياسة و ينهار تحت ضرباتهم العنيفة.

كانت حكومة نيكسون الجديدة الأولى في جيل ما بعد الحرب ، و كان يجب عليها ادارة سياسة خارجية محرومة من إجماع الأمة الذي تمتّع به أسلافه طويلاً و على أكبر مدى عام ١٩٤٧ .

كانت مهمتنا بالحقيقة كثيرة التعقيد . اذا كان علينا ليس فقط انهاؤها بالانتصار في الحرب ، لكن أيضاً باعداد سياسية خارجية مقبولة في الحقبة التي كنا على ابوابها. ستنتهي حرب فييتنام عاجلاً أم اجلاً . فأي القضايا العالمية ستطرح أمامنا؟. و أي أهداف يجب علينا اتباعها في العالم؟. و هل نجد بعد وحدة توفّق بين مثلنا العليا و مسؤوليتنا ، و بين أمننا و قيمنا ، و بين تصوراتنا و امكانياتنا ؟...

# توازن جــديــد للقضـــايا المطروحة

و لدى استلام الوظيفة ، كانت حرب فييتنام تهدد بإحداث كره جديد و شديد للشؤون الدولية، يدفع بأمريكا الى الانعزال لتضميد جراحها و مناهضة زعمائها . هذا خطر جداً ، بل أكثر من مسرحية فييتنام : اذا كدنا نسقط مجدداً في هذه الحلقة الجهنمية من نمو دخل قومي مفرح و انعزالية كئيبة تصنع تاريخنا . و سنتخلى هذه المرة عن العالم أكثر تعقيداً ، و أكثر خطراً ، و أكثر صلات بأمريكا من عالم أعوام ١٩٣٠ . ركزت حكومة نيكسون اذاً همها على وضع أسس سياسية خارجية عامة ، مع وضع حدود للتدخل في فييتنام. فلن يكتفي فقط بمواجهة الأزمات ، كما كان عليه الأمر في السنوات ١٩٦٠ ، لأن هذه الأزمات ، كانت تنكشف عن المشاكل أكثر عمقاً ، و خطأ عدم حلها السريع جعلها لا تقاوم.

جرّنا تفاؤلنا المفرط في مرة واحدة معاً الى فك ارتباطاتنا و العزلة ، و كنت معتقداً أن رؤية صحيحة لمصالحنا القومية ستكون بمثابة حاجز و ضمان لاكمال سياستنا . و عظمة أهدافنا لم تكن لتسمح لنا بعدم المسئولية. و كان عليها بالعكس ، تشجيعنا و تقويتنا و بيان الطريق الصحيحية الواجب اتباعها . حينئذ فقط كنا قادرين على المساهمة في خلق أسلوب منظومة دولية: اخطارها ، تعهداتها و أهميتها، كلها كانت دون سابقة في التاريخ. كان للقلق الذي يضنينا أصول أعمق من الفييتنام، و كانت تنبع من الفلسفة أكثر مما هي من مهارة سياسية. و هذا ما كنت أكتبه فى بحث نشر بضعة أسابيع قبل انتخابات عام ١٩٦٨، و كنت اذ ذاك بعيداً مائة ميل عن التفكير، انه سيطلب مني وضع أفكاري موضع التنفيذ.

«إن القلق المعاصر مصدره دون شك من بعض الذين ، لم تكن غايتهم واضحة (وصريحة). و ما دام هناك قلق حاصل فهذا يدل أنه ينبع عن عدم اكتفاء جذري تجاه دولة حديثة لا تقيم وزناً إلاّ للإدارة و الاستهلاك ، و تجاه عالم قصوره يسبّب الأزمات، و بالرغم من اتساع وسائلها ، فإن الدولة البيروقراطية الحديثة ،تهدم غالباً حتى أساساتها بحوادث تظهر قليلة الأهمية. إن ثبات و تحركات الدول الفنيّة في العالم . لا سيما في البلدان الصناعية و بين الطبقات الميسورة نسبيا . يكشف عن فراق روحاني ، وسأم ميتافيزيقي في وسط سياسي مغمور بالبيروقراطية ، و لا يسعى إلاّ نحون عون مادي ...

و في أحسن الحالات ، يجب على الحكومة الجديدة مجابهة الأزمات لأننا عشنا و في كافة اقطار العالم تقريباً بخبرتنا المواكبة و مجابهتها النادرة للقضايا النحتية ، ستتضاعف طبعاً هذه الصعوبات، عندما يصبح حتمياً على الأمريكان الذين لم يرثوا من حرب فييتنام سوى تردد عميق من التدخّل عبر البحار.

سيكون من حق الحكومة القادمة التساهل و تفهم الأمور الشعب الأمريكي ، لكنها لن تنصفه بالأكتفاء بتطبيق حلول تقنية للقضايا الصعبة. و يجب عليها قبل كل شئ عرض المشاكل الطارئة ، و للتمكن من تحديد سياستها الأجنبية ، يجدر بها أن نعرف ان الوسيلة الوحيدة للمساهمة في خلق عالم مستقر و فعّال هي في تكوين فكرة كاملة عنه».

أخطر تغيير في عصرنا هو ما حبب طبيعة السلطة . و حتى بدء العهد النووي لم يكن ليعقل ان بلداً تستطيع وضع أكبر قوّتها العسكرية لاستخدامها المباشر على الصعيد السياسي، و إحضار قوة إضافية كان نافعاً سياسياً على الأقل ، على الصعيد النظري. و ظهور السلاح النووي كان يجب أن يضع حداً لهذه المبادئ التقليدية. يمكن لبلد قوي ، من الآن و صاعداً تدمير عدوه ، و مع ذلك فهي لا تكون على مستوى ضد هجوم متوقع . و من سخرية التاريخ، أن ازدياداً عظيماً في القدرة يبدد ارتباط القوة السياسية. و من الآن فصاعداً فإن القدرة النووية الكبرى تتمكن بالتبادل تخريب بلدها . و تجد من المتعب استعمال قدرتها لتسوية المشاكل المحتملة الوقوع. و سيكون لديها وسيلة إحباط التهديد المباشر ضدّ وجودها، و من غير الضروري استخدام هذه القدرة كتهديد مجدٍ ، حتى ضد البلدان غير القادرة على الثأر. و قد ازدادت القدرة المتعاضمة ضد الدول المحمية من القنبلة النووية ، لكن الخوف الناتج عن قدرتها كان قد قوّى كبتها. و الرعب المتعاظم الذي توحيه هذه القدرة غيرّها إلى تصوّر مجرّد ، لا يمسّ ، و لا يحجز.

كانت سياستنا العسكرية تقوم على ردع ذلك. لكن هذه هي نظرية بسيكولوجية، تتعلّق خصوصاً في أن الهجوم المتوقع يعتبر خطراً غير مقبول : تؤخذ الخدعة بالاعتبار في عهد النواة ، و اعتبار التهديد أيضاً خدعه، يمكن أن يكون له نتائج مفجعه. و بقدر ما يكون الردع فعالاً بقدر ذلك يصعب تفسيره _ دوام السلام خوف من اندلاع حرب ، أو لأنه على أية حال ، ليس للعدونيّة بالهجوم؟.. و ليس بدعاً أن تتضاعف التحركات السلميّة عندما يظهر السلام متوطداً. لكن إذا كان الردع فعالاً حقيقة ، فمن الخطر علينا تبديد القوى و المعطيات التي يرتكز عليها هذا السلام. إن أسلحة النووية أكدت القوة السياسية لعالم منقسم إلى مجموعتين ،

و محافضوا التوازن في القرن التاسع عشر كانوا على استعداد لتبنى هذا الرأي مع الأوصاف المستحدثة لبنيان القدرة. أما مسؤولو القدرات العظمى للنصف الثاني من القرن العشرين ، فلما يعتقدون في تنظيم هذا التوازن السياسي بعد انقلاب. أما اليوم و قد دخل التوازن بين القوى المتعاظمة ، فهو معاً وقتي وصلب. و بعد أن أصبح ثنائي القطب، فإن العالم قد خسر أيضاً معنى فروق الآراء. و كل تقدم يحصل عليه أحد القطبين هو بمثابة خسارة حتمية للقطب الآخر. و كل قضيّة تظهر موصلة إلى مشكلة حياة أو موت ، تصبح معها السياسة صلبة و تؤسس العلاقات على عدم الثقة.

في الوقت ذاته ، و بنوع غريب جداً، شجعت ثنائية القطب، و لم تقلّل من انتشار القدرة السياسية في المستوى العالمي. امّا البلدان الصغرى فتقسّمت بين حاجة الحماية و رغبة الإفلات من تسلّط القدرات الكبيرة . و في حال ارتياب هذه الدول في نيّة اخوتها الكبار في تضحية أمنها في سبيل دوام عيشها ، فإن هذه البلدان الصغيرة و قد تحالفت تتوصل إلى إيجاد الوسائل التلقائية للدفاع ، و إذا لم يخالجها الريب في هذا العون فإنها مدعومة لسلوك سياسة أجنبية مستقلة، حتى لو استهانت بأماني شركائها.

و هكذا فإن تحدّي شارل دي غول الجرئ للولايات المتحدة ، يعكس حتمية اعتقاده بأن الولايات المتحدو ستجبر على الدفاع عن فرنسا في حال هجوم سوفييتي ، أكثر من خوفه من العكس الذي كان يتصوره قبلاً. و هكذا فإن الشعوب الحديثة ، أظهرت مهارة فائقة في تحدي القوى العظمى ، بالرغم من تسلط هذه الأخيرة المتزايد.

كل رئيس جديد يعلم حالاً أنه أمام مطلبين متناقضين ظاهرياً: تجميع القوى اللازمة لحماية امريكا و حلفائها و اصدقائها و تجنب حرب نووية أدبياً. و اذا أظهر عدم الرغبة في الأخذ بهذين المظهرين . ينشب خلاف لا يمكن تجنبّه . و يخسر الدعم الوطني الشعبي المحتاج اليه . فيجب عليه معاً ، جمع كل القوّة الممكنه و معرفة كيفيّة استعمالها ، كما يجب عليه إعداد أمريكا للدفاع عنها بقدر إعدادها للسلام . و لن يتمكن من عمل شئ اذا لم يكن شعبه واثقاً فيه: و اذا أراد ان يكون زعيماً حقيقياً ، فعليه بسط نفوذه الأخلاقي أولاً.

و في ظروف أخرى ، ستكون المشكلة التي استوجبها السلام صعبة الحل تماماً ، و لا تزال هذه القضية معقّدة حتى أيامنا بسبب الخلافات الإيديولوجية. و في الظروف المتميّزه جداً بالإيديولوجيات فان الانتماء السياسي يتجاوز إطار الحدود القومية.

تلتزم الأحزاب الشيوعية في كل العالم بعقيدة مشروعة عالمياً ولازمة تاريخياً ، و تلتزم هذه الاحزاب بطاعة شعب يكون غالباً اجنبياً ، و بخلاف مع بلادهم الأصلية ، و عندما لا تكون أغلبية الشعوب النامية شيوعية فعلاً ، فهي مضادّة بقوّة للغرب ، لأنها تعادي الامبريالية. و في البلاد النامية الاعتدالية و المتطرّفة فإنها تتبادل خصومات داخلية ذات أهميّة أساسية . و في أحوال كهذه ، فان كل ثورة وطنية ، قادرة على تغيير العلاقات بين هذه الدول، التي تشعر أنها مهددة ليس فقط بسياسة بلاد الأجنبية ، بل أيضاً و خصوصاً بانقلابات داخلية ، و وجود نظام شيوعي تحرري في براغ ، استدعي الغزو السوفييتي عام ١٩٦٨ . و تفوّق الاتحاد السوفييتي في السياسية الخارجية ما كان أبداً في خطر ، و مع ذلك كان يخشى انتشار بعض الأفكار المعاديّة في أطراف امبراطوريته. و بعد عشر سنوات ، كان على الثورة الايرانية زعزعة الشرق الأوسط.

كل هذه الخلافات ، و هذا الخوف ، كان ينشأ و لأول مرّة في المستوى العالمي.

كانت القارّات منعزلة نسبياً على مدى التاريخ و حتى بداية الحرب العالمية الثانية ، و كانت تتخذ أهم قرارات السياسة و الدولية في بعض العواصم الأوربية ، و بعد الحرب تغيّرت الحال ، إذ أن كل القارات دخلت المسرح السياسي ، فضمّت هيئة الأمم عام ١٩٤٥ إحدى و خمسين دولة ، بينما كانت تضم أكثر من الضعف عام ١٩٦٨ أعني قرابة مائة و ثلاثين دولة . و بالاضافة الى ذلك فان وسائل المواصلات الحديثة ، كانت تنشر آنياً الأخبار و الأفكار ، و الأحداث التي لم يكن لها حتى ذاك التاريخ سوى أهمية محلية أصبح لها دوّي في المستوى العالمي.

عن استلام حكومة نكسون ، كاد يسود العلاقات الدولية ، انقلابات غامضة ، و كانت الديمقراطيات الصناعية، قد توصلّت أولاً الى رفاهية اقتصادية ، أما بالنسبة للنشاط السياسي فقد كان يدعوا للتساؤل عن الدور الذي قامت به أمريكا حتى آنذاك ضمن تحالفاتها.

كان معظم القادة الأمريكان ميّالين لإلصاق الفشل على تصرّف شارل دي غول الغريب و المؤثّر. و لم أكن أنا بين من كان يأخذ بوجهة النظر هذه. لأن تصرّف الجنرال شارل دي غول لم يكن بالنسبة لي سبب مشاكل و ريبة في الوقت الحالي ، بل كان ذلك أعراض تغييرات جذرية في

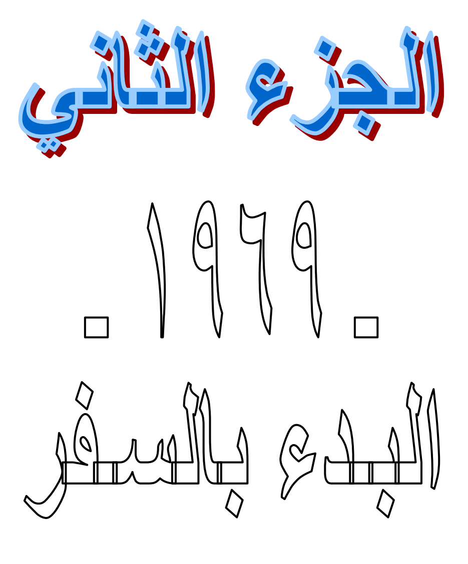
بنية الحلف الأطلسي . و فعلاً ، لم يكن طبيعياً أبداً ان القرارات الهامة التي اتخذتها بلاد أوروبا الغربية على بعد آلاف الكيلومترات من هنا ، تؤثر على مصير قدرات اقتصادية و فنية جداً. و كنت أؤكد منذ سنوات عدّة أن هناك فائدة للولايات المتحدة المشاركة بالمسؤولية. و لو أصرت الولايات المتحدة على الاعتماد على انصارها فقط في العالم غير الشيوعي، كانت تبعت نفسياً قبل الإقدام على ذلك فعلياً. و برأيي ان تقسيماً جغرافياً لمراكز الثقل كان متفقاً تماماً مع مصالحنا و أهدافنا . لأجل ذلك كنت أعارض من جهة القوى التي بذاتها حكومات كنيدي و جونسون لمنع تحقيق المشاريع النووية في فرنسا و حتى في انكلترا ، بالإضافة إلى ميل واشنطن في الأعوام ١٩٦٠، الى تبديل المداولات بجلسات تفسير للتوصيلات الأمريكية.

و ما كان يدعى بالثالث في ذلك الوقت، كان يضع أفكارنا و سياستنا على المحكّ: كما أن مبادئ البرنامج الجديد و مشروع ماشال ، كانا يظهران عديمي الفائدة في تقديم النشاط الاقتصادي و بناء الوطن، حيث لم يكن يوجد لا ماضٍ سياسي و لا طبقة متوسطة تتمكن من إحداث ملاكات أو مديرين ، في أي حال أن الحكام كانوا يتخبّطون في مشاكل وحدة وطنية . و لم يكن لدينا ما نعمله في سبيل اقتصاديات كاملة، و إنشاء جمعيّات تسير بعناء خطاها الأولى نحو تحديثها. فأصبح من الضروري و الحالة هذه أن تكون السلطة السياسية على أهمية رئيسية لبناء الأمة، معجّلة في إئتكال البنية التقليدية ( التي غالباً ما تكون إقطاعية) و الدعم الاقتصادي الذي لم يكن يسهّل التوطيد السياسي . و بعكس ذلك إذا كانت الماركسية قد جذبت البلاد إلى طريق التنمية ، فلم يكن هذا بسبب نظرياتها الاقتصادية التي ترتكز عليها ، بل لأنها قد أوجدت جواباً لمشكلة الشرعية و السلطة السياسية و صيغة التعبئة الاجتماعية و تحقيق القدرة السياسية ، و وسيلة لبحث التسلّط الثقافي و السياسي في الغرب لتحقيق الوحدة الوطنية ، و إذا كان لدى الديمقراطية نجاح أقل ، فلا يعود هذا الى أخطاء الغرب . و في الواقع لم يقبل حكام البلاد التي هي في طريقه التنمية ، الاشتراك في المعركة ضد الاستعمار لأن معظمهم لم تكن لديهم النيّة أن يروا أنفسهم قد تنجّوا عن مناصبهم ، و حدثت نزوة تاريخية ، كانت تريد أن المثالية الماديّة التي لم تستطع يوماً وضع حلّ للمشاكل الاقتصادية في أي بلد ، أن تنتشر هذه النزوة بمجرد زعمها لنظري ، في حال أن الغرب كان حينئذ يعتمد على فلسفة مثالية و يرمي بنفسه في تطبيق علاجات اقتصادية و تقنية غير قادرة علي حل القضايا السياسية و البيسكولوجية الغامضة.

و هكذا فإن الحكومة الجديدة وجدت نفسها أمام عالم مضطرب و معقّد ، كان يتطلب منها الصفات لم تكن أمريكا بحاجتها أبداً . فكان يجب عليها و بصورة عاجلة انهاء الحرب، و مواجهة كل العالم من خلال الأسلحة النووية ، و المشاكل التي طرحها مناوئنا : الاتحاد السوفييتي . و اعطاء حيوية جديدة لتحالفنا مع الديمقراطية الصناعية ، و دمج الشعوب النامية في التاوزن جديد عالمي ، يجب أن يتلائم مع كل أماني البلاد في سبيل ديموته . و بالرغم من معرفتنا حدود امكانيتنا ، كان يجب علينا مباشرة عمل بناء جديد ، كما كان علينا أن نستقي من أنفسنا الحيوية اللازمة للثبات ، في الوقت الذي كان فيه مجتمعنا يفقد ثقتة بنفسه . ففي آخر القرن الثامن عشر ، كان «أما نويل كانت» يكتب في مؤلفة المسمّى : «السلام الدائم» : سيتركز السلام بأية طريقة في العالم ، و ستتقام الشعوب نفس مفهوم العدالة ، و حلقة من الحروب الأكثر فأكثر تهديماً ستعلم الناس تفاهة الخلافات.

سيصبح لنظرية « كانت » مفهوم جديد في أيامنا ، أي عندما يكون لدى الشعوب وسيلة تؤدي الى موت عشرات الملائين من البشر في بضع ساعات ، يصبح السلام أمراً محتوماً ، و لا يستطيع أي مسئول سياسي الإفلات من هذا الواجب الأساسي . لكن المعضلة عهدنا هي التالية : إذا أصبح البحث عن السلام هدف سياسي الوحيد و الخاص ، فإن الخشية من الحرب ، تتحوّل الى سلاح بين أيدي البلاد عديمة الشفقة ، و تتوصّل أخيراً الى نزع السلاح النفسي . و العمل لمقدم سلام عادل هو في إبعاد التهديد بالحرب ، دون استعمال الطغيان ، و الاندفاع لاحترام على العدالة بل جعلها محترمة دون إحداث مأساة ذلك هو التوازن الذي يجب على رجال الدولة في العصر النووي دون انقطاع السعى للوصل إليه.

تلك هي المشاكل التي كنت قد كرّست لها الكثير من تفكيري ، و كتاباتي عندما كنت مدرّساً . و ستتكفل الأحداث الغريبة الوقوع ، بإظهار صحّة تفكيري ، إذ أنه منذ أقسم اليمين رئيس جديد ، مضي وقت التفكير الطويل . و المسئول السياسي سيجد نفسه أمام حبل مشدود ، لا يمكنه إلاّ السير إلى الأمام لتجنّب سقوط عنيف .


الجزء الثاني
- ١٩٦٩ -
البدء بالسفر

ـ ٤ ـ

# السفر الى أوروبا

## نيكسون يــزور أوروبــا

بدأ ريتشارد نيكسون أول رحلة رئاسية له الى الخارج في الثالث و العشرين من شباط عام ١٩٦٩ ، من قاعدة «أندروز» العسكرية قرب واشنطن. و كان ذلك صباح يوم الأحد . كان الرذاذ ينهمر على الجمع الذي جاء من قلب المدينة تبعد نصف ساعة من هناك ، ليتنمى له سفراً ميموناً ، و أعضاء الحكومة ، و الأعضاء البارزين في الكونغرس من كلا الحزبين ، حضروا أيضاً للوداع ، بالإضافة إلى فريق من المصورين كانوا يتدافعون خلف حاجز فولاذي ليأخذوا مكاناً مناسباً.

كان هذا « شهر العسل ». و لأول مرو في حياته ، كان نيكسون يتمتع بدعم جماهيري و بتعاطف يكاد يكون جماعياً . و كان يبدي غبطة و انفراج مسافر ، يستكين الى واحة بعد اجتيازة قفراً غير مضياف . و كان مع ذلك ثاقب الفكر لكي لا يرى ما كان عليه الوضع : كان يتمدح صفات منها المصالحة ، الأمر الذي يكذّبه ماضيه كرجل سياسي . و كان يعرف أكثر من غيره أن التهليل يمكن أن ينقلب الى صراخ.

أما الآن فقد كان غارقاً بجو مفرح من الرضا ، جديد بالنسبة له .

تبادل نيكسون و الأعيان بعض النكات المصطنعة على مدرج المطار ، ثم اتجه نحو المكرفون ليلقى كلمة الوداع : « أول مشهد لنيكسون » و خططته حول السياسة الخارجية ، كانت رشيدة دون تكلّف . و سوف يذهب الى أوروبا لإجراءمباحثات حقيقية مع أصدقائه ، لأني ، كما قال : لا أسعى فقط لمساندتهم بل لمعرفة أرائهم ، في مختلف أوضاع العالم . و كان هذا مجابهة موجهة لأسلافه و تلميحاً لتفكك العلاقات في الحلف الأطلسي ، الذي كان موضوع انتقاده أثناء حملته الانتخابية ، و ملاحظاته الأخرى كانت مؤشراً لهذه الواقعية الغريبة المضايقة ، التي كانت توصله غالباً الى تخييب الأمل في الهمّة و الإرادة الخيّرة . كان يخشى منذ أسابيع ، اعادة مناظر

تلك المظاهرات التي تقلّل من شعبيته داخل القطر . و كان يعتقد ان استباقه الأحداث المزعجة ، سينفذه من جزء كبير من سموها . و إذا كان يظهر احياناً توقّع الصعوبات ، فلكي يتمكن من اتقائها . تصرفاته مراراً محقة ، لكن نظرته المسبقة الأمور ، تظهره غالباً في حالة الاندفاع ، أو أنه ربما كان يسعى نحو الكارثة قبل حدوثها . و هذا الوداع كان مشالاً على ذلك.

خصص نصف خطابه في توقع مظاهرات معارضة ، و قلّل من أهميتها مصرحاً بأنها لن تأتي إلاّ من فئة ضئيلة من العامة و لن تثبط عزيمته في سعيه نحو السلام . أما القسم الآخر من الخطاب فقد كان مهيجاً و مجرداً من السلطة بصورة غريبة ، لأن تصريحه لم يكن يعطي في الواقع مادة للتفكير ، بل عكس بصورة أكيدة ، الشخصية المعقّدة لرجل بلا شعبية ، كان عليه أن يتحكم في مقدرات بلدنا مدة ست سنوات من القلق تقريباً.

لم أستمع لنهاية خطابه ، إذ قبل انتهائه ، أخذني المرافقون مع آخرين من الوفد المرافق إلى جانب الطائرة الرئاسية . كان هناك سببا لهذا التصرف، و الأمر ذاته يجري عند كل سفر رئاسي . إذ على الطائرة أن تتحرك مباشرة بعد صعود الرئيس إليها و إغلاق الباب خلف مباشرة ، و لاسيما أن المرافقين كانوا يريدون أن يظهر نيكسون وحده أمام المصورين عندما يكون على درج الطائرة مودعاً الجمهور.

كل هذا ، و غيره من الأمور ، كان منوطاً بجون أهر ليكمان و فرقة استطلاعه ، و دعوا هكذا لأن فرقة الاستطلاع كانت تسبق الرئيس ببضعة أيام ،في كل مرحلة من السفر ، لتصمّ أقل تحركاته . و كان أهر ليكمان هذا ، رئيس فرقة استطاع نيكسون خلال حلمته الانتخابية لعام ١٩٦٨ . و دخل منذ عام ١٩٦٢ في ملاك موئفيه حينما كان حظ نيكسون بالنجاح ضئيلاً و العمل العنيف وحده القادر على انجاح هذه المحاولة الدونكيشوتية.

لم يكن لنيكسون أي حظ في النجاح ، ما لم يظهر صلابة ، كانت في البداية وضعاً عارضاً ، لكنها توصل في نهاية إلى نفس طويل . لا أظن أن أهرليكمان كان لديه هذا الخلق ، لأنه كان في الواقع هادئاً و كانت له عائله لطيفة يحبّها جداً ، و يرى إعداد برنامج سياسة داخليو بعيد المدى أجدي نفعاً. و أخيراً كلف بهذه المهمة ، كان طموحاً و يرغب خالصاً في اعتباره أول شخصيات البيت الأبيض . و حيث أن هذا لا يأتي تلقائياً ، فوجب عليه أن يكون قاسياً وسئ الطباع. كان يحترمني ، و يغار مني في آن واحد ، لأنه يرى حسب وجهة نظر و بغير حق ، أنني كنت أقطف

أكاليل الغار ، بينما كان يتحمل هو نقمة الجماهير ، التي يسببها له ، عدم الثقة المتبادلة بينه و بين أتباع نيكسون القدماء و منشأة واشنطن . انهتز عدة مناسبات ليسبب لي إزعاجاً ، باحثاً في الغالب عن الأسباب هزائم ليظهر عدم الاعتماد على معاونّي . و في ذات الوقت يظهر نفسه متعاوناً و مشجعاً . لكن علاقاتنا كانت ودّية عموماً . بحيث أنه كان يتمكن بوجود فريق آخر من تقديم خدمات كبرى لواطنه ، لكنه هزم نهائياً في بين نيكسون الأبيض ، بسبب طبعه القاسي ، وجو الحصار الخبيث اللذين كانا يشاركان في إيجاد كابوس لا يطاق أبداً.

كان أهريكمان صديقاً و مزاحماً لـ « ه. ر . (بوب ) هالدمان » و تحسنت علاقتهما بعد أن أصبح أهرليكما شخصية ذات نفوذ ، و ساهم حقيقة في نشاط البيت الأبيض ، الذي كانت هلدمان يؤكد استفادته منه . امتّد السفر طويلاً ، و كان هالدمان مصمماً على جعل فريق الاستطلاع بكامله تحت إمرته . و توصل إلى ذلك . و هذا أخر سفر أعده أهر ليكمان ، ثم انتقلت هذه لامسئولية إلى دوايت شابين ، بديلاً لهادمان.

كان لدى أهر ليكمان عمل كبير ، لأن سفراً رئاسياً هو بمثابته مشروع سوقيّات عظيم . ولزم لي عدة سنوات للتمكن من استيعابه. كنت أعرف عنه القليل ، حتى أني خلال سفري السرّي إلى بكين في شهر تموز من عام ١٩٧١ ، و عندما سألني عن عدد أشخاص الذين يرافقون نيكسون ، أجبته أن عددهم سيكون خمسين . و عدم معرفتي هذه دعت هالدمان إلى العطف المشوب بالاحتقار . إذ أن رجال الخدمة السريه الذين يرافقون الرئيس يتجاوز بمجموعهم و حدهم هذا العدد ، و يأتي بعدهم المعاونون المباشرون ، و أمناء السر ، و الفريق المكلف بالمتاع ، و رجال الاتصالات الذين يجب عليهم أينما توجه الرئيس هو و حاشيته أن يكونوا على استعداد ، لوصله بأي قسم من العالم بلتلكس أو الهاتف . أضف إلى ذلك ، أن الرئيس لا يتمكن من السفر دون العديد من المعاونين و ممثلي الوزارات الذين اشتراكهم بسفر رئاسي يشكل وضعاً رمزياً مرغوباً فيه ، و لو كانوا لا يحضرون أي أجتماع و لا يقومون بأي عمل سوى مشاهدة الرئيس . أضف إلى ذلك مراسلي الصف ، شبكات التلفزيون الذين يشكلون قسماً من السفر يربو عادة عددهم على أكثر من ثلاثمائة و في المجموع ، فإن الحاشية الرئاسية يبلغ تعدادها بين ستمائة و ثمانمائة شخص .

تنقلات هذا المجموع دون حوادث إلى المراكز المطلوبة في السفر ليس بالأمر اليسير . و ما يجري للصحافة يعتبر دوماً مخاطرة، إذا يجب على الصحفيين و شبكات التلفزيون تأمين

ريبورتاجات وصول و مغادرة الرئيس معاً . و لحل هذه المشكلة ، فإن الطائرات الصحافة تطير عموماً بعد طائرة الرئاسة ، فيمكنا و الحالة هذه حضور المغادرة ، لكنها تلحق بها خلال الطيران و تهبط قبلها ، مما يسمح للصحافيين تغطيه الوصول . بالإضافة إلى فريق صغير مؤلف من أربعة إلى ستتة صحافيين يسافر في الطائرة الرئاسة . و للصحافة الحق بحضور كافة الأحداث الهامة مع امكانية التحرير و إرسال المقالات.

الوفد الرسمي ، بالرغم ممّا هو فيه من فوضى ، فإنه في قلب هذا المشروع العجيب . إذّ يعطي كل واحد كراساً صغيراً مبيناً فيه كافة مراحل البرامج و كلّ تنقل ، محسوباً بالدقيقة تقريباً ، و يحوى كذلك مخططات تدل على مكان كل واحد في الاحتلافات ، و المنامة ، و الاشتراك في الاجتماعات ، و تعليمات أخرى لا يستغني عنها . و الطاعة العمياء هي الوسيلة الوحيدة المتبعة ، لأنها تظهر غالباً بوضوح و ثبات اتزان المشتركين . عندما كنت معاوناً للرئيس ( و هي وظيفة ، بالرغم من السلطة التي تفرضها ، تأخذ دوراً ثانوياً مهملاً في ترتيب البروتوكول ) كنت أجلس بعيداً عن شخصيات عالية المقام . و كنت أقضى معظم الوقت لحساب المسافة التي تفصلني عن الرئيس ، و امكانياتي في الوصول إلى سيارتي قبل سير ليموزينة الرئيس . و خلال حفل غداء رسمي ، فخم في غرفة طعام قصر مديريد الملكي الكبيرة ، قالت لي السيدة أسبانية أنيقة تجلس بجانبي : سأدفع أي ثمن لمعرفته ما يفكّر به رجل لامع مثلك » ، و طرحت أسألة حول الصحة العقلية للسياسيين أمريكان كبار . فأجبتها : « و الحق يقال إني مريض في تفكيري ، لمعرفة كيف ستتصرف الحاشية الرسمية بدوني ».

هذه السفرة الأوروبية أطلعتني على عادة المسلك الرئاسي ، و على دعابة فرقة الاستطلاع . كان هؤلاء أشخاصاُ بهندام مرتب ، ذوى تأثير ، و منظّمين ، صنفهم هلدمان في وكالات عامة و أنقذهم من وظائفهم البسيطة في ملاكاتهم . بعضهم كان يعمل طوال الوقت ، و الآخرين كانوا متطوعين لهم وضع مستقل في القطاع الخاص. و كانوا يعوضون عن نقص تصورهم و ثقافتهم ، بملازمة عملهم . و سيظهر المستقبل أن توظيف مثل هؤلاء الرجال كان عملاً قليلاُ العمق. و الذين يهتمون قبل كل شيء بترقياتهم لا يسلكون عدة طرق عندما يكون وضعهم في خطر. خلال فترة موضوع وأترغيت حضرت مشهداً غير مستحب أبداً ، إذ أن كل هؤلاء السادة الصغار هجموا على مخارج النجاة ، ساعين للتخلص بجلودهم ، متدافعبن فوق إخوة لهم بالدم.

و في عام ١٩٦٥ ، و مع أننا لم نكن بعيدين كثيراً عن قضية و اترغيت. و تصرفات فريق الاستطلاع الفظة ( تدعمها الحملات الانتخابية السياسية ) كانت قد بلغت ذروتها . و كانوا قد لقونهم أنهم غير مسؤولين إلاّ أمام الرئيس . و منذئذ لم نعد نشاهد هؤلاء الذين الناس الذين كانوا يستقبلوننا في كل مرحلة ، أما أعتبار و تقدير الغرباء فقد كان خارج الموضوع . لم يكونوا مسؤولين إلاّ عن شئ واحد و هو الإطمئنان أن كل الأمورالتي يتوقع أن يكرهها جداً. و كان عملهم يتركز حول ايجاد أطوال فترات الراحلة لهم. و عندما رشحوا للمحادثه مع المعاونين حول النشرات الصحفية ، التي كان يحتاجها نيكسون ليفكر ملياً و يتهيأ للمقابلات الشخصية الهامة . كان على فرقة الاستطلاع تدبّر أمورها بحيث أن لا يرى نيكسون من قبل العالم الخارجي إلاّ في يوم الذي يرغبه ، مما كان يوصل أحياناً إلى شئ مخيف . لدى زيارة رسمية لاوتاوا عام ١٩٧٢ ، حيث تخيل أحد أعضاء فريق الاستطلاع أن أثاث مكتب « بيير ثرودو » المصنوع من الجلد ، لا يجعل نيكسون في وضع مقبول أمام عدسات التلفزيون ، فأخذ على عاتقه اعدة زخرفة و ترتيب مركز رئيس الوزراء الخاص ، بمقاعد من القماش الأزرق ، لكنه منع من ذلك في آخر لحظة من قبل أحد معاوني ثرودو الذي استشاط غضباً و لم يكن يصدق ما تراه عينيه.

لدى السفر إلى أوروبا ، واجهوا خلال العالم السياسي و لأول مرة ، فأخذت فرقة الاستطلاع تتصرّف و كأنها تنظّم مرحلة انتخابية في مدينة ديه موان des moines، و لم تعر أي انتباه لسفرئنا ، الذين كانوا يعتبرونهم ديمقراطيين بالشكل فقط . و لم تبد هذه الفرقة أقل اهتمام للسلطات الحاكمة التي كنا بضيافتها . عندما عزم أهريكمان على تنظيم لائحة بأسماء المدعوين على الغداء في « ١٠ داويينغ ستريت » . فإن سفيرنا في لندن دافيد بروس طالما حضر مثل هذا الغداء خلال وظيفته السياسية الطويلة ، يهمل من قبل حكومة جديدة . فأبرق قائلاً : « إني أرى عدم الفايدة في بيان كم من غير اللائق أن يقال لرئيس وزراء بريطاني من يجب عليه أن يدعو ؟ ».

بعض أعضاء فرقة الاستطلاع الذين كانوا يراقبون مقر سفيرنا في باريس حيث كان يهيأ لحفل غداء يتناوله الرئيس مع ديغول ، أصيبوا بارتعاش عند مشاهدتهم بعض الصور لجون كنيدي ، فقال أن يتوجب على السفير « سارجان تريفر » _ زوج أخت الرئيس كندي « أونيس » _ أن يطلب أذناً خاصا من السلطات العليا ليستطع الابقاء على صور أخ زوجته بطريقة رسميّة . لكن هذا الترهات العارضة وضعت جانباً ، و الاجراءات تتابعت حالاً _ سبعة قرارات في سبعة أيام _ و كل شئ جرى في حينه بطريقة مرضية .

حالما جلس نيكلسون في طائرته الرئاسية ، كرّس وقته و بثبات للملفات المفصّلة بصورة دقيقة ، معالجاً العديد من المواضيع ، و بالطبع كانت الخطابات قد دُبّجت ، و مهما قيل في هذا السبيل ، ليس لدي أي رئيس وقت لإنشاء خطاباته . و خطابات نيكسون المتعلقة بالسياسية الخارجية كان لها اتجاه واحد : كان فريق مجلس الأمن القومي يعد باشرافي بيناً مفصلاً بذلك ، و كان نيكسون يعيد النظر فيه ، و يجرى عليه ربما بعض التعديلات قبل إحالته إلى منشئ . عندما يكون لديه خطاب خاص ، يكتب هو بنفسه بعض مقاطعه و لاسيما المدخل و الخاتمة حيث كان يعطي أهمية كبرى للتورّط السياسي . و إذا اعتقد بقدرتي على أجراء تعديلاته الخطابية ، كان حظّى أن أرى النصّ النهائي ، و إلاّ فإني لا أطلع عليه . و في سفر غير منتظم ، كالذي كنا نقوم به في أوروبا ، لم يكن لدينا وقت لتلقي تعليقات طويلة عليه ، و منشئو الخطابات كانوا يستعيدون حقوقهم.

و انتخاب المنشئين كان يحددّ دائماً نوعيّته و جوهر الخطاب الرئاسي . يظن عموماً أن المنشئين هم أدوات مستسلمة تضع فكرة أسيادهم السياسية في نشر المفهوم . لكن الأمر بالعكس ، فإن غالبيتهم هم أسياد مكبوتون يحاولون استغلال وجودهم الخاص لقبول أفكارهم الخاصّة . معتقدين أن جملة رئاسية يمكن ان تكون بمثابة قانون إداري ، و يسعون لتوحد المدرج النهائي ، شارحين و بطريقة منطقية جهودهم و كأنها معركة في سبيل منفعة الرئيس . و مهما يكن موضوع صراعنا ، فإن معاونيّ و الأقلام الرئاسية ، كانت تتبادل من حين إلى الآخر طروحات حيويّة عند إقدامنا على التعديلات في الكتابات الرئاسية .

إن جهاز منشئي نيكسون كان بصورة خاصة موهوباً و متنوعاً ، و اختصاصياً لدرجة أنه كان يوجد منشئ لكل ما يطلبه جمهور . و في هذا السفر حيث كان نشتغل جميعا بتفاهم تام ، كان الرئيس المحررين « بيل سافير » رجلاً مفكراً و متزناً و ثابتاً . و كان لديه اطلاع كبير على العلاقات العامة و مهارة كبرى لإبدال جملة لا يظهر معناها الأصلي بسبب جناس حاذق . كان سافير منشئاً قليل الميل لتزويق خطاب الرئيس ، لكن أسلوبه كان خاصاً ، حتى أن نيكسون كان يستعين به نادراً في المناسبات التي يريد اظهار فصاحته . عميد المنشئين كان « راي برايس » و هو رجل عاقل ، متزن ، له ميول ليبرالية ، حتى أن الرئيس كان يحتاج اليه عندما يقصد بيان نزاهة تامة بكلمات قليلة . « باتريك بوشمان » كان المحافظ الرسمي ، و يرتاب بعمق ممن كان يظن أنهم يريدون تغيير نيكسون عن ميله الطبيعي نحو اليمين ، معتقداً أن مثقفين متآمرين ربما يفسدون الصفحة الأولى لفلسفة الرئيس . و كان يرفض التصديق بأنه من طبيعة رئيسنا

أن يظهر الوجوه المتعددة لشخصيته حسب الاشخاص الذين يتأمنهم عن أعماله ، و قلما كانوا يستعينون به لخطابات السياسية الخارجية _ و لا أذكر سوى الخطاب السياسي لكمبوديا .

بالإضافة الى ملف الخطابات ، كان لدى نيكسون مجلدات ضخمة وثائقية كان يعدها له مساعدي و وزير الشؤون الخارجية الذين كانوا يتفهمون عرضاً لتصوير عام ، يفسر أهدافنا ، و استراتيجية الوصول اليها ، و علاقتها بسياستها الخارجية العامة . و يضيفون اليها مواضيع النقاش حول كل بلد ، تعالج القضايا من الممكن أن تثار ، و مذكرات عن سلوك رؤساء الدول الذين يجب على الرئيس اللقاء بهم ، و نقاط المناقشة كانت تميل إلى تحويل كل حوار بقدر الامكان إلى تمثيلية مخرجة سلفاً ، مراعين توجيهات نيكسون . و كانوا يحللون التساؤلات التي يمكن أن يطرحها رؤساء الدول ، و يصنفون الاجابات المقترحة ، مشيرين إلى المواضيع الدقيقة الواجب تجنبها .

حانت لى مناسبة عرفت فيها أهمية هذه الاستعدادات بالنسبة لنيكسون . و كل لقاء جديد كان يسبب له هلعاً غير محدود . و كان يخشي مجابهته بسؤال غير منتظر ، و مشكلة غير متوقعة ، أو إلى محاجة لم يكن مستعداً لها ، و يخاف ان تغير صورته كرجل سيد الأحداث . كان يلح إذاً على أن تعرض مستنداتنا بصورة دقيقة و بتفصيل ، التغيرات المتوقعة التي كان يجريها في محادثاته . رافضاً في الوقت نفسه الاقرار بأنه كان بحاجة المساعدة. و كان يفرض على نفسه نظاماً غريباً بحفظ كل هذه المذكرات غيباً ، و لإظهار حسن حاله و للتسلية كانت هذه الأمور تملؤه غبطة ، و كان يلعب بالنار عند ملامسته المواضيع التي نصح بتجنبها . كان يمس احياناً الكارثة أمام مستشاريه بمرارة ، لكنه لم يكن ليتمادي بها أبداً .

بينما كانت الطائرة الرئاسية متجهة نحو أوروبا ، فإن الرئيس ، بلإضافه إلى إعادة تذكر ترتيب وسائل عمله نقطة فنقطه ، كان متهماً أيضاً بقراءة دراسة عن ديغول ، مأخوذة من كتاب كنت ألفته حول : « حلف شمال الأطلسي » « O.T.A.N » الذي كان عنوانه ( الشركة المزعجة ) و منذئذ انتظرت بفارغ الصبر الأيام القادمة ، و بكل تأكيد ، كنت أعود بذاكرتي إلى القارة حيث كنت ولدت ، لكنها الحقائق الجغرافية السياسية و الارتباطات التاريخية بين الأقطار ذات اعتبارات الواحدة هي التي تهمني حقاً .

بعد ذلك أصبحت الاستقبلات في المطارات أشبه بأعمال مرهقة ، و سيكون من الصعب اظهار أي تأثر أكثر من ذاك الذي حل بنا عندما وصلت الطائرة الرئاسية إلى بروكسل عند هبوط الليل . و ما كاد باب الطائرة يفتح ، حتّ فاجأتنا أنوار التلفزيون الكاشفة . و سجادة حمراء كانت تمتد أمام فرقة مكلفة بتأدية التحية . و الملك « بودوين » الرجل اللطيف الرقيق ، كان يقف عند سلم اسلطائرة لاستقبال الرئيس . أعلن نيكسون في خطاب قدومه القصير ، بأن هذه المرحلة ستدشن بحثاً جديداً عن السلام . و جاء على ذكر « وودرو ويلسون » الذي كان أحد أبطال السلام . و كانت لجنة الاستقبال تشمل ممثلين عن حلف شمال الأطلسي و موظفيين بلجيكيين . و في الواقع كنا قادمين إلى بروكسل لزيارة مركز قيادة حلف شمال الأطلسي . لكن البلجيكيين أصروا على ضيافتنا ، و ذهبوا بنا إلى القصر الملكي الفخم في قلب المدينة . بعد تبادل عبارات الضيافة اعتذر الملك بودوين ترك الرئيس بضيافة رئيس الوزراء غاستون أيسكنس ، و وزير بلجيكييا للشؤون الخارجية بيير هارمل ، و روجرز وزير خارجيتنا للشؤون الخارجية و أنا ، و حضوري شوّش البلجيكيين ، لأن برتوكولهم لم يكن شاملاً معاوني الرئيس ، و شوّهت هذه البرنامج العددي الدقيق المقدّر عند السياسيين ، الذين لم يكونوا ليعرفوا كيفيّة التخلّص مني ، فأضافوا عضواً من مكتب رئيس الوزراء إلى وفدهم.

الوزراء البلجيكيون لم يخرجوا عن القاعدة ، و ككل الشخصيات السياسية التي سوف نراها ، كانت غايتهم الرئيسية ، إقامة العلاقات وطيدة و شخصيّة بالرئيس نيكسون ، و شئ آخر أكثر أهمية هو التعرف عليه عن كثب . و بالرغم من العنف الذي أبداه نيكسون وسوف يظهره بعدئذ ، في الولايات المتحدة و اوروبا كان ورقة سياسية رابحة ، و الحصول على علاقات حسنة مع رئيس الولايات المتحدة ورقة سياسية رابحة ، أضف إلى ذلك ، فإن الذين كانوا قد إلتقوا نيكسون قبل أن يكون رئيساً ، كانوا يفكرون به خيراً و خصوصاً اهتمامه بالشؤون العالمية ، و نما هذا الاحترام لكفاءته في الأمور الخارجية تدريجاً خلال حكمه.

أيسكنس ، ذلك الرجل القصير السمين أوضح رغبة بلجيكا في جعل أوروبا المتحدة ، و ان البلجيكيين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر انتهاء الخلاف الفرنسي الانكليزي الذي قد منع دخول بريطنيا العظمى في المجموعة الأوروبية . كان متحيزاً بجلاء لفكرة حلكم ثنائي بين فرنسا و المانيا ، فزعم أيسكنس أن دخول بريطانيا العظمى في السوق المشتركة سيجلب توازناً أفضل ، و يقلّص النزعة القومية المتعاظمة. و لم يبد أي اقتراح حول الطريقة التي تمكّن بلجيكيا من تحسين الأمور ، إذا لم تكن توجد الادارة الحسنة. و كان يرجو على ما يظهر أن أحداً _ و يمكن

أن يكون الولايات لمتحدة _ سيصل إلى النتيجة المرجوّة . و الاهتمام الثاني لقادة بلجيكا حول الانفراج السياسي ، مثل معظم رؤساء البلاد الأوروبية و كان يقلقهم أن تكون سمعة نيكسون مقترنة بنصره الحرب الباردة . و بكل تأكيد ، كانوا يفكرون انه من المفيد تذكيره كم هو ضروري تخفيف الضغوط ، كما بيّنوا الاتحاد السوفييتي يرغب في الانفراج السياسي لأن شعبه كان يريد ثروات جمّة لأستهلاكها ، و أن يخشى الصين مؤكداً في الوقت نفسه أنه قبل التكلم عن الانفراج السياسي ، لا يمكن الاستغناء عن العمل في تقويتة حلف شمال الأطلسي O.T.A.N ، ثم أضاف البلجيكيون انه لا يجب الانتظار الطويل لرؤية الأوروبيين و هم ينّمون مشاركتهم بالدفاع الجماعي . و ما كانوا يقصدونه خصوصاً هو أن أمريكا لا تزال محتفظة في أوروبا بقوى هامّة ، و بكثير من الفطانة ( و الذوق ) اشاروا إلى الصعوبات الداخليية التي تسببها حرب فييتنام للحكومات الأوروبية.

و خلال هذه المحادثات على هذا المستوى كان نيكلسون يعطي كل إهتمامة ، و بين إنه متهم بإنشاء عهد السلام الجديد و أكدّ بأنه لن يؤسس إلاّ على عالم غربي مسلّح بسلاح قوي . و أوضح أنه كان يعلق أهمية كبرى على الوحدة الأطلسية و هو مزمع على استشارة حلفائنا قبل أخذ المبادئ تحددّ مصير الحلف .

و في يوم التالي صباحاً ، ألقى نيكسون خطاباً هماماً أمام مجلس حلف الأطلسي الشمالي ( مجموعة السفراء الدائمين في الحلف ) و تساءل فيه حول عدة قضايا ، سيجيب عليها الحلف خلال العشرين السنة القادمة . « وُجد حلف شمال الأطلسي لمجابهة التهديدات السوفيتيية . فكيف يمثل هذا التهديد اليوم ؟...»

عند تأسيس حلف شمال الأطلسي ، لم تكن الاقتصاديات الأوروبية سالمة من التلف الذي سبّبته الحرب . و هي حالياً مزدهرة ، فكيف يجب أن يؤثر هذا التغير على العلاقات أعضاء حلف الشمال الأطلسي بين بعضهم ؟

نحن كلنا مواجهون مشاكل بيئة حديثة ، ناتجة عن تقنيّتنا المتقدمة . تلوّث الهواء و الماء و ازدحام مدننا . و نستطيع معاً تحقيق تقدم عظيم في السيطرة على هذه المشاكل. فما هي الوسائل التي يمكن ان نتعاون فيها و بطريقة أفضل للوصل إلى هذه الغاية ؟ ».

و أكد أن أمريكا عازمة بثبات ، و بعد المقدمات اللازمة ، على بدء مفاوضات مع الاتحاد السوفييتي ، حول أمور عدة . لكن اهتمامه الرئيسي كان في انعاش حلف الأطلسي.

إن العلاقة التي توحد بين أوروبا و أمريكا ليست مبنية على الخوف من الخطر ـ بل هي علاقة قابلة للانفراج و التضيّق بدرجة ما يتهدّدها من الخوف.

إن العلاقات توحد بين أقطارنا هي من تقالدينا العامة نحو الحرية ، و رغبة جماعية نحو التقدم ، و اندفاع جماعي نحو السلام .

و بهذه الروح عالية التثقيف ، لننظر إلد الاوضاع المستحدثة بعيون جديدة ، و بعد التمكّن من ذلك لنعطِ للعالم مثالاً .

و من المغلاة في القول أن تجاوب أعضاء المجلس كان مكهرباً . إذا كانوا سفراء يلتقون رئيس الدولة ، و لم يكن من عادتهم في الظروف كهذه ، التورّط في مناقشة ، أضف إلى ذلك ، لم لكن لديهم حق القيام به . غير أن الرئيس سيقوم بزيارة أربع عواصم أخرى و يكون السفير غبياً من جانبه أن يأخذ غلى عاتقه استباق رؤسائه . لذلك فأن ممثلي الدول أيدوا التزام الرئيس بحلف شمال الأطلسي « O.T.A.N» و تجنب جميعم إعطاء تأكيد بأن بلادهم قادرة على تنمية قوى دفاعها . و أجمهوا على تواجد قوى أمريكية في أوروبا . و السفير الفرنسي كان الوحيد في أبداء ملاحظة حول تعارض القدرة على الانفراج السياسي مع القوة الدفاع و حذر الرئيس من فكرة إقامة حكم ثنائي مع الاتحاد السوفييتي .

كانت زيارة بروكسل نقطة اللقاء حول القضايا العلاقات الأمريكية الأوروبية عام ١٩٦٩ ، و مستقبل أوروبا كان مبهماً . و كان وضع الدفاع المشترك مزيجاً غريباً من عدم الرغبة في تنمية القدرة الأوروبية و الخوف من سحب الجيوش الامريكية . كان يدفعنا الحكام الأوروبيون نحو الانفراج السياسي مع الشرق _ و لدينا اطلاع غير حسن من أن تحركاتهم الرئيسية كانت ترمي إلى ازاحة مسؤولية القرارات الصعبة عن كاهل أوروبا . و فييتنام كانت تضع الحكومات الأوروبية أمام مأزق في حال أن هذه الحكومات كانت تشعر بالحاجة الى الرّد على ضغوطها الداخلية و بالنسبة لأمنها هي فكانت تخشى إذلال أمريكا أو هزيمتها ، فأخذت تتراجع إذاً أمام أي أمر يمكن الاشتراك فيه . و كان واضحاً أن كل أفكارنا و مخططاتنا ستوضع على المحكّ ، و علينا أن

نذكر هنا ، كيف كنا نرى العلاقات الأطلسية ، و قلقنا و عدم اتفاق آرائنا بينما أن الفلسفة كانت تُهزم أمام السياسة.

# متاعب حلف شمال الأطلسي

نحو أواخر عام ١٩٦٠ ، كان حلف الأطلسي فريسة قلق كبير إذ كان يعقب فترة عجيبة من التقدم . و مبادرة أمريكية وضعت مشروع مارشال موضع العمل ، و الموارد الأمريكية ، اعادت إنشاء الاقتصاد الأوروبي ، و القوى العسكرية الأمريكية وطّدت الأمن الأوروبي، و حكماء أوروبيون مثل « جان مونيه ، روبرت شومان ، ألسيد دي غاسباري ، كونيراد أديناور و بول هنري سباك ، حددّوا فكرة دمج الأوروبي في إطار تحالف مع الولايات المتحدة. و بوحي من هؤلاء الأوروبيين ، و تبعاً لتوجيهاتهم ، فإن السياسة الأمريكية تجاه أوروبا كانت دائماً شاملة و مترابطة .

كل الحكومات الأمريكية فيما بعد الحرب أخذت بفكرة وحدة سياسية أوروبية ترتكز على أنظمة فيديرالية عالمية . و كان يعتمد أن أوروبا الفيديرالية وحدها ، تتمكن من وضع حد للحروب الأوروبية ، و تأسيس رأي معاكس يؤثر على قدرة الاتحاد السوفييتي ، و ربط ألمانيا بالغرب ارتباطاً دائماً ، و تأسيس شراكة الند للند مع الولايات المتحدة ليتقاسما سويّة ثقل و مسئولية إدارة العالم .

و في الدراسة التي كتبتها عام ١٩٦٨ ، قدمت فكرة في أن هذين العقدين من الوجود العسكري الأمريكي في أوروبا ، طمأنا من خوف غزو سوفييتي و انسحاب أمريكي ،و أن أوروبا الجديدة القوية ، ستنشئ أوروبا تختلف تماماً عمّا كانت عليه عام ١٩٤٩ : « و الولايات المتحدة لم تكن تتوقع ديومة الانهيار الطارئ لقوى أوروبا فيها بعد الحرب ، حسب خطة دائمة في علاقاتنا الدولية . و اعادة بعث الاقتصاد الأوروبي كانت تجلب حتماً عودة الضغوط السياسية أكثر تقليداً ، أضف إلى ذلك إلى ذلك ما ورد في الكتاب : « الشركة المزعجة » ، و من المحتمل أن أوروبا الموحدة ستؤكد على وجهة نظر أوروبية خاصّة للقضايا العالمية _ الذي يعني بعبارات أخرى بأنها ستنافس السيطرة الأمريكية في السياسية الأطلسية . و هذه قيمة توازي ما يجب دفعه للوصول إلى الوحدة الأوروبية ، لكن السياسة الامريكية لم تقبل في أن هناك ثمناً يجب دفعه ».

عام ١٩٦٨ ، التعديل الكبير في أسس علاقاتنا نفسها مع الحلف الأطلسي ، كان قد أحدث خيبة أمل و قلقاً واضحين . « و ولت روستوف » المستشار الخاص للشؤون الاجتماعية «

C.P.Q.S, » للرئيس جانسون ، اعتبر السياسية الأوروبية من جملة ما أصابه من فشل كبير ، عندما استقال من وظائفه . « و فرنسيس باتور » الاستاذ في جامعة مارفارد لدى البيت الأبيض في عهد جونسون أعلن بوضوح أن الأفكار الأولى في الدمج السياسي للحلف ، كانت قد تدهورت : « ولا واحدة من النظريات الصائبة ، التي كان عليها تنظيم قضية الحرب العالمية الثانية و منع حدوث الثالثة ، هي في طريقها إلى التحقيق ». و في أوروبا كتب الأستر بوشان ، عام ١٩٦٨ إذ كان مدير المعهد الشهير للدراسات الاستيراتيجية في لندن ، منذ عدة سنوات : لقد كانت فترة هدوء تام في بحر الشؤون الأوروبية المضطرب :

تلاشى الوضوح الذي فرضته الحرب الباردة على العلاقات بين دول العالم الصناعي ، و لا سيما روح التضامن داخل كل من الحلفين الرئيسيين ، و ضعفت فرضية المشاركة الطبيعية في المصالح بين دول العالم الأطلسي ، و ضعف كذلك الشعور بوحدة مماثلة بين أوروبا الشرقية و الاتحاد السوفييتي ، و الفكرة في أن الشماركة الاقتصادية داخل أوروبا الغربية ستؤدي بالطبع إلى مشاركة سياسية ، عادت مجدداً للبحث ، و برزت ثانية عوامل النقسام التقليدية بين السلطات الأوروبية ، و الفكرة القومية ، و نقص الثقة بالحكومات التي أخمدها مناخ ما بعد الحرب ، و لضروف أمنيّة أعطيت اشارة البدء بتشكيل الحلف ، و لكن سرعان ما ظهرت أول التغييرات في بنيته . تشكل الحلف الأطلسي لايجاد دفاع مشترك و كانت استراتيجية العسكرية ترتكز على التهديد الامريكي في اعلان حرب النووية لدى مهاجمة أوروبا . فرق من الجيش البري و الجيش الجوي الأمريكي تركزت في أوروبا في الأعوام ١٩٥٠ في حين أن الاستراتيجية الرسمية كانت في اجراء انتقامات عظيمة من الولايات المتحدة ، و هكذا تجاه حلفائنا الأوروبيين ، لم يكن لدينا بعد خيار لأن القوات الامريكية سترسل أجبارياً منذ بدء أي نزاع ، و أمام أخطار حرب حديثة . و كان الأوروبيون يرون أن الوعود المكررة لمسنادتنا لهم غير كافية بل ضئيلة . و الكثير من الأفكار الأوروبية أهملت من قبل حلفائها ، أو أنهم هم انفسهم أهملوا حلفاءهم ليكونوا على ثقة تامة من التصريحات الصادقة التي كانت تصدر في اللقاءات الخاصة لحلف شمال الاطلسي . و بكل وضوح كان يراد أن تكون فرقنا كرهائن .

بعد كل هذا ، لم يكن لدى حلفائنا أي سبب للمشاركة الفعلية في الدفاع المحلي . و بالحقيقة فإنهم من جانبهم كانوا يبدون جهوداً لتجنب تذمر الكونغرس . لكن ازدواجية أساسية كانت تتأكل طبيعة هذه الجهود نفسها. و بدهي جداً ألا نشير إلى أننا في ضعف كبير لتدراك هجوم سوفييتي على نطاق واسع ، لأن جهاز حلفنا العسكري كان مجموعة من القوى الحربية

غير المتجانسة تبحث عن مهمة . و الفرق الأكثر تدريباً و الأحسن تعبئة و تجهيزاً في فرق الولايات المتحدة التي عسكرت في بيئة جميلة : في الجنوب _ بسبب انها قد حطت هناك عام ١٩٤٥ . و لسوء الحظ فان طرق الغزو التقليدية ، تمر بسهل المانيا الشمالية ، التي تحرسها بعض الوحدات البريطانية و الألمانية الغربية ، و كانت منطقياً غير موزعة حسناً . و أسلحة القوى المشتركة كانت و لا تزال : مزيجاً صادراً عن مخازن الأسلحة في أقطار مختلفة : فلا موادها و لا استعمالها كان موحد التشكيل . و حلف شمال الأطلسي في نهاية أعوام ١٩٦٠ _ عفواً _ و اليوم أيضاً : كان قادراً على تشكيل جبهة من المراحل الأولى للنزاع، و كان ضعيفاً في الصمود الي أمد طويل ، و هذا ما يطلبه حلفاؤنا ، و مجمل هذه الأشياء كان يؤكد لحلفائنا أن الولايات المتحدة ستستعين بالأسلحة الاستراتيجية النووي ، عند سنوح الفرصة .

ان لمحاولات الفردية لتنظيم الدفاع في أوروبا، كان يجب أن تلاقي حتماً ممانعات . و كل مبادرة أمريكية لتقوية الدفاع المحلي ، كان يمكن ترجمتها بمقدمة للحد من التزامها النووي . كان بعض حلفائنا على الأقل قلقين من فكرة : اننا لو أعطينا الخيار لن نقدر على الافلات من مساعدتهم ، أو في كل حال ، خذلانهم عند تحول المعركة لغير صالحنا . كان يخشى الأوروبيون في وقت واحد حرباً نووية تدمر قارتهم المكتظة بالسكان ، و تكتمنا المتزايد حول الاستعانة بالاسلحة لنووية . كانوا يريدون الاثبات للاتحاد السوفييتي أن الأمريكان سيستعملون سلاحهم النووي في حال أي هجوم من قبله ، لكن إذا وضع هذا التهديد موضع العمل ، فأنهم غير مستعدين أن يكون على أراضيهم . و نيّتهم الخفيّة التي لم يجسروا على إظهارها كانت في أن يكون الدفاع عن أوروبا بمثابة تبادل نووي بيقارّي فوق رؤوسهم . و للدفاع عن أقطارهم الخاصّة ، كانوا يفرضون على أمريكا الوقوع في خطر ، و هجوم نووي هم أنفسهم يتهربون منه .

الاهتمامات الحقيقية لكل فريق كانت مكتومة ، إذ أن الأوروبيين لم يكونوا يجسرون على إظهار مخاوفهم من عدهم تحقيق آمالهم . و الولايات المتحدة بدورها كانت تطلب نيتهم الحسنه الصادقة ، لكنها لم تكن تقبل أن القضية النووية قد اجتازت مرحلة المفاوضات. و طيلة القسم الأكبر من بعد الحرب ، بقي الاتحاد السوفييتي تقديرياً دون دفاع أمام هجوم الأمريكي . و لم يكن يقدر كذلك على تحسين وضعه بصورة حقيقية فيهاجم ، لأن مقاومتنا ستجلب حتماً أخطاراً غير محتمله . و بالنتيجة فإن قوانا الاستراتيجية كانت سلاحاً رادعاً مجدياً ضد كل هجوم سوفييتي أرضي . و في بداية أعوام ١٩٦٠ ، و بالرغم من فكرتنا المبدئية حول زعم « نقص في الصورايخ » _ و قواتنا الثآرية كانت أكثر أهمية من كل مشروع عسكري عملي يتخذ و يعتبر

من قبل السوفييت مفاجأة خطرة . لكن بدءآ من أواسط عام ١٩٦٠ و في أزمة الصواريخ كوبا المشهورة ، أخذ الروس في زيادة سلاحهم الاستراتيجي بنوع أنه في مقابلة نووية و حسب الطريقة التي تبدأ بها يمكن أن تجلب الخسارة للقوات الأمريكية بعشرات الملايين من الأشخاص . و في عام ١٩٦٩ عندما استلمت حكومة نيكسون مهامّها ، كانوا يعتبرون أن ردّ السوفييت يكلّف أكثر من خمسين مليوناً من الموتى _ غير حاسبين سوى الخسائر المباشرة و ليس الموتى الذين تقتلهم حتماً الاشعاعات آجلاً .

و ربما أن فكرة كهذه لا تتطلب استعداد الأمريكان للاستعانة بالأسلحة النووية ، و توازى بمدلولها تهرباً من المسئولية . و كانت تنميه القدرة النووية السوفيتية تنقص قابلية التصديق من تهديدنا بشن هجوم نووي مضاد سريع على مرّ السنين .

و من الواجب أيضاً عدم تجاهل القلق العميق الذي يخلقه الوضع الجديد في أوروبا ، و الجهود الأمريكية خلال أعوام ١٩٦٠ لإبقاء الولايات المتحدة مالكاً وحيداً لأسلحة الحلف النووي ، و التي جسّمتها معارضتنا لبرنامج نووي بريطاني و فرنسي ، ترجمت _ بالرغم من أن العديد من الحكام الأوروبيين لا يبوحون بذلك _ و كأنها رغبة من جهتنا للاحتفاظ بتحديد مصالح الحلف الكبيرة بكاملها . و بتعبير آخر كما لو كنا نسعى إلى الحصول المركزية لصياغة القرارات النووية ، و الاحتفاظ لأنفسنا بهذه الأمكانية مهما تكن نيّتنا الآنية _ من فصل دفاعنا عن دفاع حلفائنا.

كان هذا كابوس الأوروبيين ، و لا يزال إذ أن « دي غول » بعد استقالته عام ١٩٦٩ أظهر هذا القلق دون مواربة خلال محادثته مع أندرية مالرو قائلاً : « لا أعتقد في أن الولايات المتحدة ، و بالرغم من قدرتها ، لديها سياسة النفس الطويل ، و رغبتها تقوم في الأكتفاء يوماً ، بالتخلّي عن أوروبا ، و سترون ذلك » .

في الأعوام ١٩٦٠ ، كانت تنظيمات الولايات المتحدة العسكرية الصرفة ، صحيحة عموماً و كان حلفاؤنا يأبون مجابهة الخطر إذ كانوا يرفضون من جهة مواجهة تغيير العلاقات الاستراتيجية و تعزيز دفاعهم ، و من جهة أخرى كانوا يعزون إلينا نوايا مقعّدة ، و أحياناً مظلمة ، في حين أن الوضع معزو إلى التطورّ تقني قوي . و في الوقت ذاته ، مضى على الولايات لمتحدة بعض الزمن حتى عرفت ان المشكلة كانت سياسية أو بالأفضل بسيكولوجية انتظار

قدرته فائقه نووية ، تحدث لدى سلطة موازية ، ستحاول هذه تصميماً أحسن و الإدارة أفضل لأحتواء القوة النووية ،و لكن لا يستبعد اعتبار هذه المحاولة كبداية لحكم ثنائي ، و من الواضح أنها ستضعف قرارنا على شنّ حرب نووية _ و كانت أوروبا قد أتخذت من هذا القرار حجر زاوية أمنها . تذمّر حلفائه لعدم استشارتهم بصورة كافية ، و كنا بحاجة إلى أكثر من تدبير عام لتهدئه قلقهم. و منذ اللحظة التي ستملك فيها كل من الولايات المتحدة و الاتحاد السوفييتي قوى انتقامية حصينة و قادرة على احداث أقسى أضرار، يجب على الولايات المتحدة وأوروبا مواجهة بقائها من زاوية واحدة كي يتمكن الحلف من المحافظة على تلاحمه. وعلى روسيا أخذ هذا بعين الاعتبار.

لكن المناقشات حول المسألة الاستراتيجية لم تكن تشكيل سوى جزء مرئي من الجبل الجليدي، وأساس المشكلة هو في إزاحة الهيمنة الأوروبية على مركز نقل الأحداث العالم، بعد قرون. وللتمكن من القيام بدور دولي من النوع الأول، يجب على الشعوب أن تثق بمفعول قراراتها. منذ منتصف القرن الثامن عشر، كانت قرارات السلطات الأوروبية قد حددّت الحرب والسلم، التقدم والركود، وتشجيع المنازعات مع القارات الأخرى، عندما لا تكون طرفاً فيها.

ان التقدم الاقتصادي رهن برؤوس الأموال التقنية الأوروبية ، والحرب العالمية الأولى _ لتي أعتبرت نتيجتها أكثر عبثاً من أسبابها كانت حمقاء _ وجلبت كارثة لا تقاس بالمشاكل الحالية : عشرة جدد من حاملي شهادات جامعة « إكسفوورد » لعام ١٩١٤ ، عيّنوا ضباطاً بوظائف ثانوية، وقضوا نحبهم في مجزرة الحرب الكبرى _ وتأملت أوروبا كثيراً _ وكانت الصدمة الكبيرة، بعد قرن من الثقة التامة بدوام التقدّم _ حتى أن الطمأنينة قد انهارت وتهدّمت أساسات لاقتصاد. ان الحرب لعالمية الثانية وازالة الاستعمار حملت لها أي لأوروبا ضربة جديدة. وهذه كلها مجتمعة قصّرت أفقها وقوّت شعورها بعدم القدرة. واكتشفت الحكومات الأوروبية فجأة أن أمنها وازدهارها رهن بالقرارات المتخذة بعيداً عنها. وبعد أن كانت هذه الحكومات عاملاً رئيسياً فيها أصبحت الآن صورة . واجتازت أوروبا هكذا بعد عام ١٩٤٥ أزمة روحية ، لم تتمكن مواردها من الردّ عليها _ ولا تزال تؤخذ بعين الأعتبار _ فزداد الضغط الحقيقي بين الولايات المتحدة و أوروبا حول حاجة أوروبا في ايجاد حق لكيانها ، وهويّة لها في عالم، لا يهمّه أبداً مشاركتها في القرارات أو جزمها بالأمور .

كان جواب أمريكا في الأعوام ١٩٦٠ بسيطاً : ويؤكد أن المصالح الأمريكية و الأوروبية تتوافق، ولن تتأخر الولايات المتحدة عن معرفة جهود حلفائها سواء كانت سياسية أو استراتيجية. والمانع الحقيقي عن التعاون مع الحلفاء، هو الفارق في القدرة بين أوروبا والولايات المتحدة. وستتحمّل أوروبا مسؤولياته عالمية في سبيل استعادة سلطتها _ وتستعيدها بفضل الدمج على أساس عالمي.

كان أنصار وحدة أوروبا من الأمريكيين، يدافعون عن حجتّهم أحياناً بحماسة أكثر من زملائهم الأوروبيين. ومع ذلك. كان يتساءل بعض الأوروبيين الفَطِنين عمّا إذا كان ذلك ممكناً، إذ كانوا في ريبة من أن « توزيع المهام » (تعبير اصطلاحي) يتمكن من حلّ مشكلة الوحدة أو التحرّك القومي، وكانوا يشعرون بحاجة أوروبا إلى تحرّك سياسي خاص بها وليس فقط الاضطلاع بمهمة تقنيّة ضمن مشروع عام.

والذين كانوا يوعمون أن أوروبا ستشارك راضيه بحمل ثقل الاهتمامات العالمية إذ كانت ضمن فدرالية. كان هؤلاء يظهرون لي وكأن لديهم فكرة مادّية عن التاريخ. واذا كانت أوروبا لا تقوم بدور عالمي، يعود هذا على الأقل إلى نقص في مواردها إلى تقلص في آفاقها. ولم أفكر أبداً، أن هناك بلداناً تتوزّع المهمات لأنها فقط جديرة بها.

تاريخياً، كان لدي الولايات المتحدة وبوصورة عامة إمكانية القيام بدور على المستوى العالمي لكنها لم تكن راغبة في ذلك. وبالعكس فإن بلداناً أوروبية عديدة، كانت تقوم بتعمداتها عبر البحار، بالرغم من أن مواردها آخذة بالنقصان. وكانت البرتغال أكبر قوة استعمارية أعوام الستينات وأوائل السبعينات، وهي أحد أضعف دول حلف شمال الأطلسي «O.T.A.N». لم يكن ليتحقق توزيع المهام بين الحلفاء إلا بوجود شرطين: أولهما أن تتدارك أوروبا علاقاتها الدولية بنفسها، ونعتقد ثانياً بأننا لا نقدر أو لا نريد تحمل العبء وحدنا. وفي نهاية عام ١٩٦٠ لم يتحقق أي من هذين الشرطين. كان الأوروبيون منهكمين بمشاكلهم الداخلية . وفي حال سعيهم لضمان الانسحاب الأمريكيين، لن يجدوا ذلك في توزّع العمل ، لكن في مضاعفة الجهود لإنتاج أسلحتهم الاستراتيجية الخاصّة. وكانت أوروبا بحاجة لإظهار سياسة خاصة بها قبل تحمل أي مسؤوليات أو مهمات كبرى .

كنت مع وحدة أوروبا، لكنني لا أعرف نوع الوحدة التي تريدها، هل كانت اتحاد دول وشعوب فيديرالية عالمية، و كنت أريد أن تقوم أوروبا بدور دولي أكبر، ولا بدّ هنا من التنوية أن تبني هي هذا الدور، لا أن يكون دوماً بموافقتنا.

وقبل الانتخابات بقليل، كتبت بهذه المناسبة عن علاقتنا مع أوروبا :« لا يمكن لأي بلد أن يتصرف دوماً بحكمة، بأن واحد، في كل اقسام العالم. إن عالماً أكثر تشعباً_ لاسيما في علاقاته مع الاصدقاء _ هو من مصلحتنا الأكيدة على المدى البعيد. ان تعدد الأقطاب السياسية، بالرغم من صعوبة الاعتياد عليه، هو شرط اساسي لعهد جديد من الإبداع . و أصعب من هذا ظهور سلطة مقبولة تهزأ أحياناً بأندفاعها و تسيطر عليه، و تحدّ من ميلنا نحو التجرّد و الحلول النهائية، وتعطينا فكرة تاريخية، تكون نتيجتها تأثيراً مؤاتياً».

تُمتحن قوّة الشعوب الحرة برد الفعل الذي تعطيه عن مأزق قِدمه كقدمِ عالم الحرّية: كيف نوفِق بين التفرقة و الوحدة، بين الاستقلال و التعاون، و الحرية و الأمن ؟.

# لنـــدن

# و

# «العلاقـــات الخاصـــة»

توجّه نيكسون من بروكسل إلى لندن، و سهولة المواصلات وحرارة الاستقبال كانتا تخفيان واقع عاصفة كبيرة حدثت : نزاع خطير بين بريطانيا العظمى وفرنسا، بالنسبة لمستقبل أوروبا، كشف النقّاب عمّا كان ينتظرنا.

بدأت المشادّة خلال حديث خاص أجراه الرئيس دي غول مع سفير بريطاني العظمي : كريستوفر سومس، حمو «ونستون تشرشل» و سومس هذا لم يكن غريباً أبداً عن الشهرة و لا يؤثر العظمة. و كان معظم المناقشه يدور حول المباحثات الأوروبية، و الحلف بصورة عامة.

في الرابع من شهر شباط ١٩٦٩، تحادث الرئيس دي غول و السفير سومس في قصر الاليزية عن مستقبل أوروبا. و دار بينهما حديث حوال ذات الموضوع في الرابع عشر من شهر شباط نفسه. فكيف تمكن الانكليز من الاعلام حلفائهم الآخرين . بما فيهم الولايات المتحدة . بأن الجنرال دي غول أبدي تحفّظه عن مستقبل أوروبا بعبارات مثيرة جداً و غير منتظرة.

صرّح الجنرال دي غول : أن على الأوروبيين التخلّص أولاً من عبء «حلف شمال الأطلسي O.T.A.N » ومن تسلّطه وجهازه الأمريكي، في سبيل خلق أوروبا مستقلّة حقيقياً، و قادرة وحدها على اتخاذ قرارات حول مسائل عالمية هامة. و تشكيل سياسي مناسب، يجب أن يرتكز على وفاق بين السلطات الأوروبية الرئيسية : فرنسا، انكلترا، المانيا و ايطاليا . ونواة هذه العلاقات ستكون في التعاون الفرنسي الانكليزي، بالاضافة الى وجوب تغير بنية السوق المشتركة. و على أي حال فان ديغول لم يكن على ثقة من مستقبل هذه السوق. وكان يفكر باستبدالها، بنوع يماثل المنطقة الحره الكبرى. لاسيما للحاصلات الزراعية. وخاصة أن العلاقات الفرنسية الانكليزية ستكون محور هذا التعاون و الجنرال على الاستعداد لإجراء

محادثات ثنائية خاصّه مع بريطانيا العظمى، حول القضايا الاقتصادية، النقدية، السياسية و الاقتصادية. و سيقبلّ كل مبادرة بريطانية إيجابية حول هذا الموضوع.

كانت إجابة الانكليز لدي غول : أن المملكة المتحدة ترغب دائماً في الانظمام إلى السوق المشتركة و ترجو عودة المفاوضات قريباً. وبالرغم من وجهة نظر الجنرال حول «حلف شمال الأطلسي O.T.A.N » فإن العلاقات مع الولايات المتحدة الموثقّة من قبل ادارة أربع السلطات في أوروبا، هي جدّ مختلفة عما رآه دي غول، أماّ بريطانيا العظمى فقد رأت أن الاقتراحات الجرال كانت على جنب عظيم من الأهمية، و هي مستعدّة لإكمال المحادثة، شريطة إطلاع بقيّة أعضاء الحلف عليها.

أبلغ سومس دي غول، خلال مقابلتهما الثانية، ان الرئيس الوزراء البريطاني: هارولد ويلسون، رأى من واجبه اطلاع المستشار الألماني كايسنجر، عندما التقيا في بون في الثالث عشر و الرابع عشر من شهر شباط، و قد أعلمنا الانكليز كذلك بخلاصة ما دار بيننا من المحادثات. كما أعلمنا أيضاً البلجيكيين و بقية حلفائنا الآخرين، و انتشر الخبر خلال «حلف شمالي الأطلسي O.T.A.N» كنثار بارود.

في السابع عشر والثامن عشر من شهر شباط، سعى السفراء الفرنسيون في مختلف العواصم الأوروبية، الى تقويم ما كانوا يعرفون عن هذه المحادثات، و إعطاء تأكيداتهم أن الجنرال دي غول لم تكن نيّته أبداً تحطيم حلف شمال الأطلسي. ومن تصريحاته لسومس أن اتساع السوق المشتركة يغيّر بكل تأكيد بنيته، و يجب بالنتيجة اعادة النظر و بدقة في تنظيمه.

في الحادي والعشرين من شهر شباط، أخذ النزاع أبعاداً كبيرة _ من قال هذا ؟ ولمن قيل؟ الأمر الذي أجبر على تسريبه كل من النكليز و الفرنسيين، كل حسب طريقته . و تطرّق معلق في صحيفة «لندن تايمس» للموضوع فأعطى ترجمة قريبة جداً من التي نقلها لنا الانكليز عند المغادرة . وظهر كذلك مقال حماسي في صحيفة الفيفارود أعاد الى الأذهان أن دي غول لم يعمل سوى تلخيص موضوع : «أوروبا مستقلة». و امكانية تحقيقه، دون ابداء أي أثر لمفهوم حلف شمال الأطلسي. و لم تقف الفيفارو عند هذا الحد بل هاجمت شخص السفير سومس لأنه أذاع في أوروبا ترجمة حساسة لملاحظات الجنرال، الأمر الذي كان يبعث الشك في حسن نيّته .

كان ميشيل ديبره، حينئذ وزير الشؤون الخارجية، فصرح علناً بعد زمن قليل: أن الجنرال حاول ببساطة معرفة نية انكلترا اذا كانت ترغب في اجراء محادثات مبدئية حول «الأفكار السياسية و الاقتصادية» الأوروبية.

كل المحاربين القدماء الأمريكيين من مختلف العهود السابقة و معهم دي غول، القوا بنفوسهم في المعركة. فأغرقت الحكومة الجديدة بطلبات عديدة واردة من كل مكان، تدفع بالحكومة للاستفادة من هذه المناسبة، لتؤكد التزامها نحو «أوروبا فديرالية» ورفض مقترحات دي غول، بشأن ادارة خاصة من قبل السلطات الرئيسية الأوروبية، مهما كانت. وحثت هذه الطلبات أيضاً على التلويح مجدداً بالحرب التي أسقطها أسلافنا، ووضع حد لمطاحن الهواء الموجودة في النظام الأوروبي، و اعادة المباحثات التي قطعتها الانتخابات الرئاسية مع فرنسا.

كنا جد عازمين على ألا نعمل شيئاً . و كنا نعتقد أن تنظيم أوروبا يتعلق بالأوروبيين أنفسهم، و أن الولايات المتحدة كانت قد خسرت الكثير من هيبتها في المباحثات الفكرية.

وفي الثاني والعشرين من شهر شباط، عشية سفرنا إلى أوروبا أرسلت إلى نيكسون تقريراً موجزاً حول هذا الموضوع، ألخصه في ما يلي :

«أعتقد أن دي غول عرض في الواقع فكرته عن مستقبل أوروبا على سومس، و تقريباً بنفس التعابير التي أوردها الانكليز. وعلى كل حال، فان الأمل بإيجاد أوروبا مستقلة عن التسلط الأمريكي، تحت إدارة موحدة أو متفق عليها من قبل السلطات الرئيسية الأوروبية ، ان هذا الأمل يتفق تماماً مع رغبته في رؤية حكم مرتكز على اتفاق فرنسي انكليزي، و طبعاً بشرط تخلي انكلترا عن كل علاقة ذات امتياز مع الولايات المتحدة.

سيطلب منك إعطاء تعليقات حول ذلك.

و أوصيك :

١ ـ بالتأكيد على التزامنا بحلف شمال الأطلسي.
٢ ـ و التأكيد على مساندتنا للوحدة الأوروبية، بما فيها انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة .

٣ ـ مع تحديد أننا لن نتدخّل أبداً في المباحثات الداخلية، حول الأشكال و الوسائل أو المرحل للوصول إلى هذه الوحدة.

حافظ نيكسون بدقة و اعتناء على هذه الخطّة في محادثاته الخاصّة، كما تقيدّت أنا بها أيضاً في مؤتمراتي الصحفيّة الرسميّة قبل و بعد السفر إلى أوروبا.

وفي الواحد والعشرين من شباط، وبعد أن سئلت عن المناقشة سومس _ دي غول أجبت: «نحن نهتم بالعلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا، و ليس بالأوضاع الداخلية الأوروبية» . إننا نستفيد من هذه المناقشة لنؤكد التزامنا بعلاقات فيما وراء الأطلسي، وإننا سنترك للأوروبيين الاهتمام بإعداد أوروبا، و هي على المدى البعيد أحسن وسيلة بقبول انضمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة.

وصل نيكلسون الى لندن مساء الاثنين، وكانت السماء لا تزال ماطرة، فاستقبله في مطار هايترو كل من رئيس الوزراء هارولد ويلسون و وزير الشؤون الخارجية ميشيل ستيوارت. اختصر الاحتفال المقرّر لأن نيكسون كان يخشى اتّهامه بطلب حفلات لهو، و كانت اذا ذاك الحرب مستعر أوراها في فييتنام. و رغب أيضاً في قصر البروتوكول على أقل شيء ممكن. و هذا بالنسبة له تضحية عظيمة و شاقّة. لأنه كان يُسّر كثيراً في حضور الاحتفالات لا سيما في بريطانيا العظمى، حيث انها تمثّل الفنّ فقط. و المهم في ذلك : ان البروتوكول الانكليزي يعطي لمن تنقصهم الثقة بنفسهم التأثير الذي يناسبهم في هذه الاستقبالات التي يقيمونها لهم.

استقبل نيكسون من قبل هارولد ويلسون، بعطف صادر عن ولد بكر، رئيس عائلة عريقة، عرف فيها أمجاداً، ويتذكر الآن الحكمة و الكرامة و السلطة التي حافظت على سمعة هذه العائلة ثم انقلبت الحديث عن دي غول، فأعلن هارولد ويلسون : أنه يرفض الأوضاع الفردية في الشؤون الخارجية، مقارناً إيّاها بفكرة عالم أوسع التي تقدّم بها نيكسون. لكن الذي كان يشغل ويلسون كثيراً، بل و بصورة دائمة ومنذ أمد طويل، هو أوروبا الغربية بكاملها. بحيث أنه كان يجب على الحلف بالإضافة الى المحافظة على الأمن، التوجّه نحو أهداف أكثر إيجابية «كالتعاون والسلام» لأن هدف الحلف في أواخر أعوام ١٩٦٠ لم يكن الدفاع على الحلف أقلّه على مستوى الخطابات، بل إيجاد تأييد رئيسي من الآن فصاعداً لتخفيف الضغوط.

ولم يسمح نيكسون لنفسه ان تتفوّق عليه الهتافات الرنّانه في استقباله، فتكلم لمستقبليه بعبارة كان يجب عليه استعمالها صميماً و بصورة دائمة في حملته الانتخابية لعام ١٩٧٢، بتحديّه تضخماً مالياً يتوقع حدوثه نتيجة الانفراج السياسي : ثم أردف قائلاً : «اني أعتقد جازماً اننا سنتمكن من الوصول إلى سلم وأمن دائمين في هذا العهد». وكان يبدو كثير الحيوية. وأخذ أيضاً في الكلام عن مشكلة العدول عن العلاقات ذات الامتياز بين بريطانيا العظمى و الولايات المتحدة، موضوع المباحثات الكثيرة التي تجري في حكومتنا، و تصدّى لها مرّتين بجلاء ووضوح وعبارات شديدة الإيجابية.

كان هذا اتهاماً من قبل أنصار عديدن للدمج الأوروبي لوزير الشؤون الخارجية، خارج الحكومة، لأن صبر المدافعين عن الوحدة كان قد عيل، لوضع حدّ للعلاقات ذات الامتياز التي كنا نرعاها مع أقدم حليف لنا بحّجة تسهيل انظمام بريطانيا العظمى السوق المشتركة، وبهذا الشكل يظهر عدم تزمّتهم بآرائهم. وكان يبدو لهم ضرورياً ان ينتزعوا من بريطانيا العظمى وضعاً خاصاً كنا نمنحه إياها. وكانوا يخشون ان هذا الوضع يمنعها من القيام بدور في أوربا التي يكنون لها كل احترام، وكانوا في الوقت ذاته يدعون الى مساواتيّة رسمية ، حرة من كل تقليد أو فكرة مصالح ، كأحسن ضمان لمشروعهم الكبيرة.

واذا كان هذا مستحباً ، الأمر الذي أشك فيه ، فإن هذه المساواتية كانت تبدو عديمة التحقيق، لأن علاقتنا ذات الامتياز مع بريطانيا العظمى ، كانت بصورة خاصة لا تقبل نظريات مجردة ، اذا انها لم تكن ترتكز على تنظيمات صورية ، بل كان قسم كبير منها يأتي من ذكريات مجهود بريطانيا البطولي طيلة الحرب ، وكانت تعكس اللغة والثقافة المشتركة لشعبين أخوين ، ولا سيما انها كانت وليدة التنظيم الذي توصلت به بريطانيا الى الحفاظ على نفوذها السياسي بعد ضعف قدرتها الحقيقية.

عندما خرجت بريطانيا العظميى من الحرب العالمية الثانية منهكة القوى ، أخذت في أعادة حساباتها ، ولم تضع وقتها في البكاء على ماضٍ مؤلم ، كما ان حكامها لم ينكصوا عن إقامة هذه العلاقة الهامة ذات الامتياز معنا ، فأخذت صيغة مشاورات ودية جداً تدور بيننا ، حتى أصبح من المستحيل نفسياً ، إنكار الآراء البريطانية ، كما ان اللقاءات أضحت متواترة جداً ونظامية ، ولا يمكن بعد لأي عمل تلقائي امريكي نقض قواعد هذه الرابطة.

وفـي الواقـع برهنـت بريطانيـا العظمـى عـن حكمـة كبـرى وثقـة رائعـة فـي ممـشاها ، حتـى ان الحكام الامريكيين المتتابعين أنفسهم ، رأوا ان مصلحتهم الخاصة تقضي على امتزاج رأي هذا البلد قبل اتخاذ أية قرارات عظمى ، لقد كانت فعلاً علاقة غريبـة ، لأنها لم تكن ترتكز على أية مطالبة قانونية ، كما انها لم تكن مشملة بأية وثيقة ، وكانت تتجدد تلقائياً وبهدوء ، من قبل الحكومات البريطانية المتلاحقة ، وكان نفوذ بريطانيا العظمى كبيراً حقاً لأنه كان ينبع منها ، وكانت العلاقة ذات الامتياز مثالاً لاعتبار دائم.

كانت الدبلوماسية تتغلّب بدقة على جميع الخلافات الحقيقية . وهذا هو إحدى النقاط الرئيسية المتينة في العلاقة الانكليزية الأمريكية ، وفي الواقع ، ان افكار الحكام البريطانين حول دمج أوربا ، كانت أقرب الى الحقيقة من أفكار دي غول بل حتى من أفكارنا ، لأن أوربا مدمجة على المستوى العالمي كانت العدو اللدود لانكلترا كما هي لفرنسا ، والفارق الكبير في وضع البلدين كان يأتي بالتأكيد من أحكام البريطانيين كانوا يقدمون لنا على وجه العموم تساهلات حول فكرة الدمج الأوربي أو الوحدة الأطلسية ، ساعين في الوقت نفسه ، لإيجاد لقاءات ودية معنا . أما كيف نضع هذا موضع العمل ؟ وكان دي غول يضعنا أما الأمر الواقع مبرهناً عن مبادئ عقيدته ، في حين ان بريطانيا العظمى من جهتها كانت تلوّح بسلاح المصالحة ، وبطريقة يبقى معها من غير المعقول تجاهل وجهات نظرها !!

ان الحملات التي تصدر عن حكومتنا ، ضد هذه العلاقة ذات الامتياز ، كانت تبدو لي تافهة وغير واقعية ، وقطع علاقاتنا الخاصة ، فيما اذا كان ذلك ممكناً ومهما كان سببه ، يلغم طمأنينة بريطانيا العظمى ، ولا يكسبنا شيئاً .

ولقد صرحت أثناء اجتماع رسمي في الحادي والعشرين من شهر شباط بما يلي:

( وجهة نظري حول هذه القضّية هي: ليس لنا أصدقاء كُثُر في العالم ، لنتمكن من السماح لأنفسنا تثبيط همة من يحملون لنا صداقة حقيقية ، واعتقد ان الردّ على علاقتنا ذات الامتياز مع بريطانيا العظمى : هو تشجيع الأقطار الأخرى لتبني الوضع نفسه وهذا أفضل من إحباط عزيمة بريطانيا العظمى بحل علاقاتنا معها ) .

وكان نيكسون قد أخذ برأيي حول عدم التدخل في مشادة سومس . دي غول ، لأنها مهما طال أمدها ، وما دامت في حيز الشائعات وتفكير البيروقراطية ، لذا فهي لن تهمنا أبداً . وكونه معتقداً بالعلاقة ذات الامتياز فقد أوضح ذلك في خطابه حال وصوله .

وكان تصرف نيكسون لائقاً ومتفقاً تماماً مع آراء مضيفينا ، لهجته رقيقة وثيقة ومرغبة ، وتمكنت بريطانيا العظمى من إرضائنا ، دون أن تطلب لنفسها أي شيء مهما كان . وتوصلت إلى قبول تبادل وجهات النظر دون انتظار أي عمل أمريكي محدد بالمقابل .

توجهنا من المطار الى شيكرز ، مقر رئيس الوزراء الريفي ، وهو مقر هادىء ومريح ، وذو أثاث غير مبالغ فيه ، إلى جانب العديد من التذكارات التاريخية تمجد تراث بريطانيا العظمى المجيد .

وعلى منوال ساكنيه ، فان التأثير الذي يبديه والانطباع الذي يعطيه كانا خفيين وغير مباشرين .

جرت المحادثات الأولى ، خلال عشاء خاص ، دُعي إليه كل من : نكسون وويلسون ، روجرز وستيوارت ، وسير بارك تريند ، السكرتير الأول في الحكومة البريطانية وأنا .

عند مقابلتنا لهم لأول مرة ، ظهر لنا ان هارولد ويلسون ، كا يتمتع بسمعة رجل سياسي لبق ، وذكاء خارق ، ولكن لم يكن يُعتمد عليه في النهاية ، وكان يعتبره بعض أعضاء الحكومة السابقة ، مقرباً جداً من الجناح اليساري لحزب العمّال ، وهذا الانحراف مع غروره بنفسه كانا قادرين على جعله يميل لصالح التقدم السوفييتي ، كما أتهم أيضاً أنه يشهر بهزيمتنا في فيتنام لتدعيم وضعه الداخلي . ومن خلال علاقاتي بويلسون ، لم تظهر صحة لإحدى هذه الاتهامات ، ومن حقه كأحد قادة حزب العمال الأخذ بوجهة نظر الجناح اليساري في حزبه. مع أنه لم يكن أول رئيس حكومة بريطانية يجعل من نفسه رسول سلام مع الشرق : وبعد هذا ألم يكن هارولد مكميلان ملقباً (بملك العظيم) وظهر في موسكو ، إبّان أزمة برلين معتمراً قبعة استراخان وداعياً إلى المصالحة ؟ مع ان ويلسون كان يظهر لي صديقاً وفياً للولايات المتحدة ، وعلاقاته حيويّة كغيره من معظم البريطانيين ، وكانت تتجه بدلاً من الجانب الآخر من المحيط ،الى الجانب الآخر من المانش ، حيث كانت بريطانيا العظمى تدعو أوربا بطريقة معبرة لاستئناف المباحثات في هذا الميدان . وكان ويلسون قد قضى بعض الوقت في الولايات المتحدة وكون

فكرة صحيحة حول المحاولة الأمريكية الانكليزية ، ولم تكن دعوته لنيكسون حضور اجتماع حكومته تمثيلية مسرحية ، بل شرفاً لا مثيل له بالنسبة لأجنبي ، ولم تتكون لدي فكرة الحكم على تصرفاته في المسرح السياسي الانكليزي لنتمكن من منحه ثقتنا به . فقد كان كثير الكلام فقط عن الولايات المتحدة . ومن خلال ظاهرة غريبة للسياسة البريطانية ، فإن معظم رؤساء حزب العمال كانوا أكثر تقرباً من الولايات المتحدة من رؤساء حزب المحافظين ، لأن الاخيرين كانوا يتمنون على أمريكا ان تخفف من تسلطها على بريطانيا ، لا سيما بعد ما اعتبر خيانة من قبلنا في السويس .

وبالرغم من أن ويلسون كان قدر درس في اوكسفورد ودرس فيها الاقتصاد عدة سنوات ، ولم تكن تهمة أبداً الأفكار النظرية . كان يذهله تقلب السلطة السياسية ويهتم كثيراً بحل مشكلات محددة ، والأهداف بعيدة المدى لم يكن تأثيرها لديه سوى مصلحة ظاهرة . وكان يرى أنه من الحق استباق الأحداث ، وثقته الكبيرة بنفسه جعلته يشعر بأنه قادر على حل أية مشكلة مهما كانت مستعصية ، بفضل ما لديه من مواهب متعددة . وكان يتحلى بذاكرة غريبة ، ومقدرة لإيجاد جملة قرأها في صفحة كتاب منذ عدة سنوات . وهذه موهبة كان يجب إظهارها كثيراً . ويملك الى جانب ذلك موهبة موازية في إيجاد المناسبة . لم يكن مندفعاً بل مؤثراً . على طريقة نكسون . في سعيه نحو التقريب خصوصاً ممن كان يحترمهم ، لاسيما فئة رجال السلطة والجامعيين. وكان فخوراً جداً بالعلاقات المتينة التي يقيمها مع الرؤساء الأمريكيين .

اقترح سلفاً على نكسون التخاطب بالأسماء ، ونظرة باردة من نكسون ألغت هذه المحاولة . وهذا الحادث لم يغير شيئاً في صداقة ويلسون لأمريكا . وكنت أحبه شخصياً إذ لم يكن يسمح أبداً بتهورنا .

كان لزميله ميشيل ستيوارت ، وزير الشؤون الخارجية ، شخصية مختلفة ، فهو قليل الادعاء ، كثير النصح ، لديه ميل كبير للعروض الأخلاقية التي لم يكن يعرها نكسون أذناً صاغية .

كان استاذاً ويظهر عليه ذلك ، قبل أن يصبح وزير التربية الوطنية ثم وزير الشؤون الخارجية . ومثل الكثير ممن يصلون متأخرين إلى مناصب المسؤولية الدولية ، لم يكن يفرق بين الأفعال والجمل النظرية . ومع ذلك كان يعمل عن عقيدة بالحفاظ على العلاقات متينة بين بلدينا . ومتجاوزاً ظنونه الكبيرة ، دافع عن وضعنا في فييتنام في مناقشة أمام اتحاد الطلاب في

أوكسفورد ، وبحزم ومهارة ، أكثر بكثير من الأمريكيين أنفسهم العازمين على ارسال جنودنا الى هناك : ولم يظهر تشككه للخارج ، فهو رجل شريف ، ثابت المبدأ ، غير متألق ، ونافذ البصر ، وبريطانيا العظمى تدين لقوة ارادته بجزء كبير من عظمتها .

والشخصية الثالثة البريطانية ذات الشأن : كانت سير بارك (ومن ثم لرود تراند) السكرتير الأول في الحكومة . مهمته ذات نفوذ بقدر ما هي مجهولة . فهو موظف ثابت عند تبدل الحكومات ، يُعِد تقارير اجتماعات الحكومة ، ويشرف على الادارة الدائمة فيها ، ويقدر آراء غير مغرضة ، نتيجة سني خبرة .

وكان بارك تراند يستخدم وبعناية خاصة السلطة الناشئة عن هذه المهمة ، فهو رجل دقيق ، عالم ، ذو عيون براقة ، وسلوكه يكشف عن حكمة ورصانة معاً . يتجنب في المحادثات بفن ومهارة فائقتين العقبات التي تعيق الكثير من المشاريع الجريئة ، ويعرف كيف يقدم بلياقة وزراء الحكومة التي يتبع لها . ويظهرهم على الأرجح أكثر كفاءة عما كانوا عليه . وهو رجل مرؤة كبيرة . معرفته وآراؤه هي المبادئ الايجابية في «علاقتنا ذات الامتياز» .

كان عشاء شيكرز أشبه بسهرة عائلية ، فدارت فيه الأحاديث حول المشاكل العالمية . بدأ في غرفة طعام مائلة السطح وانتهى حول مشروب من الكونياك في القاعة الشهيرة : (لونغ غاليري LONg Gallery) وهؤلاء الرجال الذين يعوّل عليهم في تصميم مستقبل بلادهم لسنوات مقبلة ، تبادلوا نظرات الرضا ، وبعد إعادة ما جرى من مباحثات ، كان الجميع راضين من النتائج .

بعدئذ أحضرني نكسون الى شقته في كلاريدج لتلخص أحداث النهار التي بدأت في مجلس حلف شمال الاطلسي في بروكسل وانتهت عند رئيس الوزراء البريطاني في مقرة الريفي الذي كان ينسبه نكسون لعدة أجيال ، ولم أجرؤ على مصارحته ان تاريخ الشيكرز يعود فقط الى الحرب العالمية الأولى .

كان فرحة لا يقدر ، وسروره عظيماً بالحفلات التي أقيمت له على الطراز القديم . لكن تسلمه الوظيفة حديث جداً ، والأحداث المتلاحقة رفعته الى القمة ، فالهبوط بطائرة رئاسية في أرض غريبة ، وملك يستقبله ، ورئيس وزراء ، واستعراض حرس ، وزيارة الشيكرز ، كان هذا كله قمة أحلام شبابه ، وتصوره الوصول الى مسؤولية عظيمى كانت تبدو متعذرة البلوغ على فتى فقير ذليل مثله ، مولود في إحدى المدن الصغيرة من كاليفورينا ، وهذه إحدى المرات النادرة ، خلال

علاقاتي الطويلة مع نكسون ، كنت شاهداً فيها على فرح هذا الرجل المفاجئ ذي الطبع الكتوم والطموح .

ومع ان مناقشات النهار ، لم تحل أية مشكلة عظمى ، فقد أحب نكسون هذه المحادثات الفلسفية ، التي لم يجر فيها أي تفصيل أو توقف ، وكان يرغب بالحاح أن يقال له إلى مدى طيب توصل في أحاديثه ، ولقد طلب إلي مراراً وتكراراً أن أبين له عن دوره العظيم في أحداث النهار ، ومثلما كان يحدث له أحيانا حال تعرضه لتأثير شديد ، كان متمدداً على سريره ، مغمغماً مهتاجاً ، متلفظاً بكلمات غير مفهومة ، سهلت علي تهدئته ، وأخذ يتصرف بهدوء وقدرة وكأن أي حادث لم يطرأ .

في اليوم التالي وفي قاعة « . ١٠ . داونينغ ستريت» (مقر ومكتب رئيس الوزراء) تصدّى فريق كثير الأهمية مؤلف من أعضاء الحزبين لقضايا الليلة الماضية، و أهم المباحثات التي دارت في هذا الاجتماع كان : قرار بريطانيا العظملا في تجديد طلبها بالانظمام إلى السوق المشتركة، و مستقبل حلف شمال الأطلسي، وعلاقات الشرق و الغرب.

ادّعى الوزراء البريطانيّون، حتى يكونوا في عداد أوروبا ليس فقط للمغانم الاقتصادية التي تُجنى منها بل لتوسيع آفاق المجتمع السياسية التي يشاركون في تنفيذها.

أخذ نكسون بهذه الفكرة، لكنه لفت الانتباه إلى أنها ربّما تؤدي إلى عداوة أمريكية لدي ـ غول . وسيحاول تحسين العلاقات الفرنسية الأمريكية، إذا ألفى تبدّلاً في وجهة نظر دي غول الأساسية، و أصبح لديه مجال لقبول تسويات على مستوى العملي. فأعلن الوزراء البريطانيون، ان هذا ما يسعون إليه، كما لو ان مشادّة سومس ـ دي غول لم تكن .

أظهرت المحادثات المتعلّقة بحلف شمال الأطلسي ازدواجية الحلف الأطلسي مرّة أخرى. وأيّد المجتمعون نكسون عندا أكّد ان الاتحاد السوفييتي في طريقه الى تفوّق نووي، وعلينا بالرغم من ضغوط الكونغرس، متابعة برامج دفاعنا الجديدة التي بدأنا بها. فلم يأخذ أحد نتيجة ايجابية من حديثه في دعم الدفاع الأوروبي.

وجاء دور ويلسون في الحديث، فكانت المقدّمة : ان حلف شمال الأطلسي في صدد طرح فكرة استراتيجية جديدة هامّة، لأنه يشكّك في قدرة البلدان الأوروبية على زيادة نفقاتها الحربية بنوع

ملموس خوفاً من أي انسحاب أمريكي. وجعلنا نفكّر بما عسى ان تكون عليه هذه الاستيراتيجية عند عدم استدعاء قوات جديدة.

ساهم ميشيل ستيوارت في الحديث متكلماً عن القضية الأم التي ستواجه أوروبا قائلاً : ان مفاوضاتنا مع الاتحاد السوفييتي، لا سيما حول تحديد الأسلحة الاستيراجية كانت رئيسية. ولن يقبل الجيل الجديد أبداً الاّ يكون الحلف الأطلسي سوى أداة الدفاع، ومن الجوهري لوحدة العالم الغربي أن يكون الحلف انفراجاً سياسياً أيضاً ـ و كان على حق، لكن كلامه هذا يكشف غموضاً عميقاً في وضع حلفائنا الأوروبيين أي عندما يزداد الضغط، يشكّون في صلابة امريكا، وعندما يخف، يخشون حكماً ثنائياً سوفييتياً أمريكياً، و يطلبون منا الصمود و يجعلون أنفسهم متفرّجين للخروج من المأزق الذي نتج من جراء ذلك. يؤكدون علينا في استشارتهم قبل الإقدام على أية حركة، و يطلبون التمتع بالحرية والسيادة، لمتابعة ودون معارضة سياستهم الخاصّة في الانفراج السياسي ولو أثرنا تجميد الانفراج السياسي، خسرنا مساندة حلفائنا في أوروبا الغربية، وتقوى علاقاتهم مع الشرق دون أي تنسيق استراتيجي، ويصبحون في حالة ضعف كبير للصمود مرة واحدة للضغوط الداخلية و ضغوط السوفييت ونجد انفسنا في وضع متعارض من حيث وجوب ادارة العلاقات بين الشرق والغرب إذا أردنا المحافظة على وحدة الحلف، وتثبيت قواعد أساس الاتصالات بين الشرق والغرب. لكن التصرف السريع أو خلق آمال واهمة تؤثر في قوتنا العسكرية التي هي أساسنا الثابت الوحيد في محادثاتنا تجاه الاتحاد السوفييتي. وبقيت هذه المشكلة دون جواب الى بعد ان ترك كل المشتركين في مناقشة «داونينغ ستريت» مناصبهم.

أقيم غداء في بوكينغهام بالاس بحضور الملكة اليزابيت. وأظن بأن نيكسون أعطى خطأ شهرة رجل ذي تفكير بليد، وبالعكس فهو رجل فكر ومعرفة للقضايا العالمية، وحدّة ذهنه بالنسبة للشخصيات التي ناقشها أثرت فيّ كثيراً، وبعد الظهر تحادث الرئيس مع موظفي سفارات الولايات المتحدة وقابل فريقاً من رؤساء التحرير والمثقفين البريطانيين.

كانت الأمسية بالنسبة لنيكلسون فرصة سانحة للظهور بمظهر يجهله الجمهور. ففي ربيع ١٩٦٨، كان هارولد ويلسون قد تكلم على الانتصار الديمقراطيين . مبرهناً عن نقص واضح في التمييز. وعيّن بالتالي : «جون فريمان» الصديق القديم« ليوبرت هامفري» سفيراً في واشنطن. متجنباً بذلك مأساة قللة العدد. وفريمان وزير عمّالي من الجناح اليساري للحزب، واستقال على أثر مشادّة حول مساهمة دولية في الصحة العامة، وهيأ لنفسه سلفاً اسم صحفي في تلفزيون،

ثم رئيس التحرير للصحيفة اليسارية الأسبوعية «نيوستاتسمان : رجل الدولة العصري» ثم ممثلاً للتاج البريطاني في الهندية. ولما كان يعمل كمحرر في صحية «ستاتسمان» شهّر فريمان بهزيمة نيكلسون في كاليفورنيا مهنئاً الامريكيين بقدرتهم على إبعاد «رجل دون مبدأ بل غاية التضحية بكل شيء في سبيل» ديك نيكسون Dick nixon».

سبعة أشهر بعد تعيين فريمان، انتصر نيكسون في الانتخابات، ارتبك ويلسون من الخيار الذي أقدم عليه. وحافظ على مبدئه برفضه تغيير السفير، فاستغرب نيكسون ذلك، ومنذ تسلّمه وظائف الرئاسية أقسم على عدم إقامة صلات مع فريمان. وأيّده الجنرال ايزنهاور في فكرته قائلاً له وبحضوري في شهر كانون الثاني : ان تعيين فريمان إهانة ليس فقط لشخص نيكسون، بل إهانة لرئاسة الولايات المتحدة بأكملها. ولما كان لا يجوز التفكير بالاعلان عن السفير البريطاني أنه « شخص غير مرغوب فيه persona non grata» فإن الحل الوحيد الذي بقي مُلك نيكسون هو جعل مهمة فريمان صعبة و شاقّة ما أمكن، و نيكسون دون شك قادر على ذلك. طلبت فرقة استطلاعنا من ويلسون ترقين اسم فريمان من لائحة المدعوين إلى حضور حفل عشاء الرئيس في « داوينينغ ستريت » لكن ويلسون رفض ذلك بشجاعة. وتوجّسنا جميعا خيفة من ساعة اللقاء.

لكنّ نيكسون استطاع أن يذهل الجميع، إذ انّه في آخر العشاء، عندما وقف ليشرب الانخاب نظر كلياً في عيني فريمان الجالس مقابله على الطاولة وقال : «يقول البعض ان هناك نيكسون جديد، ويتسائلون عما اذا كان هناك فريمان جديد. اؤكد لكم : ان كل هذا كان في الماضي، أمّا الآن فهو السفير الجديد، وانا رئيس الدولة الجديد، وسنحاول كلانا بذل كافة جهودنا لإحلال السلام في العالم».

كانت الصدمة هائلة، فتكلم ويلسون عن شرب الانخاب هذا فبيّن انه افخر ما سمع في «١٠ داونينغ ستريت». و كتب كلمة موجزة لنيكسون : «لا تتمكن ان تبرهن انك ولدت لورداً، ومن الممكن _ وحسبما أكدّت ذلك إنك ولدت جنتلمان». و هكذا ولدتمهمّة في واشنطن، مثمرة جداً، و أصبح جون فريمان أحد السفراء الأكثر إنتاجاً مّمن كان عليّ التعامل معهم. ويصعب عليّ أن اشرح بوضوح كم : كان شديد المراس، يرفض التملّق ولا يستقبل إلا من يحترمهم. وبقليل من الجهد أحال سفارته إلى صالة عصرية. وعندما يريد ارسال رسالة كان يبدؤها بمقدمة مختصرة، فيظهر انه يتقيّد بالتعليمات المعطاة له. ثم يسمح لنفسه بتوضيح آراء الخاصّة. انه رجل ذو

ذكاء نادر وعصاميّة مدهشة، أهميّة نفسية جداً. ولما كان نافد البصيرة الجغرافية السياسية أخذ حالاً يشاركنا تصوّرنا للسياسية الخارجيّة. و كنت أقدّر كثيراً تفكيره، حتى اني كنت استشيره غالباً في الأمور لا تمّت بصلة إلى مهامه الرسمية.

مرة أو اثنتين سمحت له بقراءة مسودات الخطابه الرئاسية، مستفيداً من مواهبه كمحرر. وكان يستطيع نقل هذه المحادثات إلى الرئيس وزراء بلده، واعتقد انه قام بذلك دون شك. لكن الصداقة المتينه و الثقة القائمة عليهما علاقتنا ذات الامتياز مع بريطانيا العظمى، كانت تفرضان علينا الحفاظ على تعاون ودّي من هذا النوع.

بدأ نيكسون من جهته يمنح الثقة لفريمان وصار يقدّره كثيراً حتى أصبح فريمان السفير الوحيد الذي يدعى إلى البيت الابيض لدى عقد اجتماعات عالمية، طيلة فترة الحكم الرئاسية الأولى لنيكسون، وأضحى كذلك احد اصدقائي المقربين جداً وامتدت هذه الصداقة حتى ترك كل منا منصبه، واعتبر هذه الصداقة احدى المكافآت الكبرى لوظيفتي العامة.

وهكذا انتهى السفر إلى لندن بنقطة الانطلاق صداقة متبادلة خاصّة، كما أوضح مشاكل معقدة لم تُحل، ومع ذلك وصلنا فيه إلى غايتنا في وضع أسس تعاون عتيد مثمر .

# بــون و برلين : لغزا المانيــا

كانت رحلتنا الثانية إلى بون، وكان وضع جمهورية المانية الاتحادية أكثر تعقيداً، إذا كانت في فترة ما قبل الانتخابات، وجاء وصولنا في بداية أزمة برلين.

ينتخب رئيس المانيا الغربية من قبل مجلس البوند ستاغ ومن قبل ممثلين عن الولايات «لاندر lander » ومنصب الرئاسة في ألمانيا الغربية وظيفة فخريّة. وقد اتخذ هذا المجلس حتى الآن، مقراً له في مبنى الريخستاغ القديم في برلين الغربية. وحكومة بون هذه كانت تظهر انها ترمي إلى تجسيد ديومة شرعية ألمانيا. و يتجاهل السوفييت وشركائهم الالمان الشرقيون حتى الآن هذا التحدي الضمني. إذ شعروا عام ١٩٦٩ أنهم أصبحوا على جانب عظيم من القدرة لرفع هذا الحليف. فاعترضوا على جعل الانتخابات في برلين، بحجة أن برلين الغربية لا تشكلّ شرعياً، جزءاً من الجمهورية الاتحادية، و بدؤوا لوضع حواجز تمنع الوصول إلى الهدف، لأول مرة عام ١٩٦٢.

سيُحدث هذا قلقاً كثيراً في بون. و قابليّة تقسيم برلين أصبحت مضرب المثل. ولم يكن يُعرف موقف الحكومة الأمريكية الجديدة حيال ذلك. والعالم يسوده قلق عظيم تجاه وضع المانيا الخطير. والمشاحنات السياسية التي حدثت مع حكومتينا الأمريكيتين السابقتين. فرفضت بون ما قدمه مكنمارا حول دفاع اقليمي غير نووي خوفاً من عدوان سوفييتي، كما كانت ترى في معاهدة عدم الانتشار الاسلحة النووية مثالاً اعلى في التمييز بالنسبة لها بشأن المجال النووي. كما كانت حكومة بون مغتاضة جداً من الضغوط التي تمارسها عليها الولايات المتحدة لدفع التكاليف مرابطة القوات الأمريكية على الأرض الألمانية .والمستشاران كونراد اديناور ولودفيغ ارهارد تأكدا ان ترك وظائفهما المفاجيء كان بسبب الخلاف مع حكومتي كينيدي وجونسون.

كل هذا كان يعكس عدم الاستقرار النفسي لدولة المانيا الجديدة التي تظهر بمظهر القدرة. والمهزومة في حربين ، حاملة آثار جروح الحزب النازي، ممزقة و مجزّأة، لذا كانت المانيا

الغربية مدّخراً لمصائب سياسية. ولم يكن لدي بون تلك الثقة و خاصة ببريطانيا، وهي وليدة قرون من التطور السياسي والمجد الامبراطوري البائدين.

بمبادرة شخصية من أول مستشار بعد الحرب جرى اختيار بون نفسها لتكون عاصمة لجمهورية المانية الاتحادية. ( والعاصمة الجديدة موجودة بجانب المدينة الصغيرة حيث كان يقضى مستشار اديناور بقية أيام حياته ). ولم يكن يجسد هذا الاختيار أي تقليد سياسي قديم، بل يمثل عرضيّة احياء المانيا في فترة بعد الحرب. وكانت المانيا الاتحادية كشجرة ضخمة، مجردة من جذور عميقة، معرضة لأقل هبّة ريح.

ووضعها الصعب كان يتطلب من حكامها الاحساس بانطباع عدم الطمأنينة.

اديناور، ذلك الرجل الوقور، اعتبر أن مهمته العاجلة كانت في اعادة سمعة لالمانيا يمكن الوثوق بها. ورفض بجلاء المحاولات العديدة المقدّمة لبلده حول المناورة بين الشرق والغرب. و ثبت أمام ادعاءات المعارضة الداخلية التي كانت تدين السياسة نحو الغرب و تدعّي أن هذا السياسة تهدد فكرة توحيد دولتي ألمانيا. وسعى لترسيخ مكانة جمهورية المانيا الاتحادية وأوروبا في الحلف الاطلسي، مكانه وثيقة تمنع وإلى الأبد أية نزعة قوميّة، قد تجلب المآسي لألمانيا وتحاول انبثاق هذه النزعة ثانية وتفسد شعبها.

نجح اديناور أكثر بكثير مما كان يأمل. وبعد مضي اثنتي عشر عاماً من حكمه فإن التوجيه المؤيد في الجمهورية الاتحادية لم يجد أي نزاع مع أحد من الأحزاب في المانيا. و المعارضة التي كانت حتى ليلة أمس تنادي بألمانيا حيادية في منتصف الطريق بين الشرق والغرب، اعادت النظر في منهاجها، و تجاري الآن وبقوة الحكومة في بياناتها في الاتجاه نحو حلفاء الغرب حتى في مجال العسكري. ومن غرابة الصدف، وفي هذا الظرف بالذات، برز شبان لامعون في حكومة كيندي يدعون للمرونة مع الشرق. كيندي ذلك الرجل الذي طالب حتى النهاية بالثبات و التحرك في الوقت المناسب، و نال بالقوة على رضا بلاده الكامل في سيايته الأطلسية. و كيندي نفسه الذي ساهم في النقلاب السياسة الداخلية الألمانية خلال الستينات و في تغيير الاوضاع. والمعارضة الاشتراكية _ الديمقراطية التي كانت تحاول استمالة النزعة القومية الالمانية الكامنة لصالحها، وتنفقد توّجه اديناور نحو الغرب، اصبحت الآن تدعوا الحكومة لوضع حد لتعريض العلاقات مع الولايات المتحدة للخطر.

أما المسيحيون ـ الديمقراطيون المشتركون دوماً في الحكومة. يتمسكون وبرباطة جأش بالتوجهات السياسية المتوقفة منذ خلال خمسين عاماً. وتمسّكهم هذا شبه الثابت بمبدأ المتابعة، ادى إلى نفاد صبر الحكومة الأمريكية التي تريد الانتقال الى شيء آخر، معتقدة بأهمية تصوراتها، و على وجه العموم، راضية عن اليسار أو على الأقل عن الفرق الاصلاحية أكثر مما هي عليه مع المسحيين ـ الديمقراطيين المحافظين الذين شادوا أوروبا بعد الحرب.

مأزق السياسة الألمانية بعد الحرب اصبح واضحاً. و المانيا الاتحادية وحدها بين الدول الأوروبية، كان لها طموحات قومية غير محققّة. وكانت رغبتها في توحيد المانيا تبدوا واضحة في رفض التعامل مع نظام المانيا الشرقية و اجراء اتصالات سياسية مع كل دولة ارتبطت بها ( و هذا ما كانوا يسمونه المذهب الهلّستيني ) ولم تشاركها بهذه الطموحات أية دولة أوروبية أخرى. وفكرة المانيا موحدة كانت تحي شبح التسلط الالماني. وفي هذا المجال كان الكل مجمعين على رأي كليمنصو، الذي قال يوماً مازحاً أنه يجب المانيا كثيراً حتى أنه يريدها اثنتين. بالاضافة إلى انهم كانوا يعملون ان ثمن توحيد المانيا، باهظ وكبير، هذا الثمن مؤداه مجابهة قاسية مع الاتحاد السوفييتي. كانت توجد إذاً ورطة عظيمة لايمكن تجنبها، بين الهدف الذي تدعو إليه المانيا الاتحادية وهي توحيد المانيا، وبين الاعمال الممكن الإقدام عليها للوصول إلى ذلك. وهذه الورطة بين الهدف و الوسيلة، سمحت للاتحاد السوفييتي ان يفرض و بأوقات معلومة على المانيا الغربية اختبار قوّة بشأن برلين، مخصصاً جزءاً منها على الأقل لجّر ألمانيا الغربية للقبول بالوضع الراهن، وارغام حلفائها في الحلف شمال الأطلسي على الابتعاد عن طموحاتها القومية.

امور عديدة تدور في افكار القادة الالمان الغربيين وفي مقدمتها أوروبا المقسمة، والخضوع لضغوط مكررة من قبل الحكومات الشرقية، والشعور ببقية تشكّك عميق يحسون به نحو الغرب، وقلق من عدم اماكنية تحقيق طموحاتهم القومية، ومع ذلك فإن قادة الالمانيين الغربيين كان يرون أن علاقاتهم مع الولايات المتحدة، مرسى لنجاتهم. ولم يكونوا يطمحون إلى القيام بدور في الشؤون الدولية، إذا كانت تنقصهم الثقة بأنفسهم للسعي في التأثير على سياستنا بمستوى عالمي. وكان هدفهم أكثر تواضعاً، إذ كانوا يطمحون إلى امكانية الاتكال علينا للدفاع عنهم و الحصول على تأكيد بعدم التغيير سياستنا الأساسية نجو الحكومات الشرقية، الأمر الذي يجعل المانيا تعترض لتبديل طبيعي أو نفسي.

ولأجل هذا فإن طرقنا السياسية الصاخبة اقلقت الألمان الغربيين. و التصريحات المتتالية التي يعلنها اطراف الحكومة الجديدة بصورة جدية و قوية عن التصدي للمشاكل بطريقة مختلفة، محبطة بذلك الطرق البالية لسياسية أسلافهم، كانت تبعث لدى الألمان الخوف و القلق الكبير من أن تكون أحدى مراحل العمل القادمة هي نقض التعهد الأمريكي لأوروبا.

ان مهمة نيكسون _ اعادة الثقة و الطمأنينة إلى بون _ كانت ملائمة جداً في هذا الجو المشحون. و بالرغم من أزمة برلين ، فإن السياسة الألمانية كانت تجتاز مرحلة انتقال. ففي تشرين الأول عام ١٩٦٣، خلف لودينغ ايرهارد المستشار اديناور (باعث نهضة المانيا). وكان يتمتع ايرهارد حينذاك بشعبية كبرى، لكن كما سبق وقال عنه اديناور : كان ايرهارد بعيداً عن الإلمام بالسياسة، أكثر من الاقتصاد.

انهار ائتلاف الحكومي المؤلف من المسيحيين ـ الديمقراطيين و الليبراليين، و شُكّل عام ١٩٦٦ ائتلاف جديد من الاشتراكيين . الديمقراطيين والمسيحيين . الديمقراطيين، دعي بالائتلاف الكبير، مع كورت جورج كايسنجر مستشاراً وويللّي براندت نائب مستشار ووزيراً للشؤون الخارجية.

ظهر هذا القرار خطيراً بالنسبة للمسيحيين الديمقراطيين، الذين حكموا فترة ما بعد الحرب كمحافظين معتدلين، في حين ان الاشتراكيين ـ الديمقراطيين كانوا يمارسون معارضه، كادت تصبح دائمة، لا سيما انه كان يُنظر لهذا الحزب من قبل عدد كبير من ناخبيه ـ رغم ماضيه الديمقراطي المشرف ـ انه وريث كثير من التقاليد الراديكالية، ليُعهَد اليه بمقاليد الحكم. وضع الائتلاف الكبير موضع العمل من قبل المنظم اللامع الاشتراكي ـ الديمقراطي هربرت وهنر، وأظهر ان الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا جديرين بالحكم، واشتراكهم الفعللي بالحكومة جلب لهم أخيراً عدداً من الأصوات الاضافية التي كانوا بحاجتها لربح الانتخابات اواخر عام ١٩٦٩ . ان التقدير الخاطئ الذي أوصل إلى الائتلاف الكبير كان مؤلماً بالنسبة للمسيحيين ــ الديمقراطيين، وفي الوقت نفسه كان مكسباً للديمقراطية الألمانية، وبرهن الاشتراكيون الديمقراطيون انهم كانوا في الحقيقة حزباً ديمقراطياً مسؤولاً . وهذا ما وفر على المانيا في جعل حياتها السياسية المستقرة راديكالية أو استقطابية في كثير من البلدان الأوروبية الأخرى.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فبالرغم من اسم الائتلاف الكبير الرنّان، فإن الحكومة التي استقبلتنا في بون، كانت في حالة انقسام عظيم على نفسها، وكاد أهم ممثليها يتجابهون في الانتخابات التي جرت فيما بعد ببعضة أشهر، وكل ما قيل تقريباً خلال زيارتنا، عَكَسَ مساومة حكيمة، حيث كان يسعى كل واحد منهم لتمكين أوضاعه. والمستشار كيسينجر، اللطيف، الرصين و رابط الجأش أعلن عن أشياء العادية بتحفظ كبير، اذ كان يرى نفسه سياسياً واقعاً في الشرك، و ان كل يوم يمر على حكومة كان يقوّي من وضع خصمه الرئيسي ، الذي يعتبر نفسه مساوياً لنائب المستشار ويللي براندت. ذلك الرجل الضخم، الصلب بطبعه، قليل الانتفاخ، و بالرغم من أساليبه الودية، لم يكن ليعطى أبداً انطباعاً باعتبار نفسه تابعاً للمستشار.

وهناك حيث كانت الحكومة البريطانية تظهر نفسها ازىواجية في أسئلة الردع والانفراج السياسي، ووحدة الغرب والعلاقات ما بين الشرق والغرب، فإن الحاكمين الألمانيين، إذا أخذا على الانفراد، كانا يظهران أكثر وضوحاً. لكنها كانا منقسمين بنفس الوقت، والنقطة الوحيدة التي كانا يجمعان الرأي حولها هي البرهنه على الثبات بالنسبة لبرلين : كان كايسنجر يراعي وضعاً قاسيا تجاه البلدان الشرقيه . أما براندت فكان يحمل فكرة عن وضع أكثر غموضاً . إذ أنه كان على استعداد للاقرار بفضل المانيا الشرقية دون تفكير. و كان كايسنجر يعلّق أهمية كبرى على العلاقات مع فرنسا. ويؤكد براندت على انظمام بريطانيا العظمى إلى السوق المشتركة. كانت أفكار كايسنجر قريبة جداً من أفكار نيكسون. وتطلعات براندت كانت تتجاوب فعلاً مع تصرفات وزارتنا للشؤون الخارجية. ان المحادثات التي اجريناها في بون، دلّت بوضوح على ان السياسة الألمانيا ستكون مسّوفة حين يحين موعد الانتخابات في الخريف.

انتهت زيارتنا الرسمية إلى ألمانيا الغربية بزيارة برلين. حيّا جمع غفير الموكب الرسمي عند مروره، لكن نيكسون كان مستاءً، إذ كان يخشى أن يكون استقباله في برلين أقل أهمية وحماساً من الاستقبال الذي جرى لكنيدي عام ١٩٦٣ . ولم تنفرج أساريره إلاّ بعد أن أكدوا له مرات عديدة أن استقباله كان أفضل. (ولاحظت ان مسيره الموكب الرسمي كانت علي شكل S لتسمح للجميع بالمرور بسهولة من الشارع الى آخر. وكما قيل لي، فان هذه الطريقة استعملت كذلك عند زيارة كنيدي). كان نيكسون يريد اثارة أزمة أخرى لبرلين محدداً ذلك دون مواربة، منذ البداية حكمه، واضعاً هيبة الرئاسة في الميزان، و هذا ما أثيته فعلاً بخطاب واضح ألقاه في معمل سيمنس قائلاً بقي اربعة روؤساء قبلي مرتبطين بهذا المبدأ، وأقول لكم الآن وفي هذا الماكن، اني أنا

أيضاً احافظ عليه بثبات. يجب ان تبقي برلين حرة. ولا اقول هذا عن تبجح أو مزاوده، بل أعلن فقط عن رأيي النهائي بالنسبة للحياة الدولية.

# فاصـــل ترفيهـــي رومـــاني

كانت ايطاليا المرحلة التالية لسفرنا، وفوضى مطار روما المفرطة معاكسة تماماً لاحتفال برلين المنظّم. وفي البلبلة التي تلت وصولنا، أخذ روجرز لاستعراض حرس الشرف الملكّف بتأدية التحيّة، إلاّ أنّ أحد أفراد فرقة استطلاعنا صُعِق من هذا العمل، فانتفض وذهب فأحضر الرئيس نيكسون وجعله في مقدّمة الموكب. وبعد ذلك سارت الأمور بسهولة، لكننا كنّا نتلمس شفا الكارثة.

كانت هذه إحدى زياراتي العديدة التي أقوم بها الآن لإيطاليا خلال ممارساتي لوظائفي. أحببت كثيراً جمال هذا البلد الأخّاذ ودماثة أخلاق أهله العجيبة. ومع ذلك فقد أثبتت لي كل زيارة أن لإيطاليا نظماً سياسية وتصوراً لدور الدولة تختلف عمّا هي عليه في باقي دول أوروبا الغربيّة. أعتقد أن الايطاليين أكثر مدنية، وأكثر تقديراً للانسان في تصرّفاتهم العامة، وتبنّي أهداف سياسية كانت طيلة قرن ونصف سبب تنافس وطموح البلاد الأوروبية الأخرى. ليس هناك مجال للشك ان مشاكل ايطاليا الداخليّة كانت تستأثر كلياً بانتباه الحكّام الايطاليين، حتى ان السياسية الخارجية، تأتي في المرتبة الثانية من اهتماماتهم.

وبالحقيقة علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن روما ولو كانت عاصمة، إلا انها مصدر شعور وطني أكثر من تقليد تاريخي، وسيطرت في القديم على امبراطورية، قبل ان تكون خلال خمسة عشر قرناً عاصمة الدولة البابوية.

وقصر الكيرينال . حيث يقيم حالياً الرئيس الايطالي، بقي مقراً صيفياً للبابوات حتى العام ١٨٧١.

وبعكس العواصم الأوروبية الأخرى، لم تبد روما اندفاعاً نحو توحيد ايطاليا، لكنها اندمجت بايطاليا فعلاً عشر سنوات بعد ولادة الدولة الإيطالية، وجاءت الحكومة الايطالية لتتمركز في حاضرة البابوت، وبقيت البابوية المؤسسة المسيطرة على روما.

ومهما يكن السبب، فلديّ انطباع أننا بلغنا هدفنا الرئيسي من زيارتنا منذ هبوطنا في المطار. كانت الولايات المتحدة تحترم ايطاليا. واجهزة التصوير كانت توضح ان القادة الإيطاليين قد أُخذ رأيهم، وبعد أخذ الصور التذكارية كالعادة، كان تصرّف الوزراء الإيطاليين يدل على أنهم يعرفون كفة الحياة لإعطاء برهان على أن جميع أرائهم في الشؤون الدولية، كان لها بعض الحظ في التأثير العميق على الاحداث.

خلال وظيفتي، شغل منصب رئيس الوزراء في ايطاليا بالتناوب كل من : «ماريانو رومر» «وألدومورو» ، «وأميليو كولومبو» في فترة قصيرة من الزمن. و من لم يكن منهم رئيس الوزراء في هذا الوقت كان وزيراً للشؤون الخارجيو. وورمر الذي يفيض رقّة وقوّة إرادة يطيب له أن يرضى عن عمله. كان موجهاً لجهاز حزب. و لا يظهر إلا عندما تتضارب الآراء، ويضيع وقته دون اعتبار بين زمر الأحزاب المختلفة من الديمقراطية ـ المسيحية. أما كولومبو فكان مثقفاً رابط الجأش، مفكراً، خبيراً أكثر من موجّه حزب، يمكن القول انه لا يرتفع إلى القمّة إلاّ عندما تكون زمر الأحزاب في مأزق وتشعر بحاجة ملحّة لرئيس وزراء يسير الاعمال العادية، لكنه لا يرجّح كفّة الميزان في أي اتجاه حتى تتم تسويته جديدة. وكان مورو هو المهيمن من بعيد على الجميع : ذكي أكثر مما هو سكوت ويسعى بشكل حثيث للحصول على ذكاء مرموق، والتعقيد البيزنطي في تركيب جملة هو البرهان الوحيد الذي لاحظته فيه، أتمكن من القول أنه كان لي عليه تأثير منوم. وفي سياق محادثاتنا، كثيراً ما كان يغالبه النوم. وكنت اعتبره نجاحاً عندما استطيع ابقاءَه مستيقظاً، واتضح أن مورو لا تهمّه الأمور الدولية.

وكانت استراتيجية الديمقراطية المسيحية المفضّله لديه ، وهي قادرة بدقة غير متناهية على طرح توجّهات جديدة في السياسة الداخلية الايطالية. كما كانت وزراة الشؤون الخارجية بالنسبة له أساساً للقوة ، ولم يفكر أبداً بالبقاء فيها. والحكام الايطاليون ينتخبون علناً حسب المشاكل الداخلية ، ويعكسون التوازن الداخلي للديمقراطية ـ المسيحية ، بشكل خاص.

والرؤساء الذين نجحت جهودهم لم يدركوا ذلك أبداً ، معتقدين أن رئيس الوزراء الايطالي ، يمتلك السلطة التنفيذية ، فكانوا يحاولون اجراء محادثات معه فارضين اتخاذ قرارات محدّدة. ولم يشجع أي من رؤساء الوزارات الايطالية ، الذين التقيتهم ، فكرة كهذه والتي حسب وجهة نظرهم ، لا يمكن أن تكون سوى محاولة خشنة من التزلّق أو برهان على الجهل . كانوا يعلمون أنهم يوجّهون ائتلافات متغيرة، وكان لهم الحق في ترؤس اجتماعات مجلس الوزراء،لإعطاء أوامر

أو قرارت تُلزمهم. كان يجب أن تتخذ القرارات بأتفاق الآراء، الأمر الذي يتضمن رضا عدة شخصيات لا تشغل حيّزاً في الحكومة. إن السياسية الداخلية تحتل المقام الأول في المحادثات التي تجري مع رؤساء الوزارات ووزراء الشؤون الخارجية. والوزارة الايطالية للشؤون الخارجية كانت تشمل على بعض السياسيين البارزين والفطنين جداً ممّن اجتمعت بهم، ولم يكن هناك ما يمنع احياناً من محادثة وزيرهم في الشؤون الدولية مع خشية ازعاجه.

كان هناك أسباب حقيقة تدفع إلى القلق على الوضع الداخلي الصعب الذي تقاسي منه ايطاليا. كانت الديمقراطية ـ المسيحية قد حكمت البلد دون انقطاع منذ نهاية الحرب، مما يدفعنا إلى القول بأنها لم تحل مشاكل ايطاليا الأساسية، وأن اللا أهلية انتشرت كثيراً و الفساد ساد في كل بلد، وفي الحقيقة لم يكن سوء جزء من هذا صحيحاً. ففي المجال الاقتصادي، كانت ايطاليا قد احرزت تقدماً مرموقاً. وخلال السنوات العشر التي انقظت، بلغ معدل النمو الوسطى في اقتصادها ياوي خمسة ونصف في المائة، ومثل أغلب البلدان، جلبت هذه التنمية تفككاً اظهر عدم ثبات الحكومة. وكان فلاحو جنوب ايطاليا فقراء جداً بصورة دائمة، والتقاليد والكنيسة كانتا مستندهما الاخلاقي الوحيد. لكن التنمية الاقتصادية نقلت هؤلاء الرجال و النساء إلى معامل البلاد الشمالية. واصبح مستندهم الاخلاقي الجديد بعد هذا الانقلاب الكلي هو : الحزب الشيوعي الذي كان يستقبلهم في أول مرحلة ويحمل لهم العون الذي كانوا بحاجته. وإذا بقى عدد المتخبين الشيوعين ثابتاً بالرغم من النمو الاقتصادي ـ هو لأنه كان يخالف أي نظرية حديثة ـ وكان يعتبره الكثيرون كفيلاً لأمنهم. لكن الحكومة كانت قد أهملته ولم تسمح له باجراء اتصالات مع الشعب وهذا دور له أهمية في ايطاليا.

وجاء التسلط الأمريكي فزاد المشكلة تعقيداً، لأن أمريكيين يفتشون دوماً على حلول ليضعوا عوضاً عنها تنظيمات جديدة حَكَمَ ايطاليا، خلال الجزء الأكبر من بعد الحرب، الائتلاف الديمقراطي ـ المسيحي والاحزاب اليمين واليسار المعتدلة. وكان الاشتراكيون الديمقراطيون يمثلون معظم الجناح اليساري، وتفردّوا بفرض كل التعاون مع الشيوعيين. وكان الشيوعيين يشكلون المعارضة في اليسار، ويساندهم اشتراكيو اليسار، وكانت مشكلة في اليمين من الملكيين والفاشيست.

عزمت الولايات المتحدة عام ١٩٦٣ مساندة ما دعوه نفتاحاً نحو اليسار، وهو مهيّأ لإقامة ائتلاف بين اشتراكي اليسار، والديمقراطية المسيحية، التي أقل ما يؤمل منها عزل الشيوعيين. ونتيجة للضغوط الصعبة التي مارسها الأمريكان على الايطاليين، تحقّق أخيراً هذا الائتلاف.

وبالرغم من إثبات وجود طيلة عشر سنوات، فان نتيجة هذا الائتلاف كانت عكس ما أمل تماماً. لأن الحزب الاشتراكي الديمقراطي وجد أنه لا يملك امكانية البقاء ضمن هذه الائتلاف الجديد والقيام بدوره كحزب يسار للمعارضة غير الشيوعية.

ومن انتخاب الى انتخاب، انتهى تدريجياً الى فقد أهميّته، فطالب الاشتراكيون لقبول الاشتراك بالحكومة إخراج الحزب الليبرالي، نصير المبادرة الحرّة، وهذا ما جرى فعلاً، وفشل هذا الأخير في جميع الانتخابات فيما بعد. ولم يغنم شيئاً اشتراكيو اليسار من اشتراكهم في الحكومة، لأنهم أكملوا تشكيل ائتلاف مع شيوعي الأقاليم في وقت الذي كانوا يحكمون فيه ايطاليا مع الديمقراطية و المسيحية.

فليس لحزب مثل هذا سوى الاندثار في المعارضة، لأنه غير مهيّأ للتخللا عن تعهداته هذه أو تلك، كما أنه غير قادر على معارضة شيوعي الأقاليم، ولا إعادة تشكيل الديمقراطية ـ المسيحية في ايطاليا. وهكذا فان حزب المعارضة الجديد ـ الانفتاح على اليسار ـ كان بعيداً عن إبعاد الشيوعيين، وبعد تعطيل الأحزاب الصغيرة الديمقراطية، حرمت هذه التجربة الجهاز السياسي الايطالي من كل ليونة. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، استفاد الشيوعيين من كل أزمات الحكومة. ولن يبقى مع الزمن لإيطاليا، سوى الخيار بين الديمقراطية _ المسيحية المضادة لكل تجديد، وبين التبدّل الراديكالي المضاد للديمقراطية، وهذا التطور التاريخي القلق لم يأخذ بالظهور سوى في اواخر الاعوام ١٩٦٠ .

وفي الواقع، لقد أكمل الوزراء تأكيد هم الصريح بمعاداتهم للشيوعية، لكن المعادلات الانتخابية كانت تكَذب وبنسب متفاوتة هذا الاعتقادات. وكل تبدّل سياسي سيكون خطراً ليس على سلطة الحزب الحاكم فحسب، بل على النظام الديمقراطي نفسه.

كانت روما العاصمة الوحيدة التي أحدث يها وصول نكسون مشاجرات وأحداثاً ذات مدى واسع. لم يعلن الشيوعيين علانية وجهاراً موقفهم من حلف شمال الأطلسي. (لكنّهم أقدموا على ذلك لما أصبحوا على أهبة الاشتراك بالحكم، الأمر الذي أعطى دفعاً قوياً في المجال التعبوي)

فأعلنوا عن ذلك منذ أن اتخذوا شعاراً لهم : يجب على حلف شمال الأطلسي مغادرة ايطاليا، كما يجب على ايطاليا نبذ حلف شمال الأطلسي.

وبالنسبة لنكسون فقد أعاد في جميع خطبه، المواضيع الأساسية التي تكلم عنها خلال المراحل الأخرى من سفره، أي : التزامه بأخذ رأي رؤساء الحكومات الصديقة حول كل المواضيع، ونيته في المباحثة بتعقّل حول العلاقات مع الاتحاد السوفييتي ورغبته في السلام.

نالت تصريحات نكسون رضا الحكام الايطاليين لكنهم جاؤوا بمبادرة ظهروا فيها وكأنهم من سكان كوكب آخر، فقالوا عن هذه التصريحات انها مفيدة لكنها خالية من مواضيع اهتماماتهم الخاصّة.

ثم جرت لقاءات غير محددة، و اشترط الرئيس جيوسيب ساراغات، عدم اشتراك وزرائه في المحادثات، عند اللقاء بالرئيس نكسون، لأنه يخشى ان يظهر أمامهم ما يوجس من خطر يهدده، عندما يفكر بالانتصار أصوات الشيوعيين. فكانت المحادثات خاصّة، ظهر سارغات خلالها حيوياً ومفكراً، ولما كان الدستور الايطالي لا يعطى الرئيس أية أمكانية لتعاطي الحياة السياسية، لذا كانت آراؤه دون اعتبار.

أقام سراغات حفل عشاء فاخر في قصر كيرينال، وبما أنه لم يكن يسمح باجراء محادثات رسمية، ولا يستطيع أحد قادة ايطاليا العديدين، الذين سيقومون بدور خطير خلال سنوات الحكم القادمة، ابداء رأيه في هذه المحادثات.

لذا فإن نكسون استقبل عدداً كبيراً منهم واحداً فواحداً في جناح صغير من القصر، بينما كان يدار كونياك لبقية المدعوين. فشاركت هذه المبادرة في تعقيد الأمور أكثر من حلها. إذ لم يكن لأحد من تلك الأحزاب المختلفة، منهج صريح، أو ماذا عليه أن يعمل منذ الآن، في حال وصوله الى الحكم، وهل كان منهجه نابعاً من اعتقاداته الشخصيّة أكثر من استناده على اتصالاته بالقوى المتجمّعه حوله.

والغريب ان ايطاليا لم تبتعد أبداً عن التقاليد نهضتها، وتتصرّف أحزابها في حاضرات _ حكومات تولّت الحكم في أكبر قسم من تاريخ ايطاليا. فكانت الديمقراطية المسيحسة تضم نابولي وفلورنسا وتتحاشى بمهارة اعطاء أي جواب، ولها دوماً اليد الطولى في التغلّب على

أعدائها وأضدادها مستخدمة نظريات مكيافيلّي الغريبة. وكان الشيوعيين في بيامونت التي تساندها موسكو. كما ان بيامونت التقليدية القديمة كانت تساندها فرنسا وأهلها ومن يساندهم: منتظمون ـ منطقيون ـ قساة القلوب.

وكان الحزب الجمهوري في حاضره حكومة متواضعة، مثل : مودين و عرف أن يتخلّص منها. بمهارة تفكيره. والاشتراكيون وحدهم كانت لديهم صعوبات، يطمحون الى تأسيس مباديء دولية وأوروبية تلك التي كانت لها جذور قليلة في تاريخ ايطاليا.

ظهر الكثير من هذه الرغبات، في اجتماع كبير احتفالي مع الحكومة حضره كل الوزراء تقريباً في فيلاّ: مادونا : قصر النهضة الفخم المشرف على روما. سبق هذا الاجتماع حديث خاص بين نكسون ورئيس الوزراء رومر، الذي لم يتمكن من المصارحة بشيء ولا إبداء أي رأي دون أخذ آراء وزرائه العديدين، الذين يشكل اللقاء بهم تجمعاً كبيراً، كما لا يمكن أن تجري فيه أية محادثه حول موضوع معين. وعلى كل حال فان نكسون يكره مثل هذا التحشد الكبير.

كان يهم الايطاليين انهاء حرب فيتنام، لحرمان الشيوعيين من أحد مواضيع دعاياتهم المحببة، وتشجيع انظمام بريطانيا العظمى الى السوق المشتركة، وإحداث توازن دي غولي، والمصالحة مع البلدان الشرقية، لأعطاء الحلف الأطلسي هدفاً جديداً.

قدّمت هذه الآراء على شكل نصائح لحليف يوثق به، ولم يرافقها أي رأي محدّد، وعند ذكر المسائل المتعلّقة بالدفاع، أصبح كل الوزراء الايطاليين خرساً.

# دي غــول ، الجبَّار

وكانت باريس، آخر مرحلة في رحلة مغامرة نيكسون، استقبلنا في المطار تلك الشخصية العظيمة ـ شارل دي غول ـ رئيس الجمهورية الخامسة الفرنسية، الذي كان ينصح بالسلطة. وبعد ذلك باربعة أسابيع توجه دي غول الي واشنطن للاشتراك في تشييع جثمان الرئيس ايزنهاور. وحضور الى واشنطن كاستقباله لنكسون في باريس فأصبح محط انظار جميع الحظور. ورؤساء حكومات آخر، والعديد من أعضاء مجالس الشيوخ الذين يتعرّضون عادة للقادة ذوي النفوذ، فأخذ هؤلاء يتحلّقون حوله وينظرون إليه وكأنه سبع، وأصبح لديهم انطباع، انه فيما اذا توجّه نحو نافذة، فإن باقي الشقة ينقلب ويتدحرج الباقون الى الحديقة.

أصبح دي غول اللسان الناطق للمجتمع الدولي وسيادة القارة الأوروبية أمام الولايات المتحدة. وكان يحمله المنطق الفرنسي مجدداً لتقديم أفكاره وجهاراً، وجرح الأمريكيين دون جدوى، وعدم الثقة المتبادلة التي كانت قد نشأت جعلت كل محادثة جادّة غير ممكنه بعد تسلّم حكومة نكسون السلطة. أمّا بالنسبة لرجال سياستنا أصبح دي غول موضوع طرد من المجتمع. وكانوا يؤكدون ان التهجّم الذي بادلهم يجب أن يعود عليه. وكان هذا خسارة كبرى، لأن دي غول كان قد أثار موضوعاً هاماً بالنسبة لطبيعة التعاون الدولي.

ان تحكم واشنطن بتنظيم يجعل كل عمل مادي منفرد غير ممكن، مشيرة الي ان كل شريك مسؤول عن جزء من المهمة الاجمالية المشتركة. أما دي غول فلن يتراجع عن مبدئه ويقول : لايمكن أن يكون التعاون مثمراً إلاّ إذا كان لكل شريك امكانية حقيقية للخيار، وعلى كل حليف، ولو نظرياً، أن يكون قادراً على التصرّف بصورة مستقلّة. لكن واشنطن منطلقة من فكرة تشابك المصالح العامة، تعتمد على التبادل الآراء لكي تزيل سوء التفاهم. ووجهة النظر الامريكية، أن يكون نفوذ كل شريك مقسماً حسب استطاعة كل بلد في المجهود العام، كما هي الحال في أسهم شركة مساهمة مغفّلة.

دي غول وهو وليد قارّة يعلوها الدمار، كان يثبت بطريقة مفحمة، عن قابلية الخطأ، في التقديرات البشرية، ولم يكن يقبل أن هذا النوع من التنظيم يتمكن من حل المشاكل. وبنظره،

أن ثقة أوروبا بنفسها لم تكن تتطلب فقط أخذ الرأي بل تتعلق كذلك بخيارات تبقى لها في حالة عدم الاتفاق. ومن هذا المنطق، وبينما كان الناطقون بلسان الامريكيين يشددون على المشاركة، كان دي غول يؤكد على التوازن. وبالنسبة له، فان العلاقات السلمية تتوقف على الادارة الشخصية الطيبة وعلى رغبة التعاون أكثر من تشديد الضغوط وتحديد روابط القوى وكان يؤكد ان «الرجل المحدود بطبيعته، هو الانسان بلا حدود في أمانيه». «فالعلم اذاً مليء بقوى متعارضة والحكمة الانسانية تتواصل غالباً لمنع المنازعات من التحول الى قتال مميت». وتنافس القوى شرط الحياة. بلدنا تجد نفسها اليوم في مواجهة قانون بشري كانت تسير بموجبه البلاد منذ ألفي عام. فنّ الحكم بنظر دي غول يقوم على فهم معنى التاريخ. ورجل السياسة الكبير يجب أن يكون ذكياً، لكن يجب أن يكون كذلك واضحاً وبعيد النظر. والعظمة بنظره أيضاً ليست فقط السلطة المادية، بل القوة التي يجلوها هدف أخلاقي. والتنافس لا يقود دائماُ الى نزاع مادي. بل بالعكس فإن دي غول كان يفكر أن مجتمعاً حقيقياً لا يمكن أن ينشأ إلاّ من عراك إرادات وهي الطريقة الوحيدة لكي يحافظ كل قسم منه على كبريائه. «نعم ان الحياة الدولية، عراك، كالحياة العادية، فالذي تسانده بلدنا يميل الى التوحيد لا الى التجزئة، الى الرفعة لا الى الذل، الى التحرير لا الى السيطرة». وهكذا تابع دعوته، التي كانت وستبقى دوماً إنسانية وشاملة، وبهذه الفلسفة، لم يكن ممكناً لدي غول ان يقبل الآراء التي يطرحها الأمريكان والتي توجد علب الشعوب ان تبقى كما كانت في الماضي. لم تكن المشكلة كما يعزم عدد كبير من نقادة الأمريكان، في أنه يريد إحياء المنازعات التقليدية بين شعوب أوروبا، بل بعكس ذلك كان يؤكد بشدّة ان غايته توحيد أوروبا. لكن الأمريكان والأوروبيين، المنادين بعملية التكامل، كانوا يؤكدون قطعاً ان الوحدة الأوروبية يجب ان تمّر في تنظيم جديد اتحادي عالمي يعّم الشعوب، أما دي غول فكان يؤكد أن الهوية الأوروبية وبالتالي وحدتها، تتعلقان بالحيوية والثقة بين شعوبها هي وكيانها القومي التقليدي.

كانت الدول بالنسبة لدي غول هي الأصل الوحيد والشرعي للسلطة، وهذه الدول وحدها كانت قادرة على مواجهة التزاماتها !... « حقيقي ان الوطن مبدأ إنساني، عاطفي، في حين أن بناء أوروبا يجب أن يستند على المبادئ ؟..حسناً !! إنها الدول، وليس غير الدول يصلح لهذا الشأن ويكون شرعياً وقادراً على تحقيق هذه المبادئ. لقد قلت وأعيد الآن، انه حتى الساعة الحاضرة، لايمكن أن يكون سوى أوروبا، أوروبا الدولية، طبعاً بعيدة عن الأساطير، والأوهام، والتمثيليات» . «وبالحقيقة، إنها الدول، الدول التي هي في الواقع، مختلفة جداً، الواحدة عن الأخرى، ولكن

واحدة نفسياً، تاريخها، ولغتها الخاصة، شقاؤها، أمجادها، وطموحاتها الخاصة، لكن هذه الدول هي الكيان الذي يملك حق الأمر والقدرة على أن يطاع».....

عندما رفض دي غول انضمام بريطانيا العظمى الى السوق المشتركة عام ١٩٦٣، أخذ التهجّم عليه في واشنطن صورة شخصية واضحة، وعندما انسحب عام ١٩٦٦ من القيادة العامة لحلف شمال الأطلسي، أخذ التهجم عليه طابعاً انتقامياً، وارتكزت سياستنا في أوروبا خلال الأعوام ١٩٦٠، وفي القسم الكبير منها حول التمكن من عزل فرنسا لتفكّر عن سلوكيتها، وكان ذلك دون جدوى، لأن بعض البلدان الأوروبية كانت تؤكد سياستها، والبعض الآخر كان أضعف من معارضتها.

وكما بيّنت، فاني لم أشارك مطلقاً بإدانة الجنرال دي غول، وكنت أظن والحق يقال أن سياستنا الأوروبية خلال الأعوام ١٩٦٠ كانت مرسومة عموماً بصورة مغلوطة. وكان لدي انطباع إننا لم نكن ندرك أبداً المشاكل البسيكولوجية لبلد مثل فرنسا، التي تخلّصت تواً من حربيين عالميّتين، وذاقت مرارة الهزيمة عام ١٩٤٠، ومرّت بحروب أهلية في الأعوام ١٩٥٨، ١٩٦٠، ١٩٦٢. وكانت أكبر أمنية لدي غول، أن يعيد لفرنسا ثقتها بنفسها. يكفي ان نشاهد ان بعد ثلاث سنوات من نهاية الحرب مع الجزائر ( التي كانت آثارها برأي أغلب المراقبين، ستضعف فرنسا خلال عشرات من السنين) وكان العالم كله يبدي تذمّره من رؤية فرنسا تسير في سياسة خارجية، أكثر شدة وأكثر جرأة مما كانت عليه إمكانيتها الحقيقية، لترى هي ان سياستها هذه قادرة على الوصول الى أكثر مما تؤمل. كنت على ثقة، أن مصلحتنا في رؤية أوروبا ساعية للقيام بدور دولي، ولو احتاجت للمساندة أحياناً، من أن نراها تقوم بدور سلبي متخليّة عن مسؤوليتها وعائدة الى القرارات الأمريكية، أضف إلى ذلك، فإن نظرة دي غول نحو التنظيمات العالمية لم تكن لتبدوا لي غريبة جداً. كانت بريطانيا العظمى من الرأي نفسه أيضاً، ورجال السياسة البريطانيون يظهرون عدم اتفاقهم على هذا المفارقات لأسباب أكثر واقعية وبطريقة أقل عقَديّة. ولم تكن لدينا أية غاية من التشبّث بأنظمة معدّة للحفاظ على سيطرتنا، طالما أن الأوروبيين حال تسلمهم زمام أمورهم، لديهم فرصة كبيرة سانحة للوصول إلى اتخاذ حلول قريبة جداً ممّا نبغي حول معظم الأمور التي تستدعى أمن منطقة الأطلسي. وكانت وجهة نظر نيكسون تتوافق مع وجهة نظري بالرغم من أنه يصرّح بها بطريقة أقل تجرّداً.

قبيل السفر و خلال زيارتنا لباريس، لم نترك فرصة لنظهر إننا عازمون على وضع حد لمشاحناتنا القديمة مع فرنسا. وفي الثامن والعشرين من شهر شباط، أعلنت ما يأتي في مؤتمر صحفي رسمي: « ان الرئيس معتقد تماماً انه من غير الجائز، للولايات المتحدة كما لفرنسا، الإبقاء على العلاقات سيئة، يمكن إزالتها. «أوضحت لنا كل البلدان التي زرناها وبصراحة انها لا تريد أبداً اجراء الخيار بين الولايات المتحدة وفرنسا... كما اعتقد أنّ علينا اعطاء الامكانية لكل بلد لإبداء رأيها في الواقع المنازعة، إذ لم نكن نحن على نزاع أساسي ثابت ودائم مع فرنسا...»،

وأبدى نيكسون اعجابه الشخصي بدي غول، خلال حفل عشاء فخم رسمي أقيم على شرفه في الإليزية. فوصف حياة دي غول «بملحمة شجاعة، ملحمة زعامة نادرة في التاريخ، هذه الزعامة التي اعادت الآن لهذه الأمة الكبيرة مكانها الحقيقي الذي تستحقه. وأبرز صور دي غول الشخصية قائلاُ : رئيس أصبح جبّاراً بين الرجال لشجاعته، وبعد نظره، وحكمته، التي يحتاجها عالمنا اليوم، لوضح حلول لمشاكل معقدة لا تزال تهمّة ! ردّ له دي غول الشكر على هذا الأنس العظيم المفهم بالاحترام، متقبلاً الدعوة الرمزية (وهذا نادر من جهته) بحضور العشاء الذي أقامه نيكسون في سفارة الولايات المتحدة.

تبادل نكسون ودي غول الحديث ولمدة طويلة ثلاث مرات. لم اشترك إلاّ بواحدة منها. وقرأت تفاصيل الأثنين الأخرين بفضل ترجماننا اللامع _ الجنرال فرنسون !. وولتز، كان دي غول يتكلم _ كما كتب ترجماننا _ بسيطرة تامّة على اللغة التي يدين لها بالقسم كبير من نفوذه، وسعة اطلاعه تاريخياً كانت تعطيه القوة لإظهار بعد نظره كرجل الدولة. كان موضوع الحديث الأول الذي جرى في الاليزية يدور حول علاقات الشرق بالغرب. تحدّث دي غول أيضاً عن الشعب الصيني، وصرّح عن وجوب منعه عن الانطواء على فظاظته. وألحّ على وضع حد لحرب فييتنام، وأشار علينا بتحديد تاريخ الانسحاب للوصول الى إتفاق سياسي، لكن بعد أن أجمل الهدف المبتغي، ولم يعطنا أي توضيح عن الطريقة التي يحسن أن نتصرّف بموجبها. وأرشدنا بجزم الى فرض حلّ لمشكلة الشرق الأوسط. كان يعتقد أن وسيلة الوصول الى هذا الحل هي عقد مؤتمر رباعي الاطراف. وعندما اقترح نيكسون اجراء مفوضات موازية بين الولايات المتحدة و الاتحاد السوفييتي أظهر عدم اكتراث عظيم كان يخفي وبلا جدوي تحفظاً قوياً . ولم يكن يريد أبداً أن يوضع موضع الامتحان حكماً ثنائياً امريكياً ـ سوفييتياً (ستبحث هذه القضيّة بأكثر تفصيلاً في الفصل العاشر المخصص للشرق الأوسط).

وفيما يخص الاتحاد السوفييتي، ألح دي غول على ضرورة ايجاد دفاع قومي ذي قدرة، مع الدفاع في الوقت نفسه عن سياسة الانفراج من خلال بيّنات تاريخية عامة، وأردف ان روسيا شئ والشيوعية شئ آخر. وتضاؤل تقدّم الشيوعيين، لا يعني هذا ان الخطر الشيوعي غير موجود، لكنه لا يستطيع بعد غزو العالم، لقد تأخر في ذلك، وتحرّكه فقد ديناميكيته. ان روسيا بلد عظيم فتاريخها الماضي طويل ، ومواردها الضخمة، وكبرياؤها، وطموحاتها ليست بالضرورة شيوعية، ولو ان الولايات المتحدة وأوروبا أقدمتا على الحد من قدراتهما الدفاعية، فإن القادة السوفييت سيسرّون بلا محالة وينقضون ربما على الغرب. وسيكون هذا اعلان حرب عامة وموسكو تعرف تماماً انها لا تتمكن من الظفر، كما أن الولايات المتحدة لا تقبل بإجتياح أوروبا لأن هذا يعني أيضاً غزو لآسيا وعزل الولايات المتحدة في أرض القارة الأمريكية. ستظفر موسكو دون شك بانتصارات أولية، لكن الولايات المتحدة ستتوصل أخيراً إلى استخدام كل قواها وتدمير روسيا.

أبان دي غول أيضاً، ان الصين خصوصاً هي التي تقلق القادة السوفييت. وكان ينظره الروس إلى علاقاتهم مع الغرب والولايات المتحدة من زاوية الصعوبات التي يتوقعون لقاءها مع بكين. وهكذا عندما يتأكدون بتعقل وتحفظ من وجود بعض الليونة من قبل الغربيين، يستطيعون السير في تنظيم سياسة تقرّب معهم، ليأمنوا عقد اتفاقات مع الصين من وراء ظهورهم. وكان دي غول على اقتناع أيضاً أنهم صادقون في رغبة الانفراج، وكان يعتقد بان هذا الانفراج يمكن أن يفيد الغرب من عدة نواحٍ . سيقدم هذا الانفراج نمواً في اللقاءات، والأسفار، والمبادلات الفكرية، والبضائع. أضف إلى ذلك فإن جو الانفراج : سيكون مفيداً حقاً للطموح إللى الحرية والكرامة التي لم تكن بعد قد ماتت في أوروبا الشرقية. عندما ترى الشعوب نفسها على حافّة الحرب، تتسارع دوماً لتثبيت نظام استبدادي، ولكن عندما تختفي الضغوط، فلا وجوب للإبقاء على ذلك النظام. وهل كانت تملك الخيار يوماً ؟ إذ لم ترد اعلان الحرب، ولا هدم جدار برلين، فلن يكون هناك حل آخر، أو على الأقل عدم القدرة على عمل أي شيء ، ويصبح الأمر أسوأ. كان دي غول يؤكد اذا على الاتصالات الأمريكية ـ السوفييتية، وهذا برأيه تطبيق لمبادئ نفذها، منبّهاً إيانا في الوقت نفسه حول أيّ تواطوء للإظرار بالقوتين الأعظمين. و عند توقيع اتفاقات يجب أن يكون للولايات المتحدة شركاء ، والاحتزاز من أن يدعوا بعضهم إلى «اتفاقات في يالطا» وبالاختصار فإن دفاعه لصالح الانفراج لم يشجّع على عقد اتفاقات ثنائية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وفي الغد جرى لقاء آخر بين نيكسون ودي غول في « غلراند تريانون Grand Trianon» في فرساي، تمكن فيه الجنرال ان يفصّل وبفصاحة العلاقات الاطلسية، وشرح

بصورة واضحة وضع أوروبا كما كان يراه : ايطاليا يغلق عليها البحر الأبيض المتوسط وتعزلها جبال الألب ، المانيا . أساس كل شقاء أوروبا . مجزءاة إلى اثنتين، ويحرسها معسكران، فرنسا، بلد برّي مع منفذ الى البحر، بريطانيا العظمى، مواجهة البحر، ومعدّة للاتجار مع الخارج. هذه البلدان الأربعة، هي وحدها كانت ذات أهمية حقيقية في أوروبا، وكانت أيضاً على أختلاف في لغتها، وعاداتها، وتاريخها ومصالحها أكثر مما هي عليه في وضعها الجغرافي، وكانت هي . وليس بعض آراء غامضة في الاندماج . تمثل حقيقة سياسة أوروبا، التي لم يكن لها معنى دون تلك الدول الأربعة.

وأشار دي غول أيضاً إلى ضرورة أن يعرف السوفييت : ان الولايات المتحدة ستكون إلى جانب حلفائها الأوروبيين في حالة هجوم. أما فيما يتعلق بحلف شمال الأطلسي وقيادته العامة فهذا شيء آخر . ولم يعترض على البلاد أخرى تظهر استعدادها لقبول الحماية الأمريكية. أما بالنسبة لفرنسا فإن اندماجها مع غيرها يوازي عدولها عن تأمين دفاعها عن نفسها. واذا أعلنت الحرب من قبل حلف شمال الأطلسي يفكر الفرنسيون أن هذه حرب أمريكية، لا حرب فرنيسة ـ وهذا يوصل إلى نهاية كل مجهود قومي وبالنتيجة لن يبقى لدى فرنسا سياسة مستقلة ـ وبعد أن تكون عزيمتها قد وهت، تعود سريعاً إلى حالة بلدٍ ممزّق بين ثلاثين حزباً. وهذا يعاكس رأي دي غول، الذي يرى أن بقاء فرنسا مستقلة يؤدي إلى خدمة كبرى للحلف الأطلسي .

كانت وجهات النظر هذه، مخالفة لتلك الأفكار السائدة في أمريكا بعه الحرب، لأنها صادرة عن بلد قديم أصبح متشككاً بسبب مغامرات مغلوطة، ويشعر حقاً في أنه إذا أراد تقديم النفع لغيره عليه هو أولاً تلمس طريق مستقبله الصحيح. ومع أن الجنرال يرفض اندماج القوى المسلحة، فهو يؤكد في الوقت نفسه على تنسيق السياسات الخارجية. كان لدينا في الماضي ميل لسلوك ممشى معاكس، لكن حكومة نيكسون تسعى الآن للحصول على التنسيق في الحالين.

وجرى لقاء ثالث في الاليزية، وكان قصير الأمد، فتناول مواضيع الفييتنام والصين والعلاقات الثنائية. وحول فييتنام، اعاد دي غول وجهات نظره التي كان تقدم بها خلال المقابلة الأولى، أما بالنسبة للصين، فأعود اليها في الفصل المخصّص لها. وفيما يتعلق بالقضايا الثنائية، أكد نيكسون وبصورة معقولة، عدموجود أية وسيلة لتسوية المشاحنات النظرية الموجودة ضمن

الحلف، مما يدعو بالنتيجة إلى التعاون في أمور واقعية تفيد جميع أعضاء حاف الأطلسي، الأمر الذي وافق عليه دي غول.

إذ استثنينا أوروبا، والقوّة التي كان دي غول، يطرح بها آراءه تمكنّا من القول، أن تصوراته لم تكن تختلف مبدئياً مع غيرها من افكار حكام أوروبا الغربيّة. إذ كان يطالب بدفاع قومي متين، شرطاً لبدء المفاوضات. ولم يكن يصّر دي غول على التوفيق بين تعارض المسؤولية وسياسة الدفاع و الانفراج السياسي دفعة واحدة، علماً أنه بقدر ما يتأكد الانفراج تقل حاجة الشعب إلى جيش قوي. ان الاختلاف الجوهري بين دي غول و أمثاله كان يتركز فعلاً في أنهم هم يبنون سياسة علاقاتهم بين الشرق والغرب على اعتبارات سياسية الداخلية، بينما أنه هو أي دي غول كان يستمد أفكاره من مُمُثل علينا تاريخية.

يسرني التمكن من القول أن أول لقاء لي مع دي غول كان على مستوى نفسه الذي كوّنته عن دوره التاريخي، وبكل صراحة كان هكذا. كان يعتبر الجنرال مساعدي الرئيس موظفين، لا يؤخذ رأيهم إلاّ للسماح لرؤسائهم بالجزم في بعض الأمور التقنيّة، أما بالنسبة له، فكان الأمر بعكس ذلك، إذ لم يكن لهم وجود لديه. في نهاية العشاء في الاليزية، وعندما كانوا يقدمون المشروب، جاء صاحب يعلمني ان دي غول يرغب في مقابلتي. ودون اضاعة الوقت في مجالات غير مجدية دخل حالاً في الصلب الموضوع وسألني :

«لماذا لا تنسحبون من فييتنام » ؟

- اجبته، ان الانسحاب يعرّض أهدافنا للخطر.

- وأين ذلك ؟ اراد أن يعرف الجنرال. فنوّهت بالشرق الأقصى.

«كم هذا غريب، أردف الجنرال : الذي كانت قامته العالية توحي إليّ أنه إنسان ساذج، واكنت أعتقد تماماً ان اعداءكم في الشرق الأوسط يؤلمهم ابقاء اهدافكم».

دعيت في اليوم التالي لتناول المقبلات مع الرئيسين. خطر لنيكسون على غير عادته، معرفة الفكرة التي كوّنها حول رؤية دي غول لأوروبا ، فأظهرت بلادة بالاجابة على هذا السؤال غريباي بالنسبة لدى غول فأبدى عدم الرضا من إجابتي ، وانتصب واقفاً بقامته التي ظهرت لي أكثر وقاراً ، فأردفت أنا : ان السؤال مذهل ، ولكني لا أعرف كيف يستطيع الرئيس ان يمنع ألمانيا من السيطرة على أوروبا التي بين وضعها . (وبعد أن تملكه ألم كبير من جراء غبائي ، ظهر لي أن

قامته كانت تنمو وهو يتأملني وأصبحت كأنها ارتفاع طبيعي لإحدى قمم جبال الألب المكسوة بالثلج بالنسبة لكومة تراب مبتذلة ، وأجاب بكل بساطة (بالحرب).

وتصدى دي غول لموضوع تاريخي ، وكأنه يعطيني فرصة معالجة موضوع حساس أمام استاذ ، فتساءل قائلاً : أريد أن أعرف ، أي سياسي من القرن التاسع عشر استطاع تكوين انطباع عنّي .

« فأجبت ، بسمارك » .

- ولماذا ؟

- بسبب الاعتدال الذي برهن عنه انتصاره في الحرب .

ولو توقفت عند هذا ، لكان كل شيء طبيعياً ، ولّما كفت مندفعاً مع المنزلق الخطر ، ولسوء حظي أكملت بصراحة : (انه لم يخدع سوى مرة واحدة عندما أذعن عام ١٨٧١ ، لفيلق دفاعه ، وحسب رغبة رئاسة أركانه ، في ضم الألزاس واللورين معاً ، ولقد اثبت دائماً انه حصل لألمانيا أكثر مما كان ينبغي ، فاختصر دي غول الحديث قائلاً : «اني سعيد في ان بسمارك لم يعمل كما كان ينوي ، وهذا أعطانا فرصة لاسترجاع كل شيء عام ١٩١٨» . ولا اعتقد اني أثرت كثيراً على رجل الدولة الفرنسية الكبير .

البقاء في باريس كان قمة أول سفر لنيكسون في أوروبا ، واستعاد طريقه نحو روما ، قبل العودة إلى الولايات المتحدة ، حيث أجرى محادثة قصيرة مع البابا حول نظرة الشيوعية الفلسفية وقلق خواطر الشباب.

عند وصولنا إلى قاعدة اندروز ، كان يظهر نيكسون ارتياحاً من زيارته لأوروبا . والموجز الذي تقدّم به لرؤساء الأغلبية والمعارضة البرلمانية . يشكل تقريراً صادقاً . إذ كان قد ذهب لإقامة علاقات ثقة مع الحكام الأوروبيين وقد نجح في ذلك ، ضمن الحدود الممكن اكمالها في سفرة واحدة . كان قد سعى لتحرير الولايات المتحدة من الأوروبية الداخلية ، فحقّق تقدماً في الحاليين ، وهدأ على قدر الامكان ، تصورات الأوروبيين حول موضوع تواطوء أمريكي . سوفييتي كانوا يحسبون حسابه . وحذرهم من أخطار الانفراج للإنفراج ، الذي يولد شعوراً مغلوطاً بالأمن . وأكد في الواقع على أعضاء حلف شمال الأطلسي بوجوب المساهمة المنصفة في نفقات الحلف الأطلسي ، وليتبنى فكرته في حقائق جديدة ، وقد اجتهد ان يوحي لأعضاء الحلف بكفرة تشاور جديدة بين الولايات المتحدة وحلفائها الأوروبيين .

ومن الثابت أن زيارة بسيطة من الرئيس أو تبادل وجهات النظر مع الحكام الأوروبيين لا تكفي للتغلب على روح المعارضة الكائنة في حلف الأطلسي، وبين الخوف من تسوية أمريكية ـ سوفييتية ، والرغبة في الانفراج ، وبين الاندفاع في تجهيز جيش قوي ، ومحاولة تكريس القوى العسكرية للبرامج الداخلية ، وبين الرغبة في رؤية الفرق الأمريكية باقية في أوروبا ، ومن خوف رؤية الدفاع عن أوروبا تقوم به قوى استراتيجية أمريكية ليست مشتركة في حلف شمال الأطلسي ، وكل هذه القضايا قد طُرحت ، وكان أمامنا مدة حكم رئاسي طويل لوضع حلول لها واعطاء الجواب عنها .

## انفراج العلاقات مع موسكو

## ولقاء مع اناتولي دوبر ينين

كانت سفارة الاتحاد السوفييتي في الولايات المتحدة مقراً فخماً ، عند بنائها في بداية هذا القرن . ولكن منذ زوال منتزهها ، أخذت البنايات العصرية المماثلة تنظر بعجرفة إلى هذا البناء المنخفض من الطراز الفكتوري ، الذي أصبح اليوم ذا هندسة عادية حرمته جماله ، مع الغابات الكثيفة من الهوائيات التي تثقل سطحه ، فيعرف الناظر إليه أن ملاك السفارة ، يتألم من برامج التلفزيون الأمريكي أو بتعبير أصح ، عند إصغائه وبذهول إلى محادثات الأمريكيين الهاتفية .

يمتد ممر طويل على طول مدخل السفارة ، ونجد هناك في نهايته ، رجل أمن سوفييتياً يحرس شاشات تلفزيونية بدائرة مغلقة ، ويتألف الطابق الأول من غرف كبيرة سقفها عالٍ ، تبعث رغبة في النفس قبل دهنها وتجديد زينتها ، عام ١٩٧٣ ، على شرف زيارة ليوند بريجنف . ومالكو هذا البناء القدماء «رأسماليون» كانوا يستخدمونه قاعات استقبال ، أما اليوم فهو لا يستخدم إلا لحفلات عشاء ، أو الاستقبالات الهامة .

دُعيت في الرابع عشر من شهر شباط ١٩٦٩ لأول استقبال رسمي في سفارة الاتحاد السوفييتي . وكان الاستقبال على شرف غيورغي اربا نوف ، مدير معهد الأبحاث السوفييتية ، وهو متخصص في دراسة الشؤون الأمريكية . وكنت قد التقيت هذا المدافع المتحمس عن سياسة الكرملين ، خلال عدة مؤتمرات دولية كانت تدور حول تحديد التسلح ، في الوقت الذي كنت لا أزال فيه أستاذاً .

كان يظهر اربانوف انه على اطلاع كبير عن أمريكا ، كما كان لبقاً في التوفيق بين نظرياته والأحوال الراهنة ، أضف إلى ذلك أنه كان يملك مهارة خاصة في اقناع فئة من المثقفين الأمريكيين الماسوشيين المتمكنين ، الذين كانوا يعتقدون وبصلابة كصلابة الحديد أن أيّة صعوبة تطرأ على العلاقات . الأمريكية السوفييتية . تكون بالضرورة صادرة عن غباء وعناد

الأمـريكيين . وكـان يثبـت بوضـوح أن رفـض الأمـريكيين ، كـان يـرغم الحكـام المسـالمين وحسـني النوايا في الكرملين ، بالتورط وعن غير قصد في نزاعات كانت تعاكس تماماً طباعهم الرقيقة .

كانت السفارة ذاك المساء ، تستقبل الفريق التقليدي ممن يُدعون إلى مثل هذا الاستقبال ومنهم : شخصيات رسمية من الطبقة الثانية ، وممثلي فريق التأثير ، وحالياً أعضاء في الكونغرس .

لم يكن الحفل بهيجاً حسب مستويات واشنطن . أما السفير اناتولي دوبرينين الذي كان قد أبل من نزلة وافدة ، فانه فضل البقاء في غرفته وكلف القائم بالأعمال : يوري تشير نياكوف ، باستقبال المدعون .

حييت اربانوف ، ثم اندمجت مع الجمع . و فيما كنت استعد للخروج استدعى انتباهي موضف سوفييتي ، سألني عمّا إذا كنت استطيع محادثة السفير.

و كان هذا أول لقاء ، فاستقبلني دوبرينين مرتدياً مبذله ، في الغرفة الثانية من شقته الصغيرة ، التي كانت أصلاً معدّة لتكون طابقاً لغرف النوم . والقاعتان المتوسطتان كانتا متصلتين ببعضهما ، وكان تأثيثهما متساوياً ، على طراز ثقيل من أوروبا الوسطى . فذكرني كل هذا بشبابي في المانيا .

استقبلني دوبرينين مبتسماً ، وكان متنسماً وواثقاً بنفسه وكان يعرف جيداً الموظفين الأمريكان من الطبقة العليا ، بعد أن عاشر عدداً منهم وخالطهم واختبرهم . ونظراً لتعاوننا في المستقبل ألحّ ان نتنادى اسمياً : فأصبح منذ ذلك الحين «اناتول» وأصبحت أنا «هنري» أو بالأفضل «كنري» لأن لفظ «هـ» غير موجود في اللغة الروسية .

وأسرّ لي انه عائد من الاتحاد السوفييتي حيث تعرض لصدمة قاسية بدخوله إلى إحدى المؤسسات التي كان يرتادها أيضاً : بريجنيف . كوسيغين وبودغورني ، وصدمته في عدم تأكده هل كانوا وإياه هناك ، أم أنه رآهم في الكرملين ، ثم أعلمني أنه يحمل رسالة من رؤسائه إلى الرئيس الجديد وعليه أن يوصلها هو بالذات .

ثم بين لي أنه في منصبه في واشنطن منذ عام ١٩٦٢ وكان شاهداً على عدّة أزمات . وقد نجح دائماً في ان يكون عند حسن ظن الموظفين الكبار ويرجو ان يبقى كذلك مع أعضاء الحكومة الجديدة بالرغم من تقلب العلاقات الرسمية . وهو يعتقد أن هناك أخطاء في تصريف الشؤون السوفييتية الأمريكية ، لا سيما بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٦٣ . وقد أدار مصلحة الشؤون الأمريكية في وزارة الشؤون الخارجية السوفيتية طيلة هذه الفترة ، ويؤكد ان كروتشيف كان يرغب دائماً وبصدق التقرب من الولايات المتحدة ، وإذ لم تكن هناك امكانية من الاستفادة من فرص الماضي ، يجب الاستفادة من الفرص الحالية عند سنوحها.

اجبت دوبرينين ان نيكسون وحكومته لاهم لهم سوى تلطيف الأجواء بين بلدينا ، إذا كانت لدى موسكو رغبة صادقة في ذلك .

اننا نعتقد ان تعكير الأجواء ، لا ينتج عن سوء التفاهم، بل عن المشاكل الحقيقية التي يجب البدء بحلّها إذا أردنا السير باتجاه تقريب صحيح . وأضفت: إذا حسبنا السنوات من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٣ نجدها طويلة وفرصها السانحة قد ولت ، وهذا ما يدعو إلى دهشة الشعب الأمريكي .

ألم يصدر في هذه المدّة : الانذار النهائي حول برلين، وموقف كروتشيف القاسي نحو كنيدي في فيينا، وأزمة الصورايخ في كوبا، وعدم التقيّد الأحادي الجانب من قبل السوفييت حول فوائد تأخير التجارب النووية ؟.

فاذا كان حكام السوفييت يرغبون في الوصول إلى تسوية مع الحكومة الجديدة الأمريكية بالعودة إلى مثل هذه الأزمات، فان النزاع يتزايد و تفوقنا «المناسبات».

فأبتسم دوبرينين وعرف أن الأمريكان لم يكونوا المسؤولين الوحيدين عن أخطاء الماضي:

ووعدته في الوقت نفسه أن أحصل له خلال زمن قصير على لقاء مع نيكسون.

## المعظلة الفلسفية الخالـــدة

## لعـــلاقـــات

## الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة

ان المسائل السياسية الخارجية القليلة التي عكّرت جوّ جلستنا الأمريكية، وبعثت فينا بعض تخيّلات تقليدية، لم تشغل بالنا أكثر من العلاقات مع الاتحاد السوفييتي. ان ماضينا لم يُتح لنا الاستعداد الحسن لمناظرات دائمة مع خصم صلب لدود. كما اننا لم نجابه حتى ذلك الحين شعوباً قوية إلاّ في حقب قصيرة وخطيرة.

ان العداء الذي أظهره الاتحاد السوفييتي بعد عام ١٩٤٥ أدهشنا أكثر بكثير من التحالف الكبير الذي أوجد خلال الحرب، وجعلنا نأمل في سلم دائم، يضمنه ائتلاف دائم وثابت بين الغالبين. وبدل ذلك وجدنا أنفسنا في عالم تتقاذفه المنازعات السياسية والاقتتال الايديولوجي، مع تهديد بأسلحة تهديمية تخلق جوّ ضغوط معقده يتعزّز حلّها. ولا مجال للتعجب من ان قضية العلاقات مع قوّة عظمى نووية تصبح نقطة الارتكاز الأساسية في الاهتمامات السياسية الأجنبية فيما بعد الحرب.

وما يدعوا للدهشة هو أننا كنا نظن اننا قادرون على التحصّن وراء سياستنا التقليدية الانعزالية. وحربان عالميتان كانتا قد أنهيتا تنظيماً دولياً سيطر على الشؤون العالمية طيلة قرنين. وكانت المانيا و اليابان قد انقطعتا وقتياً عن القايم بدولا أولي. وكانت الحرب الأهلية قد دمّرت الصين، وكل الدول الكبيرة الأجنبية الأخرى، باستثناء العظمى، كانت محتلة سواء خلال الحرب أو بعدها. وامتحنت بريطانيا العظمى كثيراً بمعركتها البطولية، حتى أنها لم تكن أبداً على المستوى القيام بدورها التقليدي كحارسة للتوازن العالمي. ومع ذلك عند تسريحنا جيوشنا المسلّحة بعد الانتصار ببضعة شهور، كنّا راغبين جداً في دوام هذا السلام. وكان هدف سياستنا الحصول عن طريق الأمم المتحدة بالإضافة إلى نزع التسلح على اتفاق وتعاون شاملين. وكانت أمنيتنا الخاصة في السنوات الأولى فيما بعد الحرب القيام بدور أسند بعدئذ لنهرو، رئيس

الوزراء الهند. وكنا نريد ان بلداً آخر، كبريطانيا العظمى مثلاً، يقوم بالمحافظة على توازن القوى. وفيما كنّا نحن نهتم بتسوية الخلافات مع الاتحاد السوفييتي، ومن خلال هذه الزاوية، رفض الرئيس ترومان من التوقف في بريطانيا العظمى سواء بالذهاب أو الإياب، عند ذهابه لحضور مؤتمر بوتسدام، إذ لم يكن يرغب في إعطاء انطباع اننا نتآمر ضد حليفنا السوفييتي، وفي الواقع، ام معارضتنا المعروفة ضد سياسة توازن القوى منعتنا ان نفهم في حينه ان انتصارنا خلق فقدان توازن هاماً في القوى والنفوذ ضمن أوروبا. وتسريح الجيش الأمريكي سبّب انفراجاً لدى السوفييت، وساهم في تعجيل بسط النفوذ الشيوعي على أوروبا الشرقية وخلق جوّ من الخوف وعدم الطمأنينة في كل البلاد المجاورة للاتحاد السوفييتي، الأمر الذي لم يكن يؤمّله ستالين نفسه.

وفي عام ١٩٤٧، وضعت بريطانيا العظمى حداً لعدم مبالاتنا، حين أعلمتنا انها لن تتمكن بعد من الدفاع عن اليونان وتركيا، فأجبرنا ان نأخذ على أنفسنا وليس وحدنا أمن قوميتها وسلامة أراضيها. وطوعاً أو كرهاً كان يهمنا من الآن فصاعداً الحفاظ على توازن القوى، ولم نكن على استعداد لذلك.

خلال الحربين العالميتين الأولى و الثانية، كنا نفكر دائماً ان الغلبة مرادفة للسلام، وفي أخطر أزمات عام ١٩٤٧، كنا نتابع اعتقادنا، أن المحافظة على التوازن، تقوم على معالجة الانقلابات الوقتية لبعض الأنظمة. وكنا نعتبر القوة بمعناها العسكري، وبعد تدمير القوى المسلّحة الهامّة التي فرضتها الحرب، كنا نشعر بالحاجة إلى استعادة هذه القوّة قبل البدء بمفاوضات حقيقية مع الاتحاد السوفييتي. وإذا توصلنا مرّة إلى قهر نشاطات الاتحاد السوفييتي المستمرة، فان الدبلوماسيّة المؤسسة على التفاهم والارادة الحسنة لابد أن تأخذ دورها مجدداً.

لكن المحافظة على التوازن القوى هي مهمّة موضوع بحث دائم، ولن تكون بجهد منفرد يمكن توقّع نتيجته. وهي بمعنى أوسع ظاهرة بسيكولوجية : عندما تكون قوّتان واثقتين بتساويهما فلن تتجابها. يجب أن نحسب حساب القوة الكامنة أكثر من القوة الحقيقية، وليس في امتلاك القوة فقط، بل للعزم على استخدامها. ان المحافظة على التوازن مهمّة تستدعي في الحقيقة : المثابرة والدقّة، والكثير من الشجاعة، وخصوصاً إلى الفهم الحقيقي لشروط المحافظة عليها.

وكما بيّنت في الفصل الثالث : اننا كنا قد آثرنا سياسة التريّث : فلم نكن قادرين على البدء بأية مفاوضات مجدية مع الاتحاد السوفييتي قبل تجهيز كامل قواتنا. وكنا نأمل في غضون ذلك ان الحكام السوفييت سيقدّرون السلام حقّ قدره. وبشكل متناقض فان لهذه السياسة ثلاثة وجوه من الضعف : اعتبار التقدم الحربي في الولايات المتحدة _ وامتهان قوتنا الكامنة مؤهلتنا البسكيلوجية (دون التحدث عن استئثارنا النووي) وأن نعطى للاتحاد السوفييتي الفرصة التي هو بأشد الحاجة إليها لتثبيت أوضاعه وتعزيز التاعون النووي.

ولقد أوضحت كذلك تطور فكرة القوة المرتبطة بظهور الاسلحة النووية، وهذا بالحقيقة الأمر مخيف ولايمكن استخدامها في عدد كبير من الحالات مثل : التمرد _ وحرب العصابات، أو الأزمات المحلية. ان ضعف سياسة «الهجوم المضاد» التي نادى بها دالاس في الأعوام ١٩٥٠ (مع أننا كنا نحتفظ بحق قهر كل عصيان محلي ملتجئين الى التهديد بحرب استيراتيجية) فلم تكن هذه السياسة هي التي أوصلتنا الى الحروب نووية، لكنها في حالة الأزمات لم تترك لنا سوى الخيار بين حرب نووية أو عدم الانحياز. فخترنا الحل الثاني (أو كما جرى في لبنان عام ١٩٥٨، في استخدام الأسلحة التقليدية، التي كانت تخالف سياستنا).

ومن خلال هذه القرائن، حاولت الولايات المتحدة مهاجمة أساس التنظيم السوفييتي نفسه.

والايديولوجية الشيوعية هي نصل حربة السياسية الأجنبية التي يستخدمها الاتحاد السوفييتي، في قلب العلاقات بين الدول الى منازعات وتناقضات بين سياستين مختلفتين.

وليست هذه عقيدة سياسية فحسب بل هي أيضاً تاريخية وحافز قوي بدءاً من لينين الى بريجنيف (ومن يعقبهما) مروراً بستالين وخروتشيف. ان الزعماء السوفييت ركّزوا دوماً سياستهم على المطابعة بمعرفة خبيئة التاريخ، وعلى الاعتقاد ان مطالباتهم هذه ضرورة تاريخية ملحّة. وتعلّمهم ايديولوجيتهم ان تنافس الطبقات والحتمية الاقتصادية تقتضي حدوث ثورات. والنزاع الذي يعارض الثورة أو يكون ضدّها لايمكن معالجته. وبالنسبة للديمقراطيات الصناعية، يظهر السلام وكأنه حالة يمكن الوصول اليها بصورة طبيعية، تحددّها التسويات وعدم الاقتتال. والأمر مختلف وبصورة عكسية في نظر الحكام السوفييت، فالتسويات لا توصل الى السلام، بل غلبة أحد المتخاصمين هي التي تضع حداً للاقتتال. والسلام الدائم بموجب الايديولوجية الشيوعية لا يحصل عليه إلاّ بانهاء الاقتتال بين الطبقات و الانتصار الشيوعي وحدة يتمكن من وضع حد

لاقتتال الطبقات. وكل فعل يقدم عليه السوفييت وان كان حربياً فهو في مصلحة السلام، ويعتبرون ان كل سياسة رأسمالية، ولو كانت للمصالحة، فانها في مصلحة الحرب.

عودة بنا الى إحدى ملاحضات لينين : «طالما ان التناقض الأساسي بين الرأسمالية والشيوعية قائم، فان الحرب ستدوم وبشراسة، والعاطفية في الحرب هي بمثابة جريمة تحت عنوان الجبن». فلا يجب ان نتعجب والحالة هذه ، عندما نشاهد الحكام السوفييت لا يرون سوى الخداع أو الغباء، والدعاية أو الجهل، في تصريحات الحكام أو المختصين في البلاد الغربية، عندما يؤكدون وبوضوح عن وجود المبادرة الطيبة والنية الحسنة.

ان السياسة السوفييتية لها أسلوبها الخاص. ففي عام ١٩٣٩، اعتقد الروس ان عصبة الأمم هي التي عرّضت السلام للخطر بتهجمها على غزو الاتحاد السوفييتي لأراضي فنلندا، وفي الوقت الذي كانت فيه الدبابات السوفييتية تقتل المجريّين في خريف عام ١٩٥٦، اعترضت موسكو على الأمم المتحدة لتهديدها السلام بمجرّد انتقادها تدخل روسيا المسلّح. وفي عام ١٩٦٨ حين غزو تشيكوسلوفاكيا من قبل الروس وحلفائهم من حلف وارسو. واعترضت الولايات المتحدة والمانيا الغربية وحلف شمال الأطلسي على تدخلها، مع ان البلدان الغربية، امتنعت بالطبع من التدخل في سياسة تشيكوسلوفاكيا. وفي عام ١٩٧٨، طلب الروس من الولايات المتحدة عدم التدخل في ايران، ليس خوفاً من هذا التدخل، بل بلعكس لأن روسيا كانت تعرف ان مثل هذا لن يجري، وكانت هذه الطريقة الوحيدة لديها في ابعاد كل من يريد احباط هذه الثورة. وهذا لايبعث أي شعور بالريبة والاثم لدى الحكومة السوفييتية. لانها تحاول دائماً تحاشي مجابهة اية معارضة على المستوى القومي تعرّض أعمالها للانتقاد. ان السياسة الأجنبية تستعد وتترقب للاستفادة من أي ضعف واغتنام أية مناسبة فتطبّق مبداءها حتى النهاية، سياسة تحدّدها قبل كل شيء ظروف خارجية . يجب ان يصغى الى تصريحات الروس السلمية بكثير من عدم الثقة، ربما تكون صادقة، لكن لأسباب معينة، وعندما يكون هناك خطر حرب نووية فالاتحاد السوفييتي صادق بكل تأكيد، لأن ليس لدى حكامه أية نية بأن يسعوا بأنفسهم الى الانتحار. في الواقع، ان هذه التصريحات لا تعنى المبادئ بالنسبة للسوفييت بقدر ما هي رأي تكون بموجبه نسبة القوة غير متكافئة بالاضافة الى ضغوط عسكرية. وحتى في حملات السوفييت السلمية القوية فان حكامهم لم يخفوا نياتهم عن اكمال مسيرتهم في القتال الايديولوجي. وفي تقريره لمؤتمر الحزب الشيوعي، عندما كان خروتشيف يشرح كيفية انظمامه الى التعايش، أوضح ان استراتيجيته مذهب تعبوي يدعوا الرأسمالية الى الاستلام بلامقاومة».

انقلاب قاسٍ للدكتاتورية والبورجوازية ... لا محالة واقع في عدد من البلدان الرأسمالية، لكن الثورة الاشتراكية تتمكن من الظهور بعدة أوضاع ... وحدة النضال، واستخدام الشدّة حين الحاجة، للسير نحو الاشتراكية، تتعلّق جميعها بدرجة مقاومة المستثمرين.

مسيرة التاريخ لن تتأثر بأية تسوية. وتلتحم النظرية الماركسية مع تقدم روسيا القومي لتجعل الاتحاد السوفييتي الى جانب كل الحركات اليسارية المناهضة للغرب في البلدان العالم الثالث دون الأخذ بالحسبان التسويات الفعلية المتفق عليها بين الشرق والغرب والخاصة بالمشاكل النووية. وفي آخر آذار من عام ١٩٧١، صرّح ليونيد بريجنيف في المؤتمر الرابع والعشرين للحزب قائلاً :

اننا نعلن : انه مهما تتابعت نشاطات سياسة المسالمة والصداقة بين الشعوب، فان الاتحاد السوفييتي سيكمل مقاومته وبعناد ضد الامبرالية، ويرفض بقوّة جميع المخططات وتهجمات الأعداء الماكرة. وسنتابع كما في الماضي المساندة الدائمة لنضال الشعوب في سبيل الديمقراطية، والاستقلال القومي والاشتراكية.

وكان زميله رئيس مجلس السوفييت الأعلى : نيكولاي بودغورني، يعلن في تشرين الثاني من عام ١٩٧٣:

لن يوجد عالم عدل وديمقراطية، بالنسبة للشعب السوفييتي، دون تحرير الشعوب القومي والاشتراكي. أمّا بالنسبة للسياسة الأجنبية فان كفاح ونضال الاتحاد السوفييتي لإزالة الضغوط الدولية، و التعايش السلمي بين الدول و المذاهب الأخرى، لا يعني ولن يعني أبداً في أية حال العدول عن مبادئنا في استمرارية الصراع الطبقي. ويشمل الكفاح الدولي السياسة الداخلية والأنظمة الاشتراكية في البلاد، مخالفاً أهم مادة في القانون الدولي بعدم التدخل بالشؤون الداخلية لدولة أخرى. وطيلة القرون الماطية حين كانت الحكومات الأخرى الأوروبية مسيطرة على العالم، فان أي بلد لم تكن تقدر على توسيع دائرة نفوذها إلاّ بضم أراضٍ من دولة أخرى. وكان هذا يتطلب أعمالاً حربية تؤدي الى المقاومة شاملة من البلاد الراغبة في اجتناب انقلاب نظام حكم قائم. ومنذ الحرب يمكن ترجيح ميزان القوى بأجراء تمرد أو ثورة أو انقلاب في أراضي التي يحكم أصحابها بلاداً أخرى. و هذه الايديولوجية إذاً هي التي تعرّض للخطر استمرارية التنظيم الدولي. وكذلك فان التمردات النابوليونية بعد الثورة الفرنسية والحروب

الدينية هي التي دمرت أوروبا طيلة قرون. تتجاوز الايديولوجية الحدود، وتتهرب من الحركات القسرية وتحتقر التساهل والمصالحة.

ان سياسة الاتحاد السوفييتي، بكل تأكيد وريثة القومية الروسية القديمة التقليدية. وسياية الامبراطورية الروسية الغربية، تجاوزت وعلى مرور الزمن دوقيّة موسكوفيا وامتدت شرقاً وغرباً، مانحة نفسها سهولاً مترامية الأطراف، دون أيّ عائق جغرافي، ان لم يكن بعد المسافات، ولم تكن قادرة على كبح طموح الانسان، مطوّعة من يعاندها ومستولية على من يستسلم لها. أغرت هذه الأرض الشاسعة طبعاً المعتدين، لكنها أتت عليهم وابتلعتهم كلهم، يساعدها في ذلك وبصورة حتمية قسوة مناخها، والشعب الروسي الذي ذاق مرارة الأوضاع، توصل الى اعتبار، ان ركيزة الأمن بالنسبة له هي في طرد جميع جيرانه،وربما كانت قلة الاطمئنان أحد الأسباب، أو أي شعور بالذل، هما اللذان دفعا بالحكام الروس الشيوعيين أو القياصرة بتأمين الأمن ليس فقط ببعد المسافة لكن بالسيطرة. فلم يكونوا يعتقدون يوماً بالوصول الى وفاق حتى بمستوى بسيط من الشعوب الأخرى. وفي الوقع فأن أمن روسيا المنتسب كان يعنى أمناً دائماً للشعوب المجاورة. كان هذا المبدأ الشيوعية اللينينية، حتى انها ولأول مرة في تاريخ روسيا، كانت تعطي للميل التوسيعي اطاراً معنوياً، يمكن تطبيقه في المستوى العالمي. وبهذا كانت تخفف عن كاهل الشعب الروسي وتحلّ مشاكل جميع الشعوب.

القومية والايديولوجية هما التحدد الحقيقي للسياسة السوفييتية وهذا يجعل دون جدوى، كل الاحتمالات الغرب الذين يتساءلون عن سلوكية الاتحاد السوفييتي المهددة بمجابهة عامة أو بالعكس، اذا كانت هذه السلوكية تدعوا الى حالة ركود. وهذه الأسئلة تعود لتطرح نفسها باستمرار : إلى أي مدى يريد الاتحاد السوفييتي أن يصل ؟ وما هي نوايا حكامه الحقيقية ؟ ان هذه الأسئلة ربما لا تبدو حسنة، لأنها تقدرّ ان الجواب مخبوء في أعماق دماغ الحكام السوفييت، أو كأن بريجنيف مثلاً، يستطيع اعطاءَها إياه، إذ أوقظ في منتصف الليل أو فوجئ في لحظة غير منتظرة. و عندما نركّز السؤال عن الأهداف السريّة للاتحاد السوفييتي، تأخذ الديمقراطيات، بالتردد وتظهر مندهشة أمام كل فعل جديد جغرافي سياسي من قبل الاتحاد السوفييتي، في حين انها تكون مهمة بين بعضها بالتساؤل بمعرفة قيمة الأرض موضوع البحث فيما اذا كانت ذات أهمية استيراتيجية. أو إذ كان هذا العمل يظهر تصلباً من قبل روسيا ان الحكام الروس لايفكرون هكذا. وتعبويتهم التي برهنت عن نفسها في الماضي تقوم الآن بخلق تعب تدريجي لأضدادهم بضمّ بعض الاراضي قليلاً فقليلاً، لا بالتسلّط دفعة واحدة على خريطة الأرض.

كتب لينين : «قبول القتال، عندما تكون الرصاصة وبكل تأكيد في معسكر العدو جريمة» لكن القضية أكثر إجراماً عند عدم الانظام الى نزاع عند امتلاك كافة الامكانيات. يتخذ الحكام السوفييت تعبويتهم تبعاً لتأكدهم من التقرير الموضوعي عن القوى المؤكدة لديهم ولو كانت ماركسية للتمكن من المجابهة الحقيقية.

ويغدو نافعاً بالنتيجة اعتبار السياسة السوفييتية انتهازية وبلا رحمة. ولم تكرّس أملاً ولو صغيراً، لبحث المبادئ الجديدة والحسنة الصادرة عن الغرب. ان جو الهدوء الغريب الذي وجد خلال الحرب العالمية الثانية، كُرّس دون تردّد من قبل الاتحاد السوفييتي للاستفادة من اقامة تحصينات في أوروبا الشرقية. ومؤتمر قمة جنيف عام١٩٥٥ استعمل لتقوية بسط نفوذ الاتحاد السوفييتي على المانيا الشرقية وفتح الباب لتزويد مصر بالأسلحة السوفييتية، التي قادت حتماً، أو قُل سهلت حدوث اضطرابات في الشرق الأوسط لمدة عشرين عاماً. وفي عام ١٩٦٢، عندما أظهرت الحكومات الأمريكية الجديدة رغبتها الشبيهة بالرجاء حول تحسين جديد في العلاقات الأمريكية السوفييتية، كان جواب روسيا : انذاراً حول قضية برلين، وأزمة الصواريخ في كوبا. وفي عامي ١٩٧٥، ١٩٧٦ ان منظور التوقيع المتوقّع لمعاهدة حول تحديد التسلّح الاستيراتيجي ( سالت SALET) لم يمنع ارسال فرق كوبية إلى أنغولا، يساندها بذلك الاتحاد السوفييتي. و في عام ١٩٧٧ عندما استلمت السلطة حكومة امريكية جديدة راغبة في إعادة الانفراج الدولي ، لم تنجح في ترجيح كفّة الميزان نحو عدم الانحياز السوفييتي، لأن أثيوبيا كانت تقدم في ذلك الوقت على حرب بشخص مسخر. وفي كل خياراتهم السياسية، أظهر الحكام السوفييت، ان كافة مصالحهم كانت تتعلق لابحسن ارادة البلد التي تفرضا سياستها وكأنها تعارضهم بحق، ولكن بموجب تصورهم للانتهازية الاستراتيجية. ونرتكب خطأ في تفسير التاريخ، ان ننتظر من الحكام السوفييت الانقطاع عن استخدام الظروف التي يرونها مؤاتية. ومسؤولية البلدان الغريبة تقوم وبصورة أساسية اذاً على منع هذه المناسبات. وعلينا وحدنا فقط وضع حدّ لأهداف الاتحاد السوفييتي.

نستطيع الوصول الى هذه الغاية، فالتكتل المدهش لدى الدول الشيوعية يخبأ غالباً ضعفاً كامناً. فالتنظيم السوفييتي غير مستقر سياسياً. ولا يمتلك أية آلية تعاقب. ومن الأمناء العامين الأربعة للحزب الشيوعي، مات إثنان إبان الحكم، وأقيل الثلاث بطرق شبيهة بالانقلاب، و بالنسبة للرابع فان نصيبه مجهول حتى كتابة مذكراتي هذه، علماً أنه لا يوجد أي اجراء لتبديل شرعي، فالحكام يبقون في وظائفم حتى سن متقدمة والجاهزية البيروقراطية وتعقّد الادارة الجماعية،

تجعل الاتحاد السوفييتي يظهر غير متفهم موضوع السياسة الأجنبية ولا يستطيع أبداً التصرّف بسرعة حيال أحداث تطرأ فجأة.

وبالنسبة لتنظيمه الاقتصادي، فليس لديه ما يلفت النظر. أليس غريباً ان مستوى المعيشة في بلد غني في موارده وهو في أوج قمّة اقتصاده، أن يكون هذا المستوى أقل في البلاد المجاورة له في أوروبا الشرقية، وبعد تسلّم الشيوعية بستّين عاماً ؟ ومع الزمن فأن عدم تأثير هذا لا بدّ وأن يسبّب انقسامات بين التجمعات ذات المصالح المتعارضة : سيطلب كل منها نصيباً أوفر من الموارد التي هي حالياً وعلى أوسع مدى مخصّصة للاستعدادات الحربية. ومن الممكن أيضاً ان الحزب الشيوعي ذاته سيظلم نفسه يوماً الى المعارضة ويرى وحدته تنهار. ان التنظيم التخطيط المطلق يخلق بين الادارات المتنافسة الأكثر تأثيراً نزاعات لم يستطع الحكام الأكبر سنّاً في المكتب السياسي من حلّها. وأحد مشاهد التناقض في الدول الشيوعية المتقدمة هو وبكل تأكيد : ان الحزب الشيوعي يبدوا كأي وظيفة خاصة بالرغم من تغلغله في كافة مستويات المجتمع. ليس له تدخل في التقدم الاقتصادي، أو الدولة، أو الادارة، ولكنّه يجسّد تنظيماً اجتماعياً للامتيازات. و تقوم وظيفته بأن يكون يقظاً تجاه المعارظين سواء كانوا سوفييتياً أم أجانب، الأمر الذي يخلق بصورة أكيدة جوّاً دائماً من الضغوط. فآجلاً أو عاجلاً، فان هذه الوظيفة الخاصة الطفيلية، ستؤدي أيضاً الى انقسامات داخلية في البلاد، طالما ان هذا البلد يضم قوميات متعددة.

يكون على جانب كبير من الخطأ من يعتقد متوهماً بتقدم محتوم للاتحاد السوفييتي مصمّم بعناية، من قبل مختصّين بعلم التخطيط. فتركيز التعايش على التوازن القوى يجب ان يكون في جانبنا، شريطة معرفة طبيعة التحدّي، الذي لا تقبله الديمقراطية بصورة حسنة. والنظريات المهيمنة على البلاد الغربيّة الخاصّة بالاتحاد السوفييتي هي دائماً ذاتها، وإليك تعريفها :

أولاً : أهداف هذا البلد في تغيّر دائم، ويتجه حكامهُ نحو تحسين وضع بلادهم الاقتصادي قبل الاستعانة بالأجنبي.

ثانياً : تلطيف الجو وتحسين العلاقات الشخصيّة مع الحكام السوفييت سيسمح بتخفيف عدائهم.

ثالثاً : ولما كان الكرملين موزعاً بين «صقور» و «حمائم» وجب على الديمقراطيات الغربيّة تقوية وضع الحمائم متبنيّة سياسة المصالحة.

وفي الحقيقة، ما دام هناك ممثلوا بلاد غير شيوعية. يمانعون في تحديد نهاية ضغوطها وأخطار الحرب الباردة فهذا مؤلم جداً. و المؤرخ الأمريكي اللامع، ميشيل فلورنسكي، كان يصرّح في الثلاثينات من هذا القرن:

ان الأنصار القدماء غير الملتزمين للثورة العالمية، أبدلوا سيوفهم بأدوات آلية، واعتمدوا حالياً وبشكل كبير على نتيجة عملهم أكثر من العمل المباشر لإدراك نصر البروليتاريا النهائي.

وفي الثلاثينات أيضاً : كانت الحريات الديمقراطية المضمونة في الدستور السوفييتي تثير إعجاب أوروبا والولايات المتحدة، في حين أن الفوضى تضاعفت في هذا العهد، وكانت الدعوة الى التطهير تسخر من كل مبادئ العدالة وأصبح الاتحاد السوفييتي أول أكبر البلدان في محاولة التقرّب من هتلر !!

وفي عام ١٩٤٣، حينما دمّر ستالين الكومنترن، صرّح تومكونلّلي، عضو مجلس شيوخ من تكساس المعروف بعدائه للشيوعية : «منذ سنوات عدّة، غيّر الروس اقتصادهم، وأخذوا يسيرون نحو التخلّي عن الشيوعية. وليس على العالم الغربي سوى تهنئة نفسه بالنهاية السعيدة لجهوده» وسومر ويللّز، معاون وزير الشؤون الخارجية، كان يكتب من جهته : « في نهاية الحرب الحاليّة، يجب على الحكومة السوفييتية، وبكل تأكيد، تخصيص عدة سنوات لإعادة تنظيم وبناء مدنها وأراضيها المدمّرة. ولإعادة تصنيع وتحسين مستوى معيشة سكانها».

و النظرية التي يفضّل بموجبها الاتحاد السوفييتي تحسين اقتصاده لا تزال قائمة : وتعود الديمقراطيات الغربية الى تجربتها الخاصّة، معتقدة ان تنمية بلد اقتصادياً يمكنها تخفيف كبت شعبه. ويكون تحقيق النمو الاقتصادي هدفاً أكثر حكمة من الالتجاء الى الأجنبي. وفي عام١٩٥٩ كتب فيريل هاريمان : « أعتقد ان السيد خروتشيف يرغب من أعماقه تحسين معيشة مواطنيه وبرأيي يعتبر المستوى الحالي لسبع سنوات كتتويج للثورة الشيوعية وكمنعطف تاريخي في حياة السوفييتين. وكان يعتقد ان هذه الطريقة تجعل منه المحسن الأكبر لبلاده في نظر التاريخ» . وخيبات الأمل المرّة التي تبعت ذلك لم تمكّنه من تحقيق هدفه .

وفي شباط عام ١٩٦٤،عندما كان دين راسك في وظيفته وزير الشؤون الخارجية والذي يمكن اتهامة ببعض التهاون نحو الاتحاد السوفييتي كان يؤكد وبكل ثقة : يظهر ان الشيوعيين أخذوا

يدركون وجود بون شاسع بين ترقية الشيوعية العالمية بالقوّة و بين حاجات الاتحاد السوفييتي ومواطنيه .

ان قمع الانتفاضات في المانيا الشرقية والمجر، والمجابهات المختلفة حول قضية برلين و أزمة صواريخ كوبا، وغزو تشيكوسلوفاكيا، وارسال معدّات ضخمة الى فييتنام الشمالية، وتفاقم التوتّر في الشرق الأوسط،و المحاولات الدائمة لإثارة الأزمات في الدول الأفريقية، فإن أية واحدة من هذه الأعمال لم تنزع الاعتقاد العميق من عدد كبير من الأشخاص، أكثر من انقلاب مُداهم باتجاه معاكس، وهذا ما يفضل الروس تبنّيه لنمو اقتصادهم أكثر من الاتجاء للأجنبي. و من المؤكد ان هذه الفرضية الأخيرة كانت صعبة التحقيق لأن الديمقراطيات الغربية لم تجبر أبداً الاتحاد السوفييتي لاجراء خيار. وبالحقيقة فانها قد تابعت منحه قروضاً ولم تقطع المتاجرة معه، حتى في أقوى حالات عدوانه.

وكذلك قد ظُنّ دائماً ان الكرملين كان دوماً نهباً لنزاعات كانت فيها امريكا ملزمة بمساندة الفريق السلمي، واضعة في المقدمة سياسة المصالحة. وأكثر من هذا فإن الدول الغربية كانت تسعى دوماً لإيجاد الأعذار للحكام السوفييت، وكان المكلّف بالمهمّة يعتبر دائماً زعيم الفريق « الليبرالي » وأيضاً «جوزيف ستالين». والمثل الأكثر اقناعاً لوضع البلاد الغربية هو و بدون أدنى شك، ما كتب عام ١٩٤٥ والذي نستطيع اثبات كامل تهكمة حالياً : وهو ان هنري هوبكنز، مستشار البيت الأبيض، كان يصرّح للكاتب المسرحي روبيرت شيروود عند انفضاض مؤتمر يالطا بما يلي:

« أظهر الروس أنهم قادرون على السير بحكمة وتعقّل، ولم يخالج الشك أبداً بال الرئيس أو بال أحد منّا في امكانية العيش معهم بوفاق، ودون مشاكل. وأضيف أننا في الوقت ذاته، كنّا في اعماق نفوسنا متحفظين، لأننا لا نستطيع استباق ما سوف تكشف عنه الأحداث بعد وفاة استالين. وكانت ثقتنا وطيدة أن من يأتي سيكون ربّما منصفاً، عاقلاً، مدركاً. ولكن يصعب علينا نعرف منذ الآن، هل يقوم من يتآمر، أو تكون لديه القدرة على حبك الدسائس من وراء ظهره في الكرملين؟ ...

« ويعتقد سياسيو البلاد الغربية ان بقاء النظام الليبرالي لنكيتا س . خروتشيف، منوط باللقاء الذي سيجري هذا العام بين السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفييتي وحكام الغرب. كما قرأنا في صحيفة نيويورك تايمس الصادرة في الخامس من آيّار عام ١٩٥٨ . و تبيّنت صحّة

هذا الانطباع، عنده ذهاب خروتشيف الى واشنطن عام . ١٩٥٩ . إذ انه حاول تلطيف التوازن الاستراتيجي، وإزالة كارثة أو شكت على الوقوع إبان أزمة صورايخ كوبا. ويعتقد خبراء واشنطن أنه تعرّض لأعضاء الكرملين المتصلبين، وبيّن أن على الولايات المتحدة إبداء كل تفهم له ومنحة مساندتها وإلاّ فان الفريق المعارض سيتغلّب عليه. كان هؤلاء الخبراء يجهلون أن خروتشيف نفسه هو الذي أكد على إرسال الصواريخ الى كوبا وأنه ملوم لفشله. وهناك دليل معقول : عندما نوضح وبإلحاح اخطار التهوّر السوفييتي، نقوّي رغبات الكرملين المعتدلة، أكثر من اعطاء انطباع حول الخطوات الهامشية الظاهرية التي لا تجدي شيئاً.

ان النظرية التي على امريكا محاولة اتخاذ قرار بموجبها حول المشاحنات بين أعضاء الكرملين، هذه النظرية تثبت أن التوتّر يأتّي من سوء تفاهم لا تستطيع إزالته دماثه وصداقه. مضى على ذلك سنتان أو أكثر، وبعد استيلاء على السلطة نتيجة العهود بإنقاص النفوذ الشيوعي، فقد نظمت حكومة ايزينهاور لقاء قمّة مع السوفييت، فاستقبل تدّخل الرئيس وكأنه بادرة عهد الجديد. وكتبت نيويورك هيرالد تريبون في الحادي والعشرين من شهر تموز لعام ١٩٥٥ مايلي : ما من أحد يبخس قيمة التغيّر الطارىء على الوضع الروسي، وخلال ذلك لم يكن شئ ممكناً ... والرئيس ايزنهاور أدرك ذلك حالاً، فما ستلم زمام المبادرة وحوله لصالح السلم العالمي. ونشرت صحيفة «لايف» بتاريخ الأول من شهر آب عام ١٩٥٥ : « إن النتائج الرئيسية لمؤتمر جنيف كانت جد بسيطة ومدهشة في آن واحد، إذ ان المتصلفين والصوريين يعترضون عليها ولأسباب أخرى يعسر على الأمريكان فهمها. وبنسبة الأوروبيين : « لم تعد موسكو بطل السلام بل واشنطن ». وفي الواقع فإن العالم يتساءل كيف أن بلداً قلب أوربا الشرقية وجعل منها توابع تدور في فلكه، ونظم حصار برلين، وأخمد ثورة المانيا الشرقية، يستحق ان يحمل لقب المدافع عن السلام. لكن الأعوام ١٩٥٠ كانت نادرة الوجود، إذ كان يعتقد ان السلام يرتكز على حسن تفاهم رؤساء الدول. ونجد برهان ذلك في التصريحات التي أطلقها هارولد ماكميلان، وزير الشؤون الخارجية آنذاك، لدى الانتهاء من مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية في عام ١٩٥٥. بعكس ما ورد عن مؤتمر القمة السابق الذي حقّق فيه السوفييت هدفهمفي تهدئة التوتر الدولي. ونظراً لأعتبارات عامة، فقد انتهى هذا اللقاء الى مأزق : « ويمكن التساؤل، لما أيقظ هذا اللقاء (القمة) كثيراً من الآمال و التصورات في العالم كله، مع أن المحادثات أظهرت فائدة لاتذكر... ولم تنتهِ الى أي اتفاق هام، وفي الواقع لم يُبحث فيها أي أمر خاص. وبالمقابل، فان العالم بكامله تأثر بجو الصداقة الذي كان يهيمن على حكام الكتلتين الكبيرتين. تلاقى هؤلاء الرجال

المثقلة كواهلهم بالمسؤوليات العظام، وتباحثوا ومزحوا بين بعضهم وكأنهم بشر عاديون. وطيف مؤتمر جنيف دلّ حقيقة على العودة إلى علاقات إنسانية عادية.

وسنة بعد ذلك ، كان الحكام السوفييت أنفسهم يخمدون عصيان دولة المجر . ويهددون فرنسا وبريطانيا العظمى بحرب نووية بمناسبة أزمة الشرق الأوسط ، فتفهمت الولايات المتحدة وحلفاؤها أبعاد ما يحدث . و مع ذلك ، بعد عشر سنوات بين الرئيس جونسون في خطبة موجزة عن أمله في أن خلف خروتشيف سيحضر الى الولايات المتحدة للحد من أخطار سوء التفاهم الشخصي :

(إذا أردنا تثبيت السلام ، علينا أن نعرف نفوسنا أكثر ) وأنا على ثقة أن الامريكان سيكونون سعداء لدى سماعهم الحكام السوفييت يتكلمون في التلفزيون كما أحب . وفي المقابل عندما يتمكن الروس من سماع اعضاء حكومتنا يوجهون كلامهم إلى التلفزيون السوفييتي .

أرجو ان يتمكن حكام الاتحاد السوفييتي الجدد من المجيء الى أمريكا ، لكي يأتلفوا بسرعة مع بلدنا .

اعترف الغرب بالاخفاق تجاه وضع السوفييت الغامض ، ليس فقط مريدين أن يكونوا أكثر تساهلاً بل ليظهروا فرط رغبتهم في ذلك ، كل عشر سنوات كانت الليونة تعوى إلى فشل سياسة المصالحة ، وكانت تعود وبصورة طبيعية إلى تصريحات حربية ، والسبب الوحيد في ذلك هو خشية انهدام الحواجز من مناداتنا بعدائنا للشيوعية . في حين ان البعض كانوا على اعتقاد ان النظام السوفييتي على أبواب تغيير شامل ، وكان يؤكد البعض الآخر ان الروس لم يغيروا شيئاً من مبادئهم ، فَهُمْ أول من أظهر نفسه في التاريخ صامداً أمام كل تغيير . والذين كانوا ينكرون على الأمريكان عنادهم . كانوا على نقيض الذين لا يرون فائدة من الانسحاب عن توقيع اتفاق مع الاتحاد السوفييتي . وحتى عندما يريد السوفييت عقد اتفاق كان يعتبر ذلك دليلاً على عدم الرضى . وكان تفكيرنا بالحقيقة خاطئاً في امكانية وضع حد لتوتر دولي سواء بيقظتنا أو عنادنا . وكان لدينا الميل إلى النسيان وبطريقة سهلة بأن كان علينا معالجة مبدأ معاد ايديولوجياً بقبول مصالحة سريعة ، وأيضاً معالجة موضوع بلد قدير عسكرياً واستحالة تهديمه ، فكان

يجب منعه من انتهازاية مناسبة استراتيجية ، كما كان علينا في الوقت نفسه ان نثق على أحكامنا حول عقد اتفاق معه . وتفهم ضرورة تعايش مبني على تنازلات متبادلة .

خلال السنوات العشر التي سبقت دخولي في الحكومة كنت دائماً أعارض هاتين الفكرتين اللتين هيمنتا على الحكومات بعد الحرب :

«البلدان الغربية حذرة جداً من نوايا السوفييت، فهي في مأمن عند احلال الانفراج وقلقة في فترة الأزمات. إذا كانت لهجة الحكام السوفييت مهدئة، يعتقد الغربيون ان السلام قد حلّ ! ! وإذا كانت تلك اللهجة معادية، فيتخيلون أننا على أبواب فترة توتّر ويفكرون في نشر قواتهم الدولية. ليس الغرب على مستوى تصرّف سريع حيال أي تغيير في توجيه سياسة الاتحاد السوفييتي، و هو غير مهيأ أيضاً للانفراج كما للصمود.»

ان حيوية براهينهم لم تكشف أحيانا لمؤيدي ومضادي المفاوضات أنهم متفقون، سياسياً، ويجب أن نعرف أن اتفاقاً ثابتاً يتطلب تغيير النظام السوفييتي. اذ كانوا يسمحون لأنفسهم أن سياسة البلاد الغربية يجب أن تؤثر على سياسة الاتحاد السوفييتي. وفي الواقع كانوا متمكنين تماماً من عقد الاتفاق مع البلاد الشيوعيية ... ولقاء ذلك كان يعترضهم تحديد الزمن. مغتابو المفاوضات كانوا يطلبون تغيير وضع السوفييت في المستقبل، في حين أن المؤيدين كانوا يؤكدون ان هذا قد حصل فعلاً.

«وهكذا فإن الخلاف كان يدور حول مبدأ المفاوضات بالذات لا على فحواها. وفجأة همد نشاطات المحادثات حول تغييرات داخلية في الاتحاد السوفييتي، في حين أن اهدافنا الحقيقية بقيت ثابتة. وهذا ما أدّى بنا إلى بدء محادثات رغبة منا في المفاوضات، التي لا يداخلها الريب، والتي غيّرت رأينا حول اعداد برنامج حقيقي، الذي هو وحده، يعطي معنى للمفاوضات .».

وهكذا عند استلام حكومة نيكسون الحكم، كان يسود توتّر سياسي فكان الاتحاد السوفييتي قد اجتاح تشيكوسلوفاكيا وكانت ترسل مزيداً من الأسلحة إلى فييتنام الشمالية، ولولا عونها لهانوي، كانت نتيجة المفاوضات وبلا شك حسنة. ولم تظهر كذلك اهتماماً كبيراً لوضع حلّ لنزاع الشرق الأوسط أضف إلى ذلك فإن الاتحاد السوفييتي كان يملك في هذة الفترة أسلحة استراتيجية بقدر ما كانت تملك الولايات المتحدة. إن تفوّق الأمريكان الحاسم إبان بعد الحرب أتى إلى نهاية عام ١٩٦٧ عندما وضع حداً أعلى لألف قذيفة عابرة القارات : «مينتيمان

للغواصات «Polaris بولاريس» وستمائة وست و خمسين قذيفة صاروخية «minuteman» و اربع و خمسين قذيفة صاروخية عابرة القارات « تيتان titan » . ومنذ عام ١٩٦٩ كان من الطبيعي ان عدد القذائف الصاروخية القادرة على بلوغ الولايات المتحدة توازي في مدة قريبة ما لدى الأمريكان والمصنوعة للإنتقام من الاتحاد السوفييتي. وحتى ان قذائف الاتحاد السوفييتي كادت تتقدم على تلك، إذا بقي التصنيع الروسي على ما هو عليه خلال اعوام السبعينات.

كان على الحكومة الجديدة محاولة وضع حلول لسلسلة من المتناقضات. وبالرغم ممّا يقال عن قوة الاتحاد السوفييتي، المتعاظمة، والايديولوجية الشيوعية، وامتداد النفوذ الروسي، والتدخل السوفييتي، فلا يمكن لأي عضو من اعضاء الحكومة إلاّ ان يتأثر بجملة السلام دون سابق استعداد. وأية فكرة برفض الحرب لا يسمح للمرء أن ينسى مخزون الاسلحة النووية الموجود و الكافي لإخفاء آثار البشرية على الأرض وإفنائها. و مهما كانت عدم ثقتنا بالاتحاد السوفييتي فلا نستطيع من ذلك السير في سياستنا التقليدية لتوازن القوى والمناداة بمجابهة التغلّب على الأزمات. كان من الواجب قبل كل شيء تجنب حرب نووية. ومع ذلك لم تكن قضية العواطف هذه تستغل دفعة واحدة، مواطنينا والحكام الشوعيين، مولدة الخوف والفزع للأولين وحاثّة الآخرين على اعتبار المفوضات مناسبة متوقّعة في ترك المجال حراً للمناورات السياسية. وسيرى مواطنونا وحلفاؤنا ثبات موقفنا شريطة عدم اثارتنا للأزمات. ولكي نوطّد السلام في المستوى العالمي، يجب علينا ألاّ نخفي ان النزاع الايديولوجي والجغرافي السياسي سيدوم عدّة أجيال، أكثر من الرفض بالمساهمة الفعلية بدفاعنا التعبوي والاستراتيجي خوفاً من أن نكون غير مرغوبين شعباً. وفي حين أن الحرب كانت على اشدّها في آسيا. فان المهمة لن تكون سهلة بالنسبة للديمقراطية.

إن التزام الأعضاء الحكومة بالسلام والحرية لا يُقاس بنبرات تصريحاتهم، وعلينا اظهار ارتباطنا بتمسكنا بالدفاع عن قيمنا، وإقامة جو ملطّف في الوقت نفسه يسمح بتوطيد الأمن إلى مدى طويل. وكان علينا أن نشعر الشعب الأمريكي ان عليه الآن تحمل مسئولياته بدلاً من الظن ان الخلافات أو أن عدونا سيزولان يوماً. لن يكون هذا الوضع مقبولاً أو مفرحاً لاسيما لدى شعب كشعبنا نافذ الصبر. لكن الأجيال المستقبلة ستحكم علينا من خلال العالم الذي نخلفه لها، عالم أكثر ثقة، حيث يسود سلام صحيح، موطداً ثقة وأمل سكان العالم الحر .

# ملاحظاتي خــلال فتــرة الانتقال

الكرملين مرتاب من الحكومة الجديدة الأمريكية. والادارة تخشى ما ليس بالحسبان، ويعمل القادة السوفييت في وسط عنيد من البيروقراطية ودقيق جداً. ويتكيّفون تماماً مع جوّ من الثقة دائمة، ويقلقون من التغييرات مفاجئة تزعزع الثقة التي أناطها زملاؤهم بمحاكماتهم العقلية واقتدارهم على الأحداث. كنا نظن في فتؤة تسلّم الحكومة الجديدة السلطة، انه من العبث محاولة تهدئة هذا الزعم بالتصدي لها بأخلاقياتنا العامة، لأن تكوين وإيديولوجية القادة السوفييت لم يكن يُعدّهم لذلك. ولا يسهو عن بالنا أن مصلحتهم الخاصة هي فوق كل شيء. ومن خلال هذه الشروط، ليس عجيباً، ان قادة بلدان الغرب ممن هم أكثر تساهلاً تجاه أمثالهم من السوفييت يحصلون على النتائج الدنيا في علاقاتهم مع الاتحاد السوفييتي و البلدان الاخرى. و الحكومة السوفييتية التي تتبجّح بتفّهم أكثر للأهداف الأساسية للتحركات السياسية لا تقبل باعتبارات وقتية تتحكم في تخليط طريقها. وهكذا فإن جهود حكومة كيندي المستمرة بقيت دون جدوى، حتى عودة التوازن البسيكولوجي، أولاً بتنمية قوتنا العسكرية الأمريكية على أثر توتّر مورس ضد برليسن، وثانياً أثناء أزمة صواريخ كوبا. وبعد ذلك تمت نجاحات أخرى.

وبالمقابل كان الكرملين يعتبر نيكسون عدواً لدوداً للشيوعيين، لكنه لايقبل أبداً أن يطغى النفور الشخصي على مصلحة السوفييت العامة. وبعد كل هذا ، ألم يحاول ستالين التقرب من هتلر بعد بضعة أسابيع من الوصول النازيين إلى الحكم ؟.

وبالرغم من عدم الثقة المتبادلة، فإن العلاقات بين كرملين وحكومة نيكسون كانت أكثر اتّزاناً من قبل، ولم يكن لها مزيّة الجنون الدوري في آمال متلاحقة ومن ثم خائبة. وبعد أن عرف كل من بريجينيف ونيكسون مصالحهما المتبادلة توصلاً نهائياً إلى « طريقة تعايش Modus Vivendi » وكان نيكسون قد تردّد إلى الاتحاد السوفييتي خلال مدة عمله، وعندما كان نائب رئيس، إذ اجرى « محادثة مشهورة مع خروتشيف في المطبخ ». كان نيكسون يحترم جداً واجبات وظيفة أكثر من المرشحين الآخرين في الانتخابات الرئاسية الاخيرة. وكان يخشى السوفييت من أن يطرح الرئيس الجديد برامج تسليح أخرى، الأمر الذي يعود على اقتصادهم بالضرر. وكانت

موسكو تسعى لمعرفة ثمن تجنّب هذه الحادثة المتوقعة، مظهرة نفسها اكثر صلابة أمام التهديدات مستعينة بتعبئتها العادية : في منع الشعب الأمريكي من مساندة هذه السياسة.

ان الجو السلمي الذي هيمن على العلاقات الشرق والغرب، خلال بعض الوقت لم يكن وليد الصدف، إذ كرّس له الرئيس الجديد الكثير من وقته قبل استلامه الحكم. فكنا نقضي كلانا ساعات بكاملها لتوطيد استيراتيجيتنا. وكان لدى نيكسون خبرة في الأمور السياسية أكثر مني، لاسيما وأنه بنى شهرته على عداء مرير للشيوعية، وصل أحياناً إلى العنف. كان يرغب في المحافظة على مساندة انتخابه في الجو المحافظ تقليدياً. وكان يعتبر أن شهرته في قوّة ارادته، هي المؤهل الأعظم في حسن ادارة سياستنا. وكان على اعتقاد تام أنه كرئيس يجب عليه تقديم بعض التساهلات للنواب ذوي الاتجاه المعتدل. وبتنمية العلاقات بين الشرق والغرب، كان يرجو تثبيت تفوّقه الجديد إلى مدى طويل. ويحاول تخطيط خبراته الوثيقة على محاكمات شخصية جداً. ويخشى ان قمة غلاسبورو تكون مسبباً لإعادة نفوذ جونسون معتقداً إذاً ان السوفييت قد اتفقوا مع الديمقراطيين لإفشاله في الانتخابات. متأكداً في الوقت نفسه كيف أن نتائج المؤتمر ستكون كافية لإفقاد جونسون شعبية بأسرع مّما حصل عليها. فعزم على تأجيل موعد القمّة حتى يظهر فيه بمظهر لائق. وكما بينت ذلك بشكل واضح فيما سبق، بأن طريقتي في مواجهة المشاكل كانت متطابقة في جوهرها أكثر مما هي نظرية، بسبب من تقدمني من الجامعيين. وفي الثاني عشر من كانون الأول لعام ١٩٦٨، طلب الى الرئيس المنتخب ابلاغ الحكومة الجديدة اتجاهاتنا بالنسبة لسياستنا الخارجية. فبينت لزملائي الجدد أن لدى انطباعاً، أن سياسة الاتحاد السوفييتي الخارجية هي في اتجاهين : محاولات مسالمة مع الغرب ناشئة ٣عن رغبة ملحة في الحصول على ثروات استهلاكية، والخوف من اندلاع حرب، وربما أن هذين الاتجاهين ينبعثان أيضاً ممن كانوا يرحبون فتوراً في التوتر الدولي. وفي الوقت نفسه كانت تمارس ضغوط لمتابعو مجابهة الولايات المتحدة، وهذه مجتمعة كانت نتيجة تطبيق الايديولوجية الشيوعية. وعدم الثقة بالقادة، ومن جهاز الحزب، ومن الجيش وممن كانوا يخشون أن المهادنة تدفع وبكل تأكيد البلاد التي تدور في فلكنا الى المحاولة قطع علاقاتها مع موسكو مرة أخرى. ومنذ غزو تشيكوسلوفاكيا في آب، كانت سياسة موسكو الخارجية موجهة نحو المشكلتين التاليتين : كيفية تهدئة الانفعال الذي أحدثه غزو تشيكوسلوفاكيا في العالم الشيوعي، وكيفية تحديد آثاره لاسيما على العلاقات مع الولايات المتحدة

و السبب الأخير كان السوفييت يحافظون على ابقاء مفاوضات «سالت salet » ممكنه. ربما كانت هذه الطريقة خاصة لاستعادة بعض الكرامة، أو مناورة بقصد تحطيم الحلف مع خشية الوصول الى اقامة اتفاق ثنائي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وكان الروس يأخذون في الحسبان أن توازناً استراتيجياً ثابتاً سيصبح لازماً، لذا فهم عازمون على ايقاف مسيرة التسلح وابقائها في مستواها الحالي ـ وردّ فعلنا كان يتوقف على طريقنا في مواجهة هذه القضيّة ت ـ تركزّت سياستنا في الماضي على انشاء جوّ من الثقة، لإننا كنا نعتقد أنه بمقدار ما تتوطد الثقة بمقدار ذلك سيزول التوتّر. ولكنا لو اعتبرنا ان هذا التوتّر ناشي عن الاختلاف على قضايا جوهرية، فإن طريقة معالجة المشكلة تبدأ بمحاولة تقليل هذه الاختلافات. وفعلاً كان يتوقف السلام الدائم على تنظيم السياسات المختلفة المتعارضة في القوتين النوويتين الأعلمين.

وفي الواقع، وانطلاقاً من هذا المبدأ تقريباً خاطبت ممثل الاتحاد السوفييتي الدائم. في الثامن عشر من كانون الأول عندما التقيت في فندق بيير « بوريس سيدوف، عضو K.G.B » المعين مستشاراً للسفارة، وبيّنت له ان الرئيس النمتخب كان جاداً عندما تكلم عن عهد جديد للمفاوضات، وعلى كرملين ان يثق باستعداد الحكومة الأمريكية لعقد اتفاقات دائمة مرتكزة على مصالح جوهرية . واعتقد أننا اعطينا أهمية كبرى للتفاصيل لا للأسس. وبرأي حكومتنا الأمريكية الجديدة ان هناك اختلافات عميقة موجودة بين بلدينا. ويجب تقليلها إذا أريد الوصول الى هدوء في التوتّر الدولي. وأطلعته على رغبتنا في المفوضات حول تحديد التسلح الاستراتيجي. لكننا لا نريد الاخذ بمحادثات دون تقرير نتائجها. وسنحكم كذلك على نوايا السوفييت من خلال انفتاح سياستهم الخارجية، لاسيما في نظرتهم للشرق الأوسط وفييتنام. وكنا نعتمد على حسن نيتهم في مناطق الأزمات ( وكان المقصود بذلك مبدأ Linkage الشهير ) ـ « ومعنى Lien=Linkage ارتباط وترابط » ، أحد النقاط الهامة في فلسفة كينسنجر السياسية ـ وكنت أرجوا ان سيدوف سيقوم بعرض هذه الاعتبارات في موسكو.

كان جواب موسكو مشجعاً، ففي الرسالة التي حملها إليّ سيدوف في الثاني عشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٩، كان يشير السوفييت إلى انهم لا يشاركون « بالرأي المتشائم » الذي حسب قولهم كان متغلّباً « في أقسام شتّى من العالم » على الرئيس المنتخب. ان اهتمام موسكو الرئيسي لم يكن ماضي موسكو، لكن فهمها للحقائق، ونزع السلاح له الأهمية العظمىّ. ان الزعماء السوفييت يدركون ان تسوية قضيّة فييتنام، والحل السياسي للنزاع في الشرق الأوسط،

وطريقة صحيحة في مجابهة القضايا الأوروبية عموماً والالمانية خصوصاً، ستحسن علاقتنا. وكان الكرملين يشدّد على «مصالح معيّنة» له في أوروبا الشرقية.

حدّد الفريقان إذاً اتجاهاتهما الهامة. وكانت الحكومة الأمريكية تتكل على اهتمام الروس بنيّتا في دفع الكرملين للمشاركة في محادثات فييتنام. واكدّنا بالنتيجة على المعالجة السريعة لجميع المشاكل. والقادة السوفييت الذين كانوا يخشون فوق ذلك نتائج سباق جديد للتسلح على اقتصادهم، كانوا يريدون اعطاء الأفضلية لتحديد التسلّح. ومهما كانت نتيجة هذه المحادثات، فقط تعطى تقدماً بالنسبة لهم لأنها ستعرقل وجهات نظر اتخاذ القرارات الأمريكية، سواء في ميزانية الدفاع القومي، بالرغم من أنها لم تحسب لهذه الفترة، وتقلق الصينيين كذلك.

طبعاً، لا يجرى شيء قبل أن تتسلّم الحكومة الجديدة سلطاتها. لكن الرئيس المنتخب وأنا بذاتي، كنّا قد حدّدنا خلال محادثاتنا في فندق «بيير» عدداً من المبادئ تصلح لأتخاذها أساساً لطريقتنا في معالجة القضايا السوفييتية، إبأن مدة استلامنا للحكم. وهذه المبادىء هي التالية:

**مبدأ الواقعيّة :**

كان علينا في محادثاتنا مع الاتحاد السوفييتي، التطرّق فقط إلى أسباب التوتّر الحقيقية، دون الاقتصار على الاعتبارات العامّة. وإذا كنا نريد ان تكون هناك منفعة من اجتماعات القمّة، يجب الاستعداد لها حسناً والأخذ بعين الاعتبار التقدّم الناتج بالوسائل الدبلوماسية، خلال المفاوضات السابقة وسنحترم التزام الاقدة السوفييت الايديولوجي. ولن يغيب عن بالنا أن لهما مصالح متضاربة في مجالات عدة. ولن يخطر لنا على أن حسن العلاقات الخاصة أو العواطف الجيدة تضع حداً لتوترات بعد الحرب لكننا مستعدون لتحري المجالات التي لنا فيها مصالح مشتركة، وعقد اتفاقات واضحة مرتكزة على شروط متبادلة ملزمة .

**مبدأ التحفظ والاعتدال :**

لا تستطيع القوتان العظميان اكمال محادثاتهما حول علاقات لائقة في حال أن احداها تريد الحصول على أفضليات أحادية الجانب، أو تريد الانسحاب من أزمات مفاجئة في بعض البلدان.

ولقد عزمنا على التصدي لكل محاولات السوفييت الطارئة، لكنا على استعداد أيضاً لبحث شروط تخفيف حقيقي للتوتر. لن نجند انفراجاً مهيئاً لخديعة ضحايا جديدة. وبالعكس فاننا ننادي بالانفراج مرتكز على سياسة تحفظ متبادلة. ونتمنى تطبيق مبدأ «الجزرة والقضيب» لاجئين الى المعاقبة في حال التعدي، أو صنع تقرب في حال نية صادقة.

**مبدأ الترابط والارتباط :**

كنا نتمنى ايضاح واقعنا حول إرادتنا في تقدّم علاقات القوتين الأعظمين بنوع حقيقي مجدي، ويجب أن يمتد هذا اللقاء إلى جوانب عدّة. وحسب رأينا فإن الحوادث الطارئة في أماكن مختلفة من العالم كانت جميعها مرتبطة ببعضها وعلى مستوى واحد تقريباً من وجهة الاتحاد السوفييتي السياسيّة. و الانطلاق من مبدأ تصنيف المشاكل في الفئات محدّدة يدعوا القادة السوفييت الى الاعتقاد أن باستطاعتهم المشاركة والتعاون في أحد المجالات مكملين سعيهم في الحصول على مغانم آحادية الجانب في مجالات أخرى، كنا نرى أن هذا غير مقبول، وأدركه نيكسون في السابعة والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٩، عندما أجرى أول مؤتمر صحفي. وحسب رأيه : إنّ محادثات تحديد الاسلحة الاستراتيجية تكون مثمرة أكثر، فيما إذا جرت، بطريقة وزمن يستطيعان مساعدتنا على ايجاد في الوقت نفسه حلاً لمشاكلنا السياسية الحاليّة. وفي السادس من شهر شباط، في تصريح صحفي، استخدمت كلمة «الارتباط والترابط linkage» بوضوح : «فيما يختص الترابط بين الجو السياسي والحالة لاستراتيجية ..... يتمنّى الرئيس .... معالجة موضوع السلام من كل جوانبه، حيث تستدعي الحاجة، وليس فقط من وجهة نظر عسكرية » .

ان الذرائعية التقليدية للفكرة السياسية الأمريكية استدعت وبصورة أوسع فهم الترابط عام ١٩٦٩. وكان يعتبر خاصيّة، أو طريقة لا مبرّر لها بتأجيل المفاوضات حول تحديد التسلّح. ومنذئذ، استبعد كخيار سياسي لحكومة ما. وحسب وجهة نظري، فإن الترابط كان يمكن أن يكون على شكلين : الأول : يرتكز بالنسبة لدبلوماسي على الانحياز ويتروّ إلى ربط _ في حال إجراء مفاوضات . موضوعين مختلفين، مستخدماً الواحد ليضع الآخر موضوع المساومة، والثاني يعكس الحقيقة بلا تعقيد، لأن افعال أحد الشعوب الأكثر اقتداراً في عالم مترابط هي أيضاً مترابطة ببعضها حتماً وتسبّب نتائج تفوّق المشكلة أو القطر ذا العلاقة المباشرة .

لجأت الحكومة الجديدة أحياناً إلى استخدام كلمة ترابط، حسب مفهومها الأول : عندما تقدّمت، مثلاً، في موضوع تسوية فييتنام، وهذا شرط مسبق لتحسين علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي فيما يختص بقضايا الشرق الأوسط و المبادلات التجارية، وتحديد السلاح. لكن في مفهوم أوسع للكلمة : فان الترابط يعكس حقيقة وليس اتخاذ قرار. إذا أظهرت أمريكا دلائل عدم القدرة في أحد أقسام العام، كآسيا أو افريقيا، فان الثقة التي يرونها لإياها يمكن أن تظهر في جهة أخرى كالشرق الأوسط مثلاً. (ولهذا السبب كانت تتمسك كثيراً ان يعتبر انسحابها من فييتنام نظريه استراتيجية لا أن يحسب فشلاً) . وموقعها في مفاوضات تحديد السلاح، لايمكن اعتباره مستقلاً عن التوازن العسكري الذي يجب أن يلحق به، ولا عن مسئولياتها في سبيل قوة عسكرية رئيسية في نظام أحلاف دولية، أضف الى ذلك، كان شبه أكيد أن تحديد السلاح لا يمكنه الصمود أمام توتر دولي أكثر فأكثر نشاطاً. وبالاختصار فان معنى هذه الكلمة يطابق بالنسبة لها مفهوماً استراتيجياً وجغرافياً سياسياً اجمالياً. وعدم الأخذ بالحسبان ترابط الاحداث يوازي جعل كل سياسة متفككة .

الترابط لا يظهر طبيعياً بالنسبة للأمريكان، الذين اعتبروا دوماً ممارسة السياسة الخارجية كعمل غير دائم.

ان بنية تنظيماتنا الادارية، المقسمة الى مكاتب اقليمية، تقويها نزعتنا التقليدية للتخلص، وتسهم في تقسيم المجموع. وتدفعنا ذرائعيتنا الى اعتبار المشاكل منفصلة، وتدعوها الى حلها أساساً دون أخذ حقيقة ظروفها بالحسبان، أو قرائنها، أو حقيقتها التي هي وحدها تشكل مجموعها. وبالنسبة لتقليدنا القضائي، فإنه يشجع على الأخذ بعين الاعتبار وحصراً الاحداث المتعلّقة بقضيّة، ويُحذّر من الاوهام.

مع ذلك لا يمكن الاستغناء في السياسة الخارجية عن ملاك مفكرٍ. والاتجاهات الجديدة في السياسة الداخلية يحددها التطوّر التشريعي. والمبادرات الأساسية وحدها يمكن النظر فيها لطرح منهج جديد. والمبادرات الهامّة في السياسة الخارجية تستوجب استعداداً دقيقاً، ولن تجبى نتائجها إلاّ بعد أشهر أو سنين. وللنجاح يجب فهم معنى التاريخ، والإحاطة بالقدرات المتعدّدة التي تتفوّق علينا، والرؤية التامة لتسلسل الاحداث يتوقف بنجاح السياسة الخارجية على تنفيذ القانون، بينما ان نجاح السياسة الخارجية يتوقف على تحسين الفوارق وارتباطات القوى المتبادلة.

بخصوص السياسة الخارجية، صعوبتها في تصنيف أفضلياتها ، وللوصل إلى ذلك يجب الرجوع إلى مبدأ الترابط، وغياب الترابط يولّد حتماً عكسيّة حرية العمل ويجبر رجال السياسة حينذاك على استخدام مصالحهم الخاصّة، وتحمّل ضغوط مختلفة، دون التمكن من إيقافها. ويصبح وزير الشؤون الخارجية تابعاً لمكاتبه المتعددة، ويتأثر الرئيس بتنظيمات حكومته، ويكون الاثنان عرضة لأن يصبحا سجيني الأحداث.

ولهذه الاسباب كان الترابط في نظر الحكومة الجديدة، وسيلة حسنة لتجنيب سياستنا الخارجية البقاء في حلقة مفرغة من التدخل الدائم في أمور الدول أو الانعزالية، ولتوجيهها بصورة قاطعة نحو السعي للمصلحة القومية.

## الرأي العام والكونغرس

## يبديان نشاطاً ملموساً

إن أحد المظاهر المتناقضة في انتخاب ريتشارد نيكسون كان يمكن في أن عدداً كبيراً من مناوئيه بسبب حملته الشرسة ضد الشيوعية، يرى في انتخابه ضماناً لمحاولة جديدة للتقرب من الاتحاد السوفييتي. إزاء ذلك وجدت حكومة نيكسون نفسها في وضع يوجب عليها سرعة اجراء ما يلزم لتلطيف هذه العلاقات، لكن نيكسون، اظهر عدم رضاه عن ذلك، بسبب عدم ثقته بنوايا الاتحاد السوفييتي، المولع بالقوة العسكرية وقليل الميل نحو الانفراج.

كان التوجّه في هذه الفترة، القيام بالاتصالات اللازمة لعقد اجتماع قمة غايته بدء محادثات لتحديد الاسلحة الاستراتيجية، هذا الاجتماع الذي كانت حكومت جونسون قد مهدت لاعداده من اجل تحسين جو العلاقات الشخصية. قوبل هذا الرأي بالرفض التام، مع غيره من الآراء الاخرى من قبل زبغينو بريجينسكي الذي كتب ما معناه : من المفيد ، وخصوصاً من وجهة النظر الرمزية أكثر من العملية، أن ينظّم اجتماع عمل سنوي غير رسمي لمدة يومين بين رئيسي حكومتي أمريكا وروسيا، وليس ضرورياً أن يكون لهذا الاجتماع جدول أعمال مسبق ومحدّد، لأن الغاية منه هي ايجاد مناسبة لحكام القوتين الاعظمين لتبادل وجهات النظر الخاصة والالتقاء بانتظام».

كان على الحكومة في هذه الحالة اجراء حملة موجهة لتعجيل ذلك وازالة الحواجز التي كانت تحول دون التبادل التجاري بين الشرق والغرب، والتعهد بتنمية العلاقات الاقتصادية كوسيلة للضغط للبدء بمحادثات سياسية. ولما كان للقوتين الاعظمين مصالح اقتصادية متبادلة، فهي وحدها القادرة على التقليل من قلة الثقة في المجال السياسي. أما مارشال شولمان وهو اختصاصي لامع في الاتحاد السوفييتي فله وجهة نظر مغايرة يقول فيها : «إن المصالح المشتركة لا تكفي لازالة الفوارق التي تقوم على اساس التنافس بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، لكن تستطيع المساهمة في وقت ما لتخفيض أهميتها للحد الأدنى». وكانت لجنة من الأمم المتحدة تظم عدة اختصاصيين برئاسة ارتور غولد برغ قد قدمت

تقريراً في الأول من شهر شباط عام ١٩٦٩ بعد خمسة أشهر تقريباً من أحداث تشيكوسلوفاكيا تعتبر فيه « تخفيض التقييد في موضوع المبادلات التجارية بين الشرق والغرب هي الطريقة الفضلى». وزاد الكونغرس من التحدّي، من خلال عدة جلسات لمجلس الشيوخ عام ١٩٦٨ وجلسات غيرها عقدّت بنيّة تشجيع المبدلات التجارية مع الاتحاد السوفييتي.

كان تحديد الأسلحة يظهر في نظر الجميع وكأنه المجال الممكن احداث فجوة أو ثغرة فيه، من جهة بسبب المصلحة المتبادلة للقوتين لتجنب حرب نووية، ومن جهة أخرى بسبب الاعتقاد انهما كانتا تمتلكان عام ١٩٦٩ قدرة متساوية تقريباً من الأسلحة الاستراتيجية. وأرسل فريق عمل من مجلس العلاقات الدولية، يساعده في مهمته عدد كبير من الخبراء في كيفية تحديد الاسلحة الاستراتيجية يرأسه كارل كايسن (معاون المستشار القديم للرئيس كيندي). أرسل هذا الفريق في كانون الثاني ١٩٦٩ تقريراً للرئيس المنتخب تحت عنوان «عاجل والزامي» حول عقد اتفاق لتحديد الأسلحة الاستراتيجية. كان هذا التقرير ينطلق من مبدأ عدم تضييع فرصة نادرة جداً وكان يدعوا إلى موراتوريوم ( قرار بتأجيل دفع الديون المستحقة عند اشتداد اللازمة الاقتصادية) احادي الجانب حول انتشار مضادات القذائف الصاروخية، والصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعددة، من الجانب الأمريكي، وذلك في سبيل التمكن من التوقيع على اتفاق لتحديد الاسلحة الاستراتيجية. ولجنة الأمم المتحدة التي جئت على ذكرها فيما سبق، كانت تعتبر بدء المفاوضات الثنائية مع الاتحاد السوفييتي حول القذائف الاستراتيجية، ضرورياً جداً وعاجلاً.

كان يسود أوروبا ميل كبير، تشدّ من ازره بعض الافكار عن تدخلنا في فييتنام، للابتعاد عن السياسة الأمريكية و التوجه نحو الاتحاد السوفييتي. إذ ان دي غول قد اتخذ شكلاً بطولياً عندما أخذ بمبادلة الرأي الثنائية مع التحاد السوفييتي، اضف إلى ذلك أنه توجه أيضاً الى موسكو عام ١٩٦٦ . ورؤساء الوزراء البريطانيون لهذا الحزب أو ذاك ظهروا أمام الكرملين بقبعات استراخان، ليظهروا التزامهم بالسلام. أما بالنسبة لألمانيا الغربية، وقبل أن يصبح ويللّي براندت مستشارها عام ١٩٦٩، فأن التحالف الكبير الذي كان خلاله براندت وزيراً للشؤون الخارجية، خفف الوضع المتأزم قبلاً بين ألمانيا وأوروبا الشرقية، وأخذ بالمحادثات المباشرة مع موسكو. وبقدر ما كان وضع الولايات المتحدة قاسياً نحو الاتحاد السوفييتي، فبقدر ذلك كانت تسعى الدول الأوروبية القيام بدور الوسيط بين الشرق والغرب. إذ كان اهتمام الحكام الأوروبيين _ في الواقع _ التدخل في الوضع السياسي الراهن، كما لا يسمحوا للأمريكان من اثارة حرب عالمية بعدم اكتراثهم. والحلفاء كانوا يرون ان من الحكمة اظهار مصلحتهم في تقليل القوة الحربية

من قبل الجانبين، والاستجابة لرأي الاتحاد السوفييتي السابق بعقد قمة أمن أوروبي. ومع أخذ هذه الظروف بعين الاعتبار، كان بالامكان معالجة، وبصورة صحيحة، ظهور «انفراج مستقل» علماً ان الاتحاد السوفييتي، كان مقرراً ان يلعب لعبته في أوروبا، مع المحافظة على الوضع المتصلب ذاته في مواضيع اجمالية تقلقنا، جاعلاً هوة بيننا وبين حلفائنا الأوروبيين.

في الغرب، وفي الولايات المتحدة كما في أوروبا، كانت تسيطر رغبة جامحة في متابعة وبحرارة سبل الانفراج، وبالرغم من غزو تشكيو سلوفاكيا، اعلن الرئيس جونسون في خطابه في العاشر من شهر أيلول عام ١٩٦٨، بعد ثلاثة اسابيع تقريباً من هذا الغزو ومن على شرفة «بناي بريت» : « نرجوا ألاّ يكون لهذا الحادث المفاجئ المقلق سوى نتائج مؤقته، وسنتصدى له». فبعدما جرى في تشيكوسلوفاكية، كان مدهشاً ان نرى أمريكا تعطي دلائل حسن النية فقط. ولم يكن ليعرف حقاً على مَ بنت هذا الأمل وهذا التصرف اللذين كان يوجز هما المقال الافتتاحي في صحيفة « واشنطن ستار » في التاسع من شهر آذار : « لو كان هناك أمل بحدوث الأنفراج يوماً، فهذا أوانه وإلاّ ..... ففي هذا الجو ويوم تولية الرئيس الأمريكي الجديد ، أعلن الاتحاد السوفييتي موقفه لصالح بدء مفاوضات حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية التي عرفت فيما بعد باسم (S.A.L.T) سالت .

ومع ذلك ، فإن الرئيس الأمريكي ، لم يكن يريد على أية حال ، أن يرى نفسه مضطراً إلى تصرف سريع . وكان عازماً على افهام القادة السوفييت ، أنه يرفض المفاوضة لغاية وحيدة ، هي خلق جو أفضل ، وأنه لن يحضر اجتماع قمة دون استعداد مسبق ودون تفحص فرص نجاحه الحقيقة ، واخيراً عدم استعداده لقبول وضع الاتحاد السوفييتي وحده جدول اعمال المؤتمر . كنت اشاطره وجهة نظره ، وكان يلزمنا وقت لتحديد الغايات التي نرمي اليها . ونلعن عن استراتيجيتنا ، ونحدد موضع الاتحاد السوفييتي حول القضايا الأكثر اهمية . ولم نكن نظن ان هذه الفرصة ستعبر سريعاً ، ولو أن انصار المفاوضات العاجلة كانوا يريدون تصديقها ، ولان القادة السوفييت سيتصرفون بطريقة اكثر تحمساً . كنا نعتقد في الواقع ، ان أحسن وسيلة لتوقف المفاوضات ، عدم الاستعداد لها ، أو جعل القادة السوفييت يصدقون اننا كنا عرضة للتغير.

في الحقيقة ، كنا راغبين بالمساهمة في مفاوضات هامة جداً ، وحل المشاكل الأساسية . لكننا نريد ان تكون مساهمتنا نتيجة خيار حر ، لا نتيجة نجاح مناورات سوفيتية . وبتقديرنا ،

يجب أن يكون تقدم المفاوضات متساوياً في الجانبين . وفي تصريحي للصحف بتاريخ السادس من شهر شباط ، أكدت على أهمية الترابط في الحدود التالية : (طلبنا ... أن تكون هناك نية صادقة لتخفيض التوتر في المجال السياسي ، وحركة وعمل جادين بدلاً من الحرب الباردة في الكلام العادي الذي يدعو للتقليل من المنافسة في التسلح الذي يترافق بمساعي لازالة النزاع في المستوى السياسي). وبعبارة اكثر وضوحاً ، ليس كما فعل أسلافنا ، اننا عازمون على عدم تجنب الدور استطاع الاتحاد السوفييتي القيام به في اعلان حرب فييتام ، واننا لن نحرم انفسنا من اظهار مخاوف الاتحاد السوفييتي (فيما يختص بالصين مثلاً) لحملها على اتخاذ سياسة اكثر ليناً.

لكن الرأي العام والكونغرس لم يوافق على ذلك . وعلى النقيض من الهدوء الذي يحيط ببدء الحكم الرئاسي ، فإن الرئيس كان يجد نفسه وبصورة عاجلة نهباً لانتقادات قبوله الترابط وسياسته تجاه الاتحاد السوفييتي . وفي اليوم التالي لاستلامه السلطة ، اعلنت صحيفة واشنطن بوست في مقالها الافتتاحي (ان مفاوضات تحديد القذائف الصاروخية ، يمكن البدء بها ، عندما يعتقد السيد نيكسون أنها مناسبة ، وانها تعطيه فرصة سانحة وعاجلة ، تكون الأولى من نوعها لتطبيق اعتقاده ان (عهد المجابهة) في علاقات الشرق والغرب ، يفسح الآن المجال (لعهد مفاوضات) وهذا يعني بالنسبة له الاضطلاع بدوره الرئيسي (كصانع السلام) الذي وضع فيه نفسه . وصحيفة التايم في عددها اللاحق حول وصف احتفالات التولية (في الحادي والثلاثين من كانون الثاني) كانت ترفع من شأن الأمل بتقديم وشيك الوقوع : (لقد اختار الروس يوم تسلم نيكسون الحكم، لحث الولايات المتحدة على حسن التصرف وافهام باقي العالم ان على الأمريكان أخذ المبادهة القادمة ... وكان يعتقد بعض الدبلوماسيين والاختصاصيين الأمريكان بنزع السلاح ، ان السيدين نيكسون وروجرز عزما على اجراء مفاوضات وان الاولى منها ستعقد بعد شهرين أو على الأكثر اربعة أشهر) .

لكن اذا اراد الرئيس انتهاز هذه الفرصة ، فينصح بعدم تنسيق البدء بالمفاوضات بشروط مسبقة أو أي مبدأ من الترابط . وكتبت النيويورك تايمس في مقالها الافتتاحي في الثامن عشر من شهر شباط ما يلي : (يريد الرئيس تغيير سياسة الحكومة الأمريكية لعشر سنوات خلت ، مستفيداً من المفاوضات وشيكة الوقوع ، لتحديد الأسلحة الاستراتيجية وطرح المشاكل السياسية، لكن لا شيء اكثر احتمالاً من هذا الموقف ، بانذار البلدان اعضاء حلف شمال الاطلسي بالخطر ... وطراز المفاوضة الاجمالية مع الاتحاد السوفييتي ، التي يظهر ان الرئيس

اصبح مستوعباً اياها ، ومعالجته عدداً من القضايا المتعلقة بالشرق والغرب ، لا يمكن ان يخفف من ردة فعل عنيفة في بلدان أوروبا الغربية ، في الوقت الذي يسعى فيه السيد نيكسون لكسب ثقتهم . اضف إلى ذلك ، بعض الاسئلة عن التنظيم السياسي ، كالشرق الاوسط مثلاً ، وفييتنام والمانيا ، ستكون عسيرة المعالجة ، بينما ان مشكلة تحديد التسلح هي على وشك الحل) .

وخلال الاشهر التي تلاحقت ، كان الشغل الشاغل الوحيد ، دراسة منفصلة ومفصلة للقضايا التي استدعت خوف حلفائنا الأوروبيين.

وفي الخامس من شهر نيسان ، كانت واشنطن بوست تعالج الموضوع نفسه :

(يجب على الرئيس الكف عن ضياع وقته والاشتراك في مفاوضات حول تحديد القذائف الصاروخية مع الروس . لقد انتهت فترة الاستراحة التي يتمتع بها الرئيس الجديد للاطلاع والاعلان عن سياسته . مع ذلك فان حكومة نيكسون تؤجل انهاء الأمور ... فمتى يكون مستعداً ؟ ... والروس ينتظرون منذ عام تقريباً).

وحول موضوع الترابط كتبت الصحيفة ما يلي : (ان الحقيقة هي اكثر تعقيداً وأكثر إرباكاً ، لجعل رئيس يصدق انه قادر على اللعب في جميع الجهات دفعة واحدة . ان قضية تحديد التسلح هي مستقلة تماماً عن القضايا السياسية ، وهي ملزمة اكثر . أضف إلى ذلك فان تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب تدعو للتخوف من الترابط .

وكان من الممكن في الثاني والعشرين من آذار ان تقرأ في «بوزينس وييك» : يجب البدء بالمفاوضات الآن اكثر من أي وقت مضى . كما تقرأ في صحف فريق) سكريبس ، هو ورد، ور . هـ . ثاكفورد ، بتاريخ التاسع عشر من شهر شباط ما يلي : حكومة نيكسون تجرجر قدميها ، أما (نيويورك بوست) فكانت تتساءل في السابع والعشرين من شهر آذار عما كانت حكومة نيكسون قد كفت عن(مراوحة قدميها) . ؟

بعض من أعضاء مجلس الشيوخ ورجال سياسة ذوو تأثير كانوا يُسمعون لومهم أيضا قائلين : ان اسلافنا تركوا لنا فترة استراحة بعض أسابيع على الأكثر. وكان عضو من مجلس الشيوخ «فرانك شورش» يعلن أمام مجلس الشيوخ في اليوم الرابع من شهر شباط قائلاً : يجب علينا

مساندة «الحمائم السوفييتية». لأن وضع وصدق الذين هم في الحكومة الروسية ويعلنون عن إجراء مفاوضات، لوضع حد للأسلحة النووية، يجعل من هذه الأمور مجتمعة مجازفات حقيقية. هذا إذا بقي الرئيس نيكسون مصغياً للذين في بلده ويعارضون مفاوضات عاجلة للحد من الأسلحة النووية. وفي أول آذار كان أحد أعضاء مجلس الشيوخ من ولاية «تينيس البرت غور» يفتتح مناقشة ضمن لجنته الفرعية حول نزع التسلح فقال : « يبدوا أن لدينا ولأول مرة امكانية حقيقية لتدارك تصعيد سباق جديد نحو التسلّح النووي. أمّا وزير الدفاع الوطني السابق _ كلارك كليفورد، الذي أدخل قبل شهرين في ميزانيّته : مضّادات القذائف الصاروخية، والصواريخ ذات الرؤوس المتعددة، فقد طالب في أواسط شهر آذار بتعليق البرامج التي دافع عنها قائلاً : « في الواقع، ربّما يكون من الصعب علينا ان نجد فرصة أحسن لبدء مفاوضات للحدّ من الأسلحة الاستراتيجية النووية، ومن ستة أشهر إلى سنة، يمكن ان التقدم التكنولوجي يعقّد الأمور ويجعل عقد الاتفاق صعباً.

وهناك في الادارة عدد كبير من الشخصيّات يتعاطف مع هذه الدعوة. والسياسيون بفعل وظائفهم هم دائماً ميّالون للمفاوضات. وفي وزارة الشؤون الخارجية، جلبت القضايا السوفييتية انتباه العديد من سياسيّنا اللامعين مثل ليولين تومبسون، وشارل بوهلن، وجورج كنّان، لكن اختصاصهم لم يؤخذ بعين الاعتبار، لأنهم أظهروا ان هناك اجتناء فائدة من اجراء علاقات مع الاتحاد السوفييتي في فترة كانت معرفة هذا البلد ( التي جرت عام ١٩٣٣ ) تظهر و كأنها الحد الأعظم للسياسة الأمريكية. ولقد دهشوا حين رفضت الولايات المتحدة رفضاً مطلقاً وبموافقة عارمة كل ما يتعلّق بالاتحاد السوفييتي خلال الحرب العالمية الثانية. وأصبح جورج كنّان معتبراً أكثر من أي دبلوماسي آخر في عهدنا، محرضاً على اتخاذ مواقف دبلوماسية مع الروس. وربما كان ذلك نتيجة حتميّة لحياة كُرّست بكاملها للبحث في العلاقات الأمريكية الروسية وهي التي أوصلته إلى هذا الالتزام الذي دعته إليه تقديراته الشخصيّة، لقد تألّم خلال السنوات العشر التي قطعت فيها العلاقات مع الاتحاد السوفييتي فعلاً. وقسم من ذلك كان بسبب تصلبنا في مواقفنا، لاسيما بسبب جو الذهان الهذياني الذي انشأه ستالين. وكان هؤلاء السياسيون يرون أخيراً في الحملات السلمية الدورية التي تلاحقت، تباشير تؤكد نتيجة الجهود في سبيل حياة عمل طويلة.

في فترة استلامنا الحكم، أخذ ليولين تومبسون، الذي كان إذ ذاك المستشار الخاص لشؤون الخارجية للمسائل السوفييتية، يحثّنا على قبول وبسرعة طروحات الروس، خشية ان تغيير توازن

القوى في داخل الكرملين يدعوا إلى تصلب جديد. ولم تثبط عزيمته بعد ان صرّح نيكسون مؤكداً خلال اجتماع لمجلس الأمن القومي في الخامسة والعشرين من كانون الثاني عن نيّته بتوجيه المفوضات مع الاتحاد السوفييتي بدءاً من البيت الأبيض. والحقيقة أن الرئيس كان يغتنم كل المناسبات ليظهر انه غير راغب أبداً في تحديد موعد ثابت للمفاوضات حول الحدّ من التسلّح قبل أن يعرف إلى أي مدى، كان الروس على استعداد للتعاون في حل القضايا السياسية ولاسيما قضيّة فييتنام، وكان هذا لن يعيق اندفاع الادارة في هذا السبيل.

ان اجراءات المجلس الأمن القومي، التي كان من المفروض ان تعطيني سلطة دكتاتورية، لم تستطع و الحالة هذه إقامة أي تقارب وطيد. فطلبت في آخر الشهر تهيئة تقرير حول مختلف الامكانيات التي كانت تقوم ببحثها أي : « العلاقات الأمريكية السوفييتية .....وفي أبعد مدى لها..... » فسلمني وزير الشؤون الخارجية ملفاً حاوياً كل الخيارات وقدّمه بنوع يمكن ان يصبح معه تنظيماً، اعنى وضع الخيار الوحيد الممكن(علاقات عداء معتدلة) بين خيارين آخرين مصطنعين طبعاً : عداءات وتساهلات حازمة. والتعبير : « علاقات عداء معتدلة » كان هذا التعبير وحده مدّوناً بهذه الطريقة حتى ان كل الوزارة تتمكن من اجراء خيارها على حده. والمهم ان الرئيس كان يرفض قطعياً مفاتحة مستشاريه بقضيّة رئيسه. ولم يعقد أي اجتماع لبحث ذلك ليحصل على جواب. لأن نيكسون فوق كل ذلك يريد اجتناب كل مجابهة مباشرة مع الوزير العلاقات الخارجيّة. وبدل ذلك أرسل في الرابع من شهر شباط رسالة إلى روجرز، وليرد، وهلمس، معنونة لروجرز، ويؤكد فيها رغبة في التطبيق الرسمي لمفهوم الترابط فقال :

« اعتقد ان لهجة محادثتنا العامة والخاصة ضد ومع الاتحاد السوفييتي يجب ان تكون هادئة، متزنة، وتمتنع عن كل حرب كلاميّة ..... « وبرأيي ان يكون اتفاقاً دائماً يرتكز على معرفة مصالحنا الأساسية، فيجب علينا ان نسلّم بأن للاتحاد السوفييتي مصالحة الخاصة. وفي الظروف الحاضرة، يجب أخذها بعين الاعتبار لنتمكن من تحديد مصالحنا، كما يجب علينا إفهام القادة السوفييت ان يكون هناك تبادل في هذا المجال ..... حاولنا كثيراً في الماضي، حلّ المشاكل تحت تأثير الحماس، معتمدين فقط على الدبلوماسية الشخصيّة. لكن الحماس التي ظهر في لقاءات لم يكن يرتكز على المصلحة المتبادلة. ولأجل هذا فان كل لقاء قمّة ينتهي إلى أزمة خلال الأشهر التليه .

« لـديّ اعتقـاد ان للقـضايا الأساسـية ترابطـاً وثيقـاً بينهمـا. ولا أقـول هـذا لخلـق تـرابط اصطناعي بين المبادئ المخلتلفة لهذه المشكلة أو تلك أو بين المستويات الاستراتيجية التي نحن على وشك اتخاذها. لكني أعتقد بعدم امكانية حدوث أزمة مفاجئة أو نزاع في مجال، وتعاون حقيقي في مجال آخر. انا أعرف ان الحكومة التي سبقتنا كانت ترى في كل مرة، ان قضيّة خاصّة تقدّم فائدة أكثر للاتحاد السوفييتي مّما تقدّمه للولايات المتحدة، فيجب حينذاك السعي لعقد اتفاق، وإبعاد الفائدة قدر الإمكان من مشاريع تعرض المصالح. وهذا ممكن الحدوث في كثير من الحالات المعيّنة كالتبادل الثقافي أو العلمي. اما فيما يختص بمشاكلنا الأساسية الحالية، يجب علينا أن نظهر حسب اعتقادي، روئية واسعة صحيحة الأمور. وبالنسبة لنا فان هناك ترابطاً بين القضايا السياسية وغيرها من القضايا العسكرية. ويجب استدراج الزعماء السوفييت الى التفهم بأنهم غير قادرين أن يؤمّلوا منفعة من التعاون في مجال وإحداث توتّرات أو نزاعات في مجال آخر. وتتضمن هذه السياسة المجازفة التي يستخدمها السوفييت في مفوضاتهم، حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية لتمرير عنادهم وتصلّبهم في جوانب أخرى.

«أفضّل إبداء رأيي في حالة معيّنة، قريبة مناّ وذات فائدة كبرى، في سبيل معرفة المفاوضات الآتية بشأن تحديد الأسلحة الاستراتيجية.

واعتقد ان قرارنا المتضمن التاريخ والاجراءات الواجب اتّباعها لا يتعلّق فقط بتدقيق القضايا العسكرية صرفة والتقنيّة، ولو أنها على أهمية كبرى. فيجب ان يتخذ هذا القرار مع الأخذ بالحسبان القرائن السياسية الحالية، والمحاولات المختلفة لتوطيد السلام في الشرق الأوسط، ومفاوضات فييتنام في باريس. وأعتقد أيضاً أن من خصائصي _ ضمن حدود الامكان _ العمل بمقتضى الحال لتكون مفاوضات تحديد الأسلحة الاستراتيجية في مستوى لائق. وهذا يوشك أن يأخذ وقتاً أكثر في تدقيق المسائل التقنيّة، وهذا يعني في الواقع جعل الناس يصدّقون ( وعلى الأقل في المجتمع ) اننا نمتلك حقّنا أيضاً برفض هذه المفاوضات.

كانت الرسالة توضح في الواقع، ماكان نيكسون يكنّه في داخله. وبما أن الرسالة كانت موجهّة (بصورة أصح ) فقد أنشأها معاونيّ وأنا بذاتي، وكانت تبدوا فيها لهجة نفوذ مشؤوم استخدامها مستشار الرئيس.

وزير الشؤون الخارجية يرغب بحرارة التوسّع في تجارة أحادية الجانب بين الشرق والغرب، ويقول ان تدخلنا في النزاع الشرق أوسطي، يقوّي بطريقة ما النفوذ السوفييتي بدل انقاضه. ويتمنّى بصورة خاصّة بدء مفاوضات سالت S.A.L.T حالما توجد الامكانية. وكل اتجاه معارض من قبل البيت الأبيض يتأول بكل حرية أو يبقى دون ترجيع صدى. وفي هدا الوضع الخاص اعتبر أعضاء الحكومة الرسالة الشخصيّة ولم يوافقوا طبعاً على تسليمها للادارة.

وبالرغم من تصريحاته رئيس الولايات المتحدة الصريحة ظاهرياً وجازمة ومؤكدة بلهجاتها انه يؤكد على أخذ الترابط بعين الاعتبار، وأنه لن يشترك على غير هدى في مفاوضات سالت.

ففي التاسع عشر من شهر آذار وفي جنيف، كان جيرارد س. سميث، مفاوضنا حول نزع السلاح، يصرّح لنظيره : الكسيس روشتشين، « ان بدء مفاوضات سالت غير مرتبط أبداً بتسوية القضايا الدولية المحدّدة».

وفي السابع والعشرين من شهر آذار، كان روجرز يعلن أمام لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية : «اننا نأمل بدء المفاوضات خلال بضعة أشهر..... لقد اتفقنا حول هذا الموضوع مع الاتحاد السوفييتي ».

وفي السابع من شهر نيسان، إذا كان أحد الصحفيين يتسائل خلال مؤتمر صحفي، عما إذاكانت هناك مشكلة تمنع إجراء مفاوضات سالت، فأجباه روجرز « لايوجد شيء من هذا، نحن على أهبة الاستعداد لها ونعتقد انها ستبدأ في نهاية الربيع أو أوائل الصيف ».

وفي الخطاب الذي دبّجته وزارة الشؤون الخارجية لتلقيه في العاشر من شهر نيسان أمام مجلس حلف شمال الأطلسي، كان الرئيس يعلن : طلبت اليوم من سفيرنا في موسكو ابلاغ الحكومة السوفييتية أننا سنكون سعداء ببدء المفاوضات في جنيف بتاريخ .....نيسان. تاركاً للرئيس الاهتمام بوضع التاريخ هو نفسه، بعد ان رفض وبحزم هذا المسعى خمسة أسابيع قبل ذلك.

فالدهاء كان جلياً واعتقاداً من الوزارة أنني أنا الذي اقنعت الرئيس بذلك لذا كانت تسعى لاستدراجي بواسطة أحد كتّابها.

اجتهدت الادارة، طيلة فصل الربيع، في تقويض السياسة الرئاسية، فأخذت تحي الآمال حول مفاوضات التسلّح. وكنا نقرأ في صحيفة نيويورك تايمس الاصادرة بتاريخ الثامن عشر من شهر نيسان : « هناك موظفون يعتبرون الاتفاق على التسلح مع الاتحاد السوفييتي وكأنه الهدف الأساسي لسياسة نيكسون الخارجية. وكانت التايمس تعلن في الثاني والعشرين من نيسان : أن هناك سياسيين أمريكان يعتقدون أن مفاوضات سالت ستجري في شهر حزيران.

وفي البريع الثامن من أيار كان ليولين تومبسون يصرّح لدوبرنين أن روجرز يريد أن يتفق وإياه على التاريخ والمكان قبل سفر الأخير إلى آسيا، المتوقع بدؤه في الثاني عشر من شهر أيار.

وفي الثامن من أيار كان روجرز يصرّح لدوبرنين : « إنه يأمل أن التاريخ والمكان وجدول اعمال المفاوضات ستحدّد تماماً بعد عودته من آسيا »، وكان يقصد أن بداية فصل الصيف يناسب ذلك. وفي اليوم ذاته التقى جاكوب بيم سفيرنا في موسكو، بفاسيلي ف . كوزنيتزوف : معاون وزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفييتي، وتقيداً بتعليمات روجرز أعطاه التاريخ المحدد لذلك أي في حزيران وتموز، فأجابه كوزنيتزوف أن القادة السوفييت على استعداد.

وفي الثالث من أيار كان أحد محرري صحيفة واشنطن بوست المدعو شارلمز روبرت يعدّد الأنباء التي وردته من عدة أعضاء في الحكومة فقال : إن روجرز سيلتقي دوبرنين في التاسع والعشرين من أيار لتحديد تاريخ المفاوضات، وكما يبدوا فقد أظهر السوفييت اهتماماً عظيماً.

وفي الرابع عشر من شهر أيار، كانت وكالة الصحافة الدولية المتحدة .U.P.L تعلن من جينيف : ان الولايات المتحدة على الاستعداد لبدء المفاوضات سالت في بداية شهر تموز.

وفي الرابع عشر من شهر آيار فإن الحكومة البريطانية التي كانت تعلم أن مفاوضات سالت وشيكة الوقوع، طلبت من الشؤون الخارجية اعلامها طريقة تقديمها للجمهور، كما أن أعضاء آخرين من حلف شمال الأطلسي وقد دفعهم نفس الشعور، عملوا كذلك.

وفي السادس عشر من شهر أيار تكلم جيرارد سميث في واشنطن عن فحوى مفاوضات سالت لرولف بولز سفير المانيا الاتحادية : أنه يعتقد أن المفاوضات ستدور حول « الصواريخ الموجهة ذات الرؤوس المتعددة » ، وحول « مضادات القذائف الصاروخية، وأنها ستبدأ خلال الصيف.

هذا التصريحات المبتسلرة والتوتر الذي سببته كات صادرة عن اختلاف عميق في الأفكار بين وزير الشؤون الخارجية والرئيس. وتدل على تباعد تدريجي عن السياسة الخاصة بالبيت الأبيض وغايتها في الوصول الى اتخاذ قرارات.

ومجمل القول، انها دفعتها لاستخدام كل قوانا، التي لا نريد استعمالها إلاّ ضمن حسابات استراتيجية دقيقة. والروس كانوا راغبين جداً في البدء بمفاوضات سالت، وكانت نيّتنا متجهة لبحث مشاكل أخرى معهم و منها مشكلة فييتنام. وبعد فترة قصيرة، أي في الربيع اللاحق لاستلام الرئيس الجديد سلطاته، سمح الخلاف القائم بين البيت الأبيض ووزارة الشؤون الخارجية، سمح للاتحاد السوفييتي بفرصة استطاع فيها معالجة آليتنا الحكومية، بنوع ان وزير الشؤون الخارجية، والجمهور والكونغرس، أخذ جميعهم يعملون عن تصوّر وتصميم على اجراء ضغوط على البيت الأبيض.

وعدم انضباطية الادارة، مع ضغوط الكونغرس والجمهور، أجبرتنا على العدول عن استخدام مفاوضات سالت كوسيلة لمفاوضات آخرى. وفي الحادي عشر من شهر حزيران، أعلم روجرز السوفييت أننا كنا على استعداد للبدء في المفوضات، لكّن هذه العبارة لاقت صمتاً لدى الروس دام أربعة أشهر.

وكان انتصار الادارة هذا بمثابة الانتصار البيروسي. وبعد اتخاذ قرار افتتاح لمفاوضات، أدخل نيكسون قليلاً فقليلاً وبمساعدتي وأخضع نهج المفاوضات لمراقبة البيت الأبيض.

و إيثاراً من نكسون لسرّية المفاوضات، فقد انتهج هذا المسلك. لكن عدم انظباطية الادارة دهورت الأمور. ثم لاحظ القادة الروس حالاً أن : إذا أبدى الرئيس بعض الممانعة في مجاراة وزير خارجيته عن آرائه، واستعمل من حين الى آخر انطوائه تكتيكياً، يتغير الموقف. لأن نكسون لا يسمح أبداً للغير أن يُملي عليه سياسته الخارجية. وعندما فُهم ان هذه القرارات صدرت عن الرئيس ولا مندوحة من تنفيذها أقام السفير الروسي دوبرينين في الحال اتصالت مباشرة مع البيت الأبيض. وهذه كانت بداية ما يدعى في علاقات الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة : « بالسلسلة » : أي سلسلة مراتب ومراحل أعراف يجب اجتيازها » .

في الرابع من شهر شباط، أجريت أول حديث لي مع السفير السوفييتي في شقّته. وكان علينا الالتقاء بانتظام، طيلة سنوات الثماني اللاحقة، لنتبادل وجهات النظر بطريقة ودّية. وبفضل اهتمامنا، فان الشؤون الدقيقة في علاقات بلدينا توضحت أكثر فأكثر. كنا نلتقي دائماً وبصورة تقريبية في قاعة مصوّرات البيت الأبيض، وهي قاعة جميلة كائنه بالقرب من المدخل الخاص بالسلك الدبلوماسي، وكانت واجبا مغطاة بنياتات الغار الوردي الكثيفة، المغروسة في البستان. وكان فرنكلين روزفلت قد جعل منها قاعة قراراته الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية ومن هذا أخذت اسمها.

دوبرين وأنا اعتدنا على اجراء محادثات تمهيدية حول المشاكل الهامة ، هو على حساب المكتب السياسي وأنا باعتباري مؤتمناً على أسرار نكسون . كنا نوضح رسمياً أهداف حكومتنا الأساسية وعندما يتراءى لنا أمل اتفاق في محادثاتنا على نقاط معيّنة ، عندئذ يبحث الموضوع بالطرق الدبلوماسية . واذا وقعت بعض محادثاتنا الرسمية في مأزق ، فحينذاك كنا نستعين بغيرنا . ولقد اتفقنا مسبقاً على تجنب هذه الأوضاع التي تصل بنا الى طريق مسدود ، والتي تستند دون شك الى اظهار القوّة . وتفويض من الرئيس ، كنت أبحث الرأي العام وكأنهُ صادر عنّي متظاهراً بعلو التفكير ، ودوبرينين من جهته كان يستعمل نفس الأسلوب ليشركني بردّ فعل الكرملين ، و يتصرّف أحياناً على عكس ذلك . و كنا قادرين على إثارة قضية رسمياً دون الخوف من ردّ فعل معادٍ من الغير . وعلى ايّة حال ، كنا نجتنب المجابهات غير الادارية . وكانت هذه اللقاءات وسيلة لفحص الوضع وتجنب المآزق .

كان دوبرينين دقيقاً جداً في هذا الدور الخطير . ولم يكن للسفراء الحاليين حريّة العمل المطلقة ، كمفاوضين . والمكالمات الهاتفية أو التلكس التي يتلقونها هي تملي عليهم ما يجب أن يعملوا . ويمكنهم تغيير الموقف لفترة ساعة . ولكن ، اذا كان السفراء في عهد القذائف ، ليسوا سوى سعاة بريد الدبلوماسية ، ففي نفس الوقت لا يُستغني عنهم لإيضاح سياسة ما ، لا سيما قبل ان يصبح أيّ وضع مهلهلاً .

ان الجهاز البيروقراطي يضيع كثيراً من وقت الموظفين المرتبطين بالوزارات بحيث انهم لا يستطيعون ابداً الانكباب على دراسة مشاكل العواصم الأخرى ، وقادة البلاد الأجنبية . وعلى كل حال كان لدى هؤلاء وقت أقل بكثير مما كان لا مثالهم من الدبلوماسيين الهامين في مثل هذه الفترات وإذ كانوا مزوّدين بنفس المراجع الثقافية . لا يستغنى عن خبرة رجل يُرسل الى البلاد الأجنبية ويلاحظ عن كثب الحياة السياسية وتكون القدرة على التراجع . ان دوره أساسي في وقت الأزمات ، عندما تكون الحياة أو الموت مرتكزين على تفهم سريع ونافذ للأمور الدقيقة جدّاً.

هذا هو الرهان الذي يجب على السفراء السوفييت قبوله . إن جميعهم مرتبط في الدرجة الأولى ببيروقراطية تكافىء الانتظام ولا تشجعّ المبادهة ، وفي الدرجة الثانية ، انهم من مجتمع لم يأمن جانب الأجانب ، وأخيراً فهم من شعب يخفي عدم استقراره تحت ظل نفوذ قوّة لا تمارس بعدل . ويعطي بعض الدبلوماسيين السوفييت انطباعاً سيئاً لأنهم يبذلون كل جهودهم لتثبيت آراء يتبناها رؤساءهم الأعلون ، الذين بالرغم من المسافات التي تفصلهم يكونون دوماً متيقظين . وهذا يسمح لهم بكل ثقة عدم ارتكاب أخطاء في محاكماتهم . ويبقى بعضهم جامداً لا يقدم على شيء ، لأن موسكو مستعدة لاتهامه بالتواطوء ، إذا تقدمّ بمبادهة ما . ويستخدم جميعهم المبادىء ذاتها غير متمكنين من السماح لأنفسهم الابتعاد عن الايديولوجية التقليدية . والمرات النادرة التي يوضحون فيها آراءهم ، تكون رسمية جداً ، خشية ان موسكو تلومهم على عدم دقّتهم ، أو أنهم أقدموا وبدون تفويض على ما يبعث الشك في ان أهداف السوفييت يمكن التفاوض حولها .

كان دوبرينين يجتنب مثل هذا التشويه الوظيفي ، لا سيما انه كان نتاجاً نقياً من المجتمع الشيوعي، وينحدر من عائلة مؤلّفة من اثني عشر ولداً ، كان هو أولهم في الذهاب الى الجامعة ، وعرف الفائدة في اتباع هذا التنظيم وكان يخدمه بأمانة . وكان قد تابع دراسة الهندسة الكهربائية وعمل في وزارة الشؤون الخارجية مدّة الحرب . لا يهمني كثيراً ان أعرف ، عما اذا كان قد اكتسب دماثة خلقه خلال الدراسة التي هي بمجملها مغلقة أمام الايديولوجية ، أو أن هذه الدماثة كانت طبيعية لديه : لأنّه كان الوحيد بين من عرفت من السياسيين السوفييت ، الذي يمكن أن يتفهم جيداً بسيكولوجية الآخرين . فقد كان ودوداً بشوشاً ، وليس حسب مستوى السوفييت (الذين هم غالباً على غير شاكلته) كان يعرف ان يخاطب الامريكان ، بطريقة يتفهمونها تماماً ، وهو نفسه كان يعرف وبمهارة إثارة عاطفة الامريكان القوية للتصدي للخطأ .

لم يكن يغيب عن بالي أبداً ان دوبرينين كان من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي : لم يكن لديّ انطباع أبداً ان محياه الطلق كان يعكس بعض التقربّ مني أو من الغرب . وكنت أعلم بحقّ أن : أذا تطلّبت مصالح بلده ، يمكنه الظهور بمظهر أشد قسوة وبتفكير أسوأ مما لدى غيره من القادة السوفييت . لم يخالج فكري أي شك في أن قدرته كانت ترتكز على مهارته في ترجمة سياسة حكومته ، لا على مقدرته الشخصية . لكني كنت أقدّر تقبّله غير المشروط للأفكار السوفييتية . وكان تقبله هذا يسمح لنا باتخاذ فكرة واضحة عن سياسة رؤسائه ، ويقوّي بالنسبة له نفوذه في موسكو . غير ان هذا وحده كافٍ لنا . وكان يتفهم جيداً الواقع الأمريكي . وكان يظهر لي أحياناً تفهمّه الشخصي لسياستنا ، التي كانت دائماً ثابتة وجريئة . وكنا تقريباً على ثقة أن بفضله هو ، كان الكرملين يرسل تقارير واضحة ومفصلة حول بعضنا ، وهذا لم يكن ليكفل ان موسكو تتبنّى آراءنا ، لكنه يجنّبنا وبصورة أكيدة من الوقوع في أخطاء جسام . ولم يكن دوبرينين يلجأ أبداً إلى مناورات دنيئة تسمح لكل دبلوماسي سوفييتي غير واثق من نفسه أن يُظهر نشاطه لرؤسائه . والاستقامة بنظره هي المؤهل الأعظم للنجاح في السياسة الخارجية . فطناً ، متزناً ، شجاعاً وحكيماً ، هذا ما كان عليه دوبرينين من روح عالية ، لذا فانه راضٍ تمام الرضا عن علاقاته مع موظفي واشنطن الكبار . ولم يكن هناك من شك في ان دوره في إطار وظائفه كسفير لبلاده ، كان ذا منفعة وفائدة في العلاقات بين بلدينا . واذا اختفى يوماً التوتر والقلق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، فان لدوبرينين اليد الطولى فيه .

وفي شباط عام ١٩٦٩، كنا في بداية المفاوضات ، لأن كل مفاوض كان يحاول معرفة الآخر . فطرح دوبرينين سؤالين على نكسون طالباً مقابلته ، لمعرفة الاجراءات الواجب اتخاذها وموضوعاً آخر أساسياً . بالنسبة للاجراءات الواجب اتخاذها ، فان نكسون كان يريد السيطرة على المفاوضات مع الاتحاد السوفييتي ، ويرى استبعاد روجرز عنها . لأن هذا الأخير لا يمانع يوماً من كشف النقاب عن كل تقدم يحصل فيها . مبدئياً كان نكسون عازماً على التصدي للترابط من خلال وجهة نظره . فسعى الى انهاء أمر روجرز بطريقته الخاصة ، أعني بتكليف هالدمان (الذي نسب إلي مسؤولية ذلك) . فصرح هالدمان لوزير الشؤون الخارجية ، أن أحسن وسيلة لعدم خداع أنفسنا هي عدم حضوره المقابلة . ووجوده كان يجلب الظن اننا نريد استعجال الأمور، وهذا مخالف لاستراتيجيتنا ، ويدعو أيضاً الى تفاؤل مطّرد . وظهر روجرز متردداً حيال إلحاح صديقه القديم . فوجب علينا خلال أكبر قسم من نهاية الاسبوع محاولة إقناعه (بالرغم من أنه على

حق) أن من واجب وزير الشؤون الخارجية حضور أول لقاء رسمي بين الرئيس الجديد والسفير السوفييتي.

لكن نكسون غير راضٍ عن مجريات هذه الأمور ، طالما يتوفر له من يقوم عنه بهذه الأعمال المظنية . وفي النهاية ، لم يحضر روجرز المقابلة ولاعتبارات تنظيمية ، دُعي مالكوم توون ، المكّلف بالشؤون السوفييتية في وزارة الشؤون الخارجية ، ومن ثم سفيراً في موسكو . لكن هذا لم يعد علينا بالنفع ، لأن نكسون طلب إلينا ـ توون وأنا ـ الانصراف من المقابلة ، وطلب بصورة خاصة من دوبرينين ، حل جميع الأمور الدقيقة والهامة معي ، من الآن فصاعداً.

وهكذا انتظمت السلسلة .

قبيل اللقاء بدوبرينين ، طلب إلى نكسون تزويده بمذكرة خطّية حول المواضيع التي سيطرحها السفير دون شك ، والوضع والأهداف التي أشير عليه باتخاذها . فأجبته ان دوبرينين سيوقفنا وبصورة تقريبية ، على نية السوفييت في بدء مفاوضات ، لا سيما تلك التي تتعلق بتحديد الأسلحة الاستراتيجية ، وانه يلومنا لعدم إظهارنا الاهتمام اللائق حول الوضع السلمي للقادة السوفييت منذ العشرين من شهر كانون الثاني . ويدعونا إلى عدم ضياع هذه الفرصة المؤاتية ، وأنه يجب علينا إقامة علاقات مباشرة بين الرئيس الأمريكي والقادة السوفييت . ونصحت نكسون أن يبدو بصدر رحب ، في حال تقديم دوبرينين رسالة من القادة السوفييت ، متضمنة آراء واقعية ، فلا تُجبر تحت وعود غامضة ، على إقامة المحادثات المقبلة دون معرفة مؤدّاها . وعلينا أن نؤكد في الواقع : ان تقدم المباحثات يرتكز على اتفاق سلمي لا على الدبلوماسية الشخصية . وكل لقاء قمّة يجب ان يكون اختتاماً لا ستعدادات دقيقة . ويجب اعلامه أيضاً ان : في حال عودة مشكلة فتح مداخل برلين للبحث ، بمناسبة انتخابات رئيس جمهورية لألمانيا الاتحادية ، فلا يعود حاجة للسؤال عن اجراء مفاوضات في الشرق الأوسط ، حيث على كل فريق ان يظهر نفوذه بالاضافة الى تحفّظه ضمن سياسة مهادنة ، واننا نحن على استعداد لوضع حد لحرب فييتنام وان علاقاتنا مع السوفييت تتوقف على حسن نيتهم في تسوية هذا النزاع . وأنهيت جاعلاً في الأذهان وبصورة مبهمة جداً في ان الاتحاد السوفييتي اذا لم يظهر تعاوناً صحيحاً فلا نستبعد انضمام أقوام أخرى لها مصالح في هذا الشأن . وهذا تلميح مغطي عن الصين ، لكنه وبكل تأكيد شديد الوضع بالنسبة لذكاء دوبرينين . ونكسون كعادته ، أكد باعتناء على تعابير مذكرتي ، التي كانت تبدو له كثيرة الأهمية وعلق على المقطع المتعلق

بالتزامنا المحافظة على سلامة وبقاء برلين ، وأكد تقريباً حل كل الجمل المتعلقة بالشرق الأوسط وفييتنام ، ووضع علامة على تلميحي عن الصين .

خلال لقاءاته برؤساء الدول الأجنبية ، كان نكسون ناجحاً جداً في طرح آرائنا ، التي نكون قد درسناها بعناية سلفاً ، أضف الى ذلك انه كان يفهم طريقة تفكير الأجانب ، أكثر من غالبية الأمريكان (وربما لأنه كان يعتبرها أقل توعداً) . وفي المقابل ، كان يخشى جانب المفاوضات التي لا تكون لها نتيجة دون مقابل ، كما كان يكره لقاء لا يهيأ له باهتمام . ويتألم من الدخول المباشر في موضوع . ويعيل صبره لدى الإصرار على الإسهاب في شرح ، ولا يتحمل المآزق الطويلة ، غير الممكن تجنبها ، في السعي لعقد اتفاق . بالرغم من إبداعه في شأن ادارة المباحثات النظرية ، كان لديه حب ذات عظيم ، يمنعه من الإفصاح لزواره ، ان هناك من يساعده ، حتى ولو بمذكرة ، وكما أسلفت ، كان يجري اللقاءات السياسية بعد ان يكون حفظ عن ظهر قلبه ، تفصيلات المحادثة حسبما هيأناها له ، والتي ، يجب ان نعترف ، كانت قد أنشئت بموجب آرائه التي أوحى بها لمعاونية بعد محادثه معهم .

ان اشمئزاز نكسون من اجراء مفاوضات بنفسه ، لم يكن ضعفاً بل قوة . وفي الواقع ، كم من اخطاء سياسية سابقة ، تعزى الى رؤساء كانوا يعتقدون انهم يتقنون المفاوضات . من متطلبات السلطة الرئاسية ، تتبع المفاوضات عن كثب ، والاطلاع على كل دقيقة فيها ، الأمر الذي يبدو مع ذلك ضرورياً . بالاضافة الى ذلك ، عندما يكون الرؤساء هم أنفسهم المفاوضين ، لا يبقى للدبلوماسية حيلة . ولا يمكنهم العودة عن التزام دون تعرضهم للخذلان . والوصول الى مأزق يُشرك هيبة رئيس الدولة الشخصية ، وكل خطأ يجب ان يُعرف . وبالرغم من أن رؤساء الحكومات لا يبلغون هذه المناصب دون قسط وافر من حب الذات ، فتوشك المفاوضات ان تتجمد ثم تتحول بسرعة الى نزاع . والمفاوضات بين شخصيات من رتبة دنيا ، بما فيهم وزراء الشؤون الخارجية ، تسمح لرئيس الدولة بالتدخل في الفترات العصيبة ، وتقويم الأمور لا يسبب حينئذ خسارة كبرى . وفي الوقت الذي يشترك فيه رؤساء الدول بالمفاوضات ، فيجب ان تكون نصوص الاتفاق قد أنشئت (وهذا ما كان يجري بصورة دائمة مع الرؤساء الذين عملت في عهدهم) وحتى في حالة إهمال موضوع أو أثنين لإظهار ان تدخل الزعماء كان واجباً للبتّ في الأمر . مهمة الرؤساء ، بلا شك ، ادارة استراتيجية البلاد ، كما عليهم اتخاذ القرارات الهامة ، لأنهم مسؤولون عنها . فإليهم يعود كل الفضل ، حتى ولو سوعدوا في مهمتهم . وعندما

يحاولون تطبيق استراتياجتهم ، فأنهم يسارعون الخطا نحو الكارثة . ونكسون لم يرتكب أبداً هذا الخطأ .

جرى أول لقاء بين دوبرينين ونيكسون في السابع عشر من شهر شباط عام ١٩٦٩ . بعد ان كان دوبرينين قد أبل من نزلة وافدة ، وصل إلى المكتب البيضوي ، فقدُم للرئيس وعرض عليه فكرته في تسيير الأمور ، مستخدماً تقريباً اللهجة ذاتها التي كنا نتحادث بها قبل بضعة أيام . فُهم من كلامه أن لقاء القمة كان ممكناً ، ولم يرفض فكرة الترابط . لقد أثبت بالعكس نية السوفييت في مفاوضات عاجلة حول عدد من الأمور . كما صرح أيضاً عن استعداد الاتحاد السوفييتي لوضع ثقله في سبيل تسوية نزاع الشرق الأوسط . ثم سألنا عن تصوّرنا في بدء مفاوضات تحديد الأسلحة الاستراتيجية .

أجاب نيكسون بثبات يظهره في المفاجآت : يجب للقاء القمة استعداد مسبق مدروس بعناية . واكّد على القوتين الأعظمين الابتعاد عن التحفظ في جميع الأمور وأصر على الضرورة القصوى لتهدئة التوتر في الشرق الأوسط وفييتنام . وصرح أيضاً بوجوب الاستعداد الرقيق لمحادثات التسلح ، وأن نزاع السلاح لا يضمن السلام ، ان لم يرافقه الاعتدال في المستوى السياسي . وأكدّ أيضاً على الأهمية التي يوليها لحالة برلين ، فأجابه عندئذ دوبرينين ، ان الاتحاد السوفييتي ، سيضع جميع امكاناته في تهدئة الوضع .

كان نيكسون يستاء من نوع هذه المقابلات ، حتى انه ارسل لي أربع مكالمات هاتفية إلى مكتبي ذلك اليوم لأوكد له أنه تصرف حسناً . لأنه كان يعتقد ان تلك المقابلة كانت صعبة جداً . لديّ انطباع معاكس ، علماً ان اللقاء كان عليه طابع رغبة المصالحة ، أو على الأقل انها جرت في الجو ذاته الذي يجري في بداية مباراة شطرنج بين لاعبيين ماهرين . كل مفاوض كان يحاول الاحتفاظ بأكبر عدد ممكن من الخيارات ، ويسعى للاحتماء من أي تحرك غير متوقع من الآخر . لم أكن كاذباً عندما اكّدت لنيكسون أنه تصرف حسناً .

وفي اليوم التالي صباحاً ، المصادف في الثامن عشر من شهر شباط ، أرسلت مذكرة لنيكسون أبثّه أفكاراً استوحيتها من هذا اللقاء الأول .

وهذه خلاصتها:

(اعتقد أن رغبة السوفييت الحالية في المصالحة ، واهتمامهم بإقامة مفاوضات حول مراقبة التسلح وموضوع الشرق الأوسط ، هما نتيجة جهل كبير لأهداف حكومتنا . ومن الواضح أنهم يخشون طرح مناهج جديدة تحملهم على اتخاذ قرارات جديدة ذات ثمن باهظ . فيأملون اذاً ان مفاوضات وشيكة الوقوع ستسمح لهم بمضاعفة هذا النوع من المساعي من قبل الأمريكان . (لست معتقداً بحصول اختلافات وجهة نظر في الكرملين حول هذه النقطة بالذات ، في حين ان هناك امكانية حدوث تفاوت أراء أهم يتعلق بالاشتراطات الحقيقية لاجراء اتفاق معنا) .

وبكلمة مختصرة ، اني اعتقد انهم يريدون منا اتخاذ موقف في الوقت الذي يجهلون فيه نوايانا.

(يرون هذه الفترة أشبه بمعركة نفوذ بين قوى (مفكرة) و (مغامرة) عندنا).

ولا يغيب عن بعضهم القول أن ، مهما كانت الأسباب ، سنجبر على اغتنام حسن نية الاتحاد السوفييتي الحالية ، خشية ان موسكو تتخذ مجدداً وضعاً معادياً . فيجب علينا اذا استخدام المصلحة التي تثيرها ، الناتجة ، حسب رأيي من الشعور بالقلق ، لكي نجتذبهم للدخول في مناقشة أسباب التوتر الحقيقية ، لا سيما في الشرق الأوسط ، بل أيضاً في فييتنام . وهذه المحاولة تفرض علينا اتخاذ وضع ثابت فيما يتعلق ببرلين).

من المبكر جداً كشف ما كان يُعده الروس لنا . وكان دوبرينين متوافقاً مع مفهوم كلمة الترابط فقط في المعيار الذي أعلن القادة السوفييت بموجبه استعدادهم لاجراء مفاوضات على مستوى كبير ، اذ انهم لا يريدون أن تتعلق خطوة مفاوضات بحصيلة مفاوضات اخرى ، عرف دوبرينين وبطيبة خاطر ، أن أي تحرك في سبيل الصلح في فييتنام سيُشارك حتماً في تحسين علاقاتنا بوجه عام . لكن هذا لن يتعارض مع الابتزاز الذي يحاولون ممارسته ضدنا ، عند تطبيقهم مبدأ الترابط معكوساً . ان عرض السوفييت في تقديم المساعدة في قضايا الشرق الأوسط. لم يكن يعني من جهتهم سوى مساندة أصدقائهم العرب ، وهذا ما ظهر عند النهاية .

لم يكن بالامكان الخروج من هذا المأزق قبل العام ١٩٧١ . وتبادل الآراء خلال عام ١٩٦٩ كان غير مجدّاً ثم تحول إلى سلسلة من المجابهات خلال عام ١٩٧٠. ففي عام ١٩٦٩ حاولت عشرات المرات ، اثناء لقاءاتي الشهرية بدوبرينين ، الحصول على تأكيد من أن الروس سيساعدوننا في وضع حد لحرب فييتنام ، ودوبرينين من جهته كان يراوغ دائماً ، ويكذب رسمياً ، أن ليس للاتحاد

السوفييتي أية مصلحة بمتابعة هذه الحرب ، وحذرنا (بلطفه المعهود) من التفكير بأي تصعيد محتمل .

لم يكن نيكسون على ثقة من الوضع ، فكتب في السادس والعشرين من شهر آذار رسالة إلى . الكسي كوسيغين . رئيس السوفييت الأعلى ، توضح ما دار بينه وبين دوبرينين في السابع عشر من شهر شباط . (وليونيد بريجينف : الأمين العام للّجنة المركزية للحزب الشيوعي ، لم يقم بدور في سياسة بلاده الخارجية إلا بدءاً من انتصاف عام ١٩٧١) . لم يكن جواب كسويغين في السابع والشعرين من شهر آيار . بعيداً عن عرف السوفييت التقليدي . والشيء الوحيد الجديد الهام في تلك الرسالة : هو مهاجمته الصريحة القاسية لموضوع الترابط (يشجعه على ذلك الانتقادات الأمريكية) وكان يزعم ، (بما أن تعقد كل مشكلة ، يعالج منفرداً ، فمن غير المجدي اذاً اقامة ارتباط بين هذه المشاكل) . فعزمنا على عدم إثارة حرب كلامية حول الموضوع وإكمال مساعينا .

وفي الرابع عشر من شهر أيار ، أرسلنا سلفاً إلى دوبرينين مسودة الخطاب الذي كان نيكسون مزمعاً على القائه حول فييتنام . وحسب الاتفاق ، كلمني نيكسون هاتفياً ، أثناء تحادثي مع دوبرينيين وطلب إلينا اللحاق به إلى قاعة لينكولن ، ليتمكن من إقناع السفير السوفييتي انه عازم على أنهاء الحرب . لكن الروس ظلو ثابتين ، وهذا وضع حافظوا عليه كذلك ازاء مقترحات السلام التي طرحها سايروس فانس فيما يتعلق بفييتنام . ولهذا وبسبب موقف الروس المتصلب عزم نيكسون على التوجه إلى رومانيا في شهر آب ، مريداً بذلك تذكير الكرملين بالتزاماتنا تجاه أوروبا الشرقية ، ولا سيما جمهورية الصين الشعبية ، التي كانت رومانيا تساندها بصورة ثانوية . أضف إلى ذلك ، أننا رفضنا ، اثناء الخريف ، دعوة اندريه غروميكو للمجئ إلى واشنطن ، بسبب دوره مع الرئيس بأخذ دراسات مقتضبة عن الوضع السياسي (وغروميكو عند حضوره كل عام اجتماعات الجمعية الهامة لهيئة الأمم المتحدة ، كان يغتنم هذه الفرصة ويعرج على الرئيس ويباحثان في الأمور السياسية . ولقد أعلمنا غروميكو بنية الرئيس عدم مقابلة وزير الشؤون الخارجية إلا بناء على طلب الروس ، وهذا أمر لن يقدموا عليه .

ان موقف السوفييت لم يتغير عام ١٩٦٩ ، وكانوا يظهرون انهم عازمون على إظهار تقدم بالطريقة لا بالمضمون . وفي شهر آذار ، كما دللت على ذلك سابقاً ، بدرت تصريحات عامة ومختلفة عن موظفين ثانويين وأفشيت أسرار ، لم تكن صادرة عن البيت الأبيض ، مما دعانا للإسراع في اتخاذ موقف حول بداية مفاوضات (سالت) المتوقع اجراؤها في نهاية الربيع أو

اوائل الصيف وعندما عزم البيت الأبيض في الحادي عشر من شهر حزيران ، على ابلاغ الروس ، اننا مستعدون للبدء في المفاوضات ، على ان الادارة كانت واثقة ، انها لن تتقبل جواباً قبل عدة أسابيع قادمة . بقي السوفييت صامتين طيلة أربعة شهور ، وبصورة شبه أكيدة ، لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة اختلافات مجلس الشيوخ بشأن مضادات القذائف الصاروخية : اذ لم تكن لديهم النية بتبديد دلائل انتقاداتنا ، التي كانت تبين ان مشروع مضادات القذائف الصاروخية ، متناقض مع مفاوضات تحديد التسلح .

ومهما كانت الأعذار ، فان دوبرينين ، لم يذهب لمقابلة الرئيس إلا في العشرين من شهر تشرين الأول ، حيث أعلن له أن الروس مستعدون لتحديد تاريخ بدء مفاوضات (سالت) . واغتنم دوبرينين هذه المناسبة ليشكو بطء تقدم العلاقات بين بلدينا . فأجابه نيكسون أن الاتحاد السوفييتي حر باتخاذ القرارات التي يراها تناسبه ، لكن كل تقدم في العلاقات يتعلق بموقف بلاده تجاه فييتنام . وسلمت دوبرينين في اليوم التالي ، نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة ، مما قيل عن فييتنام ، خلال محادثته مع الرئيس ، وبقصد مني ، شدّدت على بعض مقاطع الحديث التي تتعلق بموسكو ، ودوبرينين حسب عادته ، لم يكن قد دون ما دار بينهما من حديث ، لكنه استوضح عن تعارض الآراء الحاصل ، وسأل عما يجب نقله منها بصورة رسمية موسكو . فاقترحت عليه نقل ما كتب عنه على الآلة الكاتبة .

ومحادثاتنا عن أمن أوروبا ، ولا سيما عن برلين ، بقيت دون حراك . والألمان الشرقيون دعوا إلى اصطناع أزمة لتجميد الدخول في المفاوضات ليتمكنوا من معارضة انتخاب رئيس للجمهورية الاتحادية في برلين الغربية ، في حين ان ثلاث انتخابات جرت في السابق دون اعتراض . وفي الثاني والعشرين من شهر شباط ، ليلة أول زيارة لأوروبا ، كان نيكسون يأمر بارسال فرق عسكرية إلى برلين الغربية ، على جناح السرعة ولم ينتج عن الحادث شيء ، لأن دوبرينين ، كان قد وعد نيكسون في السابع عشر من شهر شباط ، ان الاتحاد السوفييتي ، سيضع يده على ناصية الوضع ، وفي الخامس من شهر آذار ، جرى انتخاب رئيس المانيا الاتحادية في ريخستاغ ، دون إحداث أزمة أو قلق ، وفي شهر تموز من العام ١٩٧١ ، خلال سفري السري إلى الصين ، قدّم لي شو ان لاي ما لديه من مطالعات عن الأحداث . وحسب رأيه . ان الاتحاد السوفييتي طلب في شهر آذار عام ١٩٦٩ ، وعن قصد ، إثارة مصادمات على الحدود الصينية ، لتحويل الأنظار في الوقت الذي كان برلمانيو المانيا الاتحادية يتوجهون بحرية إلى برلين .

وبالنسبة لشو ان لاي فان أحداث الحدود ، كانت قد سمحت للروس (عدم تحمل مسؤولياتهم تجاه برلين) .

ومهما يكن الأمر ، فان نيكسون خلال اقامته في أوروبا ، اقترح في السابع والعشرين من شهر شباط ، اجراء مفاوضات رسمية حول برلين في الخطاب الذي ألقاه في معامل سيمنس في المانيا الغربية . وبعد تأكيده عن نيتنا بالدفاع عن المدينة ، أعرب في نفس الوقت عن أمله ان تكون برلين موضوع (مفاوضات ، بل سبب مصالحة ، وفي السادس والعشرين من شهر آذار . بعث الرئيس برسالة إلى كوسيغين ، اقترح في ما اقترح ، مناقشة قضية برلين . وفي شهر نيسان ، لدى اجتماع حلف شمال الأطلسي في واشنطن ، حثت جمهورية ألمانيا الاتحادية الحلفاء الثلاثة الغربيين ، القائمين على احتلال برلين ، وهم فرنسا وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، على التفاوض مع السوفييت بخصوص برلين . بدأت المشاورات خلال الصيف . وفي العاشر من شهر تموز ، أكد غروميكو مجدداً للعموم ، ارادة الروس ، (باجراء مباحثات سرية ، حول طريقة اجتناب التعقيدات في موضوع برلين ، الآن وفي المستقبل . (ومستشار المانيا الغربية . كورت كيسنجر . حثنا على قبول العرض بسرعة ، مقدراً وبكل تأكيد ، المزايا الممكن الحصول عليها من انفراج التوتر ، لدى الانتخابات الألمانية في شهر أيلول المقبل . وفي السابع من شهر آب ، صرح الحلفاء الغربيون عن استعدادهم للدخول في مفاوضات . فانتظر السوفييت نهاية شهر أيلول ، أعني تماماً قبل الانتخابات الألمانية ، لاعطاء جواب غامض ، ينحصر في الأخذ بتصريحات غروميكو ، ويؤكد أهمية سيادة ألمانيا الغربية (الذي لم يطلع عليه أي من البلاد الغربية) . وكانوا يرفضون الاشتراك في محادثات تتعلق بتلطيف التصعيد في برلين الغربية ، ويقترحون بديلاً مفاوضات تخصصّ لتقليل النشاطات الألمانية الغربية في برلين .

وبتقديري ، ان جواب الروس ، لم يحمل (أي تغيير ذي أهمية) . وألمحت إلى ذلك بمذكرة للرئيس . وكانوا يحاولون مرة أخرى . الإفادة من الظروف ، ساعين للاشتراك في كل المانيا الناتجة عن المفاوضات حول قضية جديدة هامة ، غير مشيرين إلى أية فائدة في تحقيق تقدم حقيقي . فاستنتجت من تلك الرسالة ان الروس كانوا غير مهتمين ، ونحن بدورنا ، علينا ان نكون على شاكلتهم ، مهما تكن الظروف ، دون الأخذ بعين الاعتبار ، اننا عندما نظهر رغبتنا الملحة في انجاح المفاوضات ، يتمكن السوفييت مجدداً من اغتنام هذه المناسبة ليؤكدوا مساندتهم غير المشروطة (لسيادة) ألمانية الشرقية ، بدلاً من مجاراتنا في أهدافنا .

وبالمقابل ، حاول القادة الروس ترتيب محادثات ثنائية حول قضية برلين مع الولايات المتحدة . وكان كوسيغين قد وافق في رسالته المؤرخة في السابع والعشرين من شهر أيار ، الموجهة إلى الرئيس الأمريكي ، على اجراء محادثات حول هذه القضية ، واطلع على ذلك نيكسون رسمياً من قبل دوبرينين ، في اليوم العشرين من شهر تشرين الأول . وبما أن السوفييت كانوا يرفضون الالتزام بمحادثات تتعلق بتسهيل الدخول إلى برلين الغربية ، التي كنا نرغب ، لذا فقد أوصيت نيكوسن بعدم الموافقة على محادثة ثنائية محتملة الوقوع . ولن يقدم الروس على ذلك إلا لزرع بذور الشك بين حلفائنا . سيكون على جانب كبير من الفائدة ، في الوقت الحاضر ، درج هذه القضية في جدول أعمال لقاءات السلطات الأربع المحتلة .

قابلنا السوفييت ، بالطريقة نفسها بخصوص الشرق الأوسط . وأشركونا هناك أيضاً برغبتهم في بدء محادثات ، التي عندما بدأت ، أخذوا يدافعون عن وجهة نظر العرب المتطرفة ، والتي كان عليهم ان يعلموا جيداً أنها لا تصلح لتكون أساساً في المفاوضات . ومن ثم راجعنا الاتحاد السوفييتي خلال عدة شهور ، موضحاً أنه لا يستطيع الحصول على أية موافقة من حلفائه ، طالما ان الولايات المتحدة ، لا تبين موقفها في موضوع الحدود . وهذا ما علمناه في الثامن والعشرين من شهر تشرين الأول بقبولنا حدود عام ١٩٦٩ يمكن اعتباره هزيمة أمام القرارت الواقعية .

ولكن اذا كان الروس يؤجلون انهاء القضايا ، فبعكس ذلك هناك عدد كبير من الأمريكان ، يلحون وبكل ارادتهم استعجال المفاوضات في كل المجالات تقريباً .

# الاستعداد ( لسالت SALT)

في بداية شهر آذار من عام ١٩٦٩، عيّن السفير جيرارد س. سميث مفاوضاً رئيسياً في اتفاقات سالت، ورئيس لجنة تحديد التسلّح ونزع السلاح، وبالرغم من أننا كنّا على خلاف، فقد أيّدت تعيينه. وكان سميث رجلاً متفانياً، ذا فكر ثاقب، لا يعرف الكلل، لديه مثاليات قائد حكيم، أسهم في عدة حكومات متتابعة، معتزّاً بالوظائف العامّة. وكان يحدث أحياناً ان تبخس قيمة عمله لبطئه فيه، لكنّه من خُلصاء واشنطن ويتفهم جميع تقلّبات الظروف الإدارية. وبالرغم من أنه لم يتمتّع بسلطة حقيقية، كان أحياناً يمارس نفوذاً قيّماً في مجرى الاحداث، كما كان قادراً على اصدار تعليمات، لا تبقى لرؤسائه، سوى النزر القليل للحدّ من سلطته التقديرية. وأصبح ماهراً في طريقة تحليل الأوامر التي تصدر إليه ولا يقرّها. وفي اعماقه شرف ومزيد من التساهل والدفاع عن كل قضيّة صحيحة. وكان يطلب منه والحالة هذه أن يدير بحذق قضية تحديد التسلح. ومهمة اللجنة كا يرؤسها إطلاع الحكومة على مجريات الأمور، كما أن سميث عليه الاشتراك بذلك أيضاً.

تكلّمت في اعلاه عن الضغوط الممارسة على الحكومة حول تجديد تاريخ افتتاح مفاوضات سالت. ولما كان السوفييت مخلصين نحو أنفسهم، فلم يعطونا جواباً إلاّ بعد أربعة أشهر، الأمر الذي أفسح لنا المجال للقيام بالاستعدادات اللازمة، وفي حال ان المفاوضات تبدأ، فأنها ستسير بطريقة متّصلة.

وفي السادس عشر من شهر آذار، أصدرت توجيهاتي، لتختار الحكومة المواقف التي يحسن اتخاذها في المفاوضات. وهذا لم يجر دون تعب، لأن موظفي المراتب الدنيا، كانوا في خدمة الحكوة الأخيرة، ويفضلون طبعاً، الرأي الذي كان ينادي به جونسون واقترحه على كوسيغين في حال اجتماع مجلس قمة لينغراد. أمضت الادارة صيف عام ١٩٦٨ لتركيز اقتراح معقّد، قُبل لحسن الحظ من قبل هيئة الأركان المشتركة. ان انتصار البيروقراطيين القليل هذا، كان مع ذلك يضيع شيئاً من قيمته، عند مقارنته بالمبدأ الأساسي الذي عليه يرتكز : أي في تجميد القذائف الاستراتيجية والقذائف المركزة في البحار. وبالرغم من أنه في عام ١٩٦٩، أخذت ترسانة السوفييت في الإكثار من صنع القذائف الموجهة التي تطلق من الأرض، وأصبحت تقارب مالدينا

عددياً، ومع ذلك بقي الروس بعيدين جداً عنّا فيما يتعلّق بالقذائف التي تطلق من الغوّاصات. وعندما يضاف إلى هذا العدد الهائل ماّ لدينا من قذائف بَيقاريّة ( غير مذكورة في الاقتراح ) يصبح من الصعب على السوفييت الموافقة على « التجميد » المطلوب.

ان جهودي لتوسيع خيار الرئيس، اعترضتها مشاكل بيروقراطيّة خاصّة. كان يهم نيكسون كثيراً خيار الاستراتيجية، والوسائل الواجب استخدامها، لتحقيق اتفاقات سالت، لكن تفاصيل هذه الأمور كانت تضايقه، وكان في الواقع يترك لي الاهتمام بتسويتها. ولو كانت الادارة على علم بذلك، لما بقي أيّ تنظيم. فنظّمت عندئذ سلسلة اجتماعات لمجلس الأمن القومي، اتُّخذ خلالها عدد غير قليل من الآراء، تقلق نيكسون وتقطّب جبينه، وذلك للتمكن من اصدار هذه التعليمات باسم الرئيس.

وفي سبيل إزالة ما هناك من خلافات في مجلس الأمن القومي، فقد قدّمت في هذا التوسط عدّة آراء معيّنة وهي بحدّ ذاتها عامّة. والاقتناع الذي تصرّفت بموجبه الوزارة، توضّح في الواقع، في أن لو دقّقت الاقتراحات التي قدمناها، ما عدا واحداً، كنّا وصلنا إلى موقف سيء، كما لو أن مفاوضات لم تحدث. وفي الواقع، فان تأجيل مفاوضات سالت غير المنتظر، سمح لنا بفرصة تنظيم. لقد تعلّمت الكثير من خلال الاجتماعات البيوزارية، التي كنت أعقدها مع ريتشارد سون، التي دقّقنا خلالها و بانتظام، النتائج الاستراتيجية التي ستترتّب على تخفيض « الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة M.I.R.V » وطرق مراقبتها التي كنّا في صدد طرحها، وكذلك عدم لحظ هذا التخفيض، والأخطار و المخاوف التي ستنجم عن كل هذا.

وبضعة أسابيع بعد ذلك، توسّعت في هذا البحث إلى كل الأسلحة الاستراتيجية، الممكن اتخاذها موضوعاً في مفاوضات لاحقة. وطلبت من « وكالت الاستخبارات الأمريكية C.I.A » الإجابة على عدد معيّن من الاسئلة. إلى أي مستوى يمكن مراقبة تطبيق تحديد كلّ من الأسلحة ذات العلاقة ؟ وما هي الوسائل الممكن استخدامها لتنفيذ هذه المراقبة ؟ وكم من الوقت يلزمنا لاكتشاف عدم لحظ هذا التنظيم وما هي نتائج المترتّبة عليه ؟ وبالنسبة لوزارة الدفاع، فقد كلّفت بتنظيم لائحة، عن الوسائل الممكن استعمالها للإجابة السريعة، وعن الوقت اللازم لوضعها موضوع العمل. وعندما وضعت للتدقيق، النتائج الأولى للاجتماع، من قبل فريق البحوث الأعلى، أوضحت لزملائي اننا أمام عدة تنظيمات ممكنة وآراء مختلفة قد اتخذّت، وليس بالامكان الطلب إلى الرئيس باختيار إحداها.

استأنفنا البحث مدققين الامكانات المختلفة لتحديد كل سلاح على انفراد ومن ثم تنظيمها. جمعت هذه الامكانات في سبع زُمَر، كانت تبدوا لنا كل واحدة منها متوافقة مع أمننا، ونتمكن بواسطتها من طرح آراء معيّنة أو ابدالها. وأصبحنا الآن اذاً في مستوى نستطيع معه التصرّف بليونة تجاه اقتراحات السوفييت، دون الحاجة في كل مرّة للتباحث والاتفاق فيما بيننا. وأصبحت لدينا دراسة كاملة، استطاعت حكومة القيام بها، حول النتائج المترتبة على تحديد التسلّح، سواء في المستوى الاستراتيجي أو مستوى المراقبة. لن يكون موقفنا في المفاوضات نتيجة تسوية مع الادارة، بل موقف تحليل ذقيق لأهدافنا ومراميها.

قدّمت لي هذه البحوث خدمة غير منتظرة، عند محادثاتي حول « سالت » التي أجريتها بعدئذ مع دوبرينين في إطار «السلسلة ». وعلّمتني كذلك تفهّم الأمور بصورة أحسن، وتقدير أموري مع الادارة. وسمحت لي أيضاً معرفة الآراء التي تحوز رضا الادارة، مع احتفاظي بسريّة المحادثات. وتمكنت من معالجة الأمور مع دوبرينين، عالماً انني سأصل إلى آراء شبه حقيقية ( ومع ذلك لم أكن في مأمن تام من مجابهة ممكنة الوقوع ).

والسابع عشرمن شهر تشرين الثاني وفي هلسنكي، كان موعد اجراء أول جلسة للمفاوضات حول تحديد التسلّح الاستراتيجي. وبالرغم من اختلاف الآراء، وفقدان الوفاق ضمن الحكومة، فضلّت اعتبار هذه الجلسة امتحان تجربة. لم تكن ارادتنا اعطاء الاتحاد السوفييتي، فرصة الدس في حملة دعائية، ولا الوقوع في فشل بطرحه آراء غير مقبولة بتاتاً. وصارحني جيرارد سميث أنه ولأسباب شخصية، كان يخشى حقاً أن يكون على عدم وفاق مع الرئيس نتيجة توجيهات ربّما يسديها اليه. ويرجوا الإفادة من الجلسة هذه بالحصول على طروحات من قبل السوفييت يؤكد إنها تتعلّق بمنع « مضادّات القذائف الصاروخيّة » وفائدة تأخير تجربة، الصورايخ الموجهة ذات الرؤوس المتعددة. وكما هي الحال في غالب الأحيان في الادارات الكبرى، انطلاقاً من أسباب متعددة الاختلافات، يتوصل إلى إصدار تعليمات، يحسن استخدامها في المحادثات التالية لتنظيم مستوى العمل والسعي لمعرفة وجهات نظر الاتحاد السوفييتي حول مجرى المفاوضات. وكان علينا إيضاح رغبتنا في بحث تهديد الأسلحة، الهجومية منها أو الدفاعية. كما كان يجب علينا أيضاً الإصرار علة ضرورة إجراء مراقبة. ولاجتناب اندفاع مفرط تلقى الوفد أمراً بابلاغ واشنطن على الطروحات المتعلّقة « بالصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعددة » أو أي فائدة من تأجيل تجربتها.

أول سلسلة من المفاوضات حول « سالت » بدأت كما كان متوقعاً، وتتابعت حتى الثاني والعشرين من شهر كانون الأول. فطرأت صعوبة مبكّرة : حول كيفية تحديد سلاح استراتيجي ؟ فكان السوفييت يحددون السلاح الاستراتيجي : كل سلاح يتمكن من الوصول إلى أرض معادية الأمر الذي كان يشمل طيراننا المركّز في أوروبا الغربية، وحاملات طائراتنا كذلك، لاكنه يستبعد أسلحة « I.R.B.M أي القذائف ذات الدفع المتوسط المدى » والأسلحة « M.R.B.M أي القذائف ذات المدى المتوسط ». ويستبعد كذلك اسطول قاذفاته الجويّ، تلك الوسائل المخصصة للوصل إلى أوروبا الغربية. وكان هذا التحديد يقدّم أفضلية سياسية إضافية، في جعل اختلاف كبير بين مصالحنا وقضيّة أمتنا ومصالح أوروبا الغربية، منشئاً هكذا توتّراً ضمن الحلف الغربي. وغنيّ عن القول اننا رفضنا التحديد السوفييتي، لكنهم طرحوا مجدداً قضيّة عدم الانتشار الأسلحة النووية، ممّا يعيد إلى الاذهان، قضية تعاوننا مع حليفنا البريطاني، حول قضيّة الأسلحة النووية، وربّما أيضاً حول تنظيم دفاع حلف شمال الأطلسي.

كان الروس في استعجال، لبحث قضيّة « مضادات القذائف الصاروخيّة » التي يؤكد معظم الاختصاصيين انها تجعل كل مفاوضة مستحيلة. وكانت دهشة وفدنا كبيرة عندما لم يُثِر السوفييت منع القذائف ذات المدى المتوسط. فلم يطالبوا بها ولم يجيبوا عند مكالماتهم عنها. وكانت لهجتهم دقيقة هادئة، صريحة ومتزنة.

وفي الثامن عشر من شهر كانون الأول، كنت أوجز في واشنطن نتائج المفاوضات خلال مؤتمر صحفي رسمي :

« قيل لنا اذ ذهبنا إلى هلسنكي، دون اتخاذ موقف، فان السوفييت لن يثقوا بنا، واذا لم يكن موقفنا محدداً، فانهم سيفاوضون بالطريقة التي يرونها أكثر فائدة لهم.

وفي الواقع وبنوع غريب، كانت استعداداتنا متشابهة، اعنى انهم كانوا باحثين أمورهم بتفصيل، واعتبر ان هذا كان ايجابياً ولو أنه جاء متأخراً ».

وسالت بالرغم من كل الانزعاجات الادارية، أوصلتنا إلى ما كنّا نريد. ولم نقبل بفضّ مخططاتنا الاستراتيجية قبل المشاركة بمفاوضات. ولم نقدم على اتخاذ أي رأي أحادي. وأشعرنا حكومتنا بأهمية وتعقيد هذا لموضوع، وأفهمنا السوفييت أن يكونوا واضحين، وانهم لن يحصلوا على شيء بالدعاية. لكننا كنا نسعى خصوصاً للحصول على نتائج. ولم تكن نيّتنا في اعتبار

السلاح النووي، كغيره من الاسلحة، وانها اذا طرحت في المفوضات، سنواجه لا محالة مشكلة تحديد الأسلحة الإستراتيجية، ولكن دون انقطاع هذه المرّة، واضعين نصب أعيننا قضية الأمن، معتقدين ان الأجيال القادمة ستعلم اننا تمكّنا من انتهاز الفرص لإبعاد شبح حرب نووية، وأننا لن نهمل أبداً الدفاع عن مصالحنا، ونتجنب كل تأخير وليس علينا أن ننسى أبداً، ان مستقبل الحرية يتوقف على قدرتنا النووية. لكن التسلّح النووي، لا يشبه أي سباق في تسلّح الماضي، لأنه يعرّض للخطر كل الكائنات البشرية، وتحديد هذا السلاح كان بالنسبة لنا واجباً وليس بنا الحق بالتهرب منه .

# التبادل التجاري بين الشـــرق والغـــرب

ان احـدى اختـصاصات الـشيوعية فـي ان الايديولوجيـة المؤسـسة علـى النفـوذ الاقتـصادي المتصلّب، تحصل على نتائج تافهة كهذه في المجال العملي. وفي كل مرة تدخل اقتصاديات السوق في مناسفة مع الاقتصاديات الشوعية وفي ظروف مشابهة، فان الاقتصاديات الشيوعية تكون متأخرة. ومهما كانت الأسباب الداعية للمفاوضة بين المانيا الغربية والمانيا الشرقية، والنمسا وتشيكوسلوفاكيا، وكوريا الجنوبية مع كوريا الشمالية وأخيراً بين فييتنام الشمالية وفييتنام الجنوبية قبل توحيدهما بالقوة، تلاحظت أفضلية اقتصاديات السوق. فهي تنتج عدداً أكبر من البضائع والخدمات، التي هي في نمو مطّرد ومن أحسن الأجناس، وتتجارب مع أكبر عدد من حاجيات شعوبها، وتخلق جعيات أكثر تعداداُ من الجمعيات الشيوعيية. وليس هناك سوى مجال واحد تقدمت فيه الاقتصاديات الشيوعية : وهو ازدياد القوّة العسكرية. ولسوء الحظ لم يؤيد التاريخ دائماً غلبة طريقة حياى ترتكز على الأنسية ورغد العيش. وبلاد مستعدة للحرمان طيلة عشر من السنين، تتمكن من الحصول، في الواقع، على قوة عسكرية ضاربة، وآجلاً أو عاجلاً، فان هذه أفضلية تؤدي دون شك الى المكاسب سياسية. وهذا تحدٍ لا تتمكن الديمقراطيات الصناعية من تجاهلة.

ان تدنّى الجمعيات الشيوعية في المجال الاقتصادي يمكن تفسيره من عدة وجوه. لا يمكن للتخطيط الانطلاق من الحصار أو من البيروقراطية ذاتها ولو بمساعدة منظمين عصريين ( صناعة في القمة والشيوعيين فيها متأخرون ). ان التخطيط الشيوعي لا يحثّ المسؤولين عن الصناعة لانتاج أكثر، لكنه يقودهم الى عدم الاكتراث بقدراتهم الانتاجية، خوفاً من الوقوع في أيدي «الكوتا » محتملة الوقوع. لدى المسؤولين الشيوعيين ميل الى تخزين غلالهم كي لا يخضعوا لتقلّبات تنظيم التخطيط. ومهما كانت الأسباب، فليس مذهلاً أن بالرغم من صدفة الانتاج وعدم تأثير الادارة، فان الاتحاد السوفييتي، ودول أوروبا الشرقية الشويوعية كانوا يسعون منذ نهاية الأعوام ١٩٥٠، لزيادة تبادلهم مع الغرب ليستفيدوا وبسرعة أكثر من التقنية الحديثة و من رؤس الأموال. وفي ما يخصنا، فقط فرضنا قيوداً منذ اندلاع الحرب الباردة، نحو أواخر الأعوام ١٩٤٠، سواء أحادية الجانب، أو بالاتفاق مع حلفائها. وكان الاقانون الأمريكي يمنع اتساع نص الدولة الأكثر رعاية من الواردات من مصادر البلاد الشيوعية باستثناء بولزنيا ويوغسلافيا.

وبالنتيجة، فان تخفيض الحواجز الجمركية المتوقعة في مفاوضات تجارية مقبلة، كانت خارج الموضوع، وتعرفات الواردات المتوقعة، من قبل « هاولي _ سموت آكت » لعام ١٩٣٠، كانت باقية نافذة المفعول. « Hawley »، Smoot Act . قانون هاولي سموت » ان صادرات المنتجات الأمريكية، أو وسائل العلام التي تكون ممكنة النفع للجيش أو لإقتصاد البلدان الشيوعية، تستوجب الحصول المبدئي على اجازات تمنع نادراً تطبيقياً « لقانون مراقبة الصادرات Export control act » لعام ١٩٤٩. وأرصدة الأموال أو الكفالات « لبنك الولايات المتحدة للاستيراد والتصديرUnited States Export — Import Bank» الموافق عليها لكل بلد يتاجر مع فييتنام الشمالية ( وفي الواقع مع كل البلاد الشيوعية ) كانت ممنوعة بموجب القانون التعديل الهام الذي أصدره فينو. وكل معاملة تجارية أو مالية مع كوريا الشمالية، وفييتنام الشمالي وكوبا ( حتى العام ١٩٧١ ) والصين، تستوجب الحصول على اجازة خاصة. ولائحة الصادرات الاستراتيجية الممنوعة، التي لم تكن تساوي بطولها لائحة المحظورات الأمريكية، أصبح لها تنظيمها بدءاً من العام ١٩٥٠ من قبل « لجنة تسوية مراقبة الصادرات Co — ordinating Committee on Export Control »التي كانت ممثلة بأعضاء من حلف شمال الأطلسي « O.t.A.N » واليابان. وهناك قانون أمريكي يحدد السفر إلى عدة بلدان شيوعية.

في فترة استلامنا الحكم، كانت جميع هذه القيود تقريباً، موضوع نزاع في الولايات المتحدة. وكان الرأي العام الليبرالي يعتبرها وكأنها بقايا قديمة للحرب الباردة، التي حسب رأيهم، كانت تقارب على النهاية، وفي السابعة من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٦، أعلن الرئيس جونسون التخلي عن « مبدأ التعايش المحدود، في سبيل مبدأ أكثر اتساعاً استجابة للالتزام السلمي ». الذي حاول تحقيقه من خلال سلسلة من المباحثات تتعلّق بالتجارة ونسب الأرصدة، ولقد اتخذ هذا الموقف بالاتفاق مع حكومته. فرفض برجينيف هذه المبادرة في السادس عشر من شهر تشرين الأول، معتبراً أن الولايات المتحدة كانت تعطى دليلاً عن « سذاجة غريبة وقوية » اذا كانت تعتقد ان العلاقات بين البلدين تتحسن في حال ان الحرب لا تزال قائمة في فييتنام، وهذا التصريح الذي أقدم عليه بريجنيف كان يدل على نظرية الترابط.

أغفل هذا الأمر طيلة عامين، ثم في ربيع عام ١٩٦٨، أقدم كل من تيودور سورنسين، مستشار رئاسي سابق، وجورج بيل، نائب قديم لوزير دولة للشؤن الخارجية، على حملة حول رفع سريع لجميع المحظورات المفروضة على المبادلات التجارية بين الشرق والغرب، فحصلت على أثر

ذلك خلافات في مجلس الشيوخ في شهري حزيران وتموز من عام ١٩٦٨ . فتقدّم ولتر موندال، أحد أعضاء مجلس الشيوخ باقتراح حول تخفيض التعرفات الجمركية. لكن محادثات عام ١٩٦٨ قطعت فجأة بسبب غزو تشيكوسلوفاكيا والانتخبات الرئاسية، ثم عادت هذه المحادثات وبسرعة في بداية عام ١٩٦٩ بعد تولية الرئيس نكسون، لأن قانون مراقبة الصادرات لعام ١٩٤٩ كان عليه ان ينتهي في الثلاثين من شهر حزيران من العام نفسه.

وحصلت خلافات من شهر نيسان الي شهر حزيران من العام ١٩٦٩ . ونقطة الخلاف الوحيدة لم تكن تدور حول تعديل هذا القانون، لكن على تمديد هذا التعديل. فكتبت النيويورك تايمس الصادرة في الثالث من شهر حزيران : ان المنع المقرر من قبل الولايات المتحدة حول موضوع التبادل التجاري كان « معرضاً للفشل ». ان هذا المنع كان بقايا فاسدة من الحرب باردة، لا تتوقف مع نظريات و مباديء حكومة نكسون، والتي بموجبها، أصبحت لدينا الآن الامكانية من الانتقال من عهد الجابهة الى عهد مفاوضات وتعاون ..... كما لو أن الرئيس لم يكن يعرف ما يريد. وتردّد الحكومة الواضح في تعديل قانون مراقبة التصدير لا يفسّر. وأهم آراء بعض أعضاء مجلس الشيوخ مثل : ج .وليم فولبرايت_ ولتر موندال _ وادمون موسكي كانت تنصب على ان الحرب الباردة قد انتهت، وأن قضية ربط المبادلات التجارية بالسياسة الخارجية ليس منها سوى خلق توتر وجوّ عدم ثقة. وكان موندال يعتبر ان الحظر يضر باقتصاد الولايات المتحدة، لا باقتصاد أوروبا الشرقية. أما موسكي فكان يبدي رأيه في التمكن من شراء بعض المواد للحلفاء الأوروبيين. ونيكولا كاتزنباش نائب وزير دولة قديم الشؤون الخارجية، كان يبني هرماً سياسياً. وحسب رأيه فان الميادين التجارية، توصل إلى أكبر عدد ممكن من الخيارات المستهلكين و المسؤولين السوفييت في منشآت التجارية، الأمر الذي سيوجد مجتمعاً أكثر حرية. واقتصاد سوفييتي مصطنع سيشارك في استئناف الايديولوجية السوفييتية ويسبب اختلافات. والاحتفاظ بالحظر لأسباب سياسية، يعتبر معرّضا للفشل من وجهة نظر اقتصادية ، و عادم النفع من وجهة سياسية ، وكأنه يقوم بدور أكبر المناصرين لأفكار ستالين.

وكان رأيي يعكس موقفي العام. وبعد الوقوف على احتياجات السوفييت فان زيادة التبادل التجاري دون الحصول على مشاركة سياسية كان يعني اننا نقدّم لهم هدية. ان روسيا، لم تكن تشكل بالحقيقة، شيئاُ مهماً بالنسبة لنا، من وجهة نظر اقتصادية. اذاً كان يبدوا لي غير مناسب، ان نطلب الى روسيا، بوضع حدّ لتدخلها، في بعض الأقطار المتأزمة مثل : الشرق الأوسط، برلين والجنوب الشرقي من آسيا. وكان نكسون يبادلني التفكير، ولكن من زاوية سياسية، فاقترح

على دوبرينين زيادة المبادلات التجارية بمشاركة عون سوفييتي في سبيل تسوية سلمية في فييتنام، وبالرغم من أنه لا يزال في شك من أن السوفييت يقعون في الفخ. وفي الحالة المعاكسة، لم يكن يرى ان هناك سبباً يدعوا الى الاساءة لمنتخبيه الصادقين بقبول تعديل التشريع. وفي المقابل، وبالرغم من أنه كان يتخذ موقفاً « مهادناً » بالنسبة لفييتنام، فان قضية الارتباطات التجارية بين الشرق والغرب، أدّتبه إلى كسب رضا المحافظين.

ان هذه القضية، كانت تعكس ضمن الادارة، المعارضة التقليدية لمفهوم الترابط. ووزير الدفاع وحده، كان يؤكد بصورة عامة التوجيه الذي اتخذه البيت الأبيض. وكانت وزارة الشؤون الخارجية، من أنصار التحرير، منطقة من مبدأ ان هذا يخفف ضغط الجو السياسي، وموقها هذا يخالف البيت الأبيض، الذي بالنسبة له كان على التجارة ان تكون سبباً لتطوير السياسة. أما رأي وزراة التجارة، فكان مفيداً جداً، لأنه يعكس الموقف المدهش لمعظم رجال الأعمال الأمريكيين، الذين هم بدون شك معارضون الشيوعية. ونظرياً ينادون باتخاذ مواقف ثابته ضد الشيوعيين، ولا يتورّعون في الوقت ذاته من اتهام الحكومة بالإقدام على تنازلات ، ولكن في موضوع التجارة، فموقفهم مختلف جداً. عندما كنت في الحكم، فان أكثر الانصار تحمساً للتبادل التجاري بين الشرق والغرب هم فريق كبير من تلك الفئة الرأسمالية التي كانت نظريات ستالين تحتقرها. فهم يحبذون السوق الحرة، أقله في مستوى يترجم الى زيادة الأعمال جمعيتهم، ويعتبرون : « كتدخّل من الحكومة في أمورهم » التنظيمات، والمنع، اللازمة، اذا أريد إخضاع العلاقات الاقتصادية للأغراض السياسية. واذا تمكن الاتحاد السوفييتي من ايجاد منفذ إلى أسواقنا للحصول على أرصدة أو بضائع، بموجب مبادئ اقتصدية صحيحة، فان كل القيود السياسية تختفي. ورجال الأعمال من الأمريكان ربما هم أشد تأثيراً بطيبة قلب الموظفين السوفييت، الذين يتملقون من يريدون اظهار نفوذهم عليهم، علماً ان هذا النوع من التفاهم غير المستحسن موجود أحياناً في بعض المنشآت التجارية الرأسمالية.

ان التجارة بين الشرق والغرب هي ضمن جدول أعمال مجلس الأمن القومي، المنتظر اجتماعه في الحادي والعشرين من شهر أيار. وكان على الحكومة أن تؤكد اقتراحات الكونغرس حول إبدال قانون مراقبة الصادرات الآئل الى الانتهاء، بقانون جديد أكثر ملاءمة. ويجب على الحكومة أيضاً التأكيد على اصدار عدد من الإجازات التجارية الخاصة، التي تتضمن تجهيز مسبك في معمل سوفييتي جديد لعربات الشحن. ووحدة استخراج نفط، وبيع حنطة للاتحاد السوفييتي بسعر السوق العالمي، بقيمة خمسة عشر مليون دولاراً. وقبل الاجتماع، أرسلت إلى

نكسون مذكرة توجز توصياتي وما يهم الخدمات. لم يرفض رأيي لأنه كان يؤول الى تثبيت قانون جديد.، يترك الرئيس حراً في تنمية المبادلات التجارية، شريطة ان نلاقي فيها مربحاً لنا. وطلبت مكنه أيضاً ان تكون لائحة صادراتنا الممنوعة أكثر ليبرالية بوجه العموم من اللوائح : لجنة تسوية مراقبة الصادرات، لأننا، في الوضع المعاكس سنخسر تجارياً في صالح حلفائنا، دون التمكن من السيطرة على التجارة الشيوعية. وفي نهاية مطاف، نصحته باصدار أمر لتجهيز وحدة استخراج نفط، لأن طول مدة الأعمال، ستترك لنا مجالاً واسعاً للعمل. وكنت دائماً أعارض في اصدار أمر لإعداد مسبك، أو بيع حنطة.

لم يعتبر نكسون هذا، وتحت تأثير رفض السوفييت من التعاون معنا لإحلال الصلح في فييتنام، أعلن نكسون لأعضاء مجلس الأمن القومي : « لا أعتقد بالنظرية القائلة ان نمو المبادلات التجارية يؤدي الى تحسن في العلاقات السياسية، فهذا معاكس للمطلوب تماماً ». « ان العلاقات السياسية الأكثر انفراجاً هي التي تساعد في تنمية المبادلات التجارية ». كنت أبادل نكسون الرأي، لكنه هو ذهب إلى أبعد من ذلك، فأعلن ان الحكومة ستعارض كل تشريع يتجه نحو تحرير المبادلات التجارية. وهناك بعض مشاريع معينة بما فيها: وحدة استخراج النفط، يجب أن تعلّق آنياً. وأعلمت نكسون ثانية ان كل العالم يجد أن لائحتنا، فيما اذا قُلِّصت، فهي تتلائم مع لائحة لجنة تسوية مراقبة الصادرات، ما عدا بعض النواظم الآلية، ومواد أخرى هامة، احتفضنا بمركزيتها قبل الرئيس وأتبع ذلك بتوجيه في الثامنة والعشرين من شهر أيار. كنت حريضاً على أن تترك لنا صيغة التوجيه، امكانية زيادة المبادلات التجارية في حال ان النصّ السياسي يتغيّر.

وما كادت التعليمات تعلن، حتى اخذت الوزارات تنفذها. وفي الواقع، فان الوزارات لا تقبل قرارات تعارض آراءها، إلاّ في حاصل إصدار توجيهات محدّدة، وفي حالة معاكسة، فلها حق في وابل من التعليقات الصادرة عن المرؤوسين. أن تفرض على مستشار الأمن اتخاذ موقف، يؤثر في هذا المجال. اذاً أصبح لديّ اهتمامات كثيرة. فبالرغم من الأوامر الدقيقة، التي اصدرها الرئيس، عند اجتماع مجلس الأمن القومي، فان وزارة التجارة، كانت في تموز، عن أهبة الاعلان ان هناك نحو ثلاثين من المنتجات المهيّأة للتصدير، للاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية ستخلّص، منطلقة من واقع ان نكسون أعلن موقفه ضد التحرير من تشريع وليس من تسهيلات المبادلات التجارية بواسطة مرسوم تنظيمي. كانت وزارة التجارة تعتبر نفسها اذاً مفوّضة باتخاذ تحرير للمبادلات التجارية بين الشرق والغرب في اطار القوانين النافذة . مانعت الوزارة في ذلك، انما

كان عليّ مجابهة مبادرات مشابهة في غضون ظروف مختلفة. وفي التشرين مثلاً، فان وزارة الشؤون الخارجية ووزارة الشؤون لتجارة الخارجية طلبتا تفويضهما لبيع ناظمات آلية للاتحاد السوفييتي، مخصّصة لتسهيل اتصلاتهما مع أوروبا الشرقية. ووزير المالية، موريس ستانس، كان يريد تحرير مبيع مائة وخمسة وثلاثين مادّة، دون الحصول على الموافقة سياسية. فأعلنت عن رفضي لكل هذه المبادرات، تطبيقاً للقرار الذي اتخذه نكسون أمام مجلس الأمن القومي.

كنّا متساهلين قليلاً تجاه أوروبا الشرقية، وكان هذا ضمن إطار إستراتيجيتنا السياسية. وكنا نستخدم قوّتنا التجارية كجاذب للبلدان التي كانت سياستها مستقلة نسبياً عن الاتحاد السوفييتي، وهكذا ففي الثامن والعشرين من شهر حزيران، عندما أعلن عن رحلة الرئيس الى رومانيا، طلبت من إليوت ريتشارد ومن لجنة وكلاء أمانة سر مجلس الأمن القومي، أن نوصي الرئيس بتقديم تنازلات للرومان بخصوص التجارة. وبعد زيارة الرئيس لرومانيا، فان البيت الأبيض شجّع كثيراً التجارة مع رومانيا، مع الأخذ بالحسبان كل الاعتبارات الموضوعة تحت تصرّفه. كان لدى موريس ستانس ولاي ديبريج، المستشار العلمي أفكار مفيدة حول التعاون التقني. وما كدنا نتقرّب من رومانيا حتى ان وزارات مختلفة، أخذت تضغط علينا، حول تحرير التجارة مع كل بلدان أوروبا الشرقية. الأمر الذي قوّض إستراتيجيتنا القائمة على استخدامنا المبادلات التجارية لتشجيع سيادة السياسية، ولزمنا عدة أشهر حتى تمكنا من التفهم.

وبعد اختلافات مستطيلة، صوّت الكونغرس على مشروع قانون في شهر كانون الأول، حول م قانون إدارة التصدير » للعام ١٩٦٩، الذي كان يخلف « قانون مراقبة التصدير » القديم، وكان القانون الجديد يتضمن ان الولايات المتحدة ، تلتزم رسمياً وتأخذ على عاتقها تنمية التبادل التجاري السلمي مع الاتحاد السوفييتي و أوروبا الشرقية. لكنه تطبيقه ترك أساساً لمبادرة من قبل الرئيس. ولزم بعض الوقت، لكي يفهم قادة السوفييت، انهم اذا كانوا راغبين في تحرير المبادلات التجارية، فعليهم أي يبرهنوا على ضبط نفس كبير في تعاملهم على المستوى الدولي، والسير في طريق تسوية المشاكل الأساسية للسياسية الخارجية. وبالتالي وتطبيقاً لإستراتيجيتنا، سنقدم تساهلات للاتحاد السوفييتي، اذا قبل التعاون معنا على المستوى السياسي. وفجأة كان علينا نجابه تغيّر رأي من قبل أوائك الذين وجّهوا لنا لوماً حينما كنا نسعي لإقامة صلات بين مبادلات التجارية والسياسية السوفييتية الخارجية. وهم الآن يوجهون الينا اللون لأننا لم نسع بعزم لإقامة علاقات مع السياسة الداخلية للاتحاد السوفييتي. وقريباً سنكون عرضة للهجوم بسبب المشكلة الأساسية : المبادلات التجارية بين الشرق والغرب. وبعد دراسة

جدّية، يصنعون « علاقات » تكون بمجموعها تقوية لنا في مقاومة العدوان السوفييتي. ويمكنها كذلك المساهمة في تقوية قوّتها أيضاً. فعدم تهيئة كافة الامكانيات يجرّ الويل أكثر من تجاهل الأخطار.

## أوربا الشرقية

## وزيارة نكسون إلى روما

إنّ مقسم أوربا الذي يساير مجرى نهر الإلب في قلب ألمانيا ، لا صلة له بتقليد تاريخي أو أماني شعوبها . كانت الفرق السوفييتية قد فرضت تنظيماً مقتبساً من الخارج ، في كل بلدان أوربا الشرقية ، وقمع الجيش الأحمر ثورات شعبية في ثلاثة بلدان منها . ولم يشترك الشيوعيون مرة في انتخابات حرة ، في أي بلد من البلاد الشرقية ، حتى بعد جيل . كان الاتحاد السوفييتي قد التزم طريقة انفراج انتخابي ساعياً لعزلنا عن حلفائنا . وكنا نعتقد ، ليكون ذلك حقيقياً ، ان يشمل هذا الانفراج أوربا الشرقية أسوة باوربا الغربية .

ولقد أثار ذلك قضية شديدة التعقيد ومفجعة بكل تأكيد . إذ انهم تجاهلوا نداءاتنا الملحة في سبيل التحرر من التنظيم السوفييتي عام ١٩٥٦ حين غزو المجر العنيف ، وكنا كذلك عادمي القدرة على الرد عام ١٩٦٨ وإحباط اجتياح تشيكوسلوفاكيا في ربيع العام نفسه . وبالحقيقة لا نلوم أنفسنا بارتكاب خيانة ، بل لأننا وُجدنا في وضع لا يسمح لنا بالإجابة على آمال كنا نرقبها . كانت حكومة جونسون قد أعدت سياسة «التزام سلمي» يهدف لتحريك المبادلات التجارية والثقافية مع أوربا الشرقية ، لكنها لم تنجح سوى في اظهار هذه الرغبة الجريئة . أما حكومة نكسون فقد حاولت تبني سياسة مختلفة ، تتركز على تشجيع بلدان أوربا الشرقية على التصرف بطريقة تضمن لها استقلالها في حدود امكاناتها . ولم تقم بأي تعهد لا تستطيع إيفاءه ، ولم تدل بتصريح قابل أن يجر إلى ردود فعل مؤسفة . وكنا نكافئ البلد التي تختط لنفسها سياسة خارجية أكثر استقلال ، ونمنع أنفسنا من التدخل في شؤون بلد ، تقبل برضاها أو بالضرورة والذلة سيطرة الاتحاد السوفييتي ، بعد أن علمنا ، بقبول آرائنا بحرارة من قبل رائد الفضاء : فرانك بورمان من تشيكوسلوفاكيا ، بعث إلى الرئيس بالمذكرة التالية :

(هنري ، اعتقد اننا نستطيع استنهاض همم أصدقائنا في موسكو بمضاعفتنا زيارتنا لبلدان أوربا الشرقية . وإني على ثقة ، فيما اذا استطاعت شعوب هذه البلاد ، فستكون على جانب عظيم من الغبطة عند استقبالها أعضاء حكومتنا وغيرهم من الشخصيات) .

بضعة أسابيع بعد ذلك ، اتخذ نكسون رأياً أكثر وضوحاً : أن يذهب بنفسه إلى أوربا الشرقية . وأبدى اقتراحاً بتمكنه من تضمين رومانيا في مخطط سفره حول العالم ، وهكذا يصبح أول رئيس امريكي يقوم بزيارة رسمية إلى بلد شيوعي . وتصرفه هذا كان يستند الى سببين . والسبب الأول في ان السلطات الرومانية عاملته بكثير من الاحترام ، عند تركه الحكم و زيارته لرومانيا عام ١٩٦٧ ، الأمر الذي لم يتشابه في غيرها من بلدان أوربا الشرقية ، وكان إحساس نكسون رقيقاً لهذه المبادلات الودية . وكان هدفه الرئيسي : السوفييت ، كما قال : (انهم سيتأكدون أننا نقوم بدور معقد) .

وفي الحادي والعشرين من شهر حزيران ، وتطبيقاً لتعليمات الرئيس نكسون ، استدعيت سفير رومانيا آنذاك : كورنيليو بوغدان ، وأعلمته أن الرئيس عازم على القيام بجولة حول العالم ، في النصف الثاني من شهر تموز ، بعد ان يحضر هبوط (أبوللو الحادية عشرة) في المحيط الهادي . وطلبت إليه ، ان الرئيس سيمكث في بوخارست يومي الثاني والثالث من شهر آب ، اذا كان ذلك ممكناً ، وفي الثالث والعشرين من شهر حزيران ، اعني بعد ثمانية وراربعين ساعة ، أخذنا جواباً رسمياً ، ينبئنا أن الحكومة الرومانية ترحب بهذه الزيارة بالرغم من انها ستكون مجبرة على تأجيل إقامة مؤتمر الحزب الشيوعي الروماني ، المحدد موعده منذ تاريخ طويل مسبق ، والذي كان القادة السوفييت مدعوين للاشتراك به . وليس هناك من دليل أوضح على اهتمام رومانيا على إقامة تقارب منفصل مع واشنطون وزيارة الرئيس الأمريكي .

والإعلان المدهش عن الرحلة صدر في الثامن والعشرين من شهر حزيران ، ولأول مرة ، يتوجه رئيس امريكي إلى بلد شيوعي في أوروبا الشرقية . وخلال مؤتمر صحفي ، بينت فقط أن المقصود من هذه الرحلة ليس القيام بحركة مناوئة للسوفييت . وكان الرئيس يحمل ذكريات جميلة ، عن لقائه بالقادة الرومانيين ، عندما استقبله هؤلاء بحرارة ، في حال انه كان مواطناً عادياً . وصرحت : « ان الولايات المتحدة راغبة التعامل مع بلدان أوروبا الشرقية على أساس الاحترام المتبادل .... ولا نرى أنفسنا ملزمين على أخذ رأي السوفييت قبل زيارة بلدان ذات سيادة » .

والفكرة في ان حكومة نيكسون كانت مناوئة أصلا وبشدة للسوفييت انتشرت سريعاً ، مفسرة ان زيارة الرئيس لرومانيا كانت مغامرة . وبعض أعضاء وزارة الشؤون الخارجية ، عارضوا هذه الزيارة ، التي قام بتنظيمها البيت الأبيض . وكانوا يرون أنها خطرة ، كما يخشون انها ستكون

سبباً في قطع مفاوضات سالت والاتفاقات الآتية . وكانت الصحف الكبيرة تشاطر هذا الرأي ، معتبرة ان هذه الزيارة محفوفة بالمخاطر ، بالنسبة لمفاوضات سالت ، وحماقة تجلب لنا تهجمات الاتحاد السوفييتي ، وتستدرج الروس إلى التصلب في موقفهم حول كل القضايا بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب ، واعطاء فكرة أن أمريكا تؤكد وجود (دكتاتورية شيوعية عنيفة) .

تصرف السوفييت كذلك ، ودلّلوا بطريقة لا ريب فيها أنهم فهموا فعلاً مغزى زيارتنا هذه . فألغوا زيارة بريجنيف وكوسيغين اللذين كان عليهما الاشتراك بمؤتمر (الذي أجّل بالطبع) الحزب الشيوعي الروماني . وفي الثالث من شهر تموز ، سألت بوغدان ، عما أذا كانت حكومته قد أعلمت السوفييت سلفاً بزيارة الرئيس الامريكي . فأجابني انه يجهل ذلك ، وكان يعتقد بوجوب إعلامهم بوقت قليل قبل الاعلان الرسمي عن الزيارة ، وان رومانيا هي حرّة باتخاذ القرارات التي تريد .

وصل الرئيس إلى بوخارست في الثاني من شهر آب ، واستقبل كما كتبت النيويورك تايمس بهذا الخصوص ودعته : الاستقبال الأكثر حرارة وأكثر ودّية ، استقبل به الرئيس حتى الآن خلال رحلته ، رافقه هتاف مئات الآلاف من الرومانيين الملوّحين بالأعلام . فقد زار سوقاً بلدياً ومدرسة رقص فولكلوري وسمح لنفسه الاشتراك بحلبة رقص مع الرئيس الروماني نيكولا شاوشيسكو . وبعد اقتناع التايمس بصورة قطعية ، كتبت في مقالها الافتتاحي بتاريخ الخامس من شهر آب : ان هذا اللقاء المشجع كان برهاناً على ان أوروبا الشرقية تقرّ بحسن نوايا الولايات المتحدة ، وان اهداف الرئيس ، في سبيل السلام ، والسيادة القومية ، والتعايش السلمي ، لم تكن دعاية في نظر بلدان وسكان أوروبا الشرقية الذين ما كادوا ينسون غزو تشيكوسلوفاكيا .

ان الحيوية المدهشة للاستقبال الذي جرى للرئيس نيكسون ، كانت بإيحاء الحكومة وتنظيمها . ولكن اذا كانت هذه الحال ، فهي برهان أكيد على استقلال رومانيا بالنسبة للاتحاد السوفييتي ، إذ انه من العسير جداً ، بل غير الممكن ، أن تصطنع الحكومة ، التأثر والفرح والإخلاص الذي أظهره الشعب طيلة مدة الزيارة . ازدحمت شوارع بوخارست بعدة مئات آلاف الأشخاص ، الذين كانوا ينتظرون فقط مرور العربة الرئاسية . ولم يكتفِ كل هؤلاء الناس بتشكيل حاجز عند وصول الرئيس من المطار ، والالتفاف حول المقر الذي سيمكث فيه خلال الزيارة ، بل أخذوا بالانتظار وفي أمكنة مختلفة ولساعات طويلة ، ليظهر نيكسون نفسه لهم .

وكان من المؤثر جداً ، أن يرى شعب دولة شيوعية مهتماً كثيراً بمناسبة أول استقبال رئيس أمّة كانت تمثل كثيراً ، كما هي الحال في القرن التاسع عشر ، رمز ديمقراطية وحرية الانسان .

وفي جميع تصريحاته التي أعلنها للجماهير في بوخارست ، حدّد نيكسون مجدداً مبادئ سياسته وهي :

أهمية التعايش ، رفض فكرة بريجنيف ، ورغبة الأمريكان في حلّ جميع القضايا بمفاوضات حقيقية .

وأردف قائلاً:

« لا نرى فائدة من الدخول في حرب كلامية ، أو خديعة بعضنا دون جدوى ، اننا نسعى نحو انفراج حقيقي ، لا إلى جو بسيط من الانفراج» .

« اننا نسعى لا إلى سلام يرتكز على السيطرة والانتظام المصطنع ، بل نسعى إلى سلام يحترم المصالح الشرعية لكل انسان ويكفل للجميع أمنهم» .

ومن الواضح أيضاً ، ان قادة أوروبا الشرقية ، على غرار حلفائنا ، كانوا يخشون عقد اتفاق أمريكي سوفييتي على حسابهم ، ولم يكن هذا هدفنا . والزيارات التي قام بها الرئيس بعدئذ إلى يوغسلافيا وبولونيا ، كانت أكبر برهان على ذلك .

# الخلاصة

إن إحدى ابتكارات حكومة نيكسون ، كانت تقريراً سنوياً حول السياسة الخارجية ، وعليه توقيع الرئيس . كنت قد اقترحت ذلك على نيكسون في مذكرة ، بضعة أسابيع قبل استلامه الحكم . والغاية من هذا التقرير . هي وضع الخطوط العريضة لسياسة الرئيس الخارجية ، ومعالجة الوضع السياسي ، وهو في الوقت ذاته برنامج عمل ، ويمكن أن يفيد الادارة ، واعلام الحكومات الأجنبية حول ما يتخذ من مواقف .

وهذه الفكرة المرسومة في بيان روبرت مكنمارا السنوي ، حول وضع وزارة الدفاع ، أوجدت سلسلة من المشاكل . قبل كل شيء ، فان وزارة الشؤون الخارجية ، نسبت لنفسها هذه المبادرة ، وسببت بالتالي نزاعاً قوياً بيني وبين روجرز . ومجلس الأمن القومي ووزارة الشؤون الخارجية أخذ كل منهما بتصويب سهامه ، تستّراً بعناية قصوى . وكانت لي أفضلية التقرب من الرئيس ومعرفة الكثير من آرائه . أضف إلى ذلك ، فإن خطأ تقرير وزارة الشؤون الخارجية ، كان في سعيه لارضاء كل القطاعات المؤلفة الآلية الادارية الثقيلة . فكل موظف كان يُلح على ذكر البلد أو البلدان التي يهتم بشؤونها ، فلم يكن التقرير لائقاً بالنسبة لقوةّ أكفاره أو وضوحه .

وضع نيكسون حداً لهذه الاختلافات مستعيناً بطرقه العادية . وانتظر حتى سافر روجرز إلى افريقيا ، فأصدر مرسوماً يبين ان كلاً من مجلس الأمن القومي ووزارة الشؤون الخارجية يستطيع هذا أو ذلك إصدار بيان ، لكن اعلان البيان الرئاسي يجب ان يسبق اعلان وزارة الشؤون الخارجية بشهر على الأقل . فأكببنا بنشاط على العمل لإعداد البيان الرئاسي . وبالرغم من أن معاوني كانوا مثقلين بالعمل ، كان عليهم ان يحسبوا حساب التصليح ، الذي انقله اليهم في أول وهلة ، وأيضاً حول ملاحظات الادارة . وصرنا إلى قمة الانتقاد عام ١٩٧١ ، حين اعترضت وزارة الشؤون الخارجية ، على جملة تحدّد التعاون الدولي في موضوع حماية أصناف في طريقها إلى الاختفاء . كان المقطع الأول من بياننا يبين وبلياقة ان هذه الأصناف كانت موضوعاً حقيقياً للتعاون الدولي ، لأنها كانت تنتقل ، دون أخذ الحدود الدولية بعين الاعتبار ، ولا يتمكن أي بلد أن يكون لها حماية تامة . أما وزارة الشؤون الخارجية ، ومن طبعها ان تكون على جانب عظيم من الذكاء ،

أصرت على تغيير الجملة ، محدّدة إياها بالآتي : (بعض) الأصناف فقط ، كانت تنتقل ، دون أخذ الحدود الدولية بعين الاعتبار . فرفضت ذلك ، بالرغم من إغاظة بعض المواطنين .

وكان البيان الرئاسي بعد انجازه ، يتضمن بعضاً من التصريحات الحكومية ، الموضّحة نوعية السياسة الخارجية . ولكن ومع أسفنا العميق ، لم نوفق أبداً في إفهام العالم ان هدف البيان الأساسي كان الكشف عن القضايا الأساسية ، ووضع حل لها . وبالرغم من كل جهودنا ، فقد اكتفى الشعب بمعرفة الوضع في فييتنام ، والسعي في معرفة الأخبار الجديدة ، أو أخطاء الحكومية ، معتبراً ان الباقي لا طائل تحته بل غير مجد . واعترضتنا مشكلة اخرى عام ١٩٧٣ . وفي الواقع ، فان البيان قد أعلن عنه في بداية أيار ، أي بعد عام من مؤتمر القمة مع الصينيين والسوفييت ، ومفاوضات عنيدة بخصوص فييتنام . وتاريخ اعلان البيان ، الذي كنا قد حددناه منذ أسابيع ماضية ، صادف بعد أربعة أيام من استقالة كل من : هالدمان واهرلخيمان . غير أن هذه البيانات كانت مفيدة ، إذ كانت تساهم في تقديم تعليمات موجزة للادارة . وكانت على حياد قليل ، ولم تكن لديها الكفاءة على اطلاع الحكومات الأجنبية حول تغيير أوضاعنا ، وفيما يختص بالصين ، وسياستنا الدفاعية والشرق الأوسط ، التي كانت غالباً منوهاً بها في بيانات الرئيس السنوية .

إن البيان الرئاسي الأول ، المنشور في الثامن عشر من شهر شباط عام ١٩٧٠ ، كان يعلن دون تحفظ ، ان علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي ، كانت بمجموعها ، بعيدة جداً عن ارضائنا ، إذ فيما يخص فييتنام ، فان السوفييت ، ألحقوا ضرراً بقضية الصلح ، بعدم محاولتهم ممارسة نفوذهم الفعال حول مفاوضات فييتنام الشمالية في باريس ، ويحملون مسؤولية كبرى في سبيل متابعة الحرب ، بسبب ارسالهم الأسلحة إلى فييتنام الشمالية . وبخصوص الشرق الأوسط ، أوضح البيان : (أن الروس لم يكونوا واقعيين ولا بنّائين ، واتخذوا لأنفسهم مخرجاً حسناً من الأحداث . ويضيف البيان ، ان السوفييت كانوا يسعون على أية حال الى نقطة ستراتيجية في كل هذه المنطقة ، الأمر الذي يسهم ولو بوجه الاحتمال ، بإثارة الخصوصية بين القوتين الأعظيمتين) . ( وهذا ما كان عليه الوضع عام ١٩٧٠ عند حدوث أزمتي الشرق الأوسط ) .

لم يبد الاتحاد السوفييتي أية حركة في عام ١٩٦٩ ، ولكن بشكل خفي تقريباً ، أخذت ترتسم دلائل التحرك . وفي موضوع السياسة الخارجية ، فان القرارات المتخذة من قبل أي بلد له أهميته ، هي نتيجة حتمية لمزيج معقد من الضغوط الادارية والقومية والدولية ، وفي الاتحاد

السوفييتي ، فان الادارة والطريقة التي تتخذ بموجبها القرارات هي بوجه خاص معقدة . وفي عام ١٩٦٩ ، وجب على السوفييت التعامل مع حكومة أمريكية جديدة ، الأمر الذي يفرض عليهم وبصورة دائمة مشكلة تكيف هامة . وأضف الى ذلك ، فقد كنا على أهمية تعديل اجراءاتنا . غير أن الحكومة السوفييتية ، ليست معتادة على معالجة المشاكل دفعة واحدة ، عندما تكون في الأفق مفاوضات مفاجئة ، وتقريباً كانت الأحداث تسبقهم . وبالرغم من أن الجهاز الاداري السوفييتي معقد ، فان عدده يقل في المراتب العليا ، ويقتصر على عدد ضئيل من الشخصيات عند اتخاذ القرارات النهائية ، وتعود هذه الأوامر فتنقل عن يد وسطاء عديدين . يؤلم السوفييت اتخاذ القرارات ، لأنها تعرض بنفوذ قادتهم ، ولذا فانهم لا يقدمون على اجراء تغيير الا بعد تحفظ وتردد كبيرين . أضف الى ذلك ، ففي عام ١٩٦٩ ، فان النزاع مع الصين ، قد استرعى تقريباً كامل انتباه القادة السوفييت . والمجابهات العسكرية الحقيقية على طول الجبهة الصينية . السوفييتية في شهر آذار وطيلة فصل الصيف ، أثارت داخل الحكومة السوفييتية ، نزاعاً ايديولوجياً هاماً ، وطبعاً بالاضافة الى محادثات رسمية بخصوص السياسية الواجب اتباعها ، وأخيراً فتح مفاوضات في موضوع الحدود .

مع ذلك ، فان السبب الرئيسي الذي منع الروس عن التحرك عام ١٩٦٩ ، هو أن الظروف لم توضح لهم بعد الأفضليات أو العوائق الكافية لحملهم على اتخاذ قرارات . وفيما يتعلق بفييتنام ، ربما أن قضية ظهرت ذات فائدة لرغباتهم ، في أن يأتوا لعوننا بوضع حد لهذه الحرب ، مع العلم أن هذه الحرب كانت تسيء الى العلاقات الأمريكية . السوفييتية ، وبعد نضج تفكير عزم السوفييت على اجراء ضغوط على حليفهم . وبالحقيقة فان خطر قطع العلاقات الأمريكية . السوفييتية بقي نظرياً ، ومغانم تسوية الحرب تتعلق بالظروف ، لذا فان موسكو عمدت إلى إطالة الأمور . انها الظروف في الواقع ، هي التي منعت السوفييت من اتخاذ قرارات . ولم تؤلمهم أبداً عدم الاستجابة لندائنا عندما طلبنا العون منهم . وفي الوقت المناسب ، أخذنا بعين الاعتبار موقفهم حول عدم تقوية التزامنا العسكري . وأعتقد حالياً أننا ارتكبنا خطأ . وعند اعادتي الوثائق الضرورية لتأليف هذا الكتاب . صعقت من لهجة تصريحات السوفييت ، الحكيمة والحذرة . وكانوا يخشون تعزيز تدخلنا السعكري (وعدم حل القضايا ، وتصعيد الوضع الدولي) ونكون في وضع عام خطر . ولكنهم لم يسعوا إلى استخدام التهديد في لحظة ما . ومرّة واحدة ، نبهني دوبرينين ، إلى أننا إذا عدنا من جديد إلى قصف هانوي وها يفونغ ، الذي أوقفه الرئيس جونسون عام ١٩٦٨ ، فان أفواج سلاح الهندسة الصيني ، التي كانت قد انسحبت قبل بضع

سنوات ، هي على وشك الظهور ثانية في فييتنام ، الأمر الذي يقّوي النفوذ الصيني في هانوي . فكان جوابي التالي : (اذا كنتم تقدرون على ذلك ، فنحن قادرون عليه) . فصمت دوبرينين .

عندما نعود بذاكرتنا إلى الوراء ، فمن الواضح ، أن بغير تهديد المصالح السوفييتية ، لانتمكن من حملهم على اجراء ضغوط على حلفائهم في هانوي ذوي الفكرة المتسلطة . وهذا التشجيع هو بمثابة عون لنا ، وكان علينا مواكبته بإظهار الأخطار المداهمة وإلا فان الروس لا يعرضون هيبتهم للخطر في أعين الحكومات الأخرى من العالم الشيوعي . ولم نصل إلى نتيجة إلا في عام ١٩٧٢ ، إذ قبل السوفييت بمساعدتنا بفضل تقدير دقيق للغنم أو الخسارة . ولكن قبل هجوم فييتنام الشمالي يوم فصح عام ١٩٧٢ ، ولم نكن مهيمنين ابداً لمجابهة النتائج القومية والدولية لسياسة مثل هذه .

والقادة السوفييت لم يكونوا على اطلاع حسن ، لأي عواقب يتعرضون وأية فوائد يجنون . والرئيس وأنا ، كنا نكرر دون انقطاع ، ان مفاوضات الشرق الأوسط ، ستتقدم بسرعة ، منذ تسوية حرب فييتنام . ومع ذلك ، لم نستطع اعطاء دوبرينين جواباً دقيقاً عندما سألنا في الرابع عشر من شهر أيار قائلاً : (اذا انتهت الحرب فعلى أي عمل ستقدمون في سبيل تحسين علاقاتنا ؟) فلم استطع سوى اغرائه بالآمال المترتبة على مؤتمر القمة مع وعود غامضة في سبيل تحسين المبادلات التجارية أيضاً . وكانت مصالحنا في الشرق الأوسط معاكسة تماماً مصالح موسكو . كان يقوم هدفنا على محاولة انقاص ما يمكن من النفوذ الروسي . أما هدف الروس ، فكان وبكل تأكيد تقوية ، أو على الأقل الاحتفاظ بهذا النفوذ . ولم نكن مهيئين أبداً للتخلي عن مصالحنا في الشرق الأوسط في سبيل تسوية الوضع في فييتنام .

ليس هناك مجال للشك ، في ان سياستنا الداخلية شجعت السوفييت على إطالة أمد الأمور . وكانوا في خشية من رؤية نيكسون يلتزم بإعادة تسلح ضخم . وعرفوا حالاً جليّة الأمر ، بعد أن أخذوا بعين الاعتبار أن : في حال ازدياد المعارضة في الكونغرس ، فان الحكومة بكل تأكيد وفي أحسن الأحوال ستتخذ موقفاً في تجديد الموازنة المخصصة للدفاع . والبرامج الحربية الجديدة : منها ما كان موضع نزاع حقيقي ، والأخرى اقترعَ عليها بإحكام . وعند إقرارها ، فقد عُطِّل تطبيقها بانتظام ، والمال الذي كان مخصصاً لها أنقض كل عام . ومروست ضغوط من كل الجهات ، في سبيل إزالة كل أفضلية للمصاريف الحربية . وكان يبدو الأمر قليل الاحتمال ، في

ان يكون حلفاؤنا على استعداد لمساندة سياسة تتضمن أخطاراً كثيرة في فييتنام . وهذا أيضاً أحد الأسباب التي دعت ألا يكون للسوفييت مصلحة لحملهم على اتخاذ أي اجراء .

ولكن عندما اظهرنا أنفسنا على جانب عظيم من التفاؤل في موضوع العلاقات الأمريكية . السوفييتية في بداية عام ١٩٦٩ ، أخذنا نركز على تقدم سريع ، ونعمل في مجالات أخرى ، مظهرين هكذا قيمة سياسة الترابط . وأقمنا ستراتيجية أوصلت إلى إسقاط الأحلاف في الشرق الأوسط . وتقرنا من الصين ، بفضل سياسة موجهة إلى فييتنام ، وصرفنا النظر عن مساعدة السوفييت مدة ثلاث سنوات . كان يجب الحصول على ذلك عام ١٩٧٢ . قوينا علاقاتنا ضمن الحلف . وفي وسط هذه الاضطرابات الكثيرة ، الضغوط العديدة ، أدرك السوفييت ، اننا فيما لو برهنا عن تساهلات ، فان سياستنا ستبقى ثابتة ، محددة ، وجريئة عند الاقتضاء .

وفي نهاية عام ١٩٦٩ ، أرسلت للرئيس تحليلاً عن السياسة السوفييتية أعددته بمساعدة اثنين من معاوني ، هول سونفيلد ، وبيل هايلاند . وكان يبدأ هذا التحليل بتفنيد الحجة التي تنطلق منها السياسة السوفييتية دون تعبير ابداً في منهاجها العام .

( ومن المغري دائماً ان ننظر ملياً إلى بعض الأعمال السوفييتية ، وكأنها مسجّلة في منهاج عام . والكرملينيّون الأكثر تجربة ، ميّاليون غالباً إلى ترجمة كل عمل من أعمال القادة السوفييت وكأنه جزء مرتبط بمنهاج مهيّأً باعتناء تتسلسل فيه الأحداث من تلقاء ذاتها حتماً .

ولقد دلّت التجربة ان هذا لا يدوم طويلاً إلاّ نادراً . فمن أزمة صواريخ كوبا إلى غزو تشيكو سلوفاكيا ، حدث قسم كبير من الارتجال في السياسة السوفييتية ) .

وهذا كان برأيي ما يجب ان يحصل . كان لدى الكرملين القدرة على العمل . وكل مرة ، كانت تظهر أعمال السوفييت وكأنها مستوحاة من حالات معينة . كان بعض المختصين يرون ان هناك ارتباطاً تعبويا ضيقاً بين المفاوضات الصينية . السوفيتية ووضع السوفييت حين اجراء مفاوضات (سالت) ، وبإطالة أمد هذه المفاوضات ، يتمكن الروس ، من اغتنام هذه الظروف ، ليشعروا الصين انها ضحيّة مؤامرة أمريكية . سوفييتية . والعقبة العظيمة من هذه الظروف ، كانت تتأتّى من أن موقف السوفييت في مفاوضات (سالت) كان يطبَّق دون اللجوء إلى القضية الصينية ، وتعطيل المفاوضات مع الصين بسبب طبيعة القضايا المعالجة . وسبب عدم اتخاذ السوفييت موقفاً صريحاً عند اجراء مفاوضات سالت ، كان في ارتياد الجو تماماً كما كنا نفعل نحن ،

وليعرفوا أيضاً مستوى الضغوط الداخلية التي نعيشها ، وهل تحملنا هذه الضغوط على تقديم تساهلات أو تصل بنا إلى تحديد برامجنا الحربية ، وجواب الصين على ضغوط السوفييت العسكرية كان ارسالها مبعوثين إلينا . وهكذا ، إذا اعتقد الروس باقناع الصينيين بفائدة الاشتراك بمفاوضات سالت ، فربما ينجحون بذلك إلى حد ما ، لكن النتيجة لن تكون لصالحهم ، لأنهم يعجلون بعملهم هذا الاتصال بين الصين وبيننا . وفي أوروبا ، بدل اتخاذ موقف أكثر تساهلاً ليترك لهم المجال حرّاً للتعامل مع الصين ، فان السوفييت اظهروا عناداً خلال المحادثات الأولى التي أجروها مع حكومة ويللّي براندت الجديدة ، معتمدين كثيراً على رغبة أوروبا الغربية بإيجاد انفراج للوصول إلى تساهلات مبرهنين على تصلبهم برأيهم .

وذيّلت تحليلي التقديري بهذه الخلاصة :

« كنتيجة نهائية ، لا يبدو ، ان هناك سلكاً ناقلاً في السياسة السوفييتية » .

وقبل ايجاد السلك الناقل ، فان القادة السوفييت مارسوا سياسة سمتيّة . ولم يحدث بيننا اتصال إلا بعد التغلب على صدمات قاسية في عامي ١٩٧٠ و ١٩٧١ ، حيث أخذت العلاقات بين بلدينا مرحلة ايجابيّة .

— ٦ —

## خطوات أوليّة باتجاه الصين

عندما أكملنا انشاء الاعلان المتضمن زيارتي السرّية إلى الصين في شهر تموز من عام ١٩٧١ ، صرّح شو ان . لاي ان هذا الخبر سيهز العالم ، وكان على حق . لم يكن هذا الخبر مثيراً فقط بالنسبة للعالم ، بل هو حدث سيغيّر بين اليوم والآخر بنية السياسة الدولية . وبعد عشرين سنة من الانعزال المر ، كان مبعوث أمريكي ، يضع رجله على أرض الصين العجيبة ، وكان على رئيسه أن يقتفي خطاه حالاً . كل هذا مذهل و مفاجئ ، لكنه ، مكافأة لثلاثين شهراً من الاستعدادات الصبورة والحكيمة ، والتي خلالها ، كان كل فريق يتقدم بخطى ثابتة ، وباحتراس ، جاسّاً الأرض لاجتناب الفشل ، ومقدراً تفهمة لكي لا يوهن عزيمة ، بسبب تصريح قاس ، حلفائه القلقين ، ولكي لا يعطي أعداءه نصيباً ستراتيجياً جديداً .

دهشناً نحن أنفسنا : و عند هذه الانطلاقة ، لم نكن نعتقد أن المصالحة ممكنة ، لأننا كنا على يقين من تعصب و عداوة الصينيين . و مع ذلك ، و بالرغم من عدم معرفتنا لاتخاذ الخطوات الأولى ، كنا على اعتقاد . نيكسون و أنا . بأهميّة الانفتاح باتجاه جمهورية الصين الشعبية .

وبالحقيقة، فان الأحداث كانت مؤاتية لنا، لكني أشك في قدرة أية حكومة أخرى، على أحداث هذا التقارب بهذه الروح وهذا التصميم. وبالنسبة لنيكسون، فقد كانت لديه موهبة فائقة باصابة الهدف. وكانت المناورات التعبوية والحجج القوية قلما تهمه، كما كان يكره البحث الطويل في تفصيلات عملية. وحالما يعزم على تطبيق سياسية ما، كان يكفي بصورة دائمة تقريباً، ضمان تنفيذها، واتخاذ التفصيلات الادارية اللازمة لها. ومع ذلك، لم أتمكن _ من جهتي _ الوصول الى نفس النتائج التي كان يصل اليها نيكسون، وتهيئة ما يلزم اتباعه من خطوات، اذا لم تكن لدى السلطة السياسية ولا الكفائة الادارية، لألقي بنفسي وحيداً في مغامرة سياسية بهذا الاتساع. كان نيكسون متفهماً بدقة أهمية المجازفة، ويدير سفينته بكثير من الحكمة وفي الوقت المناسب. ركيزته الانتخابية كانت من اليمين، لذا كان في مأمن من كل اتهام من قبل مؤيدي

الشيوعية، وطريقته الادارية كانت تقوم على سياسة سرية ومنفردة يديرها هو بنفسه. وبالنسبة لنيكسون فان مجلس الأمن القومي، وطريقة اعداده للخيارات السياسية المختلفة، كانت هذه مفيدة له على الأقل، بإطلاعه على وجهة نظر الادارة التي لم يكن على ثقة منها، وكانت هذه الأمور مجتمعة تسمح له بالتستر حول أهدافه الشخصية.

ومع ذلك فأن وجهات نظرنا الخاصة، كانت في بعض المجالات. وبالنسبة لنيكسون فان انفتاح على الصين سيسمح له بالضغط على الروس للحد من عونهم لفييتنام. أما أنا فكنت أهتم كثيراً بأثر هذا الانفتاح الحاسم على بنية العلاقات الدولية. كان نيكسون يميل الى الاعتقاد أن في وضع حد لعزلة ثمانمائة مليون صيني، يجنب السلام تهديداً خطيراً. وبتقديري أن نشاط الصين في السياسة الخارجية يتطلب منا سياسة دقيقة وتوجيهها في اتجاه معقد ربما أثر على مجموع العلاقات الدولية، لكن هذه الاختلافات في وجهة النظر كانت ترتكز على التفكير الأساسي ذاته : علاقات ثلاثية بين الاتحاد السوفييتي والصين و الولايات المتحدة تكون لمصلحة السعي بايجاد السلام. وتلاقينا كلانا في النتيجة ذاتها. وفي تشرين الأول من عام ١٩٦٧، كتب نيكسون مقالاً هاماً نشرته مجلة الشؤون الخارجية :

« على المدى الطويل، لانتمكن وبكل بساطة من السماح لأنفسنا ترك الصين الى الأبد غير محسوبة بين الأمم، تكمل آمالها، وتضع أحقادها، وتهدد جيرانها. ولا يعقل ترك مليار من البشر على هذا الكوكب الصغير، يعيش في كآبة وعزلة، مع أنه أكثر قدرة من غيره على الحياة. ولكن سنصل الى كارثة، عند متابعة هذه الأمر الخطير، اذا لم نُعِر اهتماماً كبيراً لما في التاريخ من عبر ...

وبعبارة مختصرة، يجدر بنا انتهاج سياسة جدّ حكيمة، دون انتظار أية مكافأة، وبضغوط لبقة، سوف نقنع بكين ان مصالحها تتوقف منذ الآن على قبولها الأنظمة السياسية للتمدّن الدولي. وعلى المدى الطويل، يجب ان نعيد للصين مكانتها في المجتمع الدولي، ليس فقط بكونها مركزاً سطحياً في الثورة العالمية، بل لأنها أمة كبيرة في تقدّم ».

وفي مقابلة مع مجلة بتاريخ التاسع من شهر آب عام ١٩٦٩، تماماً بعد تسمية مرشحاً للرئاسة، كان نكسون يعيد للأذهان :

« يجب علينا ألاّ ننسى الصين، وعلينا أيضاً اغتنام جميع الفرص لبدء محادثات معها تماماً كما مع الاتحاد السوفييتي .... ولا نكتفي بالانتباه للتبادلات الحكومية، بل علينا الذهاب اليها .... » .

وبالنسبة لي يقول كيسينجر : لم أعالج في كتاباتي قضية الصين كثيراً. ففي عام ١٩٦١، تيّقنت ان سيحصل هناك قطع علاقات بين الصين والسوفييت. وأكّدت على عدم إهمال توقّعي هذا » . « واذا أصبح هذا التوقع حقيقة : يجب الاستفادة منه ». لكننا غير قادرين على ايجاد هذا العداء، ولا التركيز عليه في سبيل ادارة سياستنا. ( نحن على علم الآن ان قطع العلاقات أصبح واقعياً في هذه الفترة ). وفي مقال حول مفاوضات في فييتنام، الذي كتبته بعد ذلك بثلاثة أشهر والذي لم ينشر سوى في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ في مجلة الشؤون الخارجية : « كنت اؤكد على أن الفكرة السوفييتية التي تعطى لموسكو حق التدخل لحماية الأنظمة القومية في البلاد الاشتراكية، ربما ان هذه الفكرة تقرب وقوع حرب بين الصين والسوفييت. لأن الاتهامات التي كانت توجهها موسكو ضد الصين، كانت أشد ضراوة من تلك التي توجه ضد براغ ». وكنت أرى فيها امكانية إحداث مشكلة خطيرة لهانوي _ مشكلة ستدفع بهذه الأخيرة للوصول إلى عقد اتفاق. وخصوصاً في شهر تموز من عام ١٩٦٨، قبل الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا، كانت تعاونت مع نلسون روكفلر على تهيئة خطاب ألقاه حول العلاقات الأمريكية _ السوفييتية، وكان يحدّد في أحد مقاطعه السياسية المستقبلية : « علينا أن نبرهن على قدرتنا في التعامل مع عدة مراكز قوّة شيوعية متنافسة .. وعلينا أيضاً بدء محادثات مع الصين، وعند توفّر مثلّث علاقات حسنة بين واشنطون، بكين وموسكو، تزيد امكانية الانفراج مع كل من شركائنا، ونقوي في الوقت ذاته، اتصالاتنا مع الاثنين ».

وكنت ابني وجهة نظري على مفهومي العالم لوجهة السياسة الخارجية. اذ كنت اعتبر ان علاقتنا، مع من نتوقع معاداتهم، يجب ان تكون امكانيات الانفراج مع كل منهم أكبر مما هي عليه بينهم. واذا توصلنا يوماً إلى إعتاق سياستنا من جمود عشرين سنة، فان كل قوّة عظمى شيوعية، ستطالب بإقامة علاقات ثقافية معنا.

كان مثقفون عديدون يطالبون بتقرّب مع الصين، لكن هذه الطريقة في معالجة الأمر، لم تكن جماعية. ان تحسين العلاقات، برأي بعض علماء الحضارة الصينية، كان هدفاً بحدّ ذاته، وعلى الولايات المتحدة ان تستعد لتساهلات ضرورية. خلال فترة الانتقال، أرسل فريق من

أساتذة هارفرد، ومعهد ماتا شوسيت اللامعين، مثلاً، أرسلوا بتقرير الى نكسون حول السياسية تجاه الصين. وكانوا يلحقون في تقريرهم على التقرب من الصين، وقطع العلاقات مع تايوان، ودعوة الصين الى الانظمام للأمم المتحدة. وتقرير هؤلاء لم يكن يبيّن _ ولا أذكر أن أحداً من أخصائي الصين عمل ذلك في هذه الفترة _ لا الفائدة الجغرافية السياسية التي نجنيها بعلاقتنا مع الاتحاد السوفييتي، ولا رغبة الصين في التقرب منّا، حتى باجراء تساهلات من قبلنا، وذلك لسبب بسيط وهو أن الصين كانت بحاجة لجعل توازن بينها وبين الاتحاد السوفييتي.

لكن يجدر بنا القول : ان كل افكار التقرب هذه، مهما كانت قيمتها، لا تزال بعد غامضة في حال استلام الحكومة الجديدة. وفي الواقع، فان عزلة الصين الكاملة، والايديزلزجية العدائية، كانتا مستمرّتين منذ عشرين عاماً، وتقاتل الجنود الأمريكان والصينيّون بضراوة أثناء حرب كوريا. جرت أول اتصالات بين موظفي القنصليات الأمريكية والصينية في جنيف عام ١٩٥٤. وتتابعت هذه الاتصالات عام ١٩٥٥، بين السفراء، ومن ثم أكملت في فرسوفيا. وفي العاشر من شهر أيلول لعام ١٩٥٥، عقد الاتفاق حول اعادة بعض الرعايا الى أوطانهم. وهذا كان كل ما في الأمر. وبين عامي ١٩٥٤ و ١٩٦٩، جرى مائة واربعة وثلاثون لقاء، دون الوصول إلى أية نتيجة ملموسة.

وفي الثامنة والعشرين من شهر أيار عام ١٩٦٨، أحيت بكين المفاوضات مقترحة تاريخين للخيار في شهر تشرين الثاني، بعد الانتخابات الأمريكية. وأخذ راديو بكين يؤكد « أن ليس هناك مايمكن بحثه الآن ». وظهرت أول بادرة صغيرة من التغيير بعد أحداث الحادي و الشعرين من شهر آب عام ١٩٦٨، أعني بعد غزو السوفييت لتشيكوسلوفاكيا. حين حدوث عصيان عام ١٩٥٦ في بولونيا و هنغاريا، حاول الصينيون القيام بدور المصلحين، أما هذه المرّة، فان ردّ الفعل لديهم كانت إدانة الاتحاد السوفييتي بشدة. وفي السابع عشر من شهر آذار، مثلاً، وصفت صحيفة الشعب اليوميّة _ صحيفة الحزب الشيوعي الصيني _ أن الغزر كان « عدواناً مسلّحاً واحتلالاً عسكرياً » ، من قبل طغمة سوفييتية مارقة رجعية ». وكانت تصف عمل بريجنيف هذا بالتسلّط وأنه « يمثل نظرية فاشستية بحتة ». وبعد أن تكنت روسيا من وضعها في تشيكوسلوفاكيا، كانت فكرة بريجينيف تتجه نحو الصين، بقدر ما تتجه الى أي بلد غيرها من بلدان أوروبا الشرقية، وربما أكثر، بم أن الصين كانت تبدي عداوة نحو الاتحاد السوفييتي.

وهكـذا ففـي الـسادي والعـشرين مـن شـهر تـشرين الثـاني، أي ثلاثـة أشـهر بعـد غـزو تشيكوسلوفاكيا، وتماماً بعد الانتخابات الأمريكية، اقترحت الصين، موعداً آخر في العشرين من شهر شباط، للقاء بينها وبين الولايات المتحدة في فرسوفيا. وبموجب تقليد صيني قديم بعد إظهار حاجة العون من أحد، فان بكين أظهرت لهجة التحدّي ، حآثة ومطالبة الولايات المتحدة بقبـول « اتفاق بموجب مبادىء التعايش السلمي الخمسة : سحب جميع قوات المسلحة من أراضي تايوان الصينية، ومن مضيق فورموزا، وتدمير كافة منشآتها العسكرية في مقاطعة تايوان ذاتها ».

وأصبح الاتحـاد الـسوفييتي وبـصراحة، الموضـوع الأساسـي لاتهامـات الـسياسة الخارجيـة الصينية. وكان لهذا العداء الصيني _ السوفييتي عدة أسباب. فان الحلف المحدود، كان يرى مهدداً بضغوط متكاثرة جرت مبدئياً بصمت : ومنها الخلاف الأيديولوجياً الذي نمته الصين، حين أعلنت انها أقامت مجتمعاً شيوعياً، دون المرور بالمرحلة الاشتراكية ( بلاغ ماوتسي . تونغ حين أعلن ان بكين تتبع مبدأ ايديولوجياً أنقى مما هو عليه في موسكو ) منافسة قومية بين الدولتين العظميين، وعدم ثقة متكاثرة. وفي نهاية الأعوام ١٩٥٠، رفض خروتشيف التعاون النووي، فرّد الصينوين بوابل من الانتقادات الايديولوجية. وفي عام ١٩٥٩، سحب الاتحاد السوفييتي مستشاريه التقنيّين من الصين، مع وضع حدّ لعونة الاقتصادي. ونفور شخصي أعلن عن نفسه بين رؤساء الحزبين الشيوعيين، بالرغم من مبادىء الماركسية واللينينية ضد الذاتانية. وأعاد الصينيون الى الأذهان مما حكات قديمة، مطالبين بإعادة الأراضي الواسعة في سيبريا، التي اختص بها القياصرة أنفسهم، كما كانوا يقولون، طيلة القرون التي كان يتوسع بها الروس.

وفي عام ١٩٦٩، أخذ النزاع السياسي وجهة عسكرية مقلقة. وحتى عامي ١٩٦٥ _ ١٩٦٦ تقريباً، أقيم توازن على طول حدود الصينية _ السوفييتية، والقوى المتركّزة على هذه الجهة أو تلك، كانت نسبياً ضعيفة. وعلى حدود سينكيان، كانت القوات السوفييتية أكثر عدداً من القوات الصينية. وكان العكس على حدود منشوريا. ولابد من القول أن الجيش السوفييتي كان بإعداد أحسن ويتمتع بمساندة أكثر أهمية. بدأت حوادث الحدود نحو عام ١٩٥٩ وأخذت تحتدم. غير أنه لم تحدث أية تعبئة عامّة منذ سنوات عدّة، لا من هذا الجانب أو الآخر. ثم في بداية عام ١٩٦٦، أخذت السوفييت ينقلون من أوروبا الوسطى الى الشرق الأقصى، وحدات قتال، مدرّبة تدريباً عالياً ومجهزة تجهيزاً حسناً أيضاً. وظهرت للوجود الصواريخ الأرض _ أرض ذات الرؤوس النووية. حدث مقلق جداً بالنسبة للصين، وفي كانون الثاني من عام ١٩٦٦، وقّع الاتحاد السوفييتي،

معاهدة صداقة، وتعاون، متبادل مع منغوليا. كانت مدة هذه المعاهدة عشرين عاماً، وتسمح للاتحاد السوفييتي بارسال قوات الى منغوليا. وأن تقيم فيها مراكز عسكرية. وعدد الفرق السوفييتية الموضوعة على طول الحدود الصينية، انتقل من اثنتي عشرة فرقة متخلفة التجهيز في عام ١٩٦٤ الى ما يقارب أربعين فرقة مجهزة تجهيزاً عصرياً عام ١٩٧٠.

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ح١٩٦٨، قبلت الحكومة جونسون، بمباركة ورضى الرئيس المنتخب، ريتشارد نكسون العودة الى مفاوضات فرسوفيا التي كانت تقترحها الصين.

( ولم اكن بعد قد انتخبت معاوناً لنكسون ) .

# الدّلالات الأولى

بعد فوات الأوان، كل السياسات المثمرة ظهرت وكأنها نُظّمت سلفاً، ويزعم القادة انهم توقعوا نجاحهم، ويسّمون تخطيطاً ما لم يكن بصورة عامة سوى سلسلة من الارتجالات. وهذا ما جرت عليه الأمور في قضية الصين. اذ كان بنيّة الحكومة الجديدة اتخاذ مرحلة جديدة، وبنيّة صادقة وعزم مكين، وعليها تحديد الكيفية. كما كان عليها الأخذ بعين الاعتبار المعطيات القومية، والتي هي ربما ليست بجانبها، لاسيما المعارضة الصينية التقليدية المحافظة التي لم تغفر قط لترومان وأشيسون خيانتها لشيانغ كاي _ شك.

وطبعاً كان قادة بكين يواجهون المشكلة ذاتها. يمكننا القول ان ماو تسي _ تونغ، كان عازماً على التقرب من الولايات المتحدة، بعد غزو الروس لتشيكو سلوفاكيا بقليل، لكن بلده كان خارجاً حديثاً من الثورة الثقافية. وبهذه الثورة، سعى ماو لإزالة كل نزعة حتمية في الدول الشيوعية الى الدَيوَنَة والتجميد، فارضاً ثورة دائمة عليا _ أحد المثل التي يعطيه التاريخ عن رئيس دولة قلب وبدّل بعزم وتروّ منشآت بلده في غاية تثقيف شعبه. وأصبح لهذه الثورة أثر عظيم بل حاسم على السياسة الخارجية الصينية : ففي عام ١٩٦٩، لم يكن للصين سوى سفير واحد في التاريخ (هوانغ هوا، في القاهرة، الذي أصبح فيما بعد سفيراً لدى الولايات المتحدة ثم وزيراً للشؤون الخارجية).

كانت احدى الاجراءات الهامة التي قامت بها حكومة نكسون وبشكل متناقض هي عدم عمل أي شيء. أما حكومة جونسون فكانت قد استخدمت شبح شيوعية الصين الأسيويّة، في سبيل تعديل أساسي لحرب فييتنام. وفي السابع من شهر نيسان ١٩٦٥، أكد جونسون، في خطاب ألقاه في جامعة هوبكنز، ان زعماء هانوي دفعوا للحرب من قبل بكين. وان النزاع في فييتنام يشكل جزءاً من مجموعة اعتداءات متعمدة. وفي الاتجاه ذاته، صرّح دين راسك وزير الشؤون الخارجية، أمام لجنة مجلس الشيوخ للشؤون الخارجية، في الثامن عشر من شهر شباط عام ١٩٦٦، ان بكين كانت المحرّضة على العدوان وبالتواطؤ مع هانوي. وبعكس ذلك، فان حكومة نكسون، اهتمت منذ البداية، عدم الاشارة أو التدليل ان التزام أمريكا بفييتنام، لأسباب عدائية صينية.

ولم نكن على استعداد للموافقة على تحليل جونسون، الذي لا نتيجة له سوى تكثير أعداء أمريكا.

دلّلت الأشهر الأولى، على آراء متناقضة. وصرّح نكسون في خطاب توليته، وبكلمات مبهمة، ان الحكومة الجديدة راغبة في بدء محادثات مع الصين : « لتعلم كل الشعوب جيداً، ان كل الاتصالات ستصبح ممكنة في ظل هذه الحكومة : اننا نريد عالماً منفتحاً، منفتحاً للافكار، للتجارة ، للاتصالات الانسانية، عالماً لا يعيش فيه أي شعب، كبير أو صغير، لا يعيش في كآبة وانعزال ». هاتان الكلمتان الأخيرتان، كانتا تذكران بمقالة لعام ١٩٦٧ في مجلة الشؤون الخارجية. ولم يكن لهما أي ردّ فعل : فليس على الصينيين ان يتأثروا بتلميح بسيط وينقادوا الى المصالحة.

وفي اليوم التالي، لتسلّم نكسون منصبه، فان وكالة الصين الجديدة وصفت هذا الأخير، « بأنه دمية على حساب طغمة برجوازية احتكارية، والامبريالية الأمريكية العازمة على متابعة عدوانها التوسيعي في العسعي في العالم ». وحسب الوكالة أيضاً : « فان عدم صراحة نكسون، والمظاهرات التي قامت ضدّه في واشنطون يوم توليته، تظهر جميعها ان الامبريالية الأمريكية كانت في حالة احتضار وفي أزمة عارمة. وصحيفة الشعب اليومية الصادرة بتاريخ الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني، كانت مبتهجة، مؤكدة ان الامبرياللية الأمريكية، « تعيش ساعاتها الأخيرة ». وكان كاتب المقال يتهكم : « ولو ان جميع وسائل نكسون قد نفدت، بقيت لديه وقاحة التكلم عن المستقبل .... ومن كانت احدى رجليه في القبر، يعزّي نفسه حالما بالجنّة. اننا نحضر هذيان واختلاج طبقة، على أهبة الموت والانقراض ».

خطاب تولية نكسون كان أهلاً برئيس دولة، لكن الصحفيين الصينيين كان لديهم أقلام لاذعة جداً.

في أيامه الأولى، كان نكسون يظهر بالواقع قريباً من حالة الفُصام. وخمسة أيام بعد توليته، أرسل مذكرة لروجرز ولي: يبيّن فيها أن أحد سفرائنا في أوروبا، لم يوفّق الى منع البلد التي يقيم فيها من التعرّف رسمياً على بكين. « واضاف ان هذا السفير كارثة حقيقية ». أخذنا أمر التخلص منه حالاً ». وفي أول مؤتمر لنكسون عن الوضع، في السابعة والعشرين من شهر كانون الثاني، سئل عن نيته بتلطيف الأجواء مع الصين : فقدّم عرضاً طويلاً عن العداء الصيني، وخلص الى

القول، ستصبح لدى الصين الفرصة لاظهار وضعها ونواياها في لقاء فرسوفيا القادم. « وفي حال عدم ظهور أي تغيير من الجانب الصينيين، فاني لا أرى في الأفق أي تعديل لسياستنا ».

وهذا كان يعني طبعاً، أن اذا غيرت الصين من جهة أو أخرى سنقبل ذلك ونرحب به. ان هذا التصريح وبصيغة الحالية، لم يكن ليختلف أبداً عن تصاريح الحكومات السابقة. وبالمقابل، فان هذا التصريح كان يغاير تماماً التصاريح المتساهلة التي فاه بها نكسون وفي المؤتمر نفسه حول سياسته مع الاتحاد السوفييتي، من مفاوضات حول تحديد التسلّح الستراتيجي، ومعاهدة عدم إكثار الأسلحة النووية. والصينيون قليلو الثقة، اظطروا أن يروا في هذه التصريحات تحقيق حكم ثنائي يقضّ مضاجعهم. أضف إلى ذلك حادثاً أخر كان يقلقهم، فثلاثة أيام قبل هذا المؤتمر الصحفي، فرّ القائم بالاعمال الصيني في هولندا، وطلب اللجوء الى الولايات المتحدة. وفي السادس من شهر شباط، اعترض الصينيون ، وفي الثامن عشر منه، ألغوا لقاء فرفوسيا، المتوقع اجراؤه في العشرين منه، مؤكدين ان الولايات المتحدة هي التي حرّضت القائم باعمال على خيانة وطنه، وان وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية هي التي اختطفته. ولكي لا يبقى صامتاً، في مؤتمره الصحفي في الرابع من شهر آذار، جمّد أي أمل بامكانية التقرب من الصين، إذ قال : سنستطيع بالمستقبل، اجراء محاولة أفضل مع الصين الشيوعية. ولك علينا ان نكون واقعيين : لا أرى كيف يمكن أن نتفأل وننتظر تقدماً بهذا الصدد في الوقت الذي رفضته فيه الصين الاشتراك في مفاوضات فرفوسيا التي كان قد حدّد موعدها ».

ومع ذلك، فقد كتب لنيكسون ، في أوائل شهر شباط، على أثر تقرير كنت بيّنت فيه، بدء بعض القلاقل، في أوروبا المركزية، حول الموضوع الاتصالات المتوقّعة بين الصين والأمريكان :

« أخذت علماً، من تقريركم المؤرخ في الحادي والثلاثون من شهر كانون الثاني، عن معلومات مفيدة جداً، مرسلة من مخبرنا في أوروبا المركزية. وأعتقد بوجوب تشجيع حكومتنا « نحو السعى في تحقيق تقرب مع الصينيين ». ويجب ان يتم هذه بسريّة، ولا يعلم أحد به من الشعب. غير أن، في محادثاتكم مع أصدقائكم، واتصالاتكم المحتملة التي تتمكنون اجراءها مع هذا المخبر، سأكمل توسيع هذه الفكرة ».

لم تكن هذه المذكرة لتطلب مني في أية حال العمل في سبيل تقارب. لقد كانت تعلمني فقط ، ان أبث انطباعاً لدى الشعب أننا نحاول اجراء اتصالات مع الصين . و كان عليّ بالإضافة الى

ذلك بثّ هذه الفكرة ليس لدى اصدقائي من الصينيين بل في أوربا الشرقية. هدف هذه المناورة كان اقلاق السوفييت ، و بكل تأكيد ، فان اهتمام نكسون أصبح معلوماً ، في حثهم على مساعدتنا لوضع حدّ للحرب في فييتنام .

اغتنمت ورود مذكرة نكسون، للعمل على اعادة النظر في سياستنا العامّة، ففي الخامس من شهر شباط، طلبت دراسة بَيوزارية حول المشكلة الصينية. وكان على الوزارات وبالقي المصالح العمل خصوصاً ضمن المنهج التالي :

١. الوضع الحالي للعلاقات الأمريكية مع الصين الشيوعية وجمهورية الصين.

٢. طبيعة تهديد ونوايا الصين الشيوعية لآسيا.

٣ـ التفاعل بين السياسة الأمريكية وسياسة البلدان الأخرى الكبيرة ذات المصطلحة تجاه الصين.

٤ـ الحلول المختلفة بنظر الولايات المتحدة، في مجال العلاقات مع الصين كلفتها ومسؤوليتها.

كذلك عادت الصين بمخيلاتها الى المحادثات التي كان نكسون قد أجراها مع الجنرال ديغول عند زيارته لباريس في الأول من شهر آذار للعام ١٩٦٩. وفي الوقاع لم يطلب نكسون أية مساعدة خاصة من دي غول، انما ديغول هو الذي فتح الموضوع، فأظهر نكسون القبول. وحسب عادته، أكد دي غول وبصحافة كبرى على أهمية الصين، هذه الأمة الكبيرة، ذات الغنى الواسع في مواردها. وعلى مدى الزمن، أردف دي غول : سيبسط الصينيون نفذهم على العالم قاطبة، وأطماعهم متساوية مع مواهبهم. وليس من الحكمة ان نلقى لهم الحبل على الغارب. فلا تكون الاتصالات إلاّ ذات فائدة. فاجاب نكسون : أن لن يكون هناك أي تغيير في المدى المنظور، لاسيما بسبب القلق الذي تحدثه سياسية كهذه في باقي آسيا. وبعكس ذلك، وعلى المدى الطويل، أي ربما خلال عشرين عاماً، ستحدث اتصالات أكثر مع الصين، خصوصاً بعد تقدّمها في مجال الأسلحة النووية. وجواب نكسون هذا غير المباشر، كان يبين وبكل وضوح أنه لايرية اتخاذ قرار نهائي : كان يفضل التريث عشر سنوات، لا أن يغتنم أول فرصة تسنح. وبتعبير أصح، كان هذا يعكس أن ليس لدى الحكومة الجديدة في الوقاع أي مخطّط محدّد.

لأجل هذا، أخذنا في الرابع عشر من آذار، بأحاديث، ظاهرا العداء الصينيين، عندما أعلن برنامجنا الدفاعي في مضادّات القذائف الصاروخية المسمّى « الواقي »، وكأن الرئيس يوحي بتوجيهه العدائي للصين، التي كانت قد وصفت برنامج الرئيس جونسون عام ١٩٦٧« بالحارس ». كان التفكير ذاته في الحالين، وكان من التعقل ان نحمي أنفسنا من هجوم المفاجئ أو مقصود من قبل قوّة صغيره نووية، دون محاولة تنظيم دفاع عظيم ضد الاتحاد السوفييتي، هذا دفاع الذي كان يطرح مشكلة ليس فقط على مستوى مراقبة التسلّح بل أيضاً في وضع الموازنة. وصرّح نكسون، علينا ألاّ نهمل تهديد الصين الذي تخيف به شعبنا، كما علينا أن نهتم أيضاً بأي هجوم مفاجئ . وعند أخذنا بهذا المنهج، سنحدّد خسائرنا بأصغر قدر ممكن، في حال عدوان صيني في الأعوام ١٩٧٠ أو هجوم مفاجئ من قبل أي بلد آخر. ومعظماً الأمور فيما يختص بالصين، تخيل الناس من كلام نكسون ان الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، كانت مصلحتها متساوية في احتواء الصين : « أفترض ان الاتحاد السوفييتي يرفض مثلنا أن يجد نفسه أعزلاً أمام تهديد كامن من قبل الصين الشيوعية. ولا أعتقد أن حد بلدينا يغضّ الطرف عن منهج التسلّح في حال إهماله، ما دام التهديد الصيني موجوداً ».

وكما كان منتظراً، فقد أعلنت وكالة الصين الجديدة، في السادس عشر من شهر آذار، أن برنامج : مضادّات القذائف الصاروخيّة، هو تواطؤ من قبل الأمريكيين والرجعيين السوفييت، الغاية منه لإبقائه على التهديد والابتزاز النووي، ضد الشعوب العالم كله، ولاسيما ضد الشعب الصيني. وهكذا إذاً، ففي شهر آذار من العام ١٩٦٩، بدت العلاقات الصينية الأمريكية كأنها مجمدة، في إطار من العداء المملوء بعدم التفاهم وعدم الثقة المتبادلة، ولفّتها طيلة عشرين عاماً. كانت نيّة الحكومة الجديدة في التقارب من الصين، دون معرفة كيفية اجرائه. وكل سياسة هي وليدة تلاقي الأفكار والمناسبات . وسنحت هذه المناسبة، عندما كنت الفرق السوفييتية، في مجابهة الفرق الصينية ، في بعض قطاعات سيبريا، على حافة النهر، ما سمعنا قط أحداً تحدّث عنه . ومنذ هذه اللحظة، أصبحت الأمور واضحة، ولا حاجة بعد للتردّد، فوجهنا نحو تغيير أساسي في السياسة العالمية.

# مجابهــات نهــر أسّــوري

في أعمق عمق آسيا الشمالية الشرقية ، يزيل الأوسّوري ، جزءاً يسيراً من ستة آلاف كيلومتر من الحدود بين الاتحاد السوفييتي والصين . وخطّ مستقيم، يصل فلاديفوستوك بكابارفوسك، يأتي ليساير فعلياً مسيرته . وعلى حوالي أربعمائة كيلومتر من فلاديفوستوك تقريباً، وفي منطقة مقفرة، توجد جزيرة صغيرة، يدعوها السوفييت داماناسكي. وتدعي شينياو من قبل الصينيين. انها جزيرة مقفرة، لكنها مغطاة بالأشجار، وتبلغ مساحتها كيلومتراً مربعاً من الامتار المربّعة، وهي أكثر قرباً من الساحل الصيني. والأراضي الكائنة على كل من جانبي هذا النهر هي مستنقعية، ومأهولة قليلاً بالسكان. وفي جهة ما من هذه الأراضي. هناك بعض الصيّادين والحطابين و حرس الحدود السوفييتين والصينيون، هم الكائنات الحية الوحيدة في هذه المنطقة. ولم يكن ممكناً تحديد جهة الحدود الموجودة في هذه الجزيرة . أكّد الصينييون في فترة ما، ان الحدود تمرّ في وسط النهر، الأمر الذي يجعل الجزيرة خاصة بهم . و السوفييت إياهم، أما الآن وقد يثبت التاريخ ان النهر هو تحت النفذ الروسي. فالجزيرة لهم. حتى الآن لم يستطع أحد أن يشرح بقدر كافٍ، لما يولي الفريقان أهمية كهذه لجزيرة في أرض منعزلة وغير مأهولة تقريباً .

صباح اليوم الثاني من شهر آذار لعام ١٩٦٩، وحسب قول الصحافة الروسية، ان ثلاثمائة جندي صيني كانوا مختبئين في الجزيرة، نصبوا كميناً بالرشّاشات لدورية من حرس الحدود الروسي. فقتلوا منها ثلاثة وعشرين وجرحوا أربعة عشر، خلال معركة دامت نحو عشرين دقيقة . فارسل الروس نجدة، لكنها وقعت أيضاً في كمين. وبناء على ذلك، أخلى الفريقان الجزيرة .

أقدم الروس حالاً إلى تعميم ذلك وبصورة غير عادية، إذا كان هذا الحادث دون السابقة. وكما يبدو، ان هذه المرة الأولى، التي يروي فيها أحد البلدين، حادثاً مسلّحاً، أو خسارات بشرية. وتبادل الفريقلن اعتراضات واتهامات للدعاية. وأعلن الصينيّون أن السوفييت قاموا بستة عشر تعدياً على جزيرة شينابو، منذ عام ١٩٦٧، جرى منها ثمانية في شهري كانون الثاني وشباط لعام ١٩٦٩ . واستشهدوا بلائحة طويلة من التعديّات السوفييتية على جزر أخرى من نهر أوسّوري، كانت هي السبب في الاقتتال، واستعمال الشدّة والاغتصاب تجاه صيادين صينيين، ودوريات حرس

الحدود، وسكان المنطقة. وفي الثالث من شهر آذار، احتلّ ما يقارب عشرة آلاف متظاهر صيني، السفارة الصينية في بكين، و في السابع منه ، هاجم مائة الف متظاهر روسي السفارة الصينية في موسكو محطمين الزجاج، وقاذفين زجاجات الحبر. وفي الثامن من شهر آذار، كتبت النجمة الحمراء وهي صحيفة وزارة الدفاع السوفييتي قائله : ان الفرق الروسية المتمركزة في الشرق الأوسط هي في حالة تأهب. وفي مؤتمر صحفي أقيم في وزارة الشؤون الخارجية السوفييتية، أطلع الناس على صور جنود روس قتلوا أو شوهوا من قبل الصينيين، وأذاع التلفزيون برنامجاً خاصاً عن المجابهات الحدودية. ومن جانبها فان الصحف الصينيّة الصادرة في الرابع من شهر آذار كانت تكتب : « فليسقط القياصرة الجدد . كما كان راديو بكين يعلن : ان اكثر من اربعمائة مليون شخص ( أي نصف الشعب الصيني ) كانوا يشاركون في المظاهرات المختلفة التي كانت تشمل كافة أراضي الصين.

أمّا نحن في واشنطن، فقد كنا منهكمين بقضيّة فييتنام، لكي نحسن التصرّف أمام أحداث، ما عرفنا قطّ مصدرها، والتي لم تتوضّح أمورها إلاّ بعد بضعة أسابيع. أضف إلى ذلك، أن فيما اذا كنت أنا شخصياً متعاطفاً مع اقامة علاقات ثلاثية، فمع ذلك فإني مع نيكسون كنا نعتبر ان جمهورية الصين الشعبيّة هي أكثر خطراً من كل القوات الشيوعية وعلى الأرجح، فان بكين هي التي بدأت بالقتال.

والغريب في الأمر، ان سياسة السوفييت غير الدقيقة، هي التي فتحت أمامنا كل هذه الآفاق. وفي الحادي عشر من شهر آذار، فان السفير دوبرينين، كلّمني وقد بدا عليه الاضطراب، عن أحداث أوسّوري. لكني لم أطرح عليه أي سؤال حول الموضوع. أما من جهته هو، فقد أصّر قطعاً على اعطائي جميع التفصيلات الدائمة، والوحشية التي ارتكبها الجنود الصينيّون، وقدم لي عرضاً كاملاً عن الوضع. وعندما كنت أحاول تغيير الحديث، مبدياً رأيي بوجوب اجراء محادثات بين الصينيين والسوفييت، كان دوبرينيين يلتهب غيظاً ويؤكد لي ان القضية الصين تشغل بال كل العالم. أصغيت إليه بأدب جمّ وتفكير كبير، ولم أبدأ أيّ تعليق. وفي مساء ذلك اليوم، نقلت الى الرئيس ما دار بيننا من حديث. فأبدى نيكسون كل اهتمام، معتقداً أن احداثاً كهذه غير منتظرة، تؤدي ربما إلى نتائج أساسية. فأظهرت له أن المصادمات الجارية بين الروس والصينيين، تعطينا تقدماً ستراتيجياً، فأردف نكسون، ان هذه الحوادث يجب ان تهز الصينيين. وفي صباح اليوم الخامس عشر من شهر آذار، جرت مجابهة حدودية ثنائية في دامانسكي . شينابو. وبعكس ماجرى في الثاني من شهر آذار، فان الفريقين الاثنين، كانا هذه المرة مستعدين. دامت المعركة طويلاً

وكانت الخسائر كبيرة. كان السوفييت قد عززوا دورياتهم، وفي الليلة الرابع عشر، تركّزت فرقة الاستطلاع في الجزيرة، وبالطبع لنصب كمين، ومعارك : الدبابات، والعربات المصفحة، والمدافع والصواريخ المضادة للدبابات. وادّعى كلّ من هذا الجانب أوالآخر انه المنتصر (بالرغم من ان الصينيين ظلّوا أياد الجزيرة ).

لم يتوضح أبداً مصدر هذه الأحداث، غير أن الصينيين، كانوا يوردون رواية، محتملة التصديق كثيراً، في ان جميع هذا الأمور يعود سببها إلى سلسلة من الابتزازات من قبل السوفييت. وعلى أية حال، فمن النادر أن ضعيفاً يسعى نحو خسارته فيهاجم دون إثارة. وبعد أكثر من عامين كما أسلفت، أكّد شو إن . لاي، ان السوفييت، افتعلوا عمداً هذه الأحداث، لتحويل الأنظار عن محاولتهم العقيمة، لمنع انتخابات رئيس اتحادي لألمانيا الغربية في برلين الغربيّة. ومهما يكن الأمر، فان السياسيين الشيوعيين، تصرّفوا بنوع ان نكون في صورة من أحداث المجابهة. وفي منتصف شهر آذار، نقل إلينا أن السوفييت في بودابست، كانوا يسعون للحصول من أعضاء ميثاق فارسوفيا، على اعتراف ان الصين هي التي سبّبت أحداث أوسّوري. وكانوا يؤكدون كذلك على المشتركين في هذا الميثاق ارسال ( فرق عسكريّة رمزيّة ) إلى الجبهة الصينية . السوفييتية، لكن رومانيا عارضت الاقتراحين.

وفي أول اجتماع خاص، جرى في الثاني والعشرين من شهر آذار في باريس بين مفاوضينا الجدد والفييتناميين الشماليين، صرّح كسوان توّي فجأة، ومفاجئاً الجميع، ان الولايات المتحدة، لن تستفيد شيئاً من الانقسامات التي حدثت بين الاتحاد السوفييتي والصين، وتابع قائلاً : ان الفييتناميين لن يتكلوا إلاّ على أنفسهم. فلم تعلّق الولايات المتحدة بشيء حول هذه المفاجأة، لا في واشنطون ولا في باريس ( بالرغم من أني عاجلت هذا الموضوع في مقالة كتبته في مجلّة الشؤون الخارجية ). إلاّ أن كسوان توّي أكّد ان موسكو وبكين، كانتا قد ساعدتا فييتنام طيلة سنين، وبالرغم من وجود نزاع، مضى عليه نحو عشرين عاماً، فانه على ثقة انهما ستكملان في مدّ يد العون.

وفي الثامن والعشرين من شهر آذار، وبرسالة توجيهية داعية إلى دراسة الخطر المفروض على التجارة مع البلاد الشيوعية، طلبت وبإلحاح اعادة النظر في منع المتاجرة مع « البلاد الشيوعيّة الأسيوية ».

وفي الثالث من شهر نيسان، أعاد دوبرينين الكرّة، إذ كان قد قرأ في الصحيفة التي أشرف عليها، اعادة النظر في سياستنا تجاه الصين ( وكان يقصد بذلك دون ريب الرسالة التوجيهية حول الدراسة في الخامس من شهر شباط ) ، ويريد زيادة الاطلاع عنها . وبالرغم من أننا لم نجر أي اتصال بالصين ، أعطيته جواباً غامضاً ، يسمح للسامع بالتفكير ان التقارب يتوقف علينا . فصرح دوبرينين ان القوتين الأعظمين كان لديهما فرصة ادارة سير الأحداث ، لكن هذا لن يتمكن من البقاء طويلاً ، وأضاف ان كثيرين في روسيا ، يعتقدون (ان تايوان تعّرض نفسها للخطر كثيراً لتصبح دولة مستقلة ) . اجتهدت كثيراً ان اكون غير مبال ولم أقل شيئاً .

وفي الثاني والعشرين من شهر نيسان ، سلّم جاكوب بيم ، سفيرنا في موسكو رسالة من نيكسون إلى الأمين العام كوسيغين ، يعالج فيها عدداً كبيراً من قضايا العلاقات الأمريكية . السوفييتية . ولم يأتِ فيها عمداً على أيّ تعليق عن الصين . ومع ذلك فقد كلّفنا بيم ان يعلن جهازاً : ليس بنيّة الولايات المتحدة ، استغلال العوائق الصينية السوفييتية ، الذي كان يعني وبكل تأكيد ، اننا نستطيع ذلك عند الاقتضاء . وقع الروس في الفخ ، ففي السابع والعشرين من شهر أيّار ، استدعى غروميكو ، وزير الشؤون الخارجية ، سفيرنا بيم لتسليمة جواب كوسيغين ، وأضاف بكل صراحة : ان الاتحاد السوفييتي ، لن يستغل كذلك مشاكلنا مع الصين ، وعلى وجه العموم ، يجب ان ترتكز العلاقات الأمريكية . السوفييتية ، على اعتبارات عامّة .

وما كادت تصمم العلاقات الثلاثية ، حتى أعطت أول تباشير الحياة . لم تبق الصين في غضون ذلك هادئة . ففي الأول من شهر نيسان ، قدّم لين بياو ، المزمع تعيينه خلفاً لماو ، قدّم تقريره السياسي للمؤتمر القومي التاسع للحزب الشيوعي الصيني وقال فيه :

( يجب علينا ألاّ ننام على أمجاد الحرب . وألاّ نتناسى واقعنا في ان الامبريالية الأمريكية والرجعيّة الروسيّة تتمكنان من اعلان حرب هجوميّة على مستوى كبير ... قال الرئيس ماو فيما مضى : لن نكون أول المهاجمين ، وإذا هوجمنا ، سنتصدى للهجوم طبعاً ، وإذا أصرّوا بعناد على القتال ، فلن نتهرّب وسنقاتل حتى النهاية ، وقد فزنا بالثورة الصينية في ساحات القتال :

وبالرغم من لهجته القتالية ، كان يتضمن خطابه اتهامات خطيرة بل عظيمة . كان يركّز في ان الصين ، لن تكون المهاجمة الأولى ، مما كان يُطمئننا بالنسبة لتدخل صيني في الهند الصينية . وكان يضع الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في مستوى واحد بالنسبة لتهديد

الجمهورية الشعبية ، وكان يعلن هكذا عن شروط مسبقة للعلاقات الثلاثية : وان الولايات المتحدة ليست العدو الرئيسي .

وفي التاسع والعشرين من شهر نيسان ، أرسلت للرئيس موجزاً عن مؤتمر الحزب الشيوعي . وعلى ما يبدو فان المؤتمر كان يعكس نزاعاً غير منقطع في الصين بين السياسات : الداخلية ، الاقتصادية ، والاجتماعية ، والمراقبة السياسية . أما السياسة الخارجية . فلم تكن محدّدة تماماً ، وكما كان يبدو فان الصينيين ، يحسّون بقلق متزايد من الخطر السوفييتي . اذاً أوقفت نيكسون على ما يلي :

« التوجيه السياسي لم يحدَّد ... وأكد لين باو مجدداً مساندة صراع الطبقات في آسيا الجنوبية والشرقية ، وفي الهند ، وفي اسرائيل ولكن دون إصرار .

اغتيبت الولايات المتحدة شكلاً .

نوّه لين باو في الواقع على ان الصينيين ، كانوا قد رفضوا طلباً سوفييتياً باجراء بحث عاجل لمشاكل المجابهة الحدودية ، وبين ان الصين تاخذ هذه المبادرة بعين الاعتبار .

وبموجب التصريحات العامة ، يبدو ان الصين لا تخشى حرباً مداهمة من قبل الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتي .

عرضت قضية فييتنام بصورة شكلية ، ولم يظهر الصينيون تضامناً مع كوريا الشمالية ، عند الضغوط الأخيرة .

ولم يُسمع في المؤتمر أية كلمة لطيفة بحق أية حكومة ، ما عدا الحزب الألباني . ان تنظيم قسوة معنوية ، تجاه الشيوعيين الأُخر ، والرغبة الظاهرة في حدوث انقلابات في الأنظمة المجاورة غير الشيوعية ، تمكن من ايقاظ العداوة بين الفريقين ) .

ومهما أخذ تقريري من التأثير على المدى الطويل ، فان المراجع التي عدتُ اليها لأبين جهود ماو المستمرة ، في سبيل تعديل السياسة الثقافية ، كشفت لنيكسون طائفة من ذكريات

معادية القديم . فسجّل على هامش تقريري : ( هـ . ك : لاحظ أن ماو ، هو نفسه يقاتل ضد منهج التعليم ) .

بينما كانت تدور مباحثات المؤتمر في بكين ، كانت تجري معارك أخرى في السادس عشر والسابع عشر من شهر نيسان على طول الجبهة الصينية السوفييتية ، كان هذا يجري هذه المرة على بعد أربعة آلاف كيلومتر إلى الغرب ، على الحدود ، بين سينكيانغ وكازاكستان . وحدثت مجابهات أخرى في المكان نفسه في الخامس والعشرين من شهر نيسان ، ثم في الثاني من شهر أيار . وفي السادس والعشرين من شهر نيسان ، اقترح الاتحاد السوفييتي رسمياً على الصين ، بالعودة إلى اجتماعات اللجنة متساوية الممثلين ، حول الملاحة في الأنهار الحدودية ، علماً ان هذه الاجتماعات كانت قد أهملت منذ عام ١٩٦٧ . وفي الثامن من شهر أيار كتبت الصحافة السوفييتية ، عن المناورات العسكرية الروسية قرب الحدود الصينية . وفي التاسع من شهر أيار ، عند الاحتفال بالذكرى السنوية الرابعة والعشرين للنصر ، فان المارشال اندره غريتشكو ، وزير الدفاع ، وضع الصين في مصاف أعداء الاتحاد السوفييتي الأساسيين ، بجانب الولايات المتحدة وألمانيا الغربية .

أمّا الصينيون ، بعد ان أحسّوا طبعاً بهبوب الريح ، قبلوا في الحادي عشر من شهر أيار استعادة مباحثات الملاحة النهرية ، تماماً كما اقترحها السوفييت . لكن معارك أخرى اندلعت على طول نهر الآمور في الثاني عشر والخامس عشر والخامس والعشرين والثامن والعشرين من شهر أيّار . كما حدثت مشاكل جديدة على حدود سينكيانغ في العشرين من شهر آيار . والعاشر من شهر حزيران ، وضراوة أحداث سينكيانغ سرّبت إلى نفسي الشك في كشف هويّة المعتدي . إذ كنت اعتقد في البداية ككل العالم ان الصين اكثر عدوانية عند المقارنة بين البلدين . لكني لما اطّلعت على خريطة موضّحة ، شاهدت ان أحداث سينكيانغ كانت تدور على بضعة كيلومترات فقط من بدء الحد السوفييتي ، وعلى عدة مئات من الكيلومترات عن أي حدّ من الحدود الصينية . عندئذ قلت لنفسي ان القادة الصينيين لم يختاروا المكان المناسب للهجوم . ومنذئذ اعتبرت القضية في زاوية مختلفة . فلو كان الاتحاد السوفييتي هو المعتدي ، سنجد أنفسنا أمام مشكلة ، لا بل أمام فرصة يجب اغتنامها أيضاً .

والمشكلة هي : ان غزواً عاما للصين من قبل الروس ، سيحدث تعديلاً أساسياً في التوازن العالمي ، ليس فقط جغرافياً وسياسياً ، بل أيضاً بسيكولوجياً . وسيوجد وضعاً قاسياً . ومع ذلك

، لم يكن من اليسير اتقاء هذا الهجوم ، باسم بلد ليس لنا معها لا علاقة دبلوماسية ولا اتصال حقيقي من أي نوع .

والفرصة هي : في ان الصين ، تستطيع ان تكون مستعدة للعودة إلى المسرح السياسي ، ويجب عليها لقاء ذلك تخفيف عدائها تجاه الولايات المتحدة . وهذا الإحساس الجديد ، سيقلل من التهديدات الصينية التي تسيطر على عدد من أصدقائنا في آسيا . أضف إلى ذلك ، فان الاتحاد السوفييتي سيجد نفسه مضطراً ، ان يعير اهتماماً زائداً ، لكل حدوده مع آسيا . ويخفف التوتر في أوروبا . ولكي نرى ذلك بأكثر وضوح ، علينا أن ندخل بتماس مع القادة الصينيين . واذا أظهرنا كثيراً من السرعة وكشفنا حالاً عن خبايا نفوسنا . قبل نهاية الثورة الثقافية . عندئذ يتمكن الصينيون من رفض الانفتاح علينا والأخذ بمبادرتنا ، ومقابل ذلك ، إذا تمهلنا في الأمر ، نخشى تقوية فكر الصينيين بأن هناك ترابطاً بين الأمريكان والروس ، الشيء الذي يدفع الصينيين تلقائياً لعقد أكبر صفقة تجارية مع الاتحاد السوفييتي . وفيما كان يتعلق بالروس فاننا نعتقد ان ورقة اللعب الصينية ، تفيد في احتوائهم ، وعلينا ان نكون جد حكماء للعب هذه الورقة ، ولتجنب هجوم مفاجئ من قبل الروس ضد الصين . وكان علينا أخيراً التغلب على فكرة بالية باتخاذ جمهورية الصين الشعبية عدواً لا تمكن مصالحته ، أو بلداً اصطناعياً لا يفكر بغير تايوان . وفي هذا الوقت بالذات ، كان هدفي / رقم واحد / التأكد من أن هذه المواضيع مجتمعة ، ستطرح بصورة جليّة أمام حكومتنا . وعلى اثر رسائلي التوجيهية ومطاليبي التي أصدرتها بتاريخ الخامس من شهر شباط ، فان الوزارات قد أعدت تقريراً وافياً حول الصين ، دقق في الخامس عشر منه من قبل فريق من الاختصاصيين في مجلس الأمن القومي . وكان التقرير يؤكد وبصورة مطلقة على المسائل التقليدية بين الصين والولايات المتحدة : تايوان . القبول في هيئة الأمم . التجارة . حرية السفر ، ومواضيع أخرى متفرقة منها نزع السلاح ، وكان التقرير يبحث أيضاً في المصالح المقابلة لكل من البلدين . وكأني بهذه المسائل كلها تدور في دائرة مفرغة ، إذ لم يرد أي ذكر للحملة العالمية حول التوتر الصيني . السوفييتي ، ولا المغانم الممكن الحصول عليها ، عند إقامة علاقات ثلاثية . وانتقدت خلال اجتماع ما بدا لي انه تطرّف مفرط عن ايديولوجية وعدوانية الصين ، مع أخذ العلم ان السياسة الأمريكية ، غايتها الأساسية بسيكولوجية : أي تغيير نفسية الحكام الصينيين ، وتغيير موقفهم من عدواني إلى مصالح ومتسامح . وعدم الأخذ بعين الاعتبار دور الصين في معادلات القوّة : فان أمّة من ثمانمائة مليون نسمة ، محاطة بدول أضعف منها ، لا يمكن إلا ان تمثل شكلاً جغرافياً سياسياً ، وهذا

يتعلق طبعاً بطبيعة حكامها . وبين المصاعب التي نعانيها مع الصين ، هي التي تفرضها قدرتها وموقفها الجغرافي ، والقضايا التي يثيرها حكامها .فماذا نريد الحصول عليه من الصين وما هي المسائل التي نتمكن بها من التأثير على أوضاعها ؟ ما هي رؤيتنا تجاه تطوير علاقاتها مع السوفييت ؟ وما هي السوائل التي نتمكن بها من استمالتها إلينا ولصالح من ؟ واعترضت كذلك على رأي معظم الباحثين الكرمليين ، الذين يعتقدون ان تحسين علاقاتنا مع الصين ، يعني هدم علاقاتها مع الاتحاد السوفييتي . وفي الواقع فات التاريخ يعلّمنا : اذا وقع الانسان أمام خصمين ، فيجدر به التحالف مع الضعيف لأن هذا يساعده في كبح جماح القوى .

وفي الثامن من شهر حزيران ، أعاد الروس حملتهم الدبلوماسية . وفي خطاب ألقاه بريجنيف في المنظمة الدولية للأحزاب الشيوعية في موسكو وجّه اللوم لماو وأعلن مبدأ (برنامج الأمن الجماعي لآسيا) . ولم يعطِ أي إيضاح حوله ، لكنه يتضمن طبعاً الصين . وفي اواخر شهر حزيران ، جمع السفراء السوفييت جهودهم لكشف النقاب عن السياسة الصينية ، للدول التي يشغلون مناصبهم فيها وردع عدّة بلدان من أوروبا الشرقية عن التعامل مع بكين . وسعى الاتحاد السوفييتي لمضاعفة اتصالاته مع القوميات غير الشيوعية في آسيا ، كما تم إقامة اذاعات في تايوان . وفي حملة خُصصت لإحباط كل مجهود للصين للخروج من عزلتها ، أوحى الدبلوماسيون السوفييت بأفضلية عزل الصين . أمّا موسكو فكان لديها استعداد لتسهيل اتصالاتها مع الولايات المتحدة .

واختصرت كل هذه المعطيات في تقرير وجّهته للرئيس :

( كل ما حولنا ، يحملنا على الاعتقاد ان الحكام السوفييت هم في قلق متزايد بسبب نزاعهم مع الصين ... وهذا ما يجعلنا ندرك ان الروس بمكن أن يظهروا نفوسهم اكثر تساهلاً في علاقاتهم مع الغرب ... فمن الممكن اذاً ان القضايا السوفييتية قد وصلت إلى حد يمكن استخدامها فيه لمصلحتنا . واذا حاول الاتحاد السوفييتي مخلصاً التأكد من حيادنا ، فان هذا ناتج عن عوننا المستمر لسياسته في عرقلة الأمور تجاه الصين ) .

وكتب الرئيس حواشي مشجعة على هامش تقريري ومنها ( تلك هي غايتنا ) واقترح ( بتشجيع وبصورة سرّية ) البلدان التي كان السوفييت يضغطون عليها حتى لا تقيم علاقات مع بكين ، ان تتصرف بعكس ذلك وتقيم علاقات معها ( وهذا يدل على تغيير أساسي ، منذ هذه اللحظة ، بعد ان كان سفيرنا في أوروبا ، موضوع تذمر ، خمسة أيام بعد تولية الرئيس ) .

وفي الوقت الحاضر ، أخذنا بمضاعفة جهودنا للبدء باتصالات مع بكين . وفي السادس والعشرين من شهر حزيران ، أبلغني الرئيس وجوب تشجيع ميك مانسفيلد ، عضو مجلس الشيوخ ، الذي يهتم منذ زمن طويل بأمور الصين ، ان يحاول الحصول على تأشيرة للتوجه اليها . فذهبت أبعد قليلاً ، وأصريت على برايس هارلو ، المكلف حينذاك بالعلاقات بين الكونغرس والبيت الأبيض أن يحثّ مانسفيلد للقيام بمبادرته الحكومية . وكان يلزمنا دليل أوضح : بعد ان أصبح الظرف مؤاتياً للنظر في خطر تجارتنا مع الصين . وهذا التغيير ليس له أهمية بحد ذاته ، لكن قيمته كبيرة رمزياً . وتحركنا القلق الذي يتطلبه تحقيق ما نريد ، هو قليل نسبياً ، ويقضي علينا باتخاذ جميع الاحتياطات للسير نحو هدفنا منذ هذه اللحظة . واتخذ القرار بعد دراسة عامة حول التحديد التجاري الذي نفذناه في الثامن والعشرين من شهر آذار . وقد قررنا ان نعالج على حدة مشكلة التجارة مع الصين . وفي السادس والعشرين من شهر حزيران ، وقُعت تعليمات موجّهة إلى الوزارات : ( لأسباب سياسية خارجية هامة ، قرر الرئيس التخفيف الجزئي لمنع اتجارنا مع الصين . ولجنة معاوني الوزراء ، في مجلس الأمن القومي ، التي كان يرأسها وبحق إليوت ريشاردسون ، أبلغت لإعداد التوصيات التفصيلية لتطبيق القرار الرئاسي .

فكرنا أولاً ، أن أي تطبيق فعلي لهذا القرار لا يكون ممكناً ، قبل إعادة النظر في مرسوم مراقبة الصادرات ، من قبل الكونغرس ، أعني في شهر أيلول . ومع ذلك : ريشاردسون وانا بنفسي ، أخذنا بعين الاعتبار اننا اذا انتظرنا حتى ذلك الوقت ، ربما تسبقنا أحداث آسيا ، التي كانت تتكاثر وتتسارع . ولفت انتباه نكسون إلى ان تعليمات السادس والعشرين من شهر حزيران ، ستعطي مجالاً لإفشاء بعضها ، وربما أحدثت بعض المجادلات الوطنية التي تنقص من القيمة التي يجب أن تحدثها في بكين . وكان يعترضنا بعدئذ موضوع علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي ، فكان علينا أن نعلن بأقرب ما يمكن بدء مفاوضات (سالت) . و اذا وفقنا بين هذا وتخفيف الحظر على التجارة مع الصين ، يتهمنا أنصار العلاقات الأمريكية . السوفييتية أننا نهزأ بالاتحاد السوفييتي دون سبب . ويحملوننا مسؤولية كل مأزق في المفاوضات حول التسلح الستراتيجي . وكذلك ، اذا أعلن هذا القرار بعد عودة الرئيس من سفره القريب إلى رومانيا (صديقة الصين) فان هذا السفر سيكون له اتجاه مكشوف في معاداة الاتحاد السوفييتي) .

ريشاردسون وأنا ، تبنينا وبصورة نهائية ثلاث توصيات :

السماح للسواح الأمريكان بشراء بقيمة مائة دولار من المنتجات غر المعدّة للتجارة ، المصنعة في الصين .

السماح بالسفر الى جمهورية الصين الشعبية .

السماح بإخراج الحاصلات الزراعية .

فأقرّ الرئيس التوصية الأولى والثانية ، لكنه بناء على رغبة أعضاء مجلس الشيوخ المحافظين ، رفض الثالثة .

وفي الوقت الذي كنا نتهيأ فيه لاعلان تبني الخطة الجديدة ، جرى حادث صغير غير متوقع ، من تلك الحوادث التي تلغي أحياناً ما أحسن تخطيطه . وفي السادس عشر من شهر تموز ، مركب شراعي ملاحاه أمريكان غرق في عرض ساحل هونغ . كونغ . وانحرف زورق النجاة عن مجراه في المياه الصينية ، فأسر الصينيون من كان على ظهره . فقررنا ريشاردسون وأنا ، إخفاء الخبر بعضة أيام ، لنرى هل يستغل الصينيون الحادث ويعلنون حملة عدائية ضد أمريكا . لكن بكين لزمت الصمت . وفي الحادي والعشرين من شهر تموز العام ١٩٦٩ . تماماً قبل انطلاق الرئيس في سفره حول العالم ، أعلنت وزارة الشؤون الخارجية ببساطة وابتذال ، ان الحظر على المبادلات والتجارة مع الصين سيتوقف جزئياً ولا يلغى . والخبر لم يستدع المناهضة ، وكان يستطيع الصينيون قبوله دون اظهار ردود فعل رسمية . وفي الرابع والعشرين من شهر تموز ، أفرج الصينيون كذلك عن البحارين الأمريكيين . وكان شو إن . لاي هو نفسه يعلم ان لا حاجة لإظهار اية مناهضة . وفهمت ذلك بكين .

في هذه الفترة ، بدأ نكسون سفره حول العالم ، وكان يريد خلاله إقامة ركائز تستدعي انتباه الصينيين ولصالحهم . فبدأ حالاً بإشاعة التحركات التي كنا على استعداد للبدء بها وبصراحة لاجراء اتصالات مع الصين . فأبلغ قادة الهند الصينية وتايلاند ، أننا لا نعير اهتماماً للاقتراح السوفييتي حول إيجاد نظام أمن جماعي في آسيا . كان هذا التصريح يهدف الى تطمين غير مباشر للصينيين ، و اعلان في الوقت نفسه لمعارضتنا لامتداد النفوذ السوفييتي في آسيا الجنوبية الشرقية ، كما أكد لرئيس مجلس الوزراء التايلاندي : ( ان موضوع الحكم الثنائي غير مطروح الآن) .

وصارح نكسون يحيى خان في الباكستان ، وشاوشيسكو في رومانيا ، بصورة أوضح ، لأنه كان يعلم ان كلا الاثنين كانا على علاقات طيبة مع الصينيين . وفي لاهور ، في الأول من شهر آب ،

قال نكسون للرئيس يحيى ، انه يعتقد شخصياً : ـ برأي لا يشاركه فيه تماماً أعضاء حكومته الآخرون ولا العديد من الأمريكيين . ان آسيا لا تستطيع السير الى الأمام ، اذا بقي بلد كبير كالصين في عزلة . ( كان يعتقد نكسون انه اذا أظهر نفوذه لدى الحكام الأجانب ، فهذا يدل انه يتصرف عكس رأي مرؤوسية ) . وبدقة أكثر ان هؤلاء الأخيرين سيعارضون ما يُقدم عليه ، عندما تحين الفرصة . يجب انتظار ما سوف يصدر عن هؤلاء القادة لمعرفة ما كانوا يفكرون عند سماعهم هذه التصريحات هم الذين اعتادوا على برامج ونظم أكثر تسلسلاً ) . وأكد نكسون أيضاً ان الولايات المتحدة لن تشارك أبداً بأي عمل من شأه عزل الصين . ورجا يحيى نقل فكرته هذه الى السلطات العليا الصينية . وخلال اليوم نفسه ، وفي بلاط الضيوف الرسميين في لاهور ، قابلني يحيى بمارشال الحربية للقوى الجوية شير علي خان ، الذي كان عائداً حديثاً من الصين . كان المارشال يفكر ان الثورة الداخلية الصينية تفشل ، وان الصين ستسعى قريباً للخروج من عزلتها السياسية ، التي كانت فرضتها على نفسها . ووصفت كذلك القادة الصينيين بعبارات كانت تتعارض أصلاً مع الصورة الآخذه قالب الإيديولوجية المتحمسة تقريباً غير المنطقية ، التي كنا نحن آخذينها عنهم : فكان يجدهم نظاميين ، واقعيين وجديرين بالثقة عندما يتكلمون.

في الثاني والثالث من شهر آب وفي بوخارست ، فاتح نكسون الرئيس شاوشيسكو بنفس المواضيع . ورفض بشدة أكثر من مرة برنامج الأمن الجماعي في آسيا ، مؤكداً أن الاتحاد السوفييتي كان على خطأ عندما أراد تنظيم مؤامرة ضد الصين في آسيا : فمن الآن خمسة وعشرين عاماً ، ستعد الصين مليار نسمة ، واذا عزلتها بعض البلدان فقد تصبح مخزن بارود . كنا نتمنى إقامة علاقات طيبة سواء مع الاتحاد السوفييتي أو مع الصين . وكان يرجو ان تقوم رومانيا مقام سير لنقل الحركة بين الولايات المتحدة والصين . فأجاب شاوشيسكو انه على استعداد للقيام بدور الوسيط ، واعداً بنقل وجهات نظرنا وأجوبة الصينيين المحتملة .

وعكس ما كنا نتوقع ، فان الوساطة الرومانية ، لم تؤثر سوى في اتجاه واحد . كنا نفكر ان الصينيين يقبلون بوسطاء شيوعيين للتحادث معنا : وفي الواقع اظهروا حكمة فائقة في هذا الموضوع بخوفهم من التغلغل السوفييتي الى بلد أكثر استقلالاً من رومانيا .

من عودتنا الى واشنطن ، استدعيت سفير باكستان آغا هلالي ، لتأمين الباكستانيين على ما دار من حديث وإقامة اتصالات وثيقة عن طريقهم . كان الهلالي رجلاً ذا كفاءة مهنية عظيمة ،

سليل عائلة باكستانية قديمة ، وخدم مدة طويلة في الوظائف العامة . وكان أخوه في هذه الفترة سفيراً في الصين ، وأصبح بعد ذلك مديراً دائماً لوزارة الشؤون الخارجية الباكستانية . وفي الأعوام ١٩٥٠ كانت أخت هلالي . وهي من أوائل أنصار حقوق المرأة في المجتمع الباكستاني . كانت أخته هذه احدى طالباتي في هارفرد .

كان الهلالي شديد التدقيق في التفاصيل وكتوماً . طلبت إليه تذكير الرئيس يحيى ، بان رسالة نكسون يجب ألا تنقل إلا إلى أعلى سلطات في الصين . أما باقي الأمور ، تستطيع الباكستان نقل أفكارنا الأساسية بطريقة غير رسمية ، كلما سنحت الفرصة وبصورة طبيعية . ونقلت لهلالي ، رغبة نكسون ، في ان يبقى الهلالي نفسه ، نقطة الاتصال الوحيدة السرّية لكل نبأ اضافي في هذا الموضوع . فأجاب الهلالي ان يحيى محتفظ بالتفصيلات التي سارّه بها نكسون الى محادثة مع شو إن . لاي ، الذي سيصل قريباً الى باكستان .

في الثامن من شهر آب ، في كانبرا ، ألقى روجرز خطاباً رئيسياً أعلن فيه للعالم أننا في صدد تحسين علاقاتنا مع الصين .

« نحن نعلم وبكل تأكيد ان جمهورية الصين في تايوان والصين الشعبية هما حقيقة واقعية في القارة . ونحن نعلم أيضاً البر الصيني مدعو للقيام بدور كبير في المحيط الهادي وآسيا . وهذا الدور يستحيل عليها بكل تأكيد ، طالما ان زعماءها ينظرون الى غيرهم في العالم نظرة اقليمية .

« وكان ذلك إحدى المسببات التي دعتنا إلى اقامة اتصالات مع الصين . ومنذ بضعة أيام خلت ، سمحنا للسواح الأمريكان بشراء منتجات صينية . وتنظيم جوازات سفر الى الصين . هدفنا تخفيف الضغط عن علاقاتنا وتذكير الصينيين في القارة بالصداقة التاريخية التي كانت تربط بين بلدينا ...» .

وهكذا إذاً ، وفي آخر شهر آب ، نجحنا في إعادة اتصالاتنا مع الصين ، بفضل جهود أحادية ، ووسطاء وتصريحات عامة .

وكان هذا حصيلة قرارات أخذت بصورة جماعية ، علماً ان أعضاء الحكومة لم يقدروا رسمياً مشكلة الصين ، وجرى أول اجتماع لمجلس الأمن القومي لدراسة هذا الموضوع في شهر آب . وكنت قدمت للرئيس قبل هذا الاجتماع تقريراً عن وجهات نظر أعضاء الحكومة ، التي كانت تدور حول الطريقة الواجب اتباعها في اجراء علاقات مع الصين كما هي عليه مع الاتحاد السوفييتي . والبعض منهم ( الذين لا نستطيع اطلاق عليهم زمرة المتكلمين باللغة السلافية ) كانوا الى جانب الرأي الذي يقول ان السوفييت في خشية كبرى ان هناك تواطؤاً صينياً ـ أمريكياً ، أكثر من أي مجهود آخر لتحسين العلاقات مع الصين ، وبذلك يصبح التعاون مع الاتحاد السوفييتي منعدماً ، وفي الوقت ذاته كانوا يعتقدون اعطاء أفضلية مطلقة لتحسين علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي ، وبالتالي تجنب كل اتصالات جانبية مع بكين . وآخرون ( ممن يتبعون بعد ( نوعاً من السياسة الملكية ) كانوا يؤكدون ان السوفييت سيظهرون تساهلاً أكثر ، في حال معرفتهم اننا نسعى من جهة ثانية للتقرب من بكين . وكانوا يصرون على مضاعفة اتصالاتنا مع الصين في سبيل تحريك الاتحاد السوفييتي . والفريق الثالث (الصيني النزعة) كان يصرح هذه المرة ان العلاقات مع الاتحاد السوفييتي يجب ألا تفرض شروطاً على علاقاتنا مع الصين : والعمل على زيادة قلق السوفييت بأمور هامشية ربما يبدو مفيداً ، أما التغييرات الأساسية في العلاقات الصينية الأمريكية ، يجب ان تجري من خلال اعتبارات أخرى .

وغنيّ عن القول ، انني كنت متفقاً بالرأي مع الآخذين بمبدأ السياسة الملكية ، وعندما ناقش مجلس الأمن القومي جميع هذه الأوضاع في الرابع عشر من شهر آب لعام ١٩٦٩ ، ولم ينتج عن اجتماعه ما كان ينتظر ، لكن الرئيس صعق أعضاء حكومته عندما عرض عليهم نظرية ثورية ( أسهمت فيها كلياً ) : كان الاتحاد السوفييتي الدولة الأكثر عداء ، وكان يعمل ضد مصالحنا ، في سحق الصين في حرب صينية ـ سوفييتية . واقع غريب في السياسة الخارجية ، في ان يصرح الرئيس في ابقاء الحياة لشعب شيوعي كبير ، والذي كان عدونا ، ردحاً طويلاً من الزمن ولا تربطنا به أية علاقة ، ان هذا الواقع الجديد يشكل بالنسبة لنا تقدماً ستراتيجياً . اذا كان يفكر بحرب صينية ـ سوفييتية فهذا ناتج عن قلقنا مما نسمع عن ضغوط جديدة على طول الحدود . وهذا أمر يقوي من عزمنا على أنه أصبح ضرورياً اجراء اتصالات مع الصين .

# شائعــات حــرب

في الثامن من شهر آب ، يوم خطاب روجرز في كانبرا ، ختم الاتحاد السوفييتي وجمهورية الصين الشعبية مفاوضاتها في خاباروفسك ، التي كانت قد بدأت في شهر حزيران ، باتفاق حول تحسين أمور الملاحة في الأنهر الحدودية . وبدل تحسين الأجواء ، فان هذا الاتفاق أثار الضغائن بعد بضعة أيام ، تجددت أحداث جديدة على طول الحدود ، بين سينكيانغ وكازاكستان ، والتي تمحضت عن قتال دموي . فكتبت البرافدا في الرابع عشر من شهر آب ، بوجوب اتخاذ احتياطات الحماية المدنية في كازاكستان . وفي الخامس عشر من شهر آب ، كانت وكالة الصين الجديدة تتهم الاتحاد السوفييتي بانهماكه في الاستعداد للحرب ، وحثّه الشعب الصيني على العمل كذلك .

وكانت تزداد دلائل التوتر . ففي الثامن عشر من شهر آب ، إذ كان (وليم ستيرمن) اختصاصي في الشؤون السوفييتية ، وبدرجة وسطى من الشؤون الخارجية ، كان يتناول غداءه خالي البال ، مع أحد موظفي السفارة السوفييتية ، سأله هذا الروسي فجأة : ما هو ردّ الفعل الأمريكي ، في حال حدوث أزمة مفاجئة ، وهجوم سوفييتي على المراكز النووية الصينية . فأخذت هذا السؤال على غاية من الأهمية ، واستدعيت في الخامس والعشرين من شهر آب إلى (سان كليمنت) فريق الشؤون الخاصة في واشنطن (W.S.A.J) الى الاجتماع ، وهذه لجنة فرعية من مجلس الأمن القومي مكلّفة بمعالجة الأحداث في حال حدوث أزمات . وطلبت إلى أعضائها تهيئة مخطط عمل خاص في حال حدوث حرب صينية ـ سوفييتية . لكن اقتراحات هذه اللجنة ، ظهرت غير وافية بالموضوع ، فكلفت حينئذ فريق معاوني محاولة تحضير تقرير أكثر دقة ، وكما سنرى ذلك في الفصل الثامن عشر ، سلمني معاوني في بداية العام ١٩٧٠ ، تقريراً لا غبار عليه ، يعالج بموضوعية حقيقية ، مغانمنا سواء من حيث اتقاء خطر الحرب ، وسواء من حيث السعي لعدم حدوثها . وفي الواقع لم نكن قادرين على السماح بسحق الصين ، كما صرح بذلك الرئيس نكسون عند لقائه بمجلس الأمن القومي في الرابع عشر من شهر آب : وفي حال حدوث الكارثة ، فان مساندة الولايات المتحدة للصين ، التي يعتبرها نكسون وأنا ضرورة ستراتيجية ستجد ربما تأييداً ضعيفاً من أعضاء الحكومة الآخرين ، بل ربما من البلد بأكمله .

اشتدت حرب الدعاية الصينية . السوفييتية وبصورة واضحة في نهاية شهر آب . في الثامن والعشرين من شهر آب ، كانت برافدا تحذّر الصين من أية إثارة حربية جديدة ، وتحث باقي العالم أن يأخذ من الخطر الصيني ، قبل فوات الوقت . وأضافت البرافدا مهددة : بعدم استثناء أية قارّة ، اذا أعلنت حرب في الأوضاع الحالية ، بعد أخذ العلم بالتقدم التكنولوجي ، ووجود الأسلحة المدمرة ، والوسائل التي تسمح باستخدامها . وفي اليوم ذاته ، كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني ، توجه أمراً للشعب بالاستعداد للحرب ، والمبادرة السريعة الى بناء ملاجيء تحت الأرض في المدن . وفي أواخر شهر آب ، اكتشفنا ان الاتحاد السوفييتي ، استدعى جميع قواته الجوية العاملة في الشرق الأقصى ، فان دلّ هذا على شيء ، فانما يدل على سرعة وضع جميع طائراته في حالة تأهب ، وكأنه ينبئ بهجوم ، ويشير بطريقة أفضل إلى تحذير شديد في حرب أعصاب معلنة . ودام هذا التأهب طيلة شهر أيلول .

ويوم الذكرى الثلاثين لبداية الحرب العالمية الثانية ، وجّه جنرالان سوفييتيان من مقام رفيع ، تحذيراً لبكين . وفي الأول من شهر أيلول ، في مقال لإزفستيا ، الصحيفة الناطقة بلسان الحكومة السوفييتية ، فان الرئيس الأركان العامة ، معاون وزير الدفاع الوطني ، المارشال ماتفي زاخاروف أعاد الى الأذهان ، أن الروس كانوا قد هزما بخمسة وعشرين يوماً جيشاً يابانياً قوامه سبعة ملايين جندي . ومن جهته ، الجنرال س . ب . إيفانوف ، مدير الاكاديمية الحربية العليا ، عالج نفس الموضوع في مقال ظهر في النجمة الحمراء في الثاني من شهير ايلول :

ولقد أصبحنا هكذا في وضع لا يسمح لنا بالبقاء غير آبهين بالتهديدات السوفييتية . وفي السابع العشرين من شهر آب ، تكلم مدير وكالة المخابرات الأمريكية المركزية ، بمناسبة غداء أقيم على شرف فريق من المراسلين السياسيين ، وصرّح ان الاتحاد السوفييتي يبدو كأنه يوصي بمعادلة قوى اخوته من شيوعيي أوربا ، حول امكانية هجوم سوفييتي مفاجئ ضد المنشآت النووية الصينية وكان اذ ذاك ريشارد هلمز مدير وكالة . وفي الخامس من أيلول ، حال انعقاد مؤتمر الرابطة الأمريكية للعلوم السياسية ، صرح إليوت ريشاردسون :

فيما يتعلق بالصين الشيوعية ، فان تحسين علاقاتنا معها هو في مصلحتنا . اننا لا نسعى أبداً استغلال العداء الموجود بين الاتحاد السوفييتي والجمهورية الشعبية لصالحنا . والاختلافات الايديولوجية بين هذين الجارين الشيوعيين لا تخصنا . ومع ذلك سوف نبدي اهتماماً شديداً ، في حال حدوث تصعيد في التوتر ، يعرض للخطر السلام والأمن الدوليين ) .

ومرة أخرى ، كانت تجري أحداث خطيرة : وكانت الولايات المتحدة على اطلاع تام بوجود تهديد على بلد كانت تعتبر نفسها على عداء معه منذ نحو عشرين عاماً . ولم تجرِ الحكمة الجديدة أي اتصال معه .

ان تأثير هذا الاعلان لم يكن سريعاً . ففي العاشر من شهر أيلول نبه عضو من البعثة السوفييتية لدى الولايات المتحدة ، نبّه هذا العضو ومن غير مبالاة ، أحد مفوضي الأمريكان ، ان الروس ، يتفوقون كثيراً على الصينيين ، في الميدان العسكري ، واذا امتدت عداوة الصين الحالية ، فلن يكون بدٌّ طبعاً من هجوم مسلح . وفي اليوم ذاته ، كانت الوكالة السوفييتية تاس ، تتهم الصينيين بالإقدام على أربعمائة وثمانية اعتداء متعمداً على الحدود ، وانها استخدمت أيضاً ألفين وخمسمائة رجل في المجابهات المسلحة التي دارت بين حزيران ونصف شهر آب من العام ١٩٦٩ .

تبعت ذلك فترة هدوء بفضل اللقاء الذي جرى في الحادي عشر من أيلول ، بين رئيسي الوزراء : كوسيغين وشو إن ـ لاي . وكان الاثنان قد توجها الى هانوي ، لتقديم التعازي بمناسبة وفاة هو شي مين . وان التوتر بين البلدين كان ينعكس حول الواقع التالي : بدلاً من الطيران فوق الصين ، وهذا يجعل المسافة أقصر ، فان طائرة كوسيغين توجهت الى هانوي متبعة طريق الهند ، وغادرت هانوي قبل وصول شو إن لاي . وأعلنت وكالة تاس انه في طريقه الى موسكو . وفيما كان يطير في أعالي دوشانب ، في آسيا الوسطى السوفييتية ، فجأة غيرت طائرته اتجاهها وتوجهت نحو بكين ، واللقاء القصير بين كوسيغين وشو إن لاي في مطار بكين ، كان أول لقاء قمة بين البلدين منذ أربع سنوات ونصف .

تتطلب القضية ان يطلع كبار الموظفين ، على مجريات الأحداث الهامة . ولسوء الحظ ، فان الادارة وبصورة دائمة هي التي تسرب المعلومات الرسمية . أو تطمسها في تقرير يربط أحداث الساعة في مجال نشاط مسؤول خاص . ومن المثير بل المثير جداً لأعصاب مستشار أمن ، أن يعلم الرئيس من الصحف بحادث أو آخر هامين . وهذا كان واقع لقاء كوسيغين ـ شو إن لاي . وكانت حيرتي كبيرة عندما علمت ان الرئيس أخذ الخبر من واشنطون بوست ، قبل أن اقدمه له بتقرير وافٍ عن الموضوع .

فاستدعاني وسألني عما كنت افكر بهذا اللقاء ؟ أجبت ان التعلقيات لأول وهلة ، من هذا الجانب أو ذلك ، كانت تبدو فاترة جداً . واختفاء العبارة التقليدية (الأخوي) في وصف هذا اللقاء ، كان يدل على سوء تفاهم خطير . ربما كان الصينيون هم الذين دعوا كوسيغين للتوقف في بكين . لأن في مفهومهم ، أن من صالحهم تلطيف الجو . وكان الرئيس يتساءل عما اذا كان ذلك يدل على هدنة بينهم ؟ أجبته اني لا اعتقد ذلك ، لأنه يبدو لي ان الخصمين يسعيان الى تثبيت أوضاعهما توقّعاً لجولة قريبة .

كان يؤخذ أصل هذا اللقاء على عدّة وجوه وعدّة تفسيرات ، ربما كان يدل على دعوة صينية في آخر دقيقة ، ومن جهة أخرى ، فان كوسيغين لم يستقبل بحرارة ، ولم يُسمح له بالخروج من المطار . في الواقع ، ان الروس هم أوّل من أعلن هذا اللقاء ونسبوه لمبادرة سوفييتية . لكن اذا كان المقصود محاولة مصالحة من قبل الصيينين أو تحذير من السوفييت ، فيكون واضحاً ان العلاقات الصينية . السوفييتية كانت تقترب من وضع منتقد .

وفي السادس عشر من شهر أيلول ، ظهر مقال مثير في (لندن ايفننغ نيوز) كان متوافقاً مع تقديري . فان فكتور لويس (الصحافي المستقل) الذي كنا نعتقد أنه على حساب وكالة المخابرات الروسية (k.G.B) كان يقذف أحياناً ( كرات اختبار ) . كان يكتب هذا اليوم ( ان أصحاب النظرية الماركسية ، يواجهون إمكانية حرب صينية . سوفييتية ، واذا أعلنت هذه الحرب ، ( فان العالم ، سيجد نفسه فجأة أمام أمر واقع ) كان لويس يتكلم عن هجوم جوي روسي متوقع ، ضد مركز التجارب النووية الصينية في لوب . نور ، في سينكيانغ . وكان يؤكد ان محطة اذاعية معادية للماوية ، كانت تذيع سراً في الصين . مما يبرهن على وجود قوى مضادة لماو . ولو أن زعيمهم يخرج من الظلام تصبح لديه رغبة ملحة في طلب العون الأخوي من البلدان الاشتراكية الأخرى . وأردف لويس قائلاً : ( ان أحداث السنة الأخيرة ، أثبتت ان الاتحاد السوفييتي لا يزال أميناً للمبدأ الذي يعطي الحق للبلدان الاشتراكية بالتدخل بشؤونها الخاصة للدفاع عن مصالحها أو مصالح البلدان الصديقة المهددة ) .

لا نستطيع البقاء غير مبالين أمام تهديد هجوم سوفييتي ضد الصين . وفي الحقيقة ، ان حدثاً كهذا سيبدل توازن القدرة العالمي ، ويوحي للكوكب الأرضي بكامله فكرة تسلط سوفييتي قريب . مع ذلك ، فان ردّ فعل مباشر من قبل الولايات المتحدة ، لن يرضي عنه من قبل الرأي العام ، ويوشك حتى على تصعيد ما كنا نسعى إلى تداركه . وفي التاسع والعشرين من شهر أيلول

، أوقفت الرئيس على مجرى المناورات والدسائس السوفييتية خلال الأشهر الأخيرة ، وأصريت على مضاعفة جهودنا أكثر :

أنا مشغول جداً بالإجابة على هذه التحديات . أولاً ان السوفييت لم يثبتوا على مبدأ سياستنا نحو الصين . وربما يأخذون بعين الاعتبار ردود فعلنا . ومن الممكن ثانياً انهم ينتفعون بنا لنعطي للصينيين وباقي العالم الانطباع في انهم يأخذون رأينا سرّاً ، واننا سنتقبل بلا مبالاة عملياتهم الحربية ... ويجب علينا ان نظهر بوضوح ، كما أعتقد ، أننا لا نقوم بهذا الدور ... ) .

وقبل أن يصبح لدى الرئيس الوقت الكافي لاتباع هذه التوصية أعلنت فجأة وكالة الصين الجديدة ، في السابع من شهر تشرين الأول ، قبول الصين باستعادة المفاوضات مع الاتحاد السوفييتي ، حول القضايا الحدودية ، بوساطة معاوني وزراء الشؤون الخارجية . كما صدر اعلان مصالحة من قبل الصين مؤكداً رغبتها في الوصول الى تسوية سلمية ، مكذبة في الوقت نفسه مطالبتها باستعادة الأراضي التي كان القياصرة الروس قد استولوا عليها في القرن التاسع عشر .

واصدرت الصين في اليوم التالي اقتراحاً من خمس نقاط تطلب فيه انسحاباً متبادلاً للقوات المتمركزة بعيداً عن مناطق النزاع . وفي العشرين من شهر تشرين الأول ، استعيدت المفاوضات حول قضية الحدود في بكين . وكان يجريها كل من : فاسيلي كوزنتزوف وشياو كيان . هوا معاوني وزير الشؤون الخارجية في البلدين .

وبرأيي أنا أن الصين قد هزمت في حرب الأعصاب ، واطلعت الرئيس على وجهة نظري هذه قائلاً : يمكن تفسير وضع الصينيين الجديد بعاملين : الخوف المتعاظم من هجوم سوفييتي ، ومراقبة السياحة الخارجية التي يقوم بها فريق ذرائعي ممثلاً بشو إن . لاي . وكنت على اعتقاد مع ذلك بعدم حصول أي تغيير أساسي : وان الضغوط الضمنية لا يوضح لها باتفاقات على الورق . واقترحت اذا وافق الرئيس ان نسير باتجاهات أخرى لها طابع اداري نكلف بها إيليوت ريشاردسون في الصين . فوافق نكسون على ذلك .

وفي هذا الوقت بالذات ، بدأ سير الاتصالات الباكستانية بالعمل . وفي العاشر من شهر تشرين الأول ، جاء شير علي خان ، مارشال سلاح الجو الذي كنت التقيته في لاهور ، جاء يقابلني في مكتبي في البيت الأبيض ، يعلمني ان يحيى أوصل للصينيين توجيهاً عاماً صادراً من قبلنا متضمناً رغبتنا في تحسين العلاقات ، وكان يتمنى إبلاغهم أموراً اكثر دقة ، لا سيما لشو إن . لاي

عند زيارته لباكستان . فأطلعت شير علي على اجراء كنت أنا وريشاردسون قد أكملناه بضعة أيام قبل ذلك . منذ بداية الحرب الكورية عام ١٩٥٠ ، كانت مدمرتان أمريكيتان تقومان بأعمال الدورية وبالتناوب ، في مضيق فورموزا ، وكان يدل وجودهما على التزامنا بالدفاع ضد جمهورية الصين . وفعلاً فان هاتين المدمرتين ، لم تكونا لتشكلا جزءاً من برنامجنا الدفاعي عن الجزيرة ، بل لهما قيمة رمزية خاصة . وحصلت أنا وريشاردسون حينئذ على أمر بإلغاء الطابع الدائم لهذه الدوريات : وأكدنا على الدفاع عن تايوان، باعطاء أوامر لخمس عشرة سفينة حربية أمريكية بالمرور شهرياً في المضيق، ويستطيع يحيي ابلاغ ذلك وبصورة سرية لسفير الصين الشيوعية. وكان عليه من ذلك ان يتأكد من عدم اختلاط الأمر على بكين : فان التزامنا الأساسي بالدفاع عن التايوان يبقى ثابتاً، انما كنا نقصد بعملنا هذا إزالة إحدى نقاط الاحتكاك. وأردفت قائلاً لشير على انني سأطلع السفير هلالي حالما يتخذ الرئيس شيئاً جديداً ومفيداً لإبلاغ الصينيّن ذلك. وأرسلت إلى نيكسون تقريراً مفصلاً بكل ذلك، الذي سجّل في نهاية ما يلي :

« ك . وإمكانية التجارة أيضاً » . « وهذا الحرف يدل على : كينسينجر » وكان شير علي قد غادر واشنطن، وكنت أرغب في داخلي، عدم التعجّل في مثل هذه الأمور، وعزمت الاحتفاظ بهذا المشروع إلى مناسبة أخرى.

وفي العشرين من شهر تشرين الأول، عندما جاء دوبرينين لإبلاغ نيكسون، ان السوفييت هم على استعداد، لاستعادة المفوضات حول تحديد التسلح الستراتيجي، فان السفير السوفييتي دوبرينين نفسه، حذّره بعودة بصورة دقيقة، ألاّ يتخذ هذه المبادرة انها ناتجة عن التوتر الصيني السوفييتي. حينئذ اجاب نيكسوون : ان سياستنا نحو الصين، لم تكن يوماً موجّهة ضد الاتحاد السوفييتي، لكن الولايات المتحدة، في الوقت ذاته، لا ترغب في ان تكون طول المدى عدّوة لجمهورية الصين الشعبية : كان علينا اذّا ان نباشر بتحسين المبادلات التجارية، والاتصالات البشرية، وفي حال عدم امكانية ذلك، تحسين العلاقات السياسية. وعلى أثر هذه المحادثة، أطلعت نيكسون على انطباعاتي الخاصّة التالية :

« ان السوفييت . أظهروا مرة أخرى، انهم يتوهمون بمغازلة الصين، للتمكن من الضغط عليها. وفي هذه الحال، انهم يحذروننا سلفاً ان فكرة كهذه توشك ان توصل إلى خطأ كبير في التقدير ولاتخدم مصلحة تحسين العلاقات الأمريكية _ السوفييتية. انكم اجبتم في الماضي على هذا الموضوع، واني أرى غير ضروري اعطاء تأكيدات كثيرة للسوفييت. وفي كل الأحوال، يجب ألاّ يغيّر

هذه من سياستنا نحو الصين ». ونحن لم نقدم على تغيير شيء فيها، ولكي نكون متأكدين ان مواقفنا كان واضحاً وصريحاً، أصدرت في السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني أمراً اضافياً : بناء على اقتراح وزير الشؤون الخارجية، في أنّ تفشي بعض أوامرنا السريّة، سيجعل الموظفين الصينيين في هونغ _ كونغ على اطلاع حول الغاء دوريات المدمّرات.

وهكذا بدأ مشهد معقّد بين الصينيين وبيننا، والغريب في الأمر أن الفريقيين كانا على استطاعة دائمة من الإدعاء بعدم وجود أية اتصالات بينهما، وكان الأمر على دقّة من متناهية بنوع ألاّ يتحمل أي منهما مسئولية المبادرة، وبالإيجاز ان هذا لم يكن يعرّض للخطر الاجراءات التي يقوم بها كل فريق. وبين شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩ ونهاية عام ١٩٧٠. تبادل الموظفون أمريكيون، عشر مرات على الأقل، بعض كلمات مع موظفين صينيين، بمناسبة احتفالات دبلوماسيّة في الخارج. وهذا يخالف الماضي تماماً، عندما كان الصينيون يرفضون قطعياً اجراء أي حديث مع الأمريكان. وحدثت أربعة أمثلة على الأقل ، اذ أقدم الصينيون هم أنفسهم على اجراء الاتصالات. وأخذت هذه الاتصلات تتكرّر وتجاوزت إطار المبادلات الاجتماعية. وفي شهر كانون الأول من عام ١٩٦٩، علم معاون قنصلنا العام في هونغ _ كونغ، عن طريق وسيط موثوق، ان موضفاً صينياً، أعلن وبصورة سريّة ما يأتي : في حال ان الخلافات الموجودة بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية، تحتاج عدّة سنوات لتزول، فهذا لا يمنع من عقد بعض العلاقات قبل عام ١٩٧٣.

عزمنا اذاً على القيام بمبادرة. ففي التاسع من شهر أيلول، اذ كان خطر الحرب مهيمناً، فان وولتر ستوسل، سفيرنا في بولونيا، جاء لزيارة نيكسون زيارة تقليدية، وانا كنت أعرف ستوسل منذ عام ١٩٦٩، اذ كان مكلفاً بالتدريس في مركز الشؤون الدولية في هارفرد، وكنت أعتبره واحداً من أحسن اعضاء الخدمات الدبلوماسيّة، وهو ذو كفاءة عظيمة، مفكّر ونظامي. فيما كنا بانتظار لقاء نيكسون : الّحيت على ستوسل بالذهاب إلى سفير جمهورية الصين الشعبية، لدى الاحتفال القادم، الذي سيحضرة كل منها، وأن يعلمه اننا على استعداد لبدء مفاوضات جادّة معهم.

فلم يطرأ شيء خلال ثلاثة أشهر. ثم في الثالث من شهر كانون الأول، تعرّف ستوسل على لاي يانغ، القائم بأعمال الصينية، خلال حفل يوغسلافي في قصر ثقافة فارسوفيا، وعندما رآه يقترب، صفّق لاي يانغ بسرور، فتبعه ستوسل، ونقل اليه الرسالة الشفوية بواسطة ترجمان لاي، الذي كان يتكلم اليابانية، ولكي نظهر للصينيين ان مسعى ستوسل لن يكن شخصياً، فلقد أعلنّا

بواسطة الناطق بلسان شؤون الخارجية، خلال غداء الاستعلامات التقليدي المقام في اليوم التالي : ان ستوسل ولاي تبادلا بعض الكلمات.

وبعد عدة سنوات، أسرّ لي شون إن ـ لاي ان القائم بالأعمال الذي كان يحترمه، كاد ان يصاب بأزمة قلبيّة، لأنه لم يكن يعرف كيف يتصرّف تجاه حدث لم يتلق بشأنه أية تعليمات.

شو إن ـ لاي بدوره، كان يعرف ان يحسن التصرّف، ففي السادس من شهر كانون الأول، أطلقت الجمهورية الصين الشعبية سراح الأمريكيين آخرين، احتجزوا في السادس عشر من شهر شباط، لأن مركبهم الشراعي كان قد حاد عن طريقه إلى المياه الصينيّة في عرض مقاطعة كوانتونغ.

وفي الحادي عشر من شهر كانون الأول عام ١٩٦٩، الأمر الذي أوجب دهشتنا : ان ستوسل دعى الى السفارة الصينية : وهذه كانت أول دعوة من هذه النوع منذ ان الشيوعيين استولوا على السلطة في الصين. حينذاك اقترح ستوسل الانتفاع من اشراك جهاز موظفي السفارة : فأجب على اقتراحه بما يلي : ان تكتماّ كهذا لا يفيد، وان بدء بالمحادثات يتوافق جيداً مع هذه الدعوة ( ومصلحة المخابرات السوفييتية لا بد ان تعلم بالحادث .... ) عندئذ وصل ستوسل الى اعلى مقام. ومقابلته مع زميله الصيني، جرت في جو ودّي، كما أعلن ذلك في اليوم التالي من قبل : روبيرت ماك كلوسكي، الناطق بلسان وزارة الشؤون الخارجية، فاقترح ستوسل استعادة مفوضات فارسوفيا، ولم يبحث أي موضوع آخر. و وفق على طلبه في ان الاجتماع القادم سيجري في الشهر ذاته.

وبنتيجة هذه المقابلة، فان الأجهزة الرسمية لوزارة الشؤون الخارجية، بدأت ولأول مرّة باجراء علاقات دبلوماسية مع الصين. وقبل ذلك فان ايليوت ريشاردسون، ومعاونه مارشال غرين، وأجهزتهما ومحلّلين دبلوماسيين لامعين، كانوا قد شاركوا مشاركة رئيسية في اجراءات مجلس الأمن القومي، و كانوا قد أوضحوا بدقّة المشاريع المختلفة لتحرير التجارة مع الصين. لكن وزارة الشؤون الخارجية، بالرغم من انها مركز حيوي في الحومة، لم تساهم في اعداد ستيراتيجيّة ممكنة، ولم تقدم على اتخاذ غير المساعي الدبلوماسيّة. وأما حالياً، فإن اجهزتهما الادارية أصبحت ناشطة اذا وجب عليها ان تشغل الآن لا بموجب تقارير فقط ولكن بموجب مفاوضات. وبعد أن أجريت عدة أبحاث في مكاتب وزارة الشؤون الخارجية. لم تعد هناك حاجة لمناقشة المخططات المطروحة. ولقاء ذلك، كان باستطاعة اجهزتهما مخالفة التعليمات المعطاة

للسفراء مخالفة عنيدة. وفي الحقيقة كانوا يعتقدون أن من الصلابة بمكان ان تدار السياسة ببرقيات تلغرافية.

وبالرغم من سرعة ردود الفعل الذي فرضتها معظم المفاوضات، كان هذا يتطلب وضع حد أكبر لتدخل العناصر الخارجية ( مثل الرئيس أو وزارة لشؤون الخارجية نفسها ).

ان مفاوضات فارسوفيا، حرّكت كل الأجهزة التقليدية في الوزارة. فتظاهر اولاً أخصائيو العلاقات الأمريكية . السوفييتية : معتقدين ان القوتين الأعظمين النوويتين تملكان مفاتيح الحرب والسلم، وكانوا يريدون تجنّب ما أماكن تهديم العلاقات، ولم يكونوا ليروا فائدة كبرى في التقارب مع الصين. بل بلعكس من ذلك فان علاقات ثلاثية ستتحسن كافة المباديء التي يركّز عليها في مجال النشاط الحيوي. وان العلاقات الجيّدة مع الصين تستطيع تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفييتي، كان هذا يطهر بالنسبة لهم غامضاً وغير مفهوم. وفي مقدّمة هذا الفريق، كان يوجد السفير السابق في الاتحاد السوفييتي، ليولين تومـاس، الذي يعد بين أحسن المخلصين واللامعين وأقدر اختصاصي في شؤون الاتحاد السوفييتي الخارجية. ومنذ شهر حزيران. عندما أخذ علماً هو وزميله شارل ( شيب ) بوهلين الذي لا يقل عنه كفاءة وذكاء، منذ أخذهما علماً أننا عندما علمنا أننا نرمي إلى رفع بعض الحظر عن التجارة مع الصين، وهو وزميله شارل ( شيب ) بولهن، الذي لا يقبل عنه ذكاء ، قاما بمبادرة فزارا نيكسون. ولفتا بشجاعة انتباه الرئيس، إلى ان كل محاولة لجعل الصين ضد الاتحاد السوفييتي، تبوء بالفشل ولها عواقب خطيرة جداً على العلاقات الأمريكية السوفييتية والسلام في العالم. فأجاب نيكسون اننا في مواجهة قضيّة قاسية جداً. اذ كنا نبغي فقط من وراء محاولاتنا حثّ القوتين العظيمتين لتحسين علاقاتها معنا. وقام في هذه المقابلة بدون مَرن _ متظاهراً بتفهم الأمور بحضور هذين الدبلوماسيين، وهازئاً بعدئذ ممّا كان يدعوه ميوعة موظفي الشؤون الخارجية.

وبعد أن أخذت علماً بعودة المفاوضات في فارسوفيا _ اقترح عليّ ليولين تومبسون، إيقاف دوبرينين على ما يجري حول اتصالاتنا مع الصين، نقل الى روجرز هذا الاقتراح. مؤكداً عدم ضمان نتائجه، لكنه كان يقصد وراء ذلك، إفساح المجال للرئيس بالتفكير بذلك. لم أتقبل هذه الفكرة إطلاقاً. لأن الاتحاد السوفييتي لا يطلعنا على أية اتصالات يجريها مع الصين أو أيّ بلد آخر، ولم أكن لأعلم لماذا نكنّ له هذا التقرير ونمنحه هذه الثقة دون المقابل. وهذا كان يعني إتاحة الفرصة للروس بالتفاخر أمام الصينين، أننا نطلعهم على كل شيء، ويحرّك شكوك

الصينيين منذ بدء الانطلاقة. ووافقني نيكسون على الرأي الذي أبديت. وأبلغت روجرز في الثاني عشر من شهر كانون الأول، ان رغبة السيد الرئيس عدم اطلاع دوبرينين على مجرى المفوضات في فاسوفيا، وعدم اعلامه محتواها. وفيما اذا سأل دوبرينين يجب أن يجاوب بصورة غامضة : تلك المفاوضات تدور حول المصالح المتبادلة، وليس شيء آخر. وكان الرئيس يلح على ان هذه التساؤلات لا تتجاوز حدّها في حال اجراء مفاوضات.

ولسوء الحظ، فان جهازاً آخر من الآلية الادارية أخذنا في عجلتة. وهو ان وزارة الشؤون الخارجية، نظّمت بفضل تنظيم غريب، توزيع المعلومات بصورة تلقائية على مكاتب الوزارة وغيرها من الحكومات الأجنبية، عن الحوادث الهامة. ويمكن تفسير وجود هذا التنظيم إلى عدّة وجوه :

التأكد من أن الموظفين الرئيسيين مدركون للقضايا التي تهمّهم للتمكن من ممارسة شؤونهم.

إيجاد مساهمة في المسؤولية .

إيجاد الطمأنينة لدى الحلفاء، وإجبارهم أحياناً للمشاركة في دراسة هذه المعلومات، لان الاطلاع على هذه الأمور، في هذا المجال، يكسب قوة. وتقوم مشكلة هذه الأسباب مجتمعة، التي ربما تمتدح أحياناً، لكنها غالباً ما تتعلّق باعتبارات قصيرة المدى ـ عجرفة وهيبة ادارية ـ وأن الأمور تسير بصورة روتينية طبيعية، يؤلم الموظفون الكبار مراقبتها. و لاحضنا بسرعة ان جهاز الشؤون الخارجية، كان قد أعطى علماً باجتماع فرسوفيا، إلى سفاراتنا في توكيو . تايبي . موسكو. وقنصليتنا العامة في هونغ كونغ. كما كان هذا الجهاز قد أرسل برقيات، سواء قبل أو بعد مقابلة ستوسل. إلى حكومات : المملكة المتحدة . استراليا . كندا . إيطاليا . وزيلاندا الجديدة. وفي حال ان الصمت مطلوب ، فان خبراء قيّماً كان ينتشر بسرعة في الأوساط الدبلوماسيّة. وعندما أطلعت الرئيس على ما جرى تنهّد وقال « ان هذا الطفل، لن يرى النور أبداً ». والصعوبة التي فرضها تسلّط هذا التنظيم الرهيب على الاتصالات الادارية، جعلت قليلاً فقليلاً العلاقات الدبلوماسية مع الصين الشغل الشاغل للبيت الأبيض.

وفي التاسع عشر من شهر كانون الأول، عمدنا إلى مبادرة أخرى. فقد أعلن أمين السجل الاتحادي خبراً مقتضباً : برفع جديد للحظر التجاري، والغاء سقف المائة دولار لمشتريات السوّاح، وتفويض الفروع المستقلّة في الشركات الأمريكية في الخارج التعامل مع جمهورية

الصين الشعبية، أضف الى ذلك، فان الحكومة كانت تأخذ على عاتقها مسؤولية الكشف عن المنتجات الصينيّة، مّما كان يشجع استيراد الأشياء الفنيّة.

وحالاً أخذت كل وسائل الإعلام تعمل وفي وقت متزامن. وفي السابع عشر من شهر كانون الأول، جاء المعاون الأول لوزير الشؤون الخارجيّة الرومانية . جيورجي ماسكوفيتشي . ليعلمني ردود فعل الصينيّة تجاه ما جرى بين نيكسون وشاوشيسكو : لقد وعى الصينيون ما دار من محادثات، وأجابوا ان من مصلحتهم اجراء علاقات مع الغرب، وليس لديهم ما يقترحون في هذا السبيل. وكأني بالجمهورية الشعبيّة تفكر في أمرين : كانت مستعدّة للمباحثات . لا ان ذلك اضطراراً بواسطة رومانيا .

وبعد يومين، حمل إلى السفير هلالي، آخر أخبار الوساطة الباكستانية. وكانت هامّة. قرأ لي رسالة منسوخة باليد، لأسباب أمنية، وكل الرسائل الباكستانية كانت تكتب بهذه الطريقة، وقد استنتجت من هذه الرسالة : أن يحي كان قد أبلغ السفير الصيني رغبتنا في تحسين علاقتنا مع الصين، وعزمنا على سحب مدّمرتين من دوريات حراسة تايوان. فبدت على السفير أولاً قلة الاهتمام، مفكّراً بالأسباب الدعاية لذلك من قبل الأمريكان، لكنه بعد بضعة أيام، وحتماً بعد تلقّيه تعليمات من بكين، عاد إليّ بجوانب مُرض : يتضمن عرفان جميل بكين على دور وجوه الباكستانيون. وأردف الهلالي قائلاً : ان انطلاق سراح الأمريكيين في السادس من كانون الأول، كان جواباً ملموساً لبدء محادثات.

أعاد الرئيس الكرة، موجهاً إلى يحي رسالة مطولة حول العلاقات بين الولايات المتحدة و الباكستان. وجاء على ذكر الصين فقال : « انكم تعلمون رغبتي الشديدة في بدء محادثات مثمرة مع القادة الصينيين. سيطول حتماً تحقيق هذا الأمر، وفي أكثر الأحوال، لكننا لن نتراجع عن هدفنا ». وفيما أنا اسلم الهلالي هذه الرسالة، وردته في البرهة ذاتها رسالة أخرى في الثالث والعشرين من شهر كانون الأول : كان يطلعنا يحي هذه المرة، على « انطباعه » وهذا يعني باللغة الدبلوماسية، عدم ذكر اسم الموظف الكبير الصيني ان الصينيين راغبون في عودة مفاوضات فرسوفيا دون شروط مسبقة. وكان طبيعياً ان يعلق الصينيون وساطة الاتصالات الباكستانية. وقد وجد الباكستان نفسه في موقف أكثر خطورة من رومانيا من وجهة نظر العلاقات الصينية . السوفييتية.

# سياسة ثلاثيّة

وهكذا اذاً، ففي نهاية عام ١٩٦٩، أصبحت علاقات أمريكا مع العالم الشيوعي، تسير ببطء لتصبح علاقات ثلاثية. لم نكن نتخذ انفتاحاً نحو الصين بمثابة عداء أساسي السوفييت، اذا كانت غايتنا تطهير سياستنا الخارجية من كل العواطفية. ولم يكن لدينا أيّ حق في تحديد اتصالاتنا مع البلدان الشيوعية الكبرى فقط بالاتحاد السوفييتي. وعند مدّنا يدنا إلى الصين، فلا نقصد بهذا محو شعور عظيم بالإثم، بسبب سياستنا الصينيّة في السنوات ١٩٤٠ لكن يبقى هدفنا في إقامة توازن عالمي. ولا نريد أبداً إقامة تحالف مع الصين ضد الاتحاد السوفييتي، لكن لنعطي كل قوّة شيوعية المزايا الحسنة لاتخاذ علاقات معنا. وتوازن كهذا يمكنه ايجاد بعض الاستقرار بين القوات الكبرى، وتعاون محتمل للسنوات ١٩٧٠ و ١٩٨٠.

وفي الثامن من شهر كانون الأول، وبمناسبة مؤتمر صحفي أقمته آخر العالم في القاعة الشرقيّة : حاولت رسم الخطوط الكبرى لسياستنا بالنسبة لأكبر بلدين شيوعيين : « لقد تكلمنا دوماً وبصراحة، أنّ ليس على البلدان الأخرى ، بما فيها البلدان الشيوعية، ولاسيما الصين الشيوعيّة، على أساس التعامل معها، لاعلى أساس مبادئها الإيديولوجية في سياستها القوميّة. وهنات نفسي على الطريقة الطبيعية، التي كانت عليها علاقاتنا مع الاتحاد السوفييتي، وغياب الدعاية المغرضة التي اتصفت بها صلاتنا حتى هذا اليوم. واننا على استعداد لبدء مفاوضات رسميّة مع أخذ العلم اننا نستعد لها باعتناء. وبالرغم من ذلك فاننا نلح ان تكون هذه النوايا متبادلة، ونؤكد على لقاء قمة مع القادة السوفييت متمنيّن ان يكون هذا اللقاء برهان تقدّم ملموس لا أن يقف عند ذاته. وتحدّثت عن الصين بصورة مبهمة أكثر، لأنه كان علينا سلوك طريق طويلة قبل اقمة علاقات صحيحة معها :

« طبعاً ان الشعب الصيني كبير. وتاريخه يمت إلى أقدم المدنيات الموجودة اليوم، أضف إلى ذلك فان ثمانمائة مليون نسمة، أعني خمسة وعشرين بالمائة من البشرية، هذا عامل أساسي لا يمكن اغفاله. انهم يؤثرون على الشؤون الدولية، بالرغم من عزمنا على اجراء بعض الاتصالات السياسية التي نحن بصددها. هذا البلد حقيقة واقعية، وسياسة سواء كانت لصالح العام أو ضده، فاهنا ثمانمائة مليون نسمه عن المسرح السياسي.

لكننا لا نقدر أبداً أننا نستطيع ذلك ونحققه بعمل أحادي الجانب. سيتخذ الصينييون قراراتهم من خلال ايديولجيتهم، ومن خلال ما يرون أنه في مصلحتهم. لكننا بقدر ما نستطيع التأثير على أعمالهم، بقدر ذلك نحن على استعداد لبدء محادثات معهم.

وفي الثاني والعشرين من شهر كانون الأول، عمل كان من دوبرينين وأنا كل على حده، جولة مراجعة في أفق نهاية العام. و كنت على ثقة تامة أنه سيتكلم على الصين. وقد أعددت أجوبتي سلفاً ونلت موافقة الرئيس عليها :

« انني أكرر أننا :
- لانقبل أن يكون العداء الدائم عنوان العلاقات الصينية الأمريكية.
- سياستنا غير موجّهة ضد الاتحاد السوفييتي.
- لن نكون طرفاً في النزاع الصيني السوفييتي».

لم يذهب انتظاري سدى، فقد عالج دوبرينين الموضوع الصيني وسألني أين صرنا في الموضوع، وما كانت ردود فعل الصينيين، تجنّبت الاجابة مكتفياً بإعطاء تأكيدات عامة كنت قد حضّرتها.

وفي أواخر عام ١٩٦٩، كان يبدوا جلياً، ان الصين هي أيضاً، عزمت على التقارب منّا، واضعة الاتحاد السوفييتي على الحياد، فيما هي تستعيد مفاوضات متفرقّة حول قضايا حدودية. وفي بداية عام ١٩٧٠، وافق الصينيون على اجراء لقاء آخر غير رسمي، كان على ستوسل ان يقترح خلاله استئناف مفاوضات رسميّة بين السفراء في فارسوفيا. وكان يجب ان يجري هذا اللقاء، في الثامن عشر من شهر كانون الثاني في سفارة الولايات المتحدة. وسبّب الاستعداد لهذه اللقاء خلافاً بسيطاً مع وزارة الشؤون الخارجية. وفي الواقع، كان على الرئيس وعليّ الاستفادة من هذه المناسبة ان نبرهن للصينيين : ان لن يكون هناك اشتراك في السيادة الأمريكية _ السوفييتية، لا في آسيا ولا في أية جهة من العالم أبداً. كنّا نريد ان يعلم الصينيون وبكل صراحة، انهم لم يسمعوا حتى الآن إلاّ عن طريق شخص ثالث. أضف إلى ذلك. اننا كنّا نوشك على فقد ثقة وسطائنا اذ لم يؤكد الدبلوماسيين الأمريكان، ما كان الرئيس وانا قد كلفنا هؤلاء الوسطاء بنقله.

اعترض على مشروعنا، مارشال غرين، معاون وزير الشؤون الخارجية. لشؤون آسيا الشرقية والمحيط الهادي، مؤكداً وجوب اجتناب القضايا الحسّاسه عند اجتماع معيّن لتنظيم أمور اجرائية. كان هناك وبكل تأكيد أسباب أعمق أدّت إلى هذا اتلاعتراض :

سخط تجاه تدخلات البيت الأبيض.

انطباع سائد بين أخصّائي آسيا الشرقية ، في أن ادخال اعتبارت جغرافية سياسية تمسّ بالاتحاد السوفييتي، هذا عمل غير جائز.

وربّما ما كان عالقاً في اذهان هؤلاء الاخصائيين، من تهديدات خطرة كانت تبدر من الصين، أو انه لم يغب عن بالهم تلك النتائج المؤسفة لسلوكيّة ماك آرثي المتهورّة.

وفي الواقع فان لقاء فارسوفيا في الثامن من شهر كانون الثاني، جرى على أحسن ما يجري في العالم. فقد وصل القائم بالأعمال الصيني بأبّهة عظيمة إلى سفارة الولايات المتحدة، في عربة يخفق عليها العالم الصيني. سوّيت وبصورة ودّية الاجراءات الأولية، وأتفق على اجراء المفاوضات الرسميّة بين السفراء في فرسوفيا. ونقلت رسالة الرئيس بدقّة، حول حكم ثنائي. تجنّب الفريقان كل حرب كلاميّة ( بالرغم من أن الصحافة الصينيّة تابعت الكشف لقرائها من أعمال حكومة نيكسون الجائرة. وقبل الصينيون مبدأ الاجتماعات بالتناوب في السفارتين. وثبّت تاريخ اللقاء القادم في العشرين من شهر كانون الثاني، في سفارة الصين، واقترح لاي يانغ إعلان ذلك.

وهكذا اذاً، وبعد تولية الرئيس بعام كنا ننتظر فيه يوماً فيوماً، وبعد أكثر من عامين ولأول مرّة، كان يجب على جمهورية الصين الشعبية، والولايات المتحدة بدء مفاوضات حقيقية. لكنّ هذه ستكون مختلفة تماماً، عن المائة والاربعة وثلاثين لقاء كانت قد سبقتها. كلّف الاستعداد لها عناداً كبيراً، طيلة شهور عدّة، برسائل غير مباشرة أولاً، ثم أصبحت أكثر فأكثر واضحة، منوّهة بارادتنا حول تغيير اساسي في طبيعة علاقاتنا. ولا تزال أمامنا طريق نسلكها. لكننا أخيراً وجدنا أنفسنا أمام قمم سلسلة جبال، يجب علينا اجتيازها بعد ثمانية عشر شهراً.

كان يتخلّل هذه المدة فترة أمل عجيبة. وبالاضافة إلى تقدّم دبلوماسيتنا الثلاثية، كان هناك أسباب أخرى، تدعوا نفوسنا الأمل بالانتهاء من الحرب المؤلمة. ان تصريح كويان تاي المفاجئة في الثاني والعشرين من شهر آذار، أظهر بكل وضوح، قلق هانوي من الكراهية المتزايدة من قبل

حليفيها الاثنين. وكان النزاع الصيني السوفييتي يجعل فييتنام الشمالية في موقف دقيق، لأسباب تنظيمية عمليه ( ومن بينها ) : جزء من العون العسكري السوفييتي، كان يرسل بالقطارات من خلال الصين، الأمر الذي ينذر بتعاون ولو قليل بين الاتحاد لسوفييتي والصين. وكانت هانوي قد فهمت طبعاً، المدى الذي يقدّمه لنا النزاع الصيني _ السوفييتي، كما كان يجب ان يظهر عام ١٩٧٢، بالاضافة إلى أن كل لأم لا نقساماتنا الداخليه كان يحرم هانوي أحد مؤهّلات نجاحه .

لكن الصدمة التي تعرّضت لها سياستنا نحو الصين كان لها وقع عظيماً. ان حرب فييتنام كانت تبدوا وكأنها تزيل كل أمل لسياسة خلاّقة وتولّد نفوراً من كل التزام نحو الأجنبي، يرافق هذا النفور اشمئزاز من أنفسنا. وآخر مشهد من المسرحيّة التي كانت تتمثل في خلافنا مع هذا الشعب الكبير، أهمية في المستوى الانساني، وعونه في إيجاد سلام في العالم، وكل هذا كان يحمل في طيّاته نفحة ريح باردة، معيدة إلى الأذهان، ان أمريكا كانت قادرة على تحقيق ما تصبو إليه لكونها سيدة العالم. أضف إلى ذلك فيما لو كنّا قادرين على ذلك، في وسط حرب قسمتنا على أنفسنا، ولا زالت تؤكد لنا، اننا لا نزال نمتلك الجرأة، وقادرين على تحقيق أهدافنا وتأمين رفاهية كل من يثق بنا، في بقية أنحاء العالم الذي كنا نقوم فيه بدور رئيسي .

## ـ٧ـ

# سياسة الدفاع واستراتيجيته

## الدفاع القومي والتوازن الستراتيجي

على مدى التاريخ ، يمكن القول أن النفوذ السياسي لدى الشعوب كان مرادفاً لقوتها العسكرية. وإذا كانت القيمة المعنوية وعظمة المنشآت تقدر على التمييز بين الدول، فان المهارة الدبلوماسية لا تستطيع سوى تنمية القدرة العسكرية، لا ان تحلّ محلها. وفي آخر المطاف فان الضعف يدعوا دوماً الى التعدّي، والنقص في القوّة يؤدي دوماً الى التنازل عن القدرة السياسية. لعبت بعض البلدان الصغيرة، أدوار هامة، وخلال فترات قصيرة ، في المستوى العالمي، لكنّها كانت تتصرف ضمن إطار أمين من توازن دولي. وتوازن القدرة، هذا التصور غير المأخوذ به غالباً في المراسلات السياسية الأمريكية، والذي يندر استعماله، دون إضافة الصفة « غير المسلّم به » أصبح في الحقيقة الشرط الأول للسلام. وانطلاقاً من هذا يمكن القول أن البحث عن القدرة ليس سوى بداية السياسة ولا يمكن ان نكون غاية بذاته. وإذا لم تكن القوّة بجانبها، فان الجميع الأهداف، مهما كانت شريفة بحد ذتها، توشك ان تستحق من قبل الأنظمة لدى الآخرين.

كنا نعتقد طيلة أكثر من قرن، ان لا حاجة بنا للاهتمام بالمشاكل الستراتيجية، مادام محيطان يحميان حدودنا. وتخيّلنا لقاء ذلك قدرات كبيرة أخرى، كنا نلزم أنفسنا بها، بفضل سلامة تحرّكاتنا، وبما ان أهمية في العالم كانت مستقلة عن قدراتنا المادّية. وكان لدينا الميل الى ترك عزلتنا، والانخراط في التزامات مفاجئة، كانت غاية جميعها أدبيّة. حتى ان مجهودتنا العسكرية كانت معنويّة وكانت ترتكز كثيراً على المنطق الرمزي أكثر ممّا هو على الجغرافية السياسية. وعندما كنا نخوض حروباً، كان علينا بوجه عام كسب الانتصار في وسائلنا أكثر مما يكون سبب الغلبة من جرأتنا أو مهارتنا الستراتيجية.

نحو أواخر أعوام ١٩٦٠، حاولنا العزلة مرّة أخرى. وتثبيط عزائمنا الذي سبّبته حرب طويلة الأمد، كان يدعوا البعض منّا لتفسير مشاكلنا بالتزام مفرط نحو العالم كله. وكانت الانتقادات

بادى ذي بدء، مصوّبة لاسيّما نحو نزاع فييتنام، لكنها سرعان ما امتدّت الى جميع مناهجنا الداخلية والتزاماتنا العسكرية. والأوساط وثيقة الاطلاع، التي كانت ركّزت التزاماتنا الحكيمة بعد الحرب، أخذت تشجبها بشدّة.

وكان يهدد هذا بوضع بلدنا وأقوام حرّة أخرى في رقة حال. وسياسة أوروبا الثابتة واليابان، أضف إليها مستقبل بلدان أمريكا اللاتينية وافريقيا وآسيا التي هي في طريق التنمية كانت كلها منوطة بموقف الولايات المتحدة. فهل كان يملك هؤلاء القدرة اللازمة للوصل إلى أهدافها ؟ هل كان يمكنها الظهور بمظهر المقتدر على الدفاع عن مصالحها ومصالح أصدقائها ؟ وإذا قلّصت حرب فييتنام قدرتنا عن الدفاع عن أمن الشعوب الحرة، فان الملايين الكائنات الحيّة ستكون في خطر.

ولسوء الحظ، وفي الوقت الذي كان فيه تقدمنا التكنولوجي، ترافقه جهود سياسية حكيمة وحقيقية، يؤديان الى التوازن استراتيجي وجدنا أنفسنا وللأسف منشغلين بأعقد مشاكلنا الداخلية. وتمتع التحاد السوفييتي، طيلة فترة بعد الحرب ، بأعظم تقدّم في مجال الأسلحة التقليدية. ومع ذلك فان قدرات العسكرية السوفييتية، كانت تشكو من عائقين :

_ مجال عملها كان مقيّداً نسبياً، لأنه كان محدداً بالمناطق المجاورة للاتحاد السوفييتي.

_ والتفوق الامريكي في مجال الاسلحة الستراتيجية النووية كان ساحقاً لم يكن باستطاعة الاتحاد السوفييتي، استغلال تقدمه المحليّ، خوفاً من ان يجد نفسه مجابهاً بتفوق الولايات المتحدة النووي. ولأجل هذا، فان الاتحاد السوفييتي، ما خلا بعض انفجارات غضب شديد لم يستعمل قط أسلحة التقليدية ضد البلدان المتحالفة مع الولايات المتحدة . وزد على ذلك، فان إحدى المفارقات الكبرى في عهدنا، ان الجيش الأحمر لم يتدخل منذ عام ١٩٤٥، إلاّ ضد حلفاء الاتحاد السوفييتي ذاته : ( في برلين الشرقية عام ١٩٥٣_ وفي المجر عام ١٩٥٦_ وفي تشيكو سلفاكيا عام ١٩٦٨، وعلى حدود الصينية عام ١٩٦٩ ).

في أواخر أعوام ١٩٦٠، كادت القدرتان الستراتيجيتان النوويتان لدى الفريقين تتوازيان، ومع أن هذه البيّنة كان عليها تعديل سياستنا الستراتيجية فيما بعد الحرب تعديلاً أساسياً، للأسف ففي الوقت المحدّد، الذي كان علينا نركّز جهودنا فيه، حول تعقّدات الحالة الجديدة، وجدنا ان

برامجنا الدفاعية كانت موضوع انتقاد قاس : كانت لدى المنتقدين، مفرطة. وكانوا يعزون الى ايجادها تهوّر القادة موجوديتها، ويجعلون مسؤولين عن الازمات والنزاعات.

كانت حكومات الأعوام ١٩٦٠ قد عزمت. وبكل دقّة، على قبول التكافؤ في التسلح الستراتيجي، إذا كانت تراه لازماً لا يمكن اجتناب لكنّها عند قبولها بهذا المبدأ أخذت تصعّد في تنمية هذا التسلّح. وفي الأعوام ١٩٦٠، عزمت الولايات المتحدة ومن تلقاء نفسها على إيقاف صنع القذائف الصاروخية I.C.B.M من الأرض للأرض و S.L.B.M. الصواريخ التي تطلق من الغواصات. لو يكن لدينا أي منهج نتوقع معه صنع قاذفات قنابل سترتيجية اضافية. فاتخذنا العزم على بنيان قوّة سترتيجية تؤلف منه / ١٠٥٤ / ألف وأربعة وخمسين صاروخ أرض أرض و / ٦٥٦ / وستمائة وستة وخمسين صاروخاً تطلق من الغواصات، ومايقارب/ ٤٠٠ / اربعمائة قاذفة قنابل . B.52 و لقد ثبتنا هذه السقوف في وقت كنّا فيه متفوقين على القوى الستراتيجية السوفييتية. وبقيت هذه السقوف متطابقة، حتّى عندما أصبح جليّاً ان الاتحاد السوفييتي، كخطوة لرد اعتباره بعد أزمة كوبا، عام ١٩٦٢، أخذ يبدى مجهوداً مكثفاً لتنمية قدرته العسكرية الدولية.

دخلت أزمة كوبا في ذهن الشعب الأمريكي وكأنها انتصار كبير للولايات المتحدة. وبالنسبة للحكومتين الأمريكية والسوفييتية، فقد استخلصنا منها نتائج متناقضة كلياً. ان أزمة كوبا أوصلت أمريكا من جهتها للسعي الى مراقبة التسلّح والانفراج السياسي، كما دعت الى منع التجارب النووية، والى منع انتشارها، وبينت عن رغبتها اللمحة في تحديد صنع القذائف الصاروخية وبصورة جذرية. ولقاء ذلك، من الجانب السوفييتي، فان فشل خروتشيروف في كوبا، أدى الى عزلته عن الحكم بعد سنتين من ذلك . وخلاصة ردّ الفعل السوفييتي من التجربة الكوبيية ، أظهرتها الملاحظة القاسية التي وجهها فاسيلي كوزتزوف الى جوك ماك كلوي ، عندما كان الخبيران السياسيان في أواخر عام ١٩٦٢ ، يتفاوضان حول تفاصيل سحب الأسلحة السوفييتية من كوبا : « انتم الأمريكان، لن تحصلوا على مثل هذا أبداً » . وعند ذلك ، باشر الاتحاد السوفييتي ، تقليدياً ومنهجياً ودون تحديد زمن ، في تنمية صفة وطاقة كل أسلحته الصاروخية ، وقاذفات القنابل . والغواصات ، الدبابات وطائرات القتال . ان أزمة كوبا لعام ١٩٦٢ ، حدّدت اذاً منعطفاً تاريخياً . ولكن ليس للأسباب التي كان الأمريكان يوحون بها .

وثلاث سنوات بعد أزمة كوبا أي في عام ١٩٦٥ ، كان موجود مخزن الأسلحة الستراتيجية السوفييتية ما يقارب / ٢٢٠ / مائتين وعشرين من الصواريخ أرض أرض ، وأكثر من / ١٠٠ / مائة

صاروخ يقذف من الغواصات . وفي عام ١٩٦٨ ، تجاوزت هذه الأرقام الى ما يقرب من / ٨٦٠ / ثمانمائة وستين صاروخ أرض أرض . وأكثر من / ١٢٠ / مائة وعشرين صاروخ يقذف من الغواصات . وفي عام ١٩٧١ . لحق بنا الروس ، في حين أنهم كانوا يكملون تسلّحهم . ونحن كنا نتابع دوماً وباهتمام أهمية مشاريعهم . وبيّن المحلل السياسي البارع ألبرت ووهلستتر بصورة لاتقبل الجدل ، ان الرأي السائد ، خلال الأعوام ١٩٦٠ ، في البنتاغون كان يضخم البرامج السوفييتية ، بنية مضاعفة موازنته ، ان هذا مخالف للحقيقة تماماً : اذ ان المخططين الأمريكان في الأعوام ١٩٥٠ و ١٩٦٠ كانوا يبخسون جداً تنمية السوفييت العسكرية . ان البرامج السوفييتية كانت تتوافق دائماً مع مستويات تقديراتنا . لا كما كان يقال في انها قريبة الاحتمال ، أو كما كانت تعتبر انها في اسوأ حال . وبدل ان يتوقف السوفييت عندما أصبحوا متكافئين معنا ، وكما كان يعتقد البعض ، أخذوا يكملون تسلحهم ، حتى جاءت اتفاقات عام ١٩٧٢ حول تحديد التسلح الستراتيجي فامتنعوا عن ذلك . فباشروا عندئذ في تحديث وسائلهم الفعالة .

وردّ الفعل الأمريكي حيال التسلح السوفييتي ، إبان حكم جونسون ، كان ذا وجهين : عزم أولاً على البدء بالعمل في تنظيم دفاعي مضاد للقذائف الصاروخية ، وطرح هذا الموضوع على جونسون من قبل الكونغرس وهو في حالة قلق ، وكّلف نكسون بتنفيذه . وفي مجال الأسلحة الهجومية ، فبدل اللجوء الى الصواريخ السوفييتية ، عزم أسلافنا على تصنيع الرووس النووية : (M.I.R.V) في سبيل مضاعفة القدرة الهجومية التي كنا أخذنا بتجهيزها . أو التجارب الأولى في اطلاق الصواريخ الموجّهة ذات الرووس المتعددة ، جرت تجاربها عام ١٩٦٨ . كما عزم أسلافنا كذلك على توقع نجاح صنع قذائف خفيفة لكنها بغاية الدقة : Minuteman – I.C.B.M. (صواريخ أرض أرض) ، و ..Poseidon – S.L.B.M. (صواريخ تطلق من الغواصات) ( اما السوفييت فقد اتخذوا طريقة معاكسة ، اذ انهم فضلوا تصنيع قذائف أكبر بكثير من قذائفنا ، وقادرة إذاً على حمل رؤوس هجومية أثقل . وبقدر ما كان السوفييت يحسنّون تقنيتهم . بقدر ذلك كانت قذائفهم الثقيلة ، تدخل في طور الدقة متخذة بذلك قيمة وصفية ، بالإضافة إلى تفوقها العددي ) . وهكذا حددت حكومة جونسون مستوى وعدد القذائف ، طيلة مدة حكومة نكسون ، لأن ست سنوات على الأقل ستنقضي بين تصميم معظم الأسلحة الجديدة وانتاجها ، لا سيما وان الكونغرس اعترض المناهج الجديدة ، مؤجلاً إياها حتى نهاية حرب فييتنام . فلن يكون ذلك قبل اواسط عام ١٩٧٠ ، حتى نتمكن من انتاج أسلحة جديدة ، ولا يسهو عن بالنا ان معارضة الكونغرس قد هدّدت أيضاً بتمديد هذه الفترة .

ان التفوق الساحق ، الذي كنا تمتعنا به حتماً طوال السنوات ١٩٤٠ و ١٩٥٠ وُجد الآن في حدود التساوي ، بل أقل من تسلحنا الأراضي . وطيلة بعض الوقت ، فان ثقل القذائف السوفييتية وأفضليتها العددية ، عليها ان تتوازي مع تقدمنا التقني . وفي الحقيقة ، كان يُحسب لنا ، خمس سنوات على الأقل من التقدم في سبيل تنمية ، الصواريخ المتعددة الرؤوس ، كما أن دقة صنع قذائفنا ، تبقى محافظة على تفوقها ، مما يعطي أهمية رئيسية في حال وقوع نزاع نووي . ان كفاءتنا في الحفاظ على توازن ستراتيجي تقريبي لم تتعرض بعد للخطر ، شريطة ان ننتج ونبقى دوماً في تفوقنا التقني . وكنا قادرين على توسيع ونشر مضادات القذائف الصاروخية ، في سبيل حماية مدننا ، ومراكز اطلاق قذائفنا . وكنا نستطيع كذلك تصعيد أعمال تصميم قاذفات قنابل مصنعة أكثر (عُرفت بعدئذ باسم B-1 ) ، ومن قذيفة جديدة : صاروخ أرض أرض (Le M.X.) . وبعد عام ١٩٧٨ وجدنا أنفسنا في وضع جيد وقوي ، شريطة إكمال جميع البرامج المطروحة في بداية الأعوام ١٩٧٠ . واتخذنا جميع هذه الاجراءات ، لكن الكونغرس والشعب هاجماها جميعها . وكانت مشكلتنا تكمن في ان كل قوانا الستراتيجية ستصبح أكثر فأكثر ضعفاً ، دون هذه الأسلحة العتيدة ، حتى ان متطلباتنا الأمنية بوجودها وعلى الأمد الطويل تبدو وكأنها تتقوى .

وفي الواقع ، وحتى في التساوي بالتسلح ، أو بتفوق بسيط ، على كل حكومة جديدة ، مواجهة مشكلة دون سابقة . ان استراتيجية الدفاع التي أعدت في زمن تفوقنا ، كان يجب أعادة النظر فيها ، في ضوء الحقائق الجديدة . وان نزاعاً نووياً ، مهما بدا صغيراً ، يتمكن من قتل نفوس عشرات الملايين من البشر في الولايات المتحدة . وكان يجري الاستعداد للقوى المدمرة إذاً . وبالرغم من قدرتنا القتالية كان تفوق قدرة خصومنا ، كنا نفر من الالتجاء الى حرب نووية ، ليس لها سوى زيادة التدمير والخراب . وكان الشك أخذ بمراودة نفوس الأمريكيين ، في إيصال العالم إلى نهايته عند عزمهم على الدفاع عن حلفائهم . فكانت الأسئلة التالية تطرح نفسها : كيف نستطيع ظمان استقلال وثقة البلدان المتحالفة المهددّة من قبل أسلحة الاتحاد السوفييتي الأرضية . ( الآخذة بالنمو أيضاً ) ومخزن أسلحتها النووية المتكاثرة ؟ وأي استراتيجية يجب علينا اتخاذها لاستخدام أسلحتنا الذرية ؟ واذا حرب نووية . حرارية إبادية اصبحت خطرة ، فهل استخدام الأسلحة النووية يكون ممكناً ؟

# جَدلٌ حول الدفاع

ان الإجابة على الأسئلة السابقة ، صعبة جداً في ضوء أحسن الظروف . ولسوء الحظ ، فان النهاية الأعوام ١٩٦٠ وبداية أعوام ١٩٧٠ ، لم تكن لتتحمل اجراء تحليل دقيق و تقليدي للقضايا الستراتيجية . ان الانفعالات العاصفة ، ضد حرب فييتنام كانت تتحول الى اختصام حول مجموعة التنظيم الدفاعي . وفي الحقيقة ، لقد راى بعضهم ، في التهجم الحاصل ضد الموازنة المخصصة للدفاع ، وسيلة لوضع حد ولو بالقوة للحرب الدائرة في جنوب آسيا الشرقية . (اعادة تحديد الافضليات القومية ) كان هذا شعار العهد : وكان ذلك تلميحاً في انقاص حقيقي في موازنة الدفاع . والمثقفون ، الذين في عهد ايزنهور ، كانوا يسخرون من فكرة وطريقة حكمه ، أخذوا يدركون حالياً ، عظيم حكمة نصائحه لعام ١٩٦١ ، عندما كان يحذر امريكا ضد كل نفوذ وسيطرة مفرطة من التعقيد العسكري . الصناعي ، على الحياة الأمريكية . ان الأسحلة . لا سيما أسلحتنا . كانت تتحول الى سبب لا الى عرض لإحداث الضغوط ، لأن الاعتقاد كان سائداً في ان برامجنا هي التي تثير ردود الفعل لدى السوفييت لا العكس . وعندما كانت الحكومة تؤكد ان تنمية السوفييت العسكرية ، هي التي تفرض علينا مشكلة دفاع حقيقية ، كان هذا ينقلب الى سخرية واتهام بنشر دعاية للبنتاغون ، التي كانت تعود كل عام الى المسرح ، لتقوية تنفيذ قرارات الموازنة الكونغرس . واذا استبقينا الحوادث بكل تعقل ، فان هذا السباق في التسلح الستراتيجي ، مختلف تماماً ، عن كل تسلح سابق ، لأن كل فريق يخزن أسلحة كافية لتدمير كوكبنا عدة مرات . والتفكير الذي كان يسود في هذا العهد ، أوضحه مؤتمر أقيم في شهر آذار من عام ١٩٦٩ ، في واشنطن ، اشترك فيه فريق من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ ونحو أربعين ممثلاً ، جمهورياً وديمقراطياً . وكان الموضوع المطلوب بحثه في هذا المؤتمر : (الموازنة العسكرية والأفضليات القومية ) كما أن مثقفين لا معين ، وعلماء ، وموظفين قدامى في الحكومة ، وأعضاء من مجلسي الكونغرس ، شاركوافيه . وتقرير هؤلاء ، الذي نشر على إثر ذلك ، تحت عنوان (الروح الحربية الأمريكية في عام ١٩٧٠ ) كان يخلص الى نتيجة ( في ان الولايات المتحدة ، توشك ان تصبح مهووسة بقضية الأمن القومي) . وفي شهر تموز ، فريق من ثمانين عضواً من الكونغرس من كلا الحزبين ، وكان هدفهم ( السلام من خلال القانون ) . قدم هذا الفريق تقريراً ، هاجم فيه ستة انظمة دفاعية هامة ، وكان بينهما : مضادات القذائف الصاروخية . فاتخذت نيويورك تايمس

هذه المبادرة ، دافعاً ، يجعل من الجدل الدائر حول القذائف المضادة للصواريخ ، حملة عامة ، ضد الموازنة الحربية ) . وأصبح موضوع انتقاد كل ما له علاقة بالأمور الحربية : مناهج ، موازنة ، مبدأ التسلح الستراتيجي ... ونشرت الصحافة اعلاناً ملء صفحة تحت عنوان تهكمي : (هدية من الذين أرادوا موازنة قضية فييتنام ، بمنهج مضادات الصواريخ ) . بعد ان اتهمت مسبقاً الاستعدادات المتخذة بشأنها . والعبرة المستنتجة غالباً من الحرب في فييتنام كانت : ( على الولايات المتحدة ان تقلل من التزاماتها الخارجية ) . وأخذ في التفكير ، فإن في حال احباط هجوم علينا ، لا تتمكن قواتنا المنتشرة عبر البحار سوى تشجيع ذلك . وكان بعضهم يؤكد ، ان سحب قواتنا الأمريكية التي في الخارج ، يخفف من وقوع خطر نزاع عالمي ، ويسمح في الوقت ذاته بالحد من النفقات الحربية . ويستنتج من هذه الأفكار، ان تخفيف الموازنة الحربية، يعمل الحكومة على تحديد التزاماتها في الخارج. بالاضافة إلى ان ذلك سيعطينا فرصة للإفراج على أموالنا في سبيل برامج تنمية قومية.

وهذه النظرية الجديدة، في تخفيض الأرصدة المخصصة للدفاع وحماية الأمن، قُدّمت في تقرير عام ١٩٦٨، من قبل موظفين اثنين سابقين في حكومة كنيدي و جونسون. والمقصود بذلك كارل كايسن، معاون سابق لمستشار الأمن في حكومة جون كنيدي، ومن ثم مدير معهد البحوث المتقدمة في برنسيتون، وشارل ل. شولتز، مدير مكتب الموازنة في حكومة جونسون، واليكم ما كان يؤكد عليه كايسن :

« ان الحقائق الأولى السياسية والتقنية تظهر عبث السعى على أمن مركّز وبصورة خاصة، على تزايد القدرة الحربية، وكذلك على أهمية المعطيات السياسية المتزايدة، والاتفاقات المتعلقة بمراقبة التسلّح. وفي الحقيقة، عند اعطائنا الأفضلية لهذه المعطيات في السنوات الخمس القادمة، يكون لدينا حظّ أوفر في تأمين سلام حقيقي ـ يعني في تعيين التهديدات التي تثقل كاهل الولايات المتحدة ومصالحها الحيوية، مع قوى مسلحة وموازنات حربية، مخففة الى الثلث بنسبة ما هي عليه اليوم ـ أفضل مما نكمل السير في اتباع سياستنا الماضية في حين ان الوضع قد تبدل أساسياً. ولكي نتكلم بعبارة أوضح فان تحديد ومراقبة التسلح، وتخفيض انتشار قوانا العسكرية لن تكون أقل كلفة من سباق التسلح والمجابهة العسكرية فحسب، بل ستكون مضمونة أكثر ».

وكان شولتز يعلن، ان نهاية حرب فييتنام، ستسمح اذاً بتخفيض موازنة الدفاع من عشرين الى اثنين وعشرين مليار دولار في العالم. وكان يخشى في الوقت ذاته، من التهام « حصة السلام هذه » من قبل التصنيع، الذي أخذ شوطه في صنع أسلحة جديدة أساسية. وكان يناشد الجميع باتخاذ أكبر قدر من الحكمة، لاستيعاب البرامج القادمة. وبالاتفاق مع شولتز كان كايسن يؤكد أن : بالاضافة الى حصة السلام، سيكون بامكان ايجاد وفر من خمسة عشر الى ستة عشر مليار دولار اذا أصبحت مفاوضات تحديد التسلح الستراتيجي مثمرة، واذا استعيدت قوانا التقليدية الى أبعاد معقولة، وكأني بهما يدلّلان هكذا على إنقاص الالتزامات الأمريكية في الخارج.

وهكذا إذاً، وعندما أصبح التكافوء النووي متحققاً تقريباً، توصلت الانتقادات الى نتيجة مذهلة : وجوب تخفيض قوانا التقليدية، المجال الذي أصبح فيه تدنّينا واضحاً. وكان يرون في نهاية حرب فييتنام ليس فقط، فرصة تنمية تسلّحنا المهمل منذ مدة طويلة، بل مناسبة لانقاص موازنة الدفاع. وهذا التخفيض لا يمكن تحقيقه طبعاً إلاّ في حال نقص التهديد الخارجي، أو اذا كانت القوات التي نستخدمها زائدة فعلاً. وهذا البرهانان، تقدّم با بوضوح في الكانون الثاني لعام ١٩٧٠، ثلاثة أساتذة من هارفرد :

« صعب القول، اذا كانت القوات التقليدية، تشارك في إحباط النزاعات الهامة غير النووية، أو اذا كانت الامكانيات لحصول هذه النزاعات هي كافية وتسبّب تعبئة القوى المنوّه بها. لم يبق لدينا اليوم سوى استراتيجية، احترافها يدعوا الى الأسوأ، للتمكن من تصديق غزو مفاجيء لشمال ألمانيا من قبل السوفييت، أو هجوم مباغت من قبل الجيش الأحمر ضد شاطيء البحر الأبيض المتوسط لحلف شمال الأطلسي، أو هجمة غير منتظرة من الصين الشيوعية في برمانيا أو تايلاند. ومن الصعب قول كذلك، أي دور تستطيع القوات الأمريكية غير النووية القيام به، في أسباب النزاعات الدنيا التي توشك بالظهور ».

ان هذا المقال لم يكن يطرح السؤال لمعرفة المستوى الذي تتوقف عليه أهمية القوى المقابلة، في حال حدوث هجوم مفاجيء من قبل القوات التقليدية السوفييتية. بل كان يفترض وبكل بساطة أن : طالما لم يحدث اعتداء في الماضي، فلن يحدث في المستقبل، واننا نستخدم بالنتيجة قوى دون نفع.

ان منع وقوع الأحداث عرف وبصورة خاصة : انه لا يمكن التأكد عما وقى البلاد من هجوم مفاجيء : هل كان ذلك بفضل تنظيمات الدفاعي، أو لأن خصمنا نفسه لم تكن لديه نيّة الهجوم؟ وبشكل متناقض تماماً، بقدر ما تملك قوة عسكرية أسباباً دفاعية، فبقدر ذلك تخلي بعض جوانبها لمن يريد تدميرها. وكان الأساتذة الثلاثة يؤكدون، ان تخفيض القوى التقليدية يسمح بالنتقاص الموازنة بثلاثين مليون دولاراً، وهذا يعني تخصيص الدفاع مبلغ سبعة عشر ملياراً من الدولارات أقل من البرامج الذي كان يطالب به البنتاغون لما بعد حرب فييتنام، وأقل بعشرة مليارات دولاراً كان يرصدها لرئيس نكسون في أول مشروع موازنة يعدّها.

ان هذه البراهين والدلائل، أعيد طرحها أمام الكونغرس بصورة أوضح وأدق. وفي شهر نيسان من عام ١٩٦٩، صرّح ميك مانسفيلد عضو مجلس الشيوخ ورئيس أغلبية أعضائه، انه سيخوض حرباً ليحصل على تخفيض أقله خمسة مليارات من الدولارات من الأرصدة التي كانت تتمنى حكومة نكسون تخصيصها للدفاع. وكانت تصل هذه الأرصدة الى / ٧٧،٦ / سبعة و سبعين مليار دولاراً وستة في العشرة، الرصيد الذي كان أقل من الموازنة التي كانت تقترحها الحكومة التي انتهت ولايتها. كان اهتمام مانسفيلد ينحصر في خمسة عشر برنامجاً مختلفاً. وكان ينتقد مثلاً، المشروع البحري، ويطلب تشكيل أسطول سفن ذات انتشار سريع : « والقبول به. كما ردّد مانسفيلد، هو وضع الأصبع في التدخل الذي نرمي وبالتاكيد الى اجتنابه ». وفي شهر أيار، أوردت نيويورك تايمس « ان عددا متزايداً من أعضاء الكونغرس، مدفوعين بمناهضة الروح العسكرية، التي ولدتها حرب فييتنام، وساعين وراء وسيلة مجدية لتعطيل الزيادة المستديمة في النفقات الحربية » وهذه الحركة حول « إيقاف النفقات الحربية » كانت تضم فيها بينما أعضاء من الحزبين، وكان من الجمهوريين : عضو مجلس الشيوخ من ولاية كانتوكي : جون شيرمان كوبر. كما نشرت التايمز الاعلان التالي من عضو جديد في مجلس الشيوخ من الحزب الجمهوري عن ولاية أوهيو : وليم آ. ساكسب : « نأتي الى المجلس الشيوخ ونحن على ثقة ان نكسون قد انتخب بسبب الحرب _ وهذا الحرب ذاتها دمّرت جونسون وستدّمر نكسون، اذا لم يحسن التصرف ضمن ردود فعل. والذي ينضم منا الى هذه الفكرة، يعتقد ان انتخابه كان يتجاوب في قسم كبير منه مع هذا الاعتقاد القومي. ولا يخالجني الشك في أننا سننجح برفض منهج : مضادات القذائف الصاروخية، فيما لو كان نقطة الانطلاق هجوم ضد كل التعقّد ».

وفي الثالث من شهر حزيران، كان الكونغرس يناقش نقطتين ، لأن اللجنة الاقتصادية متعادلة التمثيل، التي يرأسها عضو مجلس الشيوخ وليم بروكسمير، نظمت اسبوع محاظرات،

حول طرق إنقاص موازنة الدفاع. ان الموازنات السابقة كان شولتز يتم باعدادها، ومع ذلك فان هذا لم يمنعه من فتح باب المحاظرات، مقترحاً على الكونغرس تشكيل لجنة جديدة تكلّف بإعادة النظر في مطالب الوزارة الدفاع، وتقوم بإنقاص اجمالي. وكانت تجري جلسات المناقشة هذه في بناء مجلس الشيوخ الحديث. ففي الطابق الأعلى، كانت لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ المختلفة بالفياق المسلحة، منكبّة على البحث في مليار ونصف من الدولارات الأضافية التي تتطلبها انشاء ناقلة القوات C-5A ( وتبيّن بعدئذ ان هذه الطائرة كانت على جانب عظيم من الأهمية خلال حرب عام ١٩٧٣ في الشرق الأوسط ).

ولم يفت الادارة أن تتأثر بهذه الضغوط. ففي السابع من شهر حزيران، أبلغت الرئيس ان أعضاء عديدين من وزارة الشؤون الخارجية، من مكتب نزع التسلّح ومراقبة الأسلحة، وحتّى من وكالة المخابرات الأمريكية المركزية، كل هؤلاء كانوا يعتقدون مايلي :

« ان المبادرات الستراتيجية المتخذة من قبل الولايات المتحدة، أو إعلانها عن نيتها في البقاء قوّية استراتيجياً، كل هذه مجتمعة تبعث الخوف والقلق في صفوف حلفائنا. اذ ان هؤلاء يخشون في الواقع، تصعيد سباق تسلح، وكذلك قطع علاقات بين الغرب و الشرق ، ناتج عن تصلب في موقف السوفييت. أضف الى ذلك، فان الكل يفكر وبصورة عامة ان القرارات السوفييت الستراتيجية، تتعلق وبكل دقة على تقاريرنا الخاصة، وان كل عمل تقدم عليه الولايات المتحدة يستدعي ردّ فعل مناسب من قبل الروس.

فقدّمت لنكسون التعليقات التالية :

« اني اعتقد أن لاشيء يحدد قوة هذه المعتقدات، حتى ولا غياب وجهات النظر المعاكسة. وحسب رأيي ان من المحتمل في نهاية المطاف، ان يتأكد الاوروبيون من القرار الذي ستتخذه حتماً الولايات المتحدة في مجال التسلح السترتيجي . وكذلك، فان القادة السوفييت، الذين عليهم حالياً مواجهة مشاكل الاقتصادية دقيقة، يسعون بالتأكيد على تأجيل، بطريقة أو بأخرى، المنافسة بيننا و بينهم ».

وكان يظهر نكسون، منذ البداية، أنه عازم على الصمود أمام هذه الضغوط، لأنه كان معتقداً، أن القوة الأمريكية، يجب الدفاع عنها من وجهة نظر معنوية، لا لذاتها، بل لأنها كذلك حيوية للإبقاء على حياة البلدان الحرة. ومع ذلك، فان تقوية دفاعنا، في الوضع كهذا، يكون شيئاً مسيئاً

ليس فقط بسبب اتهامنا بالخوض في غمار حرب، بل أيضاً بسبب الأسس التي نعتمدها لأمننا القومي.

ومن جهتي، فقد جلب لي الخلاف، غضب أصدقاء قدامى، وزملاء سابقين، اشتركت معهم طيلة عشر سنوات في أعمال لجان حول مراقبة التسلّح وجملة بحوث. وكنت على اتفاق معهم لتعريف الناس ان الأسلحة النووية، تنعم بمدى خاص في سباق التسلّح. وبالحقيقة، ان معرفتي التاريخية، كانت تعطيني الحق في ان ينسبوا خطأ كل هذه الضغوط لكل سباق تسلح دون تعيين : وتاريخياً فان التنمية العسكرية تعكس غالباً الخلافات السياسية، وعدم الثقة التي يجب ألاً تسببهما. ومع ذلك كنت أسلّم في واقع انفراديتنا العظمى في هذا العهد، كيف انها تتمسك بوجود عدد مرتفع من الأسلحة الستراتيجية، في جاهزية مباشرة وقدرة مدمّرة. وهي عطوبه وقادرة جداً في وقت واحد، ومع انها كذلك،فان الأسلحة الاستراتيجية، كانت تستطيع في وقت الأزمات ان تولد لدى أحد المتخاصمين، محاولة الضربة الأولى، لاسيما اذا كان يخشى خسارة كافة تجهيزاته عند تلقّيه أول هجوم من قبل خصمه.

وعلى غرار جامعيين عديدين، كنت أرى ضرورياً إعداد سياسة مُدركة تتجه الى كبح جماع سباق التسلّح. وكنت افكر أيضاً انه يجب على القادة الأمريكان الانطلاق من فكرة سياسية، قوامها ان القوّة الحربية وجدها تضمن الأمن، وهذه الفكرة تعود الى عهود كانت نتائج اخطاء الحاسبات فيها أقل ضرراً ممّا هي عليه اليوم. ومصلحة الفريقين _ حسب رأيي _ تخفيض تجهيز قوامها : واذا كان ممكناً باتفاقات حول تحديد التسلّح المتبادل، وإلا فمن الضرورة اتخاذ اجراءات احادية الجانب. ولاسيما اني كنت معتقداً ان مجتمعاً ديمقراطياً، لايقدر أبدأ على مجابهة مخاطر العهد النووي، اذا لم يكن أعضاء هذا المجتمع على اقناع تام من الحكمة والحكنة التي يوجد بها قادتهم، المشاكل التي يفرض وجودها أسلحة التدمير الاجماعية. وبما أن علينا التسليم بالنشاط السوفييتي، كنت أعتقد أن الخلافات العسكرية كانت ممكنة الوقوع، حتى أنها مفترضة، وكنت أريد أن يجمع الرأي العام على مساندة الولايات المتحدة وحلفائها. واحدّ العبرّ المستخلصة من حرب فييتنام هي : في أن الهجوم المضاد ، اذا خاضعة شعب بتصميم، مع استعداد لتقديم الضحايا، يجب أن يطرح هذا مجدداً للتنسائل، اذا كان شعباً ان يفكر قادته يسعون أو يسببون مجابهات دون أهداف.

وكنـت أبتعـد عـن أصـدقائي وزملائــي القـدامّ، عنـدما كـان يـدور الحـديث حـول التحركـات السوفييتية، ولم أكن أعتقد أبداً أن تقييد تسليحنا قادر على حمل الكرملين من جهته ان يعمل كذلك. ويعتمد القادة السوفييت بتفوق « عوامل مشاريعهم ». وكانت لديهم جميع الامكانيات، لاتخاذ موقفنا، انه غير صادر عن رغبة في المصالحة، بل دلالة ضعف سببتها المشاكل الداخلية أو الاقتصادية. ولقد انصرف الاتحاد السوفييتي _ بعد أزمة كوبا، انصرف بكليته، في سبيل تنمية جميع انواع الأسلحة التي كان يستعملها. و اذ أقدم الأمريكان على أخلاء أرض ما، يحاول السوفييت ملء كل الفراغات الممكنة. ولن يقبل الاتحاد السوفييتي بتثبيت سباق التسلّح، ما لم يكن على يقين ان لن يكون تسلّح يفوقه. وكان علينا ان نبيّن للسوفييت، انهم بالرغم من قلة مواردهم، لا يستطيعون أن يأمولوا بالخروج منتصرين في سباق التسلّح، واذا أجبرنا حقاً على ذلك، نقدر وبكل سهولة الحصول على انتاج أعظم بكثير من انتاجهم.

أمّا فيما يتعلق بالجيش، فلم أكن على اتفاق مع الآراء التي كان يطرحها غالباً مغتابوا برامج دفاعنا. وكان صحيحاً ان مبدأ التفوق العسكري، كان يأخذ اتجاهها مختلفاً مع زمن الأسلحة النووية. وهذا لم يكن يعني أبداً وللمدى الطويل، انه يجب علينا البقاء مكتوفي الأيدي، بينما أن خصومنا يتسلّحون وبسرعة كبيرة. وبقدر ما كانت السنوات تمر، كان تدنّى تسلحنا في هذا المجال يزيل من أذهان حلفائنا، كل امكانية تصديق وعودنا بالدفاع عنهم. وفي حالة قصوى، يمكن لهذا التدنّي تشجيع هجوم ضد الولايات المتحدة.

ان اخطار هجوم يقوم به الاتحاد السوفييتي ضد الولايات المتحدة، تبقى محتفضة بمدّ خطورتها، وتلف التوازن الاستراتيجي، لن تكون له سوى نتائج جغرافية سياسية. وسيوضح تدنّ استعدادنا في الدفاع عن المنطقة، كما ان البلدان الموجودة في محيط الاتحاد السوفييتي ستحاول أكثر فأكثر مصالحة لضمان أمنها. وأن الأخطار التي نعانيها، لا تقف عند الاعمال العسكرية المقصودة من قبل الاتحاد السوفييتي. وفي عهد هذه الانقلابات التي تحدث لدينا، يمكن حدوث عدة أزمات، يسبّبها كل من الجانبين، والاخطار التي يقبل الاتحاد السوفييتي بمعاناتها، ليس لها إلا أن تزداد، وذلك بمقدار اعتدال التوازن الستراتيجي على حساب ضررنا. وهذا كان يدعوا إلى تغيير فكرة البلدان المتكلة على حمايتنا لها، سواء كانوا حلفاء أو متأخرين تقنياً.

لأجل هذا كنت ميّالاً، في سبيل إيجاد برامج جديدة ستراتيجية، وتقوية دفاعنا التقليدي، مؤكداً على أهمية المفوضات حول مراقبة التسلّح. وانتهت آرايي إلى إثارة غضب المحافظين، ومثلهم الليرباليين : الأولون لأنهم كانوا يعارضون كل مراقبة تسلّح، ولأن الآخرين كانوا يعترضون على تنمية عسكرية. وكذلك فان خلاف عام ١٩٦٩ حول التوازن العسكري أثّر، طيلة مدة حكم نكسون، على القرارات الأمريكية، في مجال تصنيع الأسلحة، والمفاوضات حول تقرير التسلّح الستراتيجي.

وكان هذا الخلاف يدور خصوصاً حول موضوعين جديدين : برنامج المضادات القذائف الصاروخية، وتركيب الرؤوس النووية على صواريخنا. ان الحكومة الجديدة، كانت قد أخذت هذين البرنامجين عن الحكومة سابقتهما. لكن غلبة نيكسون الانتخابية خفّفت من المعطيات السياسية، والديمقراطيين عندما كان حزبهم في الحكم. وبعد مدة يسيرة، إنضم إلى أصوات هؤلاء، أصوات بعض موظفي حكومة نيكسون نفسه، الذين كانوا في بدء هذه البرنامج، لكنهم يرغبون حالياً ان يكونوا مع الميل العام لحزبهم. وكان نيسكون قد أنقض ملياراً من الدولارات والواحد في الشعرة، من مشروع الموازنة الذي رصده جونسون : غير أنه سبب لنفسه وبسرعة فائقة غضب الديمقراطيين، الذين انضمّ اليهم بعض الجمهوريين، معتقدين ان اغلبية الشعب الأمريكي يشارك في الانطباع المعادي للتسلّح .

# مجموعة .A.B.M

## ( مضادّات القذائف الصاروخيّة )

ابتدأت المنازعات حول الموضوع ( مجموعة مضادات القذائف الصاروخية عام ١٩٥٤، عندما اتّضح ان الاتحاد السوفييتي، كان مجهّزاً حول موسكو، مجموعة دفاعية مضادة للصواريخ، لحماية العاصمة السوفييتية، ضدّ أي هجوم محتمل. وبناء على ضغط ملح من قبل الكونغرس، اقترح روبرت ماك نمارا عام ١٩٦٧ وكان حينذاك وزير الدفاع، وبعيد كثير من الممانعة وبالرغم من ارادته، اقترح برنامج صنع « SENTINNELLE » .A.B.M وكان ماك نمارا، يشعر بنفسه نهباً بين فكرة مراقبة التسلّح، والضغوط القمية، وبين الضرورات الدفاعية وفكرة تحديد التسلّح. فآثر اتخاذ تسوية، ورفض اتباع مبدأ استعمال مجموعة .A.B.M كوسيلة دفاعية تشمل جميع الاراضي الأمريكية، في حالة هجوم عام من قبل الاتحاد السوفييتي. وان برنامجاً كهذا يكون في الواقع صفقة باهضة. أضف إلى ذلك، امكانية اتخاذه من قبل السوفييت وسيلة أمريكية تهدف إلى اعطائهم القوة الهجوم أولاً ( على البلاد جهّزت نفسها دفاعياً بمجموعة .A.B.M وتفكر ان تكون هي المهاجمة الأولى، لكي تتفوّق على تجهيزات خصمها الموهن ). وذهبت حكومة جونسون الى أبعد من فكرة ماك نمارا، وأظهرت نشاطاً لتوضح ان مجموعة ( « SENTINELLE» .A.B.M ) لا تفيد في تقليل الأضرا التي يسبّبها هجوم السوفييتي ضد الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٦٧، ساد رأي في اعطاء الحق لإقامة « مجموعة .A.B.M » لا بسبب التهديد السوفييتي، لكن بسبب فكرة أقل أهمية، في ان الصين ربّما قامت بمحاولة عام ١٩٧٥، فيما اذا ضاعفت عدد صواريخها من الأرض للأرض. وفي شهر كانون الثاني عام ١٩٦٨في آخر تقرير تقدم به الكونغرس ـ كلارك كليفّورد ـ بصفته وزير دفاع كان يؤكد فيه : ان الدفاع يقوم بدور ثانوي في التوازن الاستريتيجي : « نبقي على اعتقادنا، أن تعزيز مواردنا، وتفضيل اعطائها للمهمّة الأساسية لقدراتنا الستراتيجية، فهذا يعني تدميرها بصورة أكيدة ».

وفي فترة تولية نيكسون، تغير الرأي العام وبصورة كبيرة، منذ أواسط الأعوام ١٩٦٠١ : فخلال هذه المدّة، طرح الكونغرس وبصراحة، على ماك نمارا مشروع موازنة « A.B.M » أما اليوم، فقد أخذت معارضة هذه الفكرة تكبر، سواء ضمن الكونغرس، كما في جميع أوساط الجامعيّة

والعلميّة. ومع ذلك فان نيكسون كان يعارض فطرياً التخلّي من جانب واحد على برنامج تسلّح ـ وبحجّة أقوى، إذا كانسلفه قد أقّر مثل هذا لبرنامج. كنت أشاطر نيكسون ووجهة نظره، آخذا بعين الاعتبار التخلّي عن برامج تنميّة في مجال، كنا فيه تقليدياً متفوّقين ـ بالتقنيّة المتقدّمة ـ في حين ان السوفييت انفسهم لا يغيّرون موقفهم.

عزم نيكسون على اسكات المنتقدين : ففي السادس من شهر شباط، طلب إلى دافيد باكارد، معاون وزير الدفاع، القيام بدراسة بيوزارية حول برنامج « مجموعة A.B.M. » وكانت غاية من ذلك، كما أسّر لي. اقناع الرأي العام، اننا لا ننادي بهذه الفكرة على غير هدى. وكانت فكرة نيكسون خاطئة، وبما ان الحرب مع فييتنام، كانت عرضة للانتقاد، فان فكرة هذه لم تخفّف من معارضة بل بالعكس فقد قوّتها، وجعلت الناس يفكرون ان القوى السياسية، التي كانت مع فكرة الدراسة التي طلبها نيكسون، سوف تدفع بالحكومة إلى التخلّي نهائياً عن برنامج A.B.M. وهكذا فان نيويورك تايمس لم تنسب فضل اجراء الدراسة إلى نيكسون بل إلى الكونغرس، وهذا يعني انه لم يكن ملوماً. ثم جاءت التايمس فأكدت ان المرحلة القادمة ستكون موضوع التساؤل عن جميع البرامج العسكرية. « وضغوط الكونغرس التي شجّعت حكومة نيكسون على إيقاف تنفيذ مجموهات القذائف المضادة «Sentinelle » دلّت هذه الضغوط على موقف الكابتول السليم الجديد، الذي يتمكن منه التصدي للبرنامج العسكري الصناعي المعقّد، الذي كان الرئيس ايزنهور يحذّر منه منذ عشر سنوات. وكان يضيف » ان ممارسة الكونغرس هذا الحق الآن، دفع بالحكومة إلى اعادة النظر بمجموعة « A.B.M. » ويحق لنا القول ان هناك مسائل أخرى من هذا النوع سوف تدرس في الكابتول.

وفي السادس عشر من شهر شباط، جاء المتنفّذ شيت هوليفيلد، رئيس لجنة الكونغرس النووية، فأعلن أنه يعارض كل برنامج دفاعي في تصنيع مضادات القذائف ضد الصين، أو تركيز مزلقة قذف قرب مسكنه في كاليفورنيا. وكلامه هذه يعني طبعاً نفي أي تبرير لصنع مجموهات مضادات القذائف الصاروخية. وفي التاسع عشر من شهر شباط، جاء أيضاً عضو مجلس الشيوخ ادوارد كينيدي ليؤكد : لم تكن نيّة البنتاغون في اجراء دراسة حول مجموعة « A.B.M. » سوى تهدئة المعارضة. وفي السادس و العشرين من شهر شباط، ألقى يوبرت هامفري، خطاباً في جامعة مينيسوتا، وصرّح بوجوب إيقاف تنفيذ برنامج مجموعة مضادات القذائف، والبدء بأقرب فرصة ممكنة بمفاوضات مع الاتحاد السوفييتي، حول تخفيض البرامج الستراتيجية الهجومية والدفاعية، وفي السادس من شهر آذار، افتتحت اللجنة الفرعية لنزع التسلّح، التي يرأسها عضو

مجلس الشيوخ ألبرت غور، افتتحت جلسات دراسيّة حول تطبيق برنامج مجموعة مضادات القذائف ، في السياسة الخارجية والمجال الستراتيجي، فكان المقرّرون جميعهم معارضين لاستعمال هذا البرنامج الدفاعي.

ان المبادئ التي كانت ترتكز عليها هذه المعارضة، كان لها طابع عاطفي ولم يكن دوماً منطقياً. وفي شهر آذار، فان ستة علماء لا معين: « هانس بيت، هربرت يورك، جورج كيستياكوسكي، جيمس ر. كيليان، وولفغانغ بانوفسكي وجورج راتجنس، أكد هؤلاء ان هذا البرنامج غير مأمون الجانب، اذ انه معقّد جداً في المستوى التكنولوجي، ولايمكن صنعه بالدقّة المطلوبة. وعلى فرض توقع حسن صنعه، ان السوفييت سيتصدون له وبكل سهولة. وأمام كل هذه الحقائق، فقد تحمّس الاستاذ « بيت » فأعلن جهاراً خمس طرق علميّة تسمح باتقان صنع هذه المجموعة من مضادّات القذائف.

ومن جهة أخرى، فان برنامج تصنيع مجموعة مضادات القذائف، التي كان الجميع يقدرون عدم فائدتها، وانها غير مأمونة الجانب، ومن السهل أبطال عملها، فمع ذلك كان يعتبر هذا البرنامج سلاحاً تهديدياً، وأصبح معقولاً معه البدء بسباق تسلّح، وفي الوقت نفسه، الاستفادة من إضعاف واقع عدم مفعول أسلحتنا الاسترتيجية. وكان الناس يتسائلون مؤكدين : ان تهيئة مجموعة القذائف مضادة يعني وجوب انتظار هجوم سوفييتي، ثم السعي للردّ عليهم بكفاءة وتفوق، مع أنه من المفضل وبمنطق استراتيجي، جعل الروس يصدقون اننا سنقذف بلادهم بصورايخنا عند أول تهديد بالهجوم علينا. كما صرّح عضو مجلس الشيوخ فرانك شيرش أمام اللجنة الفرعية لعضو مجلس الشيوخ غور قائلاً : لو كنت : « لو كنت محل الروس، وكنت أعلم ان عند أول هجوم على الولايات المتحدة، ستبادر هذه حالاً بقذف الروس بقذائفها « MINUTEMAN »، سأتردد كثيراً في الهجوم، ما لم اني اعتقد ان الولايات المتحدة، ستكفي بإقامة شبكة دفاعية، ليس لها لدى سوى الاحتقار « بثفتي روسياً ». وبعبارة أخرى ، يظهر لي أن هذا النوع من البرامج الدفاعي الحقيقي الذي تتحدثون عنه ..... يمكن أن يحمل السوفييت أن يكونوا أول من يهاجم ». ولم يبيّن عضو مجلس الشيوخ هذا لما يشعر بالأمان، فيما لو دافعت الولايات المتحدة عن نفسها فقط بحركة انعكاسية، في حال انها لا تحتاج في أعظم الحالات إلا لخمس عشرة دقيقة للردّ على الهجوم. وهذا ما حمل الرئيس على اصدار أوامره للضبّاط في جميع الأراضي الأمريكية، بإعلان حالة الطوارىء للهجوم السوفييتي، إعلان ربّما ظهرت صحته أو خطؤه .

وكان البعض يدعمون وجهة نظرهم. ان في حال الحاجة لتركيز مجموعة مضادات القذائف، لا يجب أن نغالي بفعالية الأجهزة المضادة الموضوعة حول موسكو. واذا كانت هذه الفعالية حقيقية، فلا تغيّر شيئاُ من الواقع، لأننا عندما ننطلق في تصنيع برنامج مضادات القذائف، مهما كان السبب الداعي لذلك، فأننا سنبدأ بطريقة جديدة في سباق التسلّح تسيء إلى مفاوضات المنتظرة حول تحديد التسلّح الستراتيجي. ولم يكن بعد واضحاً كيف ان تركيز مجموعة المضادات الأمريكية تسيء إلى المفاوضات، وكيف أن المضادات السوفييتية التي كانت منصوبة لا تسيء بدورها إلى هذه المفاوضات .

وأخيراً فان مجموعة مضادات القذائف، كمعظم البرامج العسكرية، اتّهمتها الكثيرون في انها ستجرّ إلى نفقات لا طائل تحتها تضر بالمصالح القومية. وفي الحقيقة، فأن أرصدة القوى الستراتيجية، لم تكن تمثلّ دوماً سوى جزء يسير من موازنة دفاعنا، التي تصرف وبصورة طبيعية على اقوى التقليدية ورواتب العسكريينين. وفي السنة المالية ١٩٧٠ فان الموازنة المخصصة للقوى الاستراتيجية، لم تكن تشكّل سوى تُسعٍ من موازنة الدفاع العامّة. ومع ذلك لم يكن نصيب برنامج مجموعة القذائف المضادة، هذا البرنامج العظيم والجديد في نوعه ، و سوى التهجّم عليه. وفي بدء الاختلاف على تصنيع مجموعة القذائف المضادة، الذي جرى أولاً في مجلس الشيوخ، فلقد أكد عضو مجلس الشيوخ موسكي ما يلي :

« ان الحلقة المفرغة للتوسّع الحضاري، والهجرة الجماعية الريفية، والفقر وعدم الانتظار الاجتماعي، وهدر الموارد وتهديم البيئة، كل هذا لا تحلّه ولا تضع له حداً حكومة غير مبالية، أو قطاع خاص لا يعمل، أو منهمك بالحصول عقود جديدة لتصنيع أسلحة ».

وأضاف موندال عضو مجلس الشيوخ في المعنى نفسه :

« ان التوازن الردع غير الثابت مهدد بتصنيع المجموعة ... « الوقائية » وهذا التهديد ناتج عن عدة شكوك : سواء في تأثير مجموعة القذائف المضادة للصواريخ، وسواء من الشك الذي سبّبته الرغبة الملحة في تصنيع أسلحة هجومية، غير معترفة على قوة فعالية البرنامج الدفاعي لمضادات القذائف وسواء من الشك في نوايانا من ان تنمية التسلّح، يوضح اننا نجعل الحرب في مقدمة ضرورتنا السلميّة والقوميّة .....».

وفي بداية عام ١٩٦٩، قام عضو مجلس الشيوخ ادوارد كنيدي، فنشر كتاباً، يجمع بين دفتيه مبادئ سياسية، دبلوماسية ، عسكرية وتقنية، كلها مضادة للبدء في صنع مجموعة القذائف المضادة الأمريكية.

وفي مثل هذه الجو أخذت حكومة نكسون ببحث موضوع مجموعة القذائف المضادة، ولقد وضع دافيد باكارد حداً لهذا البحث في نهاية شهر شباط. وكان يشير باتباع وبصورة مختلفة، برنامج « Sentinelle » الذي كان جونسون قد أقره عام ١٩٦٧ . وكان يقترح في المرحلة الأولى توجيه رادار مضادات القذائف، ليس فقط نحو الشمال، من حيث ينظر ان يحدث هجوم بصواريخ من الأرض للأرض، بل أيضاً نحو البحر، لأنه من الممكن اطلاق صورايخ من الغواصات في قلب البحر. و في المرحلة الثانية، أوصى باكارد ، يصنع المزيد من مضادات القذائف لحماية ما لدينا من صواريخ أرض أرض « Minuteman ». وفي المرحلة الثالث أخيراً، كان يحث على تقليل نسبي في عدد الصواريخ المعدّة لحماية مدننا . و التوصيتان الأولى و الثانية كانتا من اختصاص الجيش : فان الدفاع عن حدود الولايات المتحدة كان يقصد به التفوق على هجوم فجائي ، من أية جهة حصل . أو أي هجوم متعمد قليل المدى، وكان يقصد بذلك ( من قبل الصين ). وحذرنا من هجوم يحملنا على تقوية برنامجنا الدفاعية، ضد الاتحاد السوفييتي، في حال ان المفاوضات لا تنتهى الى أي حلّ. أضف الى ذلك فان أول هجوم سوفييتي على مستودعات صواريخنا يجعل القضية أكثر تعقيداً. ولقاء ذلك، فان إنقاص الدفاع عن المدن، كان قضية سياسية بحتة، غايتها التأكيد على هؤلاء الذين كانوا يتمدحون تحديد السلاح ويخشون ان دفاعاً منظماً لا يقلق السوفييت. وكانت قضيتنا تتوقف على أننا لا نستطيع حمل الكونغرس على اتخاذ قرار بتصنيع مجموعات من القذائف المضادة ما لم يكن متأكداً انها لا تؤثر على خصمنا الرئيسي.

كنت متفقاً معهم بالرأي لنتمكن من متابعة تصنيع هذه المجموعة. وبنظري ان هذه القرارات الواجب اتخاذها، وتنظيماً عسكرياً ودبلوماسياً. كما ان القادة السوفييت والستراتيجيين منهم، لم يشاركوا الرأي العالم الغربي أبداً في ان ذلك يسبّب خطراً عظيماً، وان تصنيع مجموعة مضادات القذائف مدمّر و مفقد للتوازن . مثلما أوضحه كوسيغين في شهر شباط من عام ١٩٦٧ عندما عقد مؤتمراً صحفياً في لندن اذ قال : ليست غاية برنامج تصنيع مضادات القذائف، قتل الناس، بل نجاة نفوس بشرية. وكان قد قال أيضاً في غلاسبورو للرئيس جونسون : ان التخلي عن الأسلحة الدفاعية هو شئ غامض لم أفهمه أبداً أضف الى ذلك، فان السوفييت كانوا يخشون

التقنية الأمريكية، لذا لا يقدرون على اعتبار تصنيع أمريكا لمجموعة مضادات القذائف سوى دليل على تفوق الأمريكان في المستقبل في مجال يعتبرونه هاماً.

لذا كان من صالحنا في الوقت ذاته تنمية تقنيتنا في مجال، كان الروس ناشطين فيه، ونقترح تحديد تصنيع مجموعة مضادات القذائف. وهذا الاقتراح الأخير ليس له سوى تشجيع السوفييت على المفاوضة حول تحديد التسلّح الستراتيجي. ولن تصنّع صواريخنا الجديدة قبل سنوات، اذا أتيح لها المجال، ومع ذلك فلن يقرها الكونغرس أبداً. كما اننا لن نكون قادرين في المستقبل القريب على مجابهة التنمية الخطرة للصواريخ الهجومية السوفييتية، إلاً بنشرها مجموعة صواريخ دفاعية وبتسريع تحقيق برنامج تصنيع الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعددة. واذا قللنا من أهمية هذين البرنامجين، كما كان يتمناه العديد من أعضاء الكونغرس، فان الولايات المتحدة ستجد نفسها محرومة من كل خيار ستراتيجي، وفي الوقت الذي كان السوفييت ينتجون فيه من مائتين الى ثلاثمائة صاروخ في العالم، الأمر الذي يجعلنا على المدى الطويل في وضع لا يطاق. وثبت انا كنا على حق في تفكيرنا : اذ عندما كان راغبين في تحديد تصنيع مضادات القذائف الصاروخية، وافق عندئذ السوفييت من جانبهم على تحديد أسلحتهم الهجومية، وهذه هي الأجراءات الأساسية التي سمحت في الوصول بعد ثلاث سنوات الى اتفاقات أولية حول « سالت Salt ».

ولم تكن هذه الأسباب الوحيدة التي هي حملتني على تبني فكرة تحديد تصنيع القذائف المضادة. وفي الواقع، أنني كنت أرى من غير المعقول ألاً يؤخذ بعين الاعتبار احتمال وقوع هجوم مفاجئ، أو وسائل أخرى نووية، يحصل عليها بلد آخر يوماً ما. وكانت الصين في رأس القائمة، ويتبعها آخرون. ودون أية وسيلة دفاعية، ستتحمل الولايات المتحدة خسائر كبيرة في حالة هجوم مباغت، وستجد نفسها عرضة حتى لأقل قدرة نووية. ولم اكن أرى أي سبب ادبي أو سياسي لتحويل شعبنا الى رهينة.

كان على نكسون إذاً اتخاذ قرار سيكون على أية حال موضوع جدال، لكنه تريّث بعض الوقت لأخذ رأي معاونيه. فكان رأي ليرد عدم التوقف واكمال المشروع، أما روجرز من جهته كان متردداً، وجاء يعلمني ان هناك عدداً من زملائه في وزارة الشؤون الخارجية يقترحون تحديد برنامجنا لتصنيع مضادات القذائف عند البحث عنه وفي تنميته، قبل الإقدام على تضيعه، بالاضافة الى تأكيده انه لا يشارك بالضرورة وجهة النظر هذه. فسألت داف باكارد عما كان يدور بخلده حول

هذا الاقتراح : فأجاب أنه يعني الغاء هذا البرنامج. وفي الحقيقة، لو كنا نقاتلن الآن منسحبين . وانتصارنا متوقف على تطبيق العملي لهذه البرنامج _ فهناك شك في ان الكونغرس لن يقر تطبيقه إلاً في السنة القادمة. ان المؤيدين لفكرة هذا البرنامج، لم يقتنعوا إلاُ مؤخراً، والمعارضة نفسها أجبرت على اعطاء نفسها مهلة عام واحد. مع العلم ان تأجيل الموضوع لعام واحد يمكن ترجمته الى تأخير سنوات الثلاث قبل وضع المشروع موضوع العمل : وعند اتفاق الآراء، فكان المراكز التصنيع تحتاج أيضاً لعام أو عامين قبل أن تصبح منتجة فعلياً. والخلاصة فان التأجيل البدء بتنفيذ المشروع يحرم الولايات المتحدة من كل دفاع مضاد للصواريخ، طيلة القسم الأكبر من الأعوام ١٩٧٠. ومن كل ضمان بالنسبة لتحديد التسلّح السوفييتي.

وفي الرابع عشر من شهر آذار، اتخذ نكسون قراراً ضمّنه رعاية مشروع مضادات القذائف، مقدراً وضع اثنى عشر موقعاً متميزاً للدفاع الأقليمي، واربعة منها تخصص لحماية صواريخنا « Minuteman » وتسعة عشر راداراً وعدة مئات من صواريخ مقاومة العدوان. وكان على هذا البرنامج ان يحقّق قبل عام ١٩٧٣ ولاعطاء برهان عن ابتكاره، فان المشروع « sentinelle » الذي كان جونسون قد وافق عليه أدخلت عليه تعديلات من مشروع « sauvegarde » وجدة « sauvegarde » كانت تقوم خصوصاً، في ان كل أراضي الولايات المتحدة كانت جميعها مجهزة برادرات، كانت مصنعة جيداً بامتداد كبير نحو أراضي الاتحاد السوفييتي، وكانت الغاية الرئيسية منها الدفاع عن مراكز الصواريخ، وأردف نكسون قائلاً :

« أسمح لنفسي بالقول . حسب رأي البعض . ان البدء بتنفيذ مشروع دفاعي مضاد للصورايخ في الولايات المتحدة، سيعرقل في النتيجة ، اتفاق تسلح ستراتيجي مع الاتحاد السوفييتي. ومن خلال السنوات الأخيرة، على اعتقادي أن لا شيء يسمح بتصديق ذلك. والاهتمام الذي أبداه السوفييت في سبيل اجراء مفاوضات حول التسلح الستراتيجي لم يثبط بعد ان اتخذت الحكومة السابقة قراراً بتصنيع ونشر مجموعة مضادات القذائف المضادة (Sentinelle) وفي الواقع لقد أعلنوا ذلك رسمياً ، بعد فترة قصيرة من اتخاذ هذا القرار بالذات . كما اني اعتقد ان التعديلات الطارئة على المشروع القديم ، لا تعطي السوفييت الحق باتخاذ مجهودنا الدفاعي عائقاً للمفاوضات . أضف الى ذلك ، فاني اؤكد ان الولايات المتحدة هي على استعداد في إطار كافة المفاوضات مع الاتحاد السوفييتي ، لمناقشة التحديد الواجب تطبيقه سواء على الأسلحة الدفاعية أو على الأسلحة الهجومية ) .

فأوجد هذا التصريح مناقشات جديدة ، دامت من شهر آذار إلى ما قبل شهر آب بقليل . وفي السادس من شهر آب ، بعد خلاف طويل ، أقر مجلس الشيوخ الأرصدة المخصصة لمشروع القذائف بأغلبية صوت واحد فقط .

لكن المعارضة لم تعترف بالهزيمة ، اذ انها نجحت في السنوات التالية في إنقاص هذه الأرصدة ، حتى ان الاثنى عشر مركزاً دفاعياً ، المخصصة مبدئياً لبرنامج (Sauvegarde) لعام ١٩٦٩ ، خُفّضت لثلاثة مراكز عام ١٩٧٢ . ومعاهدة ١٩٧٢ حول تحديد التسلّح الستراتيجي ، حدّدت عدد مراكز الصواريخ المضادة الى مركزين في كل بلد ، يخصص أحدهما للدفاع عن مركز القيادة القومية والآخر للدفاع عن مركز اطلاق الصواريخ أرض أرض . وفي عام ١٩٧٤ ، عدّلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي هذه المعاهدة ، مُخفضة هذه المراكز الى واحد في كل بلد ( على ان يكون مركز اطلاق صواريخ أرض أرض ، أو مركز القيادة القومية ) . ان الضغوط التي مارسها الكونغرس وتثبيط الهمة التي أظهرتها الادارة ، حملا الولايات المتحدة على إلغاء المركز الوحيد الذي أبقته لها المعاهدة . لكن برنامج القذائف المضادة ، لعب دوراً أدنى مما كان ينتظر منه : أي أن يعيد قيمة اتفاقية ١٩٧٢ حول تحديد التسلّح الستراتيجي ، الذي يضع حداً للتنمية العددية للقوى الستراتيجية الهجومية في الاتحاد السوفييتي . ومع ذلك ، كنت اعتقد دوماً اننا نرتكب خطأ عند تخلينا عن آخر مركز لنا لمضادات القذائف ، بالرغم من أني وافقت على ذلك عام ١٩٧٥ .

# Les M.I.R.V.

## ( الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة )

ان مشاكل الصواريخ الموجهة ، كانت معاكسة لما فرضه برنامج القذائف المضادة . ان حكومة جونسون ، كانت قد أقرت وصنّعت الصواريخ الموجّهة لتواجه انتشار المجموعة الدفاعية السوفييتية ، اذ كان المقصود تجاوزه بعدد الرؤوس النووية التي تصيب أهدافها في الأراضي السوفييتية ، دون الحاجة في كل مرّة لزيادة عدد قذائفنا ، لأن هذا ربّما يوصلنا الى واقع غير ثابت . كان يظن في الحقيقة ، اننا عندما نضاعف عدد قذائفنا ، نستعجل سباق التسلح ، ولقاء ذلك ، إذا زدنا عدد الرؤوس التي يحملها كل صاروخ ، نحافظ على قدرتنا وجاهزيتنا دون تعرض للخطر . واذا وسّع السوفييت شباك قذائفهم المضادة ، فباستطاعة صواريخنا المتعددة الرؤوس المجيء على آخرها وكان ينقص هذا التفكير قليل من الوضوح ، لأن القوات المجهزة بصواريخ موجهة لها أفضلية عظمى لدى المهاجمة . وعلى فرض ان كل فريق من المتخاصمين جهّز ألف صاروخ يحمل كل منها ثلاثة رؤوس ، فان من يضرب أولاً يكون لديه المجال لارسال ثلاث آلاف رأس نووي ، على ألف مرمى ، مع توفر جميع امكانيات تدميرها . مما يدل على أن مضاعفة الرؤوس ستعطي استقراراً أكثر من مضاعفة القذائف . لم يكن هناك أي سبب داعٍ الى ذلك ، ولم يجرؤ أحد على إيضاحه ، أو إعارة الانتباه إلى ماسوف يكون عليه وضعنا عندما يصبح لدى السوفييت أنفسهم صواريخ موجهة والطرح المجدد لقضية تحديد عدد القذائف ومدى فعاليتها.

ان الصواريخ الموجهة لم تسبب خلافا شديداً كالذي سببّه برنامج القذائف المضادة ، اذ ان حكومة جونسون كانت قد أقرتها وبدأت تجاربها في شهر آب ١٩٦٨ . وكان تصنيع الصواريخ الموجهة قد وضع موضع العمل !!!

مع ذلك فان سلسلة تجارب جديدة وأخيرة على الصواريخ الموجهة كان متوقعاً البدء بها في شهر أيار ، فركزت المعارضة حملتها على هذه التجارب ، لا سيما بعد الاعلان عن مجموعة القذائف المضادة في الرابع عشر من شهر آذار . وكانت المعارضة تسير في ذلك بموجب منهج ، أصبح عادة لديها عندما كانت تريد مهاجمة برنامج تسلح جديد ، وتتهمه حالاً انه غير مفيد ولا

يؤدي الى استقراراً ، أو عند تصنيع سلاح جديد بالإضافة الى سلاح قديم يستخدم ، أو عندما تريد منع تحقيق برنامج جديد أفضل ، لاسيما وان هدف المعارضة كان دوماً في اقناع الرأي العام ان أي برنامج تصنيع نُقدم عليه يستدعي صنع مثيله لدى السوفييت ، واذا أقدمنا نحن على تحديد تسلحنا ، فان خصمنا سيقتدي بنا في ذلك ( وبطبيعة الحال في مجموعة القذائف المضادة ) . وكانت المعارضة تطالبنا دوماً في تحديد أسلحتنا ولو ان خصمنا لا يعمل ذلك . وكان أعداء القنبلة الهيدروجينية يدعون الى اتخاذ هذه المبادئ ، وأثاروها مجدداً عند طرح برنامج الصواريخ الموجهة . وعلى أية حال ، وفيما كانت المناقشات والمجادلات تصل الى أوجها في أمريكا ، كان السوفييت ، يتابعون بهدوء تصنيع برامجهم الخاصة .

وفي شهر حزيران ، أكد عضو مجلس الشيوخ كليفورد كاز ، على وضع حد لتجارب الصواريخ الموجهة ، وتعديل القانون المتضمن تمويلها . وبسبب رفض لجنة الموازنة ، هدد كاز برفع القضية الى مجلس الشيوخ . وفي السابع عشر من شهر حزيران ، قدّم عضو مجلس الشيوخ ادوارد بroوك قراراً لعقد مذاكرة حول الصواريخ الموجهة ، واتخذ هذا القرار بموافقة أربعين من أعضاء مجلس الشيوخ غيره ، وأكد لي بروك ان هناك ما يقارب عشرة آخرين يصوتون معه . وفي الخامس عشر من شهر حزيران ، فان عضو مجلس الشيوخ توماس ايفلتون ، دعا الرئيس الى إيقاف تصنيع الصواريخ الموجهة . وفي مجلس النواب الأمريكي ، اتخذ ايضاً جوناثان بنغام قراراً يقضي بعقد مذاكرة وانضم اليه اكثر من مائة عضو من زملائه . وفي السادس عشر من شهر حزيران ، فان النائب جون أندرسون الذي كن يرأس الحزب الجمهوري في مجلس النواب أوصى بإيقاف التجارب على الصواريخ الموجهة ، بانتظار نتيجة مفاوضات تحديد الأسلحة ، وفي التاسع من شهر تشرين الأول ، فان لجنة فرعية للعلاقات الخارجية في مجلس النواب ، تقدمت بتقرير يطالب الرئيس بإعطاء أفضلية مطلقة لإيقاف تجارب الصواريخ الموجهة في إطار مفاوضات سالت Salt وكانت غاية هذه الحملة ، إرغام الولايات المتحدة على تعليق أحادي الجانب مع تجارب الصواريخ الموجهة ، رغبة في تشجيع الاتحاد السوفييتي على العمل كذلك . وفي الثاني عشر من شهر حزيران ، كانت النيويورك تايمس تكتب مايلي :

( ان الطريقة في حمل السيد كوسيغين على إيقاف التجارب على الصواريخ الموجهة ، هي في تقديم اقتراح بإيقاف تجاربنا الخاصة . حتى إيقافها حالاً . والإعلان رسمياً ، في أن لايكون عودة إليها ، طالما أن السوفييت يمتنعون عن اجراء تجارب على صواريخهم المتعددة الرؤوس ) .

وفي العشرين من شهر حزيران ( لن يكون أهمية ما ، لأي قرار من القرارات التي سيتخذها نكسون بصفته رئيساً ، سوى القرار الذي سيتخذه من الآن وحتى بضعة أيام ، حول موضوع إيقاف التجارب المتصاعدة على الصواريخ الموجهة .. وان متابعة مثل هذه التجارب خلال بعض أسابيع مقبلة ، لن يكون سوى تهديد العالم ، بالولوج الى نقطة لاعودة منها في اتباع طريقة خطرة وباهظة التكاليف في سباق تصنيع صواريخ ) .

وفي البيت الأبيض ، كان فريق من اخصائي شؤون البيت الأبيض ، يلحون علينا في قبول مذاكرة حول الصواريخ الموجهة ، لإيجاد جوّ مناسب للكونغرس يشجع على تصنيع مجموعة القذائف المضادة . فلم اعطِ أهمية لهذه الإلحاح ، وكتبت للرئيس في الثالث والعشرين من شهر أيار : إن تعليق التجارب على الصواريخ الموجهة ، سيسبب دون شك ضغوطاً تهدف الى ايقاف برامج (Minuteman III ) و ( poseidon ) ( أعني الصواريخ المقرر تجهيزها برؤوس متعددة ) ... الأمر الذي يعّرض لخطر أكبر وهو عدم تحقيق البرامج الستراتيجي الأمريكي . ( مع العلم ان الغاية الأساسية كانت في تصنيع الصواريخ الموجهة من خلال تصنيع مجموعة الدفاع ( القذائف المضادة ) . ومنطق اعضاء مجلس الشويخ الذي كان يبدو غامضاً قليلاً ، إذ كان يفضل عقد مذاكرة لانهاء قضية الصواريخ الموجهة ، وفي الوقت نفسه كان يحبذ تصنيع مجموعة صواريخ الدفاع ( القذائف المضادة ) . ومنطق اعضاء مجلس الشيوخ الذي كان يبدو غامضاً قليلاً ، إذ كان يفضل عقد مذاكرة لانهاء قضية الصواريخ الموجهة ، وفي الوقت نفسه كان يحبذ تصنيع مجموعة صواريخ Sauvegarde .

وكان عضو مجلس الشيوخ برووك ، يلّح دائماً على تبني اقتراحه . وفي الثالث والعشرين من شهر أيار ، خلال محادثة مثقفة معي ، أكد لي برووك أن في حال متابعة التجارب ، فهذا يعني ان الأمر يخرج من أيدينا !! وتتطلب القضية عودة الى ترو وضمير . وتدخلت الطبقة المثقفة الجامعية في الموضوع ، وكتبت إليّ الكثير من الأصدقاء ، داعين إلى إيقاف أحادي الجانب ، على تجارب الصواريخ الموجهة .

كان الكل يدعونا الى اتخاذ تدبيرين قاطعين : أولاً ، التخلي عن تصنيع مجموعة القذائف المضادة ، دون انتظار ان يقابلنا السوفييت بذلك ، وثانياً ضغط انتشار شبكة صواريخنا الموجهة ومن جانب واحد أيضاً . وبالاختصار كان علينا ان نلغي دفعة واحدة برنامج دفاعنا الصاروخي ، والوسائل التي نتمكن بها من التفوق على ما بدأ بتصنيعه السوفييتي . فهذا اذاً ما كنا نطالب به

، في حين ان مخزن الأسلحة السوفييتي كان يزداد من مائتين الى ثلاثمائة صاروخ في العام . واذا كان السوفييت يستمرون في التسلح ، ونحن نلغي برامجنا الدفاعية ، فما هو السبب الذي يدعوهم الى قبول اجراء مفاوضات وعقد اتفاق ، حول تحديد الأسلحة الستراتيجية ؟ وتحديد أسلحة أحادي الجانب من قبلنا ، سيشجع السوفييت ، ليس على اجراء اتفاق ، بل على تسويفه ، وإحالة كفة الميزان الى جانبهم حسب طاقتهم ، فيما تكون جميع جهودنا مشلولة . ان تخلينا المزدوج عن مجموعة القذائف المضادة ، والصواريخ الموجهة ، لا يعطل فقط فرص التوصل الى اتفاق حول تحديد التسلح الستراتيجي ، بل سيكفل التفوق الستراتيجي للاتحاد السوفييتي إلى مدى سنوات عشر .

وفي الحقيقة عندما بدأت مفاوضات ( سالت Salt ) في شهر تشرين الثاني ، وبالرغم من أقاويل أنصار تحديد التسلح ، فلقد أبدى السوفييت ميلاً الى اجراء مفاوضات حول مجموعة القذائف المضادة ، ومن جهة أخرى ، فلم يظهروا رغبة إلا في ضغط انتشار صواريخهم الموجهة الأمر الذي كان يجعلهم أحراراً في اجراء تجارب للحاق بنا في المجال التقني . فلا برنامج مجموعتنا من القذائف المضادة ، ولا تجاربنا على الصواريخ الموجهة قدرت على خلق صعوبات عند اجراء مفاوضات حول تحديد التسلح الستراتيجي ، بل العكس ذلك فقد قوتها .

# تهجّم ضد موازنة الدفاع

ان الحملة التي شُنّت عام ١٩٦٩ ، ضد مجموعة القذائف المضادة ، والصواريخ الموجهة ، انقلبت وبصورة عاجلة الى تهجم ضد موازنة الدفاع بكاملها . ففي الثاني من شهر شباط ١٩٧٠ ، تقدم نكسون بمشروع أولى للموازنة العامة . وحاول إزالة حقد المعارضة ، متكلماً ببلاغة ، مبيناً ضرورة استعادة التفوق القومي . وفي خطابه عن حالة الأمة ، كان يقترح في بيان موازنته ، بوجوب زيادة الأرصدة المخصصة لمساعدة العائلات ، ومحاربة التلوث ، وتحسين وسائل النقل . وكان مشروع موازنته يقدر بمبلغ ٧٣،٥ ثلاثة وسبعين مليار ونصف من الدولارات ، يعني أنه ادنى بخمسة مليارات دولار ، عما كان مخصصاً في العام السابق . وفي الواقع ، انها المرة الأولى ، منذ خمسة وعشرين عاماً ، يقترح فيها رئيس بتخصيص أرصدة للدفاع ، أقل مما هي عليه في الضرورات الحياتية . ومن خلال الموازنة العامة ، هناك سبعة وثلاثون في المائة ، للقوات المسلحة ، وواحد وأربعون في المائة للبرامج الاجتماعية ( وفي موازنة السنة السابقة ، التي أقرها الرئيس جونسون ، كان مخصصاً أربعة وأربعون في المائة للدفاع ، وأربعة وثلاثون في المائة للبرامج الاجتماعية ) . ولقد أكد ريشارد نكسون أخيراً على استعادة التفوق في الولايات المتحدة ، هذا التفوق الذي كان ينادي به بعنف أخصامه منذ سنوات .

لم أكن انا مع هذا التوجه الجديد دون تحفظ : وفي الحقيقة ، كانوا يُطالبوا سابقاً بعدم تخطي الحدود ولكل مكنته ، ولكني اعتقد اننا سنصل أخيراً إلى إنقاص قدرتنا الضاربة . وعسكرياً ، سواء في مجال القوى التقليدية أو مجال القوى الستراتيجية ، فهذا كان يعني اتخاذ اتجاه بعيد عن الواقع . وفي الرابع عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٠ ، اطلعت جون اهر ليخمان على تحفظاتي حول هذا الموضوع ، بصفته مسؤولاً عن البرامج القومية ، وكان بدوره يدافع طبعاً عن التفوق والأولويات القومية قائلاً : كل العالم يعرف ان الدفاع رصد حتى الآن أموالاً طائلة وتصرف بها ، فأجبته ، وعلى ما صرفت هذه الأموال ؟ دون علم منّي إلى أي مدى يكون معي حقّ في هذا التساؤل . طالما أن ليس هناك من يعرف كيفية صرفه ، لا سيمّا في عام ١٩٧٣ ، عند تفجر الوضع في الشرق الأوسط . وبعد مضي وقت قليل من اليوم نفسه ، وبالرغم من أن هلدمان أكد لي ان الرئيس كان متعباً من كل العقبات التي اعترضته بخصوص الموازنة ، فقد ذهبت اليه ونقلت له ما كنت افكر به وقلت له : ( اذا كنت ترى أن من الواجب معالجة هذه

الحالة المستعجلة ، فربما اعترضتك خلال عامين أو اكثر مشكلة خطرة تمنع من تجهيز القوى اللازمة .

كان نيكسون يفهم وجهة نظري ، لكنه كان يقدّر في الوقت ذاته ، انه اذا لم يقترح هو بنفسه ويوصي بالتخفيضات في أرصده الموازنة ، فان المعارضة ستتكلف بعمل ذلك ، وتدمّر البرامج العسكري بكاملها . كان له الحق بالقلق : لأن الاجراءات التي اتخذها لم تكّم أفواه المعارضة ، التي كانت لا تعترف عليها بحجة انها غير كافية . وقواتنا المتفق عليها كانت بتزايد ولا تتعارض مع الالتزامات المخفضة التي فرضها المبدأ الذي اتخذه الرئيس في غام (Guam) ن ومن جهة كان بالإمكان أيضاً إنقاص موازنة قدراتنا الستراتيجية ، دون ان تتعرض لفقد قوتها الرادعة . ان موازنة عام ١٩٧١ ، كانت تأخذ بالحسبان برامج ذات أمد طويل ، لا فائدة منها سوى تضخيم الموازنات القادمة : حاملات طائرات ، قوى تعبئة جوية ، وأسلحة جديدة ستراتيجية مدمرة وفتاكة . وفي السابع عشر من شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٠ ، كانت النيويورك تايمس تشكو الموازنة الجديدة والمغرية المخصصة للدفاع التي اقترحها نيكسون ، أنها تكتفي فقط بإنقاص المخصصات التي تسمح باجراء عمليات في فييتنام ، ولم تقدم أي تغيير في الستراتيجية الأساسية ، أو خطط استعادة تفوقنا و أفضلياتنا ، وفي الثامن عشر من شهر كانون الثاني ، كتب جيمس رستون : ان موازنة الدفاع ، كان يمكن رفع سقفها وبدون خطر إلى مابين ثمانية وخمسين وثلاث وستين مليار دولار ، مستنداً بذلك إلى تصريحات ماك نمارا وزير الدفاع السابق ، ومعاونه روزوويل غيلبا تريك . وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني ، كان ا . ارنست فيتزجيرالد ، المحلل القديم لسلاح الجو ، الذي سرح على أثر اعتراضه على قرار صرف أموال إضافية لتصنيع C 5 A (طائرة) وهو في الوقت نفسه الناطق بلسان الأحزاب المناهضة للروح العسكرية ، لقد صرح ارنست هذا : ان بالامكان انقاص موازنة الدفاع عشرين ملياراً من الدولارات ، خمسة منها مخصصة لتصنيع وتنمية التسلح ، ويومان بعد ذلك ، كانت النيويورك تايمس تنشر في صفحتها الأولى ما يلي : من الممكن اقتطاع اكثر من ثمانية مليارات من الدولارات ، اثنان منها باتخاذ قرار حول مجموعتي : القذائف المضادة والصواريخ الموجهة ، ومليار ونصف بتعجيل الانسحاب من فييتنام ، واكثر من اربعة مليارات بتخفيض مجموع القوات .

كان الكونغرس يشارك في وجهة النظر الأخيرة . وفي شباط ، وبمناسبة عقد اجتماع لجنة لدراسة الأفضلية والتفوق القومي في المجلس الديمقراطي ، اتهم يوبرت هامفري الرئيس نيكسون لتخصيصه مليارات الدولارات لأهداف عسكرية ، على حساب خسارة الاحتياجات

التعليمية والصحية . وخلال عقد الاجتماع المنوه به في أعلاه ، اقترح عضو مجلس الشيوخ ادوار كيندي زيادة التخفيضات مع مجالات أخرى ، مثل برنامج تصنيع وانشاء قاذفات قنابل B 1 ومجموعة القذائف المضادة ( Sauvegarfe ) والقوى التقليدية الأمريكية المتركزة في أوروبا .

( لن نعود إلى ارتكاب اخطاء الأعوام ١٩٥٠ و ١٩٦٠ ، اذ كنّا نتصرف بخشية مفرطة من حدوث حرب باردة ، والتي أثرناها بإسراعنا نحو سباق التسلح ...

ولما كانت موازنتنا الاتحادية ، مجزأة اجبارياً إلى عدّة مجالات ، يجب ألاّ تفلت أية نفقة عسكرية دون تدقيقها ..... وأعتقد أني بينت فيما سلف ، ان الموازنة التي يتمنى الرئيس تخصيصها بوزارة الدفاع ، ان هذه الموازنة لا تزال تتمتع بأهميتها ، ويمكن اجراء تخفيضات ، دون خوف أو خطر على الأمن القومي ) .

وفي الثاني من شهر أيار ، أعلن فريق من اثنى عشر عضواً من مجلس الشيوخ ومن كلا الحزبين ، أعلنوا مشروعاً صارماً لإعادة النظر في مشروع موازنة الدفاع ، بنية اعادة تنظيم الأفضليات المتعلقة بين الاحتياجات العسكرية والقومية ، ولقد أضافوا : اننا نعتقد جازمين ، ان تدقيقاً كهذا ، يؤدي بنا إلى تخفيض عام في النفقات ، وإلى أمن حقيقي كبير للولايات المتحدة . وفي آخر شهر حزيران ، قدّم فريق من النواب وأعضاء مجلس الشيوخ الليبراليين تقريراً غر رسمي ، يطالبون فيه بتخفيضات اضافية بحدود / ٤٫٦٥ / اربعة مليارات وخمسة وستين مليون من الدولارات لتنفيذ برنامج تجارب وإقامة الصواريخ الموجهة ، و انشاء الطائرة المطاردة F – 14 وعلى مجموعة مضادات القذائف ( Sauvegarfe ) .

وأخيراً ، عندما جاء دور التصويت النهائي على موازنة الدفاع ، في شهر كانون الأولى من عام ١٩٧٠ ، كان الكونغرس عازماً على تخفيضها بمقدار / ٢٫١ / مليارين ومليون دولاراً ، في حال ان الرئيس نيكسون كان قد خفضها بمبلغ خمسة مليارات من الدولارات ، فأصبح مجموعة التخفيض أكثر من سبعة مليارات بالنسبة للسنة السابقة . وفي الوقت ذاته ، فان كل هذا لم يكن يعطي سوى فكرة بسيطة عن مناهضة الروح العسكرية التي كانت تعم الولايات المتحدة ، ومعارضة نفقات التسلح ، والصراع الشديد الذي يسبّبه حتماً كل برنامج عسكري جديد ،

والشكوك التي كانت تهيمن على جميع اجواء دفاعنا وأمننا ، على المدى الطويل وحتى نهاية أعوام ١٩٦٠ .

وفي الحقيقة ، فقد صُد كل هجوم مهما كانت شدته ، وانتهينا إلى إقرار تصنيع مجموعة مضادات القذائف ، كما ان تجارب الصواريخ الموجهة قد توبعت . وحصلنا على أموال ولو تقتيراً لانشاء B - 1 و Trident . ولم يجر أي تخفيض ملموس على قواتنا الأساسية ، في الخارج . وبالرغم من كل هذا ، وفي الوقت الذي كان التسلح السوفييتي يستدعي بالضرورة إعادة النظر في سياستنا وقوانا الستراتيجية ، فان الحكومة صرفت كل جهودنا بمناقشات فارغة لتتمكن من الحفاظ على ترسانة بسيطة . وأجبر مخططو البنتاغون ان يركزوا على حماية والاحتفاظ بالقوات الحالية بدلاً من السعي لتعريضها لشروط جديدة .

وكان على هذه التخفيضات ان ترتفع إلى حد أكبر وأخطر ، لو أن نيكسون لم يستبق الرأي العام ويخفض هو بنفسه موازنة الدفاع ولو لم نكن نحن قد أزحنا تدريجياً الضغوط على الموازنة بسحب قواتنا في آسيا . ولم نكن على ثقة من كل ما علمنا . وكنت أتساءل دوماً منذ ئذ ، ألم يكن من الأفضل مجابهة هذه المشكلة ؟ مع احتمال حدوث خلاف قومي عام حول وضع دفاعنا عام ١٩٦٩ .... وفي الحقيقة ، فان التعهدات لم تكفِ لإسكات الانتقادات ، وتهدئ غليان أنصار دفاع قوي . وانتهى الأمر بجعل الحكومة في عزلة ، كما جرى في وضع فييتنام ، والظهور بمظهر تنفيذ متطلبات لم ينفذ منها شيء . فدعت إلى خلافات حول كيفية تطبيق سياسة كانت تهدف ، كما كان يُعتقد ، إلى توحيد الآراء . أضف إلى ذلك ، فان الخطابات الحيوية التي ألقاها الرئيس ، حول أهمية الدفاع ، في كلية سلاح الجو في شهر حزيران ١٩٦٩ ، دعت إلى السخرية والاحتقار من قبل الصحافة وحتى الكونغرس ، الذي كان همه ان يعرف عما اذا كانت موازنة الدفاع تخفض ام لا ، وفي حال تخفيضها ، فإلى أي حد ومبلغ ؟ أمّا من جهة أنصار الدفاع في الكونغرس وفي باقي البلاد ، فانهم لم يتعدّوا الحدود ، أمام موجة عارمة من روح المناهضة العسكرية التي سببتها مشكلة فييتنام ، ولم يقفوا كذلك أمام التيار العنيف الذي حدا بالكونغرس للدفاع عن تفوق والأفضليات القومية ، و الذين كان لديهم أي انصار الدفاع فرصة غير مؤاتيه تردّ السكين إلى الجرح الحيّ في قلب فييتنام.

ختاماً ، و الفضل يعود إلى نيكسون و ليرد ، اتضح ان واقع بنيتنا العسكرية كان سليماً في هذه السنوات العاصفة . و وضعت حكومة نيكسون نصب أعينها تنفيذ برامج ذات أهمية رئيسية

مثل B-1 و Trident ، و الصواريخ البحرية ، كما وضعت الأسس التي سمحت بالتنمية ، عندما أقدم الكونغرس على تغيير رأيه في الجزء الثاني من الأعوام ١٩٧٠ .

وفي غمرة هذا الاضطراب ، عزمت أنا وفريق معاوني ، استناداً إلى تأييد تام ، من قبل الرئيس ، على اعادة نظر عامة في العقيدة العسكرية . وكانت غايتنا ، جعل أنفسنا قادرين على التصميم والدفاع عن أهدافنا العسكرية ، ضمن مبادئ معقولة ، وتعديل استراتيجيتنا بموجب حقائق جديدة ، ومحاولة تخليص النزاع العام من كل ردّ فعل حسّاس .

وكان أول أهدافنا تحديد استراتيجيتنا حال اندلاع حرب نووية عامة ، بموجب مبدأ (التدمير الحقيقي) الذي كانت اتخذته الحكومة السابقة . وبهذا نردع السوفييت عن الهجوم ، محتفظين بقدرات هجومية ، قادرة على الحصول على نسبة مئوية من الإفناء البشري والتدمير الصناعي[1]. ان الستراتيجية لم تكن تهدف الى تدمير الصواريخ أو القاذفات قنابل العدو، وهدف كهذا كان يربط بنية قدرتنا العسكرية بدرجة تنمية القدرة المعادية. وهذا ما كان يريد أنصار « التدمير المؤكد » اجتنابه. اذا انهم كانوا يفضلون في الواقع تأكيداً ظاهرياً يحصل من مبدأ تكافؤ مهدّم يحدّد اقتصاديا ( وتحديد مثل هذا البرنامج يعود بعد كل شيء إلى تقنية الاقتصادية ) التي كانت تعتقنا من الزامية مواجهة القوّة السوفييتية المتزايدة. وفي الحقيقة، فان عدد الأسلحة النووية المطلوبة للوصول إلى ذاك التدمير العظيم، كان ثابتاً وقليل الأهمية.

وبكل استغراب فان مبدأ « التدمير الحقيقي » الذي اتخذه شعاراً الأنصار الليبراليون لتحديد التسلّح، ولأسباب تدعو إلى خير البشرية، كانت هذه الأسباب تفرض إستراتيجية حربيّة بعيدة عن الانسانية. والبرهان على ذلك هو التالي : بقدر ما تكون نتائج الحرب مخيفة، فبقدر ذلك نبتعد عن محاولة الاتجاء اليها، وبقدر ما ستكون قابلة للسيطرة عليها، فبقدر ذلك يكون الخوف من اندلاعها. وبالنتيجة، يكون من الأفضل للويلات المتحدة والاتحاد السوفييتي، ان يقوما بتهديد

---

[1] (في عام ١٩٦٥ ، كان البنتاغون قد حدد التدمير الحقيقي كما يلي : القدرة على افناء من الربع إلى ثلث الشعب السوفييتي ، وتدمير ثلثي المنشآت الصناعية السوفييتية . وانحدرت هذه الأرقام عام ١٩٦٨ إلى ١/٥ أو ١/٤ المنشآت الصناعية) .

شعوبها الخاصّة أفضل من مراكز إطلاق صواريخهما. وإذا أصبح الإفناء المتبادل أمراً لا مفّر منه، فلا أعتقد ان أحد الفريقين يجزم على استعمال الأسلحة النووية وسيكشف المستقبل عمّا من خطأ في التقدير. ولم يطرح بعد السؤال عن كيفية تمكننا من الدفاع من حلفائنا في مثل هذه الظروف.

والمعضلة التي لم يكن يهدف اليها هذا المبدأ كانت أمراً بسيكولوجياً. وفي الحقيقة، لم يكن من الجائز اجراء تهديد متبادل بالتدمير، لغايات ردعيّة ولا سيما في حالة تهديد مباشر لبقاء أمّة. ولم يعرف أي رئيس ان يجعل تهديده قابلاً للتصديق إلاّ باتباعه دبلوماسية تتطلب حالة عامة، مخالفة للمنطق. وهذا كان في المقابل ناتجاً عن منهجنا السياسي الذي كان يتطلّب منا ان نظهر للعالم صورة اعتدال وحكمة هادفة. واذا لم ينجح الردع، ووجد الرئيس نفسه مجبراً نهائياً على الاقتصاص، فمن يتحمّل حينذاك المسؤولية الأدبية من استخدام ستراتيجية تتركّز على الإفناء الجماعي للبشرية ؟؟ وكيف تتمكن الولايات المتحدة من المحافظة على تماسك حلفائها في حين ان تصديق ستراتيجيتها كان يتداعي. وكيف نتمكن من مجابهة القوّات الروسية، اذا كان هؤلاء أي الروس يعتقدون أننا نؤسس حقيقة ستراتيجيتنا على إفناء البشرية.

وبعد ان خطونا خطوة الى الأمام، فان ستراتيجية « التدمير الحقيقي » كانت تصل بنا إلى النتيجة الغريبة التالية : لقد أصبح لدينا إفناء شعبنا ورقة رابحة . وفي الحقيقة، فان ذلك سيطمئن الاتحاد السوفييتي ويضمن له بالتالي احتياطه في حالة الخطر. وهكذا ولأول مرة في التاريخ، كانت بلاد كبيرة ترى مغنماً لها، عدم اهتمامها في إفناء شعبها !! و« التدمير المؤكد » هو إحدى النظريات المؤثرة، عند طرحها في أحد الصفوف الجامعية، ويجب عدم استعمالها من قبل مسؤول سياسي يجابه الحقيقة و فيما لو طبقت هذه النظريات، لأوصلتنا إلى كارثة.

كان لدّي موضوع آخر يقلقني : اذ ان قوات الولايات المتحدة الستراتيجية وكذلك قوات الاتحاد السوفييتي، تنزع إلى أن تصبح متساوية ويمكن حينئذ استخدامها فقط في هجوم جزئي. ولقد بينت للرئيس، في شهر حزيران من عام ١٩٦٩، المعظلة التي تفرض نفسها عليه، في حال بدء السوفييت بهجوم نووي محدود، وكنت أحثه على الحصول من البنتاغون، إعداد استيراتيجية تسمح بمواجهة ظروف اخرى غير تحدّ نووي عام. وافقني الرئيس حالاً على رأيي، وأصدر أوامر حول هذا الموضوع. لكن جهازنا العسكري كان على استعداد لمعارضة كل تعديل في المبدأ الستراتيجي ، وحتّى اذا صدر ذلك عن بيت الأبيض، الذي يسعى دوماً لأظهار نفسه

مفيداً. وعندما استلمت زمام وظيفتي، أسّر لي وزير الدفاع السابق روبيرت ماك نمارا، أنه قد حاول طيلة سبع سنوات، ان يقدم للرئيس مجالاً أوسع للخيار، ورفض ذلك نهائياً، أمام معارضة الإدارة، وعزم منذئذ على ارتجال الأمور. وكنت أنا مصمّماً أن أعمل أحسن، لكني لم انجح في ذلك إلاّ جزئياً. إن مخططي الدفاع المدنين كانوا الأمر الذي يزيد في تعقيد قرارات الموازنة. وكان رؤساء القوات المسلّحة متردّدين أيضاً، لأنهم كانوا يفضلون تأمين تقدم تنمية لأسلحتهم الخاصّة بالمساومة بين بعضهم، أفضل من إخضاع ذلك للمحللين المدنيّين، الذين دلّت التجربة، انهم يجعلون الأسلحة ضعيفة بدلاً من تقويتها. مع الأخذ بعين الاعتبار ان أعمالنا الحربية، تخطّطها سلطات غير متابعة للأقسام العسكرية، وان مختلف رؤساء الأركان العامة هم كذلك مدراء مؤسسات لتصنيع الأسلحة، أكثر ممّا هي مدراء مؤسسات لتطبيق استراتيجية. لذا فانهم يرتابون كثيراً من كل مبدأ قابل للتدخل ولو بعد حين في القرارات التي يكونون قد اتخذوها في مجال تصنيع الأسلحة. ولأجل هذا فقد صدر عن الرئيس توجيه عام ١٩٦٩، يطالب فيه تحقيقاً عن وجود برامج بحريّة، ولم يصله أي جواب مقنع، خلال ثماني سنوات من وظيفتي في واشنطن : وفي الحقيقة فان ردود الفعل تجاه ذلك كانت بعيدة عن التمرّد، لكنها مع ذلك كانت بعيدة عن الواقع. وبالرغم من التذكير نصف السنوي، فان المعلومات الواردة ضمن السجلّات كانت دوماً ناقصة، عندما تخيلّنا عن الوظيفة. وكان الوضع نفسه موجوداً لدى كل الاقسام الحربية.

ومع ذلك تحقّق بعض التقدم، عندما استعملنا ستراتيجيّة اكثر تغيّراً، تجاه الحرب شاملة محتملة الوقوع، وكان بعض الفضل في ذلك يعود إلى الضغوط القويّة التي مارسها البيت الأبيض. وشارك هذه المرّة رؤساء الأركان العامّة، لأنهم كانوا يعتقدون أن مبدأ « التدمير الحقيقي » سيدعوا بالضرورة إلى اتخاذ قرارات سياسية، ستوقف أو تهمل تنمية قدرتنا الاستراتيجيّة، وتنتهي إلى تخفيضها. وفي عام ١٩٦٩، اتخذنا مبادئ جديدة حول « الاكتفاء الستراتيجي ». وكانت أهدافنا الستراتيجيّة لا تتجه فقط نحو افناء الشعب البشري، بل إلى أهداف عسكرية، ووحدّت هذه المبادئ إطاراً يناسب كثيراً لتخطيط عام وتخفيض لقواتنا. وسمحت لنا بمعارضة تقييدات الكونغرس القاسية بدلاً من أن تكون وضع بعض الحدود للدفاع، وأعطتنا على الأقل القدرة النظرية لاستخدام قواتنا لأهداف غير إفناء الشعوب الجماعي.

ان طرح هذه التجديدات من مجال المبادئ ونقلها الى المجال العلمي، ظهر مع كثير التعقيد. بوشر بتخطيط ذلك حالاً، ولم يتحقق شيء قبل استلام جيمس ر. شليستنجر وظيفته

كوزير للدفاع ( ١٩٧٣ _ ١٩٧٥ ) وفي هذا الظرف بالذات اقترحت أهداف جديدة. ولسوء الحظ، عندما أعلنت نهائياً بوضوح، ألغاها التقدّم التقني. وهكذا فان الخسائر بالارواح البشرية، التي كنا نخشي ان تسبّبها حرب نوويّة قد تضاعفت حتى في حالة الدنيا من استخدام أسلحة النووية. غير أن هارولد براون، وزير الدفاع، تابع هذا الجهود، حتى في ظل حكومة كارتر. والنجاح بعض آثار المدنية. هذا ما يبقى اليوم كإحدى المهمّات صعبة التحقيق والتي تتطلب تغييراً كلياً في جهازنا العسكري. وفي حال عدم وصولنا إلى حلّ هذه المشكلة، ستنتهي في يوم أو آخر، إلى إحداث شلل ستراتيجيتنا وسياستنا الخارجيّة .

# الأسلحة النوويّة التعبويّة

ان الأسلحة النوويّة التعبويّة تطرح مشكلاً متجانساً. بما أن قواتنا الستراتيجية، وكذلك القوات الستراتيجية السوفييتية كانت تسعى نحو التفوّق، وبما ان قدرتنا التقليدية، كانت في الوقت ذاته أدنى من القوات الروسيّة. يجب الانتظار حتى تتضح أمور القدرة النووية التعبوية : وهذا ماكان غالباً ستراتيجية الجواب المرن الذي اتبعه رسمياً حلف شمال الأطلسي. لكن هذا الجواب لم يثر أي حماس في أواسط حكومتنا. والموظفون المدنيّون في وزارة الشؤون الخارجية والبنتاغون ، ولاسيما اخصائيو تحليل المناهج، كان جميعهم قلقين، في سبيل إيجاد « مقطع الحريق » محدّد جيداً بين الأسلحة التقليدية والأسحلة النووية، وتأجيل إلى آخر حدّ ممكن الفرصة التي تمكن من استعمال الاسلحة النووية التعبوية، التي حسب تقديرهم، كانت تمحو قليلاً فقليلاً، كل تفريق بين استراتيجية تقليدية وستراتيجية نووية .

ان مقطعاً من دراسة، وضعت حول خيارات الحلف شمال الأطلسي العسكرية، كان يعكس هذه العقليّة، لم تقرّر هذه الدراسة أي استخدام ممكن بالآلاف. وكانت الدراسة تؤكد ان الغاية الأولى من قواتنا النووية في أوروبا، هي أن ترفع بالنسبة للسوفييت كلفة الهجوم محتمل الوقوع ، و أضافة عامل هام الى عدم الثقة في تقديراتهم . و يجب على الأسلحة النووية، ألاّ تلعب بالضرورة دوراً حاسماً، سواء بترجيح كفّة الحرب وسواء بطريقة الهجوم فيها. صدر هذا الإعلان المفاجيء المذهل من قبل البلاد، استندت طيلة عشرين عاماً على التفوّق النووي بنيّة توطيد السلام في أوروبا، أضف إلى ذلك، انه لم يكن معلوماً كيف ان قوى تمنع عن القيام بأي دور حاسم، تستطيع إلحاق الضرر بتقديرات مهاجم قوى.

وهذا كان يعود في الحقيقة ، إلى بيان حول الهزيمة والانكسار، أكثر من التخلّي دفعة واحدة من القوى النووي الستراتيجية التعبويّة، لأنه ليس من بلد عضو في حلف شمال الأطلسي، بما يكون نحن، على مستوى مباشرة بتنمية حقيقية قادرة لقواه التقليدية، وهذا هو الحل الوحيد الذي بقي لديه.

وفـي وضـع لـم يـساعد علـى إجـراء أي تنظيـم جديـد، كـان المحللّـون المـدنيّون فـي الولايـات المتحدة، يحكمون على استعمال الأسلحة النووية، انه استعمال غير ناجح، وينتهي إلى بسط تصعيد خطير للوضع، وكان حلفائها في الوقت ذاته يلحّون علينا باتخاذ سياسة منهاضة لنظرية واشنطن، وكانوا يصرّون ان يكون هناك ضمان للاستعانة السريعة بالأسلحة النووية، على ألاّ تستعمل فوق أراضيهم. وحتماً، فان المحادثات التي كانت قد بدأت في أواسط فريق التخطيط النووي « N.P.G » لحلف الشمال الأطلسي؛، كان على هذه المحادثات أن تصل في النهاية إلى تشعب حقيقي في الآراء. وان ماك نمارا هو الذي كان قد أوجد هذا الفريق ليسمح لحلفائنا المشاركة في إعداد سترتيجية نووية، دون أن يكونوا هم، قد قاموا بتصنيع أي منها. وفي شهر شباط من عام ١٩٦٩ وبمناسبة زيارة الرئيس نيكسون للندن، فان دنيس هالي، الذي كان حينئذ وزير الدفاع في بريطانيا العظمى، كان قد عرض وجهة نظر حكومته. وحسب رأي هالي يؤكد أيضاً على الأهمية الكبرى في إقناع السوفييت، قبل إقدامهم على اتخاذ أي قرار، ان الغرب يفضل الوصول الى اتفاق لاستعمال الأسلحة السترتيجية. أضف إلى ذلك، كان على حلف شمال الأطلسي، السعى لتحديد، في أقرب فرصة ممكنة، الخسائر المتوقعة. كما ان فريق التخطيط النووي كان يسعى أيضاً لإيجاد حلّ لهذه التناقضات، التي كان حلها الوحيد « في استعمال الأسلحة التعبوية بأعداد قليلة جداً، للتنبيه إلى أن الأمور كانت تسير إلى الأبعد والأسوأ ».

و ما كانت تمتدحه بريطانيا العظمى، بالاستناد الى المانيا الاتحادية اتخذ اسم « استخدام الارهاب » بالأسلحة النووية، وكان المقصود إطلاق قنبلة نووية على مكان منعزل، حيث يكون عدد الموتى قليل الأهمية _ فوق البحر الأبيض المتوسط مثلاً _ بمثابة تحذير. لم أعر أبداً هذا التفكير أية أهمية، لأني كنت على اعتقاد ان الاتحاد السوفييتي، كان ينتظر على كل الأحوال، ردّاً انتقامياً نووياً، في حالة مهاجمة أوروبا الغربية. وردّ الفعل هذا الذي لم يكن عسكرياً صرفاً كان يمكن ان يترجم الى تحذير لا إلى تدمير. وبدل ردع العدو عن الهجوم، ربما كان يشجعه عليه. واذا اضطرنا الي استخدام الأسلحة النووية، كان علينا اذاً الاستعداد لاستعمالها لإيقاف هجوم على أراضينا، وردّ فعل من قبلنا متردّد وغير ناجح يوشك ان يبقي لنا خياراً وحيداً : الاستلام أو الموت.

لكن ماذا كان يقصد بد فعل ناجح ؟ بسبب عدم الامكانية السياسية في تعبئة قوى التقليدية تفي بالمرام، فان الأوروبيين كانوا يعتبرون الأسلحة النووية الوسيلة الوحيدة لردع العدو، لكنهم في الوقت ذاته، كان يخشون استخدامها فوق أراضيهم. والذي كان ممكناً وضع حد له، كان يظهر

كارثه سياسية بالنسبة لهم. ومع التأكيد على المعظلة التي تطرحها الأسلحة النووية، فان حلفاءنا كانوا يتطلعون بالحقيقة الى الوصول على التزام من قبل الولايات المتحدة، بالاتجاه السريع الى الأسلحة النووية الاستراتيجية. وهذا كان يعني حرباً أمريكية سوفييتية تجري فوق رؤوسهم. وأمر كهذا لم يكن المخططون الأمريكان ليبقوا به حقاً. وان استراتيجيتنا منذئذ وحتى اليوم خطتها بعدم الالتجاء الي استخدام الأسلحة النووية الستراتيجية إلاً في آخر المطاف، عندما لا تبقي وسيلة سواها للدفاع عن أوروبا، وكان على هذه الستراتيجية السعي لإيجاد وسائل أخرى، لحمل العالم على تصديقنا في وسائل دفاعنا و السماح بتطبيق قوة متنوعة، اذ أخفقنا في هذا الردع.

وفي عام ١٩٦٩، توصلنا الى تسوية وقتية، والتي في الواقع، لو تحلّ الخلاف إلاً سطحياً : فلقد عزم فريق التخطيط النووي، أن يترك الباب مفتوحاً، أمام استخدام الأسلحة النووية التعبوية، سواء كان هذا الاستخدام ارهابياً أو فعلياً. وبعبارة أوضح، فان هذه الفريق لم يقم باتخاذ أي تقرير وكان ليرد محقاً، عندما أعلن للرئيس :

« ان الاختلافات في وجهات النظر، بين الأمريكان و الأوروبيون ستبقى على مدى طويل كما هي الآن » .

طالما ان المشكلة النووية، لم تجد طريقة لحلها، وربما لم تجد سبيلاً اليها، توصلنا عام ١٩٦٧، الى تكييف حقيقي في فكرتنا الستراتيجية، كانت له مضاعفات عميقة في سياستنا الخارجية. وقد بدأ فعلاً بمحادثات عالية المستوى في السريّة والستراتيجية العسكرية، والتي أصبحت إحدى المؤشرات الهامة التي كنا نرغب في اجرائها مع جمهورية الصين الشعبية.

عندما استلمت حكومة نكسون زمام الحكم، كانت الفكرة المسيطرة على القوى التقليدية، هي استراتيجية حربين ونصف، والتي بموجبها كانت الولايات المتحدة بحاجة لقوات كافية كالتالي :

١_ تأمين دفاع مبدئي لمدة تسعين يوماً عن أوروبا الغربية ضد هجوم سوفييتي.
٢_ تأمين دفاع مستمر ضد هجوم عام من قبل الصين في آسيا الجنوبية الشرقية أو في كوريا.
٣_ مواجهة أي حدث يطرأ في موضع آخر، في الشرق الأوسط مثلاً.

وكانت تقوم هذه الستراتيجية في الواقع، على ما كانت تخفية الأحداق السياسية، علماً اننا كنا نجد انفسنا أمام شيوعيى متراصة، وحرب عامة، يمكن ترجمتها بهجوم مفاجيء من قبل الاتحاد السوفييتي والصين ضد مصالحنا الحيوية. وفي الحقيقة، اننا لم نحاول أبداً تحديد القوى التقليدية التي كانت تستلزمها الستراتيجية الطامحة. ان سياسة حربين ونصف، كانت في الواقع، في المجال العسكري، قضية تدريب، خصصت بموجبه بعض فرق لأوروبا والبعض الآخر لآسيا. ومع ذلك كانت نتيجتها الرئيسية تنظيماً بسيكولوجياً. لا يسمح لنا بتناسي التهديدات السوفييتية والصينية بنوع معقد جداً، يجعلنا مع أي تحليل لاحتمال مستخدم الأسلحة النووية، نعتقد ان الاتحاد السوفييتي و الصين لا يشكلان سوى هدف أرضي وحيد. وسياسياً، هذا ماكان يمنعنا من جهتنا، ان نعتقد بتلك الاختلافات التي تظهر بين حين و آخر بين الشيوعيين العملاقين، والفرص التي تبدو ممكنة لدى الولايات المتحدة.

ان أولى المبادهات التي قمت بها، عندما كنت أقوم بعمل مستشار أمن، كانت اجراء تحليل للنظريات التي كانت ترتكز عليها فكرة قبول حربين ونصف. فتقدمت لجنة بيوزارية بخمس ستراتيجيات عمل، أنقصتها أنا ومعاوني الى الثلاث. وكل ستراتيجية بديلة، كانت تحلل من خلال

الظروف والملابسات التي تسمح لنا بمواجهتها، وفي ضوء إمكانية تطبيق موازنتها. وكانت استراتيجيات حلف شمال الأطلسي، تتضاعف، حسب التنظيمات المختلفة، لستراتيجيات آسيا. ثم تنسق هذه التنظيمات مع مشاريع النفقات القومية، بنوع ان الرئيس كان يتمكن بان المقارنه في أضرار التخلي عن ستراتيجية خاصة في سبيل تنفيذ برنامج قوي محدد. وها انا اعطيكم في ما يلي ما كانت تقوم عليه هذه الستراتيجيات الثلاث.

ـ الستراتيجية الأولى : الحفاظ على قوى تقليدية في سبيل دفاع مبدئي : ( ٩٠ تسعين يوماً ) عن أوروبا الغربية، ضد هجوم سوفييتي كبير، وفي آن واحد، لمساعدة ( بعون منطقي وبقوات قتال امريكية محدودة ) كل باد متحالف في آسيا، ضد تهديد غزو صيني آخر واسع المدى.

الستراتيجية الثانية : الحفاظ على قوى ذات كفاءة : سواء لدفاع مبدئي عن حلف الشمال الأطلسي، وسواء للدفاع ضد هجوم عام من الصين في كوريا أو جنوب شرقي آسيا. وبكلام آخر لن نحتفظ بقوات تتمكن من القتال على مستوى عالٍ في أوروبا وآسيا دفعة واحدة.

ـ الستراتيجية الثالثة : ( لاسيما تلك التي كنا نسير بموجبها قبل حرب فيتنام ) الحفاظ على قوى أمريكية، لدفاع مبدئي عن حلف الشمال الأطلسي أضف اليها دفاعاً عن كوريا وشرق آسيا، ضد هجوم عام من قبل الصين. وكان على هذا القوى ان تكون ذات كفاءة، لمواجهة في آ،واحد : التهديد الخطير الناجم عن أعضاء حلف وارسو، أو الصين.

وفي الثاني من شهر تشرين الأول، وجّهت كتاباً للرئيس، اختصر له فيه هذه الخيارات مع الامكانيات تطبيقها في الموازنة. وكان الأجهزة الوزارية، وجهات النظر مختلفة، أوردتها في أيضاً بدقة، لكن الرئيس، كان يرغب كعادته في معرفة رأيي، عندما تعرض عليه خيارات عدّة. فأكدت عليه ان يتبع الستراتيجية الثانية « اذا اني كنت اعتقد بعد احتمال هجوم تقليدي من حلف وارسو في أوروبا والصين في آسيا في آن واحد. وعلى كل الأحوال، لم أكن أفكر ان هجوماً كهذه اذا حصل، تمكن مقابلته بأسلحة أرضية ».

اتبع الرئيس نكسون نصيحتي، وهذا كان أعظم قرار اتخذه طيلة مدة ولايته. ان الفكرة والكفاءة كانتا متماثلين أولاً، ولأننا نحدّد ونقدّر أبداً، القوات التي كان يفرضها مبدأ حربين ونصف : والفارق الذي كان موجوداً بين هذه الفكرة وسياستنا الحقيقية، ليس له سوى زرع بذور الارتباك في نفوس المهاجمين، وجرّ أخطار عظيمة اذا حاولنا تطبيقه فعلاً. ولا شيء كان

يحملنا على التصديق في ان الصين والسوفييت يقدمان على مهاجمتنا في آن واحد، ولكن اذا تحقّق واقعياً، يجب علينا حينذاك مواجهة خطر تهديد التوازن العالمي. أضف الى ذلك، فاننا ضمن الظروف كهذه، سنحدد موقفنا وعملنا في الخوض غمار حرب تقليدية في منطقتين متباعدتين جداً، الواحدة عن الأخرى، مما يضاعف خسائرنا.

ان تطبيقات قرار نكسون السياسية كانت بعد أكثر أهمية. كان علينا، في الواقع، ان نتخلص من فكرة ثابتة نحو شيوعية متراصة. وعند جمعنا للأهداف السوفييتية و الصينية، نوجه مفترضات تحدّد مرونة سياساتنا، ولا تتفق مع فكرة العداء والتنافس الكائنين بين القوتين الشيوعيتين الكبيرتين. وفي تعديلنا الاتجاه ستراتيجيتنا، سنظهر لجمهورية الصين الشعبية، اننا نميّز بين أهدافنا وأهداف الاتحاد السوفييتي، وان سياسيتنا العسكرية لا تعتبر أبداً ان الصين هي بمثابة تهديد رئيس لنا. لم تظهر بكين أبداً، انها متهمة لهذه التغير في مبدئنا، وغير معقول ان اخصائييها المهرة في الجغرافيا السياسية، لم ينتبهوا لهذا، وهم الذين يحللون بدقة، أقل التصريحات العامة الصادرة عن الولايات المتحدة. وليس علينا أيضاً الاكتفاء بالإعلان عن هذه الاتجاه الجديد في إعداد سياستنا العسكرية تجاه حرب نووية وتقليدية في آن واحد : ولتبديد جميع الشكوك من افكارنا، قمنا بمبادرة غريبة، فوضحنا جميع أفكارنا في الثمن عشر من شهر شباط ١٩٧٠ في أول تقرير حول السياسة الخارجية[٢] أصدره الرئيس للكونغرس. وها هي الجمل التي افتتح بهذا التقرير :

« من خلال جهودنا للتنسيق بين المبدأ و الكفاءة، اخترنا ما يمكن تسميته بل وصفة بستراتيجيتنا « حرب ونصف » بما معناه، اننا سنحفظ في أيام السلم، بقوات ذات هدف عام قادرة في آن واحد، على مواجهة هجوم شيوعي هام، سواء في أوروبا أو آسيا. ومساعدة حلفائنا في حال تهديد غير صيني في آسيا، والتفوق مع الاستعداد لكل خطر محتمل الوقوع في العالم.

ان هذه السياسة قد اختيرت على أساس الاعتبارات التالية :

ـ قدرة قواتنا النووية الستراتيجية والتعبوية تردع السوفييت عن القيام بهجوم واسع المدى ضد البلاد الأوروبية لحلف الشمال الأطلسي، وتردع الصين عن مهاجمة حلفائنا في آسيا.

ـ ان هجوماً منسقاً بين الصين وروسيا، تقومان به على جبهتين ضد حلفائنا، بعيد الاحتمال، بسبب أخطار حرب نووية، وبسبب لا احتمالية تعاون صيني ـ سوفييتي .....».

أضف الى ذلك، فان أوروبا الغربية ـ وليس آسيا ـ حدّدت هدفاً ممكناً لهجوم محتمل. وبالاختصار، فقد كنا قلقين بزيادة من خطر سوفييتي. أكثر من خطر صيني.

وحول ذلك ، كنا ارسلنا للصين اعلاناً هاماً : من الآن وصاعداً لن نشرك تلقائياً جمهورية الصين الشعبية في نزاع ما مع الاتحاد السوفييتي. سنعامل خصومنا، بنتيجة أعمالهم ضدنا، وليس بحسب ايديولوجياتهم. اننا نعرف علناً الاختلافات الكائنة بينهم وعدم امكانية التنسيق بينهم. وقد مددنا يد المساعدة للصين.

# نظريـــة نكســـون

ان الستراتيجية الجديدة، حدّدت القوات الواجب اعدادها. وخلافاً لما كان يجري في السنوات ١٩٦٠، فقد وصلنا في الواقع الى المستوى المطلوب من حيث تنمية قواتنا. وبقي علينا مع ذلك ان نوّفق بين رغباتنا ومصالح حلفائنا وأصدقائنا، لاسيما في آسيا. وعلى العكس آراء بعضٍ من نقادنا القوميين، فان الأقطار المهددة، كانت تعتبر انسحابها من فييتنام حدثاً لا عكسية له، وتخشى في الوقت ذاته ألاً يصل الأمر بالولايات المتحدة ان تتخلى عن كل مسؤولياتها، ومصالحها في هذا القسم من العالم. وكانت أقطار غير متحالفة معنا، تتسائل عن كيفية اتخاذنا للإجرائات الأمنية المستقبلية في المحيط الهادئ، وهل ستتخذ ضمن حدود شرعية دقيقة، لا علاقة لها إلاً بالأقطار التي لنا معها التزامات ؟ وماذا سيحدث للأقطار ذات الاستراتيجية الهامة مثل اندونيسا والهند ؟ وتلك الأقطار التي كنا مرتبطين وإياها بالتزامات كانت تتسائل أيضاً عن كيفية ترجمة هذه الالتزامات إلى أفعال.

وبالرغم من التهجم علينا حول الارتباطات الأمريكية، ومحاولة إرغامنا على تخفيض التزاماتنا حتى مع حلف شمال الأطلسي، فان كل هذه الأمور كانت بعيدة كل البعد عن أفكارنا بل تافهة وغير مرغوب فيها. ولو أبدت الولايات المتحدة رغبتها في التخلي عن القيام بدورها في آسيا، فستحدث طبعاً تغيرات سياسية، حتى في التطور القومي للأقطار الرئيسية في هذه المنطقة. ومن جهة أخرى، لا يظهر مجدياً تحديد سياسية دفاع جماعي، لا تمتنع بموافقة قومية.

عندما بدأنا باتخاذ الاستعدادات اللازمة لسفر نكسون الى آسيا، في صيف عام ١٩٦٩ ، أخذت في مناقشة الرئيس حول هذه المشكلة. ولقد توصلنا الى النتيجة التالية : من الهام جداً ان نميز بين أسباب ثلاثة تعرّض أمننا للخطر : الاضطراب الداخلي، الهجوم الخارجي من قبل قطر آسيوي مجاور، وعدوان بقوة نووية ( أعمني من قبل الاتحاد السوفييتي أو جمهورية الصين الشعبية ). وفي حال تعرّضنا لتهديد خطير لأمننا، علينا أن نؤكد معارضتنا التي لا تتغير، للأهداف العدوانية، من قبل أكره قوة في آسيا. وعند تعرض أمننا لتهديد أدنى، علينا اجتناب أي التزام في حروب أهلية. وبخصوص الأقطار غير المحددة بين الاثنين، فان صيغة بسيطة من

الاجراءات لا تكفيها، واجتهت نيتنا باديء ذي بدء الى إعداد خطاب رئاسي، في فترة أو أخرى من هذا الصيف لمعالجة هذه المشاكل. وفي الثالث عشر من شهر تموز، وعندما جرى اجتماع في البيت الأبيض لاستقاء المعلومات، رسمت الخطوط العريضة لموقف الحكومة حيال آسيا وما بعد الحرب فييتنام :

« ان تحديد الطبيعة الالتزامات في الولايات المتحدة، يؤدي غالباً الى مناقشة التزامات غير شرعية، ولكن على مستوى أعمق، أي على مستوى الذي يتعلق بالرئيس مباشرة، اذا كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والأقطار الأخرى، يتوقف قسم منها على العلاقات الشرعية، فانها مع ذلك أكثر ارتباطاً بما تضمره الولايات المتحدة من قيام بدورها في العالم، ومن أهمية الأقطار المرتبطة بها عندما يقصد تأمين الأمن والتقدم للجميع.

وأكدت على وجوب اجراء دراسة، لمعرفة كيفية مواجهة هذه البلاد لمستقبلها الخاص بها. وفي الحقيقة، لو تأملنا، في السنوات العشر القادمة، يظهر جلياً ان مستقبل آسيا، والجنوب الشرقي منها، حيث نحن عازمون على الذهاب، يجب ان يتوقف مستقبلها، لا على الإرشادات التي تمليها واشنطون لكن على نشاط وحيوية وروح التعاون بين البلدان هذه المنطقة.

سنبقى على استعداد لتقديم عوننا، لكننا لا نستطيع من ايجاد جميع الأفكار وجميع الموارد. واجب على هذه المنطقة ان تظهر جهداً أكثر لتقديم كبادرة ما. ولهذا السبب، يتضح من الأمية بمكان التحديد الطريقة التي نرى مستقبلها من خلالها ».

وفي الخامسة والعشرين من شهر تموز، كانت مفاجأتي كبرى، عندما ناقش نكسون هذه المشاكل، خلال ما كنت أتوقعها محادثات لا رابط بينهما مع الصحافة، وفي مؤتمر للضباط في عام. وتوجيهنا في طريقنا الى الفيليبيّن، وكان ذلك بعد يوم طويل من السفر، استقام عدّة ساعات، كما اجتزنا عدّة مناطق زمنية، ومرورنا على جزيرة جونستون لمشاهدة الهبوط في البحر، لأول رجال مشوا على القمر. وصرّح نكسون في هذه المناسبة، « اننا شاهدنا أغرب اسبوع في التاريخ منذ خلق العالم » . تصريح أذهل دليل الفريق. واليوم أيضاً، اعتقد ان نكسون لا ينوي الادلاء بتصريح رسمي، فقد ظهر ذلك في الواقع، عندما ناقش القضية في سياق مؤتمر صحفي رسمي. لكن نكسون وقد تحمس من تأثير جوّ المؤتمر، فقد توصل الى الاعلان بدقّة وببلاغة، عن اهتمامه وطرقة معالجته للقضية الأسيوية، وحسب وجهة نظره، فان ماكان يمثل خطراً عسكرياً

عاماً في آسيا هو : بلد كبير : الصين الشيوعية، وبلدان نسبياً صغيران : كوريا الشمالية وفييتنام الشمالية، وصرح مع ذلك قائلاً : يجب علينا ان نبتني نوعاً من السياسة، يجعل الأقطار الآسيوية مرتبطة بنا، حتى لاتجد انفسنا مجبرين على الدخول في نزعات تشبه نزاع فييتنام. وكما كان منتظراً، فان مراسلي الصحف وجهوا اليه استفسارات فأجاب :

« اعتقد ان الساعة قد أزفت بالنسبة للولايات المتحدة، في مجال ارتباطاتها مع كافة أصدقائها في آسيا، أن توضح رأيها في نقطتين : سنحترم اولاً جميع التزاماتنا، التي ارتبطنا بها بمعاهدات، ومثلاً مع تايلاند، ضمن الحلف الآسيوي، ولك أيضاً في الحدود التي يقصد بها مشاكل الأمن الداخلي، أو مشاكل دفاع عسكري، وفي كل مرة باستثناء تهديد تقوم به قوة كبيرة، ويتطلب استخدام الأسلحة نووية. وان ولايات المتحدة تشجع شعوب آسيا، وتعطي نفسها ان تنتظر منا تسوية مشاكلها، أكثر فأكثر بنفسها وتتحمل مسؤوليتها ».

أضف الى ذلك، فان هناك ما لا يسمح لنا باتخاذ اجراءات في حال عدوان لا تقوم به قوة نووية، أو حركات انقلابية داخلية. واقترح نيكسون بتحميل مسؤوليته ذلك لتنظيم أمن جماعي آسيوي يتواجد خلال الخمس أو السنوات العشر القادمة. وفي الوقت الذي يطلب فيه مواجهة تهديد لا تقوم به قوة نووية ..... فهذا هو الهدف الذي يجدر ان تصل اليه شعوب آسيا الحرّة والمستقلة، والذي يوجب على الولايات المتحدة تقديم دعمها حين حدوثه. وتجنب الرد على السؤال ظهر فجأة : وما العمل خلا المدّة التي تسبق ظهور هذا التنظيم الأمني ؟

وما كان لنكسون ليتوقع أهمية ردود الفعل التي استوجبها تصريحاته التي أدى بها مصادفة خلال محادثة غير رمية. ولقد تركت أثراً عميقاً، بل كانت محور جميع المحادثات التي جرت معه في آسيا. انذهل نكسون أولاً من تأثيرها الحاسم، فحولها حالاً الى نظرية تحمل اسمه _ وفي الواقع لقد أمضى قسماً كبيراً من وقته ليتأكد من ان السمة الأولى « نظرية غام » استبدلت حالاً، في المصطلح الصحفي، بعبارة أكثر تأثيراً، تذكر بشخصيته، أفضل من ذكرها لمكان جغرافي. وانتهى الى اتخاذ ثلاث نقاط جوهرية من التصريحات التي أدلي بها فغي الخطابة في فييتنام، بتاريخ الثالث من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩، وتقريره حول السياسة الخارجية في الثامن من عشر من شهر شباط لعام ١٩٧٠ :

- ستحترم الولايات المتحدة كل تعهداتها المبرمة بمعاهدات.

ـ سنكون درعاً، عندما تهدد قوّة نووية حرية شعب حليف لنا، أو أي شعب يكون بقائه جوهرياً بالنسبة لأمتنا، أو أمن المنطقة بكاملها.

ـ وفي حالة أشكال أخرى من العدوان، سنقدم العون العسكري و الاقتصادي المناسبين، حالما يطالبان منا، لكننا ننتظر من الدولة المهددة مباشرة، ان تتحمل المسؤولية الأولى والمهمة وتجهز القوى البشرية اللازمة للدفاع عن نفسها.

وفي أحد المجالات، فان نظرية نكسون لم يتسع مداها، خلافاً لما ظهرت لأول وهلة. وفيما لو كنّا على استعداد لاحترام تعهداتنا المبرمة بمعاهدات، فان ذلك يشمل اليابان، كوريا الجنوبية، الفليبين تايوان، تايلاند، فييتنام الجنوبية. وعندما نعلن عن أنفسنا في الوقت الحاضر، اننا مستعدون للدفاع وحماية الأقطار غير المتحالفة رسمياً معناها، ضد أي هجوم نووي، فاننا بذلك نستجيب للقلق المسيطر على البلدان مثل : اندونيسيا، الهند وماليزيا، القلة من هجوم متوقع من الصين. وما نستخلصه من نظرية نكسون، هو مساهمة الولايات المتحدة التلقائية في كل حرب تحدث بين أقطار آسيوية. وتقديم كل عون عسكري و اقتصادي عند الاقتضاء. وفي عام ١٩٦٩، كانت الفكرة الرئيسية السائدة، في ان تمتنع الولايات المتحدة على كل تدخل في الحروب الأهلية:

ومن جهة أخرى، ولأول مرة، حدد تصريح رسمي وبدقة موقف أمريكا، عمّن هم من أصدقائها أو أعدائها. وفي المجال القومي، كان هذا التصريح جواباً مترابطاً مع الاتهامات واسعة الانتشار، التي كانت تستدعي انسحاباً، وكانت بالنتيجة تأخذ بعين الاعتبار مدى تطبيق تصريحات نكسون.

أضف الى ذلك، فان شعوب آسيا، حال تفهمها الحقيق لهذه التصريحات وهي التي تخشى انسحاباً أمريكياً، كانت تجد نفسها مطمئنة تماماً نتيجة تصريحات غام.

ومن سخرية القدر، فما الذين هم ضمن الحكومة وخارجها، وكانوا يتمنون انسحاباً غير مهين، أخذوا يوجهون اللوم والانتقاد لنكسون، حتى من خلال النظرية التي هو أتى بها. مثلاً، كان من المسلّى والمغيظ في وقت واحد، ان يسمح خلال المباحثات حول كامبودج، تصريح يوضح ان المساعدة الأمريكية، كانت ممنوعة، بنظرية تحمل اسم رجل يبدي اهتماماً بمساعدة قطر مهدد وهو نفسه لا يعرف هذا التعارض ....

وهكذا اذاً، في وسط خلاف قومي كبير حول قضية الدفاع، استطعنا حماية قواعد ساهمت في تنميتنا، عندما تغير المزاج القومي و مزاج الكونغرس. وحددنا استراتيجية عسكرية تتوافق مع قدرتنا وتسمح لنا بل تمكننا من مجابهة الأخطار الأكثر تقرباً. ولقد أعددنا بالاضافة الى ذلك نظرية أمنية في المحيط الهادي، التي تقدم ضمانات جديدة لحلفائنا وأصدقائنا. ومن كل ما حققه نكسون خلال ولايته الأولى ، فاني اعتبر حماية مراكزنا الحساسة لقدرتنا العسكرية في المقام الأول . وبدونها ، فكان كل الجهود المبذولة لتخفيف الضغوط ، كانت دون جدوى ولم يكن الاعتدال إلا بفضل هؤلاء الذين تظهر لديهم امكانية الخيار .

## ـ ٨ ـ

# أهــوال وآلام فييتنـــام

حتى اليوم ، لا أتمكن من الكلام عن فييتنام ، دون ابداء ألم وحزن عميقين .

وفي بدء فترة استلامنا الحكم ، كان أكثر من نصف مليون أمريكي يقاتلون هناك على بعد ستة عشر ألف كيلو متر من بلادهم ، وهذا العدد كان في تعاظم بموجب خطة رسمها أسلافنا . ولم يكن بادياً في الأفق أية فكرة انسحاب لقواتنا ، وكانت خسائرنا في ارتفاع حتى وصلت الى واحد وثلاثين ألف رجل ، ومهما كانت غايتنا في بدء الحرب ، فان قابلية تصديقنا لما يجري خارج حدودنا عام ١٩٦٩ ، وامكانية قيامنا بتعهداتنا ، وتلاحم شعبنا ، كانت كلها مهددة بقتال كنا تخوضه ، في قطر كائن بعيداً عنا جداً .

لقد تورطنا مبدئياً ، بموافقة الكونغرس شبه الاجماعية ، والرأي العام وبقية الشعب . لكن بلدنا في عام ١٩٦٩ ، زعزعتها موجة من النزاعات والرعب ، وأضفت عليها شكلاً مخيفاً وخطراً . واختفى إجماع الآراء ، الذي بدونه لايتمكن مجتمع ديمقراطي ان يعيش . وصعب على الدولة أن تحكم دون نزر قليل من الثقة ، وكانت هذه الثقة قد أخذت تتقلص ، بسبب قسوة خيارانا ، والعنف المتزايد في حرب كلامية كانت سائدة في بلدنا .

ربما يجيء اليوم ، الذي يشرح لنا فيه علماء النفس وعلماء الاجتماع ، ما يجب علينا وضعه أمام عيوننا ، عن هذه الأرض البعيدة ، أحادية الطول الموجي ذات الجبال والسهول الخضراء ، الغائصة في بحر لازوردي ، والتي منذ آلاف السنين ، تتعامل بمحبة مع الغرباء والوافدين اليها ، الساعين في طلب الثروة والمجد ، فوجدوا فيها الخيبة والغش : وكانوا على اعتقاد من نشر مبادئهم في تلك الغابات الكثيفة وحقول الرز ، لكنهم ما إن دخلوا حتى خرجوا منها بخيبة أمل مرّة . وما الذين أوحى بهذا الحماس العابر والمثابرة ، ولعدد كبير جداً من البشر قادمين من آفاق مختلفة ذهبوا الى هناك باحثين عن مفتاح اللغز ، وصمدوا بعنادٍ قاسٍ ، فلم يفشل فقط جهود الأجانب ، بل عرضّ للخطر الشديد أمنها الداخلي .

ذهب أسلافنا إلى تلك الأرض بنية ورغبة صادقتين ، وهم على اقتناع ان هذه الحرب الأهلية القاسية ، كانت تظهر الجهة المرئية من مخطط تكافؤ عالمي . وقد تبين لهم بعد أربع سنوات من القتال ، انهم كانوا غير قادرين على اختطاط ستراتيجية تعطيهم الغلبة ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك اليوم : ان الوصول إلى النصر مستحيل . لقد حاولوا كثيراً البرهنة عن قوة وصدق الأمريكان بصورة ملموسة ، لكنهم لم يجربوا وضع أي حدّ لمغامراتهم . وخلال السنة الأخيرة من حكم جونسون ، كان الشيوعيون قد قاموا بهجوم عام في كل القطر : هناك اخصائيون قليلون بهذا الأمر ، ينكرون اليوم ان ذلك كان هزيمة ساحقة ، لكن عظمتها والتضحية التي كانت تتطلبها ، جعلتا منها نصراً بسيكولوجياً . وفي غمرة التأثير الحاسم لهجوم رأس السنة الفييتنامية ، بدأنا بتقليل القصف على الشمال ، قبل إيقافه كلياً ، دون الحصول على شيء من الجانب الآخر ، سوى افتتاح مفاوضات ، أصبح خصمنا اللدود من جرائها ضمن مأزق . وأخذ الرأي العام ينكر علينا قليلاً فقليلاً خوض حرب ، ليس فقط لن ننتصر فيها بل أيضاً ، لا نستطيع إيقافها .

وكانت المعارضة تتفشى داخل حدودنا . وكانت عدة تيارات تشترك في تأليفها : المسالمون الصادقون ، الذين لم يكونوا ليتحملوا رؤية بلدهم ترمي بنفسها في مذابح على بعد آلاف الكيلو مترات من هناك ، ويساندهم بذلك الذرائعيون الذين لم يكونوا يتوقعون أية امكانية للخروج منها ، والانعزاليون الذين كانوا يتمنون وضع حد لالتزاماتنا عبر البحار ، والإيدياليون الذين كانوا يعتبرون عدم تكافؤ قدرتنا مع أهوال الحرب ، كان ينقلها لهم التلفزيون حرفياً ولأول مرة الى مساكنهم . وكان يتوسط كل هؤلاء الفرقاء ، أقلية ضئيلة ، كانت تبدي رعبها الشديد من الأعوام ١٩٦٠ ، بطرق مرّ وقاسٍ ، مع إظهار حقد على أمريكا ، في الطريقة التي تتبعها والخراب الذي تسببه ، وكل هؤلاء الفرقاء مجتمعين ، كانوا قد وحّدوا جهودهم لإثارة الناس ضدّ إخفاق مؤتمر الحزب الديمقراطي عام ١٩٦٨ ، ويظهرون غضبهم ضد تحديد وتقليل الطبقات المدبرة ، التي ساندت المبادرات الكبرى الأمريكية ، بعد الحرب في السياسة الخارجية .

كان إرث ريشارد نيكسون من مخزن البارود هذا . إذ كان طبعاً بين أقل المرشحين للرئاسة قدرةً ، على إظهار بادرة مصالحة ، مع فرقاء المعارضة الأكثر تعقلاً . وكان يعتقد بنفسه ، مهما كانت الأسباب ، انه الهدف لمؤامرة رئيسية ، ترمي إلى إقصائه ، وكان من المستحيل عليه ، اعتبار القلق الذي سببّته حرب فييتنام ، شيئاً آخر ، سوى أنه متابعة للكفاح المستمر الذي يثار ضد وجوده السياسي ، وبالرغم من تعاطف ، اكثر الذين كان يظنهم خصومه ، ومشاركتهم فيما كانوا

يبدونه من قلق ، فانه لم يتوصل الى تكوين ثقة بنفسه ، ولا ان يبرهن عن عزة نفس للتقرب منهم .

وعلينا ان نصدق بقولنا ، لم يأته عون من أحد . وبعد كل هذا فان يوبرت هامفري ، الذي سعى دوماً لاجراء المصالحة ، لم يعامل بأحسن عند حملته للانتخابات الرئاسية . أضف الى ذلك ، عندما استلم نيكسون الحكم ، فان الذين كانوا مبدئياً مع التزامنا في فييتنام ، أصبحوا في صفوف المحايدين ، ثم التحقوا بصفوف المعارضة ، ناسبين الى نيكسون مسؤولية حرب ورثها ، ويتهمون بسبب حلول لم يتخذوها هم أو طبّقوها ، عندما حانت لهم الفرص .

منذ بداية توليته الحكم ، عزم نيكسون على وضع حد لالتزامنا في فييتنام لكنه اصطدم سريعاً ، بالحقيقة التي كانت قد دمّرت سلفه ، علماً انه منذ ما يقرب من جيل ، فان أمن وتقدم الشعوب الحرّة ، كانا يتوقفان على الثقة بامريكا . وكيف السبيل إلى التخلص من مغامرة . رمت فيها نفوسها حكومتان وخمسة أقطار متحالفة ، وحيث كانت سبب موت واحد وثلاثين ألف رجل ؟ ولم ! وكان ينصحنا الكثيرون ، باتخاذي دي غول مثالاً لنا ونحذو حذوه : لكنهم كانوا يت ناسون ان دي غول بالذات ، قضى أربعة أعوام حتى تمكن من وضع حلّ للقضية الجزائرية ، معتبراً أن من الأهمية بمكان ، ان تخرج فرنسا من هذه التجربة ، وهي محافظة على تلاحمها الداخلي وبنيتها الدولية كاملين . وكان انسحاب فرنسا مجرّد عمل سياسي ، لا انهياراً ، ونتيجة قرار قومي لا هزمية .

وهكذا ، فان وضع حد للحرب ، كان أمراً كثير الأهمية بالنسبة لفرنسا . وبصفتنا زعماء التحالفات الديمقراطية ، كان يجب علينا أن نتذكر ، ان مجموعة الأقطار ، وملايين البشر ، في سبيل أمنهم ، كانوا يثقون تماماً في التزامنا بالدفاع عن حلفائنا ، وبصورة أصح ، على ثقتنا بأنفسنا ، وليس هناك من رجل سياسي رصين ، يتمكن من السماح لنفسه الوقوع في خطأ شائع يزيل المعنى الحقيقي لكلمات : ( هيبة ) و( شرف ) و( قابلية التصديق ) . و ان تتخلى قوّة قادرة عن بلد صغير وتتركه عرضة للاضطهاد ، فقط في سبيل تخفيف بعض الشيء من صعوباتها الداخلية الخاصة ، كان هذا الأمر يبدو لي ، ويظهر لي دوماً ، غير معقول أبداً ، ومن دأبه إزالة كل محاولة للاشتراك بتنظيم علاقات دولية ، وان يكون في آخر المطاف أضمن كفيل للسلام . لن يكون في مقدورنا تجديد حيوية حلف الأطلسي ، اذا كانت الحكومات التي تشترك فيه ، أخذت ترتاب وبصورة جادّة في قدرة أمريكا آنياً . وكيف نتمكن من حمل الأتحاد السوفييتي

على قبول اجراء تعديل متبادل اذا قبلنا نحن التراجع في نزاع ، كانت المجازفة بحرب غايته الأساسية ؟ وكيف نستطيع النجاح في انفتاحنا نحو الصين ، اذا كان دورنا في حفظ التوازن لاغياً ، بسبب هزيمة ، كنا نظهر من خلالها غير قادرين على حفظ الأمن في آسيا ؟ أما بالنسبة لتقدمنا السياسي في الشرق الأوسط ، فهو متوقف على قدرتنا باقناع حليفنا بامكانيات ، وإقناع خصومه بعدم خشيتنا لتهديدات الضغوط أو المساومة . وبكل وضوح ، كان الشعب الأمريكي يتمنى انهاء الحرب ، لكن كل الاستفتاءات . بما فيها انتخابات نيكسون ( وتصويت أنصار دالاس ) . كانت تظهر ان الأمريكان ، كانوا يعتبرون المبادئ التي اتبعتها بلادهم هي مشرفة ، ولا يروق لهم أبداً رؤية أمريكا في المدى القريب ذليلة . وكان على الحكومة الجديدة ، ان تأخذ بعين الاعتبار ، ليس فقط سيادة المعارضة للحرب ، بل كذلك عليها ان تعتبر قلق العوائل ، التي كان اولادها يتألمون ، أو قد فارقوا الحياة في سبيل بلادهم ، وان هذه العوائل ذاتها ، لن تقبل أبداً ، بعد تلقي ضربة ما ، ان تكون تضحياتهم قد ذهبت سدى .

ان مبادئ الشرف ومسؤولية أمريكا ، كان لهما معنى خاص بالنسبة لي ، وكنت أشعر بعظمتها . لقد وُلدت في ألمانيا ، في مدينة (فورث) البافارية ستة أشهر ، قبل محاولة انقلاب هتلر في ميونيخ ، عاصمة بافاريا . كان هتلر قد وصل إلى الحكم ، عندما كان عمري تسع سنوات . ومدينة نورمبرغ ، المجاورة لمدينة فورث ، كانتا ترتبطان جغرافياً وبسيكولوجياً كما هي عليه الحال مع بروكلين ونيويورك ، وكانت مدينة نورمبرغ على شهرة واسعة بانتمائها للنازية ، وبالتجمعات الحاشدة للمنتمين لحزب النازي المقيمين فيها ، وتنظيمات الحزب النازية العنصرية التي كانت وبكل أسف تعتبر عظيمة . وقبل الهجرة لأمريكا ، كان علي ان أقاسي وعائلتي عداء وتمييزاً عنصرياً متزايداً . فقد والدي وظيفته في التدريس ، بعد أن اجهد في سبيلها كل حياته . وابتعد عن أهلي أصدقاء طفولتهم . فأخذت اتردّد على مدرسة خاصة ، ومسيري في الشارع كان خطيراً ، لأن مواطنينا الألمان كانت لهم حرّية ضرب الأولاد اليهود ، دون أي حساب للشرطة .

وكانت أمريكا ، طيلة هذه الفترة ، تظهر متصفة بكل المزايا الجميلة : وفي طفولتي ، كنت اعتبرها حلماً ، ومكاناً جميلاً ، التسامح فيه طبيعي ، والحرية الشخصية مصونة حقاً . وحتى عندما علمت بعدئذ ان لأمريكا مشاكلها العظيمة لم يتبادر لذهني النسيان ، انها كانت الأمل والملجأ لضحايا الاضطهاد ، ولي أنا أيضاً ، ولعائلتي ، طيلة تلك السنوات القاسية والمذلة ، ولن تغيب عن ذاكرتي ، تلك القشعريرة ، التي أحسست بها ، عندما كنت سائراً ولأول مرة في

شوارع نيويورك ، وشاهدت فريقاً من الصبية الصغار ، فبدأت باجتياز الشارع ، متجنباً تلقي ضرباتهم ، دون العودة إلى معرفة المكان الذي كنت موجوداً فيه .

وكنت أشعر دائماً في أن أمريكا ، تمثل إحساساً خاصاً ، يعتبره جميع المواطنين الأمريكيين نابعاً منهم . فكيف يمكن قبول هذا الحقد الذي يهز مشاعر بلدهم ، متخذين حجة تصحيح خطأ تجربة ثمينة جداً ، وكان الأخذ بها مقدراً من قبل العالم بأجمعه ، ويشكل في الوقت نفسه جزءاً من حياتي . كمنت مغتبطاً جداً ، من وجود مناسبة أفي فيها ديوني نحو مجتمع ، كنت أعرف بعض هفواته ، لكني كنت أكن له كل الاحترام والتقدير مهما تقلبت الظروف : فكيف يستطيعون في الحقيقة ، تشويه عظمته في عيني ، ومثاليته ، وانسانيته والواقع الذي كان يجسد بالنسبة لي أمل الجنس البشري ؟

ان الهيجان الشعبي في البلاد ، الذي يسببه الخلاف حول القضية الفييتنامية ، أتعبني اذاً جداً . ولم اوافق على عدد كبير من القرارات التي أوصلتنا إلى مأزق الهند الصينية . غير أني ، كنت أقدر أن تعييني في هذا المنصب الخطير ، كان يفرض علي واجباً أن أضع حداً للحرب ، بطريقة تتماشى مع عظمة أمريكا ، ومع الفكرة التي كان يتمتع بها كل الرجال والنساء ، ذوو الارادة الخيرة ، من احترام لقدرة أمريكا والأهداف التي كانت تسير بموجبها . ومن الأمور الجوهرية ألا تذل أمريكا ، ولا تتحطم ، لكن يجب عليها مغادرة الأراضي الفييتنامية ضمن شروط ، يعتبرها خصومها مستقبلاً خياراً قومياً ، أقدمت عليه أمريكا ، في ظلال كرامتها واحترامها لنفسها . وبعكس ذلك ، فإن اللوم الموجّه إلي نتيجة ( تشاؤم تاريخي ) ، هذا كان في الواقع مسألة ثقتنا بأنفسنا وإيماننا بأنفسنا ومستقبلنا ، الذي كنت اعتبره ألعوبة إلى حين انتهاء النزاع مع فييتنام .

كنت أعتقد بالقيم الأخلاقية المتجسدة في بلدي التي تبنيتها ، كانت أمريكا البلد الوحيد بين جميع البلدان الحرّة قادرة على تأمين الأمن والاطمئنان ضد قوى الطغيان . ان أمريكا كان لها معاً : القدرة والقوة الأخلاقية والمعنوية القادرتين على تشجيع الشعوب الأخرى في كفاحها للحفاظ على هويتها وتقدمها وكرامتها . وفي الأعوام ١٩٣٠ عندما تعرضّت الديمقراطيات لخطر عظيم ، كانت أمريكا تنتظر من وراء الكواليس لمديد العون لها . أما اليوم ، فلا يوجد من يأتي لعون أمريكا ، اذا تخلت عن مسؤولياتها الدولية ، واذا استحقت ان تحتقر نفسها .

وخلافاً لمعظم معاصري ، كنت قد خبرتُ ضعف النسيج الاجتماعي الحديث : وكنت أوقن ان فك الارتباطات الاجتماعية ، وتهديم القيم الاساسية ، كانت تؤدي وتقريباً بصورة حتمية إلى التطرفية ، إلى اليأس والهمجية . يجدر بالشعب ، ألا يفقد أمله بنفسه . ان الذين يتمرغون في إنقاص قيمة مجتمعهم ، أو يجدون فيه تعديلاً لعدمية جامحة ، يخلصون عادة إلغاء جميع الحواجز الأدبية أو الاجتماعية وفي آخر المطاف ، لايبدون أقل اهتمام بجميع المعتقدات ، فانهم بذلك لا يزيدون سوى حجم الألم .

لم أكن قادراً على التصديق ، أن حرب فييتنام ، كانت مؤامرة اجرامية متسعة المدى ، كما كانت الفكرة الشائعة في بعض الأوساط . وحسب رأيي ، ان خوضنا غمار الحرب ، يجب ألا يفسر بهواس عسكري لكن بمثالية سامية ، ترمي إلى شفاء آلام العالم بكامله ، وباعتقادي ان الارادة الأمريكية الخيّرة تكفي لذلك . قمت بزيارة الفييتنام كأستاذ فلم أشاهد فيه أمريكان سفلة ، ولو كان يوجد من أمثال هؤلاء في جميع الحروب ، لكني شاهدت شباباً متفانين ، يجابهون الموت يومياً ، بالرغم من الانقسامات التي تزعزع بلادهم . اني احتفظ بذكرى عدد كبير من الأمريكان المثاليين ، الذين كانوا يعملون في ظروف قاسية ، لإيجاد حكومة لشعب صُعق أرضاً ، ولا يدري أين يتوجه ، ولوضع أسس لتنظيم صحّي ولتنمية بلدهم . وكنت أظن أن على أمريكا واجبات كثيرة نحو تضحيات هؤلاء أكثر بكثير ممن يعطونها أسواتهم . لقد رأى بعض النقاد في فييتنام مسرحية أخلاقية ، عوقب فيها الأشرار قبل إسدال الستار ، وكل محاولة لإنقاذ الكرامة قبل النهاية باءت بالفشل بالنسبة لمن كانوا يجسدون الشر . ورأيت أنا فيها مأساة حقيقية ، ولم يستأثر الغم بأحد .

فرأيت اذاً ان واجبي يقضي بمساعدة بلدي التي تبنيتها : في شفاء جراحها ، والحفاظ على وفائها ، وهذا يسمح لها مجدداً تكريس نفسها لمهام البناء العظيمة التي تنتظرها .

# ورطـــةٌ وجهـــاً لوجـــه

ان تحّسسي تجاه قضية فييتنام ، كان اكثر واقعية ووضوحاً ، بينما بالمقابل ، كان التقدير السطحي يؤدي بالحكومة إلى مغامرة ، ظهرت كلفتها أعلى من جميع التوقعات ، والمكاسب الممكن اجتناؤها منها . وكنت من جهتي أسهم في خيبة الأمل المتزايدة .

في بداية أعوام ١٩٦٠ ، لم أعر انتباهاً كبيراً لفييتنام ، انما أوربا والستراتيجية ، ومراقبة التسلح ، كانت المسيطرة على كافة اهتماماتي . ومن خلال المحاكمة العقلية التي استطعت تكوينها ، شاركت الرأي العام المتداول ، ان الحرب كانت محاولة من قبل فييتنام الشمالية للاستيلاء على فييتنام الجنوبية بالقوة . وهذا بالطبع كان رأيي . وفي هذه الفترة فان فكرة أرسال فرق قتال أمريكية لم تكن خاطرة لي ببال . وكما مر معنا في الفصل السادس ، فان حكومة جونسون كانت ترى في بكين انها هي التي توحي بالاعتدال على فييتنام . أما بالنسبة لحكومة كيندي التي كانت قد أرسلت ستة عشر ألفاً معتبرة إياهم أول المستشارين العسكريين الأمريكان ، وأغريت بظاهرة حرب العصابات ، بالرغم من انها أجبرت على البحث عن أساس لها في خطاب ألقاه نيكيتاخروتشيف في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦١ ، الذي أعلن فيه مساندته ( لحروب التحرير القومية ) .

وعندما أرسلت حكومة كيندي هؤلاء الستة عشر ألف مستشار إلى فييتنام ، أذكر انني سألت وولت روستوف ، الذي كان حينذاك مدير فريق إعداد التوجيه السياسي في وزارة الشؤون الخارجية ، سألته عن كيفية النجاح بكمية ضئيلة من الرجال ، في حين أن الفرنسيين فشلوا ومع عدة مئات الآلاف . كان ردّ وستوف جواباً ناشفاً وكأنه يفرض حلاً ، في ان الموظفين المتعبين ، يحتفظون لامثالهم ممن لا يعملون ، مثالية في ان يعمل كل حسب مقدوره ضمن أختصاصه . وشرح لي ، بطريقة من يعلّم أمياً الحروف الهجائية ، كيف ان الفرنسيين لم يكونوا يعيرون اهتمامهم لحرب العصابات ، وكانت تنقصهم حركية الفرق الأمريكية . فلم اتابع الحديث ، لأن مصلحة فييتنام كانت لديّ في هذه الفترة محدودة .

وكان علي أن انتظر قدوم شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٣ ، لأتمكن من ايجاد شيء هام ومفيد لأراجع به السياسة الحكومية : وهذا كان يتعلق بقضية ، حصلت في حينه على موافقة تامة . ولقد روعني الدور المباشر الذي قامت به الولايات المتحدة وبصورة مكشوفة ، في إسقاط رئيس فييتنام الجنوبية : ( نفودين دييم ) والذي تسبب بقتله . وجرنا هذا الطيش إلى الطريق التي لا نعرف أين توصلنا ، بتهديمنا الأساس السياسي اللازم لها . والتطهير الذي تبع هذه العملية ، كان يُقصد به فعلاً حرمان القطر من ادارته المدنية بكاملها . وبالنسبة لنا ، فان مسألة اعتبارنا شركاء باسقاط حكومة صديقة ، لن تكون حصيلته سوى فقدان ثقة حلفائنا الآخرين في الجنوب الشرقي الأسيوي . وكنت أتنكر لشرعية الأسباب التي حملتنا على الإقدام على اجراء كهذا كلعبة البوكر !! ان معارضي رئيس فييتنام الجنوبي ، بما فيهم القسم الأكبر من الصحافيين المقيمين في سايغوي ، كانوا قد تمسكوا بالرأي التالي : كان يجب إسقاط (نفودين دييم ) ، لأننا لا نستطيع متابعة الحرب ضد الشيوعيين ، بنشاط ومساندة الأهلين مادام الرئيس دييم باقياً في دفة الحكم . وفي الواقع فان أخاه كان يُتهم بتدبير مؤامرة مع الشيوعيين ، تماماً كما صدقت الاتهامات هذا الأمر بعد مرور سبع سنوات ، وأثارت النفوس على إسقاط حلف دييم : نيغوين فان تيو . ولكن بما ان الحرب لا تبرر ألا بالحفاظ على شرعية الحكومة غير الشيوعية في فييتنام الجنوبية ، فان الإقدام على إسقاط هذا كان طريقة إفرادية لكسب الحرب . ان المكاسب الحربية بعد إسقاطه لا تعادي خسارة النفوذ السياسي ، وسنصبح أدبياً أكثر ارتباطاً بالحكومة التي جلبناها للحكم . اننا نعرف اليوم ان هانوي وصلت إلى النتائج نفسها . ومع أننا ساندنا حرب العصابات ، فان هذه لم تستخدم القوات النظامية قبل سقوط دييم . وكنت أستعد لكتابة مقال حول هذا الموضوع ، اشير فيه إلى تصعيد خطير في وضع فييتنام ، ففوجئت بمقتل الرئيس كيندي ، ورأيت ان من المستحسن عدم متابعتة .

وفي عام ١٩٦٤ ، دعوت الحاكم روكفلر لتبّني موقف ثابت حول فييتنام إبان حملته للانتخابات الأولية . لم تكن لديه أو لدي فكرة واضحة حول ستراتيجية فعالة ، أكثر من مما نعتنا في ارسال فرق أمريكية . ومع ذلك ففي عام ١٩٦٥ ، كنت أحد الملتزمين جانب الصمت ، عندما وافقت أغلبية حكومية جونسون على اتخاذ قرار بارسال فرق لمساندة الالتزام نحو هانوي المعمول به حالياً .

وفي أول آب من عام ١٩٦٥ ، تخلّيت عن كوني متفرجاً عادياً ، عندما دعاني صديق قديم . وهو هنري كابوت لودج . الذي كان سفيراً في سايغون آنذاك ، لزيارة فييتنام بصفة مستشار تقني .

وتجولت في فييتنام ولأول مرة خلال أسبوعين ، في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني من عام ١٩٦٥ ، ثم عدت اليها نحو عشرة أيام في شهر تموز من عام ١٩٦٦ ، وقمت بهذه السفرة الأخيرة بناء على طلب افريل هاريمان . فترك لي لودج المجال حرّاً ، لدراسة موضوع خياري ، ووضع تحت تصرفي موظفي السفارة .

لم ابطئ بالأخذ بعين الاعتبار ، اننا نخوض غمار حرب ، لا نعلم كيفية الانتصار فيها ، ولا طريقة وضع حد لها . ان القواعد العسكرية المعادية في لاوس وكمبوديا ، كانت تحول بيننا وبين الوصول إلى هدفنا العسكري في حرب تقليدي ، أي مدير القدرة المقاتلة للعدو . ففي فييتنام الشمالية ، أثرنا حملة قصف كثيفة جداً ، قادرة على إثارة الرأي العام ضدنا ، لكنها تتأرجح وغير مضمونة لتكون فاصلة . ان خصومنا ، كانوا على مستوى مراقبة نهج العمليات العسكرية ، ومقدار الخسائر ، سواء كان في جانبنا أو في جانبهم ، وكاد يصبح مستوى الخسائر الأمريكية عنصراً حاسماً بنسبة الرأي العام الأمريكي .

أخذت أعتقد قليلاً فقليلاً ، ان الانتصار العسكري في حرب أهلية ، ليس لها أي معنى ، اذا لم تترجم إلى سياسة حقيقية تصمد لانسحاب آخر فريق . ولا يمكن البدء بمفاوضات إلا عندما تتيقن هانوي ، أن : طالما الحرب باقية ، فبقدر ذلك ترى نفسها في خطر فقدان نفوذها السياسي على الشعب المحلي . ووجدنا أنفسنا عرضة لمهمة خطيرة . بالنسبة للفييتناميين الشماليين والفييت كونغ الذين يقاتلون على أرض يعرفونها ، يكفيهم ان يصمدوا والبقاء أقوياء للسيطرة على الشعب عندما تكون الولايات المتحدة قد تعبت من هذه الحرب ، إن الهدف بالنسبة لنا كان معقداً كثيراً : فكان علينا أن نقاتل ، وفي الوقت نفسه إضفاء نفوذ وسلطة الفييتناميين، ليتمكنوا من العيش بدوننا، وبقول آخر، ليستطيعوا الاستغناء عنّا. ان المبدأ الأساسي لحرب العصابات يقوم على الانتصار منذ اللحظة الأولى، حيث لا تجوز الخسارة، أما بالنسبة لجيش نظامي، فان عدم الانتصار يساوي الهزيمة. كنا نخوض حرباً سياسية ضد الشعب مقيم. وكنت في شك منذ البداية، ان خبراء خططنا الحربية قد فهموا ذلك. ومتوجهاً الى فييتنام، في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٥، توقفت في مركز قيادة المحيط الهادي في هاواي، وبعد أول مؤتمر صحفي حول فييتنام، كتبت في مذكرتي :

« في الواقع، أصبح لديّ انطباع، أن ما من أحد جدير حقاً ان يشرح لي كيف، فيما لو سمح لنفسه بمعطيات كبيرة، كيف ستنهى حرب فييتنام ...... ولا اعتقد في الغالب، اننا وجدنا حتى

مبدأ الاجابة لقضية أساسية، التي هي في عداد التنظيمات البسكولوجية. ولديّ انطباع أيضاً ان الفييت كونغ والفيتناميين الشماليين، يجب ان يكونوا على أهبة أن يسيروا لأنفسهم انهم بعد عام ( أي بعد التدخل الأمريكي ) فيما لو فقدوا كل أمل بالنصر، فمن الممكن بل من الطبيعي، اذا استطاعوا تمديد أمد الحرب، سيصيرون إلى التغلّب علينا. وفي الواقع، كيف يمكن اقناع شعب، اننا مستعدون للبقاء إلى ما لا نهاية، على بعد ما يقارب عشرين ألف كيلومتراً عن بلادنا، لنقاتل خصومنا في بلادهم ؟ وإذا فشلت عمليتنا في المحيط الهادي، فلن تكون الخسارة بسبب تقني، بل لصعوبة تزامن الأهداف العسكرية والسياسية، في حالة تكون فيها الممكنة العسكرية المعقدة جداً غير مهيأة ».

ان الوحدات النظامية بفييتنام الشمالية كانت تشكل حسب رأيي، الهدف الرئيسي لعملياتنا العسكرية وتلعب دور الورقة الرابحة : إذا انها كانت تستدرج قواتنا إلى مناطق سياسية غير ذات فائدة، بينما ان تنظيمات الفييت كونغ، كانت تهزم حكومة فييتنام الجنوبية في المناطق المأهولة. ولدى عودتي من أحد أسفاري في إحدى مقاطعات فييتنام، في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٥، سجلّت في مذكرتي :

« من الواضح الجلي، ان هناك حربين متميزين :
١. تلك التي تنعكس عليها احصائيات الجيش حول طمأنينة الوحدات العسكرية.
٢. تلك التي تؤثر بالشعب.

والمعياران لا يتوازيان. فبالنسبة للجيش، الطريق مفتوحة اذا تمكن من متابعتها بمدّة بالقوافل. وبالنسبة للأهلين فالطريق أمامهم مسدودة، ما لم يوافقوا عليها دون دفع رسوم. تكون قرية آمنة في نظر الجيش اذا تمكن من تركيز قواتها فيها. أما أمن السكان فيتوقف على حمايتهم، ليس فقط من هجمات الوحدات الفييت كونغ النظاميّة، بل أيضاً من إرهاب الفييت كونغ ».

وفي حال غياب مقاييس النجاح، يأتي دور التحليل. عندما زرت مقاطعة إلى أي حد كانت مقاطعة أمنة، فأجابتني بافتخار : أن أمنها يوازي ٨٠٪ ثمانين في المائهة. وعندما سافرت ثانية إلى فييتنام في شهر تموز من عام ١٩٦٦، كان اهتمامي موجهاً نحو زيارة نفس المقاطعات، لأتمكن من تقويم التغييرات. ففي فين لونغ أعلمني حاكم المقاطعة نفسه، أن تقدماً عظيماً قد

أحرز منذ زيارتي الأخيرة، فسألته عن حدود أمن المقاطعة في هذه الظروف فأجابني أيضاً باعتزاز مثل المرّة الأولى، ان أمنها كان بحدود ٧٠% سبعين في المائة.

فأوجزت انطباعاتي في سفرتي الأولى، في كتاب مؤرخ في الثالث من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٥، وجّهته الى هنري كابوت لودج :

« قبل كل شيء، هناك مشكلة اجتماعية بل فلسفيّة، يبدي الفييتناميون احساساً صادقاً ان يكونوا شعباً على حده، لا أن يشكّلوا أمة. فيجب ان يكون هدفنا الرئيسي، اكتشاف كيفيّة بناء أمة. عندما يكون المجتع فريسة لحرب أهلية، ويجد نفسه ممزّقاً بمنازعات داخلية. كل الأقطار الصاعدة أخذت على عاتقها حلّ المشاكل وحدتها السياسية، ولم يقدم أحد على ذلك، مثل فييتنام، تحت نير الضغوط الساحقة » .

وفي الثامن عشر من شهر آب ١٩٦٦، فيما كنت عائداً من سفرتي الثانية إلى فييتنام، كتبت مجدّداً للودج : « تحملني الصراحة على القول، إني لم أجد أي تغيير هام في المقطعات .....» اذا أردنا كبقية الموظفين الأمريكيين تقدير الأمن من خلال قطر، فان هذا يعني معرفة خفايا سياستها. وربما ان عدم الخبرة مستشارينا في المقاطعات ( لا سيما من تكون خدمتهم قصيرة حتى اذا أصبحوا على بعض الخبرة، يطالبون بلمغادرة ). ان جهودنا عاني من نقص في المنظور السياسي. اضرب على ذلك مثلاً. فان بعض المناطق المحسوبة من المسالمة، فلم تصبح كذلك إلا بعد أن أرى الفييت كونغ، عدم تدمير الزراعة، في سبيل تغذيتهم، ولأنهم كانوا يوحدون الضرائب عليها. وأضفت إلى ذلك بعض التوصيات : على السفارة ان تحاول تقدير الأمور بطريقة أكثر دقة، عما كانت تجربة في الماضي على الأمن. وعلينا تعزيز الادارة المحلية وتحديد الأفضليات بوضوح. ويلزمنا كذلك وبسرعة كليّة استراتيجية للمفاوضات التي كانت الحكومة تظهر نفسها جادة على بدئها، لأن المفاوضات ستكون البداية، لا نهاية مصاعبنا .

كانت لديّ بعض الخبرة على القضيّة، طالما اني كنت أعمل لمدة لدى الفييتناميين الشماليين.

ومن شهر تموز حتى شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧، طلبت إلى حكومة جونسون القيام بدور الوسيط، لأقوم ببعض الجهد للبدء بالمفاوضات، فأرسلت رسائل عن طريق مثقفين فرنسيين اثنين من معارفي، كان لأحدهما ارتباطات مع « هوشي مين » في الأعوام ١٩٤٠، وكان في ضيافة

عند قدومه إلى باريس لأجراء مفاوضات مع الفرنسيين. ولقد فوضت بالطلب إلى أصدقائي الذهاب الى هانوي، واقترح أسس لوقف القصف الأمريكي تكون بمثابة تمهيد للمفاوضات. فذهبنا و التقينا « هوشي مين ». وبعد عدة أشر، قمت برحلة نظامية الى باريس، لنقل مراسلات أو لأخذ أجوبة عن الفييتناميين الشماليين. وأخفقت المحاولة آخيراً، لكانها كانت خطوة على طريق الاتفاق الذي مهّد فتوصلنا بعد عام، إلى وقف إطلاق النار والبدء بمحادثات السلام .

وعندما بُدىء بهذه المفاوضات، أعلنت عن وجهة نظري في نهاية عام ١٩٦٨ في مقال نشرته مجلة الشؤون الخارجية، كنت كتبته قبل تعييني ولم ينشر إلاّ الآن. وبينت فيه استنتاجاتي الاساسية وها هي :

ـ ان استراتيجيتنا العسكرية غير قادرة على الوصل بنا الى النصر .

ـ يجب علينا توجيه عملياتنا العسكرية نحو أهداف تؤدي الى المفاوضات دقيقة البيان.

ـ لن يكتب البقاء لحكومة فييتنام الجنوبية، إلاّ اذا قامت بإعداد منهج سياسي، يتمكن الفييتناميون الجنوبيين غير الشيوعيين من الاشتراك فيه

ـ على الولايات المتحدة أن تعهد للفييتناميين الجنوبيون بمسؤوليات مكثفة في ادارة الحرب.

. اذا أبدأت هانوي تصلباً بلرأي في المفاوضات، واذا استمرت الحرب، يجب علينا السعي في الوصل . ومن جانب واحد . الى الظفر في أكبر عدد من أهدافنا .

. علينا تركيز جهودنا إبان المفاوضات، حول الأمور العسكرية، ومنها وقف إطلاق النار مثلاً، تاركين للفرقاء الفييتناميين موضوع تقسيم السلطة السياسية.

وإلى حدّما، كنت متفقاً مع المنتقدين السياسيين من أقصى الجانبين. ان حكومة جونسون، من خلال ادارتها للحرب، قطعت الأمل من كل فرصة تسمح لها بانتصار عسكري تقليدي، وعينت حداً أعلى . لعدد قواتنا المسلحة وقبلت بوقف إطلاق النار. ان انسحاباً مشرفاً يتوقف على مهارتنا، في إيجاد اسباب سياسية معقولة لحمل هانوي على قبول تسوية، الأمر الذي يصبح معه مستحيلاً للكشف عن موقعنا العسكري، على تلك الأراضي كبنية سياسية ثابتة. وعلى طاولة المفاوضات يجب علينا الاعتماد على مساندة الرأي العام الأمريكي، ليتضح الأمر جيداً لهانوي، انها لن تربح شيئاً اذا جرتنا الى المحادثات طويلة الأمد. ان الحفاظ على جميع هذه الأسس ثابتة مع السعي لإنهاء مشاكلنا، سيكون عمل كل حكومة مهما كانت.

وبعد هذه الفترة، أي نحو شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩، أصبحت منهمكاً اكثر فأكثر بأمور الحرب، وكنت أجتنب كثيراً من الانتقادات على عدة جوانب. ولن أكن من أنصار انسحاب غير مشروط. وفي عام ١٩٦٩ كانت القوات الأمريكية أكثر من نصف مليون رجل، وكانت تعد القوات الحليفة أكثر من سبعين ألفاً الذين لاقوا الموت، كل هؤلاء كانوا قد بتّوا بمسألة معروفة عمّا اذا كانت هناك أهمية لايجاد مخرج لقواتنا ولتلك التي تتعلق بنا. ولم أكن من جانب العديد من النقاد، الذين يعتقدون ان الاسلام يتوقف على ابداء ارادة حسنة من قبلنا. وعناد مفاوضي هانوي، الذين كانوا يعايشون دوماً القتال، ولم يكونوا يعتبرون ان التسوية نوع من العمل الاخلاقي. وهم الذين لا تزال تدغدغ نفوسهم الاساطير المثيرة من التاريخ الفييتنامي، تاريخ صنعته الحروب ضد الصينيين، والفرنسيين واليابانين ونحن الآن، ولقد احتفضوا خلالها بحماسهم مصنعاً لا جدال حوله، حالمين بالانتصار. فلم يكونوا ليقبلوا التسوية دون حساب دقيق وضرورة ماسة. ان السلام نتيجة مفاوضات لن يحصل إلاّ بعد موازنة بين اضرار الجانبين ، ولن يكون بقرار عاطفي. وكان هذا الرأي سبباً لابتعادي والى الأبد عن عدد كبير من المعارضين، حتى لو كنت معهم بفكرة ان الحرب ستضعف قوتنا تدريجياً في المجال القومي، وبالنتيجة يجب ان نضع لها حداً.

# مــاذا وجــدنا ؟

انه صنيع مشكّك من قبل عدد من خصومنا، بما فيه هؤلاء الذين كانوا على ولاء للحكومات ذات المسؤولية عن تورطنا في فييتنام، كما ان تركيز خلافنا في فييتنام على قرارات حكومة نكسون. كم لو أن نكسون هو الذي قادنا الى فييتنام. ويكون مفيداً ان أذكّر أن في العشرين من شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩، عند تولية نكسون الحكم، كانت القوات الأمريكية المرسلة الى فييتنام أكثر من نصف مليون رجل، وكان عددها في التزايد، ويقترب من السقف الذي حددته الحكومة السابقة في شهر نيسان من عام ١٩٦٨ أي : خمسمائة وتسعة وأربعون ألف رجل ( وفي الوقع فان الرقم النهائي ارتفع الى خمسمائة وثلاثة وأربعين ألفاً في شهر نيسان من عام ١٩٦٩ ) وارتفعت كلفة قواتنا في فييتنام الى ثلاثين ملياراً من الدولارات في الموازنة السنوية لعام ١٩٦٩. وكان وسطى الخسائر الأمريكية مائتي قتيل اسبوعياً خلال الفصل الثاني من عام ١٩٦٨، فيكون مجموع القتلى في المعارك عام ١٩٦٨ : أربعة عشر ألفاً وخمسمائة واثنين وتسعين أمريكياً. وفي العشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، فان الرقم العام لقتلى الأمريكان في معارك فييتنام منذ العام ١٩٦١ يتجاوز الواحد والثلاثين ألفاً. بينما أن خسائر الفييتناميين الجنوبيين كانت تتقارب تسعين ألف رجلاً.

وكان يبدوا ان المعركة وصلت الى الطريق مسدود. ففي عام ١٩٦٨ دمرنا هجوم الرأس السنة الفييتامينية بنوع حاسم، لكن التأثير الرأي العام الأمريكي على أثر هذه المعركة حملنا على إيقاف القصف وضاعف عدد منّا شدي انسحاب قواتنا. ان القوات النظامية فييتنام الجنوبي، التي تضاعفت كثيراً منذ العام السابق وارتفعت إلى سبعمائة وثلاثة وأربعين ألف رجل . فقد أصبحت تعدّ اليوم ثمانمائة وستة وعشرين ألفاً. وكانت مجهزة تجهيزاً أفضل. لكن مهمتها كانت قد تضخمت، فكان عليها . دفعة واحدة . ان تحافظ على الحدود المنيعة، وأن توجد بالوقت نفسه أمن السكان. وبالرغم من أن الكوادر الفييت كزنغ، قد أبيد القسم الأكبر منها، خلال هجوم رأس السنة الفييتنامية، فان القوات النظامية لفييتنام الشمالية أخذت في التبديل. وكل المعارك تقريباً، تقودها الآن وحدات الكبرى من فييتنام الشمالية، بخلاف اسطورة الحرب الشعبية التي كانت قائمة.

وعلى المستوى السياسي، فان الفييتنام الجنوبية، كانت أكثر ثباتاً مما كانت عليه، طيلة أربعة سنوات الحرب السابقة. وأن نغوين فان تيو، الذي كان أصله من الشمال وانتخب رئيساً عام ١٩٦٧، أدخل في حكومته، رجالاً كثيرون من الجنوب. وكانوا وطنيون يحترمهم الجميع، ومنهم رئيس الوزراء تران فان هيونغ. غير ان سفارتنا في سايغون كانت تعتبر ان هناك ثمانين في المائة من مجموع السكان وأن واحداً وثمانون في المائة من سكان الأرياف، وكل هذه النسبة المئوية من الأشخاص كانوا خاضعين للنفوذ الشيوعي، بالرغم من ان الشيوعية لم تكن تفسر وتترجم، إلا بعملية دفع الشيوعيين رسوماً على الرز وعلى الحاصلات الزراعية، وبمقولة أخرى، فان الوضع لم يتطور كثيراً. منذ سفرتي الأخيرة في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٦.

كانت طريقة العدو الحربية، تتوقف على ايجاد اكبر شعور ممكن من عدم استقرار، دون البحث في احتلال أية أرض تصبح هدفاً لهجوم أمريكي، وتجرى بالنتيجة الى خوض معركة نظامية. وبعكس ذلك تماماً، فان الفيتناميين الشماليين، كانوا يقومون بهجوم متفرق في كل مكان تقريباً من فييتنام الجنوبية. وكانت الوحدات النظامية الأمريكية، بغية تكبيدها خسائر فادحة، بينما ان العمليات حرب العصابات كانت تهدف الى زعزعة السكينة والأمان بين الأهلين. وكان الفيتناميون الشماليون يركزون جهودهم بالتناوب، على تقوية المبادىء الشيوعية السياسية، بنية الإعداد لاستلام الحكم أخيراً.

وفي النصف الثاني من عام ١٩٦٨، جاء الجنرال كرايتون أبرامز ( Abe ) ليحل محل الجنرال وليم وستمورلند في قيادة القوات الأمريكية في فييتنام. كان ابرامز قد درّب فوج عربات اقتحام بأمرة جورج باتون، وكان قائداً للفليق الذي حرّر باستونية Bastogne في معركة الأردين. وكان ابرامز ذاته، قد أدخل تحسينات على استراتيجية الأمريكية، ورفض الهجوم واسع المدى على مجموعات كبيرة من القوات الشيوعية، وركز عمله على حماية السكان. وأمر بانتشار القوات الأمريكية انتشاراً واسعاً حول المدن الكبيرة لتأمين الدفاع عنها. واستدعى ابرامز فرقتين أمريكيين من شمال البلاد، لتوزيعها في الجنوب الأكثر سكاناً. وكانت هذه احدى النتائج العسكرية التي ساهمت في وقف القصف، الذي التزم به الرئيس جونسون في الأول من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨، لأن فييتنام الشمالية قد قبلت حينذاك بعدم التعدي على المنتطقة المجردة من السلاح وعدم القيام بجهوش طائش ضد المدن الكبيرة.

وجرى لإيقاف القصف لسببين أساسيّين : إذا ركّز خصومنا في الحرب جهودهم حول هذه القضية، يعود قسم من ذلك الى سبب كلفته، ويعود القسم الآخر الى ان الولايات المتحدة كانت قادرة على إيقافه ولو من جانب واحد ( بغضّ النظر عن باقي مناطق القتال ) ويعود القسم الأخير منه، الى أن هانوي، أفسحت وبلباقة مجالاً للظن، أن وقف القصف، يسمح بإجراء سريع لمفاوضات، تؤدي على أقل تقدير الى اتفاق. وفي الواحد والثلاثين من شهر آذار من عام ١٩٦٨، كان الرئيس جونسون يعلن - في الوقت نفسه - عدم اشتراكه في جولة البيت الأبيض، وايقاف القصف فوق الدرجة العشرين من خط العرض. وبدأت المفاوضات في باريس، بين الولايات المتحدة وجمهورية فييتنام الديمقراطية، لكنها اقتصرت على الأمور الاجرائية : وكيفية البدء بالحادثات ؟ وفي أول شهر تشرين الثاني، أبدى الرئيس جونسون موافقته على وقف كامل للقصف، ما عدا الممر الذي يخترق لاوس ، والذي يتّمون بواسطة الفييتناميون الشمالية ( المدعو طريق هوشي مين ) وتلاحقت بشائر الفرح، واتفق على ألا يجري في المستقبل أي هجوم طائش يوجّه ضد المدن الكبيرة ( مثل سايغون _ دانانغ أو هويّه ) ولا إطلاق مدافع هاون، أو تحركات جيوش منذ الآن، بدأ من منطقة المجردة من السلاح أو الى داخلها، أو لاجتيازها ولا تركيز قوات أو تحريكها على حدود المنطقة المجردة من السلاح ( بنوع أن يشكل ذلك تهديداً للمعسكر الآخر ). لم تعط هانوي موافقة صريحة على هذه الاجراءات، لكنها تقيدت بها حرفياً، الأمر الذي أكده تصريح صادر عن رئيس مجلس الوزراء السوفييتي : الكيسيس كوسغين، في رسالته للرئيس جونسون، بتاريخ الثامن و العشرين من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٨ الذي يؤكد فيه: « ان الشكوك في موقف الفريق الفييتنامي لا أساس لها ». أضف الى ذلك، فان رئيس المفوضات من الجانب الأمريكي - أفريل هاريمان - صرّح للفييتناميين الشماليين في باريس في الرابع من شهر تشرين الثاني: أن كل هجوم طائش على المدن الكبيرة سيخلق وضعاً لا يسمح بمتابعة المحادثات الرسمية، وبالنتيجة، بسبب عدم الحفاظ على إيقاف القصف.

وفي الواقع، فان المحادثات الرسمية، لم تبدا بالسرعة التي أوحت بها فييتنام. وكما أوضحت ذلك في الفصل الثاني، وجرت مساومات خلال ثلاثة شهور، لم تنته حول شكل الطاوة، ولم تكن هذه المساوات بالحقيقة سوى خلاف حول وضع التنظيم في هانوي في الجنوب، وجبهة التحرير الوطنية. وسوّيت هذه المشاكل الاجرائية في السادس عشر من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، أعني قبل أربعة أيام من استلامنا الحكم. ويوم الاحتفال بتولية نكسون، لم تجر أيّة جلسة مفاوضات رسمية.

بعد استلام الجهاز الحكومي، كانت الضرورة ملحة، لاجراء حساب دقيق حول الوضع. ان رغبتنا في تضبيط سترتيجية متلاحمة، اصطدمت حالاً، في الحقيقة انه لم يكن لدينا سوى بعض الأسس التي نتمكن من العمل بها، والجهود التي بذلناها محاولين تحسين استخداما، لقاء الممارسة التقليدية. عند الاجتماع الأول لمجلس الأمن القومي، في الحادي والشعرين من شهر كانون الثاني، خطّط لقضية فييتنام، وبحثت بالتفصيل، في الاجتماع الذي جرى في الخامس و العشرين منه. لكن الجهاز الحكومي الجديد لا يزال حديثاً، و الموظفون القدامى كانوا مرتبكين. ولم تكن التقارير تطرح أفكاراً جديدة على رئيس جديد راغب في الاطلاع، حتى ولو كانت مقدمة من قبل عسكريين. منذ سنوات والعسكريون يتذمّرون من أن السلطة المدنيّة كانت تعطيهم حريّتهم، ولكن عندما طلب اليهم نكسون في الحال ان يطلعوه على ستراتيجية حديثة، كان كل ما خطر لهم في البال، ان يقترحوا عليه العودة إلى قصف الشمال. وكانت التعليمات الوحيدة التي أعطانا نكسون بناء على هذا التقرير: وضع حدّ للحرب الكلامية المستمرة مع سايغون. فلم تكن نيّته ان يقوم بالدور الذي لعبته هانوي، من تهديم البنية السياسية لفييتنام الجنوبية.

ان تعطشنا للمعلومات، كان مبدئياً بفض الدراسة الأولى التي قمنا بها بناء على طلب الحكومة الجديدة. والمكتب الذي كان يطلق على نفسه « الوضع في فييتنام » كان يطلب الى الوزارات ومصالحها الإجابة على مجموعة من الأسئلة مكتوبة على ست صفحات بأسطر ضيقة، وكانت تتضمن ثمانية وعشرين سؤالاً رئيسياً وخمسين سؤالاً استطرادياً واحتياطياً، والتمست من كل وزارة ان تجيب على حدة، لتمييز الاختلافات الممكن حصوله في الأجوبة، فيسمح لنا ذلك بدقة حصر الأسئلة المتنازع فيها و من خلالها وجهات نظر المختلفة. وكان يجب مع ذلك شرح بعض الأحداث ( مثلاً : لماذا جمهورية فييتنام الديمقراطية هي في باريس ؟ أو أيضاً : لماذا تركت وحدات من الجيش فييتنام الشمالية، تركت فييتنام الجنوبية خلال الصيف والخريف الماضيين؟ ) وكانت بقية الأسئلة تركز على القطاعات السياسية ، التي تستطيع التأثير على المفاوضات، مثل قدرات العدو العسكرية، وقدرات فييتنام الجنوبية، ووضع الأمن في البلاد، الوضع السياسي في سايغون، وأيضاً سترتيجية العمليات العسكرية الأمكريكية. وفي كل مرة كان السؤال المطروح : « أية أدلّة موجودة لدينا » . وبصورة أفضل « إلى أي الحدود يمكننا ان نثق بعلوماتنا ».

ولسوء الحظ، كانت الأسئلة مثار ارتكابنا، تجاه المشاكل التي نعاني منها، بدل أن تساعدنا على حلها. ولم تردنا الأجوبة على أسئلتنا إلاً في شهر شباط، فجعل منها معاونيّ شميلة وتحليلاً ضمنوها في تقرير من أربع وأربعين صفحة، أعلن في الرابع عشر من شهر آذار أمام أعضاء فريق الدراسات مجلس الأمن القومي. وكانت إحدى استنتاجات هذا التقرير التفصيلي، التي كنا في الواقع ننتظر الوقوف عليها : ان هناك انقسامات داخل الادارة، كتلك الانقسامات الموجودة في باقي البلاد. فمن جهة، كانت هناك وجهة تفكير متفائلة نسبياً، يتبعها كل من : سفيرنا في سايغون ايلزوورث بونكر، ورئيساً الأركان العامة، والجنرال ابرامز ، و الأميرال جون ماك كاين ( قائد وحدتنا في المحيط الهادي ) وكان يفكر هذا الفريق : اذا قبل الفييتناميون الشماليون الانظمام ألى محادثات السلام، فهذا يعني اعتقادهم بتدني قدراتهم في المجال العسكري، وان المناطق المسالمة والتي تتزايد كل يوم، ستبقى كذلك، وتصبح الظروف أكثر ملاءمة. وكانت وجهة النظر المعارضة تعكس رأي مدني البنتاغون ووكالة المخابرات المركزية، وفي بعض الحدود، رأي وزارة الشؤون الخارجية. ان مصلحة الاستخبارات كانت تعلم ان الفييتناميين الجنوبيين كانت لديهم جميع القدرات للقيام بواجبهم، ولكن حسب رأيهم، كان كل هذا يوصلهم الى تقييد في موقفهم. أضف الى ذلك فانهم كانوا يؤكدون ان استباق النتائج التي توصل اليها في سبيل السلام، هي في نظرهم نجاحات غير كافية في المجال السياسي، وان العدو لم يكن قط في حالة ضعف لا في باريس ولا على أرضه ليجري مفاوضات، وأخيراً فان الوسيلة الوحيدة لانهاء القضية الفييتنامية هي في الاتفاق على تسوية.

كان الجميع متفقين على الاعتقاد ان الفييت كونغ والفييتناميين الشماليين هما اللذان يقومان بالمبادهة في العمليات الحربية، وهذا ما كان يحدّد مستوى الخسائر في المعسكرين، وان العدو كان يتبع دوماً الأهداف ذاتها، وأن هانوي قد اختطّت لنفسها خطة عمل مستقلة تماماً عن بكين و موسكو. غير أن هذه الآراء كانت تختلف، وبصورة مُركبة جداً حول نقاط أساسية جداً، أكثر من انتشار وأهمية القوات المعادية، أو الدور الذي تقوم به كامبوديا عن طريق ميناء سيهانوكفيل، في تسهيل وصول العتاد والتموين. وأظهرت الأجوبة بوضوح انه لم يكن هناك إجماع على الأعمال أو السياسة.

وقبل تمكننا من وضع حلول لخلافنا الداخلي، وحتى توجيهه، وضعت هانوي حداً لتقديراتنا، بقيامها بهجوم شامل ضد فييتنام الجنوبية في الثاني والعشرين من شهر شباط لعام ١٩٦٩.

# هجــوم فييتنــام الشماليــّة

# وقصــف كمبوديــا

ان الاتفاق الذي جرى مع الفييتناميين الشماليين عام ١٩٦٩، كان قد حدّد إيقاف القصف، وكان يتضمن كذلك عدم القيام بهجوم ضد المدن الكبيرة، أو تجاوز المناطق المجردة من السلاح، غير أن استلامنا الحكم، وتقدم العدو المتزايد، كان كل ذلك يدلّ على إعداد هجوم.

فلم نجد بداً من إعادة قصف الشمال واتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة. وفي الرابعة و العشرين من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨، أعلن كلارك كليفورد، وزير الدفاع، من خلال اذاعة : سؤال وجواب ، في مسلسل تلفزيوني «A.B.C» اذا لم يظهر الأعداء تقديراً لمواقفنا، ويحافظوا على التزاماتهم، فلن يبقى أدنى ريب في أن الرئيس سيعود حتماً الى ستراتيجيتنا الأولى، التي تتوقف على اجراء ضغوط قاسية على العدو، وإعادة القصف حين الاقتضاء. وفي الرابع من شهر كانون الأول عام ١٩٦٨، كان على افريل هاريمان أن يسير ضمن التفكير ذاته، في اجتماع اعلامي في البيت الأبيض. وبالنسبة لرئيس الأركان العامة للقوات المشتركة، الجنرال ايزل ويلر، فلم يفعل سوى التصريحات الرسمية التي أعلنها سلفه،عندما طمأن الرئيس نكسون، خلال اجتماع مجلس الأمن القومي بتاريخ الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩، في أن الولايات المتحدة تقوم في فييتنام ما كانت تقدر عليه، ما عدا قصف الشمال.

ومع ذلك، فليس هناك أي عضو من أعضاء الحكومة، يستطيع مواجهة اعادة قصف الشمال بفرح وبساطة. وكنا نتذوق آنذاك طعم أيام شهرالعسل التي تبعت تولية الرئيس الجديد، علماً ان نكسون لم يستفد حتى الآن من رضا الرأي العام. وليس بيننا من لديه الشجاعة، لمجابهة موجات الاستنكار، التي من شأنها أن تهيب بالبلاد على المطالبة بإعادة قصف الشمال، حتى في حال ان النتيجة المباشرة لنكث الفييتناميين الشمالين بالتزامهم، التي بموجبها جرى إيقاف القصف. ولاسيما في اننا في أول شهر من الرئاسة الجديدة، لم نكن بعد قد فقدنا الأمل من جمع شمل البلاد حول برنامج مشرّف لوضع حدّ لهذه الحرب.

ولسوء الحظ، لم يكن سهلاً ايجاد حلول أخرى غير العودة إلى قصف الشمال. وفي الثلاثين من شهر كانون الثاني، أجريتُ محادثة في البنتاغون، مع كلٍّ من ليرد وويلر، للمشاورة في الطريقة التي نتمكن بها من الصمود وردّ هجوم معادٍ متوقع في فييتنام الجنوبية. فأعاد ويلر إلى ذهني، في ان القوات الأمريكية المتركزة في فييتنام الجنوبية، قد تقدمت في ارجائها تماماً، فيصبح والحالة هذه الردّ المجدي والممكن في اجراء عمليات في المنطقة المجردة من السلاح، أو العودة إلى القصف في الشمال. أما ليرد فقد عارض هذا الاقتراح الأخير، موضحاً ان إيقاف القصف، أوجد الأمل في الرأي العام حول حلّ قريب للنزاع. فلم أكن بالطبع من انصاره، لأنني كنت أرغب جاداً في اعطاء المفاوضات المجال للوصول الى وضع حلول للقضية. وفي الأول من شهر شباط، بعث إليّ نكسون بالكلمة التالية : ( اني لا اؤيد أن أقرأ بين سطور البيانات التي يطلقها الصحافة، في أننا نتربص الشيوعيين حتى يقدّموا على هجوم في فييتنام الجنوبية، فاذا كان ثمة لا بد من الهجوم، فيجب ان يكون من قبلنا لا ان يكون ضدّنا. لكنني عندما طلبت الى رئيسي الأركان العامة، إيقافي على اقتراحاتهما، فلقد أجابني كلمعتاد، عارضين عليّ وبخطوط عريضة ما لديها من مخططات يرتكزان عليها، لتوجيه هجمات جوية أو بحرية ضد أهداف فييتنام الشمالية، وهذه المرة أيضاً، كنت متفقاً مع ميل ليرد، ولم استطع استيعاب الحل الذي يريدان.

فاتجهنا حينئذ إلى قصف مراكز فييتنام الشمالية بما فيها الأهداف الكمبودية، وكان هذا لأسباب مخالفة تماماً لما صُمَّ. فلم تكن غايتنا توسيع الحرب بل تجنب قذف فييتنام الشمالية، بوضع حدّ على الأقل لهجوم غير متوقع كان يكلفنا اسبوعياً حياة / ٤٠٠ /اربعمائة أمريكي. ان العائدين الى الدستور يتمسكون أحياناً، بنفي العدوان المرتقب، الذي ستقترفه حكومة نكسون ضد بلد محايد ومسالم. وتتجاوز هذه الاتهامات وبصمت تام الواقع الذي تقصده، والحالة هذه، تجاه أراضٍ لا يمكن ان نطلق عليها بأي شكل من الأشكال انها تشكل جزءاً من كمبوديا. وهناك أربع فرق على الأقل، وخلال أربع سنوات، كانت تقوم بعملياتها على الأرض الكمبودية، في ممر كائن على طول الحدود الفييتنامية الجنوبية، بالرغم من انها من فييتنام الشمالي. وفي عام ١٩٧٨، اعتبر الشيوعيون المنتصرون في كبموديا، بأغلبية ثلاثمائة ألف ان لا لزوم لوجود فييتنام الشمالية في الشمال الشرقي من كمبوديا في عامي ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، والأمر الذي تجاوز كثيراً تقديراتنا الخاصة. وكان الموظفون الكمبوديون قد طردوا من أراضيهم، حيث لم يبقَ منهم بصورة فعلية سوى السكان الأصليين. ومن هذه الأراضي، التي وضعت بكاملها تحت رقابة فييتنام

الشمالية، كانت القوات الشيوعية، تقوم بهجماتها ضد فييتنام الجنوبي، مسببة خسائر، ومغيرة نظام الحكومة، قبل انسحابها الى بل محايد نظرياً يضمن حمايتها. ويكون رأينا مبتسراً، لا نتيجة تفكير، عند تأكيدنا ان الولايات المتحدة تخرق حياد بلد مسالم، وعندما يساندنا الكمبوديون، كنا نقذف وبأوقات نادرة، ولا سيما للدفع عن أنفسنا، أرضاً لا يطبق فيها أي تنظيم كمبودي من عدّة سنوات، ويسكنها عدد قليل من المدنيين، في حال انه لم يكن فيها أحد، وكان يحتلها عدواناً لحيادها، عدو لم يفارق مراكزه إلا ليقتل المئات من الأمريكيين والفييتناميين الجنوبيين أسبوعياً.

انه الجنرال ويلر هو أول من أبدى هذا الاقتراح، عندما أعلن ليرد أيضاً عن قلقه حول ردّ الفعل السياسي الذي تسببه العودة الي قصف فييتنام الشمالية. بينما ان ويلر كان قد اقترح اتخاذ هدف آخر. بمهاجمة مجموعة المراكز التي كانت فييتنام الشمالية و كمبوديا قد ركّزتاها دون حق من الجهة الأخرى من الحدود.

وفي التاسع من شهر شباط، اتّصل الجنرال ابرامز من سايغون بالجنرال ويلر، ليقول له، ان هناك معلومات جاءه بها احد الفارّين من الجيش، مع صور كانت قد اتخذت لتأكيد هذه المعلومات، ويستنتج منها ان القيادة العامة الشيوعية لكامل فييتنام الجنوبية، تتواجد تماماً من الجهة الأخرى من الحدود الكمبودية ( ولما كنت لا أملك الخبرة الكافية في تلك الفترة، لقد تأثرت كثيراً بهذه البراهين التي لا يمكن الشك فيها، أكثر مما يجب أن أكون عليه بعدئذ، فبعد ثماني سنوات والحالة هذه، كان على القادة الشيوعيين في فنوم بين، أن يؤكدوا كذلك، ان المعلومات التي أدلى بها ذلك المجنّد الفار كانت دقيقة في هذا الموضوع بالذات ) . فطلب ابرامز تفويضه باستعمال B.52 في هجوم جوي ضد القيادة العامة . وشارك السفير بونكر في هذا الطلب . مجرياً اتصالاً من قبلة ، بواسطة اتصال وزارة الشؤون الخارجية .

كانت تجمع هذه الاقتراحات حول نقطة معيّنة . وفي الواقع ، ففي الثامن من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩ ، خلال فترة الانتقال ، أرسل لي الرئيس المنتخب الكلمة التالية : ( بمناسبة الدراسة التي تجرونها حول فييتنام أرغب في أن تقدّموا لي مذكرة واضحة ، حول ما يملك العدو في كمبوديا ، وهل يملك اكثر مما نظن ، لنتمكن من تدمير منشآته . واعتقد ان في حال تسلمنا الحكم ، فان احدى المهام التي لها الأفضلية ، يجب ان تكون تغييراً أساسياً تجاه كمبوديا ؛ وقدم الجنرال غود باستر تقريراً يطلعني فيه على معلومات مفصلة عن مراكز فييتنام الشمالية

الكائنة على امتداد الحدود الكمبودية . وكان يذكر فيه كذلك ان قيادتنا على أرض فييتنام الجنوبية هي على ثقة ان معظم التجهيزات والأغذية التي تدخل إلى كمبوديا تمر بيها نوكفيل واننا لا نقوم بشيء لردع مثل هذا العمل ..... ولقد طلبت القيادة عدة مرات تفويضها بدخول كمبوديا للقيام بعمليات وقائية وملاحقة القوات التي هاجمتنا وتلتجئ الهيا . ورُفضت كل هذه الطلبات ، أو لم يتُوصل إلى اتخاذ قرار بها .

ان الدور الذي تلعبه سيها نوكفيل كان احدى النقاط المتنازع فيها في دراستنا الأولى . وان القيادة العسكرية الأمريكية في سايغون كانت على اعتقاد ، ان في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧ إلى شهر أيلول من عام ١٩٦٨ ، فان عشرات الآلاف من أطنان الأسلحة قد أدخلت بطريق سيها نوكفيل ، الأمر الذي من جهتها : وكالة المخابرات المركزية ووزارة الشؤون الخارجية تنكر انه . لأن هذين الأخريرين يعتبران في الواقع ان كمية المؤن والذخائر كانت تصل فعلاً إلى فييتنام عن طريق لاوس مقدرين أن الاستعانة بطريق هو شيء مين كانت تغطي تماماً الطلبات التي تطلبها من الخارج مجموعة القوات الشيوعية ، المتواجدة في فييتنام الجنوبي . ان الغرض من المناقشة بين الخبراء ، هي معرفة حقيقة الواقع ، فيما اذا كانت المعاقل الكمبودية ، تشكل هدفاً هاماً يستحق المهاجمة ، وكما يحدث غالباً ، فان مصالح الاستخبارات ، تستوحي وجهات النظر السياسية من الوكالة ، اكثر مما تستقصيه هي بنفسها . والذين كانوا من أنصار مهاجمة المراكز العدوة ، كانوا يغالون كثيراً بدور سيها نوكفيل ، بينما ان الذين كانوا يعارضون كانوا يقللون من أهميته . وعندما دخلت القوات الأمريكية والفييتنامية الجنوبية ، إلى كمبوديا في شهر نيسان من عام ١٩٧٠ عُلم ، بفضل وثائق وُجدت في مخازن أسلحة الشيوعيين ، ان حجمها كان يفوق كثيراً مما كان عليه لدى العسكريين .

وعندما يكون هناك خلاف حول معرفة أية طريق . هل هي سيها نوكفيل أو طريق هو شي مين . كانت الأسلحة العسكرية والأعتدة تمر بها ، ففي المقابل ، لم يكن أحد قادراً على إنكار التهديد الذي تسبُبه مراكز الفييتناميين الشماليين في كمبوديا ، للقوات الأمريكية والفييتنامية الجنوبية.

وفي الثامن عشر من شهر شباط ، تلقّيت كما تلقى في الوقت نفسه كل من ليرد ، وباكارد الوزير المعاون ، والجنرال ويلّر ، والمساعد العسكري لليرد ، والكولونيل روبيرت ا . بورسلي ، تقريراً موجزاً كتبه معاً رجلان من سايغون . فأبلغت الرئيس ما كان يعتقده الجنرال ابرامز في

أن ليس هناك أي مدني يعيش في هذه المنطقة . أضف إلى ذلك اني حذّرته من العدوان الذي يسبّبه قصف هذه المراكز . وكنت على اعتقاد ان يُترك مجال للمفاوضات للوصول الى حل ، وأن نعمل بصورة ان الرأي العام يكمل مساندته لنا في سياستنا ، وكنت اقترح عليه العودة إلى دراسة الوضع مجدداً في نهاية شهر آذار ، محتفظاً إلى جانبي بتقنية المماطلة التقليدية ، التي تتبعها الادارة ، في وضع بلسم لقلوب الذين لم يأخذوا الاقتراحات بعين الاعتبار . وافق نيكسون على هذا الاقتراح في الثاني والعشرين من شهر شباط ، ليلة سفره إلى أوروبا .

وفي اليوم ذاته ، الذي عزم فيه نيكسون على تأجيل الهجوم على كمبوديا إلى أجل غير مسمى ، أرسل الينا الفييتناميون الشماليون مشاريع غامضة وضرورة الاحتراس من مواجهة أزمة . وبعد أسابيع من الاستعدادات المسبقة لقدوم الحكومة الجديدة ، قامت هانوي بهجوم واسع . وكان عدد القتلى من الأمريكان ، خلال معارك الأسبوع الأول يربو على / ٤٥٣ / اربعمائة وثلاثة وخمسين ، و /٣٣٦ / وثلاثمائة وستة وثلاثين في الأسبوع الثاني ، و / ٣٥١ / وثلاثمائة وواحد وخمسين في الأسبوع الثالث . وخسائر الجانب الفييتنامي الجنوبي كانت أكثر ، اذ أنها كانت بمعدل / ٥٠٠ / في الأسبوع الواحد . وكانت العملية تحمل طابعاً وقحاً غريباً . وفي الواقع ، لم تجر أية جلسة مفاوضات رسمية في باريس مع وفدنا الجديد ، الذي يرأسه هنري كابوت لودج ، وكانت الحكومة الجديدة تسيّر سياستها بعسر . وسواء كانت ذلك موقوتاً أو وقع مصادفة ، فقد بدأ الهجوم ليلة سفر الرئيس إلى أوروبا ، وقد حرمنا هكذا كل امكانية للصمود ، وأقلق الرئيس الجديد . والاتصالات التي كان نيكسون قد قام بها خلال فترة الانتقال ( كما سنرى ذلك بعدئذ ) مع الفييتناميين الشماليين ، مؤكداً في الواقع ، انه يتعهد بوضع حد للحرب بفخار وشرف ، لكل الفرقاء ذوي العلاقة بها ، ان هذه الاتصالات قد ذهبت دون جدوى ، دون معرفة القصد من هذه التصريحات ، وقصد هانوي الأول ، كان قتل اكثر فأكثر من الأمريكان . ولقد بيّنت في تقرير موجّه للرئيس : ان الفييتناميين الشماليين ، كانوا سبّبوا خسائر فادحة بالنسبة للقوات الأمريكية وفييتنام الجنوبية ، دون ان نستوضح بعد وحداتهم الأساسية .

وتلقى نيكسون اخيراً مكتبه البيضوي ، التقرير العسكري عن الهجوم المعادي ، ضمن كومة من الكتب والوثائق المتفرقة ، التي جمعها له كل من وزارة الشؤون الخارجية ومساعدي حول كل بلد سيزورها . ( وعلى اثر ذلك ، ان على نيكسون ان يحتفظ فعلاً بمكتبه البيضوي للمناسبات الكبرى ، مفضلاً عادة العمل ، في مكتب بسيط كائن في وسط الادارة ) . كان نيكسون يتصفح الكتب بسرعة ، لسيتظهرها ومدمدماً ان عليه بذل مجهود كبير . وكان بادياً عليه الاضطراب .

وهمته تدفعه للصمود وبقوة لمناورة هانوي الوقحة . ولم ينقطع منذ سنوات عن توجيه اللوم لأسلافه لأنهم كانوا يتصرفون بفتور تجاه العمليات التي يشنها الشيوعيون . وكان يتمنى بالاضافة إلى ذلك ، وبكل جوارحه ، ان يكون أول سفر له إلى الخارج بصفته رئيساً ، ناجحاً . وكاد الهجوم الأمريكي المعاكس يسبب مظاهرات عنيفة في أوروبا ، بينما ان وضعاً سلبياً يوشك على تشجيع العدو . فلم يتمكن من حل هذه المعضلة . وكان رد الفعل الوحيد في البيت الأبيض ، في اليوم الأول للهجوم ، مخابرة هاتفية ، كالمت بها دوبرينين سفير الاتحاد السوفييتي ، وقلت له ، ان الرئيس راغب في اعلام موسكو جيداً ، ان في حال تتابع الهجوم الفييتنامي الشمالي ، سيكون هناك أخذ بالثأر .

ولكن في اليوم التالي الموافق للثالث والعشرين من شهر شباط ، عندما كنا نطير متجهين نحو بروكسل ، صمّم نيكسون ، فاعطى الأمر حالاً بقصف مراكز كمبوديا . ومع ذلك ، كنت أجد صعباً ابلاغ واشنطن وسايغون امراً في مثل هذه الأهمية من الطائرة الرئاسية الأولى ، دون أخذ رأي مسبق من المسؤوليين ذوي العلاقة ، ودون مخطط يقدّر النتائج ، فنصحت نيكسون ان يؤجل أمر التنفيذ النهائي بثمان وأربعين ساعة . وأرسلت برقية مستعجلة للكولونيل الكسندر هيغ ، الذي كان حينئذ مستشاري العسكري في واشنطن ، ليلتحق بي في بروكسل بصحبة خبير من البنتاغون .

اذ كنت راغباً في اعادة النظر بأمر العمليات الحربية ، وانظم حالاً مخططاً دبلوماسياً .

وفي الرابع والعشرين من شهر شباط صباحاً . وتماماً قبل أن يتناول الرئيس الكلام مع القيادة العامة لحلف شمال الأطلسي ( كان حضور هيغ وهلدمان ممثلي الرئيس نيكسون جالباً للانتباه ) وهلدمان هذا هو موظف البنتاغون المكلف بتهيئة العمليات وأنا بذاتي التقينا ، في جناح الطائرة الرئاسية الأولى في مطار بروكسل . ان الطائرة التي كان يستخدمها الرئيس نيكسون كانت قد صنعت خصيصاً حسب توجيهات جونسون . فخلف جناح الرئيس مباشرة . كانت توجد قاعة اجتماعات ، مع كرسي ضخم يمكن استخدامه طاولة ، وهو على شكل حبة الفاصولياء . والكرسي والطاولة كانا مجهزين بأزرار ، تسمح بتحريكها تلقائياً . وكان الكرسي مرناً جداً ، أما بالنسبة للطاولة ، فانها كانت تعلو وتهبط حسب الرغبة ، بفضل جهاز هيدروليكي عجيب ، ولكن إذا صدف ، ولمس دون انتباه غير الزر المخصص لها ، فان الطاولة تنخفض ببطء وتشدك إلى كرسيك ، وقد يصبح الوضع أخطر ، فيما اذا ارتفع الكرسي في الوقت ذاته ، وفي هذا

الزخرف المذهل ، وضعنا الخطوط العريضة لمخطط قصف المراكز المعادية . وستكون حدود القصف ، على ثمانية كيلو مترات في داخل الجبهة . لن نعلن عن الهجوم ، لكننا سنتحقق منه ، عندما تأخذ كمبوديا بالاحتجاج ، وسنقدم تعويضات عن الخسائر والأضرار التي تحلق بالأهلين . وفي الفترة القصيرة الممنوحة لنا ، نظمنا برنامجاً عسكرياً ودبلوماسياً ، ورسمنا في خطوطها العريضة ، البيانات التي سنعلن عنها للصحافة . عاد هيغ وخبير البنتاغون إلى واشنطن حالاً لاطلاع ليرد على الواقع . واعطى نيكسون بعدئذ موجزاً عن كل ذلك لروجرز في لندن ، دون الدخول في تفاصيل .

وفي اليوم ذاته ، اتصل بنا ليرد من واشنطن مبدياً تحفظاته : إذ أنه كان يعتقد استحالة ابقاء القصف أمراً سرّياً . كما أنه يصعب على الصحافة معالجة هذا الموضوع ، ومساندة الرأي العام ليس بجانبنا . وكان يطلب بإلحاح الانتظار حتى تصبح الإثارة اكثر وضوحاً . وكان موقفه يعكس جيداً جو التردد الذي كنا نعيشه اذ ذاك ، والخوف من تنبيه المناوئين الأشرار ، الذين أخمدت أنفاسهم المنازعات . وكان يظهر لي التأخير مخيباً لكل اهتماماتنا الأولية ، التي كنا نسعى ان نعرف من خلالها وجهة النظر الشرعية في تصرفاتنا ، اذ كان هناك خرق لالتزاماتنا التي كنا بها مرتبطين ، في حال ان / ٤٠٠ / أربعمائة أمريكي كانوا يقتلون أسبوعياً ، وفيما كان يحاول الفييتناميون الشماليون تثبيط هممنا بهذه الوسيلة قبل التمكن من رسم أية خطة مهما كانت قليلة في سبيل الصمود أمامهم بل ردهم . وما يدهش أيضاً عدم إجراء أية دراسة رسمية حول إمكانية العودة لقصف فييتنام الشمالية . كان إيقاف القصف ، قد قرر مبدئياً ، لإمكانية تنظيم تسوية سريعة للنزاع ، لكن هذا الإيقاف كان دون نتيجة .

كنت اشارك ليرد في استخلاصاته حول قصف المراكز الكمبودية ، ولو لم أتبعه في تفكيره . وحسب رأي ، ان عدم ردّ فعل من قبلنا على القرار الرهيب الذي اتخذته هانوي ، يوشك على تدمير كل أمل بالوصول إلى مفاوضات . وهانوي ترى من خلال عدم ردّ الفعل برهاناً على عدم قدرة نيكسون على الصمود للضغوط الممارسة ضدّه في الولايات المتحدة وهذا يشجع طبعاً الفييتناميين الشماليين على القيام بتحريات عسكرية اخرى ، والغرض منها إقلاق وإرباك وضع نيكسون كما أربكوا جونسون قبله . واخيارهم لهذا الوقت بالذات كان يقلقني . ولا أجد من الحكمة القيام بعملية عسكرية جديدة ، في حال أن الرئيس كان يزور أوروبا ، ويمكن ان يكون بالنتيجة عرضة لمظاهرات معارضة ، دون التمكن من لقاء حكومته ولمّ شعثها . أضف إلى ذلك ، فان نظرية جعل قضية فييتنام الشمالية ، مدار كل تصريحاتنا للصحافة الأوروبية أو لإظهار

صلابة موقفنا لدى الحكومات المتحالفة معنا ، والتي كانت غير قادرة على التوفيق بين موقفيها . من جهة مساندتها لنا في قضية فييتنام ، ومن جهة أخرى ، موقفها الرسمي الذي كان يتوقف على التخلي عنه أيضاً ، فكل هذه الأمور مجتمعة لم تكن لتروق لي أبداً . أسررتُ بكل هذه الأفكار للرئيس نيكسون ، في بون ، فكان منه أن ألغي مخططه في اليوم التالي :

ان الهجوم النصفي ، كما دعوه ، أوضح عدم ثبات وضعنا في المجال الداخلي ، ان هذا الهجوم المعادي أعدّ وبكل تأكيد منذ شهور عدّة ، وعند حدوثه كانت الحكومة الجديدة في دست الحكم ، قبل أربعة أسابيع بكل تدقيق . والعدو نفسه غير قادر على معرفة نوايانا ، طالما أننا أنفسنا لا نعرفها . ومع ذلك ، ففي التاسع من شهر آذار ، اتهمت نيويورك تايمس الحكومية الجديدة بإثارة هانوي : ألم نمضِ شهراً ، في دراسة الحلول المختلفة ، التي تتكشف لنا ، من خلال حرب ، زجت بها حملة عسكرية تتجاوز خمسمائة ألف رجل ؟ وكان ممكناً متابعة قراءة ما كتبت : ان الحقيقة المحزنة هي ان محادثات باريس هي حالياً في جمود ، بينما ان السفير لودج ينتظر الضوء الأخضر من البيت الأبيض ، لتقديم اقتراحات جديدة للسلام أو للبدء بمفاوضات خاصة ، التي هي وحدها طبعاً ، توحي بالتقدم الحقيقي . لقد أوقف كل شيء ، لإفساح المجال أمام حكومة نيكسون لتدرس بعناية الوضعين : العسكري والسياسي . وعلى الكونغرس ان يردّد قريباً صدى وجهة النظر هذه .

اتخذ الرئيس موقفاً معتدلاً عموماً ، فيما كان يكظم غيظه على انفراد . وكان يُعلن خلال اجتماع جرى في الرابع من شهر آذار .

( لم نتصرف بتهور وتسرع ، ولكن لا يجب ان يؤخذ صبرنا وتساهلنا اللذين أبديناهما ، أو عدم صدور ردّ فعل من قبلنا ، مأخذ الضعف . اننا لن نتساهل أبداً في متابعة خرق الاتفاقات التي أجريت . ولا سيما لن نتحمل بعد هجوماً يترجم إلى خسارة في الرجال اكثر من ذي قبل . في حين اننا نجهد نفوسنا بكل صدق ، في باريس ، لإيجاد تسوية صلح على طاولة المفاوضات . وفي حال تتابع هذه الهجمات ، سنتخذ الاجراءات التي تسمح لنا بالرد عليها ) .

وفي الرابع من شهر آذار ، نقلت للرئيس ، دون مقدمات ولا تعليق ، مذكرة من ليرد ، كان يوضح فيها سبب معارضته لاقتراح رئاسة الأركان المشتركة بمهاجمة فييتنام الشمالية . وكان ليرد بعيداً ان يكون حمامة : ففي الظروف العادية ، كان يميل دائماً لاختيار القتال . وكان يفضل

اختيار طريق النصر . لكنه مع ذلك يختبر مدى موافقة الرأي العام والكونغرس . وبصفته رجلاً سياسياً ، فلم تكن تنقصه الفطنة ، وكان على دراية من أن الذين يقيمون الحواجز هم في خطر المجازفة بمستقبلهم السياسي ، ومن جهته ، لم تكن نيته الإقدام على هذه التضحية . ولهذا السبب ، كان يسير بحكمة من خلال تجاربه التي تشير عليه باجراء هجوم عسكري معاكس ، أما طبعه السياسي ، فكان يحمله على الاعتدال . وبمعارضته لقصف فييتنام الشمالية ، اصبح نصيراً قوياً لمهاجمة مراكز كمبوديا ( ونقطة عدم اتفاقه الوحيدة كانت تتوقف على الخطة الواجب اتخاذها نحو الصحافة : التي حسب رأية وفي الواقع ، لم يكن ممكناً ، لأسباب عملية وليس اخلاقية ان يبقى القصف سرياً ) . والرئيس الذي اعتبر هذا الرأي صحيحاً ، أمر بمهاجمة المراكز المعادية في كمبوديا في التاسع من شهر آذار . وكان روجرز قد أعلن عن عدم موافقته في السابع منه ، لانتظار نتائج المحادثات الخاصة في باريس .

وللمرة الثانية ، يلغي نيكسون أمره . لكن غيظه وعدم صبره ، كانا يتزايدان ، كل مرة ، يرى نفسه مجبراً على التراجع عن قراره . ومتشبهاً بليرد ، كان بعيد أنه لم يكن يريد ان يهاجم الشمال ، لكنه يريد الإقدام على أمر ما . وفي الرابع عشر من شهر آذار ، اثناء مؤتمر صحفي ، سئل عما اذا أخذ يعيل صبره ، فاجاب نيكسون :

( تلاوة صحف هذا الصباح ، المبينة أن خسائرنا في الأسبوع المنصرم ، تضاءلت من أربعمائة إلى ثلاثمائة رجل ، فهذا لم يشجعني أبداً . وهذا الرقم مرتفع جداً . ولكن يجب علينا تقدير ردود فعلنا من خلال نتيجة المفاوضات الجارية في باريس . وسأجيبكم في حينه ، كما عملت في ظروف مشابهة ... لقد وجّهنا أنذاراً ، ولن أعود إليه مرّة ثانية . واذا مستوى خسائرنا تجاوز مدى احتمالنا ، سنتخذ الاجراءات التي يمليها علينا الموقف ) .

وفي اليوم التالي ، أقدم على خطوة أخرى في خرق اتفاقاتنا : إذ قذف الفييتناميون الشماليون خمسة صواريخ على سايغون . وخلال الأسبوعين الأولين من شهر آذار ، أقدم على اثنين وثلاثين هجوماً ضد المدن الكبيرة في فييتنام الجنوبية . وفي اليوم ذاته ، الذي سقطت فيه الصواريخ على سايغون ، تلقيت في الساعة الخامسة عشرة وخمس وثلاثين دقيقة ، مخابرة من الرئيس ، وكان يأمر بها باجراء هجوم سريع بقاذفات B.52 على مراكز كمبوديا . أن نيكسون الذي لمس معارضة جميع مخططاته طيلة شهر ، أصبح حازماً : ان وزارة الشؤون الخارجية لن تأخذ علماً بذلك إلا في حال ان النكوص عن القرار يصبح معدوماً ... فلا مجال لمناقشة هذا

الأمر .... ( وجملة لا مجال للمناقشة كانت إحدى الجمال المحببة إلى نكسون ) وبالنسبة لمن يعرفه ، فان هذه العبارة ، كانت تعكس في الواقع ، تردداً كبيراً ، مما يدل ان لها في الواقع مفعولاً على متابعة المحادثات وليس على إيقافها .

وصارحت الرئيس ، في أنه لا يستطيع اتخاذ قرار بهذه الأهمية ، دون إعطاء مسبق لأقرب مستشاريه ، فرصة لإبداء وجهات نظرهم ، وليس هذا سوى الدفاع عن أنفسنا في حال إثارة هذا القرار ردود فعل صاخبة في البلاد . ليس هناك ما يدعو إلى ضياع الوقت . يجب وضع مخطط تفصيلي ، للتغلب على كل أمر متوقع الحدوث . وإعداد التعليمات بهذا الشأن يتطلب على الأقل أربعاً وعشرين ساعة . حُدد اذاً اجتماع يعقد في اليوم التالي في المكتب البيضوي . فأخذت رأي ليرد الذي كان موافقاً تماماً على قرار الرئيس . ولإعداد هذا الاجتماع . كتبت بناء على رغبة الرئيس ، مذكرة أوجزت فيها ما هو بصالحنا وما هو ضدّنا . ان الخطر كان ينطلق من احتجاج ولو صورياً من قبل كمبوديا ، على ردّ فعل الشديد الذي بدر من السوفييت ، ومن مقاومة قوية في كمبوديا ، لهجوم معاكس مباشر من قبل فييتنام المشالية ، بالرغم من صعوبة فهم ما ستتخذه هانوي ، اكثر مما كانت تفعل . واخيراً ، كان يخشى من عودة المنازعات داخل البلاد ، وقيام مظاهرات جديدة معارضة للحرب . كنت أعتقد انه سيكون من الموافق ان يقترح وفدنا المفاوض في باريس عقد اجتماع خاص يوم القصف ، كي نؤكد اننا نفضل حلا يصدر نتيجة مفاوضات . وكنت أطلب دوماً إلى الرئيس ان يؤكد على شركائه كي لا يشكل القصف الذي نحن بصدده أية سابقة مهما كانت . والذي لم تحصه أو تذكره مذكراتي ولم يرد ذكره في مداولاتنا ، هو الذي جرى في الواقع أي عدم حدوث أي ردّ فعل في هانوي ، ولا من فنوم بين . ولا من موسكو أو بكين.

وقد شارك في الاجتماع الذي جرى في المكتب البيضوي ، بعد ظهر يوم الأحد الموافق للسادس عشر من شهر آذار ، كل من روجرز وليرد وويلر وأنا . وكانت المرة الأولى لنيكسون ، منذ استلامه زمام الحكم ، يجبر فيها على اتخاذ قرار واقعي ، خلال أزمة دولية صارخة . انها المرةّ الأولى أيضاً ، كان عليه معارضة المشتركين معه في خطة عمل كان هو قد اختطها . فواجه نيكسون الصعوبة بطريقة ستصبح في المستقبل ظاهرته المييزة . من جهة ، ان قراره كان قد اتخذ ، ولم تكن نيته في الرجوع عنه . أضف إلى ذلك انه كان أعطاني تعليمات لأوقف وزارة الدفاع بالواقع ، بأربع وعشرين ساعة قبل الاجتماع . وكان يفكر من جهة أخرى ، ان يعمل كما لو ان القرار لم يكن بعد نهائياً . وجرنا ذلك إلى إجراء محادثات لا نهاية لها ، وجدها كريهة ، وقوت مليه إلى إخراج المعارضين من المداولات اللاحقة .

كان توجه المكتب البيضوي ضمن التسلسل المتوقع . وكان ليرد وويلر نصيرين حازمين للهجوم . أما بالنسبة لروجرز فان اهدافه لم تكن تستند إلى أسباب سياسة خارجية ، لكن إلى أسباب وضع داخلي . فلم يحرك ساكناً لمسألة تنظيم كمبوديا البلد المحايد : فمن المقبول ولمرة واحدة وبحق ان نرد بهجوم معاكس على الخرق الفاضح لحياد كمبوديا من قبل فييتنام الشمالية ، لأن كمبوديا غير راغبة في الدفاع عن هذا الحياد أو انها غير قادرة . وكان روجرز يخشى المثول أمام الكونغرس في حين ان الاضطرابات الاجتماعية تكون قد بدأت ، مع العلم انه يقال ان الأمور أخذت تهدأ . ودامت المناقشة عدة ساعات ، وكاد ليرد وويلر يقنعان نيكسون أن يُقدم على اكمال ما أمر به . أما بالنسبة لي ، بعد ان بينت وجهة نظري في المذكّرة التي قدمتها لنيكسون لم اتدخل في الموضوع . وعند الختام قبل روجرز بمبدأ هجوم B52 يوجه نحو المنطقة ، التي يظن ان قيادة الشيوعيين العامة معسكرة فيها . ان هذا النوع من المداولات معبّر : فبعد شهر من اعتساء فييتنام الشمالية الذي تسبب بأكثر من ألف قتيل من الجانب الأمريكي ، كنا نقوم وبعد عدّة أسابيع من المناقشات الحادة ، بغارة جوية أمريكية واحدة ، على عمق ثلاثة كيلو مترات داخل الحدود الكمبودية ، في منطقة يشغلها منذ أكثر من أربع سنوات فييتناميون شماليون . وهذا ما سوف يسجله التاريخ مثالاً على عمل غير متكافئ وبلا مبّرر .

وبعد الاجتماع ، فان رئاسة الأركان المشتركة ، اكدت الانضمام إلى ما كنا عزمنا عليه من شن عدة غارات توجه ضد تجمعات القوات الفيتنامية الشمالية ، التي تخرق المنطقة المجردة من السلاح . وكنا نفكر ليرد وأنا ، أنه من المهم جداً الاحتفاظ بروجرز في جانبنا ورفض الاقتراح .

جرى هجوم B 52 في الثامن عشر من شهر آذار ضد القاعدة /٣٥٣/ ثلاثمائة وثلاث وخمسين ، على عمق خمسة كيلو مترات داخل الحدود . وفي سبيل هذه العملية ، راح البنتاغون يبحث في محفوظاته التي لا تنضب عن اسم رمزي لها فأعطيت ( الفطور ) اسم مجرد من كل طعم وذوق . وعندما تصيب غارة جوية مستودع وقود أو خيرة ، فتحدث دائماً انفجارات ثانوية ، تثبت بنوع عملي أكيد ان الغارة أصابت أهدافها . وكان أول تقدير أرسله الينا القائمون بالعملية (فطور الثامن عشر من شهر آذار ) . وكان التقدير يشكل ثلاثة وسبعين انفجاراً فرعياً معظمها كان في المنطقة المحددة ، بقوة خمس مرات أعظم من تلك التي تسجل عادة خلال انفجارات فرعية عادية .

خطط مبدئياً لمهاجمة القاعدة /٣٥٣/ ثلاثمائة وثلاث وخمسين لتكون بمثابة غارة جوية وحيدة . غير أن نيكسون أ/ر القيام بغارة أخرى في شهر نيسان من عام ١٩٦٩ ، من جهة لأن لاهانوي ، ولا فنون بين احتجتا على الغارة الأولى ، ومن جهة ثانية كذلك ، لأن نتائج الغارة قد تجاوزت ما كنا نأمل ، ولا سيما ما حدث بعيداً من هناك في كوريا الشمالية . كان يريد نيكسون الاحتجاج ، عند اسقاط طائرة استطلاع أمريكية بسيطة في حال قصفها كوريا الشمالية ( وانتقد جونسون بشدة على عدم احتجاجه ، مع اتخاذ الاجراءات الرادعة ، والواجب تطبيقها على كوريا الشمالية لأسرها سفينة التجسس بويبلو pueblo ) . واذا كان نيكسون قد تمالك نفسه ، كان هذا ناتجاً خصوصياً من معارضته الشديدة من قبل روجرز وليرد . لكنه كعادته ، عندما يكبح ميله الفطري للاحتجاج بقسوة ، فكان نيكسون يفتش عن مكان آخر يظهر فيه قادراً على العمل . فلم يكن يخشى أكثر من اتهامه بالضعف . وحقيقي انه كان لديه تصريفات حسنة للشؤون السياسية الخارجية ، لكي لا يسمح لهانوي ان تظن ان جهوده قد شلت .

وفي شهر أيار ، أمر نيكسون بمهاجمة سلسلة أخرى من القواعد الكمبودية ، وكلها مهجورة من السكان وكائنه على طول الحدود ، على عمق أقل من ثمانية كيلو مترات منها . فالهجوم على القاعدة /٣٥٠/ ثلاثمائة وخمسين أطلق عليه اسم «تحلية Dessert » واطلق على الهجوم على القاعدة /٣٥١/ ثلاثمائة واحدى وخمسين اسم «عصرية Gouter» وعلى الهجوم على القاعدة /٧٤٠/ سبعمائة وأربعين اسم «عشاء souper» وعلى الهجوم على القاعدة /٦٠٩/ ستمائة وتسع اسم «فطور Dejeuner» وعلى الهجوم الأخير على القاعدة /٣٥٢/ ثلاثمائة واثنتان وخمسون اسم «غداء Diner» منطلقاً من المبدأ القائل : من كون فكرة عليه اتباعها حتى النهاية ، كما ان مجموع من هذه العمليات أطلق عليه اسم «وجبه طعام menu» وأصبح الهجوم متناوباً من شهر نيسان إلى بداية آب ، عام ١٩٦٩ . وكل هجوم كان يصدق عليه وبنوع خاص عليه وبنوع خاص من قبل البيت الأبيض . وأعطى نيكسون بعدئذ تفويضاً عاماً ، وجرت الغارات الجوية حسب الأصول . ويكفينا النظر إلى الخريطة التي تبين بدقة ، طول الحدود ، وشريط الأرض الضيف الممتد لبعض كيلو مترات فقط ، حيث كانت متواجدة القواعد . لنتمكن من الأخذ بعين الاعتبار ، ان اتهامنا بسبب القذف المكثف لكبموديا المحايدة ، كان مجرداً عن كل أساس .

وهذا ما أقدم عليه مع ذلك عام ١٩٧٤ اثنا عشر عضواً من اللجنة القضائية في المجلس ، واقترحوا محاكمة نكسون ، بحجة انه كتم عن الكونغرس ، تسييره لعمليات مزعجة وغير مصدقة

، اكثر من أي رئيس خلال أية حرب في كل تاريخ الولايات المتحدة ، عائدين بذلك إلى ما كان حدده النائب روبرت دريناان . فلا كمبوديا ولا فييتنام الشمالية ، أثارتا قضية الكمبوديين أو المدنيين المقتولين ، والاحصائيات المتعلقة بكميات القنابل التي قذفت اثناء هذه الغارات . والتي كانوا يتذرعون بها غالباً لإظهار همجية وقساوة الحكومة ، ويحتفظون عن التكلم بالأمور الأساسية ، لأنها كان تبين المقصود من هجوم معين على قطعة أرض عرضها بعض كيلومترات فقط على طول الحدود . ان عملية «ميني menu» تتابعت حتى شهر أيار من عام ١٩٧٠ . واعتباراً سمن هذا التاريخ ، تدخل الطيران علانية ، لتغطية أمن الفرق الأمريكية والفيتنامية الجنوبية ضد قواعد فييتنام الشمالية .

وهناك تقارير زمنية كانت تطلع نكسون على ما تحدثه عمليات «ميني menu» . وكتب في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩ على أحد هذه التقارير : «أكملوا الغارات» . وفي شهري كانون الأول من عام ١٩٦٩ ، وشهر شباط ١٩٧٠ ، طلب تقويم جدوى مفعولها . فأجاب ليرد ، ان بالنسبة للجنرال ابرامس والسفير بونكر ، فان عمليات «ميني menu» كانت إحدى العمليات الأكثر جدوى في كل هذه الحرب . ثم أكد الجنرال ابرامس أن «ميني menu» كانت قد قبلت منطق العدو راساً على عقب وأبطلت من هجماته ، وأنقصت بصورة صحيحة التهديد الذي كان يمارسه على منطقة سايغون . أما ليرد فأخذ على مسؤوليته رأي رئاسة الأركان المشتركة والجنرال أبرامس ، الذي كانت بموجبه عملية « ميني menu » أكثر جدوى وستبقى كذلك ، مسببة أضراراً مقبولة كانت نيّتنا في المرحلة الأولى ، التعرف على عملية « الفطور Dejeuner petit » وعمّا اذا كان الكمبوديون أو الفييتناميون الشماليون ، يقومون برد فعل ، الأمر الذي كنا ننتظره بفارغ الصبر . وهكذا فان وكالة الاستخبارات المركزية كانت ترى من خلال المذكرتين اللتين تقدمت بهما في العشرين من شهر شباط والسادس من شهر آذار ، انه كان حقيقياً أو شبه حقيقي ، ان هانوي كانت تسعى للاستفادة من هذا الوضع ، لغايات دعائية ، متهمة الأمريكان بإطالة أمد النزاع . أما وزارة الدفاع فكانت تشك في إمكانية إبقاء الهجوم سرياً . وبالنسبة لي ، كنت اعتقد ان ليس هناك ما يحملنا على معرفة ذلك . واثناء محادثة أجريتها مع الرئيس نكسون في الثامن من شهر آذار ، صارحته بما يلي :

( اني متفق بالرأي مع باكارد ، وفي حال القيام بهجوم ، يجب ان نفكر هل يفيدنا كتمانه ، وإلا علينا التحلي بالجرأة للإعلان عمّا نكون قد أقدمنا عليه . فوافق الرئيس على ذلك . وقمنا بالاستعدادات اللازمة للردّ على كمبوديا في حال اعتراضها .

اذا اردنا البقاء متكتمين في البداية ، على هذه المجابهات ، فهو لاجتناب ارغام الفييتناميين الشماليين ، وسيهانوك أمير كمبوديا ، والسوفييت والصينيين ، للاحتجاج رسمياً ، الأمر الذي ربما لن يقدموا عليه . تصريح مفاجئ من قبل الأمريكان ، يُلزم هانوي على اعلان ردّ فعلها علانية ، الذي يمكن ترجمته بهجوم معاكس عسكري ، أو بقطع محادثات السلام . وتستطيع كذلك إرغام سيهانوك على اتخاذ موقف رسمي . منحاز إلى جانب هانوي ، في الوقت الذي كان يجتهد البقاء على توازن تام مع موقف الحياد القاسي . وتستطيع في النهاية تحريض الاتحاد السوفييتي والصين على ابداء ردود فعل تعطل الجهود الحقيقية التي تقوم بها لإعداد دبلوماسية بين بلداننا الثلاث .

لكن هانوي لم تحتج ، خلافاً لكل توقع . وقبل وفدها في باريس الاقتراح الذي تقدم به اليه لودج في الثاني والعشرين من شهر آذار ، حول بدء محادثات منفردة ، بأقل من اثنتين وسبعين ساعة بعد أن أشرنا إليه بذلك . وبالنسبة لسيهانوك ، فانه ليس فقط لم يحتج ، بل أيضاً ، اعتبر القصف شيئاً لا علاقة له به ، لأنه كان يتساقط على مناطق مشغولة كلها بفرق فييتنامية شمالية ، ولم تصب أياً كان من الكمبوديين ، وبالتالي ، فان القصف كان خارج حدود نفوذه ، وكان الأمير يتجاهل حتى معرفة حدوثه .

وفي الواقع ، فان علاقاتنا مع كمبوديا ، قد تحسنت وبصورة مذهلة طيلة فترة القيام بالقصف . ان دقة ومهارة دور سيهانوك ، سمحتا له بايجاد توازن بين الضغوط الداخلية والضغوط الخارجية ، وكانتا منذ عشر سنوات موضوع دهشة الجميع . ان نوردوم سيهانوك ، الأمير وريث التاج ، الذي تصرف بطريقة تضمن له مساندة كبرى من معظم السكان ، كان يبدو والآن قويّ الجانب . ولقد متّن استقلال بلاده ، واكتسب نفوذاً لا يمكن الاستغناء عنه . وعمل كل ما يلزم لابقاء بلاده على الحياد . وهكذا بعد اتفاقية لاوس عام ١٩٦٢ ، توصل إلى الاستنتاج بأن الشيوعيين . الذين كان يبغضهم . ربما نقلوه الى الهند الصينية . ولقد تكيف وفق هذه الحقيقة ، موافقاً على ان يركز الفييتناميون الشماليون قواعدهم في بلاده . ووجد عام ١٩٦٥ حجّة لقطع علاقاته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة . غير أنه تعاون خلاف رغبته مع الشيوعيين . وكانت هانوي تساند شيوعيي كمبوديا « les Khmers Rouges » الذين كانوا قد بدؤوا القيام بأعمال حرب العصابات ، قبل تدخل الأمريكان في كمبوديا . وان سيهانوك قد حكم آنذاك بالموت غيابياً على القادة الشيوعيين . ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، عاضدت روجرز بقوة ، عندما قام باسداء نصيحة للرئيس في شهر شباط من عام ١٩٦٩ ، حول القيام بمسعى لدى

سيهانوك ، بغية تحسين العلاقات بين بلدينا . ان محاولات الانفتاح هذه لاقت ترحيباً حاراً ، وعادت سفارتنا في فنون بين الى فتح أبوابها بادارة قائم بالأعمال .

ومع ذلك ، ما كان واقع القصف الذي قبل به سيهانوك ليفاجئنا . لقد صرّح في الواقع ، منذ اليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٩٦٨ إبان الحكم السابق ، الى موفد الرئيس : شستر بوولز بما يلي :

( لا نرى بقاء أي فييتنامي في كمبوديا ... سنكون جداً سعداء في حال تنظيم هذه المشكلة . ولأجل هذا ، لن نعترض على ما تقدمون به في هذا السبيل ولو استعملتهم العنف في المناطق غير المأهولة . وعندما تقومون بذلك تخلصوننا من الفييت كونغ . وبالنسبة لي ، لا يوجد ما يهمني سوى كمبوديا . واني راغب في ان تجبروا الفييت كونغ على مغادرة كمبوديا . وإذا اقتضى الأمر وبكل وضوح الى الهجوم على المناطق غير المأهولة ، حيث لا يتواجد كمبوديون ، فلن أبدي اهتماماً ) .

وفي الثالث عشر من شهر أيار عام ١٩٦٩ ، أي حوالي شهرين ، بعد البدء بالقصف ، اجرى سيهانوك مؤتمراً صحفياً ، اعترف خلاله بصورة شبه تقريبية بالقصف ، لكنه نفى في الوقت نفسه وبحرارة وجود قتلى ، وكان يدعونا الى اكمال طريقنا في الاتجاه نفسه ، مهما كانت نوايانا الفعلية فقال :

( اذا كنت ما اعترضت على قصف مراكز الفييت كونغ ، فسبب ذلك اني لم أسمع أحداً يتحدث عن هذا القصف . ولم اكن على علم به ، وبكل بساطة لأنه لا يوجد كمبوديون في بعض مناطق كمبوديا ) .

( ان كمبوديا لا تحتج إلاّ عند حدوث أضرار حياتية أو مادية لدى الكمبوديين . وكل ما أستطيع قوله هو : طالما اني لم أعلم بشيء ، يعسر عليّ الاحتجاج . ولكني سأقدم على ذلك اذا قتل كمبوديون ، أو إذا أصيبت أملاكهم بأضرار ) .

( وهذا أول تقرير يتعلق بعدة غارات من B 52 ، ومع ذلك لم أعرف عنه شيئاً ، لأنه لم يسبب لي ، لا هدم بيتي ، ولا مقتل أحد مواطني ، ولا أي ضرر آخر مهما كان نوعه . ولم يتضرر أحد من الغارات التي هوجمت بها المناطق ، ولا واحد قطعياً ، وعلى كل حال ولا كمبودي ) .

واني أصرّ على القول ، ايها السادة ، لو ان كمبودياً واحداً ، أو جاسوساً قتل ، كنت أعلمتُ بذلك حالاً . لكن الموضوع الآن بين الأمريكان والفييت كونغ . وهؤلاء الاخيرون بعيدون عن أي كمبوديا . وبما أنه لا يوجد أي دليل كمبودي ، فلماذا تطلبون مني ان احتج . وعلى كل حال ، فان هذا لا يعني بأية حال ، اني سأترك هذا المعسكر أو ذلك يتعدى على أراضي وبلادي . واطلب اليكم ان تسجلوا ذلك جيداً ) .

وفي الثاني والعشرين من شهر آب عام ١٩٦٩ ، تحدّث سيهانوك وباللهجة نفسها مع مانسفيلد عضو مجلس الشيوخ ( بموجب اتصال يروي بتفصيل محادثتهما ) :

( اذا لم يبدر أي احتجاج من سيهانوك ، على أثر القصف الذي جرى في بلاده ، هو لأن هذا القصف لم يصب لا قرى ولا كمبوديين مدنيين ، لكنه أصاب فقط الفييت كونغ أو قواعدهم . وفعلاً لقد أعلمني سيهانوك بكل ما كان يعرفه على القصف الأمريكي ، في المناطق غير المأهولة من كمبوديا ، وكان قد استقى ذلك مما قرأه من تصريحات في الصحافة الأمريكية ، ولقد أكد كثيراً على اجتناب الحوادث التي تعرض للخطر حياة الكمبوديين ) .

وفي الحادي والثلاثين من شهر تموز لعام ١٩٦٩ ، وبعد أربعة أشهر ونصف من قصف قواعد فييتنام الشمالية في داخل كمبوديا ، دعا سيهانوك وبحرارة الرئيس نكسون لزيارة كمبوديا للاحتفاء بتقوية اواصر العلاقات الأمريكية ـ الكمبودية . كانت هذه العلاقات تسير في تحسن مطرد حتى أطيح بحكومة سيهانوك ، دون توقع سابق .

لم يكن هناك أي ريب في حقنا ، عندما كنا نهاجم مناطق ، ينطلق منها الفييتناميون الشماليون ، ليقتلوا قوات أمريكية ومتحالفة . وكانت قد طردت من هذه المناطق ، كل ادارات الحكومية الكمبودية ، والتي لم ينفق فيها ، حسبما جاء في كلام سيهانوك نفسه جاموس واحد . لم نكن نرى أي نفع في الاعلان ان كمبوديا كانت تشجعنا على متابعة القصف ، وان فييتنام الشمالية ، لن تقوم بردود فعل . وان احتفاظنا بهذا السر ، كان حتى لا تثير هذه القضية أزمة دولية ، الأمر الذي يعقد بالطبع جهودنا ، سواء في المجال الدبلوماسي ، أو المجال الحربي . ان الهجوم قد امتدّ الى كمبوديا أربع سنوات قبل هذا التاريخ ، من قبل فييتنام الشمالية ، التي كانت تشغل جزءاً من أراضيها ، واجتيزت خطوة أخرى في زمن الحرب ، عندما خرق الفييتناميون الشماليون ، بدءاً من الثاني والعشرين من شهر شباط ، اتفاقات عام ١٩٦٨ ، مهاجمين المدن . ان

قصف المناطق التي طرد الجنود الفييتناميون الشماليون جميع سكانها الكمبوديين ، ليتمكنوا وبصورة أجدى من قتل أمريكيين ، وبمعدل / ٤٠٠ / أربعمائة اسبوعياً ، ان هذا القصف كان يشكل ردّ فعل جزئياً للدفاع ويتفق تماماً مع سياستنا الدولية . أضف الى ذلك فان الرأي العام الأمريكي كان صدقه فعلاً ، لكنه بقى سرياً ، لأننا عندما نعلن ذلك رسمياً ، نوجه ضربة لا مبرر لها إلى حكومة كمبوديا ، التي ستجبر على طلب إيقاف القصف . أضف إلى ذلك فانها تكون قد شجعت الفييتناميين الشماليين على البدء بهجوم معاكس والأخذ بالثأر . ( وفي الواقع ، كيف استطاعوا عدم ابداء ردود فعل ، في حين اننا نحن كنا نعلن عن القيام به ) ؟ احتفظ الفييتناميون الشماليون بالصمت ، لأنهم كانوا يتمنون حملنا على قلّة الكلام حول تواجدهم غير الشرعي في الأراضي الكمبودية . وفي النهاية ، ان قصفنا حفظ حياة الأمريكيين والفييتناميين الجنوبيين .

هذا هو السبب الذي أغاضنا نكسون وأنا ، عندما لاحظنا في مطالعتنا للصحيفة اليومية . ان هناك هزائم من الجانب الأمريكي . والنيويورك تايمس الصادرة يومي السادس والعشرين من شهر آذار والسابع والعشرين من شهر نيسان و الواشنطون بوست الصادرة في السابع والعشرين من شهر نيسان كذلك ، نشرت تقارير عن غارات جوية من B 52 وأُخرى غيرها ، على قواعد كمبوديا . وفي التاسع من شهر أيار ، ظهر مقال مفصل ، كتبه وليم بيشر في نيويورك تايمس ، وأتبعه بمقال آخر في السادس عشر من شهر أيار في وول ستريت جورنال ، ثم برقية ردّدتها كثيراً الصحافة الدولية المتحدة ، ونشرت بعدئذ في واشنطون بوست بتاريخ الثامن عشر من شهر أيار ، ثم تحدثت عنها نيوزويك الصادرة في الثاني من شهر حزيران .

وبعد ان اعتقد مثلي ، ان الهزائم التي أخذت تظهر في العمليات العسكرية وتحدثت عنها الصحف ، كان تعرض للخطر حياة الأمريكيين ، ذهب الرئيس ليأخذ رأي وزير العدل ومدير مكتب المباحث الاتحادي « F.B.i » حول الاجراءات الممكن اتخاذها لمعالجة الوضع . فأشار عليه جـ . ادغار هوفر أن يركز مراكز تنصت تلفوني ، التي كما أكد ، انها قد استعملت على مدى واسع من قبل الحكومات السابقة لهذه الغاية ( ورأى الكثيرون أن لا مبرر لها ) اما وزير العدل فقد اثبت له ان هذا تصرف شرعي . فركز نكسون حينئذ مراكز تنصت لفئات ثلاث من الموظفين:

الموظفين الذين لهم تماس بالسجلات التي لها علاقة بقضايا الأمن ، وتؤدي الى معرفة معلومات عن المعسكر المعادي .

الموظفين الذين لهم تماس بالمعلومات السّرية ، التي سّببت الهزائم.

وأخيراً الأشخاص ، الذين سبق ووردت اسماؤهم خلال التحقيق ويمكن ان تكون سبب شك بناء على الرأيين السابقين . وبالتركيز على هذه الأسس فان ثلاثة عشر موظفاً واربعة صحفيين . فرغوا لأجهزة التنصّت من قبل مكتب المباحث الاتحادي F.B.I ، بعضهم لمدة بضعة أسابيع . والآخرون لمدة بضعة أشهر ( ولم يكن لمكتبي علم ، إلا بعد قليل من هذه الأجهزة ) وخلافاً لما كتب حول ذلك من أفكار خبيثة ، فلم يشغل الموظفون الكبار وقتهم بالتلذذ بقراءة وافية للتسجيلات الطويلة للمحادثات الشخصية . فأخذوا فعلاً موجزات قصيرة ( ما يقارب صفحة وسطياً ) مما كان يعتبره مكتب المباحث الاتحادي F.B.I محادثات لها علاقة بأمور دقيقة من السياسة الخارجية أو العسكرية . ان المنطلق أقل دقة مما كان عليه في البيت الأبيض . وفي شهر أيار من عام ١٩٧٧ ، أمر نكسون بعدم ارسال تلك التقارير الى مكتبي ، وهكذا بقي هلدمان وحيداً في استقبالها كما كان في السابق .

سأعالج في فصل آخر ، المشاكل التي أثارتها أجهزة التنصت في موضوع الأمن القومي ، وبصورة عامة ، عن الاسلوب السياسي لحكومة نكسون . ويطيب لي فقط أن أذكر هنا ، أني قبلت بما لا يرقى اليه الشك ، بالعودة الى الاستعانة بأجهزة استخدمت في ظروف مشابهة ومن قبل الحكومات السابقة حسبما قيل لي ، بفعالية أكثر وبضمانات أقل . وسبب أيجادها ، كما توضح لي تماماً ، كان لمنع حدوث أخطار عن الأمريكان والفييتناميين الجنوبيين لأن هناك بعض الناس ( الذين لم يكتشف أمرهم أبداً ) كانوا قد أفشوا أسراراً عسكرية ، اؤتمنوا عليها ، ونيتهم في ذلك تدمير الخط السياسي الذي أقمناه نتيجة تفكير عميق ، والذي كان قد اكتسب ، حسب رأينا ، احترام الشرعية ومصلحتنا القومية . هذا واني اعتقد الآن ان الاحتياطات الأكثر دقة ، التي برز منها الالتجاء الى أجهزة التنصت في موضوع الأمن القومي ، تترجم ريبة وقلقاً أهم بكثير من المصلحة القومية . غير اني ما غيرت رأيي بالنسبة لبقاء هؤلاء الناس ، الذين بتخاذلهم في مسؤولياتهم كانوا يحاولون تعطيل الخط السياسي الذي انتهجته الحكومة ، ومعرضين للخطر في الوقت نفسه حياة عدد غير قليل من الأمريكان .

ولكن بالاضافة الى ذلك ، فاني اعتقد اليوم اننا اتركبنا خطأ بعدم مصارحتنا القائمين على أمور الكونغرس . وفعلاً فقد اجتمع كل المسؤولين عن الاعلام بالرئيس نكسون وأنا في المكتب البيضوي بتاريخ عشر من شهر حزيران لعام ١٩٦٩ ، بناء على رغبة أعضاء مجلس الشيوخ جون ستينس وريشارد روسل ، باعتبارهما رئيسي . لجنة القوات المسلّحة ، ولجنة موازنة مجلس الشويخ . وباطلاع ايفيرت ديركسن ، رئيس المعارضة في مجلس الشيوخ ، ومندل ريفرز وليزلي ارندز في مجلس النواب ، المعتبرين أيضاً رئيس وعضو دائم للمعارضة في لجنة القوات المسلحة في المجلس ، وكذلك جيرالد فورد رئيس الأقلية . أما من جهة ليرد فقد أعلم أهم الأعضاء في لجان القوات المسلحة ، ولجان الموازنة في الكونغرس . ولكن لم يطرح أحد السؤال حول وجوب أخذ رأي الكونغرس بكامله . وفي الواقع ، فان العادة تتطلب تصرفاً من هذا النوع ، لاطلاع الكونغرس على العمليات العسكرية التي أقرت ، وعن التغيرات التي اتخذت في هذا المجال أيضاً ، وهذا دون ريب يعود بالنفع .

وفي مجال آخر ، من الخطاء كذلك ان تقول ، اننا بطردنا الفييتناميين الشماليين عن مراكزهم ، فان القصف قد وسّع ساحة الحرب الى داخل كمبوديا . ان الفييتناميين الشماليين ، في حال اخلائهم قواعدهم ، ان هذا يعني لزيادة التأثير على فييتنام ، لا للتعميق داخل كمبوديا ، أقله حتى إسقاط سيهانوك المفاجئ ، الذي حدث بعد ذلك بعام واحد . وبدءاً من هذه الفترة ، فان القوات الفييتنامية الشمالية ، أخذت تحاصر تدريجياً المدن والمواقع العسكرية الكمبودية ، لكي تعزل فنوم بين وتسقط خلف سيهانوك ، كما سأبين ذلك في فصل لاحق . أضف الى ذلك ، فان إطالة أمد النزاع الذي كانت تترجمه ظاهرة هذه الاعتداءات الفييتنامية ، المؤلمة والمؤسفة لم تكن خافية على أحد . وكان الرأي العام الأمريكي يفهمها جيداً ، اذ كانت موضوع مباحثات في الكونغرس ، وتعليقات مستفيضة في الصحافة . اما عملياتنا الجوية ، فكانت تجري ، بموجب أصول دقيقة ، يشرف عليها سفيرنا في فنوم بين ، ويسهّل القيام بها أخذ صور جوية ، تمكن في جميع الاحتمالات ، اجتناب المناطق المأهولة بمدنيين كمبوديين وكان القصف السرّي يستهدف أراضي أقل أتساعاً وغير مأهولة ويشغل معظمها الفييتناميون الشماليون . ولقد أراد البعض أحياناً اعطاء صورة مشوهة عن الحكومة انها محبة للحرب ودموية ، وتغذي مخططاً أسود لتدمير البلاد ، في حين أنها بالحقيقة كانت تهدف الى رجال لديهم ولو بعض القوة ، الذين يخشون استسلاماً في اراضيهم وتصعيداً جديداً للعنف فقد اختاروا ما كانوا يقدرون انه الشر الأصغر ، في قصف فييتنام الشمالية ، ولاقبول الخضوع لذل هجوم دموي وغير مشرف .

ان الهجوم على القواعد المعادية في كمبوديا ، التي كنا نقوم بها ضد رغبتنا والتجأنا اليها كمرجع أخير ، لم تكن لتشكل سوى ردّ فعل بسيط ، لهجوم لا مبرر له ، كنا مجبرين على مواجهته ، والذي كان يكلفنا اسبوعياً اربعمائة أمريكي ، وكنا نهاجم قواعد عسكرية ، حيث لم يكن يوجد مدني واحد ، وكائنة أقله على بعد ثمانية كيلومترات من الحدود . وكنا دوماً على استعداد لتحديد القصف وتعديله ، اذا كان ثمة أقل اعتراض دبلوماسي ولكن لم يعترض أحد ، لامن الكمبوديين ، أو الفييتناميين الشماليين ، أو السوفييت ، وأيضاً الصينيين . وبتصرفنا الرصين هذا ، كناّ قادرين على متابعة الضغط على العدو ، دون تعقيد الموقف الدقيق في كمبوديا ، ودون وضع حد لعلاقاتنا الدولية ، أو التخلي عن فرص الاعتدال .

## دبلــوماســيّة

## في سبيل تسوية سلميّة للنزاع

ان احدى المفاوضات العديدة من التجربة الفييتنامية ، كانت تلك الأبعاد التي سرت سريعاً في تناقضات الرأي العام . كان معارضو الحرب يحثون الحكومة ، على الأخذ بمبادئ المفاوضات التي يقترحون . اذ كانوا يتبنون افكاراً محددة ، هي أساسية حسب رأيهم لإيجاد السلام . ولكن هل تتقبلها الحكومة ، التي كانت تعلن حالاً انها غير كافية . ان برنامج السلام كان يتغير دائماً ( لم تكن هانوي تهتم بتلك الاقتراحات التي يقدمها مريدو السلام للوصول الى اتفاق ، لكنها لو لم تتخذها أبداً أساساً للمفاوضات ، كانت تستخدمها لإثارة الرأي العام ضدنا ، لكن هذا موضوع آخر نعالجه في مايلي ) :

يكفي ، لتكوين قناعة، النظر إلى ما كان عليه موقف مريدي السلام في عام ١٩٦٨ إبان الحملة الرئاسية . ان حكومة نكسون ( وعلى الأقل أنا ) كانت تأمل ان يُجمع كل مواطني البلاد على برنامجها ، لأن مضمونه كان يتطلب العودة فيما بعد الى المفاوضات ، بموجب عدد كبير من الاقتراحات التي تقدم بها مريدو السلام عام ١٩٦٨ ، وهذا ما جعل موقفنا دقيقاً كما سنرى ذلك في ما يأتي :

في بداية عام ١٩٦٨ مثلاً ، فان ووبيرت كنيدي ، عضو مجلس الشيوخ ، كان قد تقدم بمجموعة اقتراحات ، يمكن أن تصبح . ( تسوية مشرفة للنزاع ) التي كانت حسب نظرنا ، متوافقة مع أفكارنا . وهذه الاقتراحات هي التالية :

. إيقاف قصف فييتنام الشمالية .

. تركيز مجموعات كبيرة ، أو ذخائر حربية تحت إشراف دولي ( للأمم المتحدة . لجنة المراقبة الدولية . أو تنظيم دولي آخر ) .

ـ إنقاص عمليات التمشيط والتطهير الأمريكية ، لإبدالها بدفاع عن المناطق ذات الكثافة الديمغرافية .

ـ البدء بمفاوضات ، تضم جميع الفرقاء المشاركين في النزاع ، ولا سيما جبهة التحرير الوطنية .

ـ توقيع اتفاق يتعهد بموجبه الفريقان ، بعدم زيادة ، وبصورة محسوسة ، معدّل التسلل ، أو تقوية المراكز ، طيلة الوقت الذي تجري فيه المفاوضات .

ـ وفي عام ١٩٦٨ ، بعد مقتل روبرت كنيدي ، فان الديمقراطيين الثلاثة العظام المعارضين الحرب : جورج ماك غوفرن ، واوجين ماك كارثي ، وادوارد كنيدي ، تقدموا جميعهم بالبرامج التالي للمؤتمر الديمقراطي :

ـ إيقاف غير مشروط لكل قصف في فييتنام الشمالية .

ـ إعداد شامل لمخطط انسحاب تدريجي ، ولا سيما متبادل ، سواء للقوات الأمريكية ، أو القوات الفييتنامية الشمالية المتواجدة على أراضي فييتنام الجنوبية .

ـ تشجيع وحمل فييتنام الجنوبية ، على مفاوضة مصالحة سياسية ، مع جبهة التحرير الوطني ، على أمل منح فييتنام الجنوبية حكومة نيابية كاملة . وأخيراً :

ـ إنقاص عمليات الهجوم الأمريكي في فييتنام الجنوبية ، للسماح باجراء أول انسحاب لجزء من قواتنا .

رفض مؤتمر الديمقراطيين هذا المخطط بحجة أنه غير معتدل .

واتخذ معظم الديمقراطيين برنامجاً أكثر شدة : كان يتضمن طلب انسحاب مفاجئ لكل القوات الأجنبية ، بما فيها قوات فييتنام الشمالية ، وإيقاف القصف ، في حال ان هذا الاجراء لا يعرض للخطر حياة رجالنا على تلك الأراضي ، وتنظيم انتخابات حرّة تجري تحت مراقبة دولية.

أمّا بالنسبة لبرنامج الجمهوريين ، الذي شاركت في إعداده ، فقد كان يرفض وبصراحة ، فكرة الصلح وبأي ثمن ، أو استسلام لا يريد ذكر أسمه . لكنه يميل إلى اتخاذ اجراءات ايجابية تسمح بتسوية النزاع . بطريقة عادلة ومنصفة لكل الفرقاء . ويلوم في الوقت نفسه الديمقراطيين ، لعدم إعدادهم لمخطط صلح ، يعدون معه ان هناك حكومة جمهورية ستتابع بأمانه ونشاط مفاوضات في سبيل السلام ، وكان يعد بالإضافة إلى ذلك تحرير الولايات المتحدة من الحرب تدريجياً ، والمساندة الكلية لموظفينا في مراكزهم في البلاد ، وتقوية البنية السياسية في فييتنام الجنوبية .

وفي شهر آب من عام ١٩٦٩ ، لقد قدّمنا بل بدأنا بتطبيق ومن جانب واحد ، كافة الاقتراحات الواردة ، في البرنامج المعتدل الذي تقدم به الديمقراطيون عام ١٩٦٨ ( والذي كان قد رفض في شيكاغو ) وتخطينا بذلك وعود البرنامج الجمهورية ، مؤملين جيداً ، ونحن نظهر ليونة كبرى ، حث هانوي على الاعتدال ، وبلادنا على إيجاد وحدتها . وأملنا الضعيف هذا خاب مضاعفة . وفي الحقيقة ، ان ما كانت تريده هانوي هو الغلبة ، وليس تسوية ، ورفضها المحادثات ، استقبله العديد من النقاد وكأنه أمر عادي . أضف إلى ذلك فان عدداً من الموظفين القدامى ، الذين قاموا بخدماتهم في ظل الحكومات السابقة ، لم تتملكهم الحيرة ، في زيادة ضغوط الرأي العام ، عندما تقدموا باقتراحاتهم الخاصة ، وبالرغم من الدور الذي كانوا قد قاموا به عند دخولنا الحرب ، وواقع سجلاتهم التي كانت براء من كل اقتراح للسلام .

( وبالرغم من ان وزير الدفاع . كلارك كليفورد . كان قد أعلن في العاشر من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨ : دعوني أردّد عليكم ، اننا حالياً لا نقصد اجراء أي تخفيض ملموس في عدد قواتنا المسلّحة في فيتنام ، ان قوله هذا لم يمنعه أبداً ، في أقل من ستة أشهر على تركه منصبه ، ان يخطر رسمياً الحكومة الجديدة للاعلان عن انسحاب شامل للقوات الأمريكية . واقتراح المفاوضات الوحيد ، الذي كنا قد ورثناه ، وما يسمى بتصريح ( مانيلا ) في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٦ . ويتوقع فيه ان القوات المتحالفة ستنسحب نتيجة اجراء مشاورات ، بينما ان الجانب الآخر ، سيسحب قواته إلى الشمال ويمنع كل تسلل ، ونتيجة ذلك سينخفض العنف . وسترحل هذه القوات بأقرب وقت ممكن ، وفي كل حال ، في فترة معظمها ستة أشهر ، بعد ان تكون هذه الشروط المنوّه بها في اعلاه ، تكون قد اجتمعت . فقدمت حكومة فيتنام الجنوبية ، خلال برنامج مصالحة وطني ، قبول الفيتناميين الذين خُدعوا أو أجبروا على الانضمام إلى فييت كونغ .

وخلال محادثات خاصة جرت في باريس ، في الخامس عشر من شهر أيلول من عام ١٩٦٨ ، أكد المفاوضان من الجانب الأمريكي ، وكانا اذ ذاك : افريك هاريمان وسايروس فانس ، أكدا للفيتناميين الشماليين ، ان الخلاصة من تصريح مانيلا : كانت تعني ان يكون انسحاب القوات متبادلاً ، ويعمل به حالاً من قبل الكونغرس . لكن شريطة ، ان يبقى بالمقابل قسم من القوات الأمريكية في اماكنه ستة اشهر على أعظم حد ، بعد رحيل جميع الفيتناميين الشماليين دون استثناء .

خلال فترة الانتقال ، طلبت أيضاً إلى هاريمان وفانس ، ليعرضا عليّ وجهة نظرهما الشخصية ، حول الطرق المختلفة الممكنة للبدء بالمفاوضات . فلم يختلفا أبداً عن المواقف الرسمية التي كانت حكومة جونسون قد اتخذتها .

كان افريل هاريمان في آخر مهمة دبلوماسية ناجحة جداً . وأول مرّة التقيته ، كان يشغل منصب قائم بالأعمال للشرق الأقصى لدى وزارة الشؤون الخارجية ، في بداية حكومة كنيدي . وبتحديد غير متسع المدى ، كان هذا الرجل المحنّك الأشيب ، يقوم بمهام وظائف ، يرفضها رجال أقل اعتباراً ، وبكل احتقار وكأنها تحط من قيمهم ، وذات مرة ، عندما عين في وظيفة لدى الحكومة ، وكان ذلك منذ أربعين عاماً مضت ( أي قبل العالمية الثانية ) فلم يعر انتباهه لعمل آخر غير وظيفته . ان نبل سلوكية هاريمان كان يرافقها حزم جازم ، يدفعه لفرض آرائه الصائبة على الآخرين . ويسعى في إيهام الناس ان طبعه متلون ، ويستخدم صممه النسبي لمصلحته . وهكذا كان يحضر ، اجتماعات ، متظاهراً بعدم السمع ، حتى تجلب انتباهه ملاحضة ما : فكانت مبادرته حيوية يرافقها بعض الإزعاج ، حسبما كان أحب اوكره ما كان قد سمع . وتعاقب هذه الظروف ، حيث كان يُظن أنه هامد ساكن . ومن ثم ارتفاع أصوات مفاجئ ، نست تسميته وليس دون حق ( بالتمساح ) .

لا يستطيع امرؤ إلا أن يتأثر بتفاني ، وحيوية ، وخبرة ، وحكمة هاريمان ، انه كان آخر رجل سياسي في الوظيفة ، يمكن تكليفه شخصياً بمهام لدى زعماء الحرب العالمية الثانية . تشرشل . روزفلت وستالين . ان مثابريته على القيام بالواجب ، كانت ناتجة ، لا سيما من حيويته ، ولكن لنذهب بعيداً ، فان هذه الحيوية كانت تعكس روحاً بنضارة كبيرة جداً . لم يكن يقبل التكليف بمهمة لا يؤمن بها ، ولديه ميل ان يجعل من كل واحدة بينها حملة شخصية . واذا لم يشغل المناصب العالية ، التي تخوله إياها صفاته العالية . دون منازع ، فان جزءاً منه يعود إلى الانزعاج الذي تسببّه شخصيته القويّة جداً ، لدى أناس هم أقل منه قدراً ، ويعود الجزء الآخر إلى ميله للدفاع بحماس عن قضيته التي يعيش . ولو على مضرة أمور أكثر أهمية .

وفي القضية الفييتنامية ، أدرك هاريمان حالاً ، أن حلاً عسكرياً غير ممكن ، لأنه كان يعتقد كغيره ، ان الوسائل الواجب استعمالها للوصول إلى النصر ، يمكن ان تسبّب تدخل الصين . ولأجل هذا ، جعل من نفسه المدافع الذي لا يكل في سبيل المفاوضات . فكان يجادل بعنف ضمن الادارة ولم يخش استخدام فصاحته وهيبته اللتين تشكلان ثروته ، لينسج حول نفسه

شبكة علاقات اجتماعية ، تسمح بتقدم قضيته . أضف إلى ذلك فانه كان يعرف استخدام الصحافة .

وعندما التقيته خلال فترة الانتقال ، وجدت فيه موظفاً رفيع المقام له زمن طويل في خدمة البلاد ، وكان على أهبة ترك مفاوضات باريس ، تماماً في الوقت الذي أخذت فيه تنطلق ، وحيث كنت أنا ادخل في سلك وظائف الحكومة . وكانت خلافاتنا تتزايد خلال أعوام ، لكنها لم تؤثر بشيء من إعجابي به ومحبتي له . كما انها لم توقف رقّته وتفانيه في سبيلي . وكنت آسف دائماً من عدم ثقة نيكسون تجاه منشآت الشمال الشرقي والأفضليات المؤيدة لها ريمان . التي منعت الحكومات التي خدمتُ فيها ، من الانتفاع بخدماته ، حتى ولو كان ذلك بالنسبة لي ، فاني التقيته و باتنظام بصورة شخصية ، وافادني كثيراً ، طوال السنوات التي خدمت فيها بلادي .

وفي السابع من شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ ، عرض هاريمان مذكرة لم تنقحها حكومة جونسون ، والتي كانت ترسم حسب رأيه اتجاهاتنا ، اذ كان علينا التقدم بالرجاء إلى الفييتناميين الشماليين لمغادرة فييتنام الجنوبية ، وهذا يعني ليس فقط وحدات الجيش النظامي وملاكاتها ، بل كذلك وحدات الاحتياط لدى فييتنام الشمالية المتأهبة لشدّ إزر وحدات حرب العصابات التي يقوم بها الفييت كونغ . واذا كانت المحادثات تجري ضمن شروط حسنة ، فمن المفروض طرح تخفيض تدريجي في العمليات العسكرية . ثم أضاف فأكد بقوة على تصريح ما نيلاً : يمكن ان يتضح وجوب بقاء عدد ما من القوات الأمريكية في فييتنام مدة أطول ، في حال عدم تأكدنا من مغادرة الفييتناميين الشماليين الأراضي الجنوبية . وفي المجال السياسي ، فقد اتخذ هاريمان موقفاً ثابتاً أيضاً ، وكان يتعلق هذه المرة بسايغون . انه من أنصار اجراء مفاوضات مزدوجة متوازية ومتميزة ، حسب طبيعة المشاكل المطروحة . (غير ان هذا كان موضوع مقالي الذي يظهر في شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٩ في مجلة الشؤون الخارجية ) : ان الولايات المتحدة وهانوي لن تجري مباحثات بينها إلاّ في المسائل العسكرية ، بينما ان وضع حلول للقضايا السياسية سوف يبحثه الفرقاء الفييتناميون . وأضاف هاريمان بلهجة مزّة ( لا شيء يلزم الولايات المتحدة بالدفاع عن حكومة أعلنت في فييتنام الجنوبية ) . وبموجب المذكرة التي وجهها إلى معاونه ، سايروس فانس ، في الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨ ، فان فانس كان يرى الأشياء أيضاً بالمنظار نفسه .

وهكذا ، فان مفاوضينا القديمين ، اللذين يستحملان قريباً حصة حيوية في المناقشات التي بدأ بها أنصار السلام ، ان هذين تخليا عن منصبيهما مع تأكيدهما على أهمية انسحاب متبادل ، خلال مدة ستة أشهر ، يتاح فيها للأمريكان التأكد من مغادرة الفييتناميين الشماليين ، قبل إجلاء ، كما يتفق عليه ، آخر قواتهم ، وحول الإعداد لانتخابات حرّة ، فان الضرورة تقضي الإبقاء على القضايا السياسية لتلقي حلّها من قبل الفرقاء الفييتناميين وحدهم . أضف إلى ذلك ، فان الاثنين كانا متأكدين ان الأمريكان سيجبرون على إبقاء جزء من قواتهم مستقرة في أمكنتها . ولم يطلب أو يؤكد لا هذا ولا ذاك على انسحاب احادي الجانب للقوات الأمريكية ، أو حكومة ائتلافية ، أو وقف إطلاق نار غير مشروط ، وكل المطالبات التي دارت حولها ، بعد سنة على الأقل ، مناقشات القضية الفييتنامية التي يعود جزء منها في الواقع لتدخلهما.

وكانت هانوي مفاوضنا الآخر وإبان اغتباطنا بوصولنا الجديد الى السلطة ، أخذت في تشجيع نيكسون ، الذي لم يكن آنذاك سوى رئيس منتخب ، ألاّ يضيع الفرصة في التبيان عن نواياه الطيّبة نحو بلاده . وكنت في الوقت ذاته احثّه على محاولة الانفتاح نحو هانوي ، بطريقة خاصّة ، بوساطة صديقي جان سانتيني ، مفوّض عام قديم لفرنسا في هانوي . وفي العشرين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨ ، وجهنا مذكرة للفييتناميين الشماليين ، مؤكدين في الواقع اننا على استعداد للبدء بمفاوضات جادّة :

١ . ان حكومة نيكسون على استعداد لاجراء مباحثات رسمية .

٢ . يجب أن ترتكز هذه المباحثات على عزّة النفس القومية والحفاظ على شرف جميع الفرقاء .

٣ . ان حكومة نيكسون على استعداد للوصول إلى اتفاق مشرف لكنها لن تضحي بشيء في هذا السبيل .

٤ . واذا وافقتنا هانوي على رأينا ، فان حكومة نيكسون راغبة في المقام الأول في مناقشة أهداف أساسية .

٥ . واذا رغبت هانوي مشاركتنا بالرأي في بعض هذه الملاحظات قبل اليوم العشرين من شهر كانون الثاني ، فسنقوم بدراسة ذلك من خلال منظار بنّاء . وبطريقة سرّية جداً .

وتلقينا جواب فييتنام الشمالية في اليوم الحادي والثلاثين من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨ ، وهو لا يعير اهتماماً كبيراً للشرف ولا للعزة القومية . وكان يتضمن فقط متطلبين أساسيين :

الانسحاب الشامل القطعي لكل القوات الأمريكية ، وإبدال ما كانت تسميه هانوي : ( جماعة تيو . كي . هيونغ ) ، وهذا تغبير ترغب من خلاله تعيين مفاوضين من سايغون ، مفروض التفاوض معهم . أما هانوي فكانت تكتفي من جانبها التأكيد على موقفها الرسمي ، الذي حددته اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطنية ( أو فييت كونغ ) في الثالث من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٨ أي بيومين فقط قبل إيقاف القصف الذي أعلن عنه الرئيس جونسون . وبعيداً عن حصول أي عمل مبادل ، كما كان يتوخاه البعض فان إيقاف القصف ، كان قد شجع هانوي على فرض بعض متطلبات رئيسية في المجال السياسي ، مّما ساعدها على البدء في إسقاط الحكومة التي كنا نحن نساندها .

وهكذا جوبهت حكومة نيكسون ولأول مرة ، في المجال السياسي ، باجراء مغيظ من قبل فييتنام الشمالية . من المستحيل العثور على جماعتين خلقتا حتى لا تتفاهما على مصيرها ، اكثر من الجماعة الفييتنامية والجماعة الأمريكية . من جهة ، فإن تاريخ فييتنام والايديولوجية الشيوعية ، كانا مترادفين لايجاد قلّة ثقة شبه سقيمة مع نفاق واضح . بالاضافة إلى التفكير المنهجي والعقلاني الموروث عن الاستعمار الفرنسي السمؤول عن عادة عُقدية جداً ، كانت لدى الفييتناميين الشماليين ، حيث يلجؤون إلى التفكير المنطقي للدفاع عن قضاياهم . فكانوا يقدّمون كل واحدة من اقتراحاتهم وكأنها الوحيدة من حيث القبول من المناقشة من وجهة نظر منطقية ، ويصيغون كلاً من متطلباتهم بصيغة الأمر كأن يقولوا ( يجب على الولايات المتحدة ) . وفي عام ١٩٧١ . كان الفييتناميون الشماليون يتحكمون فينا ، وحين أبدلوا كلمة ( يجب بكلمة ( يجدر بهم ) اعتبرنا ان هذا كان تقدماً ملموساً . ومن جهة أخرى ، فان الصفات الطيبة التي كان يتحلى بها الأمريكان كان يقال لها : ارادة خيّرة وروح تسامح ، وهذه صفات تدعو جميع الأسباب لاحتقارها من قبل لينينين عقائديين ، كانوا يعتقدون انهم رسل : مجتمع لا بدّ آتٍ ، وحقيقة مطلقة ، واخلاق عليا .

ان بقاء الفييتناميين الشماليين ، كان يتعلق ، على مدى تاريخهم ، بمهاراتهم الكبرى ، في المعالجة الماديّة للغرباء الذين كانوا أقوى منهم ، وكان عليهم بأي ثمن أن يجتنبوا إظهار أنفسهم بمظهر الضعفاء . وهكذا ، فانه بالنسبة لهم ، قبول امكانية الوصول إلى التسوية ، كان يوازي لديهم الإقرار ببعض الشأن لخصومهم ، ويشكل في ذاته تفكيراً غير مقبول أو معقول . ولأجل هذا فان الفييتناميين ، كانوا قد اتبعوا طريقة الاتصالات غير المباشرة ، وهذه كانت حسب الرأي الأمريكي ملتوية ومحيرة . ومع علمنا بأنهم يدينون بقدرتهم ، بإقدامهم على دمج

رجال ونساء من مختلف الثقافات والعقائد ، ومع تلك فان الولايات المتحدة ، كانت قد اختطت لنفسها مبدأ الحلم ، ونحن كأمريكيين ، لم تكن عادتنا في اجراء تصدعات لا تنعكس ، بل كان اعتقادنا ان تسوية نزاع ما ، كان عليها ان تمرّ في السعي عن وسيلة تتوسط بين موقفين متضادين . ولكن بالنسبة للفييتناميين ، فهذا كان يعني اننا غير مهتميّن بما طرحناه سابقاً واننا نعالجه سطحياً ، وانهم لم يعاركوا طيلة أربعين عاماً بغية الوصول إلى تسوية ، وطريقة الاتصالات الغامضة غير المباشرة ، التي يسير بموجبها الفييتناميون ، كانت تخصّص لإبقاء عدد كبير من السبل مفتوحة أمامهم من جهة ، ومن جهة أخرى ليلغُموا وضعنا في المجال الداخلي . أما موقفنا فكان واقعياً ويتوقف على أيجاد وسيلة لمصالحة من لا يريد المصالحة ، وهذا ما كانت تعتبره هانوي فخاً يجب ألاّ تقع فيه ، أو ضعفاً يجب عليها استغلاله .

أضف إلى ذلك ، انه كان يجب علينا ، معرفة السبب الحقيقي لموقفهم هذا ، اذ كان الفييتناميون الشماليون يعتبرون أنفسهم مدعوين إلى معركة ضارية . وبالنسبة لهم ، فان المفاوضات لم تكن تشكل لديهم مبادرة منفصلة عن المعركة ، بل هي جزء منها . ان محادثات باريس لم تكن الوسيلة المؤدية الى اتفاق ، إنما أداة حرب سياسية ، فكانوا يستخدمونها كسلاح لإنهاك أعصابنا ، ولإبعادنا عن حليفنا فييتنام الجنوبي وتقسيم الرأي العام الأمريكي ، عارضين مخططات حلول غامضة ، والتي حسب رأيهم لا يعمل بها بسبب الموقف الأحمق الذي تسير بموجبه حكومتنا ، وبسبب عنادها . وكان يخشى الفييتناميون الشماليون ، اننا نستخدم المفاوضات لنؤكد مساندة الرأي العام لنا . واذا رفضوا التسوية ، فلأنهم يعتقدون ان كل تقدم ولو ظاهرياً يوشك ان يقوي موقفنا . فكانوا يفضلون أذاً طريقة المحادثات المنفردة ، التي تسمح لهم بمعرفة الوضع دون دفع أي ثمن لأي تقدم ظاهري . والغاية من كل التأثير على الرأي العام الأمريكي ، عند التوصل لاجراء اتفاق على نقطة معينّة . ونأخذ مثلاً على ذلك ، ان إيقاف القصف جاء مباُشرة قبل انتخابات عام ١٩٦٨ ، لغاية إلزام مرشحي الرئاسة الاثنين للتقيدّ به . وكذلك فان مسألة شكل الطاولة سويّت تماماً قبل تولية الرئيس الجديد ، لتمنع الحكومة الجديدة من المشاركة بهذا النجاح الحاصل في بداية استلامها الحكم لتوطيد مركزها . وطيلة زمن الحرب ، كان الفييتناميون الشماليون يحتقروننا ، اذ كانوا يقدّمون لزوارهم من الأجانب ، ولا سيما ، المعارضين منهم الحكومة الأمريكية القائمة ، صورة أناس يفكرون بأمورهم بصورة جدية . وتجاه هؤلاء المدعّوين ، الذين يحتفظ لهم أحسن الاستقبال ، كان قد أعدّ الفييتناميون الشماليون ، جدول كلمات كليّة الإبهام ، كانت تعطي مجالاً لعدّة تفسيرات ، دون أن

تكون واضحة أو وافية بالغرض ، للتأكد انها هي الأفضل ، أو أنها الحقيقة ليستطيع الزائر تصديقها . ولكن ولا واحدة من هذه التفسيرات كانت تثبت أمام تجربة المحادثات على طاولة المفاوضات .

ان نجاح الحملة الدبلوماسية ، التي استخدمها الفييتناميون الشماليون ، للحصول على إيقاف القصف ، شجع تجربتهم الممكن استعمالها في المفاوضات كأداة حرب بسيكولوجية . لقد استطاعوا تدمير فييتنام الجنوبية ، ولاوس وكمبوديا بقوات متعددة ، دون أقل مجابهة ، وخرقوا بصورة جلية اتفاقات جنيف لعام ١٩٦٢ حول لاوس ، والتي كنا شركاء في التوقيع عليها . ومع ذلك ، لما سعت الولايات المتحدة ، لتوجد احتراماً للاتفاقات الدولية ، والدفاع عن حرية الشعوب المتحالفة ، فان هانوي التي أكدت بإيقاف القصف ، كشرط لقبولها في قاعة المفاوضات ، قد ربحت القضيّة .

اما من وجهة نظر المفاوضات ، فان أحسن طريقة كانت بالنسبة لنا تكوين اقتراح ممكن القبول ، والتمسك به دون طرح غيره حتى نحصل على مبادلة بالمقابل . ولكن بمقدار ما كنا نثبت في موقفنا ، نرى أنفسنا مجبرين على الخضوع لضغوط الرأي العام والادارة اللتين كانتا تشجعان هانوي بزيادة للتصلب في عنادها . واستطعنا مع ذلك ابداء دليل على حسن نيتنا ، إذ أقدمنا على عمل اشارة أو اثنتين في سبيل تهدئة الوضع ، فقلصنا من عملياتنا العسكرية وسحبنا قسماً من قواتنا ، ورفضنا أي اجراء آخر بانتظار ان هانوي بدورها تقدمُ تنازلات . لكن هذه الطريقة أيضاً كان وضعنا الداخلي يحرمنا إياها . وكانت هانوي تستخدم كلاً من هذه الاقتراحات سواء تقليص عملياتنا ، أو سحب قواتنا ، لتظهر للعالم صحة دعواها ، ثم تعلن بعد ذلك أنها غير كافية . وما كان على هانوي سوى تحديد ما يبدو لناظريها انه كافٍ . أما بالنسبة لنا ، ففي الواقع ، صرفنا أكبر قسم من نشاطنا في التفاوض مع انفسنا .

وبسرعة قصوى ، فان محادثات باريس ، جرت في طريقة ثابتة ، في قاعة الاجتماعات ، كان الفييتناميون الشماليون ، يقومون بدور أستاذ صارم يوبّخ تلميذاً مشاكساً . وكان يُحاكم الطالب على الطريقة التي يجيب بها على اسئلة ، لا يستطيع تعديل شكلها ، بموجب معايير ثبّتها الأستاذ الوحيد . وخلقوا خارج قاعة الاجتماعات فكرة وهمية ان المفاوضات كانت تشبه رواية بوليسية . فكانوا يسمعوننا كلامنا ويعطوننا دلائل مبهمة ، عليها ان تعيننا لإيجاد حلول صحيحة . واذا لم نجد مفتاح اللغز ، فان الحرب تستمر ، ويتهموننا أننا اضعنا فرصة . هناك

عدد من الذين يغتابوننا رأوا طريقة هذا التصرف عادية ، وقليل من الناس ناهضوها . أضف إلى ذلك ، فان ما من أحد تساءل فعلاً ، لم هانوي لا تصيغ اقتراحات مفهومة وجلية ؟ ولماذا تتصرف بهذه الطريقة غير المباشرة والتلميحية . بكل تأكيد ، عندما أشرف هانوي على الانتهاء ( في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢ ) أظهرت نفسها انها قابلة للتفاوض بصورة واضحة ، وقادرة على صياغة اقتراحات واقعية ، بعد ان كانت طيلة هذه الفترة ماهرة في تشويش الوضع ، كما اظهرت ان صبرها قد نفذ في سبيل الحل وهي التي لم تكن تبدي أقل اهتمام سابقاً .

وقد أصبحنا الآن بين المطرقة السندان ، من قبل هانوي من جهة ، ومن قبل معارضي الحرب من جهة أخرى ، ولا شيء يدعو للدهشة اذا وجد ضمن الحكومة الجديدة ، اختلافات كبرى في الرأي والتقدير . ومضى ما يقارب العام ، قبل ان نتمكن من اعداد خطة نسلكها لمتابعة المفاوضات . وكان الرئيس أكثر تشاؤماً من جميعنا . فلم يكن يعتقد ان المفاوضات تصل الى نتيجة ما ، طالما ان الوضع العسكري لا يتغير أساسياً . وحسب رأية لن تقبل هانوي تسوية ، ما لم يكن لديها خيار سواه . وعموماً فهو نصير لاستخدام القوة ، ولم يكن كثير الميل لاجراء مفاوضات ، طالما اننا لم نتقدم في المجال العسكري .

أما روجرز ، فكان موقفه متناقضاً كلياً . انه قد اكتسب خبرة في مجال السياسة الداخلية ، ولم تكن لديه افكار ثابتة في السياسة الخارجية ، ولأجل هذا كان يعتقد ، ان على الحكومة ، قبل كل شيء اجتناب إثارة حرب كلامية في البلاد ، وأن تتهم بالعناد ، ان عدداً كبيراً من أعضاء وزارة الشؤون الخارجية كانوا يساهمون النظر هذه عن طريق الصحف الهامة ، وعن طريق الشخصيات الأكثر اعتدالاً من الكونغرس ، بعضهم عن اعتقاد ، والآخرون عن خوف . وترجم هذا بطريقة ملموسة بواقع اننا تلقينا سيلاً من الاقتراحات صادرة عن وزارة الشؤون الخارجية وكانت صفتها المميزة ، في انها ستعيد دراسة جميع العروض التي تقدم بها الفريق المعادي وبصورة غامضة ، وتتقبلها جميعها . ( وكما سوف نراه فيما يأتي ، ظهر دائماً انه أوهام ) . وغالباً ما كان روجرز يتقدم باقتراحات موضحاً بأنه ن يأخذها على عاتقه ، لكننا لن نجرؤ على الصمود أمام ضغوط الرأي العام ، اذا لم نبدِ استعدادنا لبحثها في باريس . ومن الواضح أن منذ هذه اللحظة ، حالما تسجل احدى هذه الاقتراحات في جدول أعمال المبحاثات ، نوقن بشرعيتها ، ولا يبقى علينا سوى الخيار مما كنا على استعداد لقبوله .

ان وجهة نظر ليرد كانت أكثر تعقيداً ، كان يعتقد أيضاً في قلة جدوى المفاوضات ، قبل امكانية الحصول على نصر عسكري ، لكنه في الوقت ذاته كان يتقدم بآراء في المجال السياسي . وكان يريد قبل كل شيء ، ان تنسحب الولايات المتحدة من النزاع الفييتنامي ، قبل ان تضيع قسماً كبيراً وهاماً من مساندة الرأي العام الأمريكي . لكنه يتمنى الوصول إلى ذلك دون التسبب بانهيار فييتنام الجنوبية . وهذا يدل بوضوح أنه أصبح نصيراً قوياً للقضية الفييتنامية . وبصورة عامة ، كان يمثل وضعاً ثابتاً على طاولة المفاوضات ، وانسحاب القوات ضمن برنامج معجّل . وبعد أن حصل على تكوين فكرة ان القضية الفييتنامية ستعطي نتائج حسنة ، فان هذه أصبحت هدفه المفضّل .

وبالنسبة لي ، كنت أعقد آمالاً على المفاوضات ، وربما كان هذا غير واقعي ، تجاه ما تكشفت عنه الأمور . وكنت أعتقد كذلك انه مسموح ان نأمل بالوصول الى نتيجة مقبولة من الآن إلى أقل من عام . جَهدت كثيراً لتجديد المفاوضات ، وفي الحقيقة ، كما سأشرح ذلك في ما يأتي ، كنت في شك من تأثير القضية الفييتنامية ، ولم أكن أفكر أبداً اننا نتمكن من الوصول الى انتصار . اذا وجدت هذه الفرصة الآن ، فان أسلافنا كانوا قد فوتوها . أضف الى ذلك ، اذا اردنا نجاح دبلوماسيتنا ، يجب ان نستخدم وبذكاء كل جهودنا في المفاوضات . نحن بحاجة الى ستراتيجية تجعل من نظرية متابعة الحرب أقل إغراء من التسوية . وتبنيت مبدأ المفاوضات في زمنين اثنين ، حيث هاريمان وفانس كانا قد امتدحاها في مذكراتهما السياسية ، التي تقدمها بها في فترة الانتقال ، والتي وضحتها في مقالي الذي نشرته في مجلة الشؤون الخارجية . وبصورة عامة ، فقد نالت طريقة العمل هذه موافقة نكسون .

لكن الأمور لم تجر بالدقة التي توقعنا . وفي الواقع . ناقشنا طوال عدة أشهر مخطط الانسحاب المتبادل ، المنصوص عنه في اعلان مانيلا الذي ورثناه . وكنا نناقش أيضاً خلال هذه الفترة ، عما اذا كان علينا البدء بسحب قواتنا بعد الانسحاب الكامل لقوات فييتنام الشمالية ، أو ان يكون سحب قوات الفريقين في آن واحد . وكانت مناقشة غير معقولة ، بالرغم من ان هانوي مبدئياً ، لم تكن لديها نية بسحب قواتها ، وثانياً ، كان العالم كله على علم أننا قررنا اجراء انسحاب من جانب واحد خلال بضعة أشهر .

والمشكلة الثانية التي واجهتنا مدة شهور عدة ، كانت تتعلق بعدد العساكر الواجب ابقاؤهم في أماكنهم ، بعد الانسحاب المتبادل لقوات المعسكرين . وكل الفرقاء ذوي العلاقة كانوا

يقدرون إبقاء عدد كافٍ ، ربما يصل إلى مائة ألف رجل بجاهزية كاملة . ( وهذا ما كان نّوه به كل من هاريمان وفانس في مذكرتهما السياسية خلال فترة الانتقال ) . ووزارة الدفاع كانت تناصر كذلك فكرة إبقاء قوات قتالية . لكننا تجاوزنا هذه المشكلة بنتيجة ما جرى في البلاد من أحداث وتنافس .

وحصل خلاف ثالث ، يتعلق بتقليص القتال على أرض المعركة . ان وفدنا المفاوض في باريس ، الذي كان يعتقد ( خطأ كما سوف نرى ذلك ) ان هانوي ستثير هذه المسألة ، أكد بعدئذ اننا سنجبر على إيجاد جواب . وان وزارة الشؤون الخارجية ووفدنا في باريس ، كانا متفقين بالرأي اننا سنطرح للمناقشة مخططاً لتقليص غارات B 52 والعمليات الهجومية الأمريكية ، وكذلك استعمال المدفعية . وقيادة القوى المحاربة في سايغون وكذلك رئاسة الأركان المشتركة ، وكانا يعارضان ذلك بقوة ، مشيرين إلى أن اجراءات كهذه ستبقى للعدو القيام بمفاجأة عسكرية وتسمح له بنتيجة ذلك تركيز قواه في المناطق المأهولة . ومثل القضايا والمشاكل التي مرت ، فان هذه أيضاً لم تعط أية فائدة ، إذ أن هانوي لم تبدِ أقل ايماءة حول تقليص العمليات ، حتى لو قمنا نحن بهذه المبادرة من جانب واحد . وفي الواقع الفييتناميين الشماليين كانوا يفضلون الانتصار أكثر من إيقاف القتال .

وتجاه عناد هانوي ، فقد طرحنا من جانبنا مخططاً حربياً ، وضعه موظفون لا خبرة لهم ، وحيث اننا في هذه الفترة لم تكن لدينا ستراتيجية محددّة ، للسير بالمفاوضات . ومهما كان لون الحكومة السياسي ، أو طبيعة المشاكل المطروحة ، فان المفاوضين الأمريكيين كانوا راغبين في العموم انجاح مهمتها ، ولأجل هذا منذ أن يلاحظوا مرور المحادثات في مأزق ، كانوا يطوفون واشنطون بالمقترحات الكثيرة للتمكن من الخروج منه ، وكانوا يسعون دون كلل على طرح غيرها . ودون أخذنا حذرنا مبدئياً فان مفاوضينا كانوا يمارسون ضغوطاً ، أقوى متى التي يبادرنا بها العدو ، تدفعهم الى ذلك الرغبة الملحة في الوصول إلى تسوية ، أو على الأقل إلى حل قريب منها ، ويتحملون على مضض المشاكل المتراكمة . أضف إلى ذلك وبالرغم من ان القرارات التي اتخذتها واشنطون هي دائماً في موقع خلاف ومضادة ، فان المفاوضين كانوا يتمكنون دون خوف السير بعيداً في طرح ما يريدون من افكار ، عالمين ان الوزارات الأخرى ، التي تساند وجهة النظر المعاكسة ، ستكون مفرطة في طبيعتها الأخرى . وكانت مهمة الرئيس تقوم على السعي بإيجاد تسوية وسط ضغوط المعارضة ، لا أن يُعد برنامج عمل . وعند رفضه اتباع تفصيلات هذا المخطط ، فانه في خطر ان يرى كل واحد من الأحزاب يتبع تماماً الطريق التي تناسبه .

وهذا ما جرف عليه فعلاً المفاوضات في باريس . وطوال شهر شباط ، وحتى بداية شهر آذار ، فـان الوفـد المفـاوض فـي بـاريس ، لـم يفتـر عـن المطالبـة بافتتـاح المحادثـات الفرديـة مـع الفييتناميين الشماليين ، وعلى أساس جميع النظريات الداعية إلى وضع تسوية . وأخيراً عندما جرى أول اجتماع فردي وهام في الثاني والعشرين من شهر آذار ، فانه لم ينته الى مفاوضات بل إلى متطلبات من قبل الفييتناميين الشماليين ، الذين كانوا يطالبون بانسحاب غير مشروط لكل القوات الأمريكية ، وكذلك مغادرة حكومة تيو . كي . هيونغ .

ولكن بدل التفكير بأصول الاقتراحات المطروحة ، فان الوزارات المختلفة كانت تقترح افكاراً كثيرة في سبيل تسوية .

وكان روجرز أول من انتهج هذا المسلك ، حينما أجرى محادثة في الثامن من شهر آذار مع السفير دوبرينين ، ورفض من جانب واحد القرار المتخذ حول معالجة القضايا السياسية والمشاكل العسكرية في مفاوضتين متميزتين . وصرح روجرز إلى دوبرينين ، ان رغبتنا هي في اجراء المحادثات السياسية والعسكرية في آن واحد . أضف إلى ذلك فقد تجاوز ارادة الرئيس ، بعدم تنظيم محادثات فردية ، طالما ان سايغون ستكون مهاجمة ، كما اقترح روجرز افتتاحاً عاجلاً لمحادثات فردية مع هانوي . وبعكس ما كان قد قيل سابقاً ، فقد ترك الباب مفتوحاً لإشراك سايغون وجبهة التحرير الوطنية فيها . ولم يقترح روجرز أيضاً ، إيقاف الهجوم الفييتنامي الشمالي ضد المراكز الكبرى المدنية ، كشرط مسبق لذلك . ولم يكن جواب دوبرينين يثير الدهشة حيث قال : انه كان يعتبر بعد كل ما سمع ان موقفنا كان قد تبدل تماماً .

كنت أنا يائساً . وحسب رأيي فان روجرز كان قد تهرّب ، وبهزيمة حقيقية ، حول نقاط أساسية يتطلبها موقفنا ، دون الحصول على شيء بالمقابل من الفريق الآخر . وكان بذلك يبذّر بجميع جهودنا ، ليستطيع تشكيل الصفحة الأولى من الصحف اليومية . على فرض اجراء محادثات . وكان نكسون يرى الأمور بطريقة أكثر وضوحاً . ولا شيء أبعد من الحقيقة ، إلا التفكير ان نكسون يحمل أفكاراً امبريالية !!! وذلك عند إصدار اوامره بجفاء الى الموظفين لينى العريكة . وفي الواقع ، كان لدى نكسون خشية من إصدار أوامر مباشرة ، وطبعاً إلى الذين كان يخشى انهم لا يوافقونه في الرأي . وكان نادراً ما يوبخ أحداً ، ولم يسع قط في تطويع أحد وزرائه . وإذا اصطدم بمعارضة ، كل يجتهد في تحقيق برنامجه ، دون ان يشعر مضادّة بذلك . وهذا كان يسمح له بالتمكن من الوصول إلى غايته ، ولم يساهم قط في اخضاع حكومته إلى أفكاره أو

يترابط معها . وفي كثير من الأحوال ، فان طريقة العمل هذه لم تكن تصلح إلا لإظهار وضعنا للعالم الخارجي ، وفقداننا وحدة آرائنا ، التي يتمكنون استنتاجها من خلاله . وهذا ما دعا الى تمزيق الحكومة على المدى الطويل ، وجعل كلاً من أعضائها عند حدوث أيّ طارئ يسعى للدفاع عن مصالحة الخاصة . ان انطباع العزلة الذي كان يتحسسه نكسون وفقد روح التماسك والتوافق بين أعضاء حكومته كل هذا كان يبين له ولو بصورة جزئية فضيحة واترغيب . كما ان هذا يسمح كذلك بتفسير الطريقة التي تصرفّ بها نكسون نتيجة لرعونة روجرز . انه لم يسترع انتباه وزير حكومته للشؤون الخارجية بسياسته ، وكذلك فانه لم يجمع مستشاريه ، ليعرض عليهم مرّة أخرى وجهة نظره ، بل فضلّ ارسالي الى دوبرينين في الحادي عشر من شهر آذار لإبلاغه أن الانطباع الذي حصل عليه السوفييت حول تغيير موقف الولايات المتحدة ، كان سابقاً لأوانه . وفي الرابع عشر من شهر آذار ، بينت بتحفظ لروجرز ، ان الرئيس يتمسك خصوصاً في ألاّ تجري المحادثات الفردية إلاّ مع هانوي ، كمفاوض وحيد ، قبل توسيعها مع سايغون وجبهة التحرير الوطنية . فاكتفى روجرز بإجابتي أنه يتمنى وبحرارة ان تجري المحادثات بسرعة .

حينئذ أخذ ليرد المبادرة باجراء أحادي الجانب في المجال العسكري . وفي أول شهر نيسان ، بعد عدة اجتماعات حول الموضوع ، أعلن نكسون حظر أي اقتراح حول تقليص العمليات العسكرية ، اذا لم يكن نتيجة لانسحاب القوات في المعسكرين . وفي اليوم ذاته ، كان البنتاغون يعلن رسمياً ، ان هناك اعتبارات مالية تحملنا على تقليص أكثر من عشرة في المائة من طلعات B 52 . وكان على هذا الإجراء أن يأخذ مفعوله في الثلاثين من شهر حزيران . وعندما أبديت تذمري من هذا الأمر ، لدى السيد ليرد ، بين لي بحماسة ، أن ليس لديه مال يكفي للحفاظ على المستوى الحالي لطلعات B 52 إلى ما بعد الثلاثين من شهر حزيران ، وفي الواقع فقد تجاوز تاريخ تحديد الطلعات ، ثلاثة أشهر ، عما كان سلفه قد توقع تقليص عددها . فلا الرئيس ولا أنا ، كنا على اطلاع مسبق على هذا المشروع أو الإعلان عنه .

لم تكن لديّ أية فكرة محددة ، حول ما يجب ان يكون عليه عدد طلعات B 52 ، لكني كنت راغباً في المحافظة على العدد القليل نسبياً من المجموع الذي كنا نُعدً لاستعماله . واذا كان علينا تقليص عدد عملياتنا . فلن يكون هذا إلا في إطار مفاوضات . وفي الحقيقة ، لا شيء يدعو إلى الفشل أكثر من ان نجبر على ذلك ومن طرف واحد لأسباب مالية . ولما كان الرئيس لا يريد مجابهة وزير الدفاع ، كتبت أنا وليرد تعليقاً خاصاً بالصحافة كان موضوعه مبهماً تقريباً وها هو :

« ان الولايات المتحدة تطمح إلى ان يكون تقليص عدد العمليات الحربية ، نتيجة انسحاب متبادل وتدريجي للقوات الأجنبية . وسيُعاد النظر دورياً في الغطاء الميزاني من خلال هذا المجال » .

لكن الشرّ كان قد حصل . وبيّن لي أحد الصحفيين قائلاً : ( انه يعتبر قرارنا حول تقليص عدد غارات B 52 اشارة موجهة الى هانوي وسايغون ، لأن هذه ليست اعتبارات مالية حملتكم على اتخاذ قرار مماثل ) . وأضاف ان هانوي لا يمكن ان تفسره غير أنه خطوة نحو انسحاب قواتنا ، وتعتبره سايغون تحذيراً ، أن للولايات المتحدة حدوداً لالتزاماتها ، لا تتمكن من تجاوزها . وكان محقاً بوجهتي نظره هاتين . وينسب إلينا شرفاً كبيراً مفترضاً اننا تصرفنا حيال هذا الأمر بعزم وتروّ . وغضضنا الطرف أخيراً على هذا البؤس . وفي باريس ، تلقى السفير لودج تعليمات للإعلان عن تقليص عدد غارات B 52 في البلاغ الرسمي الذي كان يصدره عند الانصراف من المفاوضات . وكذلك فقد ألمح اليه الرئيس في الخطاب الذي ألقاه في الثالث من شهر تشرين الثاني . ان قادة هانوي الواقعيين ، لم يعترفوا رسمياً على هذه التنازلات ، فلم يكونوا يريدون ان يدفعوا هدية ، ما كانوا قد حصلوا عليه قبل هذا الوقت بقليل.

وباتباعنا هذه السياسة ، أصبح موقفنا مزعجاً . كنا في خطر ان نخسر مع هانوي ، كل مؤهلات للنجاح ، بتقديمنا عدداً قليل من التنازلات دون مقابل . ولدينا في الولايات المتحدة ، بقدر ما كنا نسعى لتهدئة المنتقدين ، بقدر ذلك كنا نثبط عزائم اولئك الذين كانوا على استعداد لمساندة ستراتيجية تهدف الى الانتصار ، لكنهم ما كانوا ليدركوا أننا نرضى بتضحيات مستمرة للوصول الى مبدأ أكثر ابهاماً من انسحاب مشرّف . أضف الى ذلك ، لم نكن لنحصل على رضى اولئك الذين كانوا يهدفون إلى استخدام الحرب ، بغية تبيان ما لدى أمريكا من عيوب ، بالرغم من أننا استجبنا إلى آمالهم ، فطبقنا برنامجاً كانوا يُساندونه ، قبل تسعة أشهر ، والذي سبّب نزولهم الى الشارع للقيام بمظاهرات .

# مهمّــة

## سايــِروس فانـــس

انتهى كل هذا إلى إقناعي ، أن الزمن يعمل ضدّنا ، وعلينا إيجاد وسيلة لتعجيل الأمور. فسعيت لجرّ الاتحاد السوفييتي الى مناورة معقدة وأشرت باستدعاء سايروس فانس ، وهو الرجل المثالي لهذا النوع من المهمات .

كنت تعرفت على سايروس فانس ، عندما كان معاوناً لوزير الدفاع في حكومة جونسون . وإذ كان رصيناً ، بشوشاً ومستقيماً ، فقد خلق في انطباعاً مؤثراً ، في كونه النموذج المثالي لرجل القانون النيويوركي ، الذي يُتم بأمانة وينصح زبائنه بنزاهة . ومن خلال هذا المظهر الهادئ ، كنت ألمح حيوية خفية متوافقة مع أفكاره التقدمية ، الواسعه الانتشار في الأوساط التي كان يعيش فيها . وعندما كان في عداد الوفد الأمريكي المفاوض في باريس ، أخذ يبدي نشاطاً ملموساً كرئيسه هاريمان نحو تسوية مدروسة . واقترحت بعد تعييني ، توظيف فانس في منصب نائب وزير الشؤون الخارجية ، اذ كان يقع هذا المنصب من حيث الأهمية مباشرة بعد منصب الوزير . وافقني روجرز على هذا الرأي ، واستقبلني مع فانس في مسكنه في بتشيدا في الملارياند . فلاحظ فانس تحفظاً حذراً ، لكنه في الوقت ذاته لم يرفض العرض الذي كان قد قُدم إليه . والتقيته طويلاً لأوكد له ان الرئيس المنتخب ، كان يؤكد كثيراً على الاستفادة من خدماته . ورئيسه القديم من حيث تسلسل المراتب ، ماك نمارا ، تدخّل في الأمر لإقناعة بالقبول . حينئذ رفض فانس الطلب ، مبدياً عذره أنه بعد قضاء ما يقرب من ثمانية أعوام خلت في خدمة الدولة ، فقد أصبح بحاجة للعودة الى الحياة الخاصة . وحين تخلّى فانس عن منصبه ، كنائب رئيس للوفد الأمريكي المفاوض في باريس ، في التاسع عشر من شهر شباط ، أرسل له نكسون برقية يقدّم فيها شكره بحرارة . كنت استحسن فكر فانس التحليلي وذوقه الحسن ، ولا سيما عندما كان يثبتهما في المجال الانساني .

ان المهمة التي كنت افكر بإسنادها إليه ، كانت بمستوى قدراته الأخلاقية . ولم يكن يُقصد بها سوى إشراك الاتحاد السوفييتي ، قلّما يكون في تسوية سريعة لحرب الفييتنام .

وكنت اؤكد في جميع محادثاتي مع دوبرينين ، على وجوب تحسين العلاقات بين الأمريكان والسوفييت ، مؤملا من وراء ذلك ان يأتوا لمساعدتنا في الخلاص من هذه الحرب . وكانت أجوبة دوبرينين دوماً غامضة ، مدعياً ان ليس لدولته سوى تأثير بسيط ومحدود بالنسبة لهانوي . ولقاء ذلك فان الأمريكان ، أطالوا أمد كل المفاوضات التي كانت تهم الاتحاد السوفييتي : أي المحادثات حول تحديد التسلح الستراتيجي ، والشرق الأوسط ، وتنمية العلاقات الاقتصادية . لكننا في الوقت ذاته لم نقترح على الروس أبداً مخططاً إجمالياً حول الفييتنام .

والتقيت سايروس فانس في الثامن من شهر آذار ، ليعطيني رأيه ، هل يقبل عند الاقتضاء تكليفه بمهمة في موسكو . وكانت تقوم المهمة المقترحة في ربط افتتاح محادثات ( سالت Salt ) بالتسوية الاجمالية في فييتنام . سيرسل فانس إلى موسكو ، لبدء مباحثات سالت ، ويلتقي سرياً ، خلال سفره هذا ، مندوباً ذا أهمية من فييتنام الشمالية . وسيمنح فانس سلطات مطلقة ، لتعجيل الأمور في كل واحد من المجالين ، مجتهداً دائماً في السير بها في وقت واحد . ( والأمر الذي لم أطلع عليه سايروس فانس ، هو انني كنت قد أشرت على نكسون القيام باختبار حربي مع هانوي في حال فشل المهمة . ) وطرح فانس في اليوم التالي بعض الأسئلة وثيقة الصلة بالموضوع : كيف يمكن الربط بالمفاوضتين الاثنتين معاً في موسكو ؟ كيف يكون لديه متسع من الوقت الكافي للسير حسناً بالمهمتين ؟ كيف يستطيع اخفاء المحادثات السرية ، التي سيجريها بالاضافة الى مهمته حول قضية فييتنام وكيف يستطيع اخفاء هذا عن الفريق المفاوض في محادثات سالت .

وفي الثالث من شهر نيسان ، اقترحت على الرئس ( ارسال فانس في مهمته ) وكنت ألفت انتباهه الى الصعوبات المترافقة بالمفاوضات كما كانت عليه الحال في باريس . وكان علينا إقناع الرأي العام الأمريكي ، أننا مهتمون بانهائها ، ومؤكدين لهانوي اننا لسنا مستعدين للسماح لها بجعلنا ندفع الثمن غالياً . وكان علينا ان نكمل ممارسة الضغط العسكري على هانوي بنوع كافٍ ، لردعها أن تجعل من هذه المفاوضات بانمونجوم جديدة ، مجتنبين في كل الأحوال أية إثارة غير مجدية ، كي لا نصبح في خطر خوض معركة غير متكافئة . يجب على دولتنا ان تتنظم جيداً لتظهر بمظهر جبهة موحدة . أضف الى ذلك ، علينا توثيق علاقاتنا بسايغون ، وجعل هانوي تفقد كل أمل لها في استخدام المفاوضات في سبيل إرباك حكومة فييتنام الجنوبية . وكانت في ريبة من القيام بكل هذه المهام . وحسب رأيي ، فإن الضغوط المالية والانسحاب العاجل لقسم من قواتنا ، ستجبرنا هذه الأمور مجتمعة ، على تقليص عملياتنا الحربية ، دون

أقل أمل في الحصول على شيء بالمقابل . وبالنسبة للوفد الأمريكي في باريس ، لم يكن منتظماً ، وان انقساماتنا الداخلية كان تفرض علينا قلّة احتمال تقديم سياسة متماسكة ، أو اجتناب التغيير في وجهات نظرنا الثابتة . وأخيراً ، ستكون محاولتنا كبيرة في تحميل سايغون تبعة فشلنا . كانت إذاً مصلحتنا تدعونا لانهائها بسرعة ، لأنني أشكك في أن كل الأسباب التي بينت ، سيكون مصيرها خلق وضع يجعل برنامجنا الجزئي المعمول به حالياً أشد قساوة من هنا حتى عام من الوضع الحالي الذي نحن فيه اليوم . لكن هانوي لم تكن لتبدي حراكاً بنسبة ما كانت تعاني من ضغوط خارجية . والخلاصة أن التدخل السوفييتي كان يتوضح لازماً . ولأجل هذا كانت نيتي مكالمة دوبرينين ، وتنبيهه الى ان العلاقات الأمريكية السوفييتية كانت في منعطف : لأن الرئيس كان يرغب في تنمية العلاقات بين بلدينا في محاولات عدّة ، لكن حرب فييتنام تحدّ من رغبته تلك . وفي سبيل وضع حلّ للقضية ، كان نكسون على استعداد لارسال وفد رفيع المستوى إلى موسكو ، يرأسه سايروس فانس ، لعقد اتفاقات عاجلة حول عدد من الأسس لتحديد التسلح الستراتيجي . سيكون لفانس كذلك ، طيلة مكوثه في موسكو ، صلاحيات مطلقة في لقاء مندوب من فييتنام الشمالية ، والاتفاق معه على تسوية للهند الصينية ، في المجال العسكري والمجال السياسي . ( وبما أن روجرز قد رفض باسمنا مبدأ الفصل بين المشاكل ، كنت أعتقد أنه من المفضل وضع برنامج سياسي يتوافق مع طول بقاء سايغون ) وسنقترح في المجال العسكري : وقف إطلاق النار ، وانسحاب قوات في المعسكرين . وسنقدم في المجال السياسي ، ضمانات لجبهة التحرير الوطني . شريطة تخليها عن العنف . للسماح لها بالإسهال في حياة البلاد السياسية ، دون خشية القيام بعدوان . وسيترافق هذا الإجراء باتفاق ينظم سيادة واستقلال فييتنام الجنوبية ، مدة خمس سنوات ، تجري خلالها مفاوضات في سبيل توحيدها . وسيمنح الرئيس فترة ستة أسابيع ، لفانس في مهمته ، ليتمكن من انجازها . وفيما اذا توصلت هذه المهمة الى نتائج حسنة ، فان الرئيس سينظر الى عقد اجتماعات أخرى حتى ولو كانت على مستوى أرفع ( أعني في مستوى القمة ) .

وفي الختام ، قلت للرئيس واقترحت عليه ، أن يلفت انتباه دوبرينين ، إلى أن هذا المخطط لن يصدق ، إلا في حال ان الرئيس يتعهد باتخاذ اجراءات تصعيد ناشطة في حال الفشل .

ان مخطط الصلح الذي اقترحته على نيكسون من خلال مذكرة أرسلت بها إليه ، كان أبعد بكثير ، من كل الاقتراحات التي أعطيت ضمن الحكومة ، أو غيرها مما قيل في هذا المجال من قبل معظم وفودنا المفاوضة . فقد كان هذا المخطط يتجاوز اقتراحات البرنامج المعتدل ،

الذي رفض قبل ثمانية أشهر من قبل المؤتمر الديمقراطي . وكان يتضمن إيقاف اطلاق النار ، الذي عارضه البنتاغون بشدة حتى الآن . وكان يشمل كذلك انسحاباً اجمالياً للقوات ( دون النظر إلى القوات المتبقية ) وكان يوافق على السماح لجبهة التحرير الوطنية ان تقوم بدور في الحياة السياسيّة في سايغون . وكان نعرف القليل عن هانوي في هذه الفترة ، لتفهّم ما كان يريده حكامها ، فلم يكن ذلك وقف إطلاق نار بأكثر مما هو انتصار ، وان الذي يهمهم الاستيلاء على السلطة لا القيام بدور في انتخابات حرّة .

وفي صباح اليوم الخامس من شهر نيسان ، كنت أحادث الرئيس في كاي بسكاين ، فبدا لي أنه يشكك في فرص النجاح من خلال الوقت الذي يهدره فانس ، كما كان يدعوه ، لكنه وافقني على القيام باجراء ما في المجال الدبلوماسي . وفي اليوم الثاني عشر من شهر نيسان عام ١٩٦٩ وفي سبيل استعجال الأمور ، أرسلت إلى الرئيس مذكرة ، جئت فيها على إعادة النقاط ، التي كنت أنوي طرحها ، لدى الاجتماع بدوبرينين في الرابع عشر من شهر نيسان . فأقر جميعها نيكسون ، مضيفاً اليها بعض الحواشي على الهامش ، محدداً المدة بشهرين ( بدلاً من ستة أسابيع محددّة في الأصل ) الفترة الممنوحة للمفاوضين للوصول إلى نتيجة ومؤكدة أكثر مما جاء في مشروعي من نظرية تعاون اقتصادي مع الروس .

واستعنت إثر ذلك بأسلوب كنت أعود إليه في أحوال كثيرة . وأفسحت المجال لدوبرينين لتلاوة برنامج المحادثات ، مع التعديلات الطارئة عليه من قبل الرئيس . ان هذه الطريقة التي أتعامل بها كانت لها ميزة اجتناب سوء التفاهم ، والتأكيد في الوقت نفسه اني كنت اتكلم بلسان الرئيس . فأخذ دوبرينين عدة ملاحظات ، متوقفاً من وقت لآخر طالباً بعض التفسيرات حولها . وعندما اقترب من النهاية ، سألني عمّا اذا كانت تسوية الحرب في فييتنام شرطاً أولياً للسير بالمفاوضات حول الشرق الأوسط ، والعلاقات الاقتصادية والتسلح الستراتيجي ؟ فأجبته اننا على استعداد لإكمال المباحثات ، لكنها ستتقدم بها اكثر ، في حال تسوية قضية فييتنام نهائياً . واذا لم تجر أية تسوية ، فنخشى اتخاذ اجراءات من شأنها تعقيد الوضع .

وأكد لي دوبرينين بذلاقة لسان ان موسكو هي قطعاً عند وعدها بمتابعة المفاوضات ، بغض النظر عما يحتمل وقوعه في فييتنام وكان دوبرينين يتوقع ان الصين سوف تسعى لإثارة مجابهة بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . وأضاف قائلاً ، ان تصعيد الحرب في فييتنام ، لن يخدم سوى مصالح الصين ، فقلت له حينئذ ، يتوجب على الاتحاد السوفييتي والحالة هذه ، كما

يتوجب علينا ، ان نبذل ما نقدر عليه لاجتناب انتكاس الوضع . وكأني بكلمات دوبرينين الأخيرة كانت تدل على ان ماجرى بيننا من حديث كان هاماً .

ومع ذلك ، لم نتلق من موسكو أي جواب ، لا رفضاً ولا ايجاباً ، حتى ولا إشعار بوصول مذاكرتنا ، لكسب الوقت وعدم التأجيل . وفي شهر حزيران ، أشار دوبرينين بكلمة عابرة ، ان اقتراحاتنا نقلت إلى هانوي ، وآلت إلى الرفض . وبعد ثمانية أشهر ، أي في الثاني والعشرين من شهر كانون الأول ، كلمني دوبرينين مجدداً ، عن الاقتراح الذي أبلغته إياه ، وذلك خلال استعراضنا معاً القضايا المعلقة ،وبين لي أن موسكو ، حاولت مساعدتنا في مساندتها لمهمة فانس ، لكن الفييتناميين الشماليين ، لم يقبلوا بإجراء محادثات ، طالما ان الولايات المتحدة ، لم توافق مسبقاً على إقامة حكومة ائتلافية . عندئذ فضّل الكرملين الصمت على ارسال جواب يتضمن النفي . فأجبته في الحال وبخشونة ان جواباً ومهما كان نوعه ، كان أصلح .

أني لا أعلم اليوم ، اذا كانت موسكو قد نقلت فعلاً اقتراحاتنا إلى هانوي ، وعما اذا كانت قد تلقت جواباً سلبياً ، ولم ترد ان تعترف بعدم قدرتها التأثير على هانوي ، أو خشيت خطر عدوان من قبل الولايات المتحدة ، أو أنها لم تنقل ما كنا نودعها إياه إلى هانوي ، معتبره ان النتيجة المتوخاه كانت غامضة ، وان الأخطار التي سيتعرض إليها السوفييت ستكون كبيرة في حال الفشل . ومن جهتي فاني ميال بطبعي للنظرية الأولى . وبالرغم من تأكيد هانوي المتحمس على المطالبة باستقلالها والفطنة التي تدير بها دفّة سفينتها ، بين موسكو وبكين ، فان اختيار موسكو مكاناً لاجراء محادثات نهائية ، كان يعرض لكثير من الأخطار . وكانت بكين قادرة على الاعتراض ، خشية ان موسكو تغتنم هذه الفرصة فتقدم تساهلات في الهند الصينية ، لتتمكن من وراء ذلك من توثيق الروابط بين القوتين الأعظمين . أمّا بالنسبة لموسكو ، فإنها لم تكن تتمسك كثيراً أن تكون مركزاً للمفاوضات ، في حال الفريقين يعتبرانها مسؤولة ، ويصبح مستحيلاً عليها توجيه هذه المفاوضات بطريقة حاسمة . وجدّدنا عرضنا عام ١٩٧١ ، لكني في هذه المرّة كنت اقترح نفسي مفاوضاً . اصطدمنا بالرفض أيضاً ، وطبعاً للأسباب ذاتها . إن المفاوضات حول قضية فييتنام ، استعادت مجراها الدؤوب ، حالما اختفت الضغوط العسكرية أو الدبلوماسيّة .

# عـــودة

# إلـــى الروتـــين

خلال الجلسة السادسة عشر العلنية ، التي جرت في باريس ، في اليوم الثامن من شهر أيار ، أقدم الشيوعيون على مفاجأة أحدثت ضجة كبرى ، إذ اقترحوا مخطط صلح مؤلفاً من عشر نقاط ، وكان مصوغاً بشكل إنذار . أسلوب أصبح لدينا عادياً . وكان المخطط يتضمن ما يلي :

يجب على الولايات المتحدة وضع حدّ للحرب .

وجوب انسحاب غير مشروط ، عام ومن جانب واحد ، للقوات الأمريكية .

إلغاء حكومة فييتنام الجنوبي .

تعويضات أمريكية عن أضرار الحرب .

وكان الشيوعيون يقترحون أيضاً : إبدال حكومة فييتنام الجنوبية بحكومة ائتلافية ، تضم كل الطبقات الاشتراكية ، والتيارات السياسية الموجودة في فييتنام الجنوبية ، التي تدافع عن السلام ، وعن استقلال وعن الحياد .

ان اقتراح تشكيل حكومة ائتلافية اتضح معقولاً . ولم ير فيه أمريكيون عديدون سوى طلب عادي لمساهمة الشيوعيون في حكومة ، فييتنام الجنوبية . وعندما أخذنا نتحرى المعنى الحقيقي لهذا الاقتراح ، وجدنا ان الشيوعيين ، قد احتفظوا لأنفسهم حق تحديد من هم الذين . حسب رأيهم . يدافعون عن السلام والاستقلال والحياد . وما ينتظرنا في الواقع ، اذا طبقنا هذا المخطط ، هو أننا بعد إعدامنا حكومة فييتنام الجنوبية ، وإرباكنا الشعب بانسحاب غام غير مشروط لقواتنا ، سنصطدم بالشيوعيين ، للتمكن من المحافظة على المبادئ غير الشيوعية الباقية في تنظيم يضم جبهة التحرير الوطنية وكل الفرق التي يسمح لها الشيوعيون بالانتساب إليها . وحكومة الائتلاف الجديدة هذه لن تكون إلاّ مؤقتة ، والتنظيم السياسي النهائي لفييتنام الجنوبية ، سيكون موضوع مفاوضات بينه وبين جبهة التحرير الوطنية ، التي يساندها جيش هانوي . تلك كانت الطريقة التي كان الشيوعيون يحددون بموجبها تسوية سياسية عادلة ، وغنّي

عن البيان أن الشيوعيين ، عندما استولوا على سايغون ، فلم تبق حكومة ائتلاف قائمة ، بل بالعكس ، فان جبهة التحرير الوطنية ذاتها استبعدت عن السلطة . وحالياً فان جميع المناصب الرئيسية في الجنوب يشغلها فييتناميون شماليون .

كان هذا المخطط اذاً وقحاً جداً في أسلوبه ، كما هو أحادي الجانب في مضمونه . غير أن وجوداً مبدئياً ، لمخطط صلح شيوعي ، وبالرغم من أنه غريب في ذاته ، أثار حالاً ردّ فعل من قبل الكونغرس ، وبقية الشعب والرأي العام ، التي قامت بالضغط على الحكومة ، في سبيل عدم تفويت هذه الفرصة . واذا أردنا عدم التساهل ، فيكون بديهياً ان نحدد وبكل دقة موقفنا الخاص . وفي الجزء الثاني من شهر نيسان ، اقترحت على الرئيس القاء خطاب ، يوضح فيه مراسم مخطط صلح أمريكي . وفي الخامس والعشرين من شهر نيسان ، لفت انتباهه حول الملاحظة التي كان قد أبداها « كسيان تيو Xuan Thuy » : « اذا أعدّت حكومة نيكسون مخطّط صلح موافقاً ، كما يؤخذ عنها ، فلماذا لا تعلنه » ؟

لكن الرئيس كان متردداً ، وكان يفضل التريّث ، منتظراً ورود جواب من موسكو حول مهمة فانس . أضف إلى ذلك ، فقد كان معقّد النفس حيال تصرّفات وزير الشؤون الخارجية . وانه كان على اعتقاد أن اذا وافقت وزارة الشؤون الخارجية على إعداد خطاب ، فسواء حصل تهرب منه ، أو اقترحت اضافات جديدة عليه لا تتفق وستراتيجيته ، فانه يعتبر مخالفاً في حال رفضه إياها . وهذه المرة أيضاً ، وجد نيكسون حلاً فعّالاً وملتوياً في الوقت نفسه . وانتظر اليوم الثاني عشر من شهر أيار ، التاريخ الذي سافر فيه روجرز إلى الجنوب الشرقي من آسيا ، حتى أعطاني أمراً في اليوم ذاته ، بالإشراف على إعداد خطاب رئاسي ، يجب القاؤه خلال ثمان وأربعين ساعة .

وفي الرابع عشر من شهر أيّار ، ظهر نيكسون على شاشة التلفزيون القومي ، مبينا ولأول مرّة بواكير سياسته في فييتنام ، مدلّلاً على الاجراءات التي اتخذت ، وتقرّب جديد من المفاوضات . وكشف عن ميزانيّة حكومته خلال أربعة أشهرها الأولى : ووقف الهجوم المعادي ، وتحسين العلاقات مع حكومة سايغون ، وتعزيز قوات فييتنام الجنوبية ، ولا سيّما الإعداد لموقف مفاوضات مهما كان أمرها .

ان هذا المخطّط ، المؤلف من ثمان نقاط ، كان يمثّل تقدّماً كبيراً في موقف المفاوضات الأمريكية ، بالنسبة لتلك التي جرت على زمن حكومة جونسون . لقد تخلّى عن اعلان مانلاّ (

الانسحاب من هانوي ستة أشهر قبلنا ) وكان يصرّح بانسحاب متزامن . ( ناتج عن اقتناع ضمني ) أكثر من كونه متعلقاً من قبل هانوي . وكانت الولايات المتحدة موافقة على ان جبهة التحرير الوطنيّة تشارك في الحياة السياسية في فييتنام الجنوبية . وستشترك أيضاً في انتخابات حرّة تحت مراقبة دوليّة ، وقبول نتائجها . وأشار الرئيس إلى تثبيت منهاج دقيق لانسحاب القوّات كما اقترح وقف إطلاق النار تحت مراقبة دولية . وبمقولة أخرى ، فان خطاب الرابع عشر من شهر إيّار ، كان يقدّم كل الفرص التي تكشف عن امكانيات سباق سياسي شريف . والشروط الوحيدة التي لم يرد لها ذكر ، هي في الحقيقة تلك الشروط التي لن يكون بدونها حلّ « Sine que non » الموضوعة من قبل الشيوعيين وهي : انسحاب غير مشروط للقوات الأمريكية ، وانشاء حكومة متواطئة ، يتولى أمرها الشيوعيين .

تكوّن لدينا في البداية بعض الأمل ، مراقبيين ردّ الفعل المعتدل بالنسبة للمفاوض الشمالي كسيان توي ، الذي تفضّل وأعلن أنه كان يوجد نقاط تقارب ، بين المخطّط ذي النقاط العشر الصادرة عن جبهة التحرير الوطنية ، والمخطط ذي النقاط الثمان المعلن عنه في الخطاب الرئاسي بتاريخ الرابع عشر من أيّار . لكنه رفض بصراحة مناقشته في المفاوضات الرسمّية ، والفييتناميون الشماليون ، لم يبطئوا في تجميد موقفهم المبدئي ، مانعين بذلك سنوح أية فرصة للوصول إلى تسوية ، كان المأزق يمتد وتابعنا نحن جهودنا للخروج منه .

# أول انســحاب للقــوّات

بعـد خطـاب الرابـع عـشر مـن شـهر أيـار ، الـذي أجمـل الخطـوط العريـضة لتـسوية يمكـن استخدامها أساساً للمفاوضـات ، باشـرنا بانـسحاب أحـادي الجانـب للقـوات الأمريكيـة . وكـان أسلافنا قد التزموا وبطريقـة عامّة بإزالـة الصبغة الأمريكيـة عن الحـرب . بموجب أحد التعابير السيئة التي أوجدتها السياسة الأجنبية منذ بداية هذا القرن . وكان علينا أن نقوم به . ان حكومة جونسون كانت قد أبدت بتعزيز جيش فييتنام الجنوبية ، ولم يكن إذ ذاك أي مخطّط لانسحاب أمريكي . وعندما كان كلارك كليفورد وزيراً للدفاع ، فقد أعلن في التاسع والعشرين من شهر أيلول لعام ١٩٦٨ : واذا سلّمنا بشدّة المعارك ، فلم تحن الساعة بعد لتقليص تجهيزاتنا ، بل إلى زيادتها . وخلال مؤتمر صحفي في اليوم العاشر من شهر كانون الأول لعام ١٩٦٨ ، كرّر أيضاً أن ليس هناك أي مخطط لتقليص القوات . وحسب سلامة طويتّنا ، كنا نعتقد ان انسحاب القوات الأمريكية ، سيساعدنا في كسب مساندة الرأي العام ، بنوع ان القوات التي ستبقى في مكانها ، وكفاءتنا المتصاعدة في الصمود ، ستحمل هانوي على المفاوضة بصورة رسمية . وفي الوقت ذاته ، لو عزّزنا كما يجب جيش فييتنام الجنوبية ، فان انسحابنا التدريجي يتمكن من وضع حد لالتزاماتنا دون موافقة هانوي .

كان نيكسون يحبذّ انسحاب القوّات الأمريكية لهذين السببين . وخلال مؤتمر الصحفي في الرابع عشر من شهر آذار ، أعلن عن ثلاثة مبادئ لانسحاب قواتنا : كفاءة الفييتناميين الجنوبيين للدفاع عن أنفسهم ، وموضوع تقدم المفاوضات في باريس ، ومستوى نشاط العدو العسكري . وفي الحقيقة ان ستراتيجية نيكسون في الشهور الأولى ، كانت ترتكز على محاولة إضعاف العدو إلى حدّ أعلى ، وتعجيل تحديث القوّات السايغونية ، ومن ثّم المباشرة بانسحاب القوّات وكان يعتبر ان هذا سيحدث أكبر حملة دعائية .

وعندما اجتمع مجلس الأمن القومي ، في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩ ، صرّح الجنرال ويلر انه حسب رأيه ، فقد يقبل الرئيس تيو Thieu وبصورة طبيعية تقليصاً جزئياً في القوات الأمريكية ، لأن هذا سيساعد نيكسون في المجال الداخلي ، ويظهر ان فييتنام الجنوبية آمنة على مستقبلها . أمّا روجرز فقد كان يعتقد أننا لن نفوّت الفرصة التي

نتمكن بها من سحب خمسين ألف رجل . واتبع نيكسون وليرد رأيهما . وفي السادس من شهر شباط ، صرّح تيو علانية عن انتقاده ، ان عدداً هامّاً من القوات الأمريكية ، يمكنه ودون خطر مغادرة فييتنام عام ١٩٦٩ . وفي اجتماع مجلس الأمن القومي بتاريخ الثامن والعشرين من شهر أذار الذي حضره الجنرال غودباستر ، وكان حينئذ معاون الجنرال ابرامز أبلغنا هذا بدوره ، أنه قد لوحظ في المدة الأخيرة تحسن واضح في وضع القوات الفييتنامية الجنوبية ، وحسب رأيه ، فان الغاء تسمية الحرب أمريكية أصبح قريباً ، ولكن ليس بصورة حاسمة . وعندئذ تدخل ليرد فقال : اني اوافق على كل ما جئتم به ، ما عدا الغاء تسمية الحرب ، بالحرب الأمريكية ، أما ما يلزمنا فهو عبارة أخرى وهي أن نطلق عليها الحرب الفييتنامية ، الأمر الذي يوضح حقيقة واقع المشاكل . تأثير الرئيس من جراء هذا القول ، فردّ على ليرد قائلاً ( إنك على حقّ يا ميل Mel ) وأوجد مصطلح الحرب الفييتنامية .

وفي العاشر من شهر نيسان ، وجهّت تعميماً على جميع المكاتب الوزارات طالباً اليهم وضع منهاج لتسمية الحرب بالحرب الفييتنامية . وبعد وقت قليل من القاء خطابه في الرابع عشر من شهر أيّار ، أكّد نيكسون ان جميع الأمور غدت تسير سيراً حسناً ، في الوقت الذي قرّر إبعاد روجرز خلال تصريحه في الرابع عشر من شهر أيار ، وأخذ يسعى لإقناع ليرد بمعالجة انسحاب القوات .

ولكي نتأكد من مساندة تيو رئيس فييتنام الجنوبية ، فقد أخذت الاستعدادات لاجراء مقابلة معه في الثامن من شهر حزيران . واتفق ان يجري اللقاء في جزيرة (ميدواي) في وسط المحيط الهادي ، خشية ان تثير زيارة تيو إلى الولايات المتحدة فتنة في بلاده . وأبعدت جزيرة هاواي من البرنامج ، لأن الرئيس جونسون كان قد أجرى فيها لقاءات مع القادة الفييتناميين . وفي الحقيقة ، فان رئيسنا لا يستطيع لقاء حاكم بلد قتل في سبيله ثلاثون ألف أمريكي أو أكثر ، إلاّ في جزيرة نائية في وسط المحيط الهادي ، وهذا اللقاء ذو مغزى عن الوضع المعقّد بسبب الحرب الفييتنامية التي انغمس فيها مجتمعنا .

وفي طريقه نحو ميداوي ، عزم الرئيس نيكسون على تنظيم لقاء في هونولولو ، بعد ظهر اليوم السابع من شهر حزيران ، بين روجرز ، والجنرال ويلر ، والسفير لودج وأنا ، في قاعة الاجتماعات في هيلتون كاهالا ، التي كانت تشرف على المحيط الهادي . وان السفير بونكر والجنرال ابرامز ، والأميرال ماك كاين ، كانوا كذلك حاضرين . المطلوب ان يتوصل الاجتماع الى إتخاذ قرار نهائي يتعلق بتنظيم ست ّراتيجية الانسحاب . وطبعاً هذا ما كان يواجهه

العسكريون بقلق عظيم . وكانوا يعتقدون في أعماق نفوسهم أن هذا ينافي كل ما اقتتلوا في سبيله . ومهما كانت الطريقة التي يعلن بها عن الانسحاب ، فانها تجعل النصر مستحيلاً ، وتبعد كل أمل بحلّ مشرف للقضية . أضف إلى ذلك فان فكرة الانسحاب لن تكون إلاّ في اتجاه واحد . ومن الآن فساعداً ، سيصبح سباق بين تنمية قدرة القوات الفييتنامية الجنوبية ، وبين تقليص قدرتنا القتالية ، سباق ستبقى نتيجته على الأقل غير مؤكدة .

وخلافاً للواقع ، فان العسكريين قلما يعارضون قائدهم ولو في الأمور الفردية الخاصة . واذا وُجد هناك تعديل مقبول نسبياً لقرار الرئيس ، فانهم يتجاوزون تمرمرهم ويبقون محافظين على مساندته . والجنرال ابرامز ، الضابط المثالي لقيادة الجيوش الأرضية ، كان هذا يؤلمه وبشق النفس ، وافق على انسحاب خمسة وعشرين ألف رجل . وكان يعلم ضمنياً أنه مجبر على قتال المؤخرة في حال التراجع . كما كان يعلم أيضاً ، انه مع مرور الزمن ، تحدد مهمته في تجميع قواته بمهارة دون التفكير باي انتصار . فلن تبقى هناك قضيّة ربح معركة مع تجهيزات وقوّات هي في تناقص مستمر ، في حال ان هذه الغلبة قد أفلتت من أيدينا عندما كانت قواتنا بتعدادها المتكامل . ولم يبق علينا سوى حمل الرئيس تيو على قبول القرار .

ان مضمون اجتماع جزيرة ميدواي لم يستطع ان يكون سريالياً . ففي خلال سبع ساعات ، احتل هذه الجزيرة المرجانية ، التي تبلغ أبعادها أقل من أربعة كيلومترات ، الحاشية الرئاسية ، المؤلفة من اكثر من خمسمائة موظف ، والحرس الرئاسي ، وموظفو الاعلام ، والصحافيون ، وممثلون لجهات أخرى كان اشتراكهم ضرورياً . فأعيد حديثاً دهان رواق المطار ، كما ان مقر القائد ، حيث كان على الرئيس ان يلتقي تيو ، دهن مجدداً أيضاً وجُدّد أثاثه ، وهكذا فان ضابط البحرية ، كان الرابح الوحيد من لقاء ميدواي . والعربات المعدة لنقل الشخصيات والتموين إلى المآداب ، كل هذا قد وصل على متن الطائرات . جرى كل هذا تحت سمع وبصر الطيور الكبيرة التي تعتبر سكان الجزيرة الأصليين ، وقد أصبحت هذه الطيور الآن وقحة منذ اعتبارها محمية من قبل وزير الداخلية . ولم يكتشف أحد بعد العلاقة السرية التي تربط هذه الجزيرة المنعزلة بهذه الطيور الغريبة ، التي تطوف بكبرياء في الأجواء ، لكنّها لا تأخذ بالطيران ، كطائرات محملة ، إلاّ بعد مسافة كبيرة . وفي ميداوي تلك الجزيرة الوحيدة ، التي ترضى هذه الطيور بالسكني فيها ، فهي تعسكر بوقاحة في منتصف الطرقات ، وتثير مضايقات مفرحة ، متأكدة ان وزير الداخلية سيعاقبها بقسوة ، لا سيّما منها تعاند في الابتعاد عن الطريق بعد اصابتها بركلة رجل .

ان موقف الرئيس تيو لم يكن ليحسد عليه اكثر من موقفها . فمنذ عدّة أيام ، سرت إشاعة ( دون تكذيب من قبل أحد أعضاء حكومتنا ) ان الرئيس نيكسون سيعلن عن أول انسحاب لقواتنا الأمريكية وان هذا الاجراء كان معداً ، لتنبيه تيو في ان مصلحته الكاملة هي في تدبير أموره بنفسه . وكان يفهم عموماً من ذلك ، انه يجب عليه إقامة ديمقراطية من طراز غربي بأسرع ما يمكن في بلاده . عندما لا تكون حكومة ائتلافية . وكيف يمكن توطين حرّيات ديمقراطية في بلد تحتله فرق كبيرة من محاربين متطوعين وقوات معادية ، يبلغ مجموعها ثلاثمائة ألف رجل ، فكيف يصدق توطين هذه الحريات ؟ وكان تيو مطالباً أن يعمل خلال بضعة شهور ، وخلال قيام حرب أهلية مدمرة ، ما لم يقدر على عمله أي حاكم في آسيا الجنوبية الشرقية ، خلال عدّة عشرات من سني السلم : فكان يطلب منه دفعة واحدة ان يكسب الحرب ، وأن يتدبر أمر الدفاع عن بلاده إثر انسحاب الآلية الأمريكية العظمية ، وأن يقيم كذلك منشآت ديمقراطية في بلد لم تعرف طعماً للسلام منذ أجيال ، ولم تعرف معنى الديمقراطية طيلة كل تاريخها . وكان عليه أيضاً توطيد شرعية بقائه كحاكم وطني من خلال إصلاحات كان هو يطالب بالقيام بها ، تحت ضغط قوّة كبرى جعلت نفسها شريكة في إسقاط سلفه ، وحرمت بنتيجة ذلك البلاد من حكومتها الأهلية .

فكان هذا مشهداً مؤثراً فعلاً . وعندما رأيت نغيوين فان تيو ، الذي في سبيل بلاده ، قتل ستة وثلاثون ألف أمريكي ، لكنه لا يملك الحق ان يطأ أرض حليفه القوى ، عندما رأيته ينزل برشاقة سلّم الطائرة التي وضعتها تحت تصرفه البان أمريكان ، أشفقت عليه . فلم تكن غلطته اذا أصبح هدف كل تهجمات الرأي العام الأمريكي . وبعد كل هذا ، فانه كان يمثل ملايين الفييتناميين الجنوبيين ، الذين لم يكونوا يريدون الوقوع تحت نير وحكم الفييتناميين الجنوبيين ، الذين لم يكونوا يريدون الوقوع تحت نير وحكم الفييتنامين الشماليين . وكانت ثقافته مختلفة تماماً عن ثقافتنا تشملها اعتبارات أخرى . ويتصف كل الفييتناميين بعزة نفس فطرية ، وربما كانت الخلاصة تاريخ دامٍ وقاسٍ مرّت به هذه البلاد الجميلة . ان الفييتناميين ليسوا مستسلمين لقدرهم ، كما يتخيله الغربيون بالنسبة لجميع الأسيويين . فلقد خاضوا معارك منذ قرون فيما بينهم أو مع المعتدي والمحتل لتحديد قدرهم الوطني والقومي . ولقد كانت حياتهم قاسية بالاضافة إلى تحسينها حسب مكنتهم ، ولذلك منهم مدينون ببقائهم لرفضهم القريب احنآء هاماتهم أمام عدو أو حليف .

جرت جلستان ، أمام الجلسة التي كانت حاسمة ، فقد جرت في المقر الذي وضع مجدداً تصرّف قائد المنطقة . وقد شارك فيها نيكسون ، وتيو ومسشاره الخاص وأنا . كما جرى اجتماع خبراء في نادي الضباط ، حيث عولجت الشؤون الاقتصادية ، وقد رئس هذا الاجتماع وزيرا الشؤون الخارجية . ( وهذا نمط كان يجب ان تجري مبوجبه ، تقريباً كل اللقاءات بين نيكسون وحكّام أجانب ) ان تيو لم يستعطف نيكسون ، لقد أجرى تلك اللقاءات بثقة ، دون التماس أي عطف . كنّا في خشية ان الإعلان عن جلاء قواتنا يخلق لنا وضعاً مُربكاً . لكن تيو أخذ المبادهة واقترح بنفسه الانسحاب . كما اقترحنا نحن أيضاً البدء باتصالات منفردة للقاء قمة مع هانوي . ووافق تيو على ذلك ، شريطة إطلاعه على ما يدور من محادثات سياسية . وبما ان اختلاف التوقيت البالغ خمس ساعات بين توقيت الجزيرة وتوقيت الساحل الشرقي ، فلم يترك سوى وقت قليل للصحافيين ليتمكنوا من ارسال برقياتهم ، فبعد ساعة ونصف فقط على بدء المقابلة ، ظهر الرئيسان على مدخل بيت القائد ، من حيث أعلن الرئيس نيكسون أول انسحاب للقوات الأمريكية .

كان يبدو نيكسون جذلاً ، اذ كان يعتبر هذا الاعلان انتصاراً سياسياً معتقداً في الوقت نفسه ان هذا سيسمح له كسب الوقت لتنمية ستراتيجيتنا . وكان يشارك في هذا الانطباع مستشاروه الذين كنت واحداً منهم ، وبالرغم من ذلك ، فقد كنا على وهم في المجالين . لقد اجتزنا الخطّ الفاصل الكاشف للغيب . من جهة ، فان سحب القوات ، زاد في خذل العائلات التي بقى أولادها حيث هم ، معرّضين للأخطار . ومن جهة أخرى ، فهو غير كافٍ لتهدئة سورة غضب خصومنا ، بل العكس ، فان معظمهم كانوا يفكرون انهم حصلوا على أول انسحاب لقواتنا بسبب الضغوط التي مارسوها ضدنا ، ويستطيعون عند تشديدهم الخناق علينا ، التسريع في الانسحاب . ولن يهمهم كثيراً اذا أحدثت هذه الانسحابات المفاجئة سقوط حكومة فييتنام الجنوبية . وزد على ذلك فان بعضهم سيغتبطون .

وخلال شهر حزيران ذاته ، فان وزير الدفاع السابق ، كلارك كليفورد ، الذي أعلن قبل ستة أشهر ، بعدم وجود أي مشروع أمريكي للانسحاب ، نشر مقالاً في مجلة الشؤون الخارجية ، يطالب فيه بانسحاب أحادي الجانب لمائة ألف رجل من الآن حتى نهاية عام ١٩٦٩ ، وانسحاب كافة وحدات القتال الأخرى من هناك حتى نهاية عام ١٩٧٠ ، وعدم إبقاء سوى المعتمدية العسكرية والوحدات الجوية . ونيكسون الذي لم تكن عادته ترك الميدان لمقاومٍ ، أجاب بشدّة ، في مؤتمر صحفي ، كان يؤمل ان يأخذ مداه ، اكثر مما كان كليفورد يتوقع . وبالرغم من كل

الجهود التي بُذلت لترجمة جملة الرئيس القصيرة ، كان الشر قد وقع . وكررنا المطالبة وبينا ان المقصود هو انسحاب متبادل ، فأصبح تصديقه من الصعوبة بمكان . ليس فقط في الولايات المتحدة بل في الخارج ، ولا سيماً في فييتنام ، حيث كانوا يعتبرون أننا أصبحنا الآن ملتزمين بطريقة أحادية الاتجاه ، في طريق سحب قواتنا من جانب واحد . وآخر الشكوك التي كانت تستطيع الثبات ، تبخّرت نهائياً ، عندما أخذت وزارة الدفاع ، بإعداد ميزانيتها آخذة بعين الاعتبار تخفيض التجهيزات المتوقع اجراؤه ، ومن الآن فصاعداً ، فان كل انقطاع لمشروع الانسحاب ، سيخلق نكسة مالية ، توجب علينا شراء أسلحة جديدة .

أضف الى ذلك ، فان الفييتناميين الشماليين ، كانت تهمهم الحقيقة ، لا الشعارات ، قابلوا الانسحاب الأمريكي بكل برودة ، واضعين في كفّة الميزان الإفادة البسيكولوجية التي يمكن ان يغنموها من واقع طاقتنا المتزايدة ، وانخفاض التأثير الذي يسببه ، في المجال العسكري ، الإنقاص التدريجي للتجهيزات الأمريكية . أكملت هانوي المطالبة وبدون هوادة ، بانسحاب أكبر عدد ممكن من الرجال ، في أقصر مدة ممكنة . ولكن بقدر ما يصبح انسحاب قواتنا تلقائياً ، بقدر ذلك يقل أملنا في استخدامها كأداة للمفاوضة . ونكون في وهم اذا طالبنا بانسحاب متبادل ، في حال ان برامج انسحاب قواتنا احادية الجانب ، كانت في تسارع . وبقدر ما كانت تجري انسحاباتنا ، بقدر ذلك كنا عرضة لحضور سقوط حكومة فييتنام الجنوبية . ولأجل هذا ، فان الفييتناميين الشماليين كانوا يبدون تذمرهم الدائم ، حول انسحابات جيوشنا التي لا نفيد منها شيئاً ، ويقولون انها ليست سوى ( نقطة ماء في البحر ) ، أو أننا لا نعلن بصراحة كافية عن نوايانا الحقيقية . وطال أمد عنادهم في موقفهم هذا . وبالنسبة لهم ، فان هذه الاجراءات الأحادية الجانب ، لا تلزمهم بشيء . وبعد أقل من عام ، كانوا يطالبون بتحديد تاريخ ثابت غير مشروط .

أثر هذا الواقع في خلافاتنا الداخلية . وكان ليرد قد أعد خمسة مخططات تناوبية ، لانسحاب القوات التي ستطرأ عام ١٩٦٩ . وكان التفاوت العددي يتراوح بين خمسين ألف رجل على الأقل الى مائة ألف رجل على أعظم تقديره ، وترك بين العددين ، مكان لأغراض مختلفة . وكان روجرز نصير الرقم : خمسة وثمانين ألف رجل ، أما ليرد الذي كانت تسانده هيئة الأركان العامة المشتركة ، كان يطالب رسمياً باقتراح أدنى أي بخمسين ألف رجل ، لكنه بينه وبين نفسه ، كان يعتبر ان هذا لا يؤثر عليه بشيء اذا لم يؤخذ برأيه . أما فيما يتعلق بالمدى الطويل ، فان ليرد كان يقترح تدريج الانسحابات خلال مدة يمكن أن تدوم ثمانية عشر شهراً حتى اثنين

وأربعين ، وتثبيت الحد الأعلى لأعداد الجنود الأمريكيين ، الذين سيبقون في اماكنهم إلى أن تجري هانوي انسحابات في قواتها بأعداد تتراوح بين مائتين وستين ألفاً وثلاثمائة وستة آلاف . وفي المذكرة التي أرسلها للرئيس ، في الثاني من شهر حزيران ، كان يقترح ليرد مخطط انسحاب ممكن التحقيق الذي كان يتدرج إلى اثنين وأربعين شهراً ( أعنى حتى نهاية عام ١٩٧١ ) وحدّد عدد مائتين وستين ألف رجل التعزيزات التي ستبقى في أمكنتها . وكان يسترعي انتباه الرئيس حول عدم وجود ما يوجب المبادلة من جانب الفييتناميين الشماليين ، ووضع برنامج معجّل ربما يوصل الى تقهقر في مباحثات الصلح بالرغم من الكفاءة العسكرية المتحالفة ، وربما يؤدي الى سقوط حكومة فييتنام الجنوبية .

وفي الادارة ، تكشف فجأة تياران . وبما ان الفضل كان يعود الى البتاغون ( دون ذكر نسكون) في تغيير اسم الحرب من أمريكية إلى فييتنامية ، ولن يكون باستطاعة وزارة الشؤون الخارجية ان يكون لها نصيب بالمفاخرة بانهاء الحرب إلاّ اذا ضاعفت جهودنا . وبنتيجة ذلك فقد تلقى الرئيس السيء الحظ تيو سيلاً من البرقيات التي تحثه على التسريع بانشاء اصلاحات سياسية واقتصادية في بلاده . فانطلقت الى تغيير أساسي في تنظيم الملكيات العقارية . وبات ممكناً ان توجيهاتنا له مع ضغوطنا أضعفت موقفه ، فبدأ بهذه الإصلاحات الهامة ، التي لم تكن نتيجة تزايد قدرته ونفوذه ، بل كنت بفضل الضغوط الأمريكية . وفي اليوم الحادي عشر من شهر تموز ، اقترح الرئيس تيو ، اقترح تنظيم انتخابات حرة يمكن للشيوعيين المشاركة فيها ، على أن تكون هذه الانتخابات باشراف لجنة انتخابات مشتركة ، تشكل من الفييتناميين بما فيهم الشيوعيون ، ومن هيئة مراقبين دوليين . وسمح الوزير روجرز بتسلل بعض تفصيلات هذا البرنامج في مؤتمر الصحفي الذي عقده في الثاني من شهر تموز ، مما دعا الرئيس تيو الذي جُرحت كبرياؤه ، الى تأجيل ارسال مسودة مخطط عمله الجديد .

ستناقش هذه المواضيع في السابع من شهر تموز ، في اجتماع يعقده الرئيس ويضم مستشاريه المقربين ، على اليخت الرئاسي سيكوايا Sequoia . ولقد حضره أيضاً كل من : روجرز ، ليرد ، ويلر ، وميتشيل وزير العدل ، والجنرال روبيرت كوشمان ( المدير المساعد للوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية ) وأنا . وبهذه المناسبة ، جرى تساؤل حول سكون المعارك الذي يشاهد حالياً فهل يدل ذلك على انهيار قوة هانوي ، وهل يقصد به ستراتيجية جديدة للمفاوضات ، أو محاولة من قبل هانوي لتقليص تدريجي في المجابهات للوصول إلى اتفاق ضمني . وهذا الانفراج الذي كنا نشعر به من خلال سكون المعارك ، الذي كان يقلل مستوى

خسائرنا ، ويخفف من الضغط في البلاد فلم يوجد شخص يتساءل ، عما اذا كان سكون المعارك هذا دليلاً على ان ستراتيجيتنا بدأت تعطي أكلها ، ويجب السير فيها ، وهل هذا يدل على الاضطراب الفكري الذي نتخبط به . وبديلاً عن ذلك ، فقد وافق الجميع على وجوب تخفيض مشابه في عملياتنا العسكرية تجاوباً مع ما يجري . فقررنا حينذاك تغييراً أساسياً في جميع الأوامر المعطاة للجنرال أبرامز في موضوع اختصاصه . وبرامج أهدافنا الموضوعية ، التي تسلمناها من حكومة جونسون ، وأعطيناها الى قواتنا الأمريكية في الجنوب الشرقي من آسيا ، والتي كنا نعتبرها دوماً بمثابة مرجع لنا ، كانت تؤكد طموحنا في الانتصار على العدو وإجباره على التقهقر الى فييتنام الشمالية . والبرنامج التفصيلي الجديد الذي وضع موضع التنفيذ في الخامس عشر من شهر آب كان يؤكد على ان مهمة قواتنا الرئيسية هي في تقديم أكبر مساندة ممكنة الفييتناميين الجنوبيين لتعزيز مواقع فرقهم العسكرية ، وتكثيف جهود المصالحة ، وإيقاف سيل الكميات الهائلة من الأغذية والمواد الحربية التي كانت ترسل الى العدو ، وفي المواقع ، فان الرئيس غير رأيه في اللحظة الأخيرة ، وألغي التعليمات الجديدة التي أمر بتنفيذها . ولما كان ليرد قد قام بتبليغها الى من يلزم ، أبقي عليها . واني لا أعلم فيما اذا كانت هذه التعليمات الجديدة ، التي أذيعت أخبارها حالاً فيها بعض التغييرات الفعلية . ولما كنا قد التزمنا بسحب قواتنا ، فانها كانت تعكس كفاءاتنا ، مهما كانت نياتنا حيالها .

وفي الثلاثين من شهر تموز ، خلال سفر الرئيس حول العالم ، فقد توقف نكسون فجأة في سايغون ، وهبط فيها خلافاً لرأي المخابرات لرأي المخابرات السرية ، ولأسباب أمنية ، فان هذا التوقف المفاجئ لم يعلن عنه سوى في اللحظة الأخيرة . نقل نكسون وبسرعة فائقة من المطار الى القصر الرئاسي ، في طائرة مروحية ، ارتفعت كما بدا لي أعالي الجو ، لتكون بمنأى عن أي إطلاق نار افرادي محتمل الوقوع ، لتهبط بعد ذلك شبه كتلة في وسط الأشجار الملتفة التي تكشف مكاتب الرئيس تيو . لم أعرف مطلقاً ، كم مرة كرر الطيارون حركات مناوراتهم ، لتجنيبنا أخطاراً كانت في انتظارنا ، وكانت هي أي الطائرة التي توشك ان توقعنا فيها .

وخلال المحادثات صرّح نكسون للرئيس تيو ، أنه بات من الضروري استكمال الانسحابات ، اذا كنا نريد الحفاظ على مساندة الرأي العام الأمريكي . وأكد كذلك على أهمية تقليص القوات ضمن برنامج توقيت محدّد وبموجب مبادرتنا . ونحن طبعاً على أهبة اجراء الاستعدادات لمغادرة الفييتنام ، ونحن نتفاوض بهذه السرعة ، وأضاف نكسون اننا ربما نصير الى سحب قواتنا بموجب قرار أحادي الجانب ، اذا لم يكن هناك حلّ آخر .

# لقـــاء ســـرّي

# مـــع كسيـــان تيـــو

وفي شهر تموز ، دفعت بنفسي الى محاولة مفاوضات جديدة ، وبساطة صديقي القديم ، جان سانتيني ، الذي كان مندوباً عاماً لفرنسا في هانوي . وخلال صيف عام ١٩٥٣ ، فان كلود ، زوجة سانتيني ، كانت قد اشتركت في المؤتمر الدولي الذي كنت أقوم به في هارفارد ، والمخصص للأجانب الشباب ، المدعوين للقيام بمسؤوليات في موطنهم الأصلي . وكانت هذه المرأة كاتبة ومؤرخة معاً ، بالاضافة إلى ذكائها . وبعد أن تزوجت بسانتيني ، كنت أذهب من وقت لآخر لزيارتهم في مسكنهم الكائن في شارع الريفولي ، الذي يعطي على حدائق التويلري ، أما سانتيني فقد كان رجلاً طيباً وذكياً جداً ، اذ أنه خلال السنوات الطويلة التي لم يكن فيها أي اتصال بين الولايات المتحدة وهانوي ، تمكن من اعطائي أول خلاصة من العقلية الفييتنامية . لقد أمضى وقتاً طويلاً فأشركني بما يقوم به من تجارب في هانوي ، ويبين لي عن انطباعاته حول التزامنا ومشاركتنا في الحرب الفييتنامية . وكالكثير من أمثاله من الفرنسيين الذين كانوا يخدمون في الهند الصينية . كان سانتيني يعتبر ان مغامرتنا كانت آيلة الى الفشل ، وهذا الحكم الذي كان يحكم به لم يكن ليخلو من العنصرية : اذ كيف يمكن لأميركا أن تنتصر أو أن تؤمل بالنصر هناك ، حيث فشلت فرنسا ؟ وخلافاً لرأي العديد من مواطنيه ، فانه كان يتفهم جيداً أهمية نهاية مشرّفة للولايات المتحدة ، وللشعوب الحرة الأخرى في هذه الحرب . ما كنت أشك مطلقاً في أنه يقيم وزناً لحكومته في الاتصالات التي كنا قد بشرنا بها . وهذا أمر ذو أهمية ثانوية لأن فرنسا لن تحصل على أية فائدة من هذه المعلومات ، انما سيشبع فقط حبّ الاطلاّع لديها دون التأثير بسياستها ، كنتُ أثق بمعاني الشرف التي يملكها سانتيني ، وكنت أوقن بقدرته على تنفيذ ما يوكل إليه . بالاضافة إلى أنه كان يتمتع كذلك بثقة الفييتناميين الشماليين . ولا يجوز ان يطلب من وسيط أكثر من هذا المزايا .

وفي الرابع والعشرين من شهر حزيران ، اقترحت اذاً على الرئيس دعوة سانتيني الحضور الى أمريكا ، لنتدارس معاً امكانية مبادرة جديدة . وقلت له ، اني أرى الأمور من خلال الطريقة التالية ، بما أن الأوضاع التي تعيشها هانوي في الساعات الحالية ، فان الخطوات التي ستتخذ

قريباً لن تؤثر كثيراً . غير أني افكر ، أنه يستحسن أن نقوم بمحاولة جديدة ، سواء للتاريخ ، أو بسبب فقد الأمل بأي تقدمّ حقيقي في مفاوضات باريس . وفي الخامس عشر من شهر تموز ، جرى لقاء بين الرئيس وسانتيني في المكتب البيضوي . وبما أن احداً لم يعلم بوصوله الى الولايات المتحدة ، لذا قمت بمهمة ترجمان بينهما . والمستوى التقريبي للغة الفرنسية التي اتكلمها لم يحقق ما كنا نصبو اليه من المحادثة . ولقد بين سانتيني أنه كان على استعداد للذهاب الى هانوي باسمنا حاملاً اليها رسالة من قبلنا ، أو لتنظيم موعد لقاء بيني وبين الدوق تو Tho عضو له أهميته في اللجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي في فييتنام الشمالية ، الذي كان يحضر غالباً لزيارة باريس واشترك في المباحثات الخاصة والافرادية مع هاريمان .

حصلنا على موافقة على الرأي الأول . وكتبت رسالة شخصية من نكسون إلى هوشي مين ، وطلبنا الى سانتيني إيصالها باليد الى هانوي . وكانت الرسالة تؤكد رغبتنا في السلام ، وتقترح مناقشة برامج هانوي وبرامجنا كذلك في الوقت ذاته ، ويمكن تلخيصها في التالي :

« حانت ساعة التوجه ، إلى طاولة المباحثات ، في سبيل إيجاد حلّ سريع لهذه الحرب المأساوية ، ستجدوننا في حالة جاهزية واستعداد لنبين وإياكم ، من خلال مجهود مشترك منافع الصلح ، لشعب فييتنام الشجاع . حتى يستطيع العالم ان يقول بعدئذ ، ان الفريقين قد اختارا وفي هذه اللحظة الحرجة ، السلام على النزاع والحرب » .

وما كان على الفييتناميين الشماليين ان يعارضوا ، لكنهم رفضوا حتى اعطاء سمة دخول لسانتيني ، وسلمت الرسالة الى مندوب هانوي في باريس : الذي يدعى مي فان بوي ، ولما كنا مصممين على إيجاد منفذ ما ، فقد كلفنا سانتيني ، بترتيب لقاء بيني وبين المفاوضينمن فييتنام الشمالية .

وفي آخر شهر تموز ، كنت أرافق الرئيس في رحلته السياحية حول العالم ، التي بدأت بمشاهدة هبوط أبولو الحادية عشرة في البحر ، وشملت بعدئذ زيارة الجنوب الشرقي من آسيا ، والهند ، وباكستان ، وأيضاً رومانيا . فتخليت عن متابعة الرئيس في رحلته لأعود الى باريز وبروكسل . بينما عاد هو أي الرئيس الى الولايات المتحدة .

وكان لقائي السرّي ، يجب ان يجري في الرابع من شهر آب في منزل سانتيني . ولما كان الدوق تو قد غادر باريس ، فأصبحت ملزماً على اجراء مباحثاتي مع كسيان توي ، مندوب هانوي المطلق الصلاحية في الجلسات العلنية لمحادثات باريس . وهذا ما علمته بعدئذ في انه كفيل ألاّ ينطق بشيء آخر سوى تلك الصيغ ذاتها التي انتهت إلى اليهمنة على الجلسات العلنية . وللحقيقة فان كسيان توي لم يكن مسؤولا سياسياً ، بل موظفاً . وحيث انه كان يمثل وزارة الشؤون الخارجية وليس الحزب الشيوعي ، فانه كان قد أرسل من قبل هانوي لعرض البرنامج الرسمي في الجلسات العامة . وكان توي صغيراً جداً مع رأس شبيه برأس بوذه ، ذا فكر ثاقب ، دائم الابتسام ، حتى في المحادثات المهينة ، ولم يكن مفوضاً باجراء محادثات . وكانت مهمته حرباً بسيكولوجية . وعندما كانت هانوي تقصد جدّية المباحثات ، كانت توفد المستشار الخاص لوفدها في باريس : الدوق تو . وكان يتوجب لوصف هذا الأخير ، فكراً ثاقباً للتمكن من اعطائه صفة رجل مسالم . ولكنه على الأقل يملك سلطة التصرف وهو ذاته أبرم المفاوضات عند النهاية .

كنت في باريس ، وغايتي اطلاع الرئيس جورج بومبيدو ورئيس وزرائه جاك شابان . دلماس عن الرحلة التي انهاها الرئيس نكسون . وفي ساعة متأخرة من بعد ظهر الرابع شهر آب ، غادرت السفارة الأمريكية ، ورأيت أن اتوجه لزيارة المدينة ، يرافقني في هذه الجولة مساعدي الخاص أنتوني لاك ، وملحقنا العسكري في باريس الجنرال فرنون وولتر ، فذهب الى مسكن سانتيني ، الذي كان يقطن ليس بعيداً من هناك في شارع ريفولي ، وللصدفة فان الصحافيين ، ما كانوا يتبعونني : والدخول الى مسكن سانتيني لم يكن يتطلب مهارة . واصطحبت الجنرال وولتر ، لسبب تمتعه بذكاء ثاقب يسمح له ان يكون ترجماننا الأمين ، ومن جهة أخرى ، لأنه كان يتمتع بملء ثقة نكسون وثقتي . ( انه هو الذي بدقّته وفطانته وسرّيته التي لم تخب أبداً ، قد نظم كل رحلاتي الأولى ، التي قمت بها الى باريس بشأن المفاوضات ، وهو الذي سهل أمر بعض الاتصالات التي أجريتها مع الصينيين ) كان وولتر يتكلم وبطلاقة تسع لغات ، وكان موهوباً جداً ومتمكناً من الترجمة . وهو كذلك ممثل كبير ، قادر جداً على تعديل ليس الكلمات فحسب بل أيضاً لهجة ووضع التكلم . ان انطباعه القوي المسرحي ، يجعل ترجمته صحيحة دون خطأ وتميل لصالح الأمانة بالأصل . وفي الواقع فان وولتر كان يتمتع بذاكرة حيّة ويرفض كتابة مذكرات لا تسهم في إراحة ذهن المتكلم والسامع . ودام اللقاء الذي اجريته مع كسيان توي ثلاث ساعات ونصف الساعة ، ومن جملة الأسباب التي أدت إلى إطالة اللقاء ، كان الترجمة المزدوجة

. فأنا كنت أتكلم اللغة الانكليزية ، وكان وولتر يتكلم بالفرنسية ، ثم يأتي دور ترجمان كسيان توي فيترجم الى اللغة الفييتنامية . وعندما كان يتكلم كسيان توي ، كان ترجمانه يترجم من اللغة الفييتنامية إلى اللغة الانكليزية .

كنت أوجس شيئاً من الخيفة من هذا اللقاء . ولأول مرة قمت بنفسي بإجراء مفاوضات . ولأول مرة أيضاً كنت أذهب للقاء هذا الفييتنامي الشمالي المتعذر إمساكه ، والذي تابعته دون جدوى طيلة فصل صيف كامل باسم الرئيس جونسون . وكنت نصف مصدّق ، اننا سنحصل على تقدّم فيما اذا استطعنا إقناعه بإخلاصنا . وصلت أنا وزملائي الى مسكن سانتيني بنصف ساعة ابكر ، فأدخلنا سانتيني الى قاعة الاستقبال ، ودلنا على مكان وجود المرطبات . وكانت تحوي شقته بعض النفائس ذات قيمة ، كان قد جلبها خلال إقامته في فييتنام . وأردف ( أرجو ، اذا كنتم غير متفقين فلا تكسروا الخزف برؤوسكم قال هذا ، متجاهلاً الأذى ، وانسحب من المكان .

وأصبح كل من كسيان توي ومي فان بو ، دقيقين جداً في مواعيدهما . كنا جالسين على مقاعد ، بعضنا تجاه الآخر ، وكان الفريق الأمريكي يدير ظهره لشارع الريفولي ، تاركاً للفريق الفييتنامي فرصة التطلع على حدائق التويلري . وفي جميع اللقاءات التي قمت بها على اثر ذلك ، كنت أهتم كثيراً بكرامة المفاوضين واطمئنانهم . وكان يصدف ان يكون بنيهم ممن امتهن العنف أو اشترك بحرب العصابات ، واتصالهم بالعالم الخارجي كان ثانوياً ، ولم يحدث سوى إطار معاركهم العديدة . غير انهم عندما يكونون بحضرة مندوب اكبر قوة في العالم ، كانوا يظهرون بمظهر بارع ، منتظم وحليم جداً . ما عدا مرة واحدة حيث شجعهم أول تقدم حازوا عليه في هجومهم الذي قاموا به في ربيع عام ١٩٧٢ فأصبحوا حينذاك سفهاء ، ولم يتصرفوا بعد بأية مجاملة ، ولم يكونوا على حلم في أجوبتهم ، ولم يقبلوا رأياً يشككون فيه . وبدوا وكأنهم اختصاصيون في حرب سياسية ، عازمين على التقدم في المفاوضات بموجب طروحاتهم الخاصة ، ولا يعطون مجالاً للمناقشة . وكانوا يعتبرون الأفكار والاقتراحات الأمريكية وكأنها مطلب ، دون التفكير بتسهيل متبادل . وأية تسوية حسب رأيهم هي إقرار بالضعف وحصروا اهتمامهم في كل ما له علاقة بمصلحة هانوي . لم يستندوا بكلامهم إلى الريب ، ولم يعتقدوا أبداً في داخل نفوسهم بما نطرحه عليهم ، وهدفهم الموضوع نصب أعينهم هو : الوصول الى الاستيلاء الكامل على فييتنام الجنوبية ، أو على الأقل الوصول الى حلّ يبقى خصومهم وقد وهت عزيمتهم ، حيث يصبح عليهم سهل من سحقهم حال سنوح أول فرصة . والمطلوب الآن سحق الهجوم الذي قاموا به في فصح عام ١٩٧٤ ، والذي أنهك قواهم حتى يمتنعوا من التفكير بالغلبة بأي ثمن بعد الآن.

بعد مبادلة بعض المزاح ، لا سيما حول الجهود التي بذلتها للقاء مي فان بو عام ١٩٦٧ وكانت دون جدوى ، وهنا انهيت الاجتماع . وأبديت احتراماً لشجاعة وتحملات الشعب الفييتنامي . ان الولايات المتحدة كانت تسعى بإخلاص لتسوية تتوافق مع عزة نفس الفريقيين . وفي الأول من شهر تشرين الثاني ، يكون قد مضى على بدء المفاوضات إثر إيقاف القصف سنة . وخلال هذه الفترة الطويلة ، فان الولايات المتحدة وحدها ، كانت قد اتخذت عدداً غير قليل من الاجراءات : لقد انقطعنا عن ارسال النجدات والتعزيزات ، وأعلنا عن انسحاب أحادي الجانب لعدد يبلغ خمسة وعشرني ألف رجل ، ووعدنا بإجراء انسحابات أخرى في المستقبل القريب . وكنا اقترحنا في الوقت ذاته قبول نتيجة الانتخابات الحرة التي أجريت تحت مراقبة دولية . والتي كان بمكنة جبهة التحرير الوطنية الاشتراك فيها . وليس هناك أي جواب بالمقابل . كنت قد اقترحت إبان وجودي في باريس ، على أعلى المستويات الممكنة وبرغبة صادقة ملحة ، في بذل جهود حقيقية مخلصة لتسوية القضية بمناسبة مرور سنة على المفاوضات في الأول من شهر تشرين الثاني . وكنا على استعداد لمناقشة جبهة التحرير الوطنية حول نقاط عشر ، لكننا في الوقت نفسه ، كنا نبدي رأينا ، ان هذه النقاط العشر ، ليست بالوصايا العشر ، المنحوتة على حجر ، والتي بما هي ليست بموضوع مناقشة أو مفاوضة . وعلى الأمد الطويل ، أخذت نفوسنا ترفض ان نعامل كطلاب ، وواجب علينا ان نقدّم امتحاناً عند كل لقاء عن تفهمنا لحقيقة وواقع هانوي الحقيقي .

واقترحت أخيراً تحديد نوعية المفاوضات ، وبذل مجهود ولو كبيراً لايجاد مجال لمحاولة توحيد النقاط العشر مطلب جبهة التحرير الوطنية ، والنقاط الثماني التي أوردها الرئيس نكسون في الخطاب الذي ألقاه في الرابع عشر من شهر أيار . ان الولايات المتحدة كانت طبعاً على استعداد لسحب جميع قواتها ، دون استثناء ، ضمن اطار برنامج انسحاب متبادل . كما كنا على استعداد لقبول نتيجة أي اقتراح سياسي حرّ يطرح علينا . وكنا نقدّر انه لا يمكن مطالبة هذا أو ذاك بالتخلي عماّ هو على طاولة المفاوضات ، ما لم يكن قد حُصل عليه في المجال العسكري . ولأجل هذا اذا أردنا ان يكون تصرفنا نبيلاً ، يجب علينا الأخذ بعين الاعتبار تقارير القوات العسكرية والسياسية الموجودة في الظرف الحالي . ولما كنا لا نطالب بتشتيت شمل القوات الشيوعية ، فلا نقبل أن نطالب بتشتيت التنظيمات غير الشيوعية . ولكي تصل المفاوضات الى نتيجة ، يجب على كل معسكر ان يقدّر أن خصمة لا يتقبل الغلب ما لم يكن هذا حقيقياً . واقترحت باسم الرئيس ، البدء بسلسلة خاصة من الاتصالات . فاذا ظهرت المفاوضات

مجدية فان الرئيس على استعداد ، لإعادة النظر في عملياتنا العسكرية ، لإفساح المجال لاجراء اتفاق . وبالمقابل ، اذا لم يحرز أي تقدم حتى الأول من شهر تشرني الثاني ، يجب على الولايات المتحدة اتخاذ اجراءات سيئة النتائج .

أصغى إلي كسيان توي ببرودة أعصاب ، دون أن يظهر على نفسه أنه لمس تغيراً ما في الموقف الأمريكي ، بالرغم من أني قدّمت أوضح مخطط سلام وضع حتى الآن . وتعمقت فيه الى أعماق جميع المحاولات السلمية التي يجرِ بحثها منذ ذلك الوقت ضمن الحكومة ، وعرضت أنسحاباً شاملاً لكل القوات الأمريكية ، دون تحديد لإبقاء بعض القوات ، كما اقترحت أيضاً تقليصاً تدريجياً للعمليات العسكرية . فوجّه إلي كسيان توي ، حسب عادة الفييتناميين الشماليين ، بعض الأسئلة التفصيلية ، وطبعاً فيما يتعلق بتحديد نوع المفاوضات وطريقتها ، قبل الدخول في حديث طويل . فبدأ بتذكيرنا بتاريخ فييتنام القتالي ، في سبيل استقلالها خلال الأجيال . وكان عليّ ان استمع الى عادة هذا التاريخ على أسماعي ومرّات عديدة ، طيلة أربعة أعوام متتابعة . وأصبح هذا تلقائياً في سماع البطولات ، التي ربما طلبت وقتاً طويلاً . وسرد هذه الملحمة البطولية ، التي كانت تروي الطريقة التي توصل بها الفييتناميون الى قهر عدوهم المحتل الأجنبي ، وهذه الرواية كانت تثير العواطف وتحركها ، ولكن كثرة تكرارها ، فان هذه الاعادة النوعية أصبحت تقابل ببرودة وعدم اهتمام . وعندما دخل حقيقة في الموضوع بنهاية خمس وأربعين دقيقة ، انكر كسيان توي ان العشر نقاط التي ورد تحديدها من قبل التحرير الشعبية ، كانت كما أوردتها أنا ، في أنها مشابهة للوصايا العشر . غير أنها كانت تشكل الأساس الوحيد لتسوية قضية حرب منطقية وواقعية ، تمييز بارع ، ما كان يخطر لي ببال ، كمفكر غربي .

وبالنسبة لكسيان توي ، فقد كانت هناك مشكلتان : المشكلة السياسية والمشكلة العسكرية . وحل المشكلة العسكرية عليه أن ينتهي بانسحاب جميع القوات الأمريكية ، التي كان يدعوها الفييتناميون الشماليون ، القوات التابعة . ( وهذا يعني انها قوات أرسلتها البلدان المتحالفة ) ثم أردف قائلاً : ان تصريحات الولايات المتحدة الأمريكية ، كانت غامضة حول هذا الموضوع . مريداً بذلك ، اننا لم نقدّم برنامجاً غير مشروط لانسحاب تلك القوات . اما بالنسبة للحل السياسي ، فانه يتطلب مغادرة كل من : تيو ، وكي ، وهيونغ ( الذين يعتبرون : رئيساً ، ونائب رئيس ، ورئيس وزراء حليفنا ) وإقامة حكومة ائتلافية مشكلة من حكومة ثورية مؤقتة ، ومن أعضاء حكومة سايغون القدماء ، شريطة الالتزام بالدفاع عن ( السلام والاستقلال والحيادة ) . وبالنسبة لكسيان توي ، فان المشكلتين : العسكرية والسياسية كانتا متلازمتين ، وليس هناك أي

مجال لوضع حلّ لواحدة دون الأخرى . وبمقولة أخرى : حتى ان الأنسحاب للقوات الأمريكية أحادي الجانب ، ليس باستطاعته وضع حدّ للحرب ، أو الحصول على الإفراج عن الأسرى .

وأكملت هانوي خطتها اذاً بالتأكيد على الولايات المتحدة حول إقامة حكومة جديدة ، تحت مدلول ان المعسكر غير الشيوعي يصبح مشلولاً إثر انسحاب القوات الأمريكية ، وتتضعضع خططه بعد مغادرة قيادته . اذا كانت لدى الولايات المتحدة الجرأة على الانسحاب دون التسبب لهذا الانهيار السياسي فان الحرب لن تنقطع ، ولن يفرج عن الأسرى . وخلال السنوات التي تلت ، فقد انتقلنا من موقف الى آخر ، من الانسحاب المتبادل ، الى الانسحاب الأحادي الجانب ، ومن القوى المتبقية في الميدان الى الانسحاب الكامل . وهكذا لم تزعزع هانوي . فلم نكن قادرين على الحصول على السلام ، ولا تحرير أسرانا ، طالما أننا لم نقدر على تحقيق ما يؤكد لهانوي انها لن تستطيع بعد الظفر بما تريد : أي إسقاط حليفنا . ولم نكن على استعداد لنقدم للشيوعيين شيئاً لم يقدروا هم على تقديمه لأنفسهم . وكان يبدو لنا هذا أمر غير مشرف ، يجر وراءه نتائج سيئة في مستقبل الولايات المتحدة في جميع العالم . وهذا الرفض من قبلنا ، بعد قبول إسقاط حليفة ، هو وحدة ، جمدّ سير المفاوضات جميعها حتى الثامن من شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢ ، وفي هذا التاريخ فقط سحبت هانوي شروطها .

حتى ولو لم نتوصّل ، أنا وكسيان توي الى الشيء الكثير ، فاننا نجحنا على الأقل بالإعلان عن مواقفنا المستقبلية ، وبلهجة أقل عدواناً . ولقد اتفقنا على ان كل فريق منا حرّ باجراء الاتصالات التي يريد مع الفريق الآخر ، وعلى الفريقين ترتيب الاجراءات اللازمة لاجتماع آخر . كما بيّن لنا كسيان توي ، ان هانوي غير راغبة في قبول وساطة بلد ثالث ، وتطالبنا بتعيين أمريكي متمرس وماهر ، لتلقي أو تسليم مراسلات بهذه السلسلة المكوكية . فعينت اذاً الجنرال وولتر لهذه المهمة ، وارسلت تقريراً بكل ماجرى للسفير بونكر في سايغون ، ليُعلم بدوره الرئيس تيو ، الذي وافق في اجتماع ميدواي ، على اجراء محادثات كهذه ، فاطلع هذا الأخير وبصورة دقيقة على مفاوضاتي السرية منذ بدايتها . ولما كان السفير لودج غائباً عن باريس في هذه الفترة ، فلقد أعلمت معاونه فيليب حبيب بهذا اللقاء . وهذه المكوكية الجديدة لم تستخدم عام ١٩٦٩ . وبعد يومين أي في اليوم السادس من شهر آب ، قام الشيوعيون بهجوم على كام ران باي ، والذي يمكن ان نفسره في الواقع انه مخطط له قبل اللقاء بكسيان توي . ومع ذلك ، ففي الحادي عشر من شهر آب ، فان القوى الشيوعية ، كررت جرمها ، وبهجومها على اكثر من مائة مدينة ، وضيعة وقاعدة ، منتشرة جميعها في فييتنام الجنوبية ، وبعملها هذا وضعت حداً لسكون

المعارك خلال ثمانية اسابيع . ولو كنّا ذوي بال طويل وسعة صدر ، فلانستطيع إبعاد التفكير من أن هانوي لايفيدها ولا تهتم لمبادرة السلام ، والمفاوضات والنية الحسنة والمقابلات .

# إعــادة جديــدة

# في

# التــقديــر

وكان ردّ نكسون على الهجوم الجديد في فييتنام ، انه أعلن في الثالث والعشرين من شهر نيسان ، من البيت الأبيض في سان كليمنت ، وانه على أهبة العودة الى واشنطن ، لمعالجة انسحاب القوات القريب ، وخلافاً لعاداتهم ، فان الفييتناميين الشماليين في باريس ، لم يصدر عنهم أي ردّ فعل إلا مؤخراً ومع بعض التردّد والتأخير كنا نبديه في سحب قواتنا ومن جانب أحد ، حمل هانوي على التفكير ، فتبين لنا ما كانت تبديه من خوف نحو القوات الأمريكية ، وعمّا سيجري فيما اذا تبدّل موقفنا الداخلي وخولنا صموداً اكثر . لكن هذا ليس هو المطلوب . وبما أن قرار نكسون قد أتخذ في حدود اثنين من المبادئ الثلاثة التي كان قد طرحها في آذار ، وكررها كثيراً بدءاً ( من النشاط العسكري المعادي ، وتقدّم المفاوضات في باريس ، وتحسنّ وضع القوى الفييتنامية الجنوبية ) استقبل هذا القرار بازدراء من قبل الكونغرس والشعب .

وفي الخامس والعشرين من شهر آب ، أجاب هو شي مين ، على الرسالة التي كان الرئيس نكسون قد وجهّها إليه في الخامس عشر من شهر تموّز . ( وفي الواقع فان الجواب لم يصلنا سوى في الثلاثين من شهر آب ، أعني ثلاثة أيام قبل موت هو ) ورسالته هذه لم تكن تحمل نفس التوجيه الذي ارسله إليه نكسون أي : « السيد الرئيس العزيز » . لذا فانها قد أعادت إلى الأذهان ، لموقف الرسمي لفييتنام الشمالية وبلهجة حاسمة :

« إن شعبنا الفييتنامي ميّال بعمق الى السلام ، السلام الحقيقي مع الاستقلال والحرية . وشعبنا عازم على القتال حتى النهاية ، غير آبه ، للتضحيات والصعوبات والتي عليه ان يجابهها ، للدفاع عن بلده وحقوقه القومية المقدسة . ان المخطط العام المتضمن عشر نقاط ، الذي تقدّمت به جبهة التحرير الوطنية لفييتنام الجنوبية ، والحكومية الثورية المؤقتة ، لجمهورية

فييتنام الجنوبية ، ان هذا المخطط يشكل أساساً منطقياً ومعقولاً لتسوية قضية فييتنام . وهو حائز على رضا ومساندة شعوب العالم الكامله .

لقد بينتم في رسالتكم انكم تسعون وراء صلح وسلام عادلين . ولأجل ذلك فان الولايات المتحدة ملزمة في وضع حدّ لعدوانها ، وسحب جميع قواتها من حق تنظيم نفسها دون تدخّل أجنبي . وهذه هي الطريقة المجدية الصحيحة لحلّ القضية الفييتنامية ... ) .

ومهما يكن السبب الذي أهاب بالسيد هو لهذا الجواب ، وسواء كان الخط البادي عليه حقيقياً أو مشكوكاً فيه ، فانه كان يؤكد مرّة أخرى ، ان هانوي لن يرضيها ويكفيها سوى النصر . وكانت تؤكد في جميع تصرفاتها وشؤونها على إنهاك أعصاب الولايات المتحدة ، ولا تسمح بظهور أيّة بارقة أمل بتقدم في المفاوضات ، فنسمح لنفوسنا حينذاك بربط قضيتنا بالرأي العام لدينا . وردّ فعلنا الطبيعي ، كان في انهاء ترحيل جنودنا ، مع أن الأنسحاب بالمناسبة كانت في أوجها ، وكانت محددّة لفترة زمنية . وكنا غير قادرين على اجتناب ضغوط الرأي العام من جهة ، وقرارات الحكومة ، التي كانت تقرّب أجل كل فترة . وآخر محاولة أجراها نيكسون للصمود في وجه هانوي كانت في الثالث والعشرين من شهر آب ، لتوقيف تنفيذ اجراءات الانسحاب .

اجتمع مجلس الأمن القومي في الثاني عشر من شهر أيلول لمناقشة الانسحاب القادم للقوات ، وهذا هو آخر خلاف حول هذه القضيّة . لأن الرئيس قد اتخذ قراراً في السادس عشر من شهر أيلول ، بإنقاص سقف عدد قواتنا المسلحة في الخامس عشر من شهر كانون الأول إلى أربعين الفاً وخمسمائة رجل . ومجموع تخفيض السقف المسموح به كان يبلغ الآن خمسة وستين ألفاً وخمسمائة رجل . أي أنه كان أنقص بخمسة عشر ألف رجل ، مما كان قد رآه روجرز ضرورياً في بداية العام ، لإقناع الرأي العام في ان الولايات المتحدة راغبة جدّياً في وضع حدّ للحرب . وبعد اعلان السادس عشر من أيلول ، أصبحت انسحابات جيوشنا من جانب واحد . ولم يكن الرئيس يفوّت أيّة فرصة من انتهاء الانسحابات ، دون أن يعلن عن زيادة عدد القوّات المراد سحبها في الفترة التي تتبع . وأصبحت هانوي قاب قوسين أو أدنى من الظفر بهدفها الثاني ، دون أيّة مبادلة ، وإيقاف القصف كان يؤدي إلى انسحاب أحادي الجانب . لقد قدّمنا الكثير ، وقبلنا في الواقع الانسحاب الكامل لقواتنا ، وبدأنا من جانبنا فقط مغادرة فييتنام ، وأنقصنا تدريجياً ، نشاطاتنا العسكرية ، وكل هذا كان دون مقابل .

لم أكن لأفقه جيداً ، ما هي أحسن وأجدى طريقة تعبوية لابتاعها خلال اجتماع مجلس الأمن القومي ، في الثاني عشر من شهر كانون الأول لتدارس وضع فييتنام ، لم أشارك فعلياً سفي المباحثات ، لكني قلت عند النهاية ، ( ان الواجب يدعونا لوضع حدّ لقضية فييتنام ، وليس فقط العمل على سحب قواتنا ، فهذا ما ينتظره العالم منا ) . كنت أرسلت قبل هذا الاجتماع بيومين ، مذكرة شخصية للرئيس ، أطلعته فيها على ما كنت أعانيه من قلق ، وسألته عن نظرية تسمية الحرب ، بالحرب الفييتنامية . ان انسحابات قواتنا كانت في نظر الرأي العام الأمريكي وكأنها فول سوداني مملّح ، فبقدر ما نسحب من قواتنا ، كان خصمنا يطلب المزيد ، وكان يتمادى فيفرض علينا انسحاباً كاملاً أحادي الجانب ، وربما في خلال أقل من عام ( وهذا حقاً ما حصل ) . وكنت دائماً اؤكد ان ستراتيجينا لن تؤتي أكلها بهذه السرعة ، كي تتوافق مع ارادة الرأي العام ، وكنت استبق الأمور وباللأسف ، ان هانوي تنتظر طبعاً أن نجلي جميع قواتنا أو القسم الكبير فيها ، لتقوم بهجوم شامل يذهب بكل جهودنا . وبالاختصار ، فإني لم أكن موقناً بنجاح ساستنا . وهذه المذكرة المؤرخة في العاشر من شهر أيلول سجّلت دون نقصان في المذكرات الواردة في آخر الكتاب .

وألحقت هذه المذكرة بأخرى في اليوم التالي ، مؤكداً فيها على الخيارات السياسيّة ، كما كانت بادية لي ، وحذّرت الرئيس مرّة أخرى ، أننا في طريق الفشل ، اذا أقمنا كامل ستراتيجيتنا على فييتنمة الحرب . وقسم من هذه المذكرة ، موجود أيضاً بين المذكرات في آخر الكتاب .

وبالنسبة لي ، كنت ميّالاً للحلّ الذي كانت تمليه ( مهمة فانس ) التي كانت مقترحة من قبلنا ( أعني أني كنت نصيراً لتقديم الكثير والممكن ( ولكن بالاستثناء الدائم لإسقاط الحكومة الحليفة ) لنسمع لأنفسنا بالبدء في مناقشة سياسيّة حرة . وعند رفض طلبنا ، سنوقف انسحاب القوات ، ونقاطع فييتنام الشمالية ، ونلغم مرافئها ، ونقصف عند الاقتضاء خطوطها الحديدية ، التي تربطها بالصين . وكل غايتنا أن نصل إلى تسوية بنتيجة المفاوضات . وحالماً وصلت مهمّة فانس إلى اقتراح مخطط صلح مفصل ، جمعت حالاً في شهر أيلول وتشرين الأول ، في غرفة عمليات البيت الأبيض ، عدداً قليلاً من معاوني ، الذين كانت لي فيهم ملء الثقة ، لأتفحص وإياهم ، الخطوط العسكرية للقضية . وبيّنت لمعاوني انّ ستراتيجتنا الحالية تقوم على محاولة ايجاد توازن بين انسحاب سريع يقنع هانوي بتصميمنا على الانتهاء من الحرب ، مع انسحاب بطيء لقواتنا للتمكن من إرضاء الرأي العام الأمريكي . وفي اللحظة التي يفقد فيها الرئيس ثقته في سياسته ، ولا يكون مهياً للاستقالة ، فكيف يتمكن من الحصول على حلّ

سريع مهما كان الثمن ؟ وطالبتهم بوضع مخطط عسكري ، يستطيع التأثير الفعال على امكانات العدو العسكري ، وطالبتهم بالإضافة إلى ذلك ، اعداد تقييم للنتائج الدبلوماسية التي يؤدي اليها . واخيراً طلبت منهم إعداد محاورة لمفاوضة نهائية .

وأطلق على مجموع هذا المشروع اسم ( شرك البط ) لأسباب لا اذكرها الآن بكاملها . وحلّل هول سونينفيلد وجون هولدريدج ، ردّ الفعل الممكن الحدوث من قبل السوفييت والصينيين ، بالنسبة لتجديد العمليات العسكرية . وأخذوا بعين الاعتبار ، النتائج التي ربما تحصل في المجال القضائي والدبلوماسي . أمّا روجرز موريس وتوني لاك وبيتير رودمان ، قاموا بإعداد مشروع خطاب رئاسي ( الذي استخدم بصورة خاصّة في الثالث من شهر تشرين الثاني ) ونظمت هيئة رئاسة الاركان العامة المشتركة مخطط لغم للموانىء ، والمنشآت المرفئية وتدمير تسعة وعشرين هدفاً ذات مصالح عسكرية واقتصادية ، بغارات جوية كان يجب ان تدوم أربعة أيام . وكان المخطط يقدّر أيضاً اجراء هجوم متفرق يمكن أن يدوم أيضاً من ثماني وأربعين ساعة إلى اثنتين وسبعين ساعة ، وفي حال إصرار هانوي على عدم اجراء مفاوضات رسمية . وكنا قد حددنا موعداً لذلك في الأول من شهر تشرين الثاني ، لأن في هذا اليوم يكون قد مضى عام على التاريخ الذي عزمنا فيه على إيقاف القصف لإفساح المجال لمفاوضات ( فورية وسريعة ) .

وتقدم مشروعنا خطوة فخطوة . وبمقدار ما كانت تجري المحاورات ، لقد توصلّت الى نتيجة عدم الأخذ بالحسبان ، أن عملية عسكرية سريعة وحاسمة ، وان الانشقاقات الكائنة داخل حكومتنا ، لن تسمح لنا أبداً بسلوك طريق بقدر ما تكون جريئة فهي محفوفة بالمخاطر . وفي السابع عشر من شهر تشرين الأول لفت انتباه الرئيس إلى تأجيل تنفيذ هذا الرأي ، ليفسح لنا المجال لنقوم مبدئياً معدل تسلل فييتنام الشمالية ، خلال بضعة الشهور الباقية من هذا العام . وتشككي بالنسبة لفييتنمة الحرب ، لا يزال يعكس المعضلة غير قابلة الحل الماثلة أمامنا . والتي تلزمنا بالصمود أمام فييتنام الشمالية وأمام المعارضة ، والتي تشكل نسبة مئوية هامة تفرض وبشدة فكرة ستراتيجية مترابطة . وفي الثلاثين من شهر تشرين الأول ، كتبت أيضاً للرئيس مذكرة شخصية . مبيناً له فيها مرة أخرى تشككي بالنسبة للفرضيات التي كنا نبني عليها سياستنا :

( رأينا انهيار عدة برامج وضعت بخصوص فييتنام وأعلنا عنها بضجة وصخب ، والتي حلمتني ان أفكر أنه من المستحسن اطلاعكم ولو بصورة موجزة على بعض الأمور التي أعتقد

ان لها علاقة بفرضيات الفييتنمة الغامضة . ولكي نحكم على صحة هذا السلوك ، يجب أن نفترض ان هناك عدة عوامل تكون بصالحنا ، والتفكير ان هانوي تصل أخيراً إلى القبول بها .

ان تقديرات الولايات المتحدة فيما يتعلّق بالفييتنمة ، وكذلك بما تخطّطه هانوي من فرص لنجاح ستراتيجيتها ، ترتكز كلها على تقديراتنا حول ما يلي :

. ان حدّة ردود الفعل الأمريكية من جرّاء الحرب ، وبأية صورة كانت ( وتجربة الماضي تبين لنا أن الفييتنمة ، ليست هي التي تضع لها حداً بطريقة حسيّة ) .

ـ قابلية الحكومة الأمريكية ، لفرض تنظيماتها ، في الوقت الذي تخطط فيه سياستها ( فلو تعزّز الرأي العام ، تتمكنون من مواجهته بمشاركة الحكومة ، ضمن وضع مرتبك ، وحين تكون الصحافة غير مبالية به ) .

ـ الاستعداد الحقيقي للحكومة ، والقوات المسلحة الفييتنامية الجنوبية لتقوم مقام ، وبصورة ملموسة وبسيكولوجية ، الفرق الأمريكية التي تكون قد عادت للوطن ( وهنا ينقصنا عناصر للإجابة بحق وثقة ، لكن هذا الأمر البسيط بحدّ ذاته ، وتجاربنا الماضية لا تحملنا أبداً على التفاؤل ) .

ـ ان النتائج الحقيقة لخسائر هانوي الحالية ( وأقصد بذلك تلك التي تؤثر بأقسام الجيش ، والبنية السياسية ... ) حول نضاليّته ( ومستحيل على هذا أيضاً ان يعطي جواباً قاطعاً ، وبالحقيقة ، فان معظم الوقت ، والنجاح الذي توصلنا إليه ، تتعلق كلها بوضع أمنّي حصلنا عليه بفضل القوّات الأمريكية ، لا بفضل إضعاف قدرة العدو السياسية ) .

ـ استعداد حكومة فييتنام لاجتناء مكسب سياسي ثابت من التقدم نحو السلم الحالي ( وهناك أيضاً التقارير المتعلقة لا سيّما بالمكاسب الأمنية ، التي حصلنا عليها بفضل الحماية الأمريكية ) .

ترتكز سياستنا في الفييتنمة اذاً ، على مجموعة فرضيات ، التي ربما كانت غير دقيقة ، بالرغم انه لا يمكن الاعتماد على التحاليل الحالية .

كانت مذكراتي حول الوضع ، تصبح أكثر فأكثر دون كيشوتية . وخارجاً عن الفييتنمة ، فان الأمكانية الوحيدة الحقيقية التي كانت باقية لنا هي الانسحاب السريع لقواتنا أو العودة إلى العمليات العسكرية ضمن تقدير عمليّة فانس وفي مشروع ( شرك البطّة ) . ومع ذلك فان

المعارضين الأمريكيين الأشد ضراوة ، لم يجرؤوا على طلب الانسحاب السريع لقواتنا عام ١٩٦٩ . انها خيانة كبرى ، تلك التي تدعو وتسبّب سقوط حليفنا ، ولا تترك له أيّة فرصة يقدر فيها على تثبيت نفسه بنفسه . وهذا يؤدي حتماً إلى تدمير الثقة ، التي تكنها البلدان الأسيوية بما فيها اليابان ، للولايات المتحدة الأمريكية . لم يطالبنا أي زعيم أوروبي ، خلال هذه الفترة ، بالانسحاب دون شروط من حرب قد ورثناها . ولديّ شك كذلك بأن الانفتاح نحو الصين ، يتبعه أيضاً إذلال كهذا . واذا كانت الصين تسعى خفية للتقرب منا ، فإن سبب هذا ايجاد توازن للتهديد المتعاظم الذي تجربه القوات السوفييتية على حدودها . ومن المستحيل عملياً ان نعيد للوطن خمسمائة ألف رجل وبصورة سريعة . وكان البنتاغون يعتبر أنه يلزمنا على أدنى تقدير من اثنى عشر إلى ثمانية عشر شهراً ، لإعادة كل هؤلاء الجنود ، الذين استغرق ارسالهم إلى فييتنام أربعة أعوام .

ان انسحاب شاملاً وسريعاً لا يستوجبه سوى اختلاف نظامنا الاجتماعي وذعرنا الذي ربما توصلنا إليه هزيمة جيوشنا . ان الجيش الفييتنامي الجنوبي الذي يقارب عدده المليون رجل ، يوشك ان ينقلب ضد هذا الحليف الذي أقدم على خيانته . أضف إلى ذلك فان الرأي العام ، لم يكن مهيأ للحاق بنا في هذا الممشى . وكل تدقيق في الأمور كان يرشدنا في الحقيقة ، إلى أن الانسحاب الأحادي الجانب ، كان مرفوضاً من الأغلبية الساحقة . إن وضع وموقف مواطنينا ، كان اكثر غموضاً ، مما كان عليه وضع مسؤولي الدولة ، الذين يأتمرون بتوجيهاته . وكان يريد هؤلاء واولئك مغادرتنا لفييتنام ، ولكن ليس بنتيجة هزيمة . لكن هانوي كانت قد أفهمتنا جيداً ان انسحابنا ، حتى ولو كان أحادي الجانب ، لا يكون كافياً لوضع حد للحرب ، أو للإفراج عن أسرانا . ولم تكن تنفك عن تذكيرنا ، أنه يجب علينا طرد حلفائنا في الحكومة ، وإبدالهم بحكومة ائتلافية بأغلبية شيوعية .

ومنذ عام ١٩٧٠ ، وبالتأكيد خلالها ، أنذرنا معارضون ، لتحديد تاريخ لانسحاب جيوشنا الكامل . لكن اعلانا كهذا ، يخالف حقيقة الفييتنمة ، ويكون موازياً حقاً للاستسلام . ولو حدّد هذا التاريخ وبطريقة كيفية . اعني قريبة جداً . فإن كل شيء سيتدمر كلياً . وتكون هناك هزيمة جيوشنا . واذا بالمقابل ، كانت الفترة الممنوحة ، مطابقة لمخططنا في الفييتنمة ، فان الخلاف الوحيد يكمن في الواقع في إعلانه رسمياً . وبقي علينا اذاً أن نعلم ان إعلانا كهذا يتوقف على عون أو بعكس ذلك يكون عقبة في وجه جهودنا ، لإخراجنا من هذه الحرب . وسواء كان بخطأ أو حق ، فان رأينا كان اعلانا رسمياً كهذا سيُزيل آخر سبب لدى حكومة هانوي في

قبول المفاوضات . ومن جهة أخرى ، كيف نتمكن أن نفسّر للعائلات الأمريكية ونقنعها أن أولادها سيظلون معرضين للخطر ، في حال اننا نتوقع ونقدّر لانسحاب كامل لقواتنا . ومن المهم جداً أن نعيد للأذهان ، ان المعارضين الأكثر مسؤولية ، الذين من بينهم كلارك كليفورد ، لم يكونوا يطالبون باجراء انسحابات حتى نهاية عام ١٩٧٠ ، سوى سحب القوّات المقاتلة ، وهناك عدد هام من القوات يجب ابقاؤه في مكانه بعد ذلك . والاختلاف الوحيد كان في ان مخطّط الانسحاب الذي وضعناه نحن ، كان أطول بأربعة أشهر .

فضلاً عن ذلك ، كان علينا ان نطالب بمثابرة وثبات ، ان تسحب سايغون حقها من استعمال ( الفيتو ) على طاولة المفاوضات ، وبصورة أكثر شمولاً كانت تلك طريقة للوم حكومة فييتنام الجنوبية على موقفها الزجري المزعوم . ومن غير المعقول ان ننكر ، ان تكون الحكومة قد مارست بعض نفوذها حول ما نقوم به من اجراءات في الأراضي حيث تتركز قواتنا . وبعد كل هذا فإن أمنها وشرعيتها وبقاءها ، تشكل بعض المشاكل الأساسية لهذه الحرب . ولو كنا سببّنا لها الفشل ، باجراء ضغوط ، لا تتمكن من تحملها ، سنصبح في الواقع من صفوف الذي يملون شروطاً كالشروط التي تفرضها هانوي . ولكننا نحن الذين كنا نقوم بالتأثير على سايغون وليس العكس . وعلينا ان نعترف أن حكومة سايغون استجابت لطلباتنا العاجلة بأن بذلت جهوداً غير عادية لتمكين قواعدها ، وقبول مواجهة سياسية مع الشيوعيين . وبرنامج إصلاح زراعي هام أخذ طريقه ، وشكلت لجنة انتخابية تتضمن بين أعضائها شيوعيين . ان سياسة سايغون قلقة وتعددية ، أكثر من المعارضين الأمريكان الذين لم يكونوا يوافقون على قبولها ، وكانت مفضلة في المجال الانساني على كليانية فييتنام الشمالية الجامدة ، والتي كانت في الحقيقة هي البديل الوحيد في الموضوع .

ان قضايا الأمن الداخلي لحكومة فييتنام الجنوبية ، لا تشكل ذريعة للحكم الفردي ، لكنها تؤخذ كحقيقة . ان الارهاب المنظم كان يعبث فساداً في المدن ، وهناك جرائم قتل واختطاف تجري يومياً بشكل تقريبي في البلاد . ان الاستقلال والتوازن السياسي ، لدى الزعماء العسكريين يفي فييتنام الجنوبية ، والذين كان عندهم رغبة في فرض القانون في البلاد ، أصبحا الآن تحدياً لسلطة تيو الشخصية ، لمنعه عن التكلم باسم حكومة شرعية . وكانت الولايات المتحدة في كل مرة الجانب المسؤول في هذا الموضوع بالذات . وان الانقلاب الذي جرى لنغو دين ديان في عام ١٩٦٣ ، والتطهير الشامل الذي أتبعه ضمن الحكومة المدنية ، هما اللذان جعلا الأنظمة اللاحقة تنبثق جميعها عن العسكريين . ومن الواضح الجلي ان الاجراءات السياسية في

بلد مزدهر ، وله من تراثه الكثير من تقاليد الحرية ، ان هذه لا يمكن تطبيقها كاملة في بلد نامٍ ، دمرته الحروب الأهلية ، وأضف إلى ذلك فأن الرئيس لنكولن ذاته ، لم يلتجئ اليها خلال حربنا الأهلية . ان المعارضين من خلال محادثاتهم الكثيرة مع تيو ، لم يجعلوا من أنفسهم حماة للاصلاحات الواقعية ، بل كانوا يسعون لإيجاد سبب لتنحيتنا .

والواقع ان البديل الوحيد لاعتزالنا أو تدمير حكومة سايغون ، ان هذا البديل يتوقف سواء على العودة إلى العمليات العسكرية أو على الفييتنمة . رفضنا نهائياً الحل العسكري ، لأننا كنا نفكر ان الرأي العام الأمريكي لن يكون معنا ولوقت طويل لنتمكن من الظفر ، ومن ثم لأن الانتصار كان قضية مشكوك فيها . وأخيراً فيما لو أنتصرنا ، فان سايغون لن تتمكن وحدها من أخذ الباقي على عاتقها . وللحقيقة ، فاني لم أدرس جدّياً هذه الامكانية ، والسبب المهم في ذلك ، هو اني كبقية أعضاء الحكومة ، لا أريد وضع حدّ للحرب ، بل أن أصل الى ذلك ، مع تسبب انتفاضات أقل . لم يكن ذلك فارقاً فلسفياً ، الذي كان يفرق بين الحكومة ومعارضيها المعتدلين ، لكنه كان فارقاً دقيقاً : فقد كنا نريد الانسحاب ، وفي الوقت ذاته ، كنا نتمنى ان نحافظ ببعض الوقت للمناورة ، كما أننا نرفض تحديد تاريخ رسمي لانسحابنا لأننا لا نزال نأمل أن نرى هانوي تقبل بالمفاوضات وأن تدفع الثمن لتسريع انسحاب قواتنا .

## الحمـــائم

## غــير المســالمـــة

في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الثاني لعام ١٩٦٩ ، أي بأسبوع واحد قبل الاحتفاء بتولية ريشارد نيكسون . جاء شالمرز روبرتز المعلق السياسي اللامع لواشنطن بوست ، فأكد عن علم ورطة نيكسون فقال :

( أقول لأول وهلة ان البلاد ولكونغرس ، سيعطيان مهلة شهور ستة للحكومة الجديدة ، لإيجاد وسيلة للانسحاب بشرف من حرب فييتنام . ومهما كان الأمر ، فان الأشهر الستة هذه ، أو أي تمديد ممكن أن يمنحها إياه الرأي العام تُرى غير كافية ......

يرى الرئيس نيكسون نفسه مجبراً ، ليس فقط بالتصريحات ، بل باندفاع قومي ، على اتباع سياسة جونسون .... لقد كشفت الحملة الانتخابية بوضوح ، ان الأغلبية العظمى من الأمريكان ، تريد انسحابنا من فييتنام ، ولكن بشروط مشرفة لا تنسينا ذكرى قتلانا البالغ عددهم واحداً وثلاثين ألفاً . وان تنسيق أوضاع كهذه ، لا يفسح مجالاً كبيراً للسيد نيكسون في الأعمال أكثر من الزمن .... ) .

وهكذا فقد جرت في الستة أشهر التي تلت : احتجاجات ومظاهرات تتابعت ، وطالب الشعب والكونغرس بتنازلات أحادية الجانب ضمن المفاوضات ، وان تكون هذه متسارعة . ليست هانوي التي تؤجل الحل بل الحكومة الأمريكية التي لا تعطيه اهتمامها الكلي .

ان الأجيال القادمة سيؤلمها تقدير أهمية الأحداث التي سببتها حرب فييتنام من انعكاسات داخلية . وفي اليوم الثاني من شهر تموز لعام ١٩٦٩ مزقت نساء يعارضن الحرب في نيويورك ، لوائح المجندين . وفي السادس من شهر تموز ، فإن مؤيدات ( للقتال النسائي في سبيل السلام ) توجّهن إلى جامعة تورنتو لمقابلة ثلاث مندوبات لجبهة فييتكونغ . ورئيسا البلدية في مدينتين قدّما عريضة للرئيس ، يطالبانه فيها بالامتناع عن ارسال أولادهم للمحاربة في فييتنام . وفي الخامس عشر من شهر تموز هاجم المتظاهرين قلعة فورت لافيس ووصلوا إلى درجات السلالم

. وفي الرابع عشر من شهر آب ، فان اثنى عشر من الجنود الشبان تجمعوا في هونولولو ولجؤوا إلى كنيسة ليؤكدوا رفضهم الصحيح والعميق للظلم الأساسي في منهج التجنيد الأمريكي . وفي الثامن والعشرين من شهر آب ، فان فريقاً من ( اللجنة المنفذة للسلام في فييتنام ) توجّه إلى البيت الأبيض ، لتنذر الحكومة ان شهر العسل قد انقضى ، وفي شهر آب عندما كان نيكسون يقيم في الساحل الغربي ، وصل متظاهرين وعلى عدة مرات لمراجعة نيكسون في مقرّه بسان كليمانت . وفي الثالث من شهر أيلول ، نظم مائتان وخمسة وعشرون عالماً من علماء النفس ، نظموا مظاهرة وصلت أمام البيت الأبيض ، وكانوا يعلنون ان حرب فييتنام بالنسبة لهم ما هي ( سوى موجز لجنون عهدنا ) . واثناء اجتماعات عامّة ، كان هناك معارضون يأخذون بقراءة لوائح كثيرة تتضمن اسماء الجنود الذين قتلوا في فييتنام ثم يتقدمون بها إلى جلسات الكونغرس جونسون وكنيدي ، الذين رأوا ان العمل أفضل من اتهام من خلفهم في الحكم ، بعدم المبالاة لما يجر من تضحيات وقتل . وخلال شهر آب ، أعلن قادة الحكومة من المعارضة ، ان هناك سلسلة من المظاهرات ستجري اعتباراً من الخامس عشر من شهر تشرين الأول ، لممارسة ضغوط على الحكومة ، وكان هذا اعلاناً قيماً يعتبر تهديداً . ولقد نشر الشعب هذه الأحداث بصورة واسعة ، وأعطيت اذناً صاغية . وقليلون جداً . اذا وجدوا . عارضوا هذه الأفكار وطالبوا هانوي ان تبرهن بليونة أكثر ، أو قد قبلوا بينهم وبين أنفسهم ان الحكومة الأمركية ستواجه هذه الأمور بصدق وأمانة .

وفي نهاية فصل الصيف ، عندما عاد الطلاب الجامعيون إلى جامعاتهم ، واستعاد الكونغرس جلساته ، أصبحت الاحتجاجات أشدّ قسوة . وكانوا يتمنون في دخيلة نفوسهم ، ان يكون في موت هو شي مين ، الذي فاجأ العالم في الثالث من شهر أيلول ، مناسبة جديدة ، تؤدي إلى انفراج أزمة المفاوضات في باريس ، بالرغم من ان كل الأمور كانت تدعو إلى العكس . وفرضوا علينا ان نقترح وقف إطلاق النار احتراماً لزعيم كان سبب لنا كثيراً من خيبة الأمل . وكان يؤمل ان يكون وقف إطلاق النار هذا دائماً ، ويصبح بالامكان فرض تسوية على هانوي ، رفضها زعماؤها مراراً . وفي الواقع ، لقد قمنا من قبلنا بوقف اطلاق نار ، في اليوم الذي تّم فيه تشييع جثماني هو شي مين ، لكن خصومنا رفضوا ان يعملوا كذلك . وفي آخر فصل الصيف ، كتب شالمر روبيرت في واشنطن بوست الصادرة في الخامس من شهر أيلول ، تحليلاً دقيقاً عن الوضع ، كان يؤكد فيه ان الأفكار المناوئة للحرب أخذت تبدو للعيان .

( وبسبب مكوثه في سان كليمانت ، تمكن نيكسون الهروب من شرح ما يحمل بنفسه من أفكار يضعها موضع العمل بشأن الحرب . وكان الكونغرس في عطلته والطلاب على الشواطئ .... ومعارضو الحرب تركوا في مؤخرة أحداث الساعة .

سيعود السيد نيكسون إلى البيت الأبيض يوم الثلاثاء القادم ، ومن الآن فصاعداً سيعود المتأخرون عن الكونغرس أيضاً . أما الطلاب فسوف يأخذون طريقهم إلى معسكراتهم .

ان موت هو شي مين ، قد حث على طرح مبادرات حكومية جديدة . وكسيان توي ، مندوب هو في باريس ، كان يعيد إلى الأذهان يوم الثلاثاء ، ان الانسحاب الشامل للقوات الأمريكية ، يمكن أن يعطي لمفاوضات باريس زخماً واندفاعاً قويين .

يوشك الحادثات إحيان المبادرات الأمريكية للسلام . ولكن الصيف الطويل أسفر عن تحرك قوات جديدة نحو فييتنام .

وسيصبح الرئيس قريباً في وضع يجبر فيه ان يصرح ويصارح كثيراً ، وطبعاً أن يعمل اكثر ، اذا رغب ان يسانده الشعب ) .

ان تكهنات روبرت ظهرت دقيقة وصحيحة . وفي الثالث من شهر أيلول : ادمون موسكي ، عضو مجلس الشيوخ في مين ، كان ينحو باللائمة على برنامج سلام نيكسون من حيث الغموض ، كما كان يتساءل أيضاً ، عما اذا كان نيكسون يرغب في المفاوضة على اتفاق أو الحصول على نصر عسكري . وفي الخامس من شهر أيلول ، كان يقترح عضوا مجلس الشيوخ : جون شيرمين كوبر وغايلور نلسون ، أن على الرئيس اغتنام الفرصة التي سببها موت هو شي مين للقيام بمبادرات جديدة في سبيل السلام ، دون أن يوردا ذكراً لما تتوقف عليه هذه المناسبة . وفي السادس من شهر أيلول كان زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد ، يقدّم نفس الأقتراح .

وفي الثامن عشر من شهر أيلول ، أي يومان بعد اعلان الرئيس عن انسحاب أربعين الفاً وخمسمائة جندي ، كان ادوارد كنيدي عضو مجلس الشيوخ ، يهاجم سياسة نيكسون في فييتنام ، ملوّحاً بتنظيم سايغون وكأنه عائق هام في سبيل حل سلمي . وخلال محادثة في الحادي والعشرين من شهر أيلول ، كان سايروس فانس يُطرح ( وقف اطلاق النار الكامل ) مقترحاً حلاً بواسطة في سبيل تسوية في مستوى فيدرالي أو كونفدرالي ( في حين اننا كنا اقترحنا على

دوبرينين ، وقف اطلاق نار ، في نطاق مهمة لم تعقب عليها هانوي ) . وفي الخامس والعشرين من شهر أيلول ، عضو من الكونغرس ، الليرد لوينستين من نيويورك ، صرّح هذا أنه يرى إثارة الرأي العام ، لإيجاد موجة جديدة من مقولة ( اطردوا جونسون من مركزه ) يكون نيكسون هدفها هذه المرة . وفي اليوم ذاته ، فان عضو مجلس الشيوخ شارك غوديل من نيويورك أعلن أنه يقترح على مجلس الشيوخ : انسحاب كل القوات الأمريكية من فييتنام قبل نهاية عام ١٩٧٠ .

وعندما اقترب إنذار الخامس عشر من شهر تشرين الأول ، فان نقاد كلا الحزبين في الكونغرس ، أصبحوا أشد عنفاً . وفي اليوم الثاني منه ، فان عضو مجلس الشيوخ مانسفيلد ، دعا الرئيس إلى طرح وقف إطلاق نار كامل . وفي اليوم ذاته ، فان عضو مجلس الشيوخ اوجين ماك كارثي ، ساند اقتراح غوديل . وفي الثالث من تشرين الأول ، فان عضو مجلس الشيوخ شارك بيرسي ، نصح الحكومة بوقف هجومها ، طالما ان العدو لا يستفيد شيئاً من هذا على المدى الطويل ( وهذه المقولة ذاتها هي التي ضعضعت المحادثات حول إيقاف القصف . وفي الفترة الكائنة بين الرابع والعشرين من شهر أيلول والخامس عشر من شهر تشرين الأول ، أقترح أحد عشر حلاً في صالح السلام في الكونغرس . وكانت هذه الاقتراحات تتضمن مذكرة عضو مجلس الشيوخ غوديل ، التي تطالب بقطع الإمدادات عن القوات الأمريكية بدءاً من شهر كانون الأول لعام ١٩٧٠ ، ومشروع قانون تقدم به عضوا مجلس الشيوخ مارك هاتفيلد وفرانك شيرش ، ويطالب بتنظيم توقيت لانسحاب سريع لكافة القوات من فييتنام ، وحل أعضاء مجلس الشيوخ جاكوب جافت وكليبورن بيل وغيرهما ، الذي يطالب أيضاً بانسحاب كال القوات المسلحة الأمريكية من فييتنام حتى نهاية عام ١٩٧٠ ، والغاء قرار خليج تونكين ، الذي سمح في عام ١٩٦٤ للرئيس جونسون ، ارسال أولى الوحدات المقاتلة إلى فييتنام . أضف الى ذلك ، فان التصريحات المعلنة من الشخصيات ذات العلاقة كانت تتضاعف ، وفي التاسع من شهر تشرين الأول ، طالب كينغمان بروستر ، المعيد في جامعة يال ، بانسحاب غير مشروط للقوات وفي العاشر من شهر تشرين الأول ، فان رؤساء تسعة وستين كلية وجامعة ، كتبوا إلى الرئيس نيكسون ، ان الشيء الذي نستعجله هو تنظيم ميقات لانسحاب جنودنا . وفي الثالث عشر من شهر تشرين الأول ، وصف وتيني يونغ ، وهو من الرابطة المدنية القومية ، وصف ودون تحفظ ان الحرب هاوية أخلاقية وايديولوجية ، مؤكداً انها تقوي الضغوط العنصرية في الولايات المتحدة . وفي الرابع عشر من شهر تشرين الأول ، فان فام فان دونغ ، رئيس وزراء فييتنام الشمالية ، غذى الخلاف والمناقشات العامّة برسالته المفتوحة إلى المعترضين الأمريكيين على الانذار ، ( مادحاً القتال وواصفاً إيّاه

أنه أشرف عرض للمتطلبات الشرعية للشعب الأمريكي .... والشعب الفييتنامي ، والمواطنيين الأمريكيين التقدميين ، ضد عدوان الولايات المتحدة ، وأردف ان هذا القتال سيتوج بانتصار شامل ) .

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الأول ، جرت مظاهرات الإنذار . فعند ظهر هذا اليوم ، اجتمع عشرون ألف شخص في الحيّ المالي من نيويورك لسماع بيل مويرز ، المساعد السابق للرئيس جونسون ، والناطق الصحفي السابق بلسان البيت الأبيض ، ليسمعوه مطالباً الرئيس نكسون ، ليحسب حساب مطالبات التحركات ضد الحرب . كما اجتمع ثلاثون ألف شخص ، على أرض نيو هافن غريين ، وخمسون ألفاً آخرون حول بناية واشنطون من حيث يستطيعون رؤية البيت الأبيض ، وكان عدة آلاف ، قبل ذلك ، طافوا المدينة حاملين شموعاً . وفي جامعة جورج واشنطون ، أبلغ الدكتور بينجامين سبوك ، عدداً كبيراً من المستمعين ، ان الرئيس نكسون غير كفوء لوضع حدّ للحرب ( بسبب شخصيته المحدودة ) . ومظاهرة بوستون التي كانت تضم مائة ألف شخص تجمعوا في حديقة البلدية ، وكانت تبدو أهم من غيرها ، كما أن آلافاً من الأشخاص انتشروا في جميع الشوارع المجاورة . فخاطب الجماهير عدة خطباء بينهم عضو مجلس الشيوخ جورج مالك غافرن ، فيما كانت طائرة ترسم في الجو رمز السلام . كانت الجماهير تصرخ في نهاية كل خطاب : ( السلام الآن . السلام الآن ) . والخطوط الكبرى العامة لجميع هذه المظاهرة، كانت موحدة في الاعتقاد : ان الحكومة الأمريكية تقف عائقاً في وجه السلام . فليس هناك حاجة لبرنامج سلام مشرف ( فهذا تصور يستدعي تنازلاً مخجلاً ) وعلينا ان نعلم ان هذه الحرب غير مرغوب فيها .

وأفردت التايم ونيوزويك صوراً حية جداً وعدة صفحات منها لمظاهرات المدن الكبرى والمعسكرات . وفسرت التايم فحوى الموراتوريوم بما يلي : ( ما كان المقصود الحقيقي برسالة يوم الثلاثاء التي وجهت للرئيس نكسون ؟ هناك متظاهرون عديدون يطالبون بانسحاب سريع وشامل للقوات الأمريكية من فييتنام . ومع ذلك فان الموراتوريوم لا يمثل في الواقع مطالبة الرئيس بالإقدام على هذا الحل ، انما هو بمثابة إنذار لنكسون لإسراع في وضع حد للحرب . واذا لم تكن الاجراءات المتخذة أكثر سرعة ، فان نكسون سيجد مصاعب جمة في الحفاظ على مساندة بلاده له ، خلال عامين أو ثلاثة ، يراها هو ضرورية لسحب قواته من فييتنام بشرف وضمن شروط تسمح بالإبقاء على مصالح ونفوذ الولايات المتحدة في العالم ) .

حتى لو أقدمنا على التأجيل لمدة عشر سنوات ، فمن الصعب ألا يشعر المرء بمرارة، لوضع أمة على أهبة التمزق في حرب رهيبة . وكانت الحكومة قد أعلنت في شهر تشرين الأول ، عن انسحاب أكثر من خمسين ألف رجل وتقليص غارات B 52 إلى عشرين في المائة ، والغارات الجوية الستراتيجية الى خمسة وعشرين في المائة ، وتغيير في الأوامر العسكرية ، المطلوب من الجنرال ابرامز تنفيذها ، وهذا في مجموعة يشكل قراراً في وضع حد للهجوم . ان الحكومة السابقة كانت قد أرسلت خمسمائة وخمسين ألف أمريكي إلى فييتنام ، ولم تقدّم أي اقتراح لاجراء مفاوضات ، اللهم ما عدا الإعلان في ان هذه القوات ستنسحب بعد ستة أشهر من مغادرة الفييتناميين الشماليين ، وكان يقصد طبعاً ، ولا مجال للشك ، اننا مصممون على الاحتفاظ بعدد كبير من الجنود في فييتنام بعد الحرب . ومع ذلك ، هم كثيرون الآن الذين لا يمانعون في مضايقة واغتياب الرئيس الجديد ، الذي اقترح انسحاباً شاملاً لقواتنا خلال الاثنى عشر شهراً التي تلي اجراء اتفاق ، وانتخابات حرة تشارك فيها جبهة التحرير الوطنية ، ولجان انتخابية ، تمثل فيها أيضاً جبهة التحرير الوطنية . وعلاوة على ذلك ، فان الرئيس ذاته هو الذي حاول امكانية وقف اطلاق النار .

ان انحراف الرأي العام ، أثار وبصورة قوية مشكلة مسؤولية الحكام تجاه الجمهورية من خلال الديمقراطية . سعيد هو الحاكم الذي تتوافق تصرفاته في سبيل المصلحة العامة مع ما يعتقده الرأي العام ! ولكن ماذا عليه أن يعمل اذا كانت هذه مختلفة ؟ ان نظرة سطحية للديمقراطية ستحوله الى السلبية ، وان يكتفي بالاتجاه والعمل بما يريده الرأي العام حسبما يفهمه هو . ولكن سيكون هذا منافياً للصفات التي هي من حق الأمة ان تنتظرها ممن كلفتهم تدبير أمورها . ان القادة السياسيين يجب ألا يأخذوا باستفتاءات الرأي العام ، لكن عليهم تحمل نتائج أعمالهم انهم هم المسؤولون في حالة الكوارث ، حتى ولو ان القرار الذي أدى الى الفشل كان دقق جيداً . ففي عام ١٩٣٨ ، جعلت اتفاقيات ميونيخ تشامبرلين ذا شعبية كبرى ، بينما ان تشرشل كان يُعتبر مثير فتن مخيفة . وبعد ثمانية عشر شهراً ، كان تشامبرلين قد أنهي وضعه ، لأن اتفاقيات ميونيخ كانت قد فقدت اعتبارها . ان الحرب الفييتنامية كانت مشكلة أكثر تعقيداً . كنا نعتقد بخطأ أو بصواب ( واني على ثقة ان ذلك كان بحق ) ان اتفاقية الاستسلام أو الاجراءات المشابهة ، ستدشّن فترة تخصص لتخفيف قابليتنا للتصديق وتسريع اللاستقرارية العالمية . ان المعارضة كانت ترفع صوتها عالياً ، وأصبحت عنيفة . وكان منضماً اليها أقلية كبرى لأناس من مستوى ثقافي عالٍ ، كما انها وجدت صدى لدى الشعب ، ويردّدها كثيراً . لكنها كانت مخطئة

في نظرنا ، ولم نكن قادرين على انكار ما نراه حقيقة ، ما دام هناك أغلبية كبيرة من الأمريكيين تشاركنا في رأينا . وفي عام ١٩٦٩ فإن شعبية الرئيس نكسون ، التي قام بإحصائها غالوب لم تنزل أبداً عن معدل أربعة وأربعين في المائة ( وكانت نسبة المعارضين ستة وعشرين في المائة فقط ) وفي أوج المظاهرات العامة التي جرت في شهر تشرين الأول ، كان هناك ثمانية وخمسون في المائة ممن يساندون الرئيس في حين ان اثنين وثلاثين في المائة فقط كانوا معارضين .

واذا أردنا تعجيل المفاوضات ، كان ضرورياً إقناع هانوي أننا لا نستطيع إنقاص شروطنا المطلوبة . كما كان يجب علينا أيضاً رسم خطة ، تسمح لنا بكسب عالم كثير الى جانبنا . ولكن على مر السنين فإن كل فكرة أصبحت تتطلب أخرى جديدة . ولم نكن في مأمن تجاه الشعب ومعارضة الكونغرس .

ان هانوي لم تكن موضع أي انتقاد . وكانت المآزق تبدو دوماً قائمة ، بسبب ما يبديه الأمريكان من عدم فطنة ، إن يكن ناتجاً عن سوء اهتمام الحكومة . ان وسائل إيقاف الحرب كانت مهيأة باختصار وتحت تصرفنا ، ولكننا لا نقدم عليها بسبب اضطراب تفكيرنا . وكان لدينا انطباع ، ان هناك تقديرات سحرية تقف حائلاً بيننا وبين الحل الذي تتشبث به الولايات المتحدة ، أو أن نقصاً في جرأتنا الأدبية يمنعنا من الوصول إليه . وحدّدت القضية أخيراً بعبارة جارحة أو من التي تتحمل معنيين : أي من التي كانت تساند الحرب أو تغايرها ، أو ممن يرغبون في متابعة القصف أو ممن يريدون إيقافه . ما عدا شيئاً يستحق الذكر وهو ان ( الواشنطون بوست ) التي كانت عموماً تخالف الرأي نكسون ، فقد شهدت له بتعاطفه مع القضية . ففي اليوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول ، كان يمكننا ان نقرأ في مقالها الافتتاحي ما يلي :

( من المفجع حقاً ان نفكر أنه أصبح متأخراً ، وأنه لا يوجد أي اهتمام من قبل الحكومة ، أو أنها لم تقدم مذكرات حول موضوع فييتنام منذ ثلاث أو أربع سنوات . لأن ما نراه صعباً ، هو عدم التمكن من جمع أناس يوم الأربعاء ، وأعطائهم فكراً واضحاً عن معنى هذه المظاهرات ونتائجها الفعلية والمشجعة من خلال ما تظهره من فيض في المعارضة !! حتى ان التوسلات والاعترضات والإرشادات الصادرة عن أشخاص متألمين حقاً ، لا تنقع الرئيس بشيء . فلو علا الصراخ ، وكان من أعماق القلوب ، فان هذا لا يشكل تنظيماً .

ومما يصعب تصديقه ، انه عندما يُقدم الرئيس على عمل شيء في سبيل الحرب ، وتقدّر نتيجة عمله ، فلماذا ننكر عليه ان يكون عضواً كاملاً من هذه الأغلبية الراجحة من الأمريكيين ( الذين يتمنون وبرغبة جامحة وضع حد للحرب ) .

ويمكننا تكوين فكرة ، عن الوضع السائد في تلك الآونة ، عند مطالعتنا مقالات نيويورك تايمس الافتتاحية . في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٩ ، طلبت من بيتر رودمان ، أحد مساعدي ، أن يوضح لي تطور موقف التايمس من خلال افتتاحياتها . لم تكن في اختبار الصحيفة لأقوم بمقارنات سيئة ، فان كتاباتها كانت معقولة وتطالب بتسوية وليس باستسلام ، غير أن تطور هذه الأحداث هو كاشف لأمور يجب علينا مواجهتها .

وفي عام ١٩٦٩ ، كانت النيويورك تايمس تطالب بتساهلات من قبل الأمريكان ، في كل مرة يظهر فيها الفييتناميون ميالين للسلام ، لاغتنام الفرصة وأبرام الصلح . وكانت تتخذ الموقف نفسه ، عندما يكون المعسكر الآخر يعمل على تشديد الحرب ، وهذا يبرهن ان انتشار قواتنا المسلحة لا يمكن ان يساعد على وضع حدّ للحرب . ان هذه المناداة الدائمة في سبيل تساهلات ، والمخالفة لردود الفعل التي تصدر عن هانوي ، أدت بصحيفة التايمس ، لطرح افكار جديدة دون انقطاع . وأشارت مبدئياً في عام ١٩٦٨ بانسحاب ثنائي للقوات المسلحة الأمريكية والفييتنامية الشمالية ، لكنها طالبت الولايات المتحدة وبسرعة القيام بالخطوة الأولى واجراء انسحاب رمزي لقواتها ، ثم طلبت ان يكون هذا الأنسحاب أحادي الجانب ، ولم تقف عند هذا الحد بل طالبت أيضاً بتنظيم زمني محدد وغير مشروط لاجلاء عام للقوات المسلحة الأمريكية . وبدأت التايمس الدفاع عن حجتها ، بمطالبة مبدئية للوايات المتحدة ، بالتمهيد أو البدء بتقليص قواتها . وفي مقال افتتاحي لها في شهر أيار ، كانت تعتبر من الأهمية بمكان الانسحاب المتوقع من خمسين إلى مائة ألف جندي ، وأعتبر اعلان نكسون في ميدواي في شهر حزيران ، خطوة نحو التخلص من الالتزام . وفي شهر أيلول ، كان هناك تذمر من أن أنسحاب الستين ألف جندي ، كان بطيئاً ، رمزياً ، غير دقيق ، وغير كافٍ .

وفي المجال السياسي ، قدمت اقتراحات كثيرة . ففي شهر أيار من عام ١٩٦٩ اقترحت التايمس اجتماع اللجنة الانتخابية لتأليف حكومة ائتلافية ، لمراقبة الاجراءات الانتخابية الحرة القائمة في فييتنام الجنوبية . ولكن بعد أقل من أربعة أسابيع ، أي شهر واحد قبل ان تقترح سايغون اجتماع لجنة مشتركة مماثلة ، كنا نمر من مرحلة الاقتراحات الى مرحلة

المفاوضات في سبيل اتفاق ، بشأن مستقبل حكومة فييتنام الجنوبية ، أعني حكومة ائتلافية مؤقتة . وفيما يتعلق بالتعبئة العسكرية ، بدأت التايمس في شهر نيسان من عام ١٩٦٩ ، تطالب بتقليص عمليات التمشيط والتطهير . وفي الخامس والعشرين من شهر تموز ، أعلنت ان هذا التقليص هو قيد التنفيذ . وبعد اسبوعين كانت تطالب أيضاً بوقف إطلاق نار كامل . ولكن هذا لم يكن كافياً بحدّ ذاته . وأقدم نكسون على تبني هذا الاقتراح في السابع من شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٠ رفضته هانوي حالاً . وضاعفت التايمس جهودها في انتقاداتها .

كل واحدة من هذه التساهلات ، كانت تعتبر ضرورية للسلام وكأنها الوسيلة الوحيدة للبدء بالمفاوضات . وعند إعلانها تُستحسن آنياً ويصفق لها ، ثم يُصار الى انتظار ردود فعل هانوي . ولكن عندما كانت هانوي تتجاهل هذه الاقتراحات ، كان ينتج منها مطالبة الأمريكيين بالحزم في أمورهم ، بالإضافة الى مطالبتهم بتقديم تساهلات إضافية . بحجة ان بطء التقدم رهن بالأمريكيين أو بسايغون . فكانوا يغيرون الاقتراحات السابقة ، أو يدعمونها بعد ان تكون هانوي أظهرت ردود فعلها بالنسبة لها ، أو ان الأمريكان يصلبون موقفهم وبدون جدوى . ان هذه النداءات في سبيل زيادة تساهلات من الجانب الأمريكي أصبحت الآن معتدلة ، بسبب ان الأمريكان كانوا مطالبين بإظهار حسن نيتهم لخصومهم ، وان يفكوا عن السعي في أي مجال لإحراز نصر عسكري . ولم يكن العدو مطالباً بأكثر من هذا . ولم يكن هذا التطور هو الوحيد من نوعه من قبل التايمس ، وأظهر جيداً أن نقادنا كانوا على غير اكتفاء أو اقتناع ، حتى عندما كانوا يقدمون على تفنيذ ما يرون .

وكانت اجراءات الكونغرس مماثلة ، فان عضو مجلس الشيوخ وليم فولبرايت مثلاً ردّ على الخطاب الذي ألقاه الرئيس في الرابع عشر من شهر أيار ، فصرّح : انه بالرغم من قلّة جرأة نكسون ، ( مع ذلك فانه لا يلوم الرئيس من عدم اتخاذه حدوداً أبعد ) . وبالإضافة الى هذا ، ففي الثاني والعشرين من شهر حزيران ، بالرغم من الإعلان عن انسحاب أحادي الجانب لخمسة وعشرين ألف جندي أمريكي معسكرين في فييتنام ، صرح عضو مجلس الشيوخ ذاته انه كان مخدوعاً ، وأنه يطالب بعودة لجنة مجلس الشيوخ المكلفة بدراسة الشؤون الخارجية لفييتنام . كما ان عضو مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد ردّ على خطاب الرابع عشر من شهر أيار بطريقة مماثلة تماماً ، مؤكداً أولاً انه حصل لديه انطباع ، ان هناك مجالاً لكثير من التساهلات متبادلة . وبعد اسبوعين ، كان هو نفسه ينتقد الحكومة ويصرّح ان استراتيجتها العسكرية ، لم تكن أبداً تتناسب مع إيجاد حلّ للسلام .

ولم يقدم معارضوا الحرب أية افكار جديدة أو تساهلات . وكانوا يتهمون وبدون شفقة اولئك الذين يعتبرونهم مذنبين . ولم يُعد وولت روستوف الى كرسي الأستاذية ، إذ شغل منصباً عظيم الأهمية في الحكومة طيلة ثماني سنوات ، مما جعله دون شك غير قادر على اعطاء الدروس في هذه المؤسسة العليا . وقوبل تعيين وليم بوندي كمراقب رئيسي في مجلة الشؤون الخارجية بالصياح . وبعد أن أمضى دين راسك ثماني سنوات وزيراً للشؤون الخارجية ، وبالرغم من نزاهته وكفاءاته وتفانيه في خدمة البلاد ، فانه لم يجد عملاً مأجوراً طيلة عدّة أشهر ، وأخيراً فان جامعة جورجيا ، حيث تلقى دروسه ، قدّمت له وظيفة أستاذ ، كما منحته سكرتيرة نصف نهارية . وبالنسبة ليوبرت هامفري ، اللطيف وصاحب الخلق الرضي ، والجذّاب ، أخضع لإزعاج عنيف ، بقي يتأرجح فيه طيلة عدة سنوات وتكشفت الحمائم عن أصل خبيث من الطيور ، ومرور السنين لم يتمكن من جعلها أحسن وفي عام ١٩٧٩ ، فان أربعة وعشرين استاذاً من جامعة نيويورك اعترضوا على تعيين ماك جورج بوندي ، في وظيفة أستاذ ، لاتهامهم إياه بالممالأة في عملية إبادة شعب . وحدث الشيء نفسه في جامعة شيكاغو حيث اعترض ثلث الجهاز التعليمي ، وعلى تخصيص امتياز لروبيرت ماك نمارا . وما يجهله الناس حقاً ، هو أن جريمة إبادة شعب الحقيقية جرت وقائعها بعد انتصار الشيوعيين ، وهذا أمر ابتعد عنه اولئك الرجال كل الابتعاد ولم يقبلوا أبداً الاشتراك فيه ، منذ عشر سنوات ، وكانت غاياتهم شريفة و لو جهلهم الناس . ومن الواضح ان الذين كانوا يطالبون بالسلام ، ظنوا خطأ ، افتعال أمور قبيحة ، في سبيل الحصول عليه .

ولكن حسب رأيي ، ان الحالة الأكثر تأثيراً ، كانت بدون شك حالة روبيرت ماك نمارا ، الذي كان قد أقيل من وظائفه كوزير الدفاع ، من قبل الرئيس جونسون ، عام ١٩٦٧ وعيّن على الأثر مديراً للبنك العالمي الدولي التقيت ماك نمارا عام ١٩٦١ ، بعد تعيينه بقليل من قبل كنيدي رئيساً للبنتاغون ، فظهر لي نابهاً ، حيوياً ، واثقاً بنفسه ، وامتدحت جهوده في سبيل إقامة سياسة دفاع من زاوية أكثر تحليلاً . لكنني اعتقدت في الوقت ذاته ، انه يستميل الأنظار إلى صفاته البارزة ، فكان لا يأبه للعوامل البسيكولوجية السياسية الثابتة ، ويتجه نحو فلسفات وهمية التي تسببت ببعض التوترات في وسط حلفائنا . والمشتركون معه من الشباب كانوا يخفون آراءهم الايديولوجية ، وراء طريقة تحليلية والموضوعية ظاهرياً لكنها تتطلب في الواقع ان اسئلتهم تطالب دوماً بأجوبة من قبلهم ، وأن هذه الأمور أدّت الى موقف طال أمده في تنمية تقنيتنا العسكرية .

وبالرغم من هذه المعوقات ، كان ماك نمارا وزيراً قويا للدفاع ، وتقربه المنظم نحو سياسة دفاعية ، كنا بحاجة إليها منذ زمن طويل ، وحتى لو أني لم أكن أثر بعضاً من حلوله ، كنت أعتقد مع ذلك ، انه قد توصل الى معرفة الداء الحقيقي . ولكن ولو كانت صفاته ذات ثقة أكيدة ، فإنه مع ذلك ، ليس هو بالرجل المنتظر لارادة دفة الحرب . ان الطرق التي أهلته لمنصب احدى الوزارات الأكثر صعوبة ودقّة ، تكشفت عن عدم قدرتها على تنظيم وانهاء نزاع ، يرتكز حلّه على عوامل سياسية وبسيكولوجية . ولّما كان الأمر صعباً وغامضاً معاً ، كان يلفت الانتباه الى اجراءات عسكرية ، تتوقف عليها طبعاً تغييرات في الوضع . وفوق كل ذلك ، لم يكن ماك نمارا ، ذا ثقة بما يعمل . لقد رغب كثيراً في استعمال قدرة أمتنا الفعالة لمصلحة البشرية . ولم يكن جريئاً على خوض حرب لا تنتهي . وكان يتألم من عاطفته الجامحة التي حملته على الموافقة على قرارات جعلت الحرب معقدة ودون مخرج . وفي عام ١٩٦٥ ، عندما عدت من سفرتي الأولى الى فييتنام ، كان العضو البارز في مستوى حكومة جونسون الذي قدم للقائي . وفقدان حل للحرب التي أصبحت اكثر فأكثر حقيقة واضحة ، كان يعذبه . إنه نهب للريبة وتأدية الواجب ، وبين تحليلاته ونبله ، ويعلم أنه قادر على استعادة صداقة كثير من الناس كان يعتبرهم بإشارة معارضة ، لكنه لم يكن يقرّ ذلك انه مهارة في قول ما لايفعل ، طالما انه يقدر نفسه مسؤولاً ، ويستطيع تمرير آرائه بصورة أكثر فاعلية وهو في الوظيفة اكثر من خارجها .

وفي نهاية المطاف ، لم يطل الأمر بماك نمارا أن أصبح انعكاساً لحقيقة واقعية . وهذا التناقض الوجداني لديه ، خلص الى تحبيذ الحرب ، مفسراً صفاته المترددة ، وتوسيع علاقاته في فترات العنف والتهريب . كان ماك نمارا قد طلب منذ البداية ، أو أفضل أن اقول انه توسل ان يحصل على سلام ناتج عن المفاوضات ، لا ان يكون فرضاً . كان بابه مفتوحاً دائماً لأولئك الذين كانت تؤلمهم خيبة أمل أمريكا . وضمن المشاورات الحكومية ، كان يشترك في جميع المبادرات الدبلوماسية ، لاسيما في تلك الاجتماعات التي كانت الوزارات صاحبة العلاقة تسعى نحو إيجاد حلول . وفي عام ١٩٦٧ انه هو الذي أكد على اجراء مفاوضات حول إيقاف القصف عن طريق وسيطين افرنسيّين . وكان جدّ قلق ، حتى انه كان يكلمني هاتفياً بعد كل لقاء مع الفييتناميين الشماليين . مستخدماً اسماً مستعاراً شفافاً حتى انه لم يحتج الى اكثر من عشر ثوان لكشفه من قبل أعضاء جهاز التنصت . وبعد فشل هذه المحاولة بقليل ، أجبره جونسون على تقديم استقالته ، لأنه قد سببها لنفسه ، ولم يكن عليه الحق في كل ذلك اذ أن التردد الذي كان يبديه ماك نمارا هو الذي منع الوزارة ان تقوم حقيقة بأعمالها وفي الوقت المناسب ، حيث كان الرأي

العام يوجه الاتهامات بشدة لوزير الدفاع ، متهماً إياه هو قائد ماهر ، ولايستطيع الظهور أمام الجمهور دون ان يجلب لنفسه أشد التهجمات ، وسلك ماك نمارا بعد استقالته بعزة نفس مميزة . ومنذ عام ١٩٦٩ . لم يفوت فرصة ينبهني فيها الى أتخاذ اجراءات في وجه مغتابيه . لقد أذل وأهين جسدياً من قبل طلاب المعسكرات ، واستهزئ به من قبل الصحافة التي كانت تظهره في الكاريكاتير وكأنه ( داعية حرب ومحب لها ) . إنه جدّ مدرك لمسؤولياته ، وشاعر بالألم الذي جره عليه تطبيق سياسة ما ومسؤوليته من خلال ذلك ، حتى يتصرف كالبعض من مشاركيه المسؤولية القدامى ، الذي في سبيل تهربهم مما عليهم ، كانوا يشتمون الحكومة علناً لأنها هي المسؤولة عن نزاع أرغمت عليه ، تألم كثيراً ولم يبدُ عليه ابداً . ان هذا الجو لم ينجح سوى في قطع العلاقات ، بين حكومة ورثت الحرب ، وتسعى بكل تأكيد لأن تضع لها حداً ، وبين العناصر التي راهنت على الرئاسة ، ودور الولايات المتحدة في المستوى الدولي . وكانت هذه القطيعة تستند في قسم منها على تثبيط همة الحكام الذين ساندوا خيارات ما بعد الحرب . ان حرب الهند الصينية كانت قمة الهزائم التي تحملنا طيلة عشر سنوات ، والتي بدأت بنهضة أيديالية ، وانتهت بجرائم قتل ، واضطربات عنصرية واجتماعية وسياسة تميل أكثر فأكثر نحو اليسار . ان معضلاتنا كانت حصيلة مبادئ راديكالية ، تتطلب أعمالاً اصلاحية ، ونظريات جامعية معقولة في مستوى تدريجي . ان خيبة الأمل في هذه الأمنيات الرفيعة ، هدم الثقة التي بدونها ، يبقى النظام السائد باطلاً . ان قادتنا الذين انشؤوا سياستنا الخارجية ، أسقطهم غضب الطلاب عليهم . ان المتحدرين الشباب من البورجوازية الكبرى ، والذين أصبحوا بالتالي ابناءها ، لم يقدموا فقط على اتخاذ قرارات سياسية ، بل أسلوب حياة وقيماً لاتزال معمولاً بها حتى اليوم . وبعد أن نشطهم حب لإجرام الذي يدين بالكثير لطب الأمراض العقلية الحديث والأفكار اليسارية السارية ضمن البورجوازية في ضواحي المدن ، وكانوا يرسمون نهاية عهد وضع كل همة في التقدم المادي . وبكل غرابة ، فان عدم طمأنينة الصغار ، بدلت الاعتراضات الطبيعية عند الشباب الى تطور كامل في جو ثورة دائمة ، وصدمة نفسية قومية .

ان هناك أسباباً أخرى ، كانت تعتمد أيضاً على بنية تنظيم السياسة الأمريكية ذاتها . فحرب الفييتنام أدّت إلى سقوط لندون جونسون ومعه يوبرت هامفري عام ١٩٦٨ ، ليس لأن البلاد بكاملها بدأت تتظاهر ضد الحرب ( التصويت لصالح والاس والجمهوريين ، كان يعكس رأي الأغلبية ، التي كانت تتدخل بالأمر أو تبقى صامته ) . ولكن لأن الحرب كانت تقسم إلى نصفين أساس سلطتهم ، أي الحزب الديمقراطي . وبعد أن أصبح خارج البيت الأبيض ، فان الحزب

الديمقراطي وجد من الموافق ، توحيد جهوده لمعارضة الرئيس الجمهورية حول قضية فييتنام . ان كل الذين عارضوا الحرب ولم يقبلوا جونسون وهامفري إلا على مضض ، أصبحوا من الآن فصاعداً مجردين من كل نبل تجاه الحزب . أما من جهة الجمهوريين ، فان ريشارد نيكسون كرئيس ، نجح في إيصال يمين الحزب إلى القبول بمخطط انسحاب وحل قلماً يثمر ، الأمر الذي بدون شك ، كان المحافظون ، لاموا عليه رئيساً ديمقراطياً وبشدة . فلم يكن هناك بعد توازن لدى المحافظين نحو الاعتراضات التي تصبح اكثر فأكثر عنيفة . وعندما هدأ نيكسون اليمين ، فقد حرر بذلك المعترضين من ضغوطه . ومنذئذ ، فان مركز ثقل السياسة الأمريكية ، انتقل نهائياً من جانب معارضي الحرب ، في حين ان الرأي العام لم يغير توجّهه الأساسي .

ان حكومة نيكسون الجديدة ، كانت تجد نفسها مواجهة للمشكلة ذاتها التي كان يواجهها دي غول في الجزائر : الانسحاب بخيار سياسي لا بسبب هزيمة . وكان الوضع أكثر أهمية بالنسبة للولايات المتحدة ، لأن قدر بلدان عديدة بتوقف على ثباتها . بالنسبة لدي غول ، فلم يكن على حق من لوم المعارضة ، لأنها كانت متاتية ممن كانوا يريدون الانتصار وكانوا يعتقدون أنه كثير التساهل ، الأمر الذي يبقى له مجالاً لعمل مناورات تجاه الهجمات الجزائرية ، لأن كل بديل لدي غول سيكون شيئاً . ومعارضتنا نحن كانت تأتينا ممن كانوا يطالبون بانسحاب أسرع ( أو حتى بهزيمة ) الشيء الذي كان يعطل كل سياسة المساومة . إن أعداءنا كان عليهم أن يربحوا كل ما يقدرون عليه من انهيارنا الداخلي . وهكذا وبالرغم من جميع الاستفتاءات ، التي أظهرت جميعها أن أغلبية الأمريكان يتمنون حلاً مشرفاً وكانوا جدً معارضين للاستسلام ( العاطفة التي عرف نيكسون وبمهارة استغلالها في عدة مناسبات ) كان نشاط السياسة الأمريكية يتجه نحو تساهلات أحادية الجانب ، أمّا بالنسبة لحكومة نيكسون وكيف نجحت في احتواء هذه القوات العنيفة ، بينما كنا نهيئ سياسة جريئة لإلغاء الالتزامات بصورة وثيقة وثابتة ، ان ذلك النجاح كان يتوقف على مآثر الجيش . انها مأثرة سياسية ، التمكن من المثابرة على هذه الطريق طيلة أربع سنوات وان نكون قد توصلنا إلى حل تسوية ، وتوازن في القوى ، ولو وقتياً مع فييتنام .

غني عن القول ، ان هذه المأثرة ، كانت أعسر مما كان يجب ان تكون عليه . وان اهتياج الرأي القومي كان يؤثر كثيراً في نفس نيكسون . فقد كان اتخذ مبادرات ، كانت جميعها معاكسة لما كان يقوم به سلفه . لقد سحب قواته ، وكبح جماح الحرب ، اجراءات أنشئت جميعها له ضمن مجموعة منظمات ، كان ينمي من خلالها عاطفة حذر وإرادة ، وبدل تهنئته كان يُلام لأنه لم يتصرف بسرعة في مجال لم تجرؤ هذه المنظمات نفسها أن تقوم بالخطوة الأولى . لم أكن

بعيداً عن التفكير ، ان ما كان يواجهه لم يكن مضادة برأي سياسي ، لكنها المؤامرة الراديكالية ذاتها التي كانت تهدف إلى تحطيمه منذ قضية ألجير هيسّ . كانوا كلهم هناك : جميع أعدائه القدامى في الصحافة والمنظمات ، وكانوا يوحّدون جهودهم ضده ، وكانوا حتى على استعداد لقبول ، ان لم يكن تشجيع هزيمة بلادهم العسكرية ، وذلك فقط ارضاء لفئة من الناس تريد الأخذ بالثأر . ولم يكن لدى نيكسون استعداد لفهم تمرد الشباب لاسيما الطلاب . ولما كان هو قد أجهد نفسه حتى تمكن من متابعة دراسته في الجامعة وكلية الحقوق ، فكان يعتقد ان جميع هؤلاء الشباب ، يجب ان يعتبروا ذواتهم سعداء من تمكنهم متابعة دراستهم العليا . وكان لجامعات ( إيفي لايغ Ivy league ) تقدير عظيم لديه . ولما بدأت اضطرابات جامعة هارفارد في ربيع عام ١٩٦٩ ، أقر لي أنه كان على اعتقاد ان هذا شيء حسن ، وان أعظم جامعة في البلاد ستسوي بكل تأكيد النزاع وتصبح مثلاً لباقي الجامعات . وبدا عليه الذهول عندما أعلمته طبيعة جامعة هارفارد ، ان بعد ثلاثة أيام مما يجري فيها ، لا يتذكر أحد ضد من قاوم أو صالح من ، وهذا ما يجري بالفعل . ولما كان نيكسون يعود بذاكرته إلى أيام شبابه ، فلم يكن يرى من خلال تمرد هؤلاء الذين يعتبرهم أصحاب حظ في متابعة دراستهم ، سوى توجيه ناتج عن تأثيرات معادية لشخصه هو . ولم تكن لديه أية مشاركة وجدانية لما يعانيه هؤلاء من يأس ميتا فيزيقي ، الذين لا يرون أمامهم سوى حياة ثراء مادي في قفر روحي . فاذا كان هذا ما يواجهه ، فليس هو بمعركة سياسية للبقاء ، أو نقاش حول سياسة خارجية ، بل ضد الطرق التي نفذها حتى الآن ، وباعتقاده انها معدّلة وصالحة للمجتمع . وبشأن الأسئلة الدولية البحتة ، كان نيكسون يتأثر بفوارق الآراء ، ويحلو له ان يتصرف كما يشاء في سبيل المصالحة والتسوية . أمّا في العراك السياسي ، فكان يناقش ولا يتردد من الاستعانة بالسلطات السياسية ، التي كان يعتقد انها صلبة كالحديد ، وقد استعملها قبله أسلافه ، وليس بدون الحق ، لكن طرقاً كهذه لا تتفق أبداً مع الوضع الفكري المتألم في البلاد . ان الواجب يدعو إقامة جسور ، وزعيم التنفيذ الأمريكي ، هو الشخصية الوحيدة ، ليكون منتخباً في المستوى القومي ، وتدعوه الضرورة إلى الإقدام على أول خطوة . وهذا بالحقيقة ما كان نيكسون لا يعرف عمله . لم تكن لديه الثقة الكافية بنفسه ، وكذلك يظهر دوماً متطوراً وقابلاً للانجراح . وفعلاً لقد وافق المعترضين على رأيهم وقبل وما وضعوه من برنامج للسلام . وهذا ما تحقق فعلاً ، اذ ان برنامجهم طبق من قبل الرجل الذي أشبعوه شتماً طيلة عشرين عاماً ، وهذا ما بعث الألم الحقيقي في نفوس الكثير من أعدائه .

ان شهامة النفس لم تكن حتماً إحدى فضائل نفس نيكسون ، فلم يسيطر أبداً على أحقاده ولا تعقيدات طباعه . أمّا الذين كانوا يهاجمونه ، لم يظهروا له أقل تعاطف ، في المهمة الصعبة ، التي خلفها له أسلافه . وكل معسكر لا يبذل رأيه في مواقفه : ولذلك كان نيكسون يعتقد ان هناك مؤامرة من قبل اليسار ، بينما أن أعداءه كانوا على ثقة أنه يتابع الحرب حباً في الحرب . وكانوا كلهم على غير حق . وفي انهاية المطاف ، كان كل منهم يضع الآخر في مأزق ، ويفقد نفسه الثقة والاعتبار .

كنت أقر سياسة نيكسون بالنسبة لفييتنام ، إذ لم أكن غريباً عنها ، وكنت انتقد شيئاً وحيداً ، مليه للتأجيل إلى اليوم التالي خيار صعب . لكنني كنت أعتقد في الوقت ذاته ، ان المشاكل الداخلية الأمريكية كانت تهدف إلى أبعد من عراك على السلطة السياسية ، والتي أثيرت باسم معركة حول طريقة تسوية السلام في فييتنام . وفي عام ١٩٧٠ ، صّرحت خلال اجتماع لجمع المعلومات بما يلي :

( اذا نظرنا إلى ما يجري في العالم ، نلاحظ ان الاضطرابات الموجودة حالياً لم يثرها بصورة مبدئية ، أو حصراً ، الأسباب التي يطلقونها عليها . فهناك اضطرابات طلابية في برلين ، حيث يشارك الطلاب في مجالس الجامعة كما يوجد منها في باريس ، ولكن الطلاب لا يشتركون في المجالس . ويوجد كذلك اضطرابات في اوكسفورد ، حيث علاقات الأستاتذة بالطلاب هي أقل . ويوجد منها في روما ، حيث تسيطر الصفوف العليا . ويوجد لدينا اضطرابات ويعتقد انها بسبب فييتنام ، والعنصرية ، ومدن الصفائح والأكواخ . وأخيراً يوجد منها في هولاندا ، التي ليس لديها لا فييتنام ، ولا مشاكل عنصرية ، ولا مدن صفائح وأكواخ . وبمقوله أخرى ، ان المقصود هو مشاكل المجتمع . فكيف نعطي معنى لحياة جيل جديد ، جيل شبيبة ناشطة في بلاد حيث البيروقراطية والتكنولوجية ، تأخذ قليلاً فقليلاً قوة القانون ) ؟

ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، كان موقفي تجاه المعارضين يختلف عما كان عليه نيكسون . لقد كانوا أعداء ، في تقديره ، ويجب الانتصار عليهم . لم أكن أحتقر الطلاب والزملاء ، الذين تتعارض آراؤهم مع آرائي ، لأن مثاليتهم كانت تعود بنفع للبلاد ، وكنت أفكر ببدء اتصالات معهم . كنت أقدم الألم الذي يخالج نفوس العناصر غير اليسارية من حركة المعارضة . وأتكلم بصراحة انسانية ، أني كنت قريباً من العديد منهم ، مع بقائي على اعتقادي أن آراءهم كانت مغلوطة وان التزامهم المطلق يعرض للخطر أهميتنا العالمية وأمننا القومي . وفي الوقت ذاته ،

كنت أحاول اجراء نقاش بين الحكومة ومعارضيها . وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٩ ، طلب مني نيكسون التعليق على مذكرة وجهها إليه مستشاره بات موينهان ، التي كان يصف فيها حادثاً جرى خلال مباراة كرة قدم بين فريقين أمريكيين : هارفارد وبرنستون . والطلاب القدامى الحاضرون ، كان يمثل جميعهم على قول بات : عشرة مليارات دولار على الأقل ، وكانوا كلهم يناصرون ويصرخون مع فريق هارفارد ، في حين كانت الموسيقى داخلة إلى الملعب الرياضي ، وكان عملهم ينحصر في تكذيب أغنيو الذي كان قد أعلن ان طلاب هارفارد ليسوا سوى زمرة من المثقفين المقلدين والمخنثين . وكان بات يحذر نيكسون ، ان اذا كان لديه ما يمنع من الانصياع للرأي العام لتحديد سياسته ، فعليه على الأقل عدم التصدي للشباب ، الذين لهم أكبر تأثير على أهلهم . وفي تعليقات نيكسون على هامش هذه المذكرة . كان يدلل أنه غير كفوء في جلب فريق هارفارد إلى جانبه ، أضف إلى ذلك أنه على اعتقاد تام ان العون المالي والسياسي ، اللذين يستفيد منهما كانا يأتيان من الجنوب ، والشمال الشرقي ، وكالفورنيا ، وكلها مناطق لا تتأثر بتحركات طلاب هارفارد . غير ان الفقرة التي كان يشير فيها موينهان إلى ( قدرة السخرية الغريبة ) لدى الشباب ، كان الرئيس يؤكد عليها بطريقة واضحة . وفي الخامس عشر من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٩ ، أرسلت إليه خلاصة تفكيري ، واليكم المقاطع الهامة التي أدرجتها في إجابتي :

( من هم ؟

انهم يشكلون فريقاً ملفقا ، سواء بأصلهم الاجتماعي ، وآرائهم السياسية ، وقدرتهم على الاساءة أو المنفعة . بين الشباب المتظاهرين في الموراتوريوم ، كان بعضهم متحررين من مجتمع حسن ، فكانت آراؤهم تختلف اذاً تماماً من آراء أهلهم . وهناك العديد منهم ، لهم أب استفاد في متابعة دراسته العليا حتى نهاية الأعوام ١٩٤٠ ، والذي انتهى بالتصويت لستيفنسون . وفريق كبير من المتظاهرين يخص دون أدنى ريب ، إلى الجيل الأول لبعض المدن التي غالبيتها ديمقراطية لمتابعة الجامعة . وعندما يتكلم توم ويكر باسمه واسم زملائه ، انه يؤكد ان هؤلاء المتظاهرين ( هم أبناؤنا ) ويتناسى انهم أيضاً سلالات من عناصر ديمقراطية تقليدياً .

**ولماذا يتظاهرون ؟**

ان الأسباب التي تدعوهم إلى ذلك مختلفة جداً . وبمعنى أدق ، انهم في غالبيتهم ضحية مجتمعنا الاستهلاكي . أصبح لديهم متسع من الوقت لاستدرار العطف على قدرهم ، وتلقوا التثقيف المطلوب . ليبدلوا عواطفهم بانتقاد الوضع المطلوب في أيامنا هذه . لكن سلوكيتهم تستند طبعاً على أسباب ليست بسيكولوجية . ان الغموض والتردد والإنجيلية قد أمتصت حيوية الشبية في كل جيل . ان الزمرة التي يتحدث عنها بات مونيهن ، تظهر فكراً سياسياً ونشاطاً خاصاً . وهذا ليس بغريب ، فلأول مرة في التاريخ يحدث تحرك يقوم به عدد كبير كهذا من الطلاب .

ولو أخذنا بعين الاعتبار ،الدرجة العليا لتفكيرهم السياسي ، نجد أن عدداً كبيراً منهم هم ضد المنظمات السياسية ، لأن هذا هو الميل الكلاسيكي لنفور الشباب ، ولكنه أيضاً ميل الأدب المعاصر الذي درسوه في جامعاتنا . ان علم الاجتماع ، علم النفس ، والعلوم السياسية .... سلطت نوراً ساطعاً ( وهذا واجبها ) على عيوب مجتمعنا ، ومعظم أحسن أعمالنا الأدبية المعاصرة ، هي في الغالب انتقادات اجتماعية عنيفة ، وكل هذا يجد أرضاً خصبة أكثر من ذي قبل في بلاد ، يدخل جامعاتها ثمانية ملايين طالب .

ان النتائج الفعلية مختلفة : فان أقلية ضعيفة ترمي بنفسها ( كما هي الحال دائماً ) في أحضان اليسار غير الواعي . ولكني أعتقد ان الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب وفي جميع البلدان . يظلون واعين لانتمائهم السياسي . وعدد كبير بينهم هم أذكياء ومفكرون . ويعزمون على إزالة الظلامات ويختطون طريقاً حسنة لأنفسهم ، انهم يريدون المشاركة ، ولا يريدون أن يطول انتظارهم ليحصلوا على نتائج ملموسة . يدققون في كل إجابة ، وهم ميالون إلى الاعتقاد أن كل تفكير في سبيل تقدم تدريجي ( واقعي ) يبدأ من السلام مع فييتنام ، ومحاربة الانعزالية التي تخفي بعض التواطؤ الخطر ضد الغاية التي نصبو للوصول إليها .

**ما هو تأثيرهم في مجرى الحياة السياسية ؟**

...... انهم يمارسون نفوذاً عظيماً ، لأن تصويتهم يترافق دوماً بمستوى سياسي نشيط قادر لى جعل أهلهم يتأثرون به بالاضافة إلى غيرهم من المواطنين . وأحسن برهان على ذلك كان ظاهرة الماكآرثية .

ان فييتنام ليست سوى عارض ، وعند اختفاء هذا السبب ، يحل محله سبب آخر ، لأن ما نتقاتل بشأنه ، انما هو وضع المنظمات اكثر من مشكلة خاصة .

**ماذا تستطيع عمله ؟**

اني موافق موينهن ، ان من الخطأ مجابهة هذه الزمرة . وهذا لا يعني انه يجب عليك اعطاء حرية تامة للمحاربين . ان بلادنا بحاجة ان تحكم بحزم سواء كان ذلك من وجهة بسيكولوجية وسياسية ....

سيكون في الواقع شرعياً جعل هذه القوّة القادرة على الحياد ، باجتناب المجابهة . كما ان هذا لا يعني أبداً ان تبرهن عن لين ، ولكن على الحكومة ان تظهر انها تأخذ في الحسبان ، ان بين هؤلاء الشباب ، من يعرف كيف يتحمل مسؤولياته . ان موقفك يقوم على إفساح المجال ، ليرى الناس ، ان حلولهم ليست مقبولة ، حسب وجهة نظرك ، ومع ذلك فانك لا ترى مجالاً للشك في صدق ونزاهة مبادئهم .

**هل يمكن أن تفيد شيئاً من خلال ذلك ؟**

بعد تأمين حيادهم ، ربما سنحت لك الفرصة ، على المدى الطويل ، ان تجعل هؤلاء الشباب في جانبك . ان النزاعات القديمة بين ديمقراطيين وجمهوريين في الأعوام ١٩٤٠ و ١٩٥٠ ، لا تخص هذا الجيل من شباب الأمريكان .

انك تشترك معهم بالاعتقاد ان الليبرالية في البرنامج الجديد ، يجب أن توضع موضع العمل ، ودور أمريكا في العالم يجب ان يكون أكثر توازناً واكثر تحديداً . انك في الواقع على أهبة تحريك أمور كثيرة في الداخل كما في الخارج ، وهذه الأشياء يريد تحريكها وادارتها الغير أنفسهم .

وببذل جهود ، مقترنة بفطانة وعقل سليم ، يمكنك تطبيق متطلبات حكومتك وتصبح لديك الفرصة متاحة ، لجلب بعض ممن يظهرون حالياً انهم معارضون ) .

وعلى فرض ان نيكسون قد تقبل جميع الخواطر التي عرضتها عليه ، أو سعيت إلى حمله على قبولها بصفتي سياسياً ممتهناً ، مؤكداً عليه بالمحافظة على سمعته ، ففي الواقع ، اني خصصت

وقتاً كبيراً وجهداً لا بأس به ، لمجابهة خصوم الحرب . وهلدمان لم يكن يقرني على ذلك . ويعتقد ان هذه المجابهة ضياع للوقت . وانها بعكس المقصود بها ، تعطي انطباعاً انني اقوم بمساندة معنوية إلى خصوم عنيدين . وقمت بمؤتمرات صحفية رسمية ، في كل مرة كل يلقي الرئيس خطاباً بخصوم فييتنام . وفي عام ١٩٧٠ رافقته في جولته في خلال الولايات المتحدة ، الأمر الذي أتاح لي الفرصة ان اتحدث مع فريق من الصحفيين ، والمؤلفين ، ومذيعي الراديو والتلفزيون . وكنت اكرّر دون انقطاع أنه يجب علينا وضع حدّ للحرب ، ليس نتيجة الضغوط التي تمارسها ضدنا المظاهرات ، ولكن نتيجة خيار سياسي حرّ . وعند لقائي فريقاً من رؤساء مشاريع الأعمال في شهر تشرين الأول لعام ١٩٦٩ ، أكدت : ( ان الاستسلام لن يكون نتيجة مظاهرات . اذا كانت مجابهات الشوارع تؤدي إلى تسوية معقولة لهذه المشكلة ، فان أسلوبنا السياسي سيتأثر بها حتماً . ان بعض القادة هم الرجال أنفسهم الذين تظاهروا في شيكاغوا . وأصبحت رغباتهم منذئذ مشبعة . ان المشكلة الحقيقية تتعلق بالسلطة الرئاسية . لا بسلطة رئيس خاص )

ومن غرائب التفكير ان الحكومة ومعارضيها ، استطاعوا ان يتبادلوا العراقيل معترفين بأن أحدهم لن يصل إلى تحقيق هدفه الغالي الذي يسعى إليه ، أي مفاوضات سريعة في سبيل السلام في فييتنام . وبقيت هانوي طيلة هذا الوقت خارج الحلبة ، مراقبة وبهدوء ، الطريقة التي تنوي بها أمريكا المفاوضة لا مع خصومها بل مع نفسها .

## تلمسٌ . . . بحثاً

## عن ستراتيجية

كنا في طريقنا لمغادرة فييتنام ، ساعين الى حل وسط ، بين الاستسلام والوضع الذي يبدو لا نهاية له من تقيد لجيوشنا ورثناه من أسلافنا . وكانت ترتكز فرص نجاحنا على كفاءتنا في تنسيق مجموعة من الأعمال الدقيقة في المجالات الدبلوماسية ، العسكرية والسياسية ، مواجهين في الوقت ذاته استياء الرأي العام الشديد وعديم الصبر . وكان نكسون يحاول بنفسه استعادة موقف بلاده الداخلي ، بمبادهات مختلفة ، بالاضافة الى موقفنا ، خلال المفاوضات وتخفيف المعارك . وفي التاسع عشر من شهر أيلول ، أعلن كل من نكسون وليرد ( اللذين كانا قد طلبا من الكونغرس التصويت على تطويع جنود بطريق القرعة ) عند اجتماعهما في البيت الأبيض ، أن انسحاب ستين ألف رجل ، سيسمح لهما ، بإلغاء التطويع المتوقع لشهري تشرين الثاني وكانون الأول . وما هو محدّد لشهر تشرين الأول سيوزع على الشهور الثلاثة الباقية من السنة . عندئذ أخذت وزارة الدفاع بتحديد تطويع الشباب البالغين من العمر تسعة عشر عاماً . وفي السادس والعشرين من شهر تشرين الثاني وقع الرئيس القانون الذي يجيز التطويع بطريقة القرعة .

وفي شهر آب ، بوشر بحملة لصالح أسرى الحرب ، ومطالبة فييتنام الشمالية باحترام اتفاقية جنيف ، وقبول مراقبة جمعية الصليب الأحمر . وتلا ذلك تصريحات حازمة من الجانب الأمريكي ، حال اجراء المفاوضات السلمية في باريس ، وحال المؤتمر الدولي الصليب الأحمر المنعقد في شهر أيلول من عام ١٩٦٩ . وفي الثالث عشر من شهر آب ، وقع واحد واربعون عضواً من مجلس الشيوخ على تصريح يندد بوحشية فييتنام الشمالية ، تجاه أسرى الحرب الأمريكان . وفي شهر أيلول ، وقع مائتا عضو من مجلس النواب على تصريح مماثل . أما حكومة نكسون وقد خشيت من ردّ الفعل أظهرت قليلاً من التعجل للبدء في مواجهة هذه المشكلة . وبالمقابل فقد نجحت حكومة نكسون في الحصول على تحسين ظروف اعتقال أسرى الحرب الأمريكان . وهذا استوجب له مساندة الرأي العام . أما بعد ذلك فقد عانى منه الكثير . عندما شكل الأسرى فكرة تدعو لانسحاب احادي الجانب وإسقاط لحكومة فييتنام الجنوبية .

حاول نكسون حسب عادته ان يقوم بدور في جميع الجبهات ، فأقدم كما كان يفعل في مثل هذه الأحوال على عمل مدروس ينضج . غير أنه لم يكن ينطبق في الواقع على أية خطة واضحة ومعينة ، ومجمل القول انه كان مخادعاً . أشرت خلال محادثات عدة مع القادة الأجانب نحو نهاية العام ١٩٦٩ ، الى أن نكسون قد بين ان ذكرى إيقاف القصف في الأول من شهر تشرين الثاني ، سيكون نوعاً ما موعداً نهائياً . وأثناء قيامه برحلة حول العالم ، لم يخف ان صبره أوشك أن ينفد ، واذا لم تصل المفاوضات الجارية في باريس الى تقدم ما ، في الأول من شهر تشرين الثاني ، فانه سيلجأ الى استخدام القوة . وحسب رأيي لم يكن لدى نكسون أية فكرة عما يقصد فعله ( شيء واحد أكيد : أن مرافقيه لم يعدّوا أي مشروع ، واستخدم ( شرط البط ) لتنفيذ تهديد كان قد وجهه ) . ولأول مرة سمعت التحدث عن هذا الموعد النهائي في شهر آب من عام ١٩٦٩ ، عندما عهد نكسون بذلك الى يحيى خان . وبما أن نكسون لم يسمح أبداً لأعضاء وزارة الشؤون الخارجية ، ( ونادراً للوزير نفسه ) بالمشاركة في الاجتماعات التي كان يعقدها مع القادة الأجانب ، لذا لم يكن أحد من أعضاء الحكومة يعلم بهذا التهديد ، سواي . بالرغم من التنهويات المستمرة حول هذا الموعد النهائي ، كان نكسون يقوم في الوقت ذاته ، على مبادرات تخفف من وطأة تلك التهديدات ، كإعلانه مثلاً عن انسحابات أخرى للقوات . وفي نهاية شهر أيلول ، أسرّ لي انه مصمم على الإقدام على عمل عظيم قبل الخامس عشر من شهر تشرين الأول ، حتى لا ينسب ذلك الى مظاهرات الموراتوريوم ، ناهضته في تصميمه ذلك ، لأنه اذا لم يحترم الموعد المحدّد ، فانه سيثير الريبة لدى أعدائنا . وفي الواقع لم يقم بتنفيذ تهديده مرة . وربما كان يحاول إقناع نفسه ( ومن ثم نقل هذه الصورة للتاريخ ) انه كان حاكماً عنيداً ، يمنعه مساعدون ضعفاء عن تتميم رغباته .

وفي السابع والعشرين من شهر أيلول ، جاء دوبرينين لمقابلتي ، لأخذ موعدٍ لاندريه غروميكو ، ليلتقي الرئيس ، عند حضوره للولايات المتحدة بمناسبة انعقاد الجمعة العامة للأمم المتحدة . خلال محادثتي ودوبرينين ، كلمني نكسون هاتفياً ، حسبما كنا متفقين عليه ، وطلب إلي أن أنقل لدوبرينين ان الفييتنام ، كانت تشكل قضية محرجة في العلاقات الكائنة بين البلدين ، وقد غادر القطار وبأقصى سرعة ( وكانت هذه عبارة يكررها نكسون ، لا سيما انه كان قد استعملها في عام ١٩٦٨ ، بعد الانتخابات الأولية في أورغون ، ليشجع بها من كان متردداً من النواب في المؤتمر ) . فنقلت إلى دوبرينين ما كلمني به نكسون وأردفت أن على هانوي التصرف بالأمر حسناً .

وفي السادس من شهر تشرين الأول . التقى نكسون روجرز ، ومنعه من الإتيان بأية مبادرة جديدة دبلوماسية تتعلق بفييتنام ، طالما ان هانوي لا توضح عن أفكارها ، وحدّد ولأول مرة الأول من شهر تشرين الثاني تاريخاً نهائياً . واعتبر روجرز التهديد بصورة رسمية ، كما بين لي ذلك في الثامن من شهر تشرين الأول ، أنه كان على اعتقاد مكين ، ان الرئيس سوف يُقدم على أمر هام في الأول من شهر تشرين الثاني ، بالرغم من أنه يطلع أكثر مني إلى أي مدى يصل تهديد الرئيس . وفي الثامن من شهر تشرين الأول كنت اقترح على نكسون ان يعمّم تقريراً ما حول ما يحيط بإعلان الأول من شهر تشرين الثاني ، وسيكون هذا بمثابة تحذير لهانوي وموسكو ، ويمكن ان يكون لصالحنا في حال ان فييتنام الشمالية ستُقدم على تساهلات غير متوقعة . وفي الثالث عشر من شهر تشرين الأول ، كان البيت الأبيض يعلن أن الرئيس سيلقي خطاباً هاماً في الثالث من شهر تشرين الثاني ، ليلقي ضوءاً على سياستنا في فييتنام . ولقد اخترنا هذا التاريخ بشأن انتخابات الحكومة في مقاطعة النيوجرسي . وكان يجي ان تجري في ليلة إلقاء الخطاب . ولم يكن نكسون راغباً في شن حملة تسوية ضد المرشح الجمهوري ( الذي أصبح في الواقع أول حاكم جمهوري في ولاية نيوجرسي منذ مدة ستة عشر عاماً ) . وبإعلاننا المسبق عن خطاب الرئيس أوقعنا أنفسنا في خطر كبير ، فإنه يوقع الريبة والشك لدى البعض ، ويشجع في الوقت نفسه ضغوطاً على الرئيس نكسون لحملة على التراجع عن بعض قرارات ربما كان يريد اعلانها . وفي غضون ذلك ، حاول نكسون الحصول على مساندة السوفييت . وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول ، التقى الرئيس نكسون دوبرينين ، فيما كان هذا الأخير عائداً من احدى زياراته الاستشارية لموسكو ، وذكره نكسون ، أن إيقاف القصف مضى عليه عام واذا لم تتوفر نتيجة سريعة ، فان الولايات المتحدة ستلجأ مجدداً الى طرقها الخاصة لوضع حدّ للحرب . وبالمقابل ، اذا ساعد الاتحاد السوفييتي الولايات المتحدة في إحلال صلح شريف ، فسنُقدم على أمر خطير ، يتوقف عليه تحسين العلاقات بين بلدينا . وكان دوبرينين يجهل آنذاك ما كان لدى فييتنام الشمالية من اقتراحات ، لكني فهمت من خلال حديثه ، ان الروس من جهتهم كانوا على استعداد للقيام ببعض التساهلات وبعد انقضاء شهور على القتال ، أعلمنا السوفييت في شهر حزيران ، أننا على استعداد لاجراء محادثات سريعة حول تحديد التسلح الستراتيجي . والسوفييت ، حسب عادتهم ، كانوا يظهرون ، ومنذ عدة شهور ، ان صبرهم قد نفد حول البدء بمفاوضات ، وبالرغم من ذلك فقد أجابوا بصورة غامضة . وفي العشرين من شهر تشرين الأول ، أبلغنا دوبرينين ، ان الاتحاد السوفييتي يرى ان تبدأ المفاوضات نحو نصف شهر تشرين الثاني .

ومن قبيل النباهة ، ان يعرف نفاد صبرالعديد من أعضاء الحكومة ، حول البدء بمفاوضات ( سالت SaLT ) فان الكرملين كان يرى في الوقت نفسه ان الرئس نكسون لن يتمكن من رفض هذا . وفي جوّ من الأمل ، كان قد سيطر على النفوس ، فان كل تصعيد في وضع فييتنام كان يعرض للخطر ما جرى من تساهل في الضغوط والتوتر ، وجاء ظرف طارئ ، فرمى بنفسه بين الضغوط الداخلية ، التي كانت قد تلت اعلان الموراتوريوم قبل بضعة أيام . وفي الواقع فان السوفييت قد عادوا لاستعمال لفظة ( الترابط ) ليطبقوها في واقعنا . وظهرت تقديراتهم صحيحة . وبالرغم من كل جهود البيت الأبيض ، لتأجيل جوابنا بشأن مفاوضات ( سالت ) الى يوم القاء الخطاب الرئاسي في الثالث من شهر تشرين الثاني ، ألحّ روجرز ان نعلن عن موافقتنا على اجراء المفاوضات في الخامس والعشرين من شهر تشرين الأول ، قبل ذلك نكسون وعلى مضض . وكان يخشى حدوث هزائم خلال الأسبوع الأخير من شهر تشرين الأول .

وسعى نكسون كعادته ، ان يجعل توازناً بين تردّده في مجابهة صديق قديم ، بالإقدام على مضاعفة تهديده للسوفييت . وطلب إلي اعلام دوبرينين حالاً ، ان الرئيس كان في وضع لا رجعة فيه حول قضية فييتنام . عندما يكون الانسان في خدمة من هم من أمثال نكسون ، عليه ان يُجري خياراً بين الأوامر التي يعطيها وان يترك له فرصة العودة الى تلك الأوامر صعبة وخطرة في تنفيذها . وان الأوامر التي أصدرها إلي كانت من النوع الثاني . وكنت أعلم أن نكسون لن يُقدم على شيء في الأول من شهر تشرين الثاني . واذا تلفظنا بتهديد خطير دون وضعه موضع التنفيذ ، فاننا نوشك الوقوع في حمل الناس على عدم تصديقنا . ولذلك توقعت من نكسون ان يكرر تهديده ، فلم يفعل .

وفي غضون ذلك ، اعتكف نكسون في كامب ديفيد ، لتهيئة خطابه المزمع القاؤه في الثالث من شهر تشرين الثاني . وكنت أنا ومساعدي قد هيأنا الأمور الهامة فيه ، لكن نكسون كتب البداية والختام على دفتره الفخم الأصفر ، وأضفى عليه بعض نفحات من بلاغته . وكان في الواقع أحد مواقف تدخلات نكسون العامة . ودون الأخذ في الحسبان توصيات كل أعضاء مجلسه ، فقد قصد عدم الإقدام على أية تساهلات مع المعارضة ، والفييتناميين الشماليين ، فوافقته على رأيه . بين للأمريكان نواياه بكل وضوح ، محاولاً ابقاء المجال حراً أمامه ، لتحقيق ما كان يسمّيه : ( سلاماً مشرفاً ) . أحدث الخطاب موجة مفاجآت ، اذ أنه كان يسخر به من كل المعارضين ، والفييتناميين الشماليين ، وكل الآمال التي كانت معلقة عليه ، وذلك بعد إعلانه عن أي تغيير حقيقي في موقفنا تجاه المفاوضات ولا عن أي انسحاب في قواتنا ، وكان يطالب (

الأغلبية الصامتة ) من الأمريكيين ، بمساندة القائد العام . ولأول مرة في تصريح رئاسي ، أعلن نكسون وبصراحة : عما كان يقصد بوضع مخطط لإيقاف الحرب ، أعني الستراتيجية ذات الشقين : فييتنمة الحرب أو المفاوضات . وكان يؤكد ان الفييتنمة كان تفسح المجال أمام تخل شريف عن التزاماتنا الذي لا يعطي أية مكاسب للفريق الثاني . وكنت خلال هذه الأثناء قد أشرت على الرئيس ، عدم تعديل الالتزام المبدئي لقواتنا في الفييتنام ، الذي ورثناه من الحكومة السابقة ، ولكن عرض ستراتيجيته فقط لتخليصها من هذا النزاع . رفض ما أشرت به عليه قائلاً وبكل تعقل : انّ ما أعتقده الآن ، ان الشعب الأمريكي يرفض أيّة تضحية في سبيل حرب ، ليس لها هدف شرعي . ان هذا الخطاب بالرغم من حدة لهجته ، كان يوضح بعض تغييرات حقيقية في موقفنا .

وهناك ، حيث كان خطاب الرابع عشر من شهر أيار ، قد اقترح سحب الغالبية العظمى من قواتنا ، خلال فترة عام ، ولا زلنا حتى الآن نحتفظ بقوى لفرض هيبة الاتفاق فقد جاء خطاب الثالث من شهر تشرين الثاني ، موافقاً لقاء ذلك ، على انسحاب شامل للقوات الأمريكية خلال فترة عام ، شريطة ان تجري مبادلة من جانب فييتنام الشمالية ، وكان يؤكد هكذا موقفنا الرسمي الذي حددناه ، أثناء المحادثات الافرادية مع كسيان توي . ان خطاب الرابع عشر من شهر أيار كان يتحدث عن : وقف إطلاق نار مراقب ، آخذاً بالحسبان امكانية اتفاقات محلية ، أو اتفاق عام ، أما خطاب الثالث من شهر تشرين الثاني كان يبين : وقف إطلاق نار فقط . وشرحت في مؤتمر صحفي رسمي عقدته : اننا سنكون ليتني الجانب ، ونقبل باجراء مفاوضات حول اتفاق محدود أو عام ، لوقف الاعتداءات . وهذا يعني ، كما كان صرّح نكسون بذلك ، ليس قضية تفصيل ، انما هو قضية الوصول الى مبدأ للمفاوضات : ( ورفضت حكومة هانوي حتى مناقشة اقتراحاتنا ) . وزادت على ذلك أن طالبت بقبول اقتراحاتها غير المشروطة ، التي يمكن اختصارها في نقطتين : الانسحاب السريع وغير المشروط للقوات الأمريكية ، وإسقاط حكومة سايغون في حال مغادرتنا .

عدّد نكسون الاجراءات المتخذة بشأن انسحاب القوات الأمريكية ، وتقليص الغارات الجوية ، والتسريع في التدريب العسكري في فييتنام الجنوبية وأكد ان فييتنمة الحرب كانت تفرض : الانسحاب الكامل لكل القوات المقاتلة الأمريكية ، وإبدالها بقوات فييتنامية بموجب تنظيم زمني دقيق جداً . وكشف نكسون ، كما كنت قد اقترحت ، عن الاتصالات السرّية مع فييتنام الشمالية ، التي سبقت توليته ، والمباحثات المتكررة مع الاتحاد السوفييتي ، لتحريك المفاوضات ،

والمراسلات المتبادلة مع هو شي مين في شهري تموز وآب . وكل هذه المواضيع أعلنها البيت الأبيض للجمهور . ولم يأتِ على ذكر لقائي السرّي بكسيان توي ، لكنه شرح وبصدق : عدم تحقيق أي تقدم خارجاً عن الاتفاق على شكل طاولة المفاوضات ، وحدّد المشكلة الأساسية :

« في سان فرانسيسكو ، ومنذ بضعة أسابيع ، شاهدت متظاهرين يحملون لافتات كتب عليها : ( هزيمة في فييتنام ، وتسريح جنودنا ) .

وبالحقيقة ، فان إحدى قدرات مجتمعنا الحر هي في أن كل أمريكي له الحق أن ينتهي الى هذه النتيجة ، ويدافع عن وجهة نظره هذه . ولكني بصفتي رئيساً للولايات المتحدة ، لن أكون أميناً نحو اليمين الذي أقسمته ، عند قبولي ان توجه سياسة أمتنا من قبل أقلية تساند وجهة النظر هذه ، وتحاول فرضها بالقيام بمظاهرات في الشارع .

منذ مائتي عام تقريباً ، كان يدير سياسة بلادنا ، بموجب الدستور ، قادة انتخبهم الكونغرس وفي البيت الأبيض من قبل الشعب بكليته ، واذا كانت هناك أقلية ضاجة ، لأسباب تعتقد أنها بجانبها ، وتوصلها إلى التغلب على حكمة وارادة الغالبية ، عندئذ لن يكون لهذه الأمة أيّ مستقبل كمجتمع حرّ ....

كان ردّ الفعل بالنسبة لهذا الخطاب مخيفاً ، وما كاد الرئيس يلفظ آخر كلمة منه ، حتى ان مبنى البيت الأبيض أخذ يهتز من شدة الأصوات الحماسية . ووصلت عشرات الآلاف من برقيات التأييد ، فغطت حالاً على انتقادات المعلقين في الصحافة والتلفزيون . ودون ريب ، ان موجة الحماس هذه حثّ عليها أتباع هالدمان الذين لا يكلون ، فطلبوا الى كل المعلقين السياسيين في طول البلاد وعرضها ، ارسل برقيات . لكن تدفق هذه البرقيات فاق كثيراً ما يستطيع تحقيقهُ اختصاصيون البيت الأبيض في العلاقات العامة . وبكل تأكيد ، فان نكسون تأثر جداً ، وسجلت الاستفتاءات قفزة كبرى في شعبيته . واستسلم الشعب الأمريكي للحرب ، لكن نفسيته كانت على غير استعداد لقبول الهزيمة .

شعر نكسون من جراء ذلك بغبطة كبرى ، بالرغم من أنه أظهر عدم مبالاة تجاه الرأي العام ، الذي لم يذقه فترة استقرار . واحتفظ ببرقيات التهنئة مكدسة فوق مكتبة ، بنوع يستحيل العمل معها في مكتبه البيضوي ، رافضاً الانفصال عنها عدة أيام .

منذ أن هدأ وضع الجماهيري ، أخذت الضغوط تخف ، حتى ان الحكومة ولأول مرة منذ شهر كانون الثاني ، أصبح لديها بعض المجال يمكنها من القيام ببعض اجراءاتها .

ومع ذلك فقد لزمنا وقت أكثّر ، لإفشال ما يقوم به قادة قساة وعنيدون في هانوي . وفي عام ١٩٦٩ ، حاولوا إقناعنا بأنه لا يجوز المطالبة بإجراء مفاوضات ، ما لم تكن هناك رغبة صادقة لدى الطرفين : وكانوا يرفضون بحث أو مناقشة أي اقتراح تسوية ، أو انتخابات حرّة ، أو لجان انتخابات مختلطة ، أو وقف إطلاق نار . ان الانسحاب الأحادي لجنودنا وطائراتنا لن يحسّن الجو ، وان تخفيف القتال لن يسارع بفكرة اجراء مفاوضات . ان هانوي كانت عازمة على تحطيم تصميمنا الداخلي ، ولكي تقوم بدورها المطلوب في الوقت المحدّد ، كان عليها إخفاء أية شراره أمل وأي مظهر للتقدم . ولما كان الفييتناميون الشماليون ، من بقايا اللينينيين ذوي العقيدة ، فليست لديهم رغبة بتقاسم النفوذ .

وبالعودة إلى الماضي ، فان التحليل الذي كان يضّم اقتراحي بالعهدة إلى فانس بمهمة في شهر نيسان ، وانتقادي بفييتنمة الحرب في شهر أيلول وتشرين الأول ، كل هذه مجتمعة كانت دون ريب صحيحة . ان الزمن لم يكن في صالحنا ، والتساهلات الجزئية الصغيرة كانت قسطاً من العناد ، لا تشجعناً إلى إجراء تسوية . وبمقولة منطقية أكثر ، يُفضل ابداء اقتراح مقبول قدر الإمكان ، وفي حال رفضه ، البحث عن تطبيقه عسكرياً . وهذه الطريقة الفضلى لضمان مساعدة السوفييت ، الذين عند زوال الأزمات لا يقدمون على عمل شيء ذي بال ( وفي الواقع ، عند نشوب الأزمة نهائياً في عام ١٩٧٢ ، حصلنا من السوفييت على مسودة تعاون ) .

لو كنا قدمنا دفعة واحدة ، ما وهبناه تقتيراً خلال ثلاث سنوات حرب ، ولو قمنا بعمليات حربية منذ عام ١٩٧٠ ، كالعمليات التي قمنا بها في الأعوام ١٩٧٠ . ١٩٧١ . و١٩٧٢ في كمبوديا ، ولاوس ، و فييتنام الشمالية ( ودون هجوم قاذفات القنابل الأخير ) كانت مدة الحرب تقلصت حتماً . انه من العسير طبعاً ، وبعد فوات الأوان ، أن نعرف اذا كانت سايغون على استعداد لمواجهة هذا الوضع وحدها ، بعد تسوية محتملة . وأمام قلقنا الداخلي ، والانقسامات ضمن الحكومة ، لم أناضل أبداً في سبيل فرض تحليلي النظري ، وضممت نفسي إلى الرأي العام ، الذي يعتبر ان كل الأمور مأخوذة بالحسبان وان فييتنمة الحرب أحسن تحقق لضرورة حياتنا الدولية ، العسكرية منها والقومية .

وعند سلوكنا هذا السبيل ، فلا عودة عنه . وكنت عالماً ان الطريق ستكون طويلة وشاقة ، وكنت أكدت بمناسبات عدّة أخطار سلوكها في محادثاتي مع الرئيس ، وانها ربما توصلنا إلى فشل وخطر ، كما كنت أعتقد أيضاً ، ان الحل المطروح كان أفضل بكثير من تلك الحلول التي تقترحها المعارضة .

وهكذا انتهى العام ونحن لا نزال أمام تقديرين : ان الخروج من مأزق الحرب كان يتوقف على دقّة أحدهما . ففي الثامن عشر من شهر شباط من عام ١٩٧٠ ، قدّم الرئيس للكونغرس أول تقرير عن سياستنا الخارجية ، أوجز فيه سياستنا في الفييتنام وبين انها علاقات معتدلة تماماً . ومن النادر ان تصريحاً رئاسياً يتطرق بهذه الصراحة إلى أسباب الريبة التي تساور النفوس ، ويطرح أسئلة وقضايا بهذه الصراحة .

« لقد صدرت ايضاحات عدّة منذ دخولنا الحرب في فييتنام ، تبين اننا حصلنا على تقدم ، وكنا على جانب عظيم من التفاؤل . فبالرغم من اهتمامنا الشديد في وضع مخططاتنا ، وبالاضافة إلى أملنا في تحقيقها ، فاننا لا نزال أمام عاملين أساسيين :

. لا نتمكن من محاولة خداع العود ، الذي يعرف حقيقة ما يجري .

. كما اننا لا نستطيع خداع أنفسنا ، يجب ان يقف الشعب الأمريكي على الحقيقة ، كما أننا لا نسمح لأنفسنا أن نفقد ثقته في تصريف أمورنا وفي زعامتنا » .

وكان التقرير يبين وجود مشاكل لا تزال دون حل ، وكان يطرح أُسساً تودي إلى تقدم في المستقبل . واننا نقول ان الحكومة لا تعلم بعد الأجوبة النهائية على جميع الأسئلة التي سببها الحرب ، ونوايا العدو ، ومنظور فييتنمية الحرب ، وموقف الشعب الفييتنامي :

ـ ما هي كفاءة العدو في تنظيم عمليات عدوانية طويلة الأمد ؟ وهل تصبح هذه العمليات خطرةً علينا ؟ .

. إلى أي مدى جرى تحسين في قدرات حليفنا ؟ ولا سيما هل استقر رأي الفييتناميين على زعيم ، وهل أصبحت لديهم قدرات عسكرية ، والمهاراة التعبوية ، ومعرفة عوز شعبهم الذي لا بد منه للوصول الى نجاح دائم ؟ وأية مبادرة ستراتيجية نقدمها للعدو في حصولنا على تقدم من قبل حلفائنا ؟ واذا اختار عدونا خوض غمار حرب طويلة الأمد ومتحفظة ، فهل يتمكن من الانتظار وبكل بساطة انسحاب الولايات المتحدة ، وعندئذ بعد أن يستعيد قواه ، يقوم بمبادهة ، ويغلب فييتنام الجنوبية ؟

وما هو أهم أيضاً : ما هي الرغبات الحقيقية لشعب فييتنام ، الذي نسعى من خلال قتالنا ان نحتفظ له بالخيار الحر ؟ فهل هو بالحقيقة على عداء مع فييتكونغ ، أو أنه لا يفرق بين هذا المعسكر أو ذلك ؟ وماذا تفرض عليه مواقفه الداخلية في حال الوصول إلى نجاح حقيقي في المصالحة ؟

لم يكن المقصود من ذلك الحثّ على منازعات قوميّة أو الدعوة إلى انتصار عسكري ، انما كان تحليلاً جلياً ، نتيجة تفكير قادة أصيبوا بخيب الأمل طوال عشر سنوات ، همهم تأسيس سياستهم على الحقيقة ، وهم في الوقت ذاته على استعداد لقبول تسوية معقولة .

ولما كان قادة هانوي مصممين على الوصول إلى النصر ، لذا كانوا يرون الأشياء في عام ١٩٦٩ ، غير ما هي عليه : لم يكن لديهم أدنى شك في إيجاد مخرج للنزاع ، ولم تكن لديهم فكرة لتسوية . وكانت هانوي تطمح إلى توحيد السلطة السياسية في يدها . وكانت هذه الرغبة تبدو صريحة في وثائق هامة ثابتة ، صادرة عن السلطات السياسية والعسكرية الشيوعية ، وضعنا عليها أيدينا في نهاية عام ١٩٦٩ : القرار رقم ٩ ، صادر عن المكتب المركزي في فييتنام الجنوبية ، الادارة العامّة للحزب الشيوعي ، الفييتنامي الشمالي في فييتنام الجنوبية . وكان هذا القرار بصورة توجيه يحدّد الخطّة الواجب اتباعها من قبل الكوادر الموجودة على الأراضي الفييتنامية وتفسر ما تقدمه أمريكا من تساهلات سلمية ، لا كمبادرات تسوية بل كبرهان حقيقي على فشلها :

ان تعبويتها لحرب حددّتها تحوّلت إلى أقصر . لقد وجدوا أنفسهم مرتبكين في مشاكل خطيرة ستراتيجية ، وكانوا مرغمين قليلاً فقليلاً على تقليص التزامهم في النزاع . وهكذا لقد أجبروا على تبديل اسم الحرب من حرب أمريكية إلى حرب فييتنامية ، مبتدئين بسحب خمسة وعشرين ألف جندي أمريكي ، وانهم يأملون تخليص أنفسهم من حرب العدوانية في بلادنا ...

وبعد إحراز الغلبة في حملة ربيع عام ١٩٦٩ ، أعلن جيشنا وشعبنا عن هجوم واسع النطاق ، في المجالات العسكرية ، والسياسية والدبلوماسية : لقد قمنا بهجومنا الصيفي ، في حين اننا كنا نقدّم حلاً سلمياً من عشر نقاط في مؤتمر باريس ، وكنا نُحضر فيه نّواب الكونغرس القومي الشعبي الذين انتخبوا الحكومة الثورية المؤقتة . وهكذا اذاً ، بعد أن الحقنا بهم الهزيمة بهجماتنا المتكررة في حملة ربيع ١٩٦٩ ، كانت حكومة نيكسون تتلقى ضربات أشد عنفاً . وبسبب

هذه الهزائم الجديدة ، سواء في مجال القتال أو حول طاولة المفاوضات ، رأى نيكسون نفسه أمام أسئلة محرجة من قبل الشعب الأمريكي ، والرأي العام العالمي ، الذي يتطلب من الولايات المتحدة وضع حد لحربها العدوانية في فييتنام ....

وفي الواقع ، ان نيكسون أجبر على تقديم برنامجه ذي النقاط الثمانية . في سبيل تنظيم لقاء مع تيو في ميداوي ، والمباشرة بسحب خمسة وعشرين ألف جندي ، وكل هذا كان يعكس بصلابة واحتيال الأمبريالية الأمريكية ، ومن جهة أخرى ، فان ذلك يظهر الأزمة والمأزق يتعاظمان لدى حكومة نيكسون . يجب علينا اغتنام هذا الوضع الجديد ، ومضاعفة جهودنا في جميع المجالات لإحراز نصر كبير .

و حسب رأي المكتب المركزي لفييتنام الجنوبية ، فان استراتيجية عام ١٩٦٩ ، كانت تقدر تدمير القوات الأمريكية ، في سبيل مضاعفة الضغوط على الولايات المتحدة ، وإضعاف جيش فييتنام الجنوبية ، وجهود الحلول السلمية ، ومن ثم إجبار الولايات المتحدة على القبول ( بحكومة ائتلافية تسعى لتوحيد فييتنام ) :

آ . مهاجمة القوات الأمريكية بضراوة ، وتكبيدها خسائر فادحة ، وجعلها في ضيق متزايد في كافة المجالات ....

ب . الضرب بقسوة على الجيش ( الدمية ) وإقصاء العناصر القوية في الجيش والحكومة ( الدمية ) وشل وتجميد حركة العناصر المتبقية .

ج . بذل جهود في تنمية قوانا العسكرية والسياسية ، وتعزيز وضعها الستراتيجي الهجومي .

د . ملاحقة تدمير وإضعاف حكومة ( الدمية ) على مختلف المستويات . ولا سيما إحالة مخططات العدو السلمية إلى العدم ، والتخلص من قسم كبير من حكومة ( الدمية ) ...... وتصعيد دور الحكومة الثورية المؤقتة .....

هـ . من ثمّ ، احالة ارادة العدو الأمريكي العدوانية إلى العدم ، وإجباره على القبول بألا يكون في موضع القوة عند نهاية الحرب ، وإلزامه كذلك على انهاء الحرب بسرعة ، وسحب قواته ، ما دام جيش وحكومة ( الدمية ) في حالة ضعف شديد ، فلا يتمكنان من القيام بدور الأمريكان ، والضغط على هؤلاء الاخيرين أي الأمريكان لقبول تسوية سياسية والاعتراف بحكومة فييتنام الجنوبية : مستقلة ، ديمقراطية ، مسالمة ومحايدة : تقوم على حكمها حكومة ائتلافية قومية وديمقراطية ، تسعى إلى توحيد فييتنام .

ان الفييتناميين الشماليين ، كانا على معرفة وثيقة من واقعهم ، وكان واجبنا ان نبين لهم انهم كانوا على غرور . وبشق النفس وخوف كنت اتابع اهتمامي في تطبيق سياستنا التي كانت في آن واحد غامضة ومعقدة . ولم يكن هناك أي حل آخر مقبولاً . وكان من الواجب معالجته بطريقة يصبح معها مقبولاً ومعقولاً ، اذ لم نكن وحدنا أصحاب العلاقة فيه : لأن مستقبل الشعوب الأخرى ، كان يتوقف أيضاً على الثقة التي تمنحها للولايات المتحدة . فكان علينا أن نقاتل ، وبعناد ، إلى ان هانوي تأخذ بإعادة النظر في إمكانياتها . واذا تفوقنا ، فان هانوي بلا شك تسعى إلى هدنة ، ان لم نقل صلحاً . علينا إزالة جميع العقبات في هذا السبيل ، لأن مسؤولية الكارثة ستُعزى إلينا ، حتى ولو أوقعتنا فيها وجرتنا إليها ضغوطنا الداخلية . ان واجبنا مضن في متابعة قتال خصم عنيد ، حتى نتمكن من الوصول إلى تسوية مشرفة ، تتوازى مع مكانتنا الخاصة ، ومسؤولياتنا الدولية ، وتوقعات الغالبية العظمى من الأمريكان .

ـ ٩ ـ

# الاختبـــارات الأولـــى

# في آســـيا

كانت فييتنام تهدد بالاتجاه إلينا حاملة فكرة متسلطة ، بالإضافة إلى ان هذه المنطقة الصغيرة كانت تشغل حيزاً من قارة مترامية الأطراف ، وتقوم فيها بدور عظيم على الساحة العالمية .

ان مصالح جميع السلطات العظمى ، فيما يتعلق بالأمن العالمي ، هي متداخلة جداً في آسيا ، وطبعاً في الشمال الغربي الأسيوي . ان الصين تشغل مركز القلب في القارة . ويمتد الشرق الأقصى السوفييتي على طول شمال آسيا . أمّا الجزر اليابانية ، فهي موزعة في المحيط ، في قطر ألفي ميل بحري حول الجزيرة الرئيسية . أمّا بالنسبة للتواجد الأمريكي في المحيط الهادي ، فانه يشكل إطاراً حول كل هذه المنطقة من العالم ، وأخيراً فان أوروبا الغربية ، التي ترتبط اقتصادياً وبنوع ملحوظ مع آسيا ، تشعر بردّ فعل مقلق جداً سمن توازن المنطقة .

تملك آسيا يوحدها ، أكثر من نصف السكان والموارد على الأرض . خلال الثلاثين سنة الأخيرة ، جرى نمو اقتصاد في آسيا والمحيط الهادي بصورة أسرع مما كان عليه في بقية العالم . كما جرت فيها جميع الحروب التي خضنا غمارها منذ عام ١٩٤٥ . وفيها أيضاً ازدهرت تجارة أمريكا عبر البحار واشتهرت . ان نفوذ أمريكا والغرب يعود مبدئياً للتغير الذي جرى في قسم كبير من آسيا طوال المائة عام الأخيرة . فمنذ عهد متفوقي انكلترا الجدية حتى أيامنا ، فان الأفكار والثقافة الأسيوية ، أثرت وبصورة لا بأس بها على الحياة الثقافية الأمريكية كاشفة هكذا عمومية الطموحات البشرية .

وفي بداية عام ١٩٦٩ ، وفي آسيا ذاتها ، وجب علينا مواجهة أول أزمة كبرى . ان الموقف الذي كنا قد اتخذناه ، استحق لنا تقديراً لم نكن لنستحقه ، في حال أننا في هذا الجزء من العالم ، وفي ظروف أخرى حاسمة ، فإن استباقنا الأمور وحسنا السياسي ، مرا دون تقدير . وفي الأشهر

الأولى من ولاية الحكومة الجديدة ، ظهرت لنا جميع هذه المعاكسات ، من جهة بسبب مشكلة 121 - .E.C التي أسقطت ، دون ردّ فعل ، في حين أنها لم تكن مسلحة ، ومن جهة أخرى ، بسبب إعادة جزيرة اوكينا إلى السيطرة اليابانية ، الحادثة التي سمحت لنا بتوطيد علاقاتنا مع اليابان . ان هذه العلاقات ثبتت أمام تجارب عدة وأصبحت إحدى المرتكزات للسياسة الخارجية الأمريكية . وسيلقى سؤال فيما بعد في هذا الفصل عن تحالف طويل . الذي طرأ عليه الكثير من الهبوط والعلو ، وطبعاً في المجال الاقتصادي . مع شريكنا الياباني العظيم . ولكن علينا البدء بمشكلة 121 – .E.C التي أصبحت بالنسبة لنا ذات فائدة عظمى لمواجهة أزمات أقسى يحتفظ لنا بها المستقبل .

## مشـــــكلة إســقاط

## - E.C – 121 -

في الرابع عشر من شهر نيسان عام ١٩٦٩ ، في الساعة الخامسة بعد الظهر ، في توقيت شرق الولايات المتحدة ، طائرة من طراز E.C – 121 من سلاح الحرب الأمريكية ، تابعة للأسطول الأول للاستطلاع الجوي ( واحدة ن مجموعة غير مسلحة بأربعة محركات ) كانت تطير من القاعدة الجوية : ( أتسيجي Atsuji ) في اليابان ، في مهمة عادية استطلاعية في أعالي بحر اليابان . وهذه الطلعات كانت ضرورية بالنسبة لنا ، لأنها تعطينا معلومات عن تحركات واستعدادات القوات المعادية . وكانت هذه الطائرات تقوم بدور رئيسي ، وتحذرنا من كل هجوم مفاجئ ، وطبعاً في كوريا . كانت الطائرة تحمل فريقاً يعد ثلاثين جندياً من سلاح البحرية مع رامٍ واحد ، وكذلك ستة أطنان من المواد والأعتدة العسكرية . غادرت الطائرة مطار ( أستيجي Atsuji ) ، وكان لديها أمر ببلوغ نقطة كائنة في خط العرض لشبه جزيرة موزو ( Musu ) على الساحل الشمالي من كوريا ، وأن تقوم بعدّة دورات ، راسمة قطعاً اهليجياً يقرب من مائتي كيلو متر بشكل مواز للساحل الكوري الشمالي ، قبل الهبوط نهائياً على القاعدة الجوية الكورية في ( أوزان Osan ) . ان التعليمات ، التي كانت دوماً ذاتها في مثل هذه المهمات ، كانت تحذر من اقتراب الطائرة إلى أقل من أربعين ألف نوني من ساحل كوريا الشمالي ، بنوع ان الطائرة تبقى دائماً بلا نزاع ممكن في أعلى المياه الدولية . ومن جهتها ، فان كرويا الشمالية كانت تدعي امتلاك بحر ساحلي من اثني عشر ميل يجري . يوفي الرابع عشر من شهر نيسان ، تلقى قائد الطائرة ، أمراً من القائد العام لأسطول المحيط الهادي . بعدم الاقتراب كثيراً من الساحل الكوري الشمالي ، وعليه أن يبقى على الأقل على بعد خمسين ميل بحري من الساحل .

وكما تحقق بعد ذلك ، ان الطائرة التي كانت مراقبة في كل لحظة من قبل رادارنا انحرفت قليلاً صعن اتجاهها ، وعلى وجه الاحتمال ، لتتأكد مصدر اشارة الكترونية أحسّت بها . لكنها لم تقترب في أية حال أقل من ثمانية وأربعين ميل من الساحل . وبعد أن حذّرت ولثلاث مرّات خلال عشرة دقائق . أنها ستهاجم ، أعطت علامات تظهر انها تلقت تعليمات بالتخلي من مهمتها ، وابتعدت بعد هذا عن طريق الاستطلاع العادية ، وعن الساحل .

وفي الساعة الثالثة والعشرين والنصف ، وفيما كنت على بُعد ما يقرب من تسعين ميل إلى الجنوب الشرقي من مدينة شونغ جين في الشمال كوريا ، لقد اختفت الطائرة فجأة عن مدى راداراتنا . ان الطائرة E.C. – 121 هوجمت وسقطت فوق بحر اليابان من قبل كوريا الشمالية بصاروخ أرض جو ، وتحطمت في البحر على بعد نحو تسعين ميل على الساحل . ولم يكن بالإمكان وجود أي حيّ عليها . وهكذا أصيبت حكومة نيكسون بأول أزمة كبرى .

ليس من حاكم جديد ، يستطيع حقاً معرفة نوعيّة جهاز حكومته التي يّدير معها أمور بلاده ، طالما أنه لم يتعرض بعد وواجه اختياراً كهذا ، يوجب بالتحديد ، اتخاذ قرارات فورية ، وفي أعلى المستوى حال وقوع الحادث . وفي الظروف العادية ، ليس من اليسير معرفة ما اذا كان مستشارو الرئيس المقربون يطرحون في المواضيع المطلوب بحثها ، تجاربهم الشخصية ، أو انهم يقومون فقط بعرض آراء اداراتهم . ومن السهل دوماً التصرف بفطنة ، وممكن السير فيه ، دون بذل جُهد ، والحصول على سمعة رجل عاقل ومتزن ، لأن نتيجة قرار سلبية كانت إم إيجابية ، لا تظهر إلاّ بعد بعض الوقت ، عندما لا يمكن تمييز سبب النتيجة وبالمقابل ، فان الأزمات هي كاشف لمقاصد الرجال واتزان سياساتهم ، وتظهر مَن منهم يحافظ على سمعته وهيبته ، ومَن هم على استعداد ليكونوا مسؤولين عن كل شيء . وبمقولة أخرى ، انها مناسبة لرئيس ان يكون مستعداً لكل طارئ ، وهذا يتيح له لوم جهاز حكومته .

ومن نافلة القول ان حكومة نيكسون الجديدة ، تخلصت بحكمة من المأزق . وما يمكن البوح به ، ان القرار الذي اتخذ بهذا الصدد لم يكن سيئاً ، وحسب رأيي ، انه كان واقعياً ، لكن مناقشاتنا كانت دائماً عديمة الجدوى ، أو مجانية القضية . وفي الواقع ، فاننا لم نعالج قطّ قضية مطروحة . ان اجتماعات مجلس الأمن القومي ، ما كان دورها سوى عرض الخيارات المختلفة وبأعداد متزايدة . ولم يصل أبداً لوضع مخرج لبعضها ، أو تحديد خطّة عمل لها .

وكانت تذهل أصحاب العلاقة ، طريقة اتخاذ القرارات ، حتى انها تنسيهم أسبابها الموجبة عند ترتيب أفضلياتها . وكانوا يهتمون كثيراً ، كالغالبية العظمى من المشتركين بالحكومات الجديدة ، الابتعاد قدر الامكان عن تهجمات سبق وقاموا بها ضد أسلافهم حول صحة شرعيتهم . ان التشدق الكلامي الانتخابي هو من الأشتراك الخطرة ، والمغرية في آن واحد ، التي من خلالها تراقب حكومة جديدة ، ويجعلها تفكر انه سيُحكم عليها من أسلوبها في الحكم عن سابقاتها . وفي الحقيقة كان يلزم على الأقل سنة واحدة ، حتى تمحى من الذاكرة شعارات

الحملة الانتخابية . وعاجلاً أو آجلاً ، سيُحكم على الحكومة الجديدة ، ليس بحفاظها على وعودها وعهودها ، بل على قابليتها في حل المشاكل التي تعرض عليها . وسيوجه اليها لوم أقل اذا نجحت باستعمالها طرقاً كانت سابقتها تستخدمها ، وحال إخفاقها باستعمال طرقها الخاصة . كان نيكسون على اعتقاد ان الرئيس جونسون كان مولعاً بغرفة العمليات . معتقداً بذلك انه يخضع لفكرة وهمية ، انه قادر في وقت الأزمات ، ادارة أعمال العالم من هذه الغرفة الكائنة في أقبية البيت الأبيض . ولسخرية القدر ، وبالرغم من أنه هو الذي أطلق فكرة ( غرفة العمليات ) فقد أصبح بدوره ضحيتها .

ان الفكرة المأخوذة من ( غرفة العمليات ) لا تتوافق مع الواقع . انها غرفة صغيرة ، غير نشيطة ، ذات سقف منخفض ودون نوافذ ، لكن فائدتها تعود في الواقع انها موجودة إلى جاب مركز تلكس وأجهزة الاتصالات الأخرى ، التي تربط البيت الابيض بجميع السفارات الأمريكية في كل العالم . وأطلق عليها هذا الاسم من قبل رئيس سابق ، كان فكره يصور له أنه يستطيع ادارة الوضع الدولي من خلال خرائط معلقة على الجدران ووافية بالغرض . وعند استلامي منصبي في الحكومة ، فلم تكن الخرائط مستوفية الوضوح وغير مرئية على الجدران . وكان يرى بدلاً منها سجُف ، تحاول إعطاء مسحة انسانية إلى هذه الأمكنة النائية الضيقة . لم يكن رأي نيكسون بهذا الخصوص خالياً من الأساس . وفي الحقيقة كان جونسون يرغب في إضفاء طابع خاص على ما كان يريد تعميمه وكان يقصد ( غارات قاذفات القنابل ) . لكن وفي نهاية المطاف ، فان جميع الانتقادات التي أطلقها نيكسون عادت إليه . وبسبب تهجماته على غرفة العمليات ، كان يمانع في اجتماع معاونيه أو مستشاريه حال ظهور أقل حدث ، وبالنسبة له يجب ان يتخذ القرار بلا تأثر .

وهكذا جرت الأمور ، عندما علمنا ان الطائرة E.C. -121 قد أسقطت وتحطمت . وأخذنا بدراسة ببطء شديد ، الوسائل الممكن استخدامها في مواجهة الأزمة ، واضعين كل اهتمامنا ، وفي كل لحظة لنتأكد اننا لسنا على أهبة الحكم دون مبرر . ولسوء الحظ فان تأجيل العمل لا يُفضل دائماً على الإسراع في اتخاذ اجراءات حاسمة ومعقولة . وفي الخامس من شهر نيسان ، وفي تمام الساعة الصفر ونصف الساعة ، وصل إخبار إلى غرفة العمليات يعلم ان طائرة من طراز E.C. -121 هوجمت من قبل طائرتين من كوريا الشمالية . فأعلم الكولونيل الكسندر هيغ ( مستشاري العسكري ) في تمام الساعة الواحدة وسبع دقائق . وبعد ثلاث دقائق ، أعلمني هيغ ان طائرة أسقطت ، لكن الحادث لم يتأكد بعد . طلبت إليه أن يستعلم ويخبرني حالما يتأكد من

ذلك . لم أكن أقصد إزعاج الرئيس ، طالما ان الخبر لم يكن مؤكداً ، وليس هناك مجال لاتخاذ قرار . وفي الساعة الواحدة وخمس وأربعين دقيقة ، استدعى هيغ مستشار ليرد العسكري ، الكولونيل روبيرت بورسلي . وعزم هذا الأخير أن يعمل مثلي ، أي عدم إيقاظ ليرد طالما ان الخبر لم يثبت .

وفي الساعة الثانية والدقيقة السابعة عشر ، أذاع راديو بيونغ يانغ ، ان كوريا الشمالية أسقطت طائرة استطلاع أمريكية ، حين دخلت إلى المجال الجوي الكوري . وهذا النبأ كاذب وقح ، لأن الطائرة التي كان يسيرها رادارنا ، لم تقترب من الساحل الكوري ، على أقل من ثمانية وأربعين ميل . وكانت على عدم المبالاة بالأمر وكأنه لم يحدث البتة . وبحجة اننا لم نتلق تأكيداً آخر ، أدرج الحادث وكأنه غير موثوق ، وذلك في تمام الساعة السابعة والدقيقة العشرين ، عندما أعلمت نيكسون . والتساؤل عن كيفية اعلانها أنها أسقطت طائرة أمريكية ، اذا لم تكن قد أسقطتها ، ان هذا التساؤل لم يحظ بجواب .

وصرنا كمن وضع يده على زر الصلي ليعرف كيف يعالج أزمة ، فجاءه جواب متخلف . فأعلم نكسون وبتأن مجلس الأمن القومي ، وكانت هذه وسيلة حسنة لجميع الاقتراحات بهذا الشأن ، وطريقة أخرى لكسب الوقت اذا لم يكن هناك رد فعل . واجتمع فريق الباحثين في مجلس الأمن القومي بعد الظهر لمتابعة الحادث واتخاذ مخططات عمل مختلفة ، تعرض في اجتماع مجلس الأمن القومي المنتظر اجتماعه في اليوم التالي ، وفي السادس عشر من شهر نيسان ، الساعة العاشرة صباحاً . لم يبد نكسون أي إيضاح حول ما يعتزم اجراءه ، اذ كان ينتظر أن تُقدم له مختلف الامكانيات . وطريقة العمل هذه كانت قليلة الجدوى ، لأنها كانت تظهر حقيقة ان نكسون لا يفكر بالانتقام . حسن ان نقلب جميع الخيارات الماثلة والممكنة ، ولكن عندما تسقط طائرة امريكية غير حربية بعيداً عن الساحل ، فان تأجيل اتخاذ قرار ، هو حجة في سبيل عدم اتخاذ أي رد فعل . وما كان يجب عمله هو تحليل طبيعة التحدي ، وما هو مدى تأثيرها على السياسة الأمريكية . وبحث الخيارات المختلفة في غير الشروط لا يعني شيئاً . وهناك عنصر آخر يحمل نكسون على الانتظار . قبل بداية الأزمة ، كان نكسون قد قرّر عقد مؤتمر صحفي في الثامن عشر من شهر نيسان ، وهذا كان بالنسبة له اختياراً كان يستعد لمواجهته بهمة وخوف ، وكان يكرس له كل نشاطه .

كنت أعتقد ان ردّ فعلنا على مهاجمة كوريا الشمالية طائرة غير حربية ، فوق المياه الدولية ، دون تحدّ وإثارة من قبلنا ، ستفسره البلدان الصديقة ، وطبعاً في آسيا ، كتجربة لإظهار صمود دولتنا الجديدة . ولهذا السبب كنت من أنصار اتخاذ اجراءات انتقامية ، دون تحديد نوعها . وما أدلى به إلي مساعدي في اليوم الأول من آراء صعبة وقاسية . حتى ان مروتون هالبرين ، الذي انضم بعد ذلك ، سالى صفوف المعارضة المعلنة ضد أفكار الحكومة الحربية ، كان يرى هو نفسه الرد بغارة جورية سريعة ، ولكن طالما ان هناك اجتماعاً لمجلس الأمن القومي ، فلا يمكن تعبئة قوات عسكرية قبل أقل من أربع وعشرين ساعة ، والذي ظهرت عدم صحته . وعند تعبئة قوات عسكرية بحال السرعة ، كنا على الأقل دللنا لكوريا الشمالية ، انها ارتكبت خطأ كبيراً ، وربما نفوذها الى اعطاء برهان لمعرفة خطئها والقبول بتعويض الضرر . وهذا ما حدث ، عندما أقدم الكوريون الشماليون عام ١٩٧٦ ، وضربوا حتى الموت ضابطين أمريكيين ، على طول المنطقة المجردة من السلاح .

عندما يفقد التوجيه الصحيح ، فان كل جهاز غريب في تطبيق مقترحاته الخاصة ويطرحها من خلال منافعه الشخصية . أما بالنسبة لجهاز مساعدي فقد اقترح امكانيات مختلفة ، بدءاً من ارسال احتجاجات دبلوماسية عنيفة إلى بان مون جوم ، وإغتراق سفن لكوريا الشمالية ، مروراً بأنواع مختلفة من العمليات العسكرية ، مثل تدمير مرفأ وونسان ، وقصف الساحل ، أو مهاجمة قاعدة جوية ، لكن نقطة الضعف في كل هذه المشاريع ، عدم وجود قوات ذات كفاءة لتنفيذها ، أو مخطط عملي خاص ، وأيضاً طلب معين حول تعويضات من قبل كوريا الشمالية . وكالما تنقصنا هذه الفعاليات ، كنا لا نزال بحاجة الى تدريبات عسكرية .

ان وزارة الشؤون الخارجية ، كانت منهمكة أنذاك ، في شؤون اجتماع لجنة الهدنة ، الذي دعا إليه الكوريون الشماليون وجددّوا موعده في الثامن عشر من شهر نيسان ، وكنا نحن أيضاً مدعوين الى حضوره . والسؤال المطروح هل نذهب الى هناك ، وماذا نقول في هذه الحال ، أو بعكس ذلك نؤكد على تأجيله الى موعد لاحق . وأرسلت الينا وزارة الشؤون الخارجية مذكرة تبين تحفظها حول الانتقامات العسكرية . ولم تكن تقصد هذه المذكرة شكلاً خاصاً من الأخذ بالثأر ، ماعدا سفينة كورية في عرض البحر ، معتبرة أن مثل هذا الحادث لا يمكن تعليله بصورة شرعية .

لكنها وزارة الدفاع هي التي اتخذت قراراً محيراً . ويبدو انها لم تأخذ رأي وزارة أخرى ، أو رأي البيت الأبيض نفسه ، فعلقت أعمال طلعات طائرات الاستطلاع ، على حدود الاتحاد السوفيتي ، والصين ، وفوق البحر الأبيض المتوسط ، وفوق كوبا ، ولم يكتشف أمر هذا إلا تدريجياً عندما صدر أمر في السابع عشر من شهر نيسان ، بإرفاق طائرات الاستطلاع بطائرات حربية ، عند اقترابها من كوريا ن فلاحظ نكسون عندئذ ، أنه لم تكن هناك طائرات للمرافقة . كان ليرد بلا ريب على حق في أن يفكر ، ان هذا النوع من الطيران قد تضاعف خلال سنوات دون طرح سؤال عن الداعي لوجوده . وهذا كان يدعو ومن أمد طويل ان يتبين هذا السبب . إلا أني كنت أخشى ان التوقف الكامل للطيران الاستطلاعي الذي يحدُث تمامً بعد مهاجمة احدى طائراتنا لا يؤدي الى انطباع حسن ومقبول . ولا يفسح المجال للتفكير ، بأية حال ، أن الحكومة كانت عازمة على الدفاع عن حقوقها تجاه تحد عنيف .

ومضى الجزء الأكبر من يوم الخامس عشر من شهر نيسان ، بتقليب مخططات قليلة الفائدة . وكان يبدو ان هناك موافقة شبه إجماعية ، حول تفتيش سفينة بحرية لكوريا الشمالية . وطرح الأمر للتحليل بصورة قانونية ، لكن النتائج التي توصل اليها ، أفقدت كل أمل ، لنه ظهر أن ليس لكوريا سفن في البحر بعد إغراق سفينة يويبلو ( pueblo ) وهذه الملاحقة أبعدتنا عن أية فكرة أخرى جلية : كاستخدام غواصة لقصف سفينة بحرية لكوريا الشمالية . وفي الحقيقة ، فقد راجت إشاعة أن سفينة كورية ترفع العلم الهولندي ، كانت تمر في بعض الجهات من البحر . ولما كان نكسون يريد تفتيشها ، فقد أمضى فعلاً رجال القانون كافة يومهم في التشاور ، ومن ثم استحال علينا الكشف عن المركب المنوه به . وحسب معرفتي لم يكن له وجود .

وفي هذا الحال ، فان اجتماع مجلس الأمن القومي في السادس عشر من شهر نيسان ، وكان المجتمعون في ارتباك ولم يصلوا الى اتخاذ أي قرار حاسم . ولم نعرض في وقت ما المشكلة الأساسية كما سأبينه في مايلي :

ان عدم ردّ الفعل على مهاجمة طائرة استطلاع غير حربية فوق المياه الدولية . سيوجد انطباع حيرة وتردّد ، كما أنه يشجع أعداءنا في هانوي ، ويقوي المعارضة ضدنا في كل مكان . ومن جهة أخرى ، مثلنا مثل الحكومات الأخرى ، التي تولت الحكم حديثاً ، لم نكن في عجلة من أمرنا لمفارقة شهر العسل . وكنا نتمتع في هذه الفترة ، بما استحقه لنا تساهلنا وضبط أنفسنا بالنسبة للحكومة السابقة . ومن جهة ثانية ، كنا نخشى وبصورة طبيعية الوقوع في حرب

بـين جهتـين دفعـة واحـدة . ولقـد أبـدى ليـرد ملاحظتـه فـي أننـا اذا رددنـا ضـربة بـضربة لكوريـا الشمالية ، فان فييتنام ستتأثر حتماً بالجهود التي أجريناها فيها . وظهر عدد كبير من هذه الاعتبارات خلال الاجتماع . ودرست الآراء العسكرية المختلفة بصورة كيفية ، دون إخضاعها لتدقيق عميق . وكانت تهدف في الواقع إلى أن التي كانت تبدو وثيقة منها ، هي غير كافية بالنسبة لخطورة التحدي ، وتوشك الأخرى أن تجرنا الى حرب على جبهتين .

وبعد ذلك كان علينا ان نعلم ، أنه يليق بنا ان نتحلى بالجرأة في وقت الأزمات . وفي الحقيقة ان موقفاً متردداً يشجع العدو على الاستمرار في عدوانه بل إلى تصعيده . ويتضح من التأجيل أننا نزيد في تقدير كوريا الشمالية كثيراً عندما نفكر انها على استعداد للدخول معنا في معركة عندما تردّ لنا الضربات التي تتلقاها . ولكن بما أن الأمور كانت تجري على هذا الشكل في الأيام الأولى للحكومة الجديدة ، عاهدت نفسي هذا النهار ، على تقديم الاقتراحات دون إبداء أي أي ، وفي اجتماع مجلس الأمن القومي هذا ، لم يتخذ فيه نكسون أي اجراء ، وأمضى اكبر جزء من النهار في جمع معلومات عن السفينة الكورية التي ترفع العلم الهولاندي ، التي كانت تبدو وكأنها صنعت من قطع مشكلة لكي تبحر بين عمليات عسكرية خطرة ، والسلبية التي كان نكسون قد انتقدها بعنف حال القيام بعملية يويبلو .

وفي اليوم التالي أي في السابع عشر من شهر نيسان ، أقدم نكسون على اتخاذ قرارين . لقد قبل في المقام الأول ، الاقتراح الثاني من الاقتراحات المختلفة التي عرضها مجلس الأمن القومي والاقتراح هو : العودة الى الطيران الاستطلاعي بمرافقة طيران المسلح . أضف الى ذلك ، فقد أصدر أمراً بتوجيه حاملتي طائرات باتجاه بحر اليابان ، بسبب توقع أعمال انتقامية . وكان تفكيره منصباً إلى أن استعانته بالطائرات المقاتلة المتركزة في اليابان ، تحملنا على اجراء نقاش صعب مع الحكومة اليابانية ، والذي لا يمكن الاحتفاظ به سرياً ، والذي ربما يثير اعتراضات الرأي العام ، ويعرض للخطر مفاوضاتنا مع اليابان حول معاهدة سلمية . واستدعاء - 52 ١ المتركزة في غوام يشكل رد فعل متلاحق . كل العالم هيأ نفسه لنسيان وجود طائرات متوقفه في كوريا الجنوبية . ومن الواضح الجلي وباللاشعور ، كان الكل على ثقة ان حاملات الطائرات بحاجة الى ثلاثة أيام لبلوغ النقطة التي تستطيع منها إطلاق الطائرات ، ان ( البزاة ) كانت تستطيع القول إننا نقوم بعمل ما ، بينما ان ( الحمائم ) كانت تعزي نفسها قائلة : لا يزال أمامنا وقت طويل . وفي الواقع ، فان كل يوم كان يمضي ، يجعل من العملية الانتقامية أمراً صعباً ، ونحن الذين سببنا ذلك وعلى الأقل كما أرى اليوم ، عدم مطالبة كوريا الشمالية ، التي

يعتبر قبولها للمطالبة بمثابة تعويض ، ويعتبر مون جوم ، وكانت وزارة الشؤون الخارجية قد أوصت باجتناب أي عنف في اتصالاتنا ، كما ان روجرز كان يعارض كل احتجاج . كان يوجد اذاً فوارق هامة بين قراراتنا السياسية وقراراتنا العسكرية . وفي هذا الحال ، فان قرارنا بارسال حاملات طائرات الى المواقع المطلوبة لايفيدنا سوى ضياع الوقت ، وبالرغم من أنه ظهر قوياً ، فانه كان يعني ضمنياً عدم التصرف بشيء .

وفي السابع عشر من شهر نيسان ، جمعت لجنة خاصة لبحث الطريقة الممكنة لمواجهة الأزمة ،. وهذه اللجنة كنت أديرها كانت تضم نواباً من جميع المستويات بالتسلسل من وزارة الشؤون الخارجية والدفاع ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورئيس الأركان العامة المشتركة ، وكانت هذه اللجنة نواة لما سيصبح بعد قليل : فريق الأعمال الخاصة في واشنطون . ( W.S.A.G. ) المكلف بتسوية جميع الأزمات اللاحقة . ولكن عند عدم وجود توجيهات معينة ، لم يوضع مخطط رسمي في الحالة الأولى ، ولم يكن أحد مهيأ حقاً لاستعمال القوّة ، وبقيت مناقشاتنا نظرية ، ولم نتخذ اثناءها أي مشروع .

ومؤتمر نكسون الصحفي الذي عقده في الثامن عشر من شهر نيسان ، والذي أعلن من خلاله العودة إلى الطيران الاستطلاعي بحماية مسلحة ، فلقد اعتبر هذا الاعلان وبصورة عامة ، حتى في داخل الحكومة ، كأنه رد فعل رسمي ، على الهجوم الجوي الذي كنا نحن ضحيته . وكان اليكس جونسون يفكر انه لم يبق هناك سبب بل حجة للإعداد لكل شيء محتمل الوقوع ، للقيام بردّ فعل في المجال العسكري . ولم اشاطره الرأي ، لأني كنت أعلم الآن وبعد أن مضى المؤتمر الصحفي ، فلم يبق على نيكسون سوى الانكباب جدياً لحل المشاكل .

وفي الثامن عشر من شهر نيسان ، قرابة الظهر ، تماماً بعد الانتهاء من المؤتمر الصحفي ، أمضينا نكسون وأنا بعض الوقت للاطلاع على ما يجري في البلاد . وبينت له أنه اذا لم يقم ببعض التغييرات فلن نستطيع عمل أي اجراء ثأري ويجبر على أثر ذلك ان يتصرف بقسوة . وعلى كل حال كان هناك ثلاثة شروط يريد نكسون التأكد منها :

أولاً . يجب ان يكون لعملنا نطاق واسع المدى .

ثانياً . يجب ان يكون لدينا استعداد لمتابعته ، اذا ردّت علينا كوريا الشمالية بمثلة ( ربما نكون غير قادرين على خوض حرب برية إلى أمد طويل .

ثالثاً . لا يستطيع نكسون استعمال القوة ، اذا لم تكن حكومته مجمعة على رأيه . وحسب رأيي فان كوريا الشمالية لن تصعد الوضع ، لكن الرئيس كان يقصد استباق ما هو ممكن حدوثه وخوفاً من معارضة . واقترحت على الرئيس أن يستفتي كل من روجرز ، ليرد وهلمز على انفراد ، محاولاً معرفة رأي كل منهم ، حتى يكونوا على اتفاق معه في اجتماع مجلس الأمن القومي ، لا أن ينفرد بالرأي ، قبل نكسون القسم الأكبر من اقتراحي ، لأن المؤتمر الصحفي كان قد أتعبه ، ويجتنب كل توتر في الأيام التي تليه .

وألفيت روجرز ، ليرد وهلمز معارضين بالإجماع حول اجراء أعمال عسكرية انتقامية ضد كوريا الشمالية . وكانت حجّة روجرز في تأثير ذلك على الرأي العام ، ورأي ليرد أنه يضعف جهودنا في فييتنام ، والكونغرس لايساندنا ، أما هلمز فأجمع على كل ماتقدم من آراء . وفي نهاية النهار ، أبلغت نكسون فحوى مايرى مستشاروه ، قبل أن أضيف أن رأيي هو عدم مكنته بالمخاطرة في اتخاذ قرار بقضية متنازع عليها ومع جهاز منقسم على نفسه في حال انه لايزال في بدء ولايته . وجرى حديثنا هذا في قاعة المعاهدات الكائنة في المقر الرئاسي ، ولم يكن لدي انطباع ان نكسون يريد اجراء أعمال انتقامية . لقد أجل بل رفض الفرصة المؤاتية لاتخاذ قرار ولم يظهر أيّة رغبة حقيقية حول الإقدام على ذلك في محادثاته الخاصة . حتى انه لم يشترك في تلك الاجراءات الضرورية التي كانت تفسح له المجال لرفض المعارضة عند عدم تنفيذ قراره . أما الآن وهو يبدو مستعداً لتقديم عذره ، فهو غاضب على مستشاريه ، ويريد التخلص من ليرد وروجرز عند سنوح أول مناسبة ، كما أنه لن يأخذ رأيهم ابداً في الأزمات . وأمر باجراء غارات جديدة من سلسلة قرارات بقيت مكتومة ضد قواعد كمبوديا ، لكي يظهر لهانوي ما نحن عليه مصممون ، ووراء كل ذلك ان الوضع الحقيقي يقضي عدم الإقدام بانتقامات عسكرية ضد كوريا الشمالية وهذا ما أعلمت به الفريق البيوزاري صباح يوم التاسع عشر من شهر نيسان .

إلا ان نكسون أمر حاملات الطائرات بإكمال مسيرتها نحو بحر اليابان ، لإظهار قوتنا . لكن التهديد الذي كانت تقوم به تلك الحاملات لم يكن موازياً لما كان ينتظره العدو ، وبالنتيجة لم يكن له أي رصيد . ولا زلنا قليلي الخبرة كما كنا ، فلم نطلب أية تعويضات من كوريا الشمالية . وهذه التي لم تطالب بتقديم شيء ، فليس ثمة مجال ان نبدي بعض الصلابة في موقفنا تجاهها . أكملت حاملات الطائرات طريقها وبعظمة ، خلال عدة أيام الى بحر اليابان ، يرافقها في مسيرتها اسطول صغير من السفن وسنف المراقبة اليابانية والتي كانت مواكبتها لها فقط لمشاهد التلفزيون . وليس لنا سوى الإعراب عن نظريات حول ما كان قد يجري لو انعكست

الأمور ، وكان طبيعياً ان نوجه اللوم لأنفسنا على خسارة عدد ما من موظفين كبار في التلفزيون الياباني . وعلى كل حال ، فاننا حال إبلاغنا الادارة عدم الأخذ بالثأر ، انتشر الخبر بسرعة هائلة ، أنه لن يكون انتقام . ( والحملة ٧١ . Task Force71 ) كما دعيت ، توقفت بسلام في بحر اليابان بسيطة وافرادية من قبل الاتحاد السوفييتي ، أجبنا عليها بجفاف . ونحو اواخر الشهر ، هدأت الأزمة وكأنها ما حدثت ، دون ان ينال هذا الفعل الوحشي الذي ارتكبته كوريا الشمالية أي عقاب . وتركت الأزمة بعدها آثاراً بسيطة ، ماعدا لدى نيكسون ، لإدراكه أنه لم يكن على مستوى معالجة اول اختبار حقيقي له . ( وهذا على كل حال حسب اعتقادي ، كان نتيجة الدور الذي قمت به ) .

وعلينا الآن أن نهتم بذلك القرار المبهم الذي كن ليرد قد اتخذه ، حول إيقاف جمعي الطيران الاستطلاعي ( ولم يعلم بذلك البيت الأبيض إلا في الثاني والعشرين من شهر نيسان ، عندما تلقى مذكرة مهبة من البنتاغون بشأن هذا الموضوع ، الذي لم يكن مقتصراً على شواطئ كوريا الشمالية ، بل يشمل كذلك الطيران فوق الصين ، والاتحاد السوفييتي ، وكوبا والبحر الأبيض المتوسط ) . فعدنا إلى الأمر الذي أصدره نيكسون بتجهيز مرافقة مسلحة ، لطيران الاستطلاع ، لتأجيل العملية ، بحجة تجهيز المرافقة أولاً . ولم يردنا سوى أجوبة مبهمة على مطالباتنا اليومية . وأخذ يساورني القلق أكثر فأكثر ، لا بسبب اعتباري ان كل مهمة كانت على غاية الأهمية ، ولكن بسبب ما خلفه حادث إسقاط الطائرة الأولى ، فإذا أسقطت طائرة استطلاع واحدة ، فهل يكون هذا كافياً لتجميد نهائي لكامل برنامجنا الاستطلاعي . وبالنسبة لخصوصنا . يبدو لي ان المخاطرة ستصبح كبيرة في إثارة حوادث آخرى . ولم يستعد الطيران الاستطلاعي طلعاته وبعد انقطاع ما يقرب من أربعة أسابيع ، إلاّ في الثامن من شهر أيّار .

لم يكن قرارنا في عدم رد الفعل في موضوع E.C. – 121 هو الذي شغل حيزاً كبيراً . ولكن كان علينا ، في الحقيقة ، اتخاذ قرار معاكس ، لأن وجهتي النظر كانتا في وضع للدفاع عن نفسيهما . ومما وضحته الأمور وقبل كل شيء ، هو افتقارنا في جهازنا على قدرة اتخاذ قرارات . فبدلاً من اللجوء إلى اجراء بحث ستراتيجي عن الوضع ، كان علينا ان نسعى نحو ايجاد ذريعة تقنية . ولم يكن للبيت الأبيض نفوذ أو سلطة ، ولم نتخذ قراراً سياسياً محدداً ، وانتشار قواتنا ومجهودنا ذهب سدى . وفي سبيل حل أزمة بصورة جدية ، يجب ان تعرف الوزارات والأجهزة الأخرى نوايا الرئيس . أضف إلى ذلك ، يجب عليهم الاتفاق في جميع الآراء ، حتى يكونوا على ثقة من ان القرارات العسكرية والدبلوماسية ، تكون في مجموعها مترابطة . والحالة هذه ، انها

الوسائل ، هي التي نقصتنا أكثر من الأفكار . فلم نفرض على كوريا الشمالية أي تعويض . وانتظرنا طويلاً بعد الحادث ، لنجمع قوات يمكنها تشكيل تهديد واقعي ، لم يكن ينظر إليه واقعياً أكثر من الهدف الذي أقيم بشأنه ، وكنا نتمنى كذلك أن يسود التفاهم في داخل الحكومة . وبالنسبة للرئيس ، فانه لم يتخذ مطلقاً أي موقف . ومع ذلك فقد أخذت عملية E.C. – 121 أبعاداً شاسعة ما كنا نظن ان تصل اليها . وفي الواقع ، انه حرضت فعالياتنا وبصورة ملحوظة . ان الأزمات اللاحقة عولجت بنشاط وروقبت بسلطة مركزية قادرة . وفي سبيل هذه الغاية أوجدنا ( فريق العمل الخاص في واشنطن ( W.S.A.G ) وعملنا بالطريقة نفسها ، وأوجدنا انطباعاً لدى الجميع ان هناك عزماً على حل الأمور . ان عدم رضى نيكسون تجاه ليرد وروجرز لم يكن بحق ، اذ انهما لم يقوما بسوى تقديم آرائهما بكل بساطة وصدق . إلاّ أن هذا كان له أبعاد ، بانعزال نيكسون عند إقدامه على اتخاذ قرار ما . وعند حدوث الأزمات اللاحقة ، لقد عرف ما كان يردي وتوصل إليه ، ولو بلجوئه إلى وسائل ملتوية .

وجملة القول ، اني اعتبر أن موقفنا في عملية الطائرة E.C.-121 ، وُسم بالضعف ، وعدم الحنكة ، والريبة والخجل ، ولو استحق لنا بعد فترة سيلاً من المديح ، واني لا أزال أعتقد ، أننا اذا قدرنا أبعاده ، فقد دفعنا ثمنه غالياً ، إذ ثبطنا به همة حلفائنا ، وجرّأنا خصومنا .

ولحسن الحظ ، فان هذه الأزمة ، حدثت في أول عهد ولايتنا ، ولم تتحمل في مضمونها سوى مشكلة من أهمية ثانوية . بالإضافة إلى أنها كانت لنا درساً ، للسيطرة على الأزمات في المستقبل .

# التحـــالف بين

# الولايات المتحدة واليابان

ان الولايات المتحدة واليابان هما حلفاء منذ أكثر من عشرين عاماً . ومفتاح سرّ سياستنا في المحيط الهادي هو دون شك الصداقة ، والتبادل التجاري والعلاقات المتبادلة التي تربطنا بهذه البلد العجيب ، ويمكن أن نتخيل بصعوبة شعبين يختلف جداً أحدهما عن الآخر ، اذ أن الأمريكان هم : ذرائعون . صادقون ، تهمهم الشرعية ويتكلمون بوضوح ، أمّا اليابانيون فهم : معقدون ، حاذقون ، يعملون بالتلميح ويتكلمون بصورة غير مباشرة ، بسبب حساسية موجودة لديهم وتعيدهم حتّى إلى مذهب الجمالية ، اكثر مما هو الكلام .

ان اليابان والولايات المتحدة يعرفان بعضهما منذ اكثر من قرن وربع ، ولقد تنوعت علاقاتنا بشكل لا يصدق . بدءاً من حبّ الاطلاع حتى المنافسة ، مروراً بالحرب ، والاحتلال ، والمصالحة ، والمعاهدة والترابط . ان الشعب الأمريكي ، ومبادئه متعددة ، يقاتل بثبات لتحديد ما يوحده . واليابان بالمقابل ، شعب متماسك وجنسياته كثيرة الاختلاف . وبالنسبة للأمريكان ،فان القوانين والاتفاقيات هي الضامن الرئيسي للسلم الاجتماعي ، في حين ان اليابانيين ، تتوقف محافظتهم على انسجام مجتمهم ، على مبادئ قانونية جلية ، اكثر من صفات العلاقات الانسانية ، والقواعد والالتزامات التي يتقبلها المجموع ضمناً .

ان الولايات المتحدة ، التي أسعدها الحظ فحصلت على أراض شاسعة وموارد فائضة ، تعتبر ان هذه الغزارة طبيعية . واليابان الذي هو بدوره قوة صناعية كبرى ، يدين بازدهاره ، الحديث ، الى صناعة تتوقف على استيراد الغلال الغذائية ، والأجهزة الخاصة بالطاقة ، والمواد الأولية ، من الأسواق الخارجية .

والفكرة سريعة الانتشار ، والمستغربة ، ان شعبين شديدي الاختلاف يتحالفان ، ان هذه الفكرة كغيرها من الأكفار الطارئة ، تحتوي على قسم كبير من الحقيقة . وفي الوقت ذاته ، يمكن تطبيق ذلك على علاقات اليابان مع أي بلد آخر ، مهما كان نوعه . وفي الحقيقة ، ان تقدم

اليابان ، واخفاقه أحياناً ، هما حصيلة مجتمع : تنظيمه ، عاداته ، وكيفية اتخاذه قرارته ، هي وحيدة في نوعها ، بنوع انها تجعل من الثقافة اليابانية ، حالة خاصة ، وبالمقابل فان الشعب الياباني ، استفاد من الأجانب ، بعدم استعماله صوى الناجح من طرقهم وتقنيتهم ، وكان ذلك في سبيل المحافظة على طاقتهم ووحدتهم .

ان اليابان يضم شريط جزر ممتد على عرض الساحل الصيني ، تتميز فيه قمم جباله العالية المكسوة بالضباب ، فوق بحر مضطرب وهائج ، اما وديانه الخضراء فهي تعطي ثمارها بكرم ، بفضل نشاط فلاحيها ، لكنها لا تحتوي أبداً على أيةّ موارد أخرى طبيعية . واليابان يدين بازدهاره إلى التنظيم والثقة وتفاني سكانه . كان يجب ان يكون سكان اليابان كثيري الاحتمال للتمكن من انتاج قوام حياتهم منبيئة لم تكن مقبولة مبدئياً . وبعد ان ذاقوا ولمدة طويلة نفوذ الثقافة الصينية ، ثم تخلصوا منها تدريجياً ، واختطوا لأنفسهم خلال قرون ، تنظيماً خاصاً، أصبح حالاً سبباً في تحقيق كيانهم ، ووسيلة دفاع ضد العدوان الخارجي ، ووثاقاً يثبت الترابط مع الحس الوطني وأصبح حتى سلاحاً . وأخذ اليابان صورة شبيهة بالعائلة اكثر مما هي صورة شعب ، لم تكن تحكمه قوانينه ( التي لم تكن لتطبق إلا ظاهرياً عند وقوع أحداث وعدوان كاسح ) بل مجموعة معقدة من الآراء تكلف كل ياباني بدور خاص . وتنظيم السلطات الإقطاعية ، التي لم تكن تطّبق إلاّ على الطبقات العليا حصراً ، طبّقت على المجتمع بكامله . وعلى هذه الجزر المكتظة بالسكان ، انطلق الرجال والنساء من مبدأ صادق أن بقاءهم يتوقف على النظام والتعاون ، ويجب عليهم والحالة هذه اجتناب أيّ تصادم : والطريقة البارعة التي يتفاهم بها اليابانيون ، ترتكز على عدد بسيط من المبادئ :

لا تطرح أمراً ممكن رفضه . تجاوز المبهمات وتصرف بلباقة ، لكي تنهي ما ترغبه ، وتفسح في الوقت نفسه مجالاً لاحترام الفكرة المضادة . اما الكلمات التي يُقصد بها الابهام في فن الكلام الياباني ، ليست سوى جزء صغير من هذا المبدأ الدقيق . وكل حركة هي بمثابة تعبير رمزي ، كما هي الحال في الانحناءة لتأدية التحية . التي مهما تغيرت في ابدائها فانها تخضع لقانون تسلسلي معيّن ، أو تنضيد زهور على طاولة .

وبطبيعة الحال ، فان هذا التنظيم الاجتماعي ذا المبادئ المعقّدة المتماسكة ببعضها ، له وجهه الآخر . وإذا أعطت هذه المبادئ لكل ياباني انطباعاً خاصاً يشعره بكيانه ، وجلبت له

التقدير والمساندة المتبادلة في المحيط الياباني ، فان هذا الشعب نفسه خارج حدود بلاده ، يمكن ان يجد نفسه غريباً بل قاسياً عندما يعاشر غيره ويختلف عنه .

وممّا لا يدعو للتعجب ، هو ان الاحترام الذي يكنه اليابانيون لماضيهم ، وتأثرهم بأصالتهم ، لم تخمد شأفتها لديهم بعد . ان مجتمعات أخرى ، كلفها تعلقها بتقاليدها ، انقطاعاً عن الواقع ، لا يزال يتزايد بالنسبة لتيّارات التمدن . لكن هذا التعلق ، كان بالنسبة لليابان وتعلّقه بماضيه الإقطاعي ربحاً عظيماً ، بإعطاء المجتمع بكامله ، طبيعة الاحترام المتبادل ، والتي مهما كانت الاختلافات الداخلية لم تستطع زعزعة وحدة جبهة يقابل بها الأجنبي . ان الانطباع الذي يملكه اليابان له طبيعته المميزة الوحيدة ، التي ظهرت اكثر نفعاً من اعتقاد الصين سمّو ثقافتها مثلاً . ان اليابان لم يفقد مبدأه عندما أقدم على مجاراة مجتمعات أخرى في طرق حياتها . ولقد سمح لنفسه بالتبني الفعلي لأي تنظيم كان ، محتفظاً بالرغم من كل شيء بأخلافه اليابانية ، لأن هذا التنظيم لا يتعلق بشكل حكومته ، ولا بنهجه الاقتصادي ، لكنه يتعلق بمجموعة من العلاقات الاجتماعية المعقدة الممثلة بواحد واندمج بها المجموع . ان التقليد الياباني كان بعيداً عن خلق أي عائق في وجه التقدم ، بل كان بالنسبة لليابان حافظاً منشطاً ، وأعطاه بكل تأكيد قابلية التجديد مع الاطمئنان على عواقبه .

بعد وصول العميد البحري بيري ( perry ) إلى اليابان ، وبتلميح بسيط ، لندلل بذلك على ما جرى بعدئذ وأوصل إلى بداية الاستعمار . فان اليابانيين بعزم كالحديد ، أخذوا بتشكيل مجتمعهم الإقطاعي بموجب انظمة المدنية الحديثة . كانت مهمة الامبراطور تأمين متابعة ذلك ، بينما كانوا هم يصوغون أمة صناعية ، التي أصبحت بأقل من خمسين عاماً بعد ذلك ، في حالة من القدرة تمكنها من التغلب على قوة كبرى . روسيا . كما انها استطاعت خلال جيل بعد ذلك ، التخلّص من الاستعمار الذي ثبتت أمامه وجرّها إلى نزاع عالمي .

ان الهزيمة التي لحقت باليابان ، خلال الحرب العالمية الثانية ، لم تستطع زعزعة تماسكه وصلابته العجيبين . وكان ذلك بمثابة حافز لليابان الذي بدا وكأنه حاجاته ، مع ثقته الأكيدة أن أي تدخّل لن يتمكن من تعكير كنه المجتمع الياباني . والديمقراطية اليابانية أصبحت بدلاً من الاستبدادية ، لكن الأمبراطورية بقي رمزاً لإصالة التنظيم الياباني . وقلب اليابان منشآته وتنظيماته ، وأصلح الأضرار التي سببتها الحرب ، ونهض بعد أقل من عشرين عاماً أقدر مما كان .

ولمواجهة تنافس الاقتصاديات الناشيء ، الذي كان يتزايد في البلاد الأخرى الحرّة من آسيا ، وأخذ يتمتع بمزيد من مهارة اليد العاملة ، ورخص الأسعار الذي اختص به اليابان حتى ذاك الوقت ، تجاه ذلك كلّه أقدم المسؤولون اليابانيون على فكرة مبتكرة بتحويل اليد العاملة والموارد الممكن تصنيعها إلى الصناعات التي تأثرت بالمنافسة في قطاعات أخرى ، والتي كان اليابان لا يزال متفوقاً فيها . ولم يتخلوا عن التنظيم الذي كان يضمن للعمال سلامة استخدامهم مدى الحياة . وبكل تأكيد ، استفاد اليابان مبدئياً من المعونات الأمريكية ، ثم أخذ يخصّص جزءاً من موازنة حكومته للدفاع ، وذلك بفضل المعاهدة الأمنية التي أبرمت بينه وبين الولايات المتحدة . ولكن اليابان مدين بنجاحه ، في الدرجة الأولى ، لتماسك منظماته ومهارة شعبه . وقدرته على المقاومة والصمود التي برهن عنها في عام ١٩٧٣ ، حال قيام أزمة الطاقة ، جاءت مصدقّة لما ورد . وفي أقل من عامين ، فان هذا الشعب الذي كان يستورد تسعين في المائة من بتروله ، استطاع ان يسدّ عجز ميزان مدفوعاته ، ويعيد عمل احتياطيّه وذلك بفضل مجهود عظيم وارادة خيّرة . وحسب رأيي ، فان اليابان ، بين كافة الشعوب الكبيرة ، هو الوحيد الذي استطاع في فترة ما بعد الحرب اتخاذ قرارات جريئة ونافذة ، في حين ان حكامهُ ، كانوا يتصرفون دوماً ، بالتلميح والخفاء ، كما كانت تتطلب تربيتهم .

وعندما بدأ نيكسون ولايته ، كان أمامنا أمران يختصان باليابان : من جهة ، فان المسؤولين الاقتصاديين في بلدنا ، كانوا قلقين من اختلال التوازن المتزايد بين مبادلاتنا التجارية مع هذا البلد . ومن جهة أخرى فان المسؤولين عن سياسة بلدنا ، والاستقرار السياسي ، وحتى في الأمن في آسيا . ان جميع هذه الأهداف كانت واضحة تماماً ، وعليّ أن أصرح : بعدم معرفتي أنا وزملائي ، معرفة دقيقة ، بالمبادئ والنفسية اليابانيّة . ولقد أقدمنا بنتيجة ذلك على ارتكاب أخطاء كثيرة ، لكني أقرّ اننا استفدنا كثيراً من هذه التجربة ، وأقمنا في آخر المطاف ، علاقات جيّدة ، بعد أن سبّبنا انزعاجاً للإحساس الياباني الرهيف ، ببعض الضربات . وما نذكره حتى الآن بمرارة هو ان القرارات التي ينفذها الشعب الياباني ، كان يتخذها حكّام يفاخرون بتسترهم . وبكل تأكيد ، كان هناك رؤساء وزارات عظام ، لكنهم كانوا يعملون بتواضع ، مفسحين المجال للرأي العام ان يحكم ان تصرفهم هذا وسياستهم يعكسان مجتمع ، لا تصرفاً خاصاً بفرد . كان من الممكن ان يظهروا مهارة كبرى أو دنيا في تتميم واجباتهم ، لكن تصرفهم هذا عند النهاية ، كان حصيلة تقليد ثابت يدلّل على حاجات البلاد ، لا بوساطة شخصيات مرموقة ، بل التأثير على كل المجتمع بإدراك ما هو ضروري له .

وبالنسبة لنا ، نحن الذين نتخذ قراراتنا على الطريقة الغربية ، التي تضفي صلاحية التقرير ، كان من الصعب علينا جداً ان نتفهم هذه الروح . ان منهجنا في المفاوضات ، المبني على المناقشة ، يقوم بمطالبة محدثنا تبني وجهة نظرنا ، بينما ان الحاكم الياباني ، لا يتخذ قراراً ، ويفرض بدوره ارادته على مرؤوسيه . ومهارته تكون ، بعكس ذلك ، باستفتاء آرائهم ، حتى يتمكن من توجيههم نحو الهدف المرغوب . ان المسؤول الياباني ، لا يعلن عن قرار ، بل يتخذه . ان الغربيين يتخذون قراراتهم وبصورة سريعة ويلزمهم وقت طويل لوضعها موضع التنفيذ ، لا سيما اذا كانت متناقضة . في ادارتنا يجب اقناع أو اجبار كل مركز قوّة على الاقتناع ، الأمر الذي تكون نتيجته إنقاص عنصر المفاجأة ، أو المرونة التي يعمل في حدودها . أما في اليابان فان هذا التفكير يسبق البدء بسياسة ما . يلزمنا اذاً وقت لاتخاذ قرار ، لكن تطبيقه سريع ، وتجمع حوله الآراء . فكم يجب على جميع المكلفين بتنفيذ السياسة ، ان يشتركوا كلهم في اتخاذ هذه القرارات ، ليصبح تنفيذها ممكناً .

ان اليابانيين لا يرغبون في مجابهة فريقين : غالب ومغلوب ، سريعة مفاهمتهما ، ولا يسرهم الدخول في مبادرات ، مصيرها غير معروف وهذا يعني أن كل لقاء بهم ، يجب ان تسبقه زيارة عدد كبير من الموفدين ، ليتأكدوا من عدم التورّط في موضوع يصعب تنفيذه . وبعد تقديم هذه المعلومات الغزيرة ، لا بدّ من مضي بعض الوقت ، لإفساح المجال لمشاورات تقوميّة ، قبل إحراز الموافقة . ولهذا السبب بعينه ، فان الوزراء اليابانيين ، لا يتكلمون إلاّ نادراً خلال الاجتماعات الدولية ، واشتراكهم بتلك الاجتماعات إنما هو لجمع مبادئ أساسية ، يتمكنون بواسطتها عن اتخاذ قرارهم . وعند محاولة تجاهل طريقة العمل هذه ، والضغط على محادثك الياباني تبني وجهة نظرك ، يصبح لديك انطباع انك فزت بذلك ، لكن لياقة اليابانيين الأسطورية تخطئ حكمك . ولن يكون لانتصارك هذه آثار ملموسة . وهذا يوضح نجاح المفاوضات حول ( اوكيناوا ) وفشل مفاوضات الأعوام ١٩٦٩ . ١٩٧٠ فيما يتعلق بالصناعات النسيجية .

# المفاوضات حول أوكيناوا

وبعد مضي وقت طويل على انهاء احتلال اليابان من قبل الولايات المتحدة عام ١٩٥٢ ، فان أوكيناوا ، وبقية الجزر الأخرى بو . كيو بقيت تحت الادارة العسكرية الأمريكية . وفي الواقع لم يجر بحث ان هذه الجزر ستكون في ملكية اليابان في آخر المطاف . ولكن اذا كنا نحافظ على نظام احتلال جزيرة اوكيناوا ، لأن هذا الجزيرة قد أصبحت إحدى قواعدنا العسكرية الهامّة في آسيا . وكنا نعتمد على هذه القواعد الجوية للدفاع عن كوريا وتايوان . وكنا نستخدمها كمستودعات لأسلحتنا النووية . ومع ذلك ، مهما أصبحت الأهمية الستراتيجية لأوكيناوا ، فان واقع احتلالنا الدائم لها ، في نهاية الأعوام ١٩٦٠ ، أصبح يخلق لنا عقبة في مستقبل علاقاتنا مع اليابان . وهذا بالطبع أخذ يضفي ظلالاً على المعاهدة الأمريكية اليابانية ، التي بناء عليها أسسنا ستراتيجيتنا في آسيا . وفي عام ١٩٦٠ ، دخلت المعاهدة في التنفيذ ، في حين ان مظاهرات معادية للأمريكيين ، جرت تقريباً في جميع انحاء اليابان ، أجبرت الرئيس ايزنهور لتأجيل الزيارة التي ينوي القيام بها لليابان ، إلى أجل غير مسمّى ويمكن انهاء تلك المعاهدة في نهاية سنوات عشر ، إذا طلب ذلك أحد الفريقين قبل الموعد بعام ، وهذا يعني اننا سوف نشهد أيضاً في العام ١٩٧٠ عودة المظاهرات المناوئة للمعاهدة من قبل عناصر معادية للأمريكان . وكان هذا واقع غير مفرح نلتزم بتحمله ، اذا كانت طلبات اليابان المتكررة حلو اعادة النظر في وضع اوكيناوا ، لم تُستَجَيب من قبل الولايات المتحدة .

ان الوطنيين والمتطرفين اليابانيين كانوا جبهة واحدة في هذا الشأن . وهؤلاء الاخيرون ، كانوا يجعلون من هذه القضية ، إحدى مرتكزات الحملة المعادية للأسلحة النووية ، وكانت هذه الحملة عنيفة في منطقة هيروشيما ونقازاكي . وهناك آخرون كانوا يؤمَلون نفوسهم باستعادة أراضٍ فقدوها وكانت على مدى التاريخ تخص اليابان .

وعندما التقى الرئيس جونسون ، رئيس الوزراء الياباني إيساكو ساتو في شهر تشرين الأول من عام ١٩٦٧ ، قيل لليابانيين ان المشكلة لن تسوى قبل عام ١٩٦٩ ، بسبب الانتخابات التي تجري في بلادنا . كانت مشكلة اوكيناوا عاجلة ، عندما استلم نيكسون زمام الحكم . لكنها لم تتأزم إلاّ في اليوم التالي للمحادثة التي جرت بين ساتو وجونسون . وعارضنا الرأي العام ، في

استخدام قواعد لعملياتنا العسكرية في فييتنام . وكانوا يزعمون كذلك ان زيارة حامل أسلحة نووية أمريكية إلى ساسيبو ، كانت بسبب نشاطاً اشعاعياً في الماء ( فأنكرت الولايات المتحدة حصول ذلك ، وأن لا علاقة لذلك بزيارة سفينة ) . وفي شهر شباط من عام ١٩٦٨ ، اتخذت الجمعية التشريعية في اوكيناوا قراراً ، يعارض بقاء الجزيرة قاعدة للطائرات B – 52 واحزاب المعارضة الاشتراكية ، اقترحت اقتراحاً مماثلاً على ( دييت Diete ) مجلس الشعب الياباني . وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٦٨ ، لدى اجراء اول انتخابات مباشرة فيها . انتخب اشتراكي لمنصب الرئيس التنفيذي لجزر ريو . كيو ، وأول اجراء اتخذه : اعلن انه سيشكل لجنة تكلف بدراسة الإلغاء التدريجي للقواعد ، واعادة جميع الجزر للسلطة اليابانية .

وفي اليوم التالي لحفلة تولية نيكسون ، طالبت باجراء دراسة بيوزارية لسياستنا نحو اليابان ، واضعاً قضية أوكيناوا موضع بحث في الدرجة الأولى ، ان الأهمية العظمى التي يعلّق عليها اليابانيون آمالهم في استعادة جزيرة اوكيناوا ، بحثت باختصار في اليوم نفسه ، عند أول اجتماع لمجلس الأمن القومي بعد استلام حكومة نيكسون ، ومن خلال أول اجتماع رسمي مع هيئة الأركان العامة المشتركة الذي جرى في السابع عشر من شهر كانون الثاني . فان رؤساء هيئة الأركان العامة ، كانوا يعتبرون ان قواعدنا في اوكيناوا ، كانت على أهمية عظيمة ليس فقط بسبب سهولة استخدامها لعملياتها في الهند الصينية ، ولكن أيضاً بالنسبة لوضعنا الستراتيجي في المحيط الهادي . وكانوا منذ الآن على استعداد لقبول وجهة نظر وزارة الشؤون الخارجية ، التي كنت اساندها ، وتقول ان عودة الجزيرة إلى السلطة اليابانية هو أمر سياسي . غير أنهم يريدون التأكد من حقهم في متابعة استخدام القواعد ، بأقل تدخل ممكن ( مؤملين عدم التعرض لأي منها ) وكانوا يتمنون كذلك حق خزن الأسلحة النووية فيها . واذا عادت جزيرة اوكيناوا إلى السلطة اليابانية وأخضع استعمالنا لقواعدنا فيها إلى القيود التي تمارس علينا في قواعد الجزر الأخرى اليابانية ، فيجب علينا ان نأخذ رأي اليابان المسبق ، لنتمكن من استخدام منشآتنا لأهداف عسكرية . وتستثني في هذه الحال امكانية تركيز أسلحة نووية فيها . وقبلنا في الواقع بتطبيق هذه القيود على الجزر الرئيسية ، إذ أن اليابان كان يوجس خيفة أن يكون ضحية لهجوم نووي . وهذا الوضع الجديد يجعلنا في حرج ، لأنه من الصعب علينا وجود قواعد قريبة أخرى لتخزين أسلحتنا النووية . إلا أني كنت عازماً على محاولة إيجاد حل بتعاون بسيط ان دراستنا البيوزاية كانت لاتزال في أوجها لإيجاد مخرج مُرضٍ ، فاذا برئيس وزراء اليابان ساتو ، يعلن لمجلس الشعب الياباني ( دييت ) في شهر شباط من عام ١٩٦٩ انه عازم على ضم اوكيناوا إلى

اليابان ورفع قضيتها أمام الحكومة الأمريكية الجديدة . وسكان أوكيناوا مساندة منهم لإعلان رئيس الوزراء اليابان ، قاموا بمظاهرة جماعية خارج مطار أمريكي ، محتجين على وجود طائرات B – 52 التي كنا نستخدمها في عملياتنا في الهند الصينية .

يجدر بي هنا ان اقول كلمة بين قوسين عن رئيس وزراء اليابان إيساكو ساتو . إنه ككل القادة اليابانيين ، كان يعمل بخفاء . ولم يظهر قط انه يستطيع تخطي الحدود القومية حين اللجوء الى اتخاذ قرار . وحجته كبيرة ، ولا يخالجها ريب البتة في انه هو نفسه الذي أسهم في وضع هذه الحدود . ومن نافلة القول انه كان يابانياً حقيقياً ، لكنه في الوقت ذاته صديق للولايات المتحدة ، اذ كان يرى في تقرب أعداء الأمس إلى بعضهم ، يشكل أقوى ضمان للتقدم في الشرق الأسيوي ومن منطقة المحيط الهادي ، كان اهتمامه الأول منصرفاً إلى خدمة بلده . وسياسياً كنا نراه محافظاً على الدفاع عن تحالف اليابان والولايات المتحدة . وكان ميله كبيراً للسلام . وكان في الوقت نفسه قادراً على ادارة المفاوضات الصعبة بدقة وحكمة عجيبتين ، ولا يستحق أن يُصاب بل أن تمّر عليه صعوبات كالتي مرّ بها نكسون . رحلة سرية الى بكين ، والأزمات الاقتصادية عام ١٩٧١ ، التي أثقلت كاهله في آخر أيام ولايته . ( كنا نعتقد في الواقع ، اننا لا نملك غير هذا الخيار ، كما سأبين ذلك فيما بعد ) لكن ساتو اظهر حنكة قوية في أن لا تمس هذه الأحداث المتوالية علاقاتنا المتينة . كانت شخصيته الفذة جداً موضوع تقدير واحترام عندي حتى انها حملتني على الذهاب خصيصاً الى اليابان في شهر حزيران من عام ١٩٧٢ في حين انه لم يكن باقياً له في منصبه سوى اسبوعين كرئيس وزراء ، وزيارتي هذه لاستشارته علانية ، أثناء تناول العشاء معه ، وأظهر له بكل تأكيد ما نكن له من تقدير واحترام . حتى اني لم أزر اليابان مرّة بعد ان تخلّي عن وظائفه ، إلا سعيت للقائه . وإني فخور لاستطاعتي اتخاذه صديقاً شخصياً لي . وعندما حصل على جائزة ( نوبل Nobel ) للسلام في عام ١٩٧٤ ، اعتبر هذه المكافأة توطيداً للعلاقات بيننا . وحسب تقديري ان ساتو كان يجد القوة الداخلية الحقيقية ، الفطنة والكرامة الممكن وجودها في اليابان . ولقد تخلى باكراً عمن يعتقدون بوجود السلام والحرية .

وبقدر ما كانت تتقدم أبحاث اللجنة البيوزارية ، كنت أعلم نكسون بما يصلي منها . وفي الثامن من شهر آذار ، ارسلت له مذكرة من هيئة الأركان المشتركة ، التي جاءني بها الوزير ليرد ، والتي كانت تعيد إلى أذهاننا اهتمامين خاصين بها وهما : تخزين الأسلحة النووية ، وحرية استخدام القواعد غير النووية في أهداف عسكرية . وبعد ثمانية أيام ، أرسلت إلى نكسون أيضاً

مذكرة جديدة ، أشرت الى المقومات الضرورية ، التي يجب ان يرعاها عند إصداره قراره . ان الجو السياسي حالياً كان يوضح عدم القدرة على الوقوف أمام الضغوط القوية في سبيل اعادة أوكيناوا الى اليابان . فلم تكن فقط المظاهرات العدائية لوجودنا في اوكيناوا ، هي التي تطالب وبشكل حسي عدم استخدامنا قواعدها . لكنها هي نفسها تعرّض للخطر موقف ساتو السياسي ، والحزب الديمقراطي الليبرالي ، المشترك حينذاك في الحكومة ، والذي كان نصيراً لسياسة موالاة اليابان للولايات المتحدة ، مؤكداً الإبقاء عليها منذ نحو عشرين عاماً . وبالاختصار ، كان من الأنفع لنا القبول بعدم اجراء فعاليات في المجال العسكري وعلى قواعد تعود ملكيتها الى السيادة اليابانية ، من التعرض لأخطار عسكرية وسياسية ، مع السعي للاحتفاظ بالوضع الراهن . وفي الواقع ، فان رفضنا المفاوضة حول تسوية ، يمكن تفسيره وبالنسبة لنا وعلى أية حال خسارتنا لهذه القواعد .

ولأول مرة ، كانت الحكومة الأمريكية توحد رأيها حول مشكلة ما . نحو شهر نيسان ، كنا على وشك الوصول الى اتفاق على المبادئ الأساسية لسياسة عامة سنتبعها تجاه اليابان . كان يعلم كل منا ، ان اليابان يشكل حجر زاوية سياستنا في آسيا ، وأن هدفنا الرئيسي هو في توطيد علاقاتنا مع هذه البلد . كنا نرغب صادقين في تجديد المعاهدة الامنية دون تعديل بعد عام ١٩٧٠ ، شريطة عدم تعرض اليابان الى نكسات داخلية بسبب هذه المشكلة . وكانت نيتنا في تشجيع اليابان للقيام بدور أكبر في سياسة آسيا ، وأن يقوي تدريجياً قدرته الدفاعية دون ان نمارس عليه أي ضغط في سبيل تنميتها . أكد على هذه المبادئ بتاريخ الخامس والعشرين من شهري نيسان . لدى اجتماع فريق الدراسات ، وأحرزت موافقة نكسون عند اجتماع مجلس الأمن القومي في الثلاثين من شهر نيسان نفسه .

وجرى تقدم مماثل بالنسبة للجوانب التقنية لاعادة الجزيرة . إن رؤساء الأركان العامة ، كانوا قد اتفقوا على تقليص عدد قواعدنا في جزيرة اوكيناوا ، وكان الجميع يعتقدون ، ان عند استحالة حصولنا على تفويض من اليابانيين ، في استعمال قواعدنا ودون قيود ، لاجراء عملياتنا العسكرية خلال آسيا ، يجب علينا الاكتفاء بحقوق محدودة في سبيل الدفاع عن كوريا ، وتايوان وفييتنام ، بمساندة من اليابانيين في ما يتعلق بوضعهم في عمليات الدفاع المشتركة في آسيا . وفي الحقيقة ، لم يكن كل ذلك سوى وجهات نظر ، دون أقل فائدة عملية ، إذ كان من الصعب علينا تحديد المناطق الممكن الدفاع عنها بدءاً من أوكيناوا . لكن الموضوع الرئيسي للنزاع هو ان رؤساء الأركان العامة كانوا لا يزالون مصممين على امكانية تخزين أسلحة نووية

على أرض الجزيرة . وخلال اجتماع مجلس الأمن القومي الذي جرى في الثلاثين من شهر نيسان ، فان أليكس جونسون ، نائب وزير الشؤون الخارجية ، المكلف بالشؤون السياسية وسفير قديم في اليابان ، أوجز المشكلة الرئيسية بما يلي :

اذا فكرنا بهذا الموضوع ملياً ، نجد ان تخلينا عن جزيرة أوكيناوا ، يمكن أن يحمل اليابان على تحمل مسؤوليات أضخم في تأمين الاستقرار والدفاع ، اللذين هما دوماً مهددّين ، ومن قبل بلدان آسيا ، ويجب علينا ، بشأن موضوع الأسلحة النووية ، ان نظهر لليابانيين اننا نقدر جيداً تحسسهم من هذا الأمر .

ان المفاوضات حول موضوع أوكيناوا ، التي تلت اجتماع مجلس الأمن القومي ، تُظهر التوتر العنيف الذي نتمكن من اجتنابه ، مع زيادة الفعالية ، التي توصلت إليها حكومتنا ، فيما اذا نظّم كل من البيت الأبيض ووزارة الشؤون الخارجية ، مواضيع المفاوضات والجو الذي يبشر بالتفاهم عليها وعلى مواضيع أخرى . وفي سبيل تنفيذ القرار الذي اتخذه نكسون في اليوم الثلاثين من شهر نيسان ، فلقد كلف اليكس جونسون بمتابعة سياق الأمور يومياً في واشنطون ، في الوزارات المختلفة ، وأدار السفير أرمين ماير مفاوضات توكيو بمهارة . وبالنسبة لي ، كانت مهمتي إيجاد مناخ عام مقبول لهذا القرار ، والتوسط لدى اليابانيين بشأنه في الفترات الحرجة . وكنت أقوم . بمهمتي ، مظهراً للناس ان الرئيس يتمسك بما تنتهي اليه المفاوضات .

وفي ضوء هذه الأفكار ، تحادثت في الحادي والعشرين من شهر أيار ، مع السفير الياباني ، تاكيسو شيمودا ، عن الطريقة التي سيقوم بها اليابان بالدور الذي سيُكلف القيام به في آسيا . فأعلمني السفير . ان اليابان على استعداد لتحمل مسؤوليات أكثر أهمية ، فيما اذا سويت قضية اوكيناوا في عام ١٩٦٩ . لدى سماعي ما جاء في جوابه ، تأكدت ان طروحاته لم تكن لتشكل ، التزاماً محدداً وحقيقياً ، وتمسكت في الوقت ذاته على تأكيد الرئيس في اجراء المفاوضات ، بروح إيجابية .

وفي آخر شهر أيار ، أبلغ قرار نكسون ، حول القضايا التقنية ، الى الأقسام المختلفة ، وقد جاء مؤيداً للوفاق الذي حقق بشأنه عند إجتماع مجلس الأمن القومي ، واذا توصلنا الى اتفاق مُرضٍ ، حول استخدام قواعد للدفاع عن كوريا ، وتايوان وفييتنام ، فان نكسون سيعيد اوكيناوا الى اليابان ، ويحتفظ لليابان بتأثره نحو المشاكل النووية ، وبمقولة أخرى انه كان يقصد من وراء

كلامه ذاك ، عدم المطالبة بحق تخزين أسلحة نووية على أرض الجزيرة . وبعد أقل من أربعة أيام ، من اعلان القرار الرئاسي ، فقد تسرب مضمونة الى نيويورك تايمس . والموقف الذي كنا بصدد الدفاع عنه خلال المفاوضات ، وجد مطبوعاً أمامنا قبل بدء تلك المفاوضات .

بدأت المفاوضات الرسمية ، بين موظفين امريكان ويابانيين ، وبصورة حسنة في شهر حزيران من عام ١٩٦٩ وبالطرق الدبلوماسية . ووضعت في الوقت ذاته ، قضية أخرى على بساط البحث ، ولم يكن لها أدنى علاقة بجزيرة اوكيناوا لكنها مرتبطة بها ترابطاً متيناً ، ألا وهي قضية الصناعات النسيجية . وفي حين ان مفاوضات جزيرة اوكيناوا وكانت مثالاً لسلوكية سياسية رفيعة ، كانت قضية الصناعات النسيجية ، مسرحية رديئة ، رافقتها خيبة أمل وفشل عام تقريباً .

ولأسباب مختلفة ، كان ميزاننا التجاري مع اليابان يعاني عجزاً مرمناً ، واذا سلّمنا بوجود ما يدّعيه اليابانيون ، وانه ناتج عن قوة الانتاج الياباني ، أو بسبب إغراق اليابان الأسواق الأمريكية ببضائعه ، والموانع الجمركية المرتفعة التي كان يقيمها ليمنع دخول البضائع الأجنبية لمنافسة أسواقه ، الأمر الذي تصدّى له خبراؤنا وأثبتوه ، ولكل هذه الأسباب مجتمعة ، فان الصادرات اليابانية إلى امريكا ، وطبعاً تلك التي تتعلق بالمنتوجات المصنعة ، كانت تفوق وبكل وضوح ، الصادرات الأمريكية الى اليابان . واذا سهل على اليابان الدخول إلى أسواقنا ، فلم تكن له الميزة في مجالات أخرى وكانت النتيجة ان المنافسة اليابانية انتهت الى تشكيل تهديد رسمي للعديد من صناعاتنا الأمريكية ، وتوصلت الى جعل وجودها في خطر ، وأصبح أمر تعطيلها يهيمن عليها . ومن جهة أخرى ، فان رجال الأعمال ، والمشرعين ، والمسؤولين الاقتصاديين من الأمريكان ، كوّنوا صفاً واحداً ، لإيجاد طريقة لتلطيف الموقف الياباني الاقتصادي ، وللتمكن من تهيئة أرضية للاجراءات التي ستتخذها الولايات المتحدة حول قضية أوكيناوا . إن منظماتنا الاقتصادية ، التي يمثل كل منها مصالح مختلفة ، كانت تمطر اليابانيين سيلاً من الطلبات ، ومن هذه الطلبات ما كان يحبّذ تقليص الصادرات اليابانية من الصوف والخيوط التركيبية ، أو إنقاص القيود المفروضة على المستثمرين الأمريكان . وفي الحقيقة ، فان هذه الكثرة في الاقتراحات ، كانت بعكس مصالحنا ، لأن اليابانيين بدورهم ، كانوا يختارون من بينها تلك التي تكلفهم قليلاً . ولما كان اليابانيون يقومون بسياسة مترابطة ، فلم نكن لنوجه اليهم سوى سلسلة من الطلبات مستقل بعضها عن البعض الآخر . وهذا كان يسمح لهم الخيار ، بين الامكانيات الكثيرة التي كنا نتقدم بها اليهم ، ويختارون منا غير الملزم ، والتي كانت تشكل غالباً مواد لم تعد مفيدة للمصدرين اليابانيين . وقد عزم اليابانيون على إطلاق حرية المبادلات الاقتصادية ،

بشروطها الموضوعة على المستثمرين الأمريكان في اليابان ، مع معرفتهم التامة لكل الفوائق الأدارية ، والاجتماعية والثقافية ، التي تكمن وراء القوانين المكتوبة ، ولقد تمادوا الى اقتراح انضمام خطر مع كريزلر . فأبلغت نكسون بذلك ، وطلبت منه تحديد أفضلياتنا بوضوح . فرأى اني كنت على صواب فكتب على مذكرتي المرفوعة إليه : ( ان تحرير رؤوس أموالنا الاستثمارية ليس جوهرياً بالنسبة لنا في المجال السياسي ، لكن الذي يلزمنا ، هو الحصول على ضمانات في قضية المبادلة النسيجية ) .

ان المشكلة المبادلة في المصنوعات النسيجية ، كانت نقطة هامة بالنسبة لنكسون اذ ان الصناعة النسيجية في جنوب الولايات المتحدة ، كانت تعتمد على عدة فروع منها ، وتأثرت هذه بسبب المنافسة اليابانية ، حتى ان عدداً كبيراً من مصانعها قد أغلق . أضف الى هذا ، انها كانت تمثّل جماعة ضغط قادرة ومؤثرة ، وهذا ما كان قد حدا نيكسون ، خلال حملته الانتخابية في السنة السابقة ، أن يعد وبصورة قاطعة ، مندوبي ومنتجي الجنوب ، في إطار هذا الترتيب الأمريكي الخطير ، الذي يتزامن من السنوات الكبيسة ، وعدهم أن يقدم لهم بعض النفع .

ان الحكومة الجديدة كانت عازمة على المحافظة على وعود نكسون ، ووزير التجارة ، موريس ستانس ، ومستشار البيت الأبيض : روبيرت اللزوورث وبيتر فلانيفان ، كانوا يطلبون ، لقاء سريعاً باليابانيين ، ليحصلوا منهم على تأكيد بتقليص صادراتهم النسيجية . ولما كنت بعد مبتدئاً في هذه الشؤون لم أعتقد بوجود إخضاع قطاع خاص الى اختبار منفصل ، قبل إكمال بحوثنا السياسية والاقتصادية ككل . وضعت هذه القضية على الرف ، منكبا وراء كيفية السير باتخاذ القرار الذي رأى مجلس الأمن القومي وجوب اتخاذه . ودون شك سأعرف قريباً ما كان يكلفنا : وأعلمني نكسون بعبارات ليس فيها غموض انه كان يرغب في الوصول الى اتفاق حول الصناعات النسيجية ، وإذ كنت مستشار الرئيس ، كان علي أن أسهم في تحقيق هذه الأمنية . وكان القول فيها أسهل من العمل ، وجهلي للموضوع كان عجيباً . وكان علي أن اتفهم كل الاصطلاحات التجارية الدولية كالتقنيات الخاصة بالتصدير ، والتعقيدات المذهلة لنقاط الانطلاق ، التي على أساسها يبدأ تطبيق التخفيضات المطلوبة ، وأيضاً الأصناف التي ستخضع للتقليص، وكل شيء استطعت ولحسن الحظ ان أمحوه مجدداً من ذاكرتي . والشيء الوحيد الذي بقى عالقاً في ذهني ، هو الرعب الذي دبّ في قلوب خبرائنا الاقتصاديين ، أمام مهارة اليابانيين ، الأمر الذي أجبرهم خلال المفاوضات ، ان يعرضوا كل أصناف المنسوجات ، خوفاً فيما اذا نسيت إحداها ، يستفيد اليابانيون المحتالون من هذه الثغرة ، ليتهربوا من الاتفاق بمجموعه .

وهكذا وجدت نفسي ، بكل رأس وأسف ، مرتبكاً في هذه المفاوضات ، كان يقوم دوري ، بمهر جميع الاقتراحات التي كانت تقدم الي من قبل موريس ستانس وبيتر فلانيفان ، مهرها بالخاتم الرئاسي ، فلم يكن مطلوباً مني أن اناقشها ، لأنني اذا تخلصت من الورطة التي أوصلوني اليها ، لا يبقى عندي أي فكر مفيد يخدم القضية . مثلما جرى معي في مفاوضات لاحقة ، حول مواضيع نقدية ، التي شاركت فيها بحضور بومبيدو ، اذ لاشيء استطاع ان يجعلني أغير رأيي ، لأنني من جهتي ، لم تكن عندي امكانية عرض أمر معاكس ، وكذلك لم تكن عندي أية فكرة عن الموضوع ، وكان على الجهة المفاوضة القبول برأيي ، اذا كانت راغبة في اجراء اتفاق .

وجدت نفسي متورطاً في هذه الأمور ، بدءاً من اللحظة التي أوفد بها ساتو ، على الطريقة اليابانية ، أحد أصدقائنا أنا وهو ، لاستطلاع رأيي ، والذي لم يشغل أية وظيفة في الحكومة الحالية . وكان الرجل الذي لا يتمتع بأية مسؤولية ، يفاوض الآن رجلاً غير ذي اطلاع ، والواحد مثل الآخر كانا قادرين على العدول عن موقفيهما . فألّفنا في الحال مشهداً في مسرح كابوكي ، حيث كان كل ما طرحنا من مبادئ متشابه . وجاء موفد ساتو لمقابلتي في الثامن عشر من شهر تموز ، فنظمنا حينئذ سلسلة لقاءات سرية ، التي كانت تجنبنا المرور بادارات بلادنا ذات العلاقة ( وهذه المرّة كغيرها من المرّات ، وبسبب جهلي للموضوع ، أطلعت وبعناية دقيقة على هذه الأمور جميع الاختصاصيين من الامريكان ) . وكان ساتو يتمنى الوصول الى مفاهمة مع نكسون ، على كل القضايا الأساسية ، ذات العلاقة في المشكلة النووية والصناعات النسيجية . وعند إيجاد حل للقضية الأساسية ، فان المرجع الاداري لكل واحد منّا ، سيصبح مكلفاً بوضع التفصيلات ، طلبت مقابلة نكسون لأعلمه موقف ساتو ، فأخذه السرور والحماس : ( لنحاول أن نعمل كذلك ، وعدم إضاعة وقتنا بالعودة الى وزارة الشؤون الخارجية ) .

كان نكسون يتصف ببعد النظر ، فيما يخص علاقاتنا باليابان . أضف الى ذلك ، فقد كان كتب في عام ١٩٦٧ ، في مقال نشر في مجلة الشؤون الخارجية ( آسيا بعد فييتنام ) .

« ان عدم العهدة الى اليابان ، في الوقت الحاضر ، بقواتها الخاصة المسلّحة ، ومسؤولية دفاعها عن ذاتها ، يعتبر اساءة لشعبها وحكومتها ، مهما كان السبب ، ويعيق اكمال الدور المطلوب وبصورة أكيدة تأديته ، للمشاركة في الحفاظ على أمن كل البلاد غير الشيوعية في آسيا» .

وفي المقال نفسه ، كان يوافق نكسون على الدور الكبير ، الواجب على اليابان القيام به ، في سبيل المحافظة على الأمن في المنطقة ، مقارناً إياه حسب وجهة نظره مع تطور دور الولايات المتحدة .

« ان كثيراً من الأمريكيين : بعد ان أنهكتهم الحرب ، وأوهت عزيمتهم مواقف حلفائهم ، وضاع منهم كل أمل بالمساندة ، وحطمتهم الأزمات الداخلية ، ان هؤلاء الأمريكيين ، هم على استعداد لجعل أنفسهم في عزلة جديدة . وليسوا هم الوحيدين في هذا المجال . ان مجموعة البلدان الغربية لديها ميل بالانطواء على ذاتها ، ولما كانت لا تسعى إلاّ الى مصلحتها ، فهي تريد انعزالية شديدة . ولكن لن يكون هناك أمن أو سلام طيلة جيل ، اذا لم نعرف أن آسيا ، حيث يعيش أكثر من نصف سكان العالم ، تحركها قدرات عظمية ، وتشكل أكبر مخزن بارود في العالم »
.

أمضيت بعض أيام مع الموفد الياباني ، في دراسة المواضيع المختلفة ، قبل اللحاق بالرئيس في رحلته الى مكان هبوط أبولو الحادي عشر ، ومن ثم حول العالم . اتفقنا على الخطوط العريضة ، في موضع النسيجيات ، الذي يجب أن تجري المفاوضات بشأنه بالطرق الدبلوماسية . وأجلنا إلى موعد لاحق دراسة المشكلة النووية .

ان هذا الجوّ المحبب . اكتنفته بعض الغيوم ، بسبب أحد الأوضاع المبهمة والطارئة ، والتي اذا وجدت ، تظهر وكأنها تدوم أبدياً . كان الجيش الأمريكي فقد خزن في مستودعات جزيرة اوكيناوا غازات مسببة للشلل ، وإن أحد القادة ، ممن كان متوفراً لديهم الفنّ الجمالي ، أكثر وبكل تأكيد من الفن العقلي عزم أيضاً على طلائها بالأبيض . وخلال صقل سطح المستودعات ، فإن بعضاً من هذه المستودعات ، ثقب عرضاً ، وسبب تسرب بعض الغاز . فاستغل الشعب والكونغرس هذا الحادث حالاً . وكانت عيون الكل في اليابان متجهة نحو أوكيناوا . وطيلة أسبوعين ، أمضى أناس رسميّون مجمل وقتهم في معرفة مكان في الولايات المتحدة ، يمكن نقل هذا الغاز إليه ، في حين لم تكن هناك ولاية ما ، تقبل ان يمرّ بأرضها ، قبل التوصّل الى معرفة مصيره . ونقل أخيراً الى وسط المحيط الهادي ، الى جزيرة جونستون ، حيث أتلف . وبعد ان سمح الرئيس لروجرز ، ترك هذا الحاشية الرئاسية التي كانت تتابع رحلتها والرئيس في الجنوب الشرقي الأسيوي ، وتوجّه أي روجرز في آخر شهر تموز ، الى توكيو ، ليتابع فيها مع اليابانيين المحادثات الرسمية حول قضية أوكيناوا . وكان يرافقة موري ستانس ووزير الزراعة كلايفورد

هاردين ، الذين انضموا إليه في محادثات على مستوى وزاري في القضايا التجارية والاقتصادية . والاعلان الذي ابلغ عن نهاية الاجتماعات أوضح فقط : ان روجرز ومثيله الياباني : كيشي آيشي كانا قد ناقشا التعويض على اليابان عن حقوقها الادارية في أوكيناوا . لكن اليابانيين لم يفتهم ان يعلنوا للصحافة ، في ان والولايات المتحدة قبلت بمبدأ إعادة جزيرة أوكيناوا ، الأمر الذي أثبته روجرز في مؤتمره الصحفي بتاريخ الثالث من شهر آب . وهذا شجع نكسون وساتو في لقائهما الأول ، على عدم مناقشة سوى النقاط الهامة ، في إطار المحادثات الخاصة التي كانت شبه ثابتة .

سارت المفاوضات في جوّ ملائم جداً ، حتى ان ساتو دُعي الى واشنطون في شهر تشرين الثاني ، لحضور الاجتماعات النهائية ، التي يُزمع حل مشكلة أوكيناوا خلالها نهائياً . وفي الواقع ، بقي أمام المجتمعين تسوية مشكلتين : مشكلة تخزين الأسلحة النووية على الجزيرة ، التي كانت واضحة وضوح الشمس . ومشكلة النسيجيات ، التي لم تتبلور الأفكار حولها ، خوفاً من تقويض القاعدة السياسية ، التي يتمتع ساتو في بلاده . وكان فريق البيت الأبيض السياسي يعود إلى كثيراً ، وكان الرئيس في الوقت ذاته ، يعتمد عليه في الوصول إلى حل لهذه المشكلة الأخيرة . ومع ذلك كنت بعيداً عن الاغتباط بفكرة ربط مشكلة لها أهميتها الرئيسية في المجال الستراتيجي ، مع مشكلة طرأت على السياسة الداخلية ، وكنت أرى في الواقع ، عدم اجراء أي ابتزاز بالنسبة لليابانيين في أمور من هذا النوع . ولسوء الحظ ، لم أكن عام ١٩٦٩ ، في وضع قوي يمكنني من معاكسة رأي الغالبية .

ولما كان من عادة نكسون ، السعي لاجتناب مجابهة مع ساتو ، فان هذا كان يعود الى ثقافة كل منهما . ومع ذلك ، فان الزعيمين ، كانا فعلاً بحاجة للبحث في أقل التفصيلات لوجود مخرج للمفاوضات . ولأجل هذا ، فان موفد ساتو ، وصل قبل عشرة أيام من موعد مجيئه ، لنهيء معاً ، نقاط الاتفاق الهامة ، التي كنا نأمل الوصول إليها ، وصيغة الاعلان الذي سوف يعطى للصحافة . أما إليكس جونسون ، والوزير المعاون مارشال غرين ، اللذان كانا على اطلاع ، على ما يجري من محادثات سريعة مع موفد ساتو ، فقد اشارا عليّ بالحاح ، ألاّ آتي على ذكر ما يفكر به الرئيس من حيث تخزين الأسلحة النووية إلا في آخر لحظة من محادثاتنا ، علنا نحصل على معظم التساهلات في المشكلة النسيجية . فأبلغت اذاً وبكل بساطة الموفد الياباني ، ان القرار النهائي حول المشكلة النووية ، لا يمكن اتخاذه إلاّ بعد وصول ساتو . حتى يكون ذلك القرار من صنعه هو عند حضوره .

وأثمرت هذه الستراتيجية وعلى أمد قصير ، ولم يكن ساتو على استعداد للموافقة . كان موقفه حرجاً ، ومادام هو موجوداً ، فلا يسمح بفشل المفاوضات التي تدور حول قضية الأسلحة النووية ، دون تحريك في الوقت ذاته للمعاهدة الأمنية مع الولايات المتحدة ، التي تشكل ركيزة السياسة الخارجية اليابانية . ولأجل هذا ، فان الموفد ، صارحني أن ساتو كان على استعداد لقبول تسوية عمومية ، التي تلتزم اليابان بموجبها تحديد صادراتها النسيجية باتجاه الولايات المتحدة ، الى ميات معينة . عندئذ سلمني ستانس مشروع تحديد ، نقلته بدوري كما هو الى الموفد الياباني ، لأن الأمر الذي يتعلق بي ، هو ان يكون هذا المشروع مكتوباً باللغة اليابانية . عاد الموفد الياباني الى بلاده لإبلاغ ساتو بما جرى . فأخبرنا بعد بضعة أيام ، ان المواضيع المقترح تحديدها قبلت جميعها . وكانت كل الظروف تتجمع وتبدو وكأنها تدعو إلى اجتماع مجدٍ بين نيكسون وساتو .

وقبل يومين من وصول ساتو ، تلقيت من طوكيو مكالمة هاتفية غريبة . انه كان موفد ساتو ، الذي حتى يخفي هويته ، ويخدع لمدة دقيقتين ، أعضاء المصالح السرّية ، المحتمل وجودهم على أجهزة التصنت ، واتخذ الأسم الحربي ليوشيدا ، وتكلم بطريقة تنكرية عن ( صديقي ساتو ) و ( صديقك نيكسون ) ، بغية عرض القضية على الهاتف وباختصار . ( ان المحادثات بلهجة ( صديقي / صديقك ) كادت تصبح عنصراً من حياتي مدة طويلة جداً ، وأخيراً جعل محاكمتي العقلية عرضة لاختبار قاسٍ ) . خلال هذه المحادثة ، أبلغني الموفد أن ساتو ( صديقي ) لا يستطيع تسوية قضية النسيجيات عن طريق مفاوضات سرية ، ولن يكون في وضع يؤهله للقيام بما وعد به . وفي الحقيقة ، ولأسباب سياسية داخلية ، كان يفضل ان يبقى الوضع الذي اتفقنا عليه كما هو ويكون سبباً لإحياء المحادثات التجارية الرسمية التي كانت تجري حينذاك في جنيف . وأكّد لي ( يوشيدا ) ان الاتفاق سيجري وبصورة جيدة على الأرقام المتفق عليها ، وبالإضافة إلى ذلك ، فان هذه الفترة الإضافية ، ستترك وقتاً لليابانيين للاقتناع رسمياً بأسس هذا الاتفاق . فأخذت رأي جميع الفرقاء أصحاب العلاقة في داخل حكومتنا الذين بعد الإطلاع صدقوا طريقة العمل ،. وكدنا نعرف وبحدود ، ما سوف يجري . فاذا كان ساتو لا يملك القوّة الكافية ، لاعطاء موافقته في حين ان اوكيناوا ، لا تزال تتأرجح في الميزان ، فلن يكون قادراً على انهاء المشكلة طالما ان المفاوضات تجارية بحتة ، وحيث يجب على اليابانيين أنفسهم التقدّم بتساهلات ، أو في حالة قيامنا بضغوط جديدة .

وصل ساتو إلى البيت الأبيض في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني ١٩٦٩ . وكان ساتو بلداً يرتكز أمنه وسياسته الخارجية وبصورة كاملة على الولايات المتحدة . ان اليابان كان يعتمد على قدرة وتحديد ونفوذ بلادنا . وفي الواقع ، عند شرب الأنخاب ، الذي جرى هذا المساء ، والذي أقيم في حفلة عشاء على شرفه ، فان ساتو أطنب في المديح ما حققه الأمريكان بنجاحهم في إيصال أبولّو /١٢/ إلى سطح القمر ، وكان هذا بالنسبة له ليس فقط نصراً للقدرة التنظيمية الخارقة في الولايات المتحدة ، بل كذلك لبعد نظر وشجاعة الشعب الأمريكي .

وكان لقاؤه مع نيكسون ينّم عما كان يخالج فكره . ووجد ساتو لدى نيكسون أفكاراً دقيقة تشابه أفكاره . هذا ما عدا الواقع الذي أضفناه وجوده على العلاقات الأمريكية اليابانية ، ونيكسون الذي كان قد قام بزيارة اليابان ست مرّات ، بصورة افراديّة ، وكان يكن لقادته وكفاءاته كل تقدير . ولا سيما انه كان يعجب كثيراً من إخلاص ( إخيه ساتو ) ونوبيسيك كيشي ، رئيس الوزراء السابق ، الذي كان قد قدّم استقالته بسبب الإرباك الذي أوقع فيه نفسه قديماً حين ألغى موعد الزيارة التي كاني يزمع ايزنهور القيام بها عام ١٩٦٠ . وكان كذلك يعرف ويقدّر ساتو .

أكّد ساتو ان حكومته ترغب كثيراً ، في بقاء المعاهدة الأمنية نافذة ولسنين طويلة . أضف إلى ذلك فان اتفاقاً على مشكلة اوكيناوا يقوم بدور عظيم في تخفيف المعارضة حول العلاقات الأمريكية اليابانية . و اكد ساتو ، ان اليابان سيصبح قادراً ، في حال تسوية هذه المشكلة ، على زيادة قوته الذاتية الدفاعية . وبالنسبة لنيكسون ، بعد ان أكد على التزامه الشخصي لليابان ، أعاد إلى الأذهان ، ما كان قد نشره في مقال في مجلة الشؤون الخارجية عام ١٩٦٧ وشجع اليابان ، على القيام بدور أكبر في الدفاع عن منطقة المحيط الهادي وبيّن عن سروره من الجهود التي بذلتها اليابان حديثاً لتنمية قواها الجويّة والبحرية . وكان نيكسون يرجو في الوقت ذاته ان يتمكن اليابان من المساهمة في نفوذ مجموعة البلاد الحرة في آسيا ، باذلاً عوناً اقتصادياً وتقنياً ، للشعوب النامية في هذه المنطقة من العالم . فأقرّ ساتو هذه الاقتراحات ، وفي الواقع ، فان الاعلان المشترك أكد كثيراً على العون الذي يقدّمه اليابان في سبيل أمن كوريا الجنوبية ، وتايوان وفييتنام الجنوبية . وأكد اليابان كذلك ، وبصورة عامة ، انه سيساهم وبنشاط أكثر في أمن وازدها آسيا . ولترجمة هذه الاقتراحات العامة بطريقة موضوعية ، فلقد جرت لقاءات خاصة بين توكيو وواشنطن . ( وهذه المبادرات الحيوية من قبل اليابان ، استقبلت مبدئياً بغير رضى من قبل الصين . ولدى أول زيارة لي إلى بكين ، اتهمنا شوان لاي اننا نحرض اليابان على سلوك طريق القوميّة التقليدية . ولزم لي بعض الوقت حتى تمكنت من إقناعة : ان التحالف

الأمريكي . الياباني ، لم يكن موجهاً ضد الصين ، والصحيح ، ان الواسطة الأكيدة لجعل اليابانيين قوميين هي في اجراء منافسة بين الصين والولايات المتحدة ، لمعرفة أيّ من هذين البلدين حائز على رضى طوكيو .

والنتيجة الفعلية لكل ما جرى حول قضيّة اوكيناوا ، كانت في العودة إلى تفسير هذه العبارة الفلسفية ، التي تشير إلى ما تستفيده اليابان من أمن كوريا وتايوان وفييتنام ، والذي جاء فوضح مبدأ الحق الأساسي وغير المحدود للولايات المتحدة في استخدام الأسلحة المتفق عليها للدفاع عن هذه البلاد . وبقي اذاً موضوع الأسلحة النووية . ان نيكسون كان على تفكيرنا متجهاً إلى ضرورة ايجاد وسيلة في إبقاء حقنا بإعادتها ثانية إلى الجزيرة في حال الضرورة . وسببت هذه المطالبة مناقشات حادة بيني وبين يوشيدا ، حول إيجاد حلّ يرضي المتطلبات الداخلية للطرفيين . وكان اليابانيون يفضلون الاعلان عن البت بالأسلحة النووية بموجب سياسة الحكومة اليابانية ، حسبما بينها رئيس الوزراء ، وهذا الاعلان في حدّ ذاته لم يكن يعني شيئاً . وكان يؤمل ان يرى فيه اليابانيون مبادهة لمنع إدخال أسلحة نووية .وبالنسبة لرؤساء أركاننا فانهم كانوا يطالبون بصيغة مهما كان نوعها ، يتمكنون من الاستناد إليها ، في إعادة إدخال أسلحة نووية في حال الضرورة . وبمعنى آخر ، كنا على استعداد لاجراء محادثات دون جدوى ، لأن قراراً هاماً كهذاً ، حول إدخال أسلحة نووية ، لا يتعلق بشروط اعلانات سابقة ، لكنه ينبعث من ظروف الساعة . ومع ذلك فان إعادة الجزيرة لا يكون إلا بقرار من قبل البلدين صاحبي العلاقة ، وهذا أمر لا يصبح ممكناً إلاّ في حالة إيجاد حلّ لمأزق سببّنا القسم الكبير منه .

و اخيراً وجدت أنا وأليكس جونسون صيغة لبقة ليس لها أي معنى والمعاهدة الأمنية بين أمريكا واليابان ، كانت تنص على اجراء مشاورات مسبقة في الظروف الحرجة . ولو عدنا بالذاكرة إلى هذا الشرط المنصوص عنه في الاعلان ، فان كلاّ من الفريقين سيجد فيه ما يرضيه ، وساتو يتابع المدافعة عن موقف حكومته ، ضد الأسلحة النووية ، ويستطيع نيكسون الادعاء ان هذا الشرط يسمح له بإثارة مشكلة الأسلحة النووية على جزيرة أوكيناوا ، حتى ولو لم نكن في وضع حرج . طرحت هذه الفكرة على يوشيدا الذي حظي بموافقة ساتو عليها .

بقي علينا معرفة تحقيق هذه الفكرة ومن هو الذي سيتولى تنفيذها . فقمت انا ويوشيدا بحوار تفصيلي حول هذا الموضوع ، فاطلع عليه ساتو من قبل يوشيدا ونال قبوله .

سيفتتح ساتو النقاش ، معيداً إلى الأذهان ، موقف حكومته الرسمي ، الذي يتخلص بمعارضة أي ادخال للأسلحة النووية إلى أراضيها . سيعترض نيكسون ، عارضاً موقفنا الحازم . وبعد بضع دقائق من التفكير ، أشار ساتو حينئذ إلى التسوية التي كنا قد توصلنا إليها سابقاً . وبعد اجراء توازن بين النافع والضار من خلال هذا الحل ، وفي سبيل منفعة كبرى من الموظفين ( أو على الأقل من الوثيقة الرسمية ) قبل نيكسون تسوية ساتو . وبهذه الطريقة ، كانت الفكرة مطروحة من قبل اليابانيين وغير مفروضة عليهم . وهكذا فان الوثيقة الرسمية ستكون جدّ طبيعية .

ولّما سويّت هذه القضية الشائكة ، فان تبعاتها لم تُثر أية مشكلة . واتفق نيكسون وساتو على أن تعود الحقوق الادارية في الجزيرة ( اوكيناوا ) الى اليابان ، كما اتفقا على بدء المحادثات التقنية ، متخذين هدفاً موعد اعادة جزيرة اوكيناوا إلى اليابان في عام ١٩٧٢ ( تقيد الفريقان بهذه الفترة ، اذ أن اوكيناوا أعيدت رسمياً إلى اليابان في الخامس عشر من شهر أيار عام ١٩٧٢ ) وسويت أيضاً قضيّة استخدام القواعد عند نشوب أي نزاع تقليدي ، عندما صرّح الطرفان عن اتفاقهما على إعادة الجزيرة إلى اليابان ، دون المساس بأمن الشرق الأوسط ومنه اليابان طبعاً . وبالنتجية فان هذا لا يمنع أبداً الولايات المتحدة من القيام بالتزاماتها الدولية لتأمين الدفاع عن بلاد الشرق الأوسط ، بما يكون اليابان . ان الاعلان النهائي حول زيارة ساتو كان يبين ان الرئيس نيكسون يتعهد ، فيما يخص جزيرة اوكيناوا ، ان يقدّر جيداً معارضة الشعب الياباني لوجود أسلحة نووية على أرضها . وبمقولة أخرى لن تخزّن بعد أسلحة نووية على أرض جزيرة اوكيناوا ، ولا على باقي الأراضي اليابانية ، لكن دون أن يحلق ذلك ضرراً بالمشاورات الممكن اجراؤها عند الاقتضاء بين البلدين ، في حال الضرورة ، كما يتضح ذلك في المعاهدة الأمنية . فتقدم ساتو من نيكسون وبصورة افرادية ، بشكره العميق لقاء قراره الشجاع بإعادة اوكيناوا إلى اليابان .

وهكذا انتهت هذه المفاوضات التي كانت تجرى بفطنة وسياسة لبقة . لكن الأزمات التي تحاشيناها لم تظهر بعناوين بارزة في الصحافة . كنّا نتخلّى ظاهرياً عن اوكيناوا ، في حين ان الحقيقة هي محافظتنا على العلاقات الأمريكية اليابانية . وكنا نسحب أسلحتنا النووية من الجزيرة ، ونقبل في الوقت ذاته ولو جزئياً ، تقليص استعمال أسحلتنا التقليدية . وفي حدود هذه الاجراءات لم نكن قد فقدنا كل شيء . وفي الواقع فان قواعدنا بقيت على عملها منذ عام ١٩٧٢ دون تدخّل خارجي ، أو معارضة ذات قيمة من الرأي العام ، وأضف الى ذلك . فان

المفاوضات حول جزيرة اوكيناوا ، سمحت لنا بتقوية علاقاتنا مع اليابان . وكان نيكسون على تفاؤل عظمي ، ولم يكن مخدوعاً عندما أعلن عند سفره ساتو : ( حسب العرف والعادة أن يقال ، في ظروف مماثلة ، ان قد فتح عهد جديد في العلاقات بين البلدين ذات العلاقة . ومع ذلك فاني أوكد ان عهداً جديداً يفتح اليوم في العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان ، وفي المجال الثنائي في المحيط الهادي وكذلك في المستوى العالمي . وباللهجة ذاتها أجاب ساتو برسالة وصلت منه للرئيس نيكسون :

اني على ثقة ، ان بلدينا قد دخلتا الآن في عهد تعاون متبادل ، يرتكز حالياً على دعائم أقوى من ذي قبل .

ولقد أصبحنا في سعادة كبرى ، عندما علمنا ان الانتخابات العامة اليابانية التي جرت في اليوم التاسع والعشرين من شهر كانون الأول من عام ١٩٦٩ ، كانت وللمرة الثانية لصالح الحزب الديمقراطي الليبرالي الذي يتبع له ساتو ، ولا تزال غالبية هذا الحزب في مجلس النواب هي الغالبة اكر مما كان يتوقع ( أي انها كانت تشكل مائتين وثمانية وثمانين مقعداً من أصل أربعمائة وستة وثمانين مما كان يضم مجلس النواب ) ، فأكدنا من خلال ذلك حيقية مفاوضات جزيرة اوكيناوا ، ان مناصري العلاقات مع الولايا المتحدة الأمريكية من اليابانيين خرجوا من الحملة الانتخابية منتصرين . ان صوت ساتو سيكون مسموعاً عندما تحين الساعة لانتخاب خلف له . وبدقة قامة ، صرح نيكسون في تقريره السياسي للشؤون الخارجية ، لشهر شباط ١٩٧٠ ، وبين ان القرار الذي اتخذه حول جزيرة اوكيناوا ، كان احد القرارات الهامة ، الذي أتيح له اتخاذه منذ أصبح رئيساً .

# إخفاق تام في

# مفاوضات المواد النسيجيّة

ان مشكلة المواد النسيجية كانت أكثر دقة . ويوشيدا الذي كان حينئذ في واشنطن ، وعاد إلى القيام بدوره السرّي كوسيط ، استدعاني مساء اليوم الذي وصل فيه ساتو ، ليعلمني ان ساتو أخذ يفكر في الطريقة التي يمكن طرحها في جنيف ، لبحث برنامجنا حول تقليص عام للصادرات اليابانية النسيجية ، ويطالب ساتو التفكير بذلك حتى اليوم التالي . أظهرت دهشتي من أن التسوية التي قمنا قد آتت أُكلها . وذكرني يوشيدا في اليوم التالي أن صديقه لا يزال محافظاً على الوعد الذي قطعه بالأمس . وعند انتهاء الانتخابات اليابانية ، سيضع ساتو الاتفاقية موضع التنفيذ ، وبهذا يكون قد سحبها مما يجري من محادثات في جنيف . ولكن ساتو لا يستطيع الإقدام على ذلك ، ما لم يكن الاعلان الرسمي محتوياً على تلميح بهذا الخصوص . ومنذ اللحظة التي لا يصبح فيها حاجة لاجراء مفاوضات طالما وُجد الحل . فان ساتو لايتمكن أيضاً من اعلان ذلك سلفاً . وبالاضافة إلى ذلك ، اذا كان المقصود عزم الولايات المتحدة على التخلي عن جزيرة اوكيناوا ، لقاء حصولها على تساهلات في القضايا النسيجية ، فاننا في الوقت نفسه تخشى الاساءة إلى العلاقات الجديدة التي أوجدتها المفاوضات بين البلدين . ولأجل هذا ، فان الجزء الخاص في اعلان المتعلق بالقضايا الاقتصادية ، بُني على أحد مقترحات موري ستانس اللبقة ، وبسبب ذلك أخذت حكومة ساتو القيام بانفتاح كبير على الواردات والمنافسات الأجنبية بالنسبة لليابان . ولم يصدر أي تلميح بذلك بخصوص مشكلة المواد النسيجية .

وبالرغم من ذلك ، فان الأمور كانت تظهر في سير حسن . وخلال اليوم الثاني من المحادثات مع نيكسون ، فقد وعد ساتو وبصورة رسمية ان مشكلة المواد النسيجية ستسّوى ، ضمن ما يرغب فيه الرئيس . وتحمّل ساتو مسؤوليتها الكاملة ، معلناً ان هذا هو مبدؤه السياسي الصادق وقسمه في المحافظة على كلامه ، وأن يقوم بجهود ثابتة للصول إلى ذلك . حينئذ قال له نيكسون انه لا يطالبه بأكثر من ذلك ، وتبادل الزعيمان المصافحة بالأيدي . لم يستخدم ساتو كلمة ( عام ) ، لكن يوشيدا أكّد لي هذا المساء ، خلال محادثة جرت بيننا ، ان ساتو سيحترم تعهداتنا . وبعد

سفر ساتو إلى بلاده ، ذكرني يوشيدا في شهر كانون الأول ، بما كان ساتو وعد به ولا يزال محافظاً عليه ، وأعلمني في الوقت ذاته انه يؤكد وجود اتفاق عام حول المواد النسيجية ، ولو لم تكن هذه الكلمة قد وردت حرصاً من تعقيد أمور ساتو داخل بلاده . وكان ذلك يبدو معقولاً ، بما أن ساتو كان يدعو إلى انتخابات عامة في اليوم السابع والعشرين من شهر كانون الأول .

في المفاوضات ، لا يعقل التقدم إذا كان ذلك وفق استطاعة الامكانيات التنظيمية الداخلية لدى بلد أحد الفريقين ، اذا لم يكن في بلدي الفريقين الاثنين . ولو لم تسوِّ مشكلة المواد النسيجية نهائياً وبالطريقة التي اتفق عليها نيكسون وساتو بشأنها ، فلن يتسنى لأحد من رجال هذه الحكومة أو تلك ، ان يتفهم كيفية الوصول إلى المطلوب ، أو بمقولة أصدق ما هي حقيقة المطلوب . أن الموظفين اليابانيين من المراتب الدنيا وبطريق التسلسل ، رفضوا حالاً اقتراحاتنا الرسمية ، المرتكزة على الاتفاق الماضي ، الذي جرى وبصورة شفهية بين ساتو ونيكسون . فاستدعيت يوشيدا ، الذي كان يؤكد لي ان ساتو يحترم تعهدنا ، لكنه لن يعلنه للجمهور الياباني ، مؤملاً ان يصبح اعلانه أسهل عليه ، سواء في المجال السياسي أو المجال الاداري ، عندما يكون ناجزاً . أبلغت اليكس جونسون الموضوع ، وقلت له إننا في أوج مسرح كابوكي ، وكاد يصبح في الواقع مسرح كافكايان .

ان المباحثات الرسمّية حول المواد النسيجية بين الولايات المتحدة واليابان ، كانت آخذه مجراها على عدة سنوات . لكن الحكومة اليابانية لم تكن لنقبل باحد الاقتراحات المماثلة للتي قام بطرحها ساتو وقبل بها . كان على ساتو ان يجابه المعارضة العنيفة للصناعة النسيجية اليابانية والمدافعين عنها من وزارة الصناعة والتجارة الدولية ( M.I.C.I ) التي تعادل في اليابان وزارة التجارة لدينا . ولم تكن لديه وسيلة شرعية لفرض حلّ على صناعته الجامحة . وذات يوم ، أجرى ساتو تعديلاً وزارياً ولسوء الحظ ، فان الوزير الجديد لوزارتي الصناعة والتجارة الدوليتين M.I.C.I ظهر أنه أيضاً قليل الاستعداد كسابقه لاجراء تساهلات .

ان فريقنا عقّد المشكلة ، وحتى ان الحوار الذي اتفق عليه نيكسون وساتو يكون معمولاً به ، كان يجب علينا ان نعلن عن موقف حازم ، يسمح لساتو باظهار الاتفاق الذي جرى بينه وبين نيكسون بمظهر تسوية . غير أن موظفينا الذين يقومون بالتوسط ، فان كل ما يعرفونة كان مستمداً من معلومات أمثالهم اليابانيين ، ولم يكونوا يعتقدون ابداً ، اننا نستطيع الحصول على حلول مرضية لمتطلباتنا العامة . فامتنعوا اذاً عن تقديم ما كانوا يعتبرونه اقتراحات واقعيه ،

ولم يرغبوا على المدى البعيد في التشبث في المواقف العنيدة التي كان ينم عنها السيناريو . ولقد اقترح مفاوضونا اذاً ما كنا بيناه لهم انه النتيجة الحقيقية التي يجب الوصول اليها ، لا التصلب في مواقفنا . وكان ساتو يرى نفسه مجبراً على الانضمام إلى الموقف الأمريكي ، وهذا كان أمراً غير مرغوب لديه . وهذه التصرفات دعت إلى بعض اليأس لدى يوشيدا ، الذي كان يتهمنا بعدم الوفاء بوعودنا في ان يكون موقفنا في نهاية المطاف شيوعياً متطرفاً . وهذا كان بلا شك احدى المناسبات النادرة التي تُرى فيها حكومة أجنبية ، تطالب بتقديم اقتراحات متساهلة . وخلال هذه الفترة ، أجرى الكونغرس الأمريكي ضغوطاً كثيرة للخروج من مآزق الحرب الاقتصادية ، وأصدر نصوصاً تشريعية تفرض تخفيضات قويّة من كوتا الواردات النسيجية اليابانية ، وبدل ان تحل بتوافق ، فان مشكلة المواد النسيجية كانت تهدد بالاتجاه المجابهة .

وفي شهر شباط من عام ١٩٧٠ ، دعاني يوشيدا لزيارة اليابان ، لتسوية المشكلة ، غير مهتم أبداً لانضمامي الكلي إلى المفاوضات في قضية لا أسيطر عليها أبداً ، ولا أستطيع المشاركة الفعلية في حلها ، عند ذلك رجوت اليكس جونسون إيجاد حل آخر . فأكد علي أليكس أن استدعي ( فيل تريزيس ، الذي كان أخصائياً في الأمور التجارية لدى وزارة الشؤون الخارجية . فرفض يوشيدا ان يكون تريزيس من جملة المفاوضين لأنه ليس من المستوى المطلوب ، وكان يرغب في إشراك عضو وزارة . فوقع انتخابنا حينئذ على موري ستانس . وعندما حصل يوشيدا على ما طلب ، استدعاني بعد خمسة أيام ، ليقول لي : علينا أن نصبر . وفي الواقع فان اليابانيين لم يتوصلوا إلى تنظيم أمورهم ، وحضور موري ستانس لا يجدي شيئاً في الوقت الراهن .

ولقاء ذلك ، فان مفاوضاً يابانياً حضر إلى واشنطن في شهر آذار ، حاملاً اقتراحات ، غير كافية . واستدعاني يوشيدا للمرة الثانية ليعلمني ان الاقتراحات اليابانية لم تكن سوى ظاهرية ، لأن اليابانيين ، كان لديهم فعلاً موقف ليّن . ولم نكن انا وأليكس جونسون وموري ستانس من هذا الرأي . تلقّيت بعد ذلك عدة مكالمات هاتفية جديدة من يوشيدا كان يعدني بموجبها تقديم مقترحات أفضل ، ويرجوني عدم قطع المفاوضات . وكعادتي ، قمت بأخذ رأي أليكس جونسون وموري ستانس ، وأفهمت يرشيدا ، اننا بانتظار اقتراحاته الجديدة . ولا نستطيع في هذه الحال استباق ما قد يجري . لكن ظهر بغتة رجل أعمال أمريكي ذو أهمية ومن أنصار المبادلة الحرّة للبضائع ، وكان همّه عدم الإقدام على اصدار تشريعات تقّيد ذلك ، ذهب هذا الرجل إلى توكيد عارضاً مخطّط تسويته الخاصّة .

وبالرغم من أنه تصرف من زاوية نظره الذاتية ، فان اليابانيين انضموا تحت لواء اقتراحاته . ان اقتراحات رجل الأعمال هذا ، لم تكن مختلفة عمّا كان يقترحه وزير الشؤون الخارجية ، الذي هو نفسه كان متساهلاً ، حتى يفسح المجال لساتو لإيجاد تسوية ، ولم تكن تلك الاقتراحات لتختلف كذلك عما كان يمكن لساتو ان يقدمه ، اذا اريد تصديق يوشيدا . فلم يكن اذا مذهلاً ، ان يقبل اليابانيون وبسرعة اقتراحات رجل الأعمال تلك . وبالاستناد إلى رأي ستانس وجونسون ، اضطررت إلى استدعاء يوشيدا لأبلغه ان ذاك الرجل كان يتكلم باسمه الخاص ، ولا يمثل أيّة سلطة . وطلب الي نيكسون اجراء دراسة للموضوع مع موفد ساتو ، لأن الصفقة كانت تضم أناساً عددين . فوافقته على رأيه ، ولم يكن من الحكمة ان نفسح المجال لليابانيين الحكم على أفضلية ما يقدّم اليهم من اقتراحات من ذات اليمين وذات اليسار .

ودامت هذه اللعبة الصغيرة سنتين ، محتفظين فعلياً بالحوار ذاته . ان كيشي ميّازاوا ، وزير الصناعة والتجارة الدوليّة في اليابان ، التقى خلال زيارته لواشنطن في شهر حزيران من عام ١٩٧٠ ، ستانس وجونسون بعد موافقتي ، وحصل انطباع لدى ستانس ، ان اقتراحات ميازاوا ، كانت تعود الى جميع ما كان اليابانيون قد قبلوا به اثناء المفاوضات ، ولم يظهر فيها أي تطبيق فعلى لمخطط ساتو فوصف ذلك ستانس بوضوح انه موقف كاميكاز وهذا حدا بالرئيس الى تغيير موقف الحكومة حول تطبيق . نصوص تشريعية في تحديد الكوتا . وخاطبت نكسون وستانس عدّة مرّات ، عن رغبتي في الانسحاب من المفاوضات ، فأكدوا علي القيام به ، مشيرين إلى ان عملي من وراء الكواليس ، يبدو وكأنه الأمل الوحيد لتنظيم الجهود غير المتزنة لدى الفريقين . ان بيتر فلانيفان ، مساعد الرئيس للشؤون السياسية الاقتصادية الدولية ، تدخل في الأمور في خريف عام ١٩٧٠ ، وأجرى محاولة أخرى ، والتي فشلت كذلك . ولم يتوصل الى اتفاق مع اليابانيين .

ان رئيس الوزراء ساتو ، جاء الى أمريكا في فصل الخريف لحضور احتفالات الذكرى السنوية للأمم المتحدة . وسبقه إليهام موفده الدائم ، بالرغم اننا هذه المرة لم نكن نقصد يوشيدا . لقد أكد الموفد الجديد وبصورة أكيدة ان ساتو عند لقائه نكسون ، يقصد تسوية مشكلة النسيجيات . وهذا يكسبه شرفاً . فرجوته بدوري وبثقة أيضاً ، عدم إثارة هذه القضية اذا كان ساتو على غير استعداد للقيام بوعوده . وكان نكسون يعتقد ان هناك عوائق داخلية لا يمكن التغلب عليها . يمكن أن تعيق أحياناً أصدق نوايا رجال الدولة ، ولقد جرّب هذا بنفسه ، وان فشلاً جديداً يوشك حقيقة هدم ثقته .

إلا ان ساتو أكد على اجراء محاولة جديدة حول المشكلة . وكُرر نتاج العام السابق . وكان يزعم وكان يعلن على أية حال انه يريد الاحتفاظ بالبندين الآخرين حتى دعوته ، لكي يصار الى اتخاذ القرار النهائي بشأنهما في طوكيو قبل واشنطون . وبعد الاستئذان من نكسون طاف في السيارة حول البيت الأبيض ، ووصل الى الشارع الغربي ، وأجرى مفاجأة غير منتظرة لمن كان في مكتبي . وكان يريد ، كما كان يقول ، أن يؤكّد صحّة التزامه بوعوده بحضور مشاركتي في العمل . فأخذ اذاً بإعادة ما كان قد صّرح به إلى نكسون .

ثم عاد الى توكيو ، ولم يحدث شيء جديد حال وجوده في واشنطن . وكانت المفاوضات لاتزال في مأزق . لم أكن أشك بصدق وعود ساتو . وفي الحقيقة ، لقد كان ذكياً جداً ليقدم على مراوغات غير لبقة ، وكان شريفاً جداً ، ليتصنع أموراً ، مع بلد يحبه حباً جماً ، ورئيس كان يحترمه . وبكل بساطة ، لقد طالبناه كثيراً ، ووعدنا أكثر مما كان يستطيع ، وأصبح الآن في ارتباك عظيم ، لأنه لم يف بوعوده . فكانت المسؤوليات اذاً موزعة .

وفي بداية عام ١٩٧١ ، ان ويلبور مليز . رئيس لجنة موازنة مجلس النواب ، أنجز مخططاً وهمياً للمفاوضة مباشرة حول اتفاق مع معامل النسيج اليابانية . لكن معامل النسيج الأمريكية والبيت الأبيض ، رأيا ان ذلك غير كافٍ ورفضناه . وان دافيد كندي ، السفير المحال على الاستيداع ، ووزير المالية القديم ، كُلف باجراء المفاوضات حول مشكلة النسيجيات في عام ١٩٧١ . وانصبّ النقاش حينئذ على السياسة الاقتصادية الجديدة التي أعلنها نكسون في الخامس عشر من شهر أيلول عام ١٩٧١ . وكانت هذه المفاجأة الثانية التي أقدم عليها نكسون عام ١٩٧١، ( بعد سفره السرّي الى الصين ) . وقد كان على اطلاع تام من نتائج فشل المحادثات التجارية السابقة بين الولايات المتحدة واليابان . وكانت بالنهاية فاشلة بسلسلة من الصدمات ، وهي الآن مهددة بنظام الحصص في استيرادها بدستور ، يصار الى تنفيذه بموجب اجراءات قانون عام ١٩١٧ ، الناظم للتجارة مع العدو . ولأخذ العلم فإن اليابانيين ، توصلوا الى اتفاق مع السفير كنيدي في الخامس عشر من شهر تشرين الأول من عام ١٩٧١ .

ووجّه اللوم الى الدبلوماسية التي أسموها ( نكسون . كسينجر ) لأنها أظهرت مّرة ثانية ، عدم قدرتها على فهم طريقة السياسة التقدمية في بلد محالف ديمقراطي ، حيث يستحيل فيه على حكامه الوطنيين فرض قراراتهم كما لو كان يقصد بها صورة دكتاتورية . واذا كان حقاً ، انني لم أستطع فهم كل احتمالات الثقافة السياسية اليابانية . فلقد توصلت مع ذلك الى تفهم صحيح

للمشكلة التي كنا نواجهها . وفي الحقيقة ، لم يكن المقصود ، بالمعنى الصحيح ( المفاوضات من وراء الكواليس ) ، اذ قد كنت في الواقع مجبراً على البقاء بتماس دائم ، مع أهم الموظفين من وزارات الشؤون الخارجية والتجارة ، بالرغم من أن نكسون ، كان يطلب إلي دائماً أن أترك ذلك . ان الوزارات الأخرى . كانت ترجو صادقة دوام السلسلة التي تكونت بين ساتو والبيت الأبيض ، عسى ان تُلقي بعض الضوء على المبادلات المضطربة بين الفريقين .

ان هذا لم يكن كما عنى به البعض : في ان نكسون أبدى عدم تقدير للوعود الغامضة التي كالها ساتو ، ولذلك فقد نشأ الخلاف . ولا ننكر ، ان وعود ساتو الواضحة جدا . كان قد كررها مرّات ومرّات ، من قبل الموفد الذي كان يعينه . ويكون من الصواب ان نقول ، ان الخطأ الأساسي جرى عام ١٩٦٨ ، خلال الحملة الانتخابية ، عندما كلنا وعوداً تكلف اثماناً باهضة لأهداف كنا نمارسها في سياستنا الخارجية .

لكنه من الواضح الجلي ، ان المشكلة الحقيقية ، كانت غير هذه ، ويقصد بها نقطة على غاية من الأهمية لمستقبل جميع الصناعات الشعبية . ولو كان اليابان والولايات المتحدة وكندا وبلدان أوربا الغربية ، هي بلاد متحالفة سياسياً وعسكرياً ، فانها مع ذلك وبما لايقبل الشك تنافس بعضها في المجال الاقتصادي . وفي الواقع ، طالما ان تنظيمنا ديمقراطي ، فاننا نقوم بتوزيع قوتنا الاقتصادية ، حيث القوة السياسية تتخذ قرارات بطريقة اقتصادية . وليس هناك حكومة تعرف إلى أي مدى تستطيع ادارة سياستها الاقتصادية القومية وبطريقة مستقلة ، دون أن تثير ضغوطاً متزايدة ، مع حلفائها السياسيين ، الذين هم في الوقت نفسه خصومها التجاريون . إن معرفتنا حتى الآن قليلة في كيفية تنسيق أهدافنا الاقتصادية وتعزيز وحدة الشعوب الحرة . اننا نطري ترابط اقتصادياً ، ولكننا اخطأنا حتى الآن بالموافقة على أن هذا يفرض مقداراً ما من التبعية .

وهذا هو السبب الذي لأجله يحدث عادة اختلافات تجارية بين الصناعات الشعبية . ان الضغوط في سبيل المنافسة والحمائية التي ظهرت مجدداً ، بعد أزمة الطاقة في عامي ١٩٧٣ . ١٩٧٤ ، أغرقت العالم الصناعي طويلاً في الركود الاقتصادي . ان فشل المفاوضات بشأن المصنوعات النسيجية كان ضعفاً عظيماً في النظام الياباني ، والذي بالإضافة الى ذلك ، اتخذ في سبيله عدد كبير من القرارات المنظمة في المجال الاقتصادي . غير ان رقة السياسة الأمريكية تجاه الضغوط الحمائية ، والتي أجبرتنا على تقديم كل شيء لنصل الى اتفاق مع

اليابانيين ( في حين أنه لم يبق لدينا حيلة سوى الالتجاء الى اصدار تشريع قاسٍ ) ان هذه الرقة ذاتها تعتبر ضعفاً جلياً في نظامنا . انها البلدان الضعيفة اقتصادياً هي التي تلجأ الى الحماية ، وسيكون مفيداً لنا في وضعنا ، ان نوجه سياستنا القومية نحو طريقة تشغيل أكثر لليد العاملة وتنمية مواردنا ، لكي نتمكن من التخلي عن النشاطات الصناعية الخاسرة ، لتنمية القطاعات الأكثر نجاحاً . وان أمّة تريد البقاء في مقدمة التحالف الصناعي الشعبي ، لا تستطيع السماح لنفسها ان تحتضن تنظيماً حمائياً . ولقد سبب لنا هذا الوضع الاشتراك في منازعات ، في حين ان فن الحكم ، كان يوحي إلينا أن نثبت في المجال الاقتصادي ، المجتمع ذا المصالح الأساسية ، الذي لن يمتنع عن التظاهر ، اذا كان أمننا مهدداً حقيقة بالخطر الخارجي . والعكس بالعكس فان الخطر يكمن في المجابهات الاقتصادية التي تتزايد ، والقادرة على تكوين وحدة مصالح وأمنيات ، تحافظ على حريتنا . وبقي علينا الآن إيجاد طريقة تنهض بنا من كبوتنا وعجزنا .

❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖❖

## فهرس الكتاب